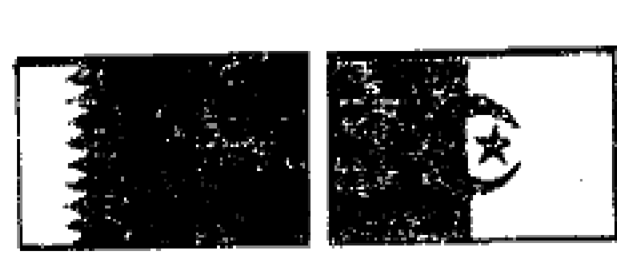
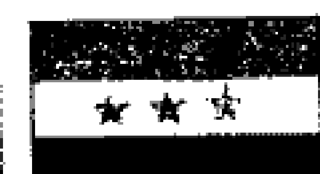
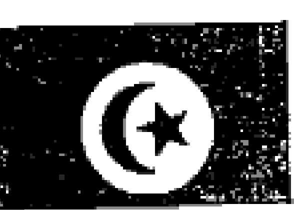
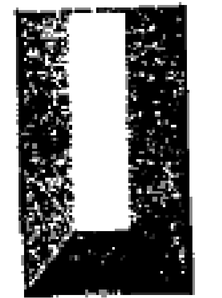
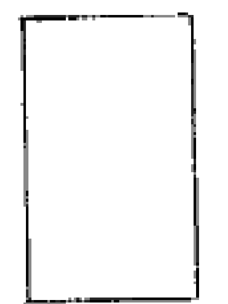
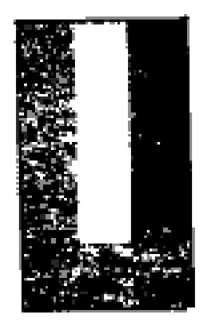
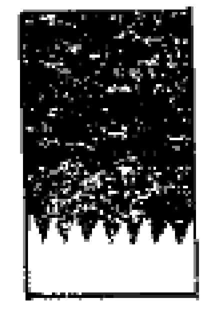
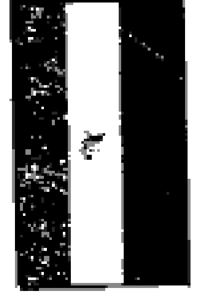
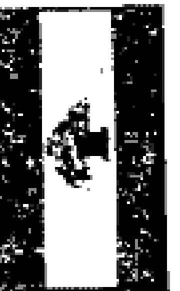
    

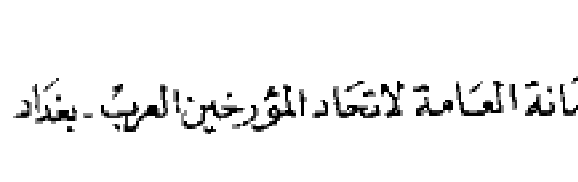





مجلة فصلية تاريخية محكمة تعنى بشؤون التراث والتاريخ العربي والعالمي



تصدر عن الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب - بغداد

العدد ٢٨ السنة الحادية عشرة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

شـــروط نشـر البحوث في المجـلة

١ - ان يعتمد البحث الاسس العلمية في اعداد وكتابة البحوث.

٢ - ان يكون منسجما مع أهداف اتحاد المؤرخين العرب.

٣ - ان لايزيد عدد صفحاته عن (٥٠) صفحة.

٤ - ان لايكون قد سبق نشره، أو قبل للنشر في مجلة اخرى، على ان يقدم كاتب البحث تعهدا يؤكد ذلك مرفقا برسالة مع البحث موجهة الى مدير التحرير.

٥ - تقبل البحوث في جميع فروع المعرفة التاريخية، وباللغتين العربية والانجليزية.

٦ - يطبع عنوان البحث على ورقة مستقلة، ويفضل ان يكون مختصرا، ويثبت اسم الباحث او اسماء الباحثين الكاملة والعنوان لكل منهم.

٧ - يطبع البحث على وجه واحد من الورقة، وتاخذ كل ورقة رقمها الخاص، ويقدم بنسختين.

٨ - في حالة البحوث المقدمة الى مؤتمرات او ندوات ، ينبغي ان يُضمّن البحث حاشية توضح اصله وينطبق هذا القول على ما كان مُستلا من دراسة اكبر .

٩ - لامور فنية خاصة بالطباعة يجب ان توحد الهوامش الخاصة بالبحث من أول هامش في البحث الى اخر هامش فيه، وتعطى تسلسلا واحدا.

١٠ - يحال البحث المقدم للنشر الى خبير مختص، ويعاد الى كاتبه لاجراء التعديلات المقترحة ان وجدت على ان يعاد الى مدير التحرير في غضون خمسة ايام.

١١ - رتبت البحوث لاعتبارات فنية وهي تعبر عن اراء اصحابها مع التاكيد على ان مجلة المؤرخ العربي منبر تاريخي قومي تنطق باسم القضية العربية الكبرى، والبحوث التي ترد للمجلة لاتسترجع الى اصحابها في حالة عدم نشرها.

١٢ - على الباحث ان يذكر اسمه وعنوان بحثه وعنوان عمله كاملا باللغة الانجليزية.

ترسل البحوث باسم مدير التحرير

ص . ب : (٤٠٨٥ بغداد - الجمهورية العراقية)

مجلة المؤرخ العربي - اتحاد المؤرخين العرب

ت : (٤٤٤٨٠٠٦)

الاشتراكات السنوية في مجلة المؤرخ العربي

١ - الدوائر الرسمية وشبه الرسمية في داخل العراق (٥٠) دينارا ، وفي خارج العراق (١٥٠) دولار امريكي .

٢ - للمؤرخين في داخل العراق (٢٠) دينارا ، وفي خارج العراق (٦٠) دولارا امريكيا .

٣ - لطلبة التاريخ في داخل العراق (١٠) دنانير ، وفي خارج العراق (٣٠) دولارا امريكيا .

هيئـــة التحـــرير

الهيئة الاستشـــارية لمجلة المؤرخ العربي



المحتويات

أولا : بحوث التاريخ الحديث والمعاصر :

ثانيا : بحوث التاريخ العربي الاسلامي :

ثالثا : بحوث التاريخ القديم :

تابع

كلمة العدد

يسرنا ان نقدم هذا الجزء الجديد من مجلة المؤرخ العربي لياخذ مكانه في المكتبات العربية والعالمية، وهو يضم بحوثا ومقالات متنوعة تناولت جوانب مختلفة من التاريخ العربي على مد عصوره، حيث ضم بحوثاً في التاريخ الحديث والمعاصر والتاريخ العربي الاسلامي اضافة الى التاريخ القديم، وساهم في كتابتها نخبة من المؤرخين العرب من ذوى الاختصاص المختلفة.

ان مجلة المؤرخ العربي هي المعبر الواقعي الملموس لاقلام المؤرخين العرب، الذين يرفدونها بصورة دائمة تعكس لمؤرخي ومفكرى العالم المنهجية العلمية التي يتميز بها المؤرخون العرب، وفي مختلف تخصصاتهم، وتعكس ايضا جدارة هؤلاء المؤرخين في اقتحام مواضيع مهمة وفاعلة في التاريخ العربي، واضعين بذلك مؤرخي العالم اجمع امام حقيقة ماثلة ان تاريخ الأمة العربية ليس أخلص له الا ابناء الامة، وانه مضى الزمن الذى كان فيه المستشرقون يعتاشون على قلب وتشويه حقائق هذا التاريخ، وبما يخدم اهدافهم واغراضهم التي دفعتهم الى النيل من تاريخ الامة العربية.

ان انتظام صدور مجلة المؤرخ العربي ليؤكد للمؤرخين والمفكرين العرب جميعا بان مسيرة الاتحاد منتظمة مزدهرة في علو وشموخ، وما يمر الزمن الا ويزداد العطاء الذى يمنحه للقضية التاريخية والعربية التراثية والمعاصرة.

واننا اذ نقدم هذا العدد من المجلة نؤكد للمجتمع العربي بان ما يصدر عن الاتحاد مستقبلا سيكون اوفر واوسع واروع.

ومن الله نستمد العون والتوفيق.

الاستاذ الدكتور مصطفى عبدالقادر النجار
الأمين العام لاتحاد المؤرخين العرب
رئيس التحـــرير

تابع المحتـويات

الخلفية التاريخية لموانئ الخليج

الدكتور محمد مرسى عبدالله
مدير مركز الوثائق والدراسات
ابوظبي

أولا : تراث موانىء الخليج حتى عام ١٥٠٠.
ثانيا : أثر ظهور البرتغاليين والقوى الأوروبية.
ثالثا : موانىء الخليج الجديدة منذ القرن الثامن عشر.
رابعا : موانىء الخليج والتنمية بعد الحرب العالمية الثانية.

أولا : تراث موانيء الخليج حتى عام ١٥٠٠ :

كان لموقع الخليج العربى في جنوب غرب اسيا مطلا على ساحل افريقيا الشرقى من ناحية، ومتصلا عبر نهرى دجلة والفرات بمنطقة البحر الابيض المتوسط، ومرتبطا عبر خليج عمان بالمحيط الهندى، كان لهذا الموقع أثره الكبير في تحديد شخصية اقليم الخليج ودور ابنائه ونشاطهم في الملاحة والتجارة الدولية عبر العصور حتى عام ١٥٠٠. لقد تجمعت في موانىء الخليج المتناثرة على شطآنه تجارة الشرق الاقصى والهند وشرق افريقيا. وعرفت موانيه فترات من الازدهار. وارتبط هذا الازدهار بقيام دول معينة وزوالها، بالاضافة الى اتفاقه مع تقلب السياسة الدولية والاوضاع المحلية في الخليج.

عرفت صحار فترات من الازدهار مع صور وميناء الابلة في العصر القديم، وبعد ان انشأ العرب ميناء البصرة سرعان ما اصبحت ميناءهم الرئيسى في منطقة الخليج لقرون عدة. ثم تحركت حركة التجارة الى ميناء سيران الذى وصل اقصى ازدهاره أيام بني بويه. وتدهور الميناء بنهاية دولتهم. وأخيرا انتهى ميراث التجارة الدولية في الخليج الى جزيرة قيس ثم مملكة هرمز، تلك المملكة التى عاصرت وصول البرتغاليين الى مياه الخليج، وكانت هذه المملكة التجارية الفنية تمتد في الخليج من القطيف والبحرين الى ساحل ايران الجنوبى وساحل الامارات الشمالية في دولة الامارات، وضمت هذه المملكة ايضا ساحل الباطنة، وتنتهى عند ميناء قريات، تلك المدينة العمانية التى قدمت لهذه المملكة اسرتها الحاكمة العربية. ولم يكن وصول البرتغاليين الى الهند ومملكة هرمز بداية فترة تاريخية فقط في تاريخ الخليج، بل مرحلة جديدة ايضا في تاريخ البلدان العربية عامة في منطقة الشرق الاوسط.

وقد برزت معالم واضحة توارثتها موانىء الخليج واهله خلال تلك القرون الطويلة نجملها فيما يلى :

١ ـ ظهور دور الانسان من سكان الخليج واهله في انتعاش حركة الملاحة والتجارة وازدهار موانيه ومرور جهد اهل الخليج في كسب الثراء العريض الذى تميزت به المنطقة طوال تاريخها الطويل. هنالك المغامرة في ركوب البحر بحثا عن التجارة. وهنالك بناء السفن والمهارة في الملاحة. وهنالك حسن السياسة والكياسة في التعامل مع التجار من ابناء الامم الاخرى. ولم يكتف اهل الخليج بذلك، بل هاجر بعض ابنائه واقاموا لهم مستوطنات وجاليات في بلاد بعيدة وهنالك قول راجح ان الفنيقيين قد خرجوا من الخليج واستوطنوا ساحل لبنان حيث انشأوا لهم مدنا تحمل اسم موانيهم القديمة في ساحل عمان. ثم ابحروا غربا واقاموا لهم مدينة قرطاجة في تونس. واستمرت هذه الظاهرة في العهد الاسلامى واقام العرب المسلمون لهم جاليات في جنوب الصين وغرب الهند وشرقى افريقيا. ولعبت هذه الجاليات دورها الحضارى في نشر الاسلام في ربوع هذه البلاد بالحكمة والموعظة الحسنة والتزاوج وحسن التعامل مع الاهالى.

لقد كان ثراء اهل الخليج وازدهار الحياة في موانيه نتيجة جهد بشرى كبير، ومهارة انسانية فائقة وكلل هذه الفترة الملاح العربى المشهور ابن ماجد بما كتبه وسجله عن فنون الملاحة وعلوم البحار التى توارثها العرب جيلا بعد جيل في الخليج. وكان ذلك اواخر القرن الخامس عشر وقبيل وصول البرتغاليين بسنوات قليلة.

٢ ـ اتساع نشاط موانىء الخليج ليمتد في منطقة الشرق الاوسط، وانشاء تكامل في الحياة الاقتصادية مع سكان البحر الابيض المتوسط. وقد ارتبط بتجارة الخليج طرق قوافل واماكن استراحة وتموين في الصحراء على طول الطريق، كما كان هنالك عقود واتفاقيات مع قبائل الصحراء لحماية القوافل.

وتنتهى هذه التجارة في موانىء على البحر الابيض وترتبط هذه الموانىء بالتالى بموانىء اخرى في اوروبا. لهذا عرف التاريخ القديم ممالك مثل تدمر والبتراء على خطوط هذه القوافل. ولقد منّ الله سبحانه وتعالى على أهل مكة بوقوعها على طريق تجارى تمر به رحلة الشتاء والصيف.

وهكذا كان ازدهار الخليج مرتبط بازدهار الحياة الاقتصادية في منطقة الشرق الاوسط. ولقد كان لتجارة مملكة هرمز وتجارة طريق

البحر الاحمر دور في الثراء الذى عرفته مصر في عهد المماليك. ويذكر لنا المؤرخون امثلة من هذا الثراء ان مهماز فرسان وحرس بعض حكام المماليك كان من الذهب الخالص. ومما لاشك فيه ان حركة بناء المدن وعمرانها، واقامة المساجد والمدارس والبيمارستانات في كل من مصر والشام والعراق انما يعود الى الازدهار الاقتصادى الذى ساهمت فيه التجارة الشرقية مساهمة كبيرة. لقد لعبت هذه التجارة الشرقية على يد ابناء الخليج وموانيه دورها الكبير في تراث الحضارة الاسلامية. ولهذا ليس غريبا ان تدرك مصر خطر ظهور البرتغاليين في المياه الشرقية. وان يعد السلطان قانصوه الغورى اسطولا بحريا كبيرا لضرب هذه القوة الاوروبية الغربية. في مياه المحيط الهندى. اذ أن حكام مصر وقتذاك يدركون تماما ان رخاء بلدهم مرتبط تماما برخاء الخليج وتجارته.

٣ ـ لقد عرف الخليج دورات من الغنى والثراء طوال تاريخه الطويل حتى عام ١٥٠٠، وليس ثراء النفط هذه الأيام بالأمر الغريب في حياة موانيء الخليج وعلى ابنائه في الماضي. ونحن اذا راجعنا كتب الجغرافيين العرب بصفة خاصة في الفترة الاسلامية الزاهية لوجدنا الكثير من الوصف الذى يعكس غنى وازدهار الحياة في موانيء الخليج. فمن بيوت حجرية عالية ذات طوابق تصل الى سبع. ومن بيوت بنيت بخشب الساج او اخشاب زنجبار وقد زينتها حدائق غناء، وتعجب بعض زوارهذه الموانيء في تلك الفترة من وجود فاكهة الشتاء في وقت الصيف في أسواق هذه المدن.

كما وصف لنا الجغرافيون العرب المصنوعات والمنسوجات المتيسرة في متاجر هذه الموانيء من المغرب ودمشق والصين. ولقد قال الرحالة الايطالي ماركو بولو جملته المشهورة بعد زيارته لمملكة هرمز :

اذا كان العالم خاتما فان هرمز جوهرته.

ثانيا : أثر ظهور البرتغاليين والقوى الاوروبية :

ظهر البرتغاليون في الهند ومياه المحيط الهندى منذ عام ١٤٩٨ كالاعصار المدمر. وقد امتلأت نفوس البرتغاليين بروح صليبية حاقدة ضد العرب والمسلمين، وضد نشاطهم التجارى العريق في المياه الشرقية. جاء البرتغاليون يدمرون الموانيء العربية على ساحل بحر العرب وعند مدخل الخليج، ويعتدون على سكان هذه الموانيء. ولم تكن السفن العربية ذات الطابع التجارى المسالم مهيأة لنزال السفن البرتغالية الكبيرة المزودة بالمدافع الحديثة. وكانت هذه السفن البرتغالية ثمرة مجهودات متتالية خلال قرن من الزمان لكشف الطريق الى الهند والتمكن من الملاحة في المحيط الاطلسى بأمواجه المتلاطمة العالية.

وفي عام ١٥٠٧ سيطر البوكيرك القائد البرتغالي على قلعة هرمز. كما اقام للبرتغاليين قاعدة جديدة لهم في جوا على ساحل الهند الغربى. وقد استمر النفوذ البرتغالي في مياه الخليج حتى عام ١٦٢٢ حينما استرد الشاه عباس هذه الجزيرة منهم. وتابع أئمة اليعاربة جهودهم لتحرير عمان، وتمكنوا من تحرير قلعة جلفار عام ١٦٣٨، كما سقطت قلاع مسقط في ايديهم عام ١٦٥٠، وهكذا زال النفوذ البرتغالي في الخليج.

كان للوجود البرتغالي في الخليج بين عام ١٤٩٨ وعام ١٦٥٠ بداية مرحلة تاريخية في حياة اهل الخليج. لقد فقدت موانيء الخليج تجارة الشرق التى كانت تجتمع فيها. وكان هذا بداية العزله والانقطاع بين موانيء الخليج والموانيء العربية على البحر الابيض المتوسط. ولم يسمح البرتغاليون للتجار العرب في الخليج الخروج الى البحر دون ترخيص منهم، واصبح الخليج سوقا لنشاط التجار والملاحين البرتغال من قاعدتهم في جزيرة هرمز، ومنع البرتغاليون تصدير الخيل من جزيرة العرب بصفة خاصة الى الهند وذلك لاضعاف قوى الدويلات الاسلامية المحيطة بهم في هضبة الدكن من الناحية الحربية.

وما ان قامت دولة اليعاربة حتى نشطت موانيء عمان في بناء السفن الكبيرة لمنازلة البرتغاليين في البحر، وتعقب العمانيون البرتغاليين في ساحل افريقيا الشرقى وحرروا الكثير منها. وفي القرن الثامن عشر ظهرت الموانيء الجديدة في الخليج، ميناء الكويت وميناء الزبارة وميناء رأس الخيمة. وظن اهل هذه الموانيء ان زوال البرتغال يعنى عودة التجارة والملاحة العربية القديمة كما كانت، ولكن موجات المستعمرين من الهولنديين والفرنسيين والانجليز تتالت وبدأ البريطانيون يفرضون سيطرتهم التجارية والسياسية بعد حملتهم على رأس الخيمة عام ١٨١٩ وذلك بعد ان سقطت الدرعية في العام السابق على يد قوات محمد علي والي مصر.

وسرعان ما بدأ يظهر أثر توقف تجارة الشرق عن الموانيء العربية في حوض البحر الابيض المتوسط. ويذكر لنا الجبرتي المؤرخ المصرى، المجاعات والقحط الذى عرفته مصر خلال القرن الثامن عشر. وقد انعكس هذا التدهور في احوال الشرق الاوسط مع توالي الزمن وتوقف العمران الزاهى الذى عرفته هذه البلاد في القرون السابقة لظهور البرتغاليين واغلقت المدارس والكثير من الخدمات التى كان ينفق عليها اغنياء التجار.

ثالثا : موانيء الخليج الجديدة منذ القرن الثامن عشر :

في أوائل القرن الثامن عشر، وعقب سقوط دولة اليعاربة في عمان عام ١٧٢٤ وزوال الدولة الصفوية في عمان عام ١٧٢٢، ظهرت حركات من الهجرة من داخل عمان ومن داخل نجد نحو السواحل العربية والايرانية للخليج. وكان من نتائج هذه الحركة ان ظهرت تحالفات كونت موانيء جديدة مثل الكويت والزبارة ورأس الخيمة وابوظبى ولنجه. وكانت هذه الموانيء نواة امارات جديدة وكيانات سياسية سوف تشكل خريطة الخليج السياسية في الوقت الحالي.

وعاشت هذه الموانيء الجديدة على النشاط البحرى من تجارة وغوص وراء اللؤلؤ وبناء السفن. وحاول سكان هذه الموانيء الحصول على حاجياتهم مباشرة من سواحل الهند وشرق افريقيا.

واصطدمت امارة القواسم الناشئة مع البريطانيين في اواخر القرن الثامن عشر وذلك بعد ان أقام القواسم لهم مركزا لاستقبال تجارة الهند في باسيدو في جزيرة كشم. وحاول القواسم توزيع هذه التجارةفي منطقة الخليج. ولكن شركة الهند الشرقية، وقد رأت تأثر تجارة وكالتها في بندر عباس من نشاط القواسم، اعتدت على مقر

تجارتهم، وانتهى الصراع بين القواسم والانجليز بالحملة البريطانية على رأس الخيمة وموانىء عمان عام ١٨١٩، ثم فرضت حكومة الهند معاهدة السلام على شيوخ الساحل. وفي هذه المعاهدة قيدت حكومة الهند حكام الامارات بعدم بناء سفن كبيرة، كما تابعت هذا البند بعد ذلك وفرضت منع بيع اخشاب بناء السفن لأهل الخليج. وهكذا اصبح اغلب سفن هذه الموانىء الجديدة الناشئة في الخليج من النوع الصغير الصالح للغوص والنقل البسيط. ويسجل لنا الدليل الجغرافي للخليج الذى اشرف عليه لوريمر بأمر من حكومة الهند عام ١٩٠٥، كيف غلب اسطول الغوص في نهاية القرن التاسع عشر على ممتلكات أهالي الموانىء، وكيف اختفت السفن الكبيرة.

ويعتبر ظهور الملاحة البخارية في مياه الخليج في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وخاصة خط الهند البريطاني للملاحة البخارية، مرحلة جديدة في احتكار حكومة الهند لتجارة الخليج، ولم يكن ظهور محطات التلغراف ومراكز البريد التى انشأها البريطانيون في موانىء الخليج منذ الستينات من القرن التاسع عشر، رمزا لظهور المدينة الحديثة في الخليج بالقدر الذى هو تأكيد ارتباط تجارة الخليج مع بومباى مقر النشاط الصناعي البريطاني في غرب الهند. وقضت المنسوجات البريطانية القطنية على الحرف وصناعة المنسوجات البسيطة القديمة المتناثرة في جنبات الخليج وخاصة في عمان. وهكذا كان فتح قناة السويس عام ١٨٦٩، وظهور هذه الوسائل الحديثة في المواصلات، سببا في تمكين النفوذ والاقتصاد البريطاني في الخليج. وكان ميناء لنجة هو الميناء المزدهر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، والذى كانت تمر به خطوط الملاحة البريطانية بانتظام. ومن هذا الميناء وزعت تجارة ومصنوعات بومباى على امارات الساحل وقطر والبحرين.

ومع النشاط الاقتصادى البريطاني المتزايد في منطقة الخليج، واحتكار بريطانيا لتجارة المنطقة، بدأت تظهر اعداد كبيرة من الرعايا الهنود، تقيم في موانىء الخليج، يعملون وكلاء للشركات والمصالح البريطانية. وكان هؤلاء الهنود يحملون بطبيعة الحال الجنسية البريطانية، ويتمتعون بنظام الامتيازات الذى تفرضه الهيمنة والاتفاقيات البريطانية مع اهل موانىء الخليج. وقد اصطدم الشيخ قاسم بن محمد بن ثاني حاكم الدوحة، وهو الميناء الناشىء الجديد في منتصف القرن التاسع عشر، مع هؤلاء الرعايا البريطانيين الذين اضروا بمصالح رعاياه ومصالح تجارته الشخصية عام ١٨٨١. وتدخل الانجليز وهددوا الشيخ قاسم الذى هدد هو بدوره بطرد كل هؤلاء الهنود من الدوحة. وفعلا قام بتنفيذ وعده وتعرض لضرب قلعته بمدافع المراكب البريطانية. وقد فسر الوكيل الانجليزي في البحرين تصرفات الشيخ قاسم بن ثاني بانه صدى لما وصل الى علم تجار اللؤلؤ العرب في بومباى من اخبار ثورة الزعيم احمد عرابى في مصر ضد النفوذ الاجنبي.

وكان آخر الموانىء ظهورا وانتعاشا في الخليج ميناء دبي. وذلك انه بعد ان سارت الحكومة الايرانية على سياسة فرض نفوذها على الساحل الايراني. واحتلت جزيرة صرى عام ١٨٨٧. ثم قضت على امارة القواسم في لنجة عام ١٨٩٩، هاجر تجار لنجة الى ميناء دبي. وبدأ هؤلاء التجار يراسلون ممثلي شركة الملاحة التجارية البريطانية في بومباى للمرور على دبى بدلا من لنجة. وفي عام ١٩٠٢ بدأت سفن هذه الشركة تزور دبى مرة كل اسبوعين. ومنذ ذلك التاريخ بدأ نشاط ميناء دبي في توزيع البضائع البريطانية والهندية على امارات ساحل عمان والجزء الجنوبي من منطقة الخليج.

وهكذا مع منتصف القرن التاسع عشر، لم يبق لاهل موانىء الخليج من مصدر للرزق غير الغوص وتجارة اللؤلؤ، وقد بلغت هذه التجارة اوجها قبل الحرب العالمية الاولى وقد منع البريطانيون استخدام بعض الاوروبيين للوسائل الحديثة في جمع اللؤلؤ خوفا على هذه الحرفة الباقية لأهل الخليج. وتخوفوا انه اذا ضربت هذه التجارة الباقية، فقد يؤدى هذا الى حالة من الضيق واليأس تسفر آخر الأمر الى الحاق الاضرار ومهاجمة كل المصالح البريطانية في الخليج.

ومع ظهور الأزمة الاقتصادية الدولية في عام ١٩٢٩، ثم ظهور اللؤلؤ الصناعي تأثرت تجارة الغوص في الخليج. وتمتلىء الوثائق البريطانية في فترة الثلاثينات من القرن العشرين بمطالبة الرعايا الهنود بديون طائلة على كبار التجار في موانىء الخليج. وهكذا مع اقتراب سنوات الحرب العالمية الثانية، كان الخليج قد سار شوطا طويلا منذ ظهور البرتغاليين في تدهور احواله الاقتصادية. فمن فقدانه للتجارة الدولية وعزلته عن بقية اجزاء الوطن العربي، الى فقد بناء سفن كبيرة والتجارة المحلية ثم ضرب تجارة اللؤلؤ. وكان من فضل الله ظهور البترول الذى غيّر أوضاع موانىء الخليج رأسا على عقب. وبسبب قرب فترة الثلاثينات وذكرياتها على أهل الخليج، ونسيان الماضي البعيد الزاهي قبل ظهور البرتغاليين. ظن الكثيرون ان الغنى والثراء الذى أتى به البترول هو شيء طارىء غريب على موانىء هذه المنطقة، ولكن الحقيقة كما ذكرها ماركو بولو في القرون السابقة، اذا كان العالم خاتما فان هرمز وموانىء الخليج كانت دائما زمردته.

رابعا : موانىء الخليج والتنمية بعد الحرب العالمية الثانية

جاء دخل البترول في الخليج مصدر ثراء جديد بعد ان وصل مد الانحسار الاقتصادى الذى ظل يعمل منذ عام ١٥٠٠ في منطقة الخليج مداه الأخير قبل الحرب العالمية الثانية. وتطورت الموانىء العربية في الخليج خلال الثلاثين عاما الماضية واصبحت مدنا عامرة حديثة ذات موانىء متطورة. كما نشأت موانىء ذات طابع جديد وهي موانىء تصدير البترول بكل امكانياتها وخصائصها. ولقد ظهر هذا الثراء وهذا الدخل في النصف الثاني من القرن العشرين في عهد تحرر الأمة العربية من الاستعمار، وظهور جامعة الدول العربية في ظروفها التاريخية المعروفة، وتطورت القوى الدولية بعد الحرب العالمية الثانية. وختم هذه التطورات الجذرية الانسحاب البريطاني من الخليج في ديسمبر عام ١٩٧١.

انه ثراء جديد ذو فائض للاستثمار، في عالم عربي ودولي جديد. ومع ان طبيعته مختلفة عن ثراء ما قبل عام ١٥٠٠، وعالمه الذى يعيش فيه عربيا ودوليا وحضاريا يختلف تماما عما كان قبل عام

١٥٠٠ ، الا انه بالفكر والتخطيط يمكن ان يكون اساس تطوير الحياة الاقتصادية في دول الخليج العربي . وكذلك اعادة الترابط الاقتصادي ، وما نسميه اليوم التكامل الاقتصادي واحياء السوق العربي المشترك ، وكلها موضوعات متداولة اليوم باقلام الاقتصاديين العرب .

مما لاشك فيه ان لكل نمو وازدهار جوانب ايجابية ، وأخرى سلبية ترافقه تحتاج البصر بها لتوجيهها الى ايجابيات . ويمكن ان نوجز بعض ملامح التنمية الحديثة في موانىء ودول الخليج في الأمور التالية :

١ ـ ان ثراء البترول محدود الزمن ، ولابد وان ترسم له خطة ليكون مصدر خير في المستقبل لأبناء الخليج . ولو اتجهت استثمارات الخليج الى وحي التاريخ والماضي واسس ثرائها قديما ، واستمعت الى صوت البيئة وما تفرضه وترسمه من خطط المستقبل ، لاهتم ابناء الخليج والموانىء باعادة مجد البحرية العربية . نحن نحتاج مشاركة اكثر في سفن نقل البترول لكسب جزء من دخل العملية البترولية في مراحلها المختلفة . ونحن نحتاج اسطولا تجاريا عربيا يزاحم السفن الأجنبية في موانىء الخليج العربية . لنسأل انفسنا كم نسبة السفن العربية التي تنقل لنا مواد التنمية الهائلة التي نحصل عليها من انحاء العالم . وكم قيمة وأجور هذا النقل البحري . بل نحن نريد ان نكتسب خبرة بشرية ملاحية عالمية . ويكون لنا قباطنة لأعالي البحار . وتعمل سفننا العربية الخليجية بين موانىء العالم كما تعمل سفن اليابان وأوروبا والولايات المتحدة . وكما تعمل سفن رجل فرد مثل أوناسيس . فرض اسمه وثراءه بأسطوله الملاحي بين موانىء العالم .

هذا الاتجاه سوف يعلي الجانب البشري والاهتمام بالعلم والثقافة والخبرة ، وسوف يعيد لنا قيمة الانسان وابن الخليج في عملية التنمية والحصول على دخل ثابت في المستقبل . ويعالج هذا القول الشائع ان دخل البترول جاء دون جهد بشري من ابناء الخليج .

٢ ـ لقد وضعت موانىء الخليج الحديثة ودولها المستقلة استثماراتها للمستقبل في المجتمع الغربي . ووصلت استثمارات عرب الخليج هنالك ٨٠ مجموع مدخراتها ، وأسباب ذلك كثيرة ومعروفة ، ولعل هذا الأمر اليوم قد اصبح محل تساؤل بعد ان ثبت ان الغرب يمكنه في اي محنة سياسية ان يصادر الأموال ، كما يواجه العالم العربي مشكلة أمن غذائي وتنمية بصفة عامة . ولو تصورنا وجود حلول جذرية لاستثمار بعض هذا الفائض الخليجي في المشروعات التي نسمع عنها عن الأمن الغذائي للأمة العربية ، لعاد الترابط الاقتصادي الذي لعبت موانىء الخليج فيه دورا رئيسيا في تاريخ الأمة العربية في الماضي . واذا ما حدث الترابط الاقتصادي ، سوف يحس العرب جميعا ان امنهم واحد وانهم جسد واحد ، وانه اذا اصاب عضو حمى ، تداعى له سائر الجسد بالسهر والعون ، ولحدث ما احس به حكام المماليك في مصر من مسئولية وثيقة للدفاع عن تجارة الشرق أيام ظهور البرتغاليين .

٣ ـ اذا أخذنا موضوع التنمية بمعناه الواسع ومغزاه القومي ، اي اشباع الحاجات الروحية والقومية لدى الأمة العربية ، لوجدنا الدور الناصع الذي لعبته موانىء الخليج ودولها في القضية الفلسطينية . لقد كان الخليج المكان الذي فتح صدره للاخوان الفلسطينيين بعد نكبة عام ١٩٤٨ . وبين جنبات الخليج ، بعد فترة من تضميد الجراح ، قام نفر من الشباب الفلسطيني وتحرك وبدأت حركة المقاومة الفلسطينية . دعمها الفلسطينيون بما جمعوا من اموال الخليج . ودعمتها دول الخليج بما أنعم الله عليها من أموال البترول .

لكن تبقى هنالك ناحية تحتاج من موانىء الخليج ان تقدمها للفكر العربي والنهضة العلمية العربية . لقد سبقنا الغرب في العلم والبحث وصارت الفجوة بيننا وبينهم واسعة جدا ونحن في حاجة الى مراكز للأبحاث متخصصة في مجالات الحياة المختلفة ، يجمع بها عدد من نخبة العلماء العرب . هؤلاء في الاقتصاد وهؤلاء في التاريخ والجغرافيا ، وهؤلاء في الطب والهندسة وعلوم الذرة ، وتتوزع هذه المراكز ومسئولياتها في دول الخليج ، وتجمع الطيور المهاجرة العربية ، ويتوقف نزيف الهجرة العلمية العربية الى خارج الوطن العربي ، لسوف تكون نهضة علمية وقومية خلال أجيال قليلة . ويكون مال الخليج وموانيه قد أسهم اليوم ، كما أسهم ثراؤه في الماضي ، في ازدهار حضارة اسلامية ذات طابع جديد ، يجمع بين الأصالة والحداثة ويعيد للأمة العربية مجدها وعزّها ويلعب فيه الخليج وموانيه كما لعب في الماضي دور شريان الحياة المتدفق .. والله الموفق .

في تقسيم المراحل التاريخية لدول نمط إنتاج المشترك الدولة "الآسيوي" تطبيق على مصر

أحمد عبدالباسط حسن
كلية الآداب - جامعة أسيوط

تتميز دول نمط انتاج المشترك - الدولة بالركود النسبي، حيث ان تطورها الاقتصادى الاجتماعى نحو الاشكال الاكثر تقدما من الانماط الانتاجية مثل العبودية والاقطاعية والراسمالية يكاد يكون منعدما، او في أحسن الأحوال - بطيئا وقد أبرز بعض الباحثين هذه الخصيصة في دراساتهم (٢).

وقد أدى هذا الركود الى عدم وضوح المراحل التاريخية الخاصة التى مرت بها دول هذا النمط. ولاجل هذا يعانى المؤرخون الذين يتبنون نظرية نمط الانتاج الآسيوى (بمختلف سيماته) من مشكلة تقسيم المراحل التاريخية الخاصة ببلادهم. كما يعانى هذه المشكلة أيضا المؤرخون التقليديون حينما يأخذون بالتقسيمات التاريخية الغربية التقليدية التى تقسم التاريخ الى عصور زمنية ترتبط بتغييرات ظاهرية مثل تغير الارستقراطيات الحاكمة (الدول) أو تغير المظاهر الحضارية الفوقية. اذ لاتتفق بدايات ونهايات العصور التاريخية الاوروبية مع بدايات ونهايات العصور التاريخية في دول العالم الثالث اى دول نمط انتاج المشترك - الدولة

وبالنسبة لتاريخ مصر، فانه نتج عن الاخذ بهذه التقسيمات الغربية البورجوازية وتقسيماتها (العصور القديمة، الوسيطة، الحديثة، المعاصرة) عديد من الاشكاليات المنهجية والدراسية. واهم هذه الاشكاليات هى :

أ) اشكاليات التاريخ القديم :

المعروف أنه يوجد خلاف كبير بين المؤرخين الغربيين البورجوازيين حول تحديد نهاية ما يسمى بالتاريخ القديم وبداية ما يسمى بالعصور الوسطى اذ توجد عديد من التواريخ - تزيد عن العشرة - التى تحدد هذه النهاية وتلك البداية. وأهم هذه التواريخ هى السنوات

٣١٢ م (اعتناق قسطنطين المسيحية)
٣١٣ م (اعلان حرية العقيدة في الامبراطورية الرومانية)
٣٢٤ م (تولى قسطنطين حكم الامبراطورية)
٣٢٥ م (مجمع نيقية المسكونى).
٣٣٠ م (تأسيس القسطنطينية)
٣٩٥ م (تقسيم الامبراطورية الرومانية)
٤١٠ م (فتح روما على يد الاريك القوطى)
٤٧٦ م (سقوط روما في يد ادواكر).
٨٠٠ م (تتويج شارلمان امبراطورا)

والملاحظ انه يوجد فارق زمنى كبير بين أول تاريخ (٣١٢م) واخر تاريخ (٨٠٠م) يكاد يبلغ خمسمائة عاما. وهذا الفارق قد يضيع في هذه التخبطات الزمنية، او يعتبر كعصور وسطى مبكرة.

وبالنسبة لمصر، لا تتفق هذه التواريخ جميعها، او غيرها، مع بداية أو نهاية الفترة البيزنطية التى تبدأ اصطلاحا في عام ٢٨٤ م، وتنتهى في عام ٦٤٢ م عند الفتح العربى الاسلامى. وقد نتج عن هذا ان البعض قد اعتبر هذه الفترة امتدادا للتاريخ القديم في مصر، بينما اعتبرها آخرون - وهم الاغلبية - في نطاق تاريخ العصور الوسطى - من وجهة نظر التاريخ البيزنطى.

ب) اشكاليات تاريخ العصور الوسطى :

أدى الفتح العربي الاسلامى لمصر الى نشأة عديد من المشاكل للدراسة التاريخية، فقد اعتبر بعض المؤرخين التقليديين ان الفتح العربى الاسلامى لمصر الذى واكب تحولات هامة في اوروبا - من وجهة نظرهم - دفعتها الى ابواب العصور الوسطى - هذا اذا لم تكن قد دخلتها بالفعل - اعتبروا ذلك بداية للعصور الوسطى في مصر. وهؤلاء يضافون الى من يعتبرون ان الفترة البيزنطية هى البداية الحقيقية للعصور الوسطى في مصر.

ويضاف الى هذا الاختلاف، اختلاف آخر حول تحديد نهاية هذه العصور «الوسطى».

فالمعروف ان تحديد نهاية العصور الوسطى الاوروبية غير متفق عليه ايضا بين المؤرخين البورجوازيين الاوروبيين. هذا اذا سلمنا بوجود تاريخ واحد عبرت فيه كل دول اوروبا معا عصورها الوسطى. والتاريخ الشائع بين اكثر المؤرخين هو عام ١٤٥٣ وهو عام سقوط القسطنطينية على يد العثمانيين.

وبالنسبة لمصر، يرى بعض المؤرخين ان العصور الوسطى الاسلامية تنتهى بعام ١٥١٧ م بدخول العثمانيين مصر. وبعض اخر يرى هذه النهاية في عام ١٧٩٨ م (الحملة الفرنسية) وبعض ثالث ينهيها بحكم محمد علي (١٨٠٥). وهناك اتجاه ضعيف بتقسيم العصور الاسلامية الى فترتين.

— فترة العصور الاسلامية القديمة (؟) وتنتهى بسقوط الدولة الفاطمية.

ـ فترة العصور الاسلامية الوسطى وتشمل الدولتين الايوبية والمملوكية.

وأخيرا يرى بعض المؤرخين في الشرق (وبصفة خاصة في الهند). وفي الغرب (وبصفة خاصة المدرسة الامريكية الاستعمارية) ان التاريخ الاسلامى يمتد حتى ايامنا هذه.

وقد أدى الى هذا الاختلاف في تحديد نهاية العصور الوسطى في تاريخ مصر اسباب ثلاثة هي :

١ ـ الخلط بين العصور الوسطى الاوروبية وبين التاريخ البيزنطى، حيث اعتبر البعض ان بداية التاريخ البيزنطى ملازمة لبداية العصور الوسطى الأوروبية. ومنها أتى اعتبار بعض المؤرخين ان بداية الفترة البيزنطية في مصر هي بداية للعصور الوسطى بها.

٢ ـ الربط بين ظهور الاسلام والفتح الاسلامى لمصر وبين العصور الوسطى الاوروبية وهذا اوقع في اشكالية عدم توافق استمرار الاسلام مع انتهاء العصور الوسطى.

٣ ـ ربط فترة الحروب الصليبية بتاريخ الدول المعاصرة لها في مصر (الدولة الفاطمية ـ الدولة الايوبية والدولة المملوكية) واعتبر المتخصص في تاريخ هذه الدول متخصصا في تاريخ العصور الوسطى الاوروبية (وهذا تقليد شائع في مصر على الرغم من خطئه علميا).

وقد أدى هذا الاضطراب التاريخى الى التخبط في تحديد انتماءات بعض الفترات للعصور التاريخية : مثل الفترة العثمانية التي يعتبرها البعض امتدادا لتاريخ العصور الوسطى الاسلامية، بينما يعتبرها آخرون بداية للتاريخ الحديث في مصر بدعوى احداث وضع جديد في الدول العربية الاسلامية وبخاصة في مصر.

جـ) اشكاليات التاريخ الحديث :

انعكس الاضطراب الحادث في تحديد نهاية التاريخ الاسلامى او العصور الوسطى الاسلامية في تحديد ما يسمى بالعصور الحديثة. فقد اختلف المؤرخون التقليديون ـ كما سبق ان اشرت ـ في تحديد انتماء الفترة العثمانية : هل هي امتداد للعصور الوسطى الاسلامية، أم هي بداية للعصور الحديثة ؟ وهناك من المؤرخين ـ كما سبق القول ـ من يحدد بداية هذه العصور بالحملة الفرنسية (١٧٩٨) او حكم محمد علي (١٨٠٥).

والمقاييس الفكرية وراء هذه التحديدات الزمنية غير محددة او موجدة. فهي التجديث Modernization تارة (كما في حالة الأخذ بالتواريخ ١٧٩٨، ١٨٠٥) وهي متابعة سياسة محورة الذات الاوروبية تارة أخرى (كما في حالة الأخذ بالتاريخ ١٥١٧ الذى يكاد يقترب الى حد كبير من بداية العصور الحديثة الاوروبية). وفي كلتا الحالتين ـ كما في معظم تقسيماتنا التاريخية ـ هناك ارتباط ما بمحورة الذات الاوروبية

وأخيرا تأتي مشكلة التاريخ المعاصر. فعلى الرغم من عدم دقة ومنهجية هذا المصطلح، فان مؤرخي هذه الفترة يختلفون ايضا في تحديد بدايتها. فبعضهم يراها في عام ١٨٨٢ (الاحتلال البريطاني) والبعض الآخر يراها في عام ١٩١٩ (الثورة المصرية). كما انهم لم يحددوا بعد نهاية لها. واعتقد انهم لم يفكروا بعد بماذا سيسمون الفترة القادمة التى تلى هذه. ويبدو انهم سيتركون هذه المشلكة للاجيال القادمة.

اشكالية تفسير تاريخ مصر في ضوء نمط انتاج المشترك ـ الدولة باستخدام التقسيم البورجوازى الغربى :

وعندما نفسر تاريخ مصر في ضوء نمط انتاج المشترك ـ الدولة فاننا لن نستطيع ان نضع مراحل تاريخية حضارية واضحة تستند على أسس اقتصادية اجتماعية كما تستند المراحل الخمس (المشاعية، العبودية، الاقطاعية، الراسمالية، الاشتراكية) التى تنطبق بحق ـ وبخاصة المراحل الاربعة الاولى منها ـ على تاريخ دول اوروبا.

وقد اظهرت بعض الدراسات الحديثة (٣)، ان مصر بدأت تخرج من نمط انتاج المشترك ـ الدولة في النصف الأول من القرن التاسع عشر بتأثير اعمال محمد علي الاقتصادية في الريف المصرى التى أدت الى تحلل المشترك القروى الذى يمثل الاساس الاقتصادى والاجتماعى للنمط.

وعلى هذا هل يمكن تقسيم تاريخ مصر الى فترتين او عصرين كبيرين اولهما يبدأ ببداية ظهور المشترك القروى والدولة المركزية في بداية العصر الفرعونى، وينتهى في منتصف القرن التاسع عشر، وثانيهما يبدأ من هذا التاريخ ويمتد حتى الآن. ان تصور هذا التقسيم غير علمى من وجهتين :

١ ـ الوجهة المنهجية : حيث ان التقسيم الى مراحل تاريخية يساعد كثيرا في الدراسة المتخصصة المتعمقة.

٢ ـ الوجهة العلمية التاريخية : حيث ان على الرغم من صحة التحليل المذكور فان الدراسات المشار اليها سابقا قد أظهرت ايضا انه في بعض الفترات التاريخية كانت تحدث تحولات في نمط انتاج المشترك ـ الدولة كانت تغير بعض ملامحه الى ملامح أخرى. مثل ظهور ما يشبه الاقتصاد السلعى (النقدى)، ومثل ظهور بعض اشكال الملكية الخاصة وانتشارها لدرجة ظهور بعض الملامح الاقطاعية. ولكن هذه التحولات لم تكن من القوة لدرجة تخرج مصر من هذا النمط الى انماط اقتصادية اكثر تقدما مثل العبودية أو الاقطاعية ففترات التحول هذه تحتاج ان تدرس دراسة اكثر تعمقا لتبين أسبابها ومعوقاتها، وقد تصبح فترات تاريخية نمطية خاصة في تقسيم تاريخى أشمل.

وفي ضوء هذا فانه لا يمكن لنا الأخذ بالتقسيم التقليدى الغربى للعصور التاريخية حيث انه ـ بالاضافة الى محورته لتاريخ مصر على تاريخ اوروبا ـ فانه مبنى على تحولات فوقية لاتتناسب وتقسيم تاريخ مصر في ضوء نمط انتاج المشترك ـ الدولة. وهذا ينطبق ايضا على بقية دول هذا النمط.

لكل ما سبق فانني اضع هنا تصورا لتقسيم تاريخ مصر، بوصفها احدى دول نمط انتاج المشترك ـ الدولة ونموذجا هاما لها. [illegible] ـ الذى يمكن ان نسميه التقسيم الحقبى Classification-Periodic [illegible] التقسيم التاريخى الحالى للعصور [illegible] على التحديدات الزمنية الموجودة للعصور

التاريخية والاتفاق على بدايات ونهايات محددة واحدة. ثم الغاء كافة مسميات العصور التاريخية مثل التاريخ القديم، التاريخ الوسيط، التاريخ الحديث.. الخ، او التاريخ الاسلامي، او العثماني.. الخ. ثم تقسيم العصور التاريخية الى حقب Periods وفترات Epochs متوالية تعطى ارقاما ترتيبية.

ولكي أوضح هذا التصور فانني اضع تقسيما لتاريخ مصر طبقا له :

١ ـ الحقبة الأولى : ما قبل الاسرات.

٢ ـ الحقبة الثانية : من بداية الاسرات حتى نهاية العصور الفرعونية، أى حتى عام ٣٣٢ ق. م (فتح الاسكندر).

٣ ـ الحقبة الثالثة : وتمتد من عام ٣٣٢ ق. م حتى عام ٦٤٢ م (الفتح العربى) وتشمل ثلاث فترات :

أ) الفترة الأولى First Epoch: من عام ٣٣٢ ق. م وحتى عام ٣٠ ق. م (وهى الفترة التى تسمى الآن العصر البطلمى او الاغريقى).

ب) الفترة الثانية Second Epoch : من عام ٣٠ ق. م وحتى عام ٢٨٤ م (وهى الفترة التى تسمى الآن العصر الرومانى).

جـ) الفترة الثالثة Third Epoch : من عام ٢٨٤ م وحتى عام ٦٤٢ م (وهى الفترة التى تسمى الآن العصر البيزنطى).

٤ ـ الحقبة الرابعة : وتمتد من عام ٦٤٢ م وحتى عام ١٥١٧ م (الفتح العثمانى). وتقسم هذه الحقبة الى فترات متوالية، وكل فترة تشمل حكم دولة او دولتين من الدول الاسلامية التى حكمت مصر حتى قدوم العثمانيين.

٥ ـ الحقبة الخامسة : وتبدأ من عام ١٥١٧ م وتشمل الفترات الآتية :

أ ـ الفترة الأولى : من عام ١٥١٧ وحتى عام ١٨٠٥ (وهى الفترة التى تعرف الآن بالعصر العثمانى).

ب ـ الفترة الثانية : من عام ١٨٠٥ م وحتى عام ١٩١٩.

جـ ـ الفترة الثالثة : من عام ١٩١٩ وحتى عام ١٩٥٢ م.

هوامش ـ في تقسيم المراحل التاريخية

(١) سبق ان طرحنا هذه التسمية للنمط الشائع باسم «نمط الانتاج الاسيوى» في دراسة عن الرقيق في مصر في العصر الرومانى ـ وهى في سبيلها الى النشر الآن ـ وبينا الدواعي المنهجية والنظرية التي دفعتنا الى طرحها

(٢) انظر على سبيل المثال، محمد علي نصر الله، اضواء على «نمط الانتاج الاسيوى» في احمد صادق سعد (مترجم وناشر) ست دراسات في النمط الاسيوى للانتاج، بيروت ١٩٧٩ ص ٦١ ـ ٨٢، ومقالات اخرى في نفس المؤلف المذكور

(٣) جبريل البير، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، ترجمة محمد عبدالخالق لاشين، عبدالحميد فهمي الجمال القاهرة ١٩٧٦.

احمد صادق سعد، نشأة التكوين المصري وتطوره، بيروت ١٩٨١، ص ١٠٣

الصراعات الدولية والإسكندرونة

الدكتور
يقظان سعدون العامر
كلية التربية - جامعة البصرة

تمثل هذه الدراسة اضمامة جديدة الى تلك الشحة القليلة والضئيلة جداً من الدراسات العربية التي تناولت بالبحث التاريخي مقاطعة الاسكندرونة، مستقصية بعض الجوانب الهامة التي اهملتها او تغافلتها تلك الدراسات القليلة. ولذا فان أهمية هذه الدراسة الحالية تنبع من كونها تهدف الى كشف واستجلاء أهمية الموقع الاستراتيجي لهذه المقاطعة وآثارها في سياسات الدول الاوروبية الكبرى وما نتج عن ذلك من صراع طاحن لتحقيق مصالح وسياسات هذه الدول وعلى وجه الخصوص خلال الربع الاخير من القرن التاسع عشر وكذلك النصف الأول من القرن الحالي.

تقع مقاطعة الاسكندرونة في أقصى الشمال الغربي من سوريا، ويقع بين مدينة الاسكندرونة ومدينة انطاكيا مضيق بيلان الجبلي «الذي كان المفتاح المؤدي الى قلب الامبراطورية العثمانية - اي الى آسيا الصغرى» (١). وكانت الاسكندرونة اثناء السيطرة العثمانية تابعة الى ولاية حلب التي كانت جزءا من سوريا. واستوطن الاسكندرونة «العرب وأقلية من الاتراك والاكراد» (٢). ويعتبر ميناء الاسكندرونة احد الموانى الرئيسية للتجارة الخارجية في سوريا حيث الواردات اكثر من الصادرات (٣). أضافة الى ذلك، انها كانت من أهم المراكز التجارية لجميع الاقاليم المجاورة حتى بلاد فارس. ففي القرن الثامن عشر، كانت القوافل القادمة من بلاد فارس تتجه اليها مرتين في السنة حاملة الحرير والاصواف. هذا وكانت تجارة الاسكندرونة مع مرسيليا، على سبيل المثال، لابأس بها. فبلغت نسبة ما صدرته مرسيليا وتم تفريغه في ميناء الاسكندرونة عام ١٧٨٤ - ١٤ ٪ من مجموع ما تم تفريغه في موانيء الساحل الشرقي للبحر المتوسط. اما نسبة ما تم تصديره من ميناء الاسكندرونة الى مرسيليا من المجموع الكلي فقد بلغت ١٥ ٪ (٤). وعلى الرغم من تشييد ميناء بيروت خلال الفترة ١٨٩٠ - ١٨٩٥، فقد ظل ميناء الاسكندرونة من أهم الموانيء حيث بلغ مجموع عمليات الشحن العام فيه عام ١٩١٠ - ٦٣٢٫٠٠٠ طن أي خمس المجموع الكلي لعمليات شحن موانيء الساحل الشرقي للبحر المتوسط (٥).

وبما ان الاسكندرونة كانت جزءا من سوريا، فلابد من معرفة أهمية الموقع الاستراتيجي لسوريا بشكل عام والاسكندورنة بشكل خاص. فالدول الاوروبية بشكل عام وبريطانيا وفرنسا بشكل خاص خاضت تنافسا شديدا على سوريا. ويرجع التنافس الاستعماري البريطاني - الفرنسي على سوريا الى القرن الثامن عشر (٦). فمنذ الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨، حاولت فرنسا الحصول على موطيء قدم لها على السواحل الشرقية للبحر المتوسط. ولكن بريطانيا كانت لها بالمرصاد باستثناء الاحتلال الفرنسي المؤقت لجبل لبنان ابان الازمة اللبنانية لعام ١٨٦٠ - ١٨٦١، عندما وافقت الحكومة البريطانية على خطة لانزال قوات فرنسية تمثل الدول الاوروبية في لبنان بحجة اعادة الأمن والاستقرار الى ذلك الجزء من الدولة العثمانية (٧). وباستثناء هذه الحادثة فان بريطانيا افشلت جميع خطط فرنسا في شرق البحر المتوسط. فالقضاء على محمد علي باشا، وشراء اسهم قناة السويس من الحكومة المصرية عام ١٨٧٥، وفشل السياسة الفرنسية في مصر والذي انتهى باحتلال بريطانيا لذلك البلد عام ١٨٨٢ (٨). وكذلك حادثة فاشودا Fashoda عام ١٨٩٩، كلها امثلة للتنافس البريطاني في تلك المنطقة (٩). ولكن عندما عقد مؤتمر برلين في حزيران ١٨٧٨، لمناقشة بنود معاهدة سان ستيفانو San Stefano (١٠). وعدت الحكومة البريطانية، على لسان وزير خارجيتها اللورد سالزبوري Loyd Salisbury فرنسا «بان تعترف بطريقة خاصة بالمطلب الفرنسي القديم لحماية المسيحين اللاتين في سوريا، مقابل اعتراف فرنسا بالاحتلال البريطاني لجزيرة قبرص» (١١).

كانت غاية الحكومة البريطانية بعد النصف الثاني من القرن التاسع عشر ربط البحر المتوسط بالخليج العربي بسكة حديد. وبالفعل، فقد تأسست شركة سكة حديد وادي الفرات البريطانية Euphrates Valley Railway Cowpany عام ١٨٥٦ وتمكن الجنرال جسني F.R. Ghesney في العام الثاني من الحصول على امتياز سكة حديد من الاسكندرونة الى مدينة البصرة (١٢). ولكن معارضة الحكومة البريطانية للمشروع وفتح قناة السويس ادى الى التخلي عن المشروع مؤقتا (١٣). ظهر المشروع من جديد عام ١٨٧١ عندما عين مجلس العموم البريطاني لجنة خاصة لدراسة

مشروع سكك حديد الاسكندرونة ـ البصرة. وتأجل المشروع مرة اخرى بسبب الاحتلال البريطاني لمصر عام ١٨٨٢ حتى الغي نهائيا عام ١٨٨٦ (١٤). وعلى الرغم من تخلي الحكومة البريطانية عن مشروع السكك الحديدية، الا ان موقع الاسكندرونة اثار اهتمام الحكومة البريطانية. فقد شهد العقد السابع من القرن التاسع عشر انتفاضة شعوب البلقان ضد الهيمنة العثمانية. وانتهزت روسيا القيصرية الفرصة للتدخل الى جانب العناصر السلافية التي سحقت القوات العثمانية انتفاضتها. لذا اعلنت روسيا الحرب ضد الدولة العثمانية، وبدات قواتها بالزحف نحو القسطنطينية وارمينيا، والتي هي عبارة عن «الخطوة الاولى للزحف نحو خليج الاسكندرونة» (١٥)، اثار التقدم الروسي الحكومة البريطانية. فقررت احتلال «مواقع» في الشرق. أثير موضوع الاحتلال مرة ثانية عندما عقدت الحكومة البريطانية اجتماعات في ٢٧ آذار ١٨٧٨، وقررت ان تقوم حملة عسكرية هندية باحتلال قبرص والاسكندرونة (١٦)، سواء بموافقة السلطان العثماني عبدالحميد (١٨٧٦ ـ ١٩٠٨) او رغما عنه (١٧). واقترحت الحكومة البريطانية ضمان عوائد كل من قبرص والاسكندرونة الى السلطان العثماني (١٨)، وكان الهدف من وراء احتلال هذين الموقعين هو انهما «سيعيقان التقدم الفعلي الروسي.. الى خليج الاسكندرونة» (١٩)، وانه «سيتم مد سكك حديدية.. في بلاد ما بين النهرين من الاسكندرونة.. سواء من قبل الحكومة البريطانية او بمساعدتها» (٢٠)، ولكن الحكومة البريطانية تخلت عن فكرة احتلال الاسكندرونة لانها خشيت تدهور علاقاتها مع الدول الاوروبية وخاصة فرنسا التي تعتبر سوريا منطقة نفوذ فرنسية على الرغم من معرفة الحكومة البريطانية بان موقع الاسكندرونة اكثر فائدة من تلك التي تتمتع بها قبرص (٢١).

اما روسيا فكانت تنظر الى الاسكندرونة على انها ميناؤها في المستقبل (٢٢)، وانها مصممة للوصول اليها (٢٣). علاوة على ذلك، انه عند حصول شركة سكك حديد الاناضول الالمانية على امتياز مد سكك حديد برلين ـ بغداد، وتصميم تلك الشركة على مد سكك حديد فرعية كالتي بين اضنة والاسكندرونة (٢٤)، اعلنت روسيا وبصراحة معارضتها للمشروع لانه يتعارض مع مشروعها المقترح بمد سكك حديد بين ارمينيا والاسكندرونة والذي اذا تم تنفيذه فانه سيمنح البضائع الروسية منفذا جيدا خلال السنة، أي الوصول الى المياه الدافئة (٢٥).

الا ان السنوات ١٩٠٠ ـ ١٩١٤، شهدت نشاطات مكثفة وخاصة من الفرنسيين لتعزيز نفوذهم الاقتصادي والسياسي والديني في سوريا، لقد نظر الفرنسيون الى البريطانيين كمنافسين رئيسيين لهم في سوريا. والواقع، ان الادلة تؤيد بانه على الرغم من اعترافها بالاهمية الاستراتيجية لسوريا، وانها تهدف، كما تهدف فرنسا ايضا، الى الحد من توسع النفوذ الالماني في المقاطعات العثمانية. الا ان بريطانيا حاولت مرات عديدة اما الحد من النفوذ الفرنسي او الحصول على هيمنة بريطانية في سوريا لتستخدمها كنقطة مساومة في حالة انهيار الحكم العثماني (٢٦). يضاف الى ذلك ان بريطانيا اعتقدت ان النفط متوفر في سوريا. لذلك دخلت في وقت لاحق في مفاوضات مع الاتراك، هدفها الحصول على امتياز التنقيب عن النفط في بلاد ما بين النهرين وشبه جزيرة العرب بالاضافة الى سوريا. فاعيد اقتراح مشروع مد سكك حديد من الاسكندرونة مارة بحلب متخذة من وادي الفرات مسارا لها حتى مدينة بغداد. ويعود سبب هذا الاقتراح الى ان مجموعتين من اصحاب رؤوس الاموال الفرنسيين اظهروا اهتمامهم بمد سكك حديد تربط البحر المتوسط ببلاد ما بين النهرين (٢٧)، ولكن المشروع الفرنسي لم يحالفه الحظ بسبب المعارضة البريطانية، وكذلك حصول بريطانيا خلال محادثات ١٩١٣ ـ ١٩١٤ مع تركيا على امتياز يعطي بريطانيا وحدها حق ربط سوريا وبلاد ما بين النهرين بسكك حديد (٢٨). يضاف الى ذلك ان اهتمام الحكومة البريطانية باتخاذ الاجراءات اللازمة للدفاع عن قناة السويس جعلها تهتم بأهمية الموقع الاستراتيجي لسوريا بالنسبة الى قناة السويس، مما جعل سوريا عاملا للتوتر في العلاقات البريطانية ـ الفرنسية. فمنذ النزاع حول سيناء عام ١٩٠٦، وضعت لجنة الدفاع الامبراطوري Committee Of Imperial Defence خططها في حالة الهجوم على الجناح الشرقي من قناة السويس. وفي العام التالي تم تشكيل لجنة فرعية برئاسة اللورد مورلي Lord Morley وزير الدولة لشئون الهند لدراسة الاحتياجات العسكرية للامبراطورية في حالة الدفاع عن قناة السويس. فبعد ان ايقنت اللجنة ان جزءا ما من سوريا يجب احتلاله لتتخذ كنقطة انزال للقوات البريطانية في حالة الدفاع الهجومي عن قناة السويس، حددت ثلاث مناطق للغرض اعلاه وهي بيروت والاسكندرونة وحيفا. استبعدت اللجنة بيروت وكذلك الاسكندرونة لبعدها عن قناة السويس، وفضلت حيفا لقربها ولموقعها الاستراتيجي. ونتيجة لذلك، قامت بريطانيا بعمليات استطلاع في لبنان وفلسطين ومنطقة سيناء ـ النقب في السنوات التالية مما اثار شكوك فرنسا من هذا النشاط البريطاني. ومما زاد من هذه الشكوك قيام موظفين بريطانيين معينين في مصر بزيارات الى لبنان وسماحهم بنشر مقالات مناوئة لفرنسا في الجرائد العربية الصادرة في القاهرة (٢٩)، لذلك بدأت فرنسا منذ اواسط عام ١٩٠٩ بتوضيح سياستها تجاه سوريا لدى الحكومة البريطانية مؤكدة تصميمها على المحافظة على نفوذها في سوريا ولبنان. وكان عام ١٩١٢ عاما حاسما في العلاقات البريطانية ـ الفرنسية فيما يتعلق بسوريا، خاصة بعد ان افصحت فرنسا عن مخاوفها تجاه التقارير التي تردها من موظفيها والتي تؤكد على عزم بريطانيا لضم سوريا الى مصر. وبدأت مراسلات بين السفير الفرنسي في لندن بول كامبون Paul Cambon والسير ادورد كري Sir Edward Grey وزير الخارجية البريطانية في ٢٦ تشرين الثاني ١٩١٢ وانتهت في الخامس من كانون الاول من نفس العام باعلان كري الشهير الذي اكد فيه بانه ليس لبريطانيا نية في ضم سوريا الى مصر وانه ليست لها اية مطامع في سوريا (٣٠). ولكنه اعلن بوضوح ان ذلك لايعني اعتراف بريطانيا بالنفوذ الفرنسي في سوريا «وان ما قلته بصدد سوريا لايعني تغير الوضع الراهن والذي هو هدفنا» (٣١).

وفي الحقيقة ان فرنسا قد جابهت ايضا محاولات المانيا

القيصرية لتعزيز مصالحها في سوريا. الا انه امكن التوصل الى اتفاقية بسبب المبادرة التى قام بها اصحاب المصالح الفرنسيين. وبموجب هذه الاتفاقية التى تم التوقيع عليها في ١٥ شباط ١٩١٤، قسمت مناطق نفوذ سكك الحديد الالمانية والفرنسية في سوريا. واحتفظ الالمان على نفوذهم حول خليج الاسكندرونة، وابعدوا نفوذ السكك الحديد الفرنسية حتى جنوب مدينتى حلب واللاذقية (٣٢) وفي الحقيقة، ان موقع الاسكندرونة الاستراتيجى قد جذب انتباه المانيا. ففى ١٥ تشرين ١٩١٤ سأل المستشار الالمانى بيثمن هولويك Bethman Hollweg الأدميرال هوكو فون بوهل Hugo Von Pohl عن خطط المانيا فى الجبهة الشرقية . فابلغه ان المانيا ستحتل الاسكندرونة لتستخدمها كقاعدة بحرية (٣٣) ، وعلى كل حال فان الفرنسيين وقعوا ايضا معاهدة أخرى مع تركيا فى ٩ نيسان ١٩١٤ وبذلك ضمنوا نفوذهم فى سوريا (٣٤) .

وعلى اثر نشوب الحرب العالمية الأولى ودخول الامبراطورية العثمانية الحرب الى جانب المانيا وحلفائها في تشريها الأول ١٩١٤ (٣٥)، ازداد الارهاب التركى ضد العرب في سوريا مما زاد تذمرهم من الحكم العثمانى. وبدأت الاستعدادات للثورة والتخلص من هذا الحكم. وبعد ترشيح الحسين، شريف مكة، لتزعم الثورة (٣٦)، عرضت بريطانيا على الشريف حسين (٣٧) مشروعا يتضمن انه اذا ساعد العرب بريطانيا فان الاخيرة تتعهد بان تمنع اى تدخل في بلاد العرب وان يمنح العرب كل مساعدة ضد اي اعتداء خارجي يقع عليها. ويظهر انه ليس في نية بريطانيا دعم ثورة عربية كبرى، لان العرض البريطانى كان مقتصرا على عرب الحجاز (٣٨). الا ان شريف مكة، الذى وافقت الجمعيات العربية السرية على ان يبدأ هو بالثورة في الحجاز، اتصل بتلك الجمعيات التى عينت حدود البلاد العربية الاسيوية التى ستنال استقلالها. فقد حددت الحدود الشمالية من خط مرسين ـ أضنه حتى العمادية وحدود فارس. اي ان الاسكندرونة تقع في الجزء الذى يجب ان ينال استقلاله (٣٩).

استؤنفت مفاوضات حسين مع الانجليز الذين مثلهم السير هنرى مكماهون Sir Henry Macmahon المفوض السامى البريطانى في القاهرة وقد أثيرت مسألة تحديد المنطقة التى ستنال استقلالها. فأعتقد مكماهون ان تحديد المنطقة سابق لاوانه لان الحرب لازالت قائمة ولازالت غالبية المناطق موضـوع البحث تحت الاحتلال التركى. الا ان الحسين رد على مكماهون بقوله «ان هذه الحدود المطلوبة ليست لرجل واحد نتمكن من ارضائه ومفاوضته بعد الحرب، بل هى مطلب شعب يعتقد ان حياته في هذه الحدود وهو متفق باجمعه على هذا الاعتقاد.. وفوق هذا، فان العرب لم يطلبوا في تلك الحدود مناطق يقطنها شعب اجنبى بل كان ما يصرون عليه هو توحيد البلاد التى تسكنها فروعهم المنحدرة من اصل واحد» وأوضح الحسين «بانى لست أنا شخصيا الذى يطلب تلك الحدود التى يقطنها عرب مثلنا، بل هى مقترحات شعب بأسره يعتقد انها ضرورية لتأمين حياته الاقتصادية» (٤٠). ولكن الحكومة البريطانية استثنت مرسين والاسكندرونة وبعض الاجزاء الساحلية التى تقع غرب دمشق وحمص وحماه وحلب، واصرت على عدم ضمها في الحكومة العربية (٤١). وافق الشريف حسين على التنازل عن اضنه والتى تشمل على ميناء مرسين. الا انه رفض التنازل عن الاسكندرونة او الاجزاء الساحلية، لانها عربية خالصة (٤٢).

اعلنت الحكومة البريطانية رأيها بصراحة عندما طلبت من ممثلها مكماهون ابلاغ الشريف حسين بان الاجزاء الساحلية هى مناطق عربية خالصة. ولكنها لازالت تعلن تحفظها عن ضم هذه الاجزاء الى الحدود العربية التى ستنال استقلالها لان «مصالح حليفتها فرنسا داخلة فيها» (٤٣)، وبسبب طول فترة المفاوضات مع الحكومة البريطانية والتى بدأت منذ تموز ١٩١٥، وانتهاء الاستعدادات المكثفة لاعلان الثورة ضد الحكم العثمانى، وكذلك خشية حدوث خلافات بين بريطانيا وفرنسا اذا اصر شريف مكة على ضم الاجزاء الساحلية، لكل هذه الاسباب اخبر الحسين مكماهون بانه سيوافق على تأجيل موضوع ضم الاجزاء الساحلية حتى انتهاء الحرب العالمية الاولى. ولكنه حدد موقفه من المسألة بلغة واضحة حين اخبر مكماهون: «اننا سنطلب في أول فرصة بعد انتهاء الحرب استرداد (الاجزاء الساحلية) التى نغض الطرف عنها والتى هى في هذه الساعة تحت رعاية فرنسا». وأكد الحسين: «انه لايمكن السماح لفرنسا بالاستيلاء على مساحة قدم مربع من هذه المناطق» (٤٤)، الا ان مكماهون ابلغ الحسين انه من الخطأ الاعتقاد بان العلاقات البريطانية ـ الفرنسية ستتعرض الى الفتور بعد الحرب. والواقع ان بريطانيا لم تبد موافقتها سواء الصريحة او السرية بشمول سنجق الاسكندرونة ضمن المنطقة العربية المراد منحها الاستقلال كما يعتقد بعض المؤرخين (٤٥). فمراسلات الحسين ـ مكماهون لم تشر الى ذلك . ولكن هذه المراسلات اوضحت وبشكل قاطع تراجع بريطانيا عن موقفها السابق الذى شكك بعروبة الأجزاء الساحلية والاسكندرونة ، واعترافها بعروبتها ، الا انها رفضت ضم هذه الاجزاء الى المنطقة العربية بحجة ان لفرنسا مصالح فيها .

وهكذا تم التوصل الى «اتفاقية» مبهمة بين الشريف حسين، نيابة عن العرب، والحكومة البريطانية، ولكن ما اظهرته هذه المراسلات هو ان الحسين لم يوافق على ابعاد اية بقعة عربية عدا قليقيا (٤٦).

وبينما كان مراسلات الحسين ـ مكماهون جارية،كانت بريطانيا تعقد صفقة مع حلفائها، روسيا وفرنسا، لتحديد مناطق نفوذهم في الدولة العثمانية تفاديا لاى خلاف يقع بينهم في المستقبل (٤٧). ففي ١٨ آذار ١٩١٥ عقدت معاهدة القسطنطينية بين فرنسا وبريطانيا وروسيا. ونصت المادة الثالثة على اعتبار ميناء الاسكندرونة ميناء دوليا وتعلن حريته. لقد اصبحت هذه المعاهدة الاساس الذى اعتمدت عليه الاتفاقيات الدولية والتى عقدت في وقت لاحق (٤٨)، فقد نصت المادة الخامسة من اتفاقية سايكس بيكو الموقعة فى عام ١٩١٦، وهي ما تعرف ايضا باتفاقية لندن، والتى تتعلق بميناء الاسكندرونة بان «يكون ميناء الاسكندرونة ميناء حرا فيما يتعلق بتجارة الامبراطورية البريطانية، وان لايكون هناك تمايز في معاملة التجارة والنقل البحرى البريطانى، وان تتمتع البضائع البريطانية بحق المرور (الترانسيت) في الاسكندرونة» (٤٩).

ولكن هل أجبرت الظروف الدولية بريطانيا على الموافقة على ضم

فرنسا الاسكندرونة، ام ان بريطانيا وافقت على ذلك ضوعا وكجزء من سياستها الدولية ؟ يبدو ان الحكومة البريطانية لم تكن قد قررت سياستها تجاه الاجزاء الآسيوية من الدولة العثمانية. ولكن وزارة الحربية والبحرية ايضا كانت لديها بعض الافكار. كان قسم من العسكريين يخشى موافقة الحكومة البريطانية على ضم فرنسا للاسكندرونة، فهم يعتقدون بان فرنسا ستقوم ببناء قاعدة بحرية فيها وقاعدة غواصات وقوارب طوربيد في بيروت (٥٠)، وفي حالة دخول بريطانيا في حرب ضد فرنسا، فسيؤدي ذلك الى تفاقم الصعوبات القائمة على ابقاء الاتصالات البريطانية في منطقة البحر المتوسط مفتوحة، وستكون سكك حديد حيفا - الموصل - بغداد المقترحة معرضة الى تهديد مستمر اما من قبل روسيا او فرنسا او من قبلهما (٥١) ، فاقترح السير ماكسويل SIR G. Maxwell قائد القوات البريطانية في مصر في نهاية عام ١٩١٤ (٥٢) ، قيام القوات البريطانية بالانزال على ميناء الاسكندرونة والتوسع في سوريا وبذلك تؤسس دولة عربية تحت حماية بريطانيا (٥٣) ، وتبنى هذا الاقتراح كل من اللورد كتشنر (٥٤) ، Lord Fisher قائد البحرية واللورد ونستون تشرشل Lord W. Charchill واللورد ارثر بلفور Lord A. Balfoar من البحرية البريطانية . فالبحرية البريطانية نظرت الى الاسكندرونة بانها وبالدرجة الأولى احسن موقعا لتسهيل المواصلات السريعة بين البحر المتوسط وبلاد ما بين النهرين والهند (٥٥) ، فعندما طرح الحلفاء فكرة شن هجوم على تركيا في مطلع عام ١٩١٥ اقترح اللورد كتشنر واللورد فيشر ان تكون هذه العملية ولأهداف سياسية وعسكرية ضد اما الاسكندرونة او حيفا . ففي الثالث من كانون الثاني عام ١٩١٥ اخبر فيشر تشرشل بانه يجب ارسال الجيش البريطاني الى حيفا والاسكندرونة وان احتلال بريطانيا للأخيرة يجب ان يكون دائما وذلك لقيمتها الكبيرة فيما يتعلق بحقول النفط في «جنة عدن » اى بلاد مابين النهرين وكذلك بلاد فارس . واقترح فيشر ايضا ربط بلاد مابين النهرين والاسكندرونة بسكك حديد (٥٦) . ولكن فرنسا افشلت عملية الانزال ، واتخذ الحلفاء قرارا بشن هجوم على الدردنيل .

في تلك الظروف اجبرت بريطانيا وفرنسا على تحديد موقفها تجاه المطالب الروسية في القسطنطينية والدردنيل. وافقت بريطانيا على هذه المطاليب «لان الاسباب العسكرية والبحرية تجبرنا على قبول المطلب الروسي» (٥٧)، الا ان اللجنة الحربية War Committee اجتمعت في ١٠ اذار وناقشت مرة اخرى الرد المراد ارساله الى روسيا. اكد كتشنر وتشرشل الحاجة الى احتلال بريطانيا للاسكندرونة لانه احسن ميناء على الساحل السوري، فذكر تشرشل انه اذا تمكنت بريطانيا من تشتيت القوة البحرية الالمانية فانه باستطاعتها بناء اسطول في البحر المتوسط ضد كل من الفرنسيين والروس (٥٨).

أما كتشنر فكان يرى ان الاسكندرونة تتمتع بقيمة استراتيجية اكثر من حيفا (٥٩)٧ لانه في حالة احتلال روسيا للقسطنطينية ومضائق البسفور والدردنيل فان تقسيم الدولة العثمانية سيكون محتما. وفي معرض رده على النقاط التى اوردها لويد جورج Lioyd George وزير المالية والتى ترى ان موضوع الاسكندرونة ربما يقود الى نزاع مع فرنسا. اكد كتشنر انه اذا ظهرت روسيا كدولة قوية في البحر المتوسط بعد استيلائها على القسطنطينية وسيطرت فرنسا على سوريا وايطاليا على جزيرة رودس فانه سيتعذر الدفاع عن الوجود البريطاني في مصر اذا احتلت اية قوة الاسكندرونة (٦٠) لذا فانه يتوجب على بريطانيا احتلال الاسكندرونة «لان الابقاء على هيمنتنا البحرية في البحر المتوسط أمر ضروري» (٦١) يضاف الى ذلك ، ان كتشنر رأى انه اذا قررت بريطانيا ضم بلاد ما بين النهرين الى الامبراطورية البريطانية فان احتلال الاسكندرونة سيكون امرا لا مفر منه «واذا لم تضم بلاد ما بين النهرين فان روسيا وبدون شك ستضمها عاجلا أم آجلا. وهذا سيجعل لروسيا منفذا الى الخليج العربى، وبالتالى ستمكنها من فرض هيمنتها العسكرية والتجارية في الخليج العربي. وان الموارد الزراعية والمعادن الكامنة في بلاد ما بين النهرين، وخاصة النفط، ذات قيمة كبيرة لايمكن تجاهلها» وهكذا، فاذا احتلت بريطانيا الاسكندرونة فان بلاد ما بين النهرين وسكك حديد بغداد ومصر وقناة السويس ستكون في مأمن كبير. اضافة الى ذلك، ان كتشنر يرى انه اذا احتلت بريطانيا الاسكندرونة والمناطق المجاورة فانه سيسهل على بريطانيا استثمار المعادن في آسيا الصغرى وستحمى مصالحها في بلاد فارس (٦٢) وهكذا اقترح كتشنر اعطاء فلسطين الى فرنسا مقابل تنازلها عن الاسكندرونة (٦٣)، حتى وصل الامر به ان اعلن في اجتماع اللجنة الحربية في ١٨ آذار ١٩١٥ انه اذا لم تحتل بريطانيا الاسكندرونة فانه من المستحسن عدم احتلالها لبلاد ما بين النهرين (٦٤).

ايد لويد جورج وبلفور عضوى اللجنة الحربية، فكرة احتلال بريطانيا للاسكندرونة وبلاد ما بين النهرين (٦٥)، اما السير ادوارد كرى Sir Edward Grey وزير الخارجية البريطاني، الذى أبدى معارضته لفكرة احتلال بريطانيا لفلسطين، واقترح اعطاءها الى بلجيكا (٦٦) فيبدو انه كان متحيرا. فعلى الرغم من عدم موافقته اضافة اراض جديدة تحت السيطرة البريطانية لان ذلك، في نظره سيورط بريطانيا في مشاكل عويصة، الا انه ابدى استعداده الى حصول بريطانيا على حصتها من الدولة العثمانية اذا بدأت فرنسا وروسيا بتقسيم تلك الدولة (٦٧)، ويبدو ان كرى كان من مؤيدى احتلال بريطانيا للاسكندرونة، ففي حديث له مع السفير الفرنسي في لندن بخصوص الاسكندرونة رد كرى بلهجة لاتخلو من الشدة قائلا : «الا انك سوف لاتطلب منى الاعتراف بان الاسكندرونة هى جزءمن سوريا» (٦٨) ويتضح ان كرى كان يهدف من ذلك فصل الاسكندرونة عن سوريا ليجرد بذلك ادعاءات فرنسا فيها ويضعها اخيرا تحت السيطرة البريطانية. ومما يؤيد اهتمام كرى بفكرة احتلال بريطانيا للاسكندرونة انه كان مستعدا لعقد صفقة مع فرنسا تتنازل بريطانيا بموجبها عن حقوقها في المستعمرات الالمانية في افريقيا الى فرنسا، مقابل تنازل الاخيرة عن الاسكندرونة لبريطانيا (٦٩)، أما هربرت اسكويث Herbart Asguith رئيس الوزراء البريطانى، فعلى الرغم من عدم تأييده فكرة

احتلال بريطانيا لاراض جديدة الا انه اعلنها بوضوح «اننا اذا تركنا بقية الدول، بسبب او لاخر، تزحف على تركيا من دون ان نحصل على اي شيء لانفسنا، فاننا بذلك قد قصرنا في واجبنا» (٧٠).

لقد ادت فكرة احتلال الاسكندورنة الى انقسام في الوزارة البريطانية الى مؤيد ومعارض لذا ومن اجل التأكد من رغبة الحكومة البريطانية في تحديد المنطقة المراد احتلالها اسكويث في ٨ نيسان ١٩١٥ لجنة سميت لجنة تركيا الاسيوية Committee on Asiatic Turkey برئاسة السير موريس دي بونسن Sir Maurice de Bunsen مساعد وكيل وزير الخارجية (٧١) وطلب رئيس الوزراء من اللجنة دراسة طبيعة المناطق في الاجزاء الاسيوية من تركيا المراد احتلالها من قبل بريطانيا بعد انتهاء الحرب وخروج الحلفاء منتصرين على الدول المركزية. عقدت اللجنة ثلاثة عشر اجتماعا في الفترة ما بين ١٢ نيسان و ٢٥ مارس، وقدمت تقريرها في ٣٠ حزيران مقترحة اربع خطط لحل المشاكل التي تنجم بعد انتهاء الحرب فيما يتعلق بالممتلكات العثمانية في آسيا.

ذكرت اللجنة انه من اجل تعزيز المصالح البريطانية في الاقسام الاسيوية من تركيا يجب «الحفاظ على وضعنا الاستراتيجي في شرق البحر المتوسط والخليج العربي والحفاظ على طرق مواصلاتنا..» فالخطة الاولى كانت اقتراح تقسيم الدولة العثمانية لذا وجب «تقرير حدود المنطقة». واشارت اللجنة الى ضم الموصل الى النفوذ البريطاني لان ذلك «سيحقق ضرورتين مهمتين لاحتلال ولاية البصرة وبغداد عسكريا»، ففي حال قيام روسيا بشن هجوم على بلاد ما بين النهرين، فانه من المستبعد ان تتمكن حكومة الهند توفير قوات للدفاع عنها. وحتى في هذه الحالة الطارئة، فان الفرق بين النجاح والاخفاق يعتمد على درجة سرعة ايصال هذه التعزيزات الى المنطقة المهددة «وبسبب هذا الاعتبار، فانه يصبح ضرورة عسكرية تأمين باب خلفي للعراق من جهة منطقة شرق البحر المتوسط. ويبدو طبيعيا ان تكون الاسكندرونة الخيار الطبيعي، لانها احسن ميناء على ساحل سوريا وهي ايضا مرتبطة بشبكة سكك حديد بغداد، وسيكون لضمها فائدة مضاعفة لانها ستمنحنا التسهيلات التي نحتاجها لتعزيز وجودنا في العراق من جهة البحر المتوسط، وكذلك منع القوى الاجنبية من احتلال الميناء الوحيد في سوريا والذي يمكن تحويله الى قاعدة بحرية». الا ان اللجنة ذكرت بان فرنسا سوف لاترحب بايجاد نفوذ بريطاني يشطر «نفوذها» في سوريا الى قسمين، ويقطع خطوط مواصلاتها وتحرمهم من الاسكندرونة، «الميناء الجيد الوحيد في هذه المنطقة»، واذا وافقت فرنسا على ذلك «فستكون سككنا الحديدية تحت رحمتها وستكون قريبة جدا من الاراضي الروسية»، وفي حالة احتلال بريطانيا للاسكندرونة فانها لاتتمكن من معارضة الاحتلال الفرنسي للاجزاء الجنوبية من سوريا، والذي يعني بان فرنسا ستمد حدودها الى شبه جزيرة العرب «ولايمكننا قبول مثل هذا الوضع». واختتمت اللجنة خطة التقسيم بالاقتراح «بعدم ضم الاسكندرونة الى حدود المصالح البريطانية وان يتم استبدالها بحيفا» على الرغم من اعتراف اللجنة «عن عدم كونها ميناء طبيعيا كالاسكندرونة» واوضحت اللجنة ان فرنسا ستنشيء «عاجلا ام اجلا قاعدة بحرية في الاسكندرونة، ربما قاعدة بحرية للغواصات والطوربيدات في بيروت». وان ايطاليا بامكانها «انشاء قاعدة بحرية في مارمريز Marmaris وهذا مما يزيد صعوباتنا في ابقاء خطوط مواصلاتنا البحرية مفتوحة في شرق البحر المتوسط في حالة اندلاع حرب مع احدى هاتين القوتين» الامر الذي سيجبر بريطانيا على ارسال قوات بحرية الى تلك المنطقة للسيطرة على الاساطيل المتواجدة في تلك الموانيء، وهذا «يتطلب منا انشاء قاعدة.. محصنة في الاسكندرية وكذلك ميناء احتياطي محمي للنقل وقاعدة غواصات في حيفا».

اما الخطة الثانية فهي تحديد مناطق نفوذ، واقترحت اللجنة منطقة النفوذ البريطاني وهي كالمثلث قاعدته تمتد من ميناء العقبة حتى الخليج العربي، واضلاعه تبدأ من عكا في الغرب حتى مدينة البصرة في الشرق، وتقع الموصل في قمة المثلث، اما الخطة الثالثة، فهي تشكيل اتحاد لامركزي عثماني مع فصل بعض المناطق عنه. فالبصرة تصبح بريطانية وكذلك المنطقة الممتدة حتى زاخو شمالا والعمادية شرقا وميناء عكا غربا، وتضم المنطقة ايضا ميناء حيفا على البحر الموسط، والذي سيكون بديلا عن الاسكندرية كميناء وكنهاية لخط سكك حديد. وتشمل هذه المنطقة ايضا مدينة الموصل، واعطت اللجنة رأيها، مفضلة الخطة الثالثة ـ خطة اللامركزية ـ كاحسن حل «يحفظ المصالح الحيوية لبريطانيا العظمى..» (٧٢).

لقد ادعت اللجنة ان سبب اختيار حيفا بدلا عن الاسكندرونة لايعود الى خشية الحكومة البريطانية من فرنسا (٧٣) ولكن الحقائق لا تؤيد هذا الرأي. فكما لاحظنا ان اللجنة كانت تخشى من امتداد النفوذ الفرنسي الى قناة السويس ومصر وشبه جزيرة العرب في حالة ضم بريطانيا للاسكندرونة (٧٤). علاوة على ذلك ان فرنسا ادركت اهتمام الحكومة البريطانية في ضم الاسكندرونة، مما اثار شكوكها. لقد كانت فرنسا تعتبر الاسكندرونة مجالا لنفوذها وكبوابة الى اسيا الصغرى، وكنقطة حيوية لاستراتيجيتها للهيمنة على البحر المتوسط (٧٥). وهذا يفسر لنا اصرار فرنسا على ابقاء الاسكندرونة جزءا من سوريا، وكانت ترمي من وراء ذلك الحصول على اعتراف الدول الاوروبية وخاصة بريطانيا «بحقوقها في سوريا والاسكندرونة..» (٧٦) لقد ابدت فرنسا معارضتها لخطة الانزال البريطانية على الاسكندرونة او على اية منطقة اخرى على الساحل السوري، وهددت بالاحتجاج ضد بريطانيا اذا قامت بتنفيذ تلك العملية، واشترطت فرنسا ان تكون مهمة مراقبة الساحل السوري من الاسكندرونة حتى حيفا من عمل البحرية الفرنسية (٧٧). لقد خشيت الحكومة البريطانية ان يتكون لدى فرنسا انطباع بان البريطانيين يرمون الى تعزيز مصالحهم في سوريا على حساب المصالح الفرنسية (٧٨). وهذا يؤدي الى تدهور العلاقات البريطانية ـ الفرنسية الذي كان يخشاه كري الذي كان مخلصا لمبدأ المحافظة على «الوفاق الودي» مع فرنسا (٧٩). لقد ابدى كري تحفظه من تاييد مطالب الشريف حسين في سوريا (٨٠). وايد راي تشرشل ـ الذي تراجع هو الاخر عن موقفه ـ باعطاء الفرنسيين ما يشاؤون حتى الاسكندرونة «لان تعاوننا معهم في البحر المتوسط وفي

مناطق اخرى سيتعرض الى الدمار، اذا جعلناهم يشكون بنا في منطقة سوريا» (٨١). اضافة الى ذلك، انه على الرغم من اقتراح لجنة دي بوننسى ضم الموصل الى منطقة النفوذ البريطاني، الا ان الحكومة البريطانية وافقت على ضمها الى فرنسا وذلك بموجب معاهدة سايكس ـ بيكو (٨٢).

الا ان توصيات لجنة دي بوننسى، وانسحاب روسيا القيصرية من الحرب العالمية الاولى، وكذلك احتلال القوات البريطانية بمساعدة حلفائها العرب سوريا وكذلك احتلالها الموصل، كل هذه الاسباب عززت موقف بريطانيا وشجعها على المطالبة بتعديل معاهدة سايكس ـ بيكو بضم الموصل الى النفوذ البريطاني. فعند زيارة جورج كلمنصو Georges Clemenceau رئيس وزراء فرنسا الى لندن في اوائل شهر كانون الاول ١٩١٨ طالب لويد جورج، الذى اصبح رئيسا لوزراء بريطانيا بتعديل المعاهدة فيما يخص الموصل وفلسطين. وبعد مفاوضات تمكن لويد جورج من الحصول على ضمان من كلمنصو بان فرنسا ستوافق على ادارة بريطانية بدلا من ادارة دولية على فلسطين، وكذلك تحويل الموصل من النفوذ الفرنسي الى البريطاني، مقابل الاعتراف البريطاني بالسيطرة الفرنسية الكاملة على دمشق وحلب وكذلك الاسكندرونة وبيروت. واذا تم العمل بنظام الانتداب، فان هذه المقاطعات ستكون تحت الانتداب الفرنسي (٨٣) وفي مؤتمر الصلح الذى عقد في اوائل ١٩١٩، قادت مناقشة القضايا العربية الى قضية ارمينيا، فاقترح الوفد الارمينى في ٢٦ شباط تأسيس دولة ارمينية مستقلة ومن ضمن المقاطعات التى طالب بها كانت الاسكندرونة (٨٤). وعلى كل حال، فقد وقعت بريطانيا وفرنسا في ١٥ ايلول اتفاقا عسكريا في باريس تضمن انسحاب القوات البريطانية من وسوريا واستبدالها بقوات فرنسية، وعند انعقاد المجلس الاعلى للحلفاء والذى ضم بريطانيا وفرنسا وايطاليا والولايات المتحدة واليابان في سان ريمو في نيسان ١٩٢٠، تم اقتسام الانتدابات، ووضعت دمشق وحلب وبيروت والاسكندرونة تحت الانتداب الفرنسي (٨٥).

الا ان قوات حكومة انقرة برئاسة مصطفى كمال، والتى رفضت قبول معاهدة سيفر التى وقعتها حكومة السلطان العثماني محمد السادس في آب ١٩٢٠، حاولت طرد القوات الفرنسية من منطقة جنوب الاناضول، نجحت في اعادة مدينة مرعش. الا انها فشلت في اجبار القوات الفرنسية على الانسحاب من قليقيا. وعلى الرغم من ذلك، فقد بقيت تهاجم القوات الفرنسية.

في الوقت نفسه، شهدت باريس في اوائل عام ١٩٢٠ مجىء القوميين الى الحكم، فاعتقدوا بضرورة التوصل الى اتفاق مع الاتراك الكماليين لاسباب عديدة: ان العلاقات الفرنسية ـ البريطانية لم تكن جيدة بسبب خلافهم على الموصل، وانزعاج الفرنسيين من النفوذ البريطاني في القسطنطينية والمضائق التركية واتهامهم لبريطانيا بخلق المشاكل في سوريا (٨٦). وكذلك امتعاض بل غضب فرنسا من مباحثات بريطانيا السرية مع بلاد فارس والتى ادت بالتالي الى توقيع الاتفاقية البريطانية ـ الفارسية في ٨ آب ١٩١٩ (٨٧)، وانشغال فرنسا بمسكلة توطيد انتدابها على سوريا بسبب المقاومة السورية، وان القوات الفرنسية قد منيت بخسائر مريرة في

حربها مع قوات تركيا الكمالية. ومن اجل الحفاظ على النفوذ الفرنسي في سوريا ولبنان. والحصول على صداقة حكومة تركيا الكمالية (٨٨). ابدت الحكومة الفرنسية استعدادها للتوصل الى اتفاق معها، وخلال انعقاد مؤتمر لندن في شهرى شباط وآذار ١٩٢١، والذى اشترك فيه وفد فرنسي برئاسة ارستيد بريان Aristide Briand وزير خارجيتها ووفد يمثل تركيا الكمالية برئاسة وزير خارجيتها بكر سامي، توصل الطرفان الى اتفاقية دعت الى وقف اطلاق النار بينهما وانسحاب فرنسا من الاراضى الواقعة شمال حدود معاهدة سيفر وكان الثمن الذى تقاضته فرنسا وعود بمنح امتيازات اقتصادية في التى ستنسحب منها، وترك تركيا القيام بمهمة «حماية» الاقليات «وكان جزء من الثمن الفرنسي هو تشكيل نظام خاص في الاسكندرونة» (٨٩).

توقفت الحرب بين تركيا الكمالية وفرنسا، ولكن الجمعية الوطنية الكبرى التركية Grand National Assambly لم تصادق على اتفاقية لندن بسبب اعفاء بكر سامي، ممثل تركيا في هذه الاتفاقية من منصبه. لذا سافر هنرى فرانكلين بويون Henri Franklin Bouillon رئيس هيئة لجنة الشئون الخارجية Chamber Committee On Foreign Affairs الى أنقرة للتفاوض على اتفاقية موسعة.

وهكذا بدأت المفاوضات وبحثت جميع المطالب التركية. وانتهت هذه المباحثات بالتوصل الى اتفاقية جديدة تم التوقيع عليها في ٢٠ تشرين الاول ١٩٢١. فقد نصت المادة السابعة من اتفاقية انقرة او فرانكلين ـ بويون على «تأسيس نظام ادارى خاص الاسكندرونة، وان يتمتع سكان المقاطعة من الاتراك بكافة التسهيلات وذلك لتطوير ثقافتهم وان يتم الاعتراف باللغة التركية كلغة رسمية» (٩٠). أما المادة الثامنة فقد خططت حدودا جديدة بين تركيا وسوريا، كانت في مصلحة تركيا واكثر مما حددته معاهدة سيفر (٩١)، وبعبارة اخرى تنازلت فرنسا لتركيا حوالى ١٠ عشرة الاف من الكيلومترات اضافة الى الانسحاب من قليقيا (٩٢). علاوة على ذلك ان تخطيط الحدود بصورة ترضى تركيا ادى الى ازدياد نسبة الاتراك في مقاطعة الاسكندرونة من ٢٩ ٪ الى ٣٩ ٪ (٩٣). وفي المقابل، اعلنت حكومة الجمعية الوطنية الكبرى على نقل امتياز سكك حديد بغداد بين مدينتى بوزنتي Bozanti ونصيبين وكذلك فروعها في مدينة اضنه الى مجموعة فرنسية ترشحها الحكومة الفرنسية مع جميع الحقوق والامتيازات والفوائد الناجمة من هذه الامتيازات فيما يتعلق بالتنقيب والمواصلات.

الا ان الحكومة التركية ابدت على لسان وزير خارجتها يوسف سلمان تحفظها على بعض مواد الاتفاقية. ففيما يتعلق بالاسكندرونة وانطاكيا اعلنت تركيا رغبتها «بضرورة منح السكان حق اتخاذ علم خاص يظهر عليه العلم التركي» وطالبت الحكومة التركية «ان يتمتع المواطنون والممتلكات والعلم التركى بحرية استخدام ميناء الاسكندرونة وان يتم معاملتهم على مبدأ المساواة مع سائر سكان المقاطعة» وان يتم «تأجير منطقة في الميناء الى تركيا ليتم استخدمها كنقطة مرور مباشر للبضائع من والى تركيا، وان يتم توفير جميع التسهيلات الى تركيا لربط هذه المنطقة بسكك حديد تربط

الاسكندرونة مع الاراضي التركية، وكذلك فيما يتعلق بالانشاءات والتأجير واعمال المنطقة اعلاه» (٩٤). وفي الواقع ان هذه التحفظات توضح اطماع الحكومة التركية في مقاطعة الاسكندرونة. وسيوضح البحث الى اى مدى تم استخدام الاغراءات الاقتصادية والتهديد لتحقيق هذه الاطماع.

وهكذا، اعلنت الحكومة التركية على لسان وزير خارجيتها يوم توقيع اتفاقية انقرة «رغبتها» لتعزيز المصالح المشتركة بين تركيا وفرنسا، واستعدادها «منح امتياز استثمار خامات الحديد والكروم والفضة في وادى Karshut لمدة ٩٩ سنة لمجموعة فرنسية ويجب تشكيل شركة من هذه المجموعة الفرنسية بعد مرور خمس سنوات على توقيع هذا الامتياز على ان يشكل الاسهام التركى نصف رأس مال الشركة. واعلنت تركيا ايضا استعدادها «وبنية طيبة» دراسة الطلبات للحصول على امتيازات عمل في المناجم والسكك الحديد والموانىء والانهار التى يمكن ان يتقدم بها الفرنسيون «بشرط ان تكون هذه الطلبات منسجمة مع مصالح كل من تركيا وفرنسا» وناشدت تركيا الحكومة الفرنسية تخويل اصحاب رؤوس الاموال الفرنسيين الدخول في علاقات اقتصادية ومالية مع حكومة الجمعية الوطنية الكبرى في تركيا». واخيرا اعلنت تركيا عن حاجتها للاستفادة «من عمل مشرفين فرنسيين مختصين في المدارس المهنية، وانها ستخبر الحكومة الفرنسية بطلباتها» (٩٥).

ان توقيع تركيا الكمالية على معاهدة انقرة مع فرنسا ومن قبلها اتفاقية مع ايطاليا عام ١٩٢١، قد شجعها على الغاء بنود معاهدة سيفر. فبعد ان تمكنت من دحر القوات اليونانية واسترجعت سيادتها على المضائق حضرت المؤتمر الذى عقد في لوزان. ثم توصل المؤتمرون الى توقيع معاهدة لوزان في ٢٤ تموز ١٩٢٣، اعترفت مادتها الثالثة بالمادة الثامنة من اتفاقية انقرة فيما يتعلق بالحدود التركية - السورية والتى ابقت مقاطعة الاسكندرية ضمن الحدود السورية وتحت الانتداب الفرنسى. اضافة الى ذلك جردت المادة ١٦ من معاهدة لوزان تركيا من اية سيادة او حقوق سياسية او حق المطالبة بالسيادة على الاراضى التى سلخت منها. ولكن هذه المادة استثنت «اية ترتيبات ناجمة عن علاقات الجوار المعقود او التى ستعقد بين تركيا والاقطار المجاورة» (٩٦).

من جهة اخرى، كانت سياسة فرنسا منذ دخول قواتها العسكرية دمشق في ٢٤ تموز ١٩٢٠ مبنية على تقسيم المناطق الواقعة تحت انتدابها الى وحدات سياسية وادارية صغيرة. فتم بين عامى ١٩٢٠ و ١٩٢٢ تشكيل الوحدات السياسية: دولة لبنان الكبير، حكومة حلب، حكومة دمشق، مقاطعة الاسكندرونة، بلاد العلويين و الدروز. كما تم تشكيل الوحدات السياسية التالية بين عامى ١٩٢٢، ١٩٢٥: الاتحاد السورى الذى ضم حكومة حلب وحكومة دمشق وبلاد العلويين ومقاطعة الاسكندرونة الذى اصبح له استقلال مالى وادارى داخل الاتحاد. ومن الوحدات السياسية ايضا دولة لبنان الكبير ودولة جبل الدروز (٩٧).

وبعد توقيع معاهدة انقرة لم تظهر تركيا تشددا فيما يتعلق بالحدود السورية - التركية وكذلك فيما يتعلق بموضوع الاسكندرونة التى وعدت فرنسا منحه نظاما خاصا واستقلالا داخليا. ويعود سبب ذلك الى انشغال تركيا بمشكلة الموصل ووقوف فرنسا موقف الحياد. في الوقت نفسه كانت فرنسا تود التقرب الى تركيا لانها كانت تخشى المطالب الايطالية والتى كانت موجهة ضد فرنسا، هذا وان علاقات ايطاليا مع بريطانيا كانت طيبة، بينما العلاقات الفرنسية - البريطانية غير جيدة (٩٨). وهكذا كانت علاقات تركيا مع فرنسا جيدة، فتم توقيع معاهدة حسن جوار بينهما في شباط ١٩٢٦ وكذلك توقيع اتفاقيات المواصلات الجديدة في تموز من نفس العام. والاهم من هذا، ان كلا من فرنسا وتركيا تعاونتا من اجل تطويق الثورة في سوريا (٩٩).

وعلى الرغم من هذه الامتيازات التى حصلت عليها تركيا من فرنسا وعلى حساب سوريا، بقيت العلاقات بين تركيا وسوريا غير طيبة. واستمرت تركيا جاهدة بالسعي الى مد حدودها جنوبا على حساب سوريا منتهزة الظروف المضطربة في سوريا. فاستمرت باثارة القلاقل على الحدود مع سوريا، واعلنت انها لاتزال تعتبر الاسكندرونة «الالزاس واللورين» (١٠٠)، في الوقت نفسه شجعت تركيا سكان الاسكندرونة من الاتراك على الانفصال من سوريا والانضمام الى تركيا. ففى آذار ١٩٢٦ استغل نواب الاسكندرونة وانطاكية الانفصاليين الاضطرابات التى حدثت بعد انتخابات ١٩٢٦ واعلنوا تحت تاثير تركيا، تشكيل مجلس تاسيسى واتخذوا قرارا باستقلال مقاطعة الاسكندرونة وانفصالها عن حكومة دمشق ووضع دستور خاص بها والحاقها مباشرة بالمفوض السامى الفرنسى، وطالبوا تعيين ديرير Durieur مندوبه في المقاطعة رئيسا لها. ولم يعدل المجلس عن اجراءاته الا بزيارة وزيرى العدل والمالية السوريين لاقناعه بسحب هذا القرار (١٠١) ولكن سلطات الانتداب الفرنسى استجابت لمطالب العناصر التركية بنقل مركز المقاطعة من الاسكندرونة الى انطاكيا عام ١٩٣٠ (١٠٢).

وفي العام نفسه صدر دستور دولة سوريا والذى اعترفت مادته الاولى باستقلال دولة سوريا وعدم السماح بالتفريط بأى جزء كان من اراضيها. اما المادة الثانية فانها أكدت على وحدة سوريا السياسية وغير القابلة للتجزئة (١٠٣)، وصدر في العام نفسه ايضا النظام الاساسى لمقاطعة الاسكندرونة الذى يتعلق بالنواحى الادارية والمالية (١٠٤). وبعد صدور الدستور السورى، وافقت عصبة الامم على التنظيم الادارى للدولة السورية الذى أكد النظام الادارى المالى الخاص بالمقاطعة مع تبعيتها لسوريا (١٠٥).

وفي ٩ أيلول ١٩٣٦ عقدت المعاهدة السورية - الفرنسية حيث بقى النظام الادارى لمقاطعة الاسكندرونة على حاله ضمن الوحدة السياسية السورية (١٠٦) وقد نصت المادة الثالثة من انه عند زوال الانتداب الفرنسى تنقل الى الحكومة السورية «وحدها الحقوق والواجبات الناجمة عن جميع المعاهدات والاتفاقيات وسائر العقود الدولية التى عقدتها الحكومة الفرنسية فيما يخص سوريا وبأسمها»، ومن بين هذه العقود اتفاقياتها مع تركيا (١٠٧) وبعد عقد المعاهدة السورية - الفرنسية، والتى نصت على سوريا الموحدة، اخذت تركيا تشعر بان مستقبل الاسكندرونة اصبح معرضا للخطر فأبدت اعتراضها في الحال (١٠٨). وهكذا قدم ممثل تركيا في عصبة الامم عدة مذكرات اعلن فيها قلق حكومته على «سكان»

الاسكندرونة من الاتراك. لقد ادعت الحكومة التركية من خلال هذه المذكرات بان معاهدات ١٩٢١ و ١٩٢٦ قد اعطت «ضمانات» كافية للسكان الاتراك عندما كانت فرنسا الدولة المنتدبة على سوريا، ولكن وضعهم بعد ابرام المعاهدة سيتغير بعد منح سوريا الاستقلال. وقد ادعت الحكومة التركية بان ضم الاسكندرونة الى سوريا اجراء غير قانوني. وطالبت بان توقع فرنسا معاهدة منفصلة مع سكان الاسكندرونة الذين ادعت بان غالبيتهم من الاتراك (١٠٩)، لقد ذكرت الصحافة التركية ارقاما تمثل سكان مقاطعة الاسكندرونة. فذكرت ان السكان يقدرون بـ ٣٠٠ الف مقسمين وفق أسس دينية ومذهبية الى ٢٤٠ الف من الاتراك و ٢٠ ألف من العرب السنيين و ٢٥ ألف من الارمن و ١٥ الف من المسيحيين وآخرين (١١٠) ! وادعت تركيا ايضا ان على فرنسا بموجب المعاهدة الفرنسية - التركية منح مقاطعة الاسكندرونة الاستقلال وهو مطلب يتفق مع ميثاق عصبة الامم.. وصك الانتداب واتفاقية انقرة لعام ١٩٢١ !

ان هذه الادعاءات يعوزها الدقة. فقد اوضحنا في ما سبق ان نسبة السكان الاتراك الى مجموع سكان مقاطعة الاسكندرونة الكلي قبل توقيع اتفاقية انقرة لعام ١٩٢١ كانت ٢٩ ٪ ثم ارتفعت الى ٣٩ ٪ بسبب تخطيط الحدود الجديد بين سوريا وتركيا، اضافة الى ذلك، انه طبقا لاحصائيات فرنسية موثوقة، فان سكان المقاطعة بلغ ٢١٩،٠٨٠ منهم ٨٥،٢٤٢ (١١١) من الاتراك، اى ان نسبتهم ٣٨،٩٠٩ ٪ من مجموع السكان العام. أما السكان العرب فقد بلغ عددهم ١٠٢،٥٣٨ اي ٤٦ ٪. في حين بلغ عدد سكان المقاطعة من الارمن ٢٤،٩١١ اي ١١،٣٦ ٪ اما الاكراد فبلغ عددهم ٤،٨٣١ أي ١٦،٨ ٪ (١١٢) واذا اخذنا بنظر الاعتبار ان سكان المقاطعة من الارمن ليسوا من السكان الاصليين، بل ان موطنهم الاصلي هو ولايات الاناضول الشرقية وطردتهم تركيا بعد عام ١٩١٦ واستقروا في حلب ودمشق والموصل (١١٣) لذا فان الغالبية العظمى من السكان هم من العرب. وهكذا فان العرب والعناصر غير التركية شكلوا الاكثرية الساحقة من سكان مقاطعة الاسكندرونة (١١٤). علاوة على ذلك، ما هو الاساس الذى استندت عليه الحكومة التركية في مطالبة فرنسا كدولة منتدبة على سوريا بتوقيع معاهدة مع مقاطعة الاسكندرونة والتى هى جزء لا يتجزأ من سوريا كما نصت على ذلك جميع المعاهدات الموقعة بين تركيا وفرنسا (١١٥) ؟ وكيف يتفق اجراء فرنسا على منح المقاطعة الاستقلال - في حالة موافقتها على الطلب التركي - مع ميثاق عصبة الامم كما ادعت تركيا ؟ لقد نصت المادة الرابعة من نظام الانتداب الفرنسي على سوريا على «ان تكون الدولة المنتدبة مسئولة عن الحفاظ على كيان سوريا.. وان لا تقوم بالتخلي عن او تاجير او وضع اي جزء من اراضيها تحت سيطرة قوة اجنبية» (١١٦). واخيرا هل نصت اتفاقية انقرة لعام ١٩٢١ على منح مقاطعة الاسكندرونة الاستقلال عن سوريا، أم انها منحتها نظاما اداريا ضمن الوحدة السورية ؟

لم يكن رد فرنسا حاسما، فعلى الرغم من عدم قبولها لوجهة النظر التركية، الا انها كانت مستعدة للتوصل الى حل وسط، لذا اعلنت استعدادها للدخول في مفاوضات ضمن حدود اتفاقية انقرة التي لاتنص على فصل مقاطعة الاسكندرونة عن سوريا واخبرت فرنسا تركيا انه بعد ان تنال سوريا استقلالها فانه يتوجب عليها تنفيذ جميع التعهدات والاتفاقيات التي عقدتها فرنسا باسمها ومنها اتفاقية انقرة، وانها ليست مستعدة لاقتطاع أرض سورية وتمنحها الاستقلال. والذى يعناه تكوين ثلاث دول سورية وهو أمر مخالف لنظام الانتداب، وان المادة السابعة من اتفاقية انقرة نصت على ادارة المقاطعة فقط (١١٧).

وفي نفس الوقت طلب المندوبون الاتراك في المجلس الوطني التركي وكذلك الصحفيون الاتراك من الحكومة التركية ضم الاسكندرونة. يضاف الى ذلك ان مصطفى كمال رئيس الجمهورية التركية اشار في المجلس في تشرين الثاني ١٩٣٦ الى موضوع الاسكندرونة واعتبرها الموضوع الخطير الذى يشغل بال الشعب التركى (١١٨)، لذا عرضت الحكومة التركية على فرنسا الدخول في مفاوضات لحل «مشكلة» الاسكندرونة، قبلت فرنسا هذا العرض، بشرط اشراك الحكومة السورية في هذه المفاوضات. ولكن تركيا رفضت ذلك لانها لاتريد ان يكون لسوريا اية علاقات بالاسكندرونة. وقد وصل الامر حدا ان طلبت تركيا من السكان الاتراك في الاسكندرونة مقاطعة انتخابات المجلس السورى لعام ١٩٣٦. وبالفعل قاطعوا الانتخابات وتظاهروا، وحدثت اصطدامات مع الشرطة في كانون الاول ١٩٣٦ وكانون الثاني ١٩٣٧ (١١٩).

تبادلت الحكومتان الفرنسية والتركية المذكرات خلال شهرى تشرين الاول وتشرين الثاني عام ١٩٣٦ من دون التوصل الى اتفاق، ولكن فرنسا اقترحت في ٨ كانون الاول عرض الموضوع على مجلس عصبة الامم. قبلت تركيا هذا الاقتراح والذى يعتبر انتصارا لها. ناقش مجلس عصبة الامم موضوع الاسكندرونة في ١٤ كانون الاول ١٩٣٦ (١٢٠). وبعد الاخفاق في التوصل الى حل، أقر المجلس ارسال لجنة من ثلاثة مراقبين محايدين من هولندة والنرويج وسويسرا لتقصى الحقائق في الاسكندرونة.

استمرت الاتصالات بين فرنسا وتركيا، واقترحت الاخيرة في ١١ كانون الثاني ١٩٣٧ مشروعا تضمن تاليف اتحاد من سوريا ولبنان والاسكندرونة، واشتراك «الدول» الثلاث في العلاقات الخارجية واتحاد الكمارك والعملة، وتوزيع النفقات في الامور المشتركة بنسبة عدد كل «دولة»، وتأليف لجنة تنفيذية لممارسة السلطة التنفيذية في الامور المشتركة، واعتبار مقاطعة الاسكندرونة ضمن الاتحاد محايدا وليس مسلحا، وعقد معاهدة فرنسية - تركية جديدة تضمن تاليف الاتحاد وضمان حماية الاسكندرونة من اى اعتداء وتتضمن حقوقا وامتيازات لتركيا في ميناء الاسكندرونة. واخيرا اجراء انتخابات في الاسكندرونة لبرلمان يضع دستوره ويكون شكل الحكم جمهوريا وتكون اللغة التركية هى اللغة الرسمية (١٢١).

وخدمت التغيرات السياسية الداخلية في فرنسا تركيا. ففى بداية عام ١٩٣٧ تولى ليون بلوم L. Blum الاشتراكى رئاسة الوزارة، ووضع بلوم سلامة وامن فرنسا في اوروبا وفي شرق البحر المتوسط اولا. لذا أهتم بموضوع الاسكندرونة ويعود ذلك الى حاجة فرنسا الى كسب ود تركيا بعد التهديد الايطالي في منطقة شرق البحر

المتوسط وحالة الانعزال التى عاشتها فرنسا. فاسكت بلوم جميع الاصوات الفرنسية الرافضة للتنازل عن الاسكندرونة الى تركيا مثل فينو P. Vienotمساعد سكرتير الدولة للشئون الخارجية وكذلك رئاسة الاركان للقوات المسلحة الفرنسية. وهكذا ابدى بلوم التساهل مع تركيا بشأن الاسكندرونة. فاقترح على الحكومة التركية في ١٨ كانون الثانى ١٩٣٧ ابقاء الاسكندرونة تحت الانتداب الفرنسى، بعد استقلال سوريا، عن طريق اقامة نظام خاص بها وباشراف مفوض سام فرنسى تعينه عصبة الامم (١٢٢)، لم يحقق الاقتراح التركى او الاقتراح الفرنسى اى نجاح، واكدت كلا الدولتان ـ ايهما السابق وهو ان تقوم عصبة الامم دراسة الموضوع.

قامت لجنة المراقبين التابعة لعصبة الامم بزيارة الاسكندرونة وبعدها رجعت الى مقرها في جنيف حيث عقدت في الفترة ٢٤ ـ ٢٦ كانون الثانى ١٩٣٧ اجتماعات مطولة، وفي ٢٧ كانون الثانى قدمت اللجنة تقريرها الذى تبناه مجلس العصبة والذى تضمن منح مقاطعة الاسكندرونة استقلالا كاملا في شؤونه الداخلية عدا الكمارك والعملة، وان تناط شؤونه الخارجية بسوريا، واعتبار اللغة التركية لغة رسمية الى جانب اللغة العربية، وعلى ان يحتفظ مجلس العصبة الحق لنفسه في المصادقة على اي اتفاق دولى تعقده سوريا له مساس بمركز المقاطعة، وان يتم تعيين مندوب فرنسى يختاره مجلس العصبة لضمان احترام نظام المقاطعة، وان توضع لائحة القانون الاساسى للاسكندرونة. تبنى مجلس العصبة ايضا اقتراحات اخرى للجنة كتحييد الاسكندرونة، وان تلتزم فرنسا وتركيا بقرارات المجلس (١٢٣) وبعد موافقة عصبة الامم على هذا التقرير تم تعيين لجنة لاعداد قانون خاص بالمقاطعة. ووضعت اللجنة القانون حيث جعلت اللغة العربية لغة ثانية بعد التركية. واقترحت ايضا تشكيل مجلس مكون من ٤٠ عضوا يتم انتخابهم بنسبة الاقليات المتواجدة في الاسكندرونة، وتكون تحت اشراف لجنة خاصة تعينها العصبة. وافق مجلس العصبة على هذه الاقتراحات، وكذلك عقدت فرنسا وتركيا ـ في نفس الوقت ـ اتفاقية خاصة لضمان استقلال المقاطعة ونظامها الجديد وتقرر تنفيذها في ٢٩ تشرين الثانى ١٩٣٧ (١٢٤) «وبذلك حدثت اول ثلمة في الوحدة السورية حيث فصلت الاسكندرونة واقعيا عن الجمهورية الجديدة» (١٢٥).

وكان أهتمام وتشجيع الساسة الاتراك لاتراك الاسكندرونة للانفصال والانضمام الى تركيا، وكذلك الاضطرابات والمصادمات بين العرب والاتراك من سكان المقاطعة، وموضوع عرض موضوع الاسكندرونة على مجلس عصبة الامم مثار قلق الوطنيين العرب السوريين، الذين ايقنوا ان سياسة فرنسا الموالية لتركيا ستؤدى بالنهاية الى ضم الاسكندرونة الى الدولة الاخيرة (١٢٦) فقدم سكان المقاطعة العرب عريضة الى المفوض السامى الفرنسى يعربون فيها «عن استنكارنا واستيائنا الشديد عن قيام فئة من موظفى الحكومة في (الاسكندرونة) بتوقيع عريضة لرفعها لفخامتكم ولعصبة الامم تنافي امانينا واماني البلاد السورية [illegible] الى تجزئة البلاد السورية». واضاف عرب الاسكندرونة انه «اتخاذ التفرقة المذهبية . اساسا لهذه التجزئة. فذلك ما نرفضه رفضا باتا. ونعلن لفخامتكم تعلقنا الشديد بالوحدة والاستقلال التام» (١٢٧). اضافة الى ذلك تم في كانون الاول ١٩٣٦ تسمية وفد سورى ليسافر الى جنيف «لمساعدة» الوفد الفرنسى في المفاوضات المتعلقة بالاسكندرونة. واصبح موضوع الاسكندرونة الشغل الشاغل للتفكير السياسى السورى خلال السنتين التاليتين. بل انها اثارت هياج حركات الشباب وقامت لجنة العمل القومي بشن هجمات على وزارة التجمع الوطنى لمواقفها الهزيلة (١٢٨) فتأسست عشرات اللجان للدفاع عن الاسكندرونة. وحدثت اضطرابات وتظاهرات. وفي شباط ١٩٣٧ غادر وفد سورى الى باريس لبحث الموضوع. بينما زادت المعارضة السورية بعد مصادقة مجلس العصبة والحكومتين الفرنسية والتركية في ٢٩ مارس ١٩٣٧ على نظام الاسكندرونة وقانونها الاساسى (١٢٩)، والذى يعتبر خطوة اساسية نحو فصل الاسكندرونة وضمها نهائيا الى الاراضي التركية (١٣٠)، وزادت ايضا المصادمات بين عرب واتراك الاسكندرونة وانطاكيا. وعلى الرغم من تدخل الجيش، الا ان المصادمات استمرت خلال اشهر حزيران وتموز وآب (١٣١). ولم تقتصر هذه المصادمات على العرب والاتراك من سكان الاسكندرونة، بل انها شملت الارمنيين الناطقين للغة التركية والكارهين لتركيا. فكان العرب والارمنيون متحدين في معارضتهم لضم المقاطعة الى تركيا وضد اتراك المقاطعة (١٣٢).

عقدت فرنسا وتركيا في نفس العام اتفاقية تحديد الحدود التركية ـ السورية اضافة الى الاتفاقية المتعلقة بضمان استقلال ونظام الاسكندرونة الجديد. فازداد قلق الحكومة السورية لهذه التطورات. لذا سافر وفد سورى الى انقرة في حزيران لبحث موضوع الاسكندرونة مع الحكومة التركية ولكن هذه انتهت بالفشل. وبعد اعلان تطبيق النظام الجديد للاسكندرونة في ٢٩ تشرين الثانى ١٩٣٧ حدثت مصادمات دموية، فقاطع عرب الاسكندرونة الادارة الجديدة حيث رفض الموظفون العرب العمل. مقابل ذلك تسللت اعداد كبيرة من اتراك تركيا الى الاسكندرونة. وتم افتتاح قنصلية تركيا في الاسكندرونة واخرى في انطاكيا (١٣٣)، ومصرف تركيا في الاسكندرونة. علاوة على ذلك فقد رست سفينة تركية في الميناء (١٣٤).

من الجدير بالذكر ان مجلس العصبة كان قد اقترح في ٢٩ مارس تسمية لجنة خاصة تقوم بوضع مسودة قانون الانتخابات المزمع اجراؤها في الاسكندرونة وتقوم ايضا بالاشراف على تلك الانتخابات. فتم تسمية هذه اللجنة في تشرين الاول من ممثلى بريطانيا (رئيسا) وبلجيكا وهولنده والنرويج وسويسرا. زارت اللجنة انقرة ودمشق وبيروت . وبعد ان امضت شهرا واحدا عادت الى مقرها في جنيف حيث قدمت توصياتها الى مجلس العصبة والتى اقترحت اجراء الانتخابات على مرحلتين: الاولى في ٢٨ آذار والثانية في ١٢ نيسان من عام ١٩٣٨. وبعد موافقة مجلس العصبة على توصياتها رجعت اللجنة ال الاسكندرونة لمباشرة عملها في تسجيل اسماء الناخبين (١٣٥).

باشرت اللجنة المشرفة على تسجيل الناخبين عملها في كانون الاول ١٩٣٧ وقد اظهرت نتائج عملية التسجيل ان اتراك الاسكندرونة يشكلون اقلية صغيرة. تدخلت تركيا التي كانت قد اعلنت منذ البداية انها لن تقبل اية نتائج انتخابية لاتضمن نجاح اغلبية تركية في المجلس النيابي في الاسكندرونة. ومارست ضغوطا على اللجنة فكانت اسس تسجيل الناخبين تعتمد على ان يعلن الناخب قوميته بنفسه. ولكن تركيا رفضت هذا الاساس وطالبت ان تقوم اللجنة بالتقصي عن قومية الناخبين من غير الاتراك. ويبدو ان هدف تركيا من وراء ذلك هو اعتبار الارمينيين الناطقين التركية اتراكا، حتى يكون الاتراك الاغلبية وسيكون لهم الاغلبية في المجلس لان مقاعد المجلس توزع حسب نسبة الاقليات الى مجموع السكان. وبسبب الضغوط التي مارستها تركيا وافق مجلس عصبة الامم على تشكيل لجنة اخرى لدراسة اعتراض تركيا. فتشكلت هذه اللجنة من ممثلي تركيا وفرنسا والسويد وبريطانيا وبلجيكا التي رفعت توصياتها التي تتطابق مع الاعتراض التركي. ويعد هذا اكبر نصر تحققه تركيا، الا ان رئيس اللجنة المشرفة على تسجيل الناخبين، وهو بريطاني الجنسية، اعترض وشجب هذه التوصيات فقدم استقالته واتهم حكومته بانها ايدت تركيا في قضية الاسكندرونة لان بريطانيا تعارض فكرة اتخاذ فرنسا من الاسكندرونة قاعدة بحرية لها (١٣٦) رشحت بريطانيا ممثلا جديدا ليرأس اللجنة المشرفة على تسجيل الناخبين التي وضعت أسس جديدة للانتخابات في ١٩ اذار ١٩٣٨. وبعد ان عادت تلك اللجنة الى الاسكندرونة بدأت بفتح باب تسجيل الناخبين حسب الاقتراح التركي. واستمرت عملية التسجيل خلال شهري نيسان ومايس في جو مشوب بالتوتر بعد ان اصبحت المظاهر التركية تطغى على الاسكندرونة، فاصبح يوم الاحد عطلة بدلا من يوم الجمعة واصبح يحتفل بالاعياد الوطنية التركية (١٣٧).

وعلى الرغم من اتخاذ الاقتراح التركي اساسا، الا ان عملية تسجيل الناخبين اظهرت في نهاية مايس بان الاتراك لازالوا يشكلون اقلية في مقاطعة الاسكندرونة. لذا اوقف العمل بتسجيل الناخبين. وكما رأينا، فان الظروف التي جابهتها فرنسا قبل الحرب العالمية الثانية خدمت تركيا، التي استفادت من موقعها الاستراتيجي الذي يسيطر على المواصلات بين الاتحاد السوفييتي وفرنسا (١٣٨) فقد انشغلت فرنسا بتحركات المانيا الهتلرية في اوروبا الوسطى، واتباع بريطانيا سياسة التهدئة مع المانيا الهتلرية وايطاليا الفاشية، اضافة الى ضغط الحكومة البريطانية على فرنسا للتساهل مع تركيا لكسبها الى جانبها، علاوة على قيام ايطاليا الفاشية منذ عام ١٩٢٨ ببناء قواعد بحرية وكذلك جوية في البحر المتوسط وخاصة في جزيرة رودس وجزيرة ليروس Leros وميناء بورتولاغوس Portolagos (١٣٩). وهكذا وافقت فرنسا على دخول قوات تركية في الاسكندرونة في حزيران ١٩٣٨. في الوقت نفسه عينت فرنسا مندوبا ساميا جديدا في الاسكندرونة كان يمتاز بتعصبه ضد العرب وتعاطفه مع تركيا. فعين ضباطا اتراكا في مناصب حساسة في الاسكندرونة بعد ان تم اقصاء الموظفين العرب (١٤٠) [illegible] الجمعيات والنوادي العربية (١٤١) وتهديد السكان من [illegible] بوجوب تسجيل انفسهم اتراكا. لقد اثارت هذه السياسة امتعاض الموظفين العرب وغير الاتراك في الاسكندرونة فاعلنوا الاضراب العام. اعلنت حالة الطوارىء في ٣ حزيران واعلن عن فتح عملية تسجيل الناخبين مجددا، ولكنها كانت تحت اشراف لجنة فرنسية ـ تركية لتزوير عملية التسجيل من اجل اظهار الاتراك بانهم الاغلبية. فاحتجت لجنة عصبة الامم الخاصة بالاشراف على عملية تسجيل الناخبين على هذا الاجراء واتهمت فرنسا بوقوفها الى جانب تركيا. فاوقفت اعمالها وغادرت الاسكندرونة في ٢٦ حزيران. من جهة أخرى عقدت فرنسا وتركيا في ٣ تموز ١٩٣٨ اتفاقا في انطاكيا يتضمن دخول القوات المتواجدة في انطاكيا الى الاسكندرونة. ووقعت في اليوم التالي في انقرة معاهدة صداقة فرنسية ـ تركية. وفي الخامس من تموز دخلت الاسكندرونة وحدات تركية للقيام بمناورات مشتركة مع القوات الفرنسية وكذلك تزوير الانتخابات وبعد اسبوع واحد (١٤٢) ظهرت نتائج «القوائم الانتخابية المزورة والمهيأة في ظل الاشراف الفرنسي ـ التركي المشترك» عن حصول اتراك الاسكندرونة على ٦٣ ٪ من مجموع السكان، بعد ان قاطعها السكان العرب والارمنيين الذين تركوا منازلهم، والهرب الى سوريا ولبنان بسبب الاضطهاد الفرنسي ـ التركي. فقد مارس المندوب السامي الفرنسي ضغوطا على الناخبين الذي طلب منهم ان «يعتبروا انفسهم اتراكا» (١٤٤) ونتيجة لذلك حصل الاتراك على ٢٢ مقعدا من اصل ٤٠ مقعدا، وهكذا صار بأمكانهم توجيه المجلس كما يشاؤون. فاتخذوا اجراءات تتعلق بالجندرمة والضرائب والمحاكم والادارة وايجاد علم جديد للاسكندرونة مشابه الى العلم التركي مع اضافة نجمة حمراء داخل نجمة العلم التركي، وارتداء القبعات وتنظيم المدارس واستقدام موظفين اتراك لتنظيم ادارة المقاطعة وفي كانون الثاني ١٩٣٩، اصبحت القوانين التركية الجزائية والمدنية نافذة المفعول في الاسكندرونة. ثم استخدم نظام العملة والبريد والمالية التركي. وتم انتخاب رئيس «الدولة» ورئيس الوزراء في الاسكندرونة كاعضاء في المجلس الوطني التركي في الانتخابات التي جرت في اذار ١٩٣٩ (١٤٥).

ومن الجدير بالذكر، انه كانت قد تاسست في تركيا جمعية اسمها «هاتاي اركتدليك» التي كان لها فروع في المناطق المجاورة لحدود مقاطعة الاسكندرونة كأرفة ومرسين وعينتاب، غايتها العمل على استقلال الاسكندرونة وفصله من سوريا توطئة لضمه الى تركيا. وكانت هذه الجمعية تحت رعاية كبار السياسيين الاتراك الذين بذلوا، كما بذلت الصحافة، جهودا لتحقيق ضم الاسكندرونة فهددوا بتحقيقها «مهما كلف الامر» فكتبت جريدة «جمهوريت» في عددها الصادر في الاول من كانون الثاني ١٩٣٧ «لقد اتخذ الاتراك قرارهم بخصوص استقلال مقاطعة الاسكندرونة، ونامل ان لاتكون هناك ضرورة تلجئنا الى تنفيذه بالقوة واذا كان الامر عكس ذلك فاننا لم نتقهقر». والواقع ان تركيا كانت قد هددت بالانسحاب من العصبة اذا لم تحل مشكلة الاسكندرونة «حلا مرضيا، وانها ستعود الى احضان تركيا وستظل تركيا ابدا؟ ونحن واثقون من قوتنا. وان تركيا ستنتصر ولو كان ذلك سيقودنا الى محاربة [illegible] ١٤٦

وخوفا من ضياع الاسكندرونة. توسط العراق، بناء على طلب سوريا، لدى الحكومة التركية لانهاء المشكلة على اساس مبدأ التقسيم. ولكن هذه الوساطة لم تحرز اي تقدم بسبب اصرار تركيا وسوريا على ابقاء انطاكيا تحت نفوذهما (١٤٧).

وفي ايلول ١٩٣٨ وضع المجلس النيابي في الاسكندرونة الاتراك في المناصب الرئيسية، وابدل اسم المقاطعة والمدينة الرئيسية من الاسكندرونة الى هاتاي واسكندرونة بالتناوب. وفي الحقيقة، لم تكن هاتاي الا حكما فرنسيا ـ تركيا، لذا لم تستمر الا اقل من سنة واحدة بسبب الالحاح التركي لضمها. فاتصلت وزارة الخارجية التركية بالسفير الفرنسي في انقرة الذي ابلغته حكومته بعدم ابداء اية صعوبات حول الموضوع. وفي الوقت نفسه، اجرت القوات العسكرية التركية في الاسكندرونة بعض المناورات للتظاهر بسيطرتها التامة. ولكن مباحثات انقرة لم تسفر عما تهدف اليه تركيا. فعقدت مباحثات بين الجانبين في باريس انتهت بتوقيع الاعلان المشترك للمساعدة المتبادلة في ٢٢ حزيران ١٩٣٩، مقابل ذلك تنازلت فرنسا كليا عن الاسكندرونة الى تركيا. وتمت المصادقة على هذه الصفقة في ١٣ تموز حيث وعدت تركيا بموجبها على احترام خط الحدود بينها وبين سوريا والحفاظ على كيان جارتها سوريا. اما فرنسا فتعهدت بالانسحاب من مقاطعة الاسكندرونة (١٤٨).

عقد المجلس النيابي في الاسكندرونة جلسته الاخيرة في نهاية حزيران. وبعدها اصبحت ولاية تركية، وعند وصول الوالي التركي قابله وهناه امر القطاعات الفرنسية في الاسكندرونة. وقد اتبع هذا الوالي سياسة معادية للسكان من غير الاتراك. فطرد جميع الارمنيين الذين اتجهوا الى لبنان. وغادر العرب من سكان المقاطعة الى سوريا. اما الباقين فاصبحوا تحت سيطرة الجمهورية التركية (١٤٩).

ونستنتج مما سبق ان موقع الاسكندرونة قد جذب اهتمام غالبية الدول الاوروبية فبالاضافة الى كونه من اهم الموانيء والمراكز التجارية في شرق البحر المتوسط والاناضول فان القيمة الاستراتيجية لهذا الميناء كان عامل تنافس بين الدول الاوروبية في القرن التاسع عشر والعشرين. الا ان الدولة التي اهتمت بصورة ملحوظة بموقع الاسكندرونة كانت بريطانيا. وهذا ما ورطها مع فرنسا التي كانت تعتقد ان لها «مهمة» خاصة في سوريا. لقد دخلت الحكومة البريطانية قبل وخلال الحرب العالمية الاولى في مباحثات مع اطراف عديدة كان هدفها ضمان مصالح بريطانيا في المنطقة، ووضعت الاسكندرونة موضع اهتمامها الخاص. فشككت بعروبة الاسكندرونة خلال المراسلات مع الشريف حسين بهدف عدم ضم الاسكندرونة الى المنطقة العربية التي ستستقل من الدولة العثمانية. وحاولت ابعاد فرنسا من سوريا ومن الاسكندرونة خصوصا عن طريق مساومتها بالمستعمرات الالمانية في افريقيا. وحاولت التشكيك بان الاسكندرونة ليست اراض سورية. ولكن خوف الحكومة البريطانية من تعرض التعاون البريطاني ـ الفرنسي خلال الحرب الى التصدع في حالة قلق الفرنسيين «لرؤية رجوع البريطانيين الى عادتهم التقليدية بانتهاز الحروب الاوروبية الكبرى كفرصة لتوسيع رقعة نفوذهم خارج اوروبا (١٥٠) ولاعتقاد استراتيجية اخرى كاهمية موقع فلسطين بالنسبة الى المصالح البريطانية في مصر وقناة السويس، لهذه الاسباب وافقت بريطانيا بموجب معاهدة سايكس ـ بيكو على التنازل عن ادعائها في الاسكندرونة الى فرنسا. وعلى الرغم من هذه الموافقة الصريحة، الا ان بريطانيا طالبت في نهاية عام ١٩١٨ الغاء معاهدة سايكس بيكو وذلك لوضع اتفاقية جديدة تؤمن فيها على مصالحها. فالظروف كانت في صالحها حيث احتل الجيش البريطاني سوريا، وهكذا تمت المساومة بين فرنسا وبريطانيا: تنازلت فرنسا عن الموصل التى كانت تحت النفوذ الفرنسي حسب اتفاقية سايكس ـ بيكو وكذلك عن فلسطين. مقابل ذلك اعترفت بريطانيا بالسيطرة الفرنسية الكاملة على سوريا مع دمشق وحلب وبيروت والاسكندرونة.

كانت بريطانيا تخشى بقاء الاسكندرونة تحت السيطرة الفرنسية والتى ستحولها فرنسا الى قاعدة بحرية تؤثر بالتالى على المصالح البريطانية في المنطقة. وهذا يفسر لنا التأييد والتشجيع الذى قدمته بريطانيا لتركيا في سياستها الرامية الى ضم الاسكندرونة. فتركيا استغلت الظروف الدولية التى مرت بها فرنسا خلال فترة ما بين الحربين، وانتهجت اساليب عدة. فتارة تحاول اغراء فرنسا بمنحها امتيازات اقتصادية وتارة اخرى تهدد باستعمال القوة ضد فرنسا. فالخلافات البريطانية ـ الفرنسية والتهديد الايطالى وكذلك الالمانى النازى، كل هذه الاسباب جعلت فرنسا تحاول كسب ود تركيا. فسمحت فرنسا للقوات التركية الدخول الى الاسكندرونة لتزوير الانتخابات. وعملت بريطانيا عن طريق ممثلها وهو رئيس لجنة الانتخابات في الاسكندرونة تزوير الانتخابات ايضا. اما هدف تركيا من ضم الاسكندرونة فهو القضاء على اية «تحكيمات او قوى عسكرية في حدودنا الجنوبية، وان نستفيد من خليج الاسكندرونة الذي ستكون له اهمية عظيمة بعد ربط خطوطنا الحديدية بخطوط ايران» (١٥١).

الهوامـــش

(١) لوتسكي ، فلاديمير ، تاريخ الاقطار العربية الحديث ، ترجمة د. عفيفة البستاني ، (موسكو، ١٩٧١) ص ١٢٧.

(٢) لتشوفسكي ، جورج ، الشرق الأوسط في الشؤون العالمية ، ترجمة جعفر طياط ، ج ٢ (بغداد ، ١٩٦٤) ص ٥٢

(3) Ma'oz, M., Ottoman Reform in Syria and Palestine 1843-1861, (Oxford University Press, 1968), P. 179.

(4) Issawi, C. (ed). The Economic History of the Middle East 1800-1914, (The University of Chicago Press, 1966), P. 33.

(5) Ibid. P. 207

(٦) حول النشاط الفرنسي ونشاطات الدول الأوروبية في الشرق عموما وسوريا خاصة انظر

(٧) انظر

Y.S. Al-amir, British Reaction to Germany's Ottoman Policy 1870-1885, (Unpublished Ph. D theses, University of Bradford, 1978) Vol. 1, PP. 29-32

وكذلك للتفاصيل انظر ترحيني ، محمد احمد ، الأسس التاريخية لنظام لبنان الطائفي ، دراسة مقارنة (دار الآمان الجديدة ، بيروت ، ١٩٨١) ص ١٤١ ـ ٢٠٠ انظر

(٨) حول التنافس الفرنسي ـ البريطاني على مصر والذي انتهى بالاحتلال البريطاني انظر

Horniker, A.L. Anglo-French Rivalry in the Levant from 1583 to 1612. The Journal of Modern History, Vol. XVIII, December 1946, No. 4, PP. 289-305. Marlowe, J., Perfidious Albion, The Origins of Anglo-French Rivalry in the Levant (London, 1971)

(9) Evans, L., United States and the Partition of Turkey 1914-1924 (The Johns Hopkins Press, 1965) P. 114.

(١٠) عقدت هذه المعاهدة في اذار ١٨٧٨ بين روسيا والدولة العثمانية اثر اندلاع الحرب بين هاتين الدولتين بسبب انتفاضة البلقان لعام ١٨٧٥

(11) Blunt, W.S. Secret History of the English occupation of Egypt, (Franborough, 1969), PP. 35-6, Marsden A., British Diplomacy and Tunis 1875-1902, (Edinburgh, 1971), PP. 50-55.

(12) Fraser D., The Short Cut to India, (London, 1909), PP. 32-3. Hoskins, H.L. British Routes to India, (London, 1966), PP. 331-342.

(13) Ibid., P. 407.

(14) Ibid., PP. 429, 433-5, 446-9.

(15) Langer, W.L., European Alliances and Alignments 1870-1890, (New York, 1966), P. 140

(16) Buckle, G.E. The Life of Benjamin Disraeli, Earl of Beaconsfield, Vol. VI, (London, 1920), P. 264.

(17) Ibid., PP. 273-4.

(18) Ibid., PP. 264-5.

(19) Langer, Op. Cit., P. 143

(20) Hoskins, Op. Cit., PP. 445-6

(21) Ibid., P. 440

(22) Dillon, E.J., The Baghdad Railway, The Contemporary Review, Vol. 83, May 1903, PP. 742-3.

(23) Weber, F.G., Eagles on the crescent; Germany, Austria and the Diplomacy of the Turkish Alliance (1914-1918), (Cornell University Press, 1970), PP. 187, 226-7.

(٢٤) حول تفاصيل سكة حديد برلين ـ بغداد انظر :

Chapman, M.K. Great Britain and the Baghdad Railway 1888-1941 (Nothampton, Mass., 1948); Al-Amir, Y.S., Great Britain and the Baghdad-Berlin Railway (1899-1903, (unpublished M.A. dissertation, University of East Anglia, 1973).

(25) Hopwood, K., The Russian Presence in Syria and Palestine 1843-1914, (Odford University Press, 1969), P. 99.

(26) Shorrock, W.I. French Suspicion of British Policy in Syria 1900-1914, Journal of European Studies, Vol. VI, 1976, PP. 190-191, 203-5.

(٢٧) من الجدير بالذكر ان الاستثمارات الفرنسية قد احتكرت سوريا كليا وبالتالي حصلت على احتكار مد سكك حديد وكذلك بناء الموانيء الرئيسية وتشييد الطرق في سوريا.

(28) Nevakivi, J., Britain, France and the Arab Middle East 1914-1920, (London University Press, 1969), PP. 3-4.

(29) Ibid., PP. 7-8, Shorrock, Op. Cit., PP. 198-203.

(30) Ibid., PP. 195-197

(31) Grey to Goschen, 24 January 1913, cited in Nevakini, Op. Cit., P. 9

(32) Ibid., P. 11.

(33) Koch, H.W. (ed), The Origins of the First World War, (London, 1972), P. 237

(34) Shorrock, Op. Cit., P. 205.

(٣٥) حول علاقة المانيا بالدولة العثمانية انظر :

Trumpener, U., Germany and the Ottoman Empire 1914-1918, (Princeton University Press, 1968).

(٣٦) لمزيد من التفاصيل انظر : قاسمية ، خيرية ، الحكومة العربية في دمشق ١٩١٨ ـ ١٩٢٠ ، (القاهرة ، ١٩٧١) ص ١٥ ـ ٢٨ .

(٣٧) حول علاقة الشريف حسين ببريطانيا انظر : يحيى ، جلال ، العالم العربي الحديث ، (القاهرة ، ١٩٦٧) ص . ٥١٣ ـ ٥١٨ ، ٥٥١ ـ ٥٦٥ ، موسى ، سليمان ، الحركة العربية ، المرحلة الأولى للنهضة العربية الحديثة ١٩٠٨ ـ ١٩٢٤ ، (بيروت ، ١٩٧٧)الفصلين الثاني والثالث

(٣٨) قاسميه ، خيريه ، المصدر السابق ، ص ٢٧ . حول مراسلات الحسين ، مكماهون راجع

Kedourie, E., Cairo and Khartoum on the Arab Question 1915-1918, The Historical Journal, Vol. VIII, 1964, No. 2, PP. 280-97. Antonius, G., The Arab Awakening, (Beirut, 1969), PP. 163-85, 413-27; Kedourie, E., In the Anglo Arab Labyrinth, (Cambridge University Press, 1976).

وكذلك زين ، نور الدين ، زين ، الصراع الدولي في الشرق الأوسط ، (بيروت ، ١٩٧١) ، ص ٦٠ ـ ٦٩، موسى ، سليمان ، المصدر السابق ، ص ٢٠١ ـ ٢٦٠ في ١٨ آب ١٩١٤ طلب كري من نائب الملك البريطاني في الهند دراسة بعض الاجراءات الممكن اتخاذها في حالة اندلاع القتال مع تركيا في منطقة الخليج العربي من اجل تحويل انظار تركيا وفي الوقت نفسه ضمان المصالح البريطانية ونتيجة لذلك ، حصل نائب الملك على وعود « بالتعاون المخلص » من شيوخ الكويت والمحمره وبعض شيوخ العرب . وخلال شهري آب وايلول ارسلت حكومة الهند تاكيدات جماعية Collective Assurances الى شيوخ الكويت والمحمره وبعد ذلك الى قطر وامير نجد والادريس ، استندت هذه التاكيدات على المعاهدات والتفاهم القائم بين بريطانيا وهؤلاء الشيوخ . وافق كل من ابن سعود وشيوخ الكويت والمحمره على التعاون مع بريطانيا من اجل احتلال البصره ، مقابل موافقة البصرة على عدم ابقاء البصره تحت السيطرة التركية . والواقع ان هذه التاكيدات هي التي مهدت مراسلات الحسين ، مكماهون

Kent, M., Asiatic Turkey 1914-1914, in British Foreign Policy under Sir Edward Grey, edited by F.H. Hinsley, (Cambridge University Press, 1977), P. 439

(٣٩) يحي ، جلال ، المصدر السابق ، ص ٥٤١ ، موسى ، سليمان ، المصدر السابق ، ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥ .

(٤٠) قاسميه ، خيريه ، المصدر السابق ، ص ٢٩ ، موسى ، سليمان ، المصدر السابق ، ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨

(41) Antonius, Op. Cit., P. 170

(٤٢) موسى ، سليمان ، الحسين بن علي والثورة العربية الكبرى ، (عمان ، ١٩٥٧) ص ٤٥ .

(43) Longrigg, S.H., Syria and Palestine under French Mandate, (Oxford University Press, 1958), P. 55.

(٤٤) موسى ، سليمان ، الحسين بن علي ، ص ٦٦ .

(٤٥) المصدر نفسه ، ص ٧٢

(46) Dawn, C.E., From Ottomanism to Arabism, Essays on the origins of Arab Nationalism, (University of Illinois Press, 1973), PP. 33, 116.

(٤٧) تعزى موافقة بريطانيا على احتلال روسيا للقسطنطينية والدردنيل لأسباب ثلاث هي استمرار روسيا في الحرب لقاء حصولها على الثمن ، وعدم استمرار الدول الأوروبية في الحرب من اجل تحقيق مطامع روسيا ضد المانيا والنمسا ـ المجر ، او بعبارة اخرى اجبار روسيا على المشاركة بالحرب ، والسبب الأخير هو ان كري اراد الحفاظ على مصالح بريطانيا في الشرق وتوجيه انظار روسيا نحو اوروبا . للمزيد انظر

Ekstein, M.G., Russia and the Straits 1914-1915, in British Foreign Policy under Sir Edward Grey, edited by F.H. Hinsley, (Cambridge University Press, 1977), PP. 423-36

(٤٨) عبدالقادر ، صلاح الدين ، اضواء على مشاكل عربية ودولية ، (بغداد ، ١٩٧٢) ص ٧٥

(49) Antonius, G., Op. Cit., Appendix 13, P. 429

(50) Fried man, I., The Question of Palestine 1914-1918: British-Jewish-Arab Relations, (London, 1973), PP. 20, 104

(51) Ibid., P. 20

(٥٢) هناك اراء مختلفة حول من هو المسئول عن فكرة الانزال البريطاني على الاسكندرونة فالراي الأول يقول ان الفكرة لم تعد لويد جورج فحسب بل ايضا للسير ماكسويل قائد القوات البريطانية في مصر ويدعي لورنس ان خطة الاسكندرونة هي « اولا واخيرا من ابتكاري ... وان كتشنر وافق عليها وامر بها » في حين يدعي الشريف حسين بانها « كانت خطته هو وانه لم يستطع قط ان يدرك السبب الذي ادى الى تجاهل نصيحته » الا ان الحقائق تشير الى ان الخطة ليست من صنع لورنس او الشريف حسين او لويد جورج ، لأن ماكسويل وكتشنر قد ناقشا « هذا المشروع اكثر من مرة قبل الحرب » .

Antonius, Op. Cit., 191-2, Monroe, E., Britain's Moment in the Middle East 1914-1956 (London, 19634), P. 27

الدنجتون ، ريتشارد ، لورانس في البلاد العربية ، ترجمة محمود عزت موسى ، ومراجعة الدكتور محمد انيس ، (القاهرة ١٩٦٦) ص ١٢٧ ـ ١٢٨ .

Woodward, Sir L., Great Britain and the war of 1914-1918, (London, 1967), P. 95

نايتلي ، فيليب ، الخطي من حياة لورانس العرب ، ترجمة ايلي لاوند واخرون ، (بيروت ١٩٧١) ، ص ٤٩

Dawn, Op. Cit., PP. 30-31

(53) Friedman, Op. Cit., P. 11

(٥٤) وافق كتشنر على هذه الخطة وامر بها على ان تتولاها قوات استرالية ونيوزيلنديه . الدنجتون ، المصدر السابق ، ص ١٢٨

(55) Kent, M., Op. Cit., P. 443

(56) Gottlieb, W.W., Studies in Secret Diplomacy during the First World War, (London, 1957), P. 79; Kent, M., Oil & Empire: British Policy & Mesopotomian Oil 1900-1920, (London, 1976), P. 120; Kent, M., Asiatic Turkey, P. 443

(57) Cabinet Meeting, 9 March 1915, cited in Nevakivi, Op. Cit., P. 15

(58) War Council Meeting, 10 March 1915, cited in Ibid, PP. 15-6; Lowe, C.J. Italy and the Balkans 1914-1915, in British Foreign Policy under Sir Edward Grey edited by F.H. Hinsley, (Cambridge University Press, 1977), P. 418

(٥٩) يعتقد لويد جورج عكس هذا الراي وليس لأهميتها الاستراتيجية بل « بسبب الهيبة والمقام الناتج من احتلالها »

(59) Friedman, Op. Cit., PP. 16, 87

(60) War Council Meeting 10 March 1915, cited in Nevakivi, P. 16

(61) Lowe, C.J. Op. Cit., P. 418

(62) Busch, B.C., Britain, India and the Arabs 1914-1921. (University of California press. 1971). PP. 43-4, 115, Kent, M., Oil & Empire. P. 120.
(63) Friedman, Op. Cit., PP. 16, 87.
(64) Ibid. P. 17.
(65) Nevakivi, Op. Cit., P. 17.
(66) Rothwell, V.H., British War Aims and Peace Diplomacy 1914-1918. (Oxford University Press. 1971). P. 26.
(67) Kent, M., Asiatic Turkey, P. 113.
(68) Gottlieb, Op. Cit., P. 67.
(69) Busch, Op. Cit., P. 283; Friedman, Op. Cit., P. 101; Kedourie, In the Anglo-Arab Labrinth, P. 33.
(70) Nevakivi, Op. Cit., P. 17.

(٧١) تألفت اللجنة من :

عن وزارة الخارجية	G.R. Clerck
عن وزارة الهند	T.w. Holderness
عن البحرية	H.B. Jackson
عن وزارة الحربية	C.E. Callwell
عن وزارة التجارة	M. Sykes
	H. Smith

(72) Nevakivi, Op. Cit., PP. 18-25; British War Aims in Ottoman Asia: Report of the De Bunsen Committee 30 June 1915. in J.C. Hurtewitz (ed.), The Middle East and North Africa in World Politics. A Documentary Record. Vol. 2. British-French Supremacy 1914-1945, (Yale University Press, 1979) Doc. No. 12, PP. 26-46.
(73) Robbins, K., Sir Edward Grey, (London, 1971), PP. 328-9; Kedourie, In the Anglo Arab Labyrinth, P. 33.
(74) Friedman, Op. Cit., P. 20.
(75) Roberts, S.H. The History of French Colonial Policy 1870-1925, (London, 1963), PP. 591-2. Cassar, G. H., The French and the Dardanelles, (Letchworth, 1971). P. 54; Gottlieb, Op. Cit., PP. 80-81.
(76) Ibid., P. 101.
(77) Ibid., 81; Cassar, Op. Cit., 220-1.

بقيت خطة الانزال على الاسكندرونة حية . وكانت مرتبطة بالاحداث في منطقة الشرق كالاندحار البريطاني في الكويت عام ١٩١٦ . وبقيت ايضا عام ١٩١٧ ، الا ان الخطة ماتت موتا طبيعيا بعد نجاح الحملات البريطانية على العراق وفلسطين من الاستيلاء على الاراضي التابعة للامبراطورية العثمانية

Busch, Op. Cit., P. 117.
(78) Friedman, Op. Cit., 101.
(79) Ibid.
(80) Ibid.
(81) Cassar, Op. Cit., P. 59.

(٨٢) في الحقيقة ان بريطانيا كانت تهدف الى استخدام النفوذ الفرنسي كحاجز بين النفوذ الروسي والنفوذ البريطاني . لذلك وافقت على وضع الموصل تحت النفوذ الفرنسي .
(83) Friedman, Op., Cit., PP. 109-10.
(84) Howard, H.N., The King-Crane Commission, (Beirut, 1963), P. 67.
(٨٥) حسين ، فاضل ، مشكلة الموصل ، (بغداد ١٩٦٧) ص ٧ ـ ٨ .
(٨٦) زين ، نور الدين زين ، المصدر السابق ، ص ١٦٢
(٨٧) كان لفرنسا مطامع في بلاد فارس ، وكانت قد اعلنت عن عزمها ارسال لجنة خاصة الى ذلك البلد . لذا سارعت بريطانيا الى توقيع اتفاقية مع بلاد فارس لوضع حد للزحف الفرنسي .
Busch, B.C., Mudros to Lausanne: Britain's Frontier in West Asia 1918-1923. (State University of New York Press. 1976). PP. 131-43, 269-392.
(88) Howard, H.N., The Partition of Turkey. A Diplomatic History 1913-1923. (University of Oklahome Press. 1931), P. 262.
(89) Busch, B.C., Mudros to Lausanne, P. 312.
(90) Angora Agreement for the promotion of peace. Peace and the Provisional Nationalist Government of Turkey, 20 October 1921, Temperley, H.W. (ed). A History of the Peace Conference of Paris, Vol. VI, (Oxford University Press, 1969), P. 607; Hurewitz, J.C., Op. Cit., Vol. II, Doc. No. 64, PP. 263-4.
(91) Lewis, B., The Emergence of Modern Turkey, (Oxford University Press, 1968), PP. 253-4.
(92) Howard, Op. Cit., P. 261.
(٩٣) محافظة ، علي ، لواء الاسكندرونة ، المؤرخ العربي ، العدد ٢٢ ، ١٩٨٣ ، ص ٨٨ .
(٩٤) قرقوط ، ذوقان ، تطور الحركة الوطنية في سوريا ١٩٢٠ ـ ١٩٣٩ (بيروت ١٩٧٥) ملحق رقم ٢٥ ، ص ٣٠٠ ـ ٣٠١ ، قرقوط ، ذوقان ، المشرق العربي في مواجهة الاستعمار ، قراءة في تاريخ سوريا المعاصرة ، (الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧) ص ١٦٣ ـ ١٦٤ .
Hurewitz, Op. Cit., Doc. No. 64, P. 265.

(95) Yussuf Kemal Bey to M. Franklin Bouillon, Angora, 20 October, 1921, enclosure No. 2. cited in Temperley, Op. Cit., PP. 608-9.
(96) Sanjian, A.K., The Sanjak of Alexandertta Hatay. Its impact on Turkish Syrian Relations 1939-1956. The Middle East Journal, Vol. X, 1956, No. 4, P. 379; Grenville, J.A.S., The Major International Treaties 1914-1973. A History and Guide with Texts. (London, 1974), PP. 79-80.
(٩٧) محافظة ، علي ، المصدر السابق ، ص ٨٥ .
(98) Howard, Op. Cit., P. 265.
(٩٩) قرقوط ، دوقان ، تطور الحركة الوطنية في سوريا ، ص ١٥٩ .
(100) Longrigg, Op. Cit., P. 141.
(101) Ibid, P. 172.
(١٠٢) قرقوط ، ذوقان ، تطور الحركة الوطنية في سوريا ، ص ١٥٩ ـ ١٦٠ .
(١٠٣) قرقوط ، ذوقان المشرق العربي في مواجهة الاستعمار ص ٣٤٣ ـ ٣٥٥ .
(١٠٤) المصدر نفسه ، ص ٣٥٦ ـ ٣٥٨
(١٠٥) محافظة ، علي ، المصدر السابق ، ص ٨٩ .
(106) Longrigg, Op. Cit., P. 224.
(١٠٧) قرقوط ، ذوقان ، المشرق العربي في مواجهة الاستعمار ، ص ٤٢٩ .
(١٠٨) نشوفسكي ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥٢
(109) Longrigg, Op. Cit., P. 238.
(110) Sanjian, Op. Cit., P. 380.
(١١١) من الجدير بالذكر ان قسما من الأتراك كانوا يكنون الكراهية لحكومة انقره لأنهم ينتسبون الى المدرسة القديمة لتركيا العثمانية . Longrigg, Op. Cit. P. 211.
(112) Sanjian, Op. Cit. P. 380, Longrigg, Op. Cit., P. 238.
(١١٣) ان عدد الأرمن الذين تركوا ديارهم في ربيع عام ١٩١٧ طبقا لاحصائيات القناصل الالمان في بلاد ما بين النهرين وسوريا كالآتي
(٤٥) الف استقر في حلب
(٢٠) الف استقر في دمشق
(٨) الف استقر في الموصل
Trumpener, U., Op. Cit., PP. 233, 246-7.
(١١٤) حسين ، عبدالرزاق ، الجغرافيا السياسية ، (بغداد ١٩٧٦) ص ٢١٠ .
(115) Sanjian, Op. Cit., P. 380.
(116) Temperley, Op. Cit., Appendix. V, PP. 645-650.
(١١٧) قرقوط ، ذوقان ، تطور الحركة الوطنية في سوريا ، ص ١٦٠
(118) Longrigg, Op. Cit., P. 239.
(١١٩) عبدالقادر ، صلاح الدين ، المصدر السابق ، ص ٧٨
(١٢٠) حسين ، فاضل ، محاضرات عن مؤتمر لوزان واثاره على البلاد العربية ، (القاهرة ١٩٥٨) ص ٥٧
(١٢١) المصدر نفسه ، ص ٥٨ ـ ٥٩ ، عبدالقادر ، صلاح الدين ، المصدر السابق ، ص ٧٩ .
(١٢٢) محافظة ، علي ، المصدر السابق ، ص ٩٠
(١٢٣) حسين ، فاضل ، محاضرات عن مؤتمر لوزان ، ص ٥٨ ـ ٥٩ .
(124) Longrigg, Op. Cit., P. 240.
(١٢٥) لنشوفسكي ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥٣ .
(١٢٦) المصدر نفسه .
(١٢٧) قرقوط ، ذوقان ، المشرق العربي في مواجهة الاستعمار ، ص ٤٢٦ .
(١٢٨) يبدو ان الوزارة السورية قد وافقت على عملية سلخ الاسكندرونة وانها اقترحت على ان يتم تعويضها بضم طرابلس الى سوريا .
Longrigg, Op. Cit., PP. 240, 252.
حول موقف الحكومة السورية انظر : محافظة ، علي ، المصدر السابق ، ص ٩١ ـ ٩٢
(١٢٩) قرقوط ، ذوقان ، تطور الحركة الوطنية في سوريا ، ص ١٦١
(١٣٠) محافظة ، علي ، المصدر السابق ، ص ٩١ .
(131) Longrigg, Op. Cit., P. 240.
(132) Ibid., P. 239.
(١٣٣) محافظة ، علي ، المصدر السابق ، ص ٩٢ .
(134) Longrigg, Op. Cit., P. 239.
(135) Ibid, PP. 240-241.
(136) Ibid., P. 241.
(137) Ibid.
(138) Trask, R.T., The United States Response to Turkish Nationalism and Reform 1914-1939. (The University of Minnesota Press. 1963), P. 235.

(139) Howard. Op. Cit.. P. 289.
(140) Longrigg. Op.. Cit.. P. 241

(١٤١) عبدالقادر ، صلاح الدين ، المصدر السابق ، ص ٨١ .

(142) Longrigg. Op. Cit.. P. 242.

يذكر الدكتور ذوقان قرقوط بان عملية الانتخابات جرت في شهر آب ونال الاتراك ٨٤٧ر٢٥ صوتا وحصلوا وفقا لنظام الانتخاب الموضوع لهذه الغاية على (٢٢) مقعدا من اصل (٤٠) مقعدا . تطور الحركة الوطنية في سورية ، ص ١٦١ .

(١٤٣) لنشوفسكي ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥٤ .

(144) Longrigg. Op. Cit.. P. 242

45) Ibid.. PP. 242-3.

(١٤٦) قرقوط د ذوقان ، تطور الحركة الوطنية في سوريا ، ملحق رقم (٢٦) ، ص ٣٠١ - ٣٠٢

(١٤٧) حسين ، فاضل ، محاضرات عن مؤتمر لوزان ، ص ٦٣ _ ٦٤ .

(١٤٨) انظر نص المعاهدة في الكيالي ، عبدالوهاب واخرون ، الموسوعة السياسية ، (بير ١٩٧٤) ، ص ٦٥٥ _ ٦٥٨ .

49) Longrigg. Op. Cit.. P. 243.
50) Busch. B.C.. Britain. India and the Arabs. P. 115.

(١٥٩) قرقوط ، ذوقان ، تطور الحركة الوطنية في سوريا ، ص ٣٠٢ _ ٣٠٣ .



ردود الفعل التركية تجاه قيام الوحدة العربية بين سوريا ومصر عام ١٩٥٨ في ضوء الصراع الدولي وآثاره في المنطقة العربية

العلاقات العربية التركية ـ بعد الحرب العالمية الأولى

عوني عبدالرحمن السبعاوي
كلية التربية / جامعة الموصل

اتسمت العلاقات العربية التركية منذ تأسيس دولة تركيا الحديثة عام ١٩٢٣ بالتوتر وعدم الاستقرار حينا، وبالتحسن والتطوير لهذه العلاقات حينا آخر.

كما تباينت هذه العلاقات بين قطر عربي وأخر في علاقاته مع تركيا تبعا لظروف ذلك القطر واوضاعه وقضاياه.

وساهمت ظروف ومتغيرات السياسة الدولية، وطبيعة المصالح التركية وارتباطاتها بالمصالح الغربية في الشرق الاوسط بشكل عام وفي المنطقة العربية بشكل خاص، وتطورات اوضاعها السياسية والاقتصادية الداخلية في صنع سياستها الخارجية تجاه الاقطار العربية.

ولعبت السياسة الثقافية التي اقرها مصطفى كمال اتاتورك في التوجه نحو الحضارة الغربية، وتوطيد علاقات تركيا مع الدول الغربية، وقطع الصلة الثقافية بالتراث العربي الاسلامي في تعميق عزلة تركيا الفكرية والحضارية تجاه الاقطار العربية (١).

هذا بالاضافة الى الشعور العام في تركيا الذي يحمل العرب مسؤولية خسارة الاتراك في حروبهم ضد الحلفاء ابان الحرب العالمية الاولى (٢)، متجاهلين حقيقة الثورة العربية ودوافعها التي قادها الشريف حسين عام ١٩١٦ ضد سياسة التتريك التي اتبعتها الحكومة العثمانية تجاه القوميات غير التركية ضمن اطار الامبراطورية العثمانية، وتحقيق طموحات العرب المشروعة في الاستقلال والوحدة، شأنها في ذلك شأن بقية الحركات القومية الاخرى. حتى ان هذه الثورة قد تعاطفت مع الاتراك انفسهم ابان حرب التحرير الوطنية التركية التي قادها مصطفى كمال اتاتورك ضد القوى الغربية الاستعمارية (٣).

تركيا ومشاريع الوحدة العربية

خاض الشعب العربي في مختلف اقطاره نضالا طويلا ومريرا من أجل التخلص من براثن السيطرة الاستعمارية الغربية وما كادت الاقطار العربية تنال استقلالها السيا... سارع الاستعمار الغربي بزرع دولة الكيان الصهيوني على ارض فلسطين لتكون سدا منيعا امام أية خطوة لاحقة يقدم عليها العرب بعد تحقيق استقلالهم وهي اعادة التوحد العربي ضمن دولة مركزية.

لقد شغلت قضية تحقيق الوحدة العربية باعتبارها تشكل نقيضا لواقع التجزئة الاقليمية، وعامل نهوض قومي شامل في شتى ميادين الحياة الفكرية والحضارية.. ومازالت تشغل حيزا مهما في تفكير ونضال الشعب العربي في شرق الوطن العربي ومغربه منذ زمن ليس بالقصير، وبروز العديد من المفكرين الوحدويين والحركات والاحزاب السياسية في الوطن العربي التي نادت بتحقيق الوحدة العربية.

ومنذ ذلك الحين برزت عدة مشاريع ومحاولات وحدوية عربية بعضها جاد وحقيقي، والبعض الأخر شكلي وسطحي.. ومن هذه المشاريع (مشروع الهلال الخصيب، ومشروع سوريا الكبرى، جامعة الدول العربية، الوحدة السورية المصرية..)

ولقد اتسمت المواقف التركية تجاه محاولات العرب السابقة نحو الوحدة أو الاتحاد بالعداء والرفض لكونها لاتنسجم مع مصالحها ومصالح القوى الغربية في المنطقة العربية.

فلقد عارضت تركيا محاولات العراق تحقيق اتحاد مع سوريا ومع غيرها من اقطار المشرق العربي في الثلاثينات والاربعينات من هذا القرن، حين ابدت مخاوفها تجاه خطط حكومة ياسين الهاشمي ونهجها القومي في اواسط الثلاثينات من اقامة تحالف مع سوريا وفلسطين مراعاة للمصالح البريطانية في فلسطين، وخشيتها من ان يكون لهذا الاتحاد قوة دعم واسناد لسوريا في قضية الاسكندرونة التي كانت تركيا تتهيأ للاستحواذ عليها وضمها الى حدودها الاقليمية، كما يفسر تأييدها الكبير لانقلاب بكر صدقي ضد حكومة ياسين الهاشمي عام ١٩٣٦ (٣).

وعبر الموقف التركي الرافض للوحدة عن نفسه عندما حاول

نورى السعيد وزير الخارجية العراقية في لقائه الخفى مع وزير الخارجية التركية توفيق رشدى آراس في استانبول عام ١٩٤٠ ان ينال موافقة الحكومة التركية على اقتراحه المتضمن تنازل العراق عن جزء من اراضيه في المنطقة الشمالية (لم تعرف مساحتها وحدودها) الى تركيا مقابل سكوت الاخيرة في حالة طلب السوريين الاتحاد مع العراق. لكن تركيا لم توافق على ذلك رغم الاغراء الذى قدمه نورى السعيد لمعارضتها اى نهج وحدوى عربى (٤).

وقد حرص نورى السعيد بعد عودته من محادثاته مع مصطفى النحاس رئيس الوزراء المصرى في آب ١٩٤٣ بشأن اقامة اتحاد بين الاقطار العربية واجتماعه بوزير تركيا المفوض في بغداد ان يطمئن المسؤولين الاتراك بان الهدف النهائى لاتحاد الاقطار العربية هو اعتبار الاتحاد جزءاً من تكتل اكبر لدول منطقة الشرق الاوسط وفقا لمقترحات تشرشل التى اعلنها في خطابه في ٢١ آذار ١٩٤٣ (٥).

كما انعكست هذه المخاوف التركية على ما نشرته الصحف التركية حول الوحدة العربية في تلك الفترة وتحليلاتها حول امكانية تحقيقها من عدمه (٦).

وازاء هذه القضايا وغيرها التى سنتحدث عنها يتضح بان المسؤولين الاتراك على اختلافهم كانوا يبدون مخاوفهم وارتيابهم من اى عمل عربى وحدوى وقيام أية دولة عربية متحدة تقع على حدود تركيا الجنوبية.

وقد تجسدت هذه الحقائق في موضوع البحث عن ردود فعل تركيا تجاه قيام الوحدة العربية بين سوريا ومصر في شباط ١٩٥٨ كأول تجربة وحدوية عربية حقيقية ومتميزة في هذا العصر.

ولفهم خلفيات هذه المواقف وابعادها لابد ان نشير الى جملة قضايا واحداث كان لها تأثيراتها المباشرة او غير المباشرة على طبيعة العلاقات القائمة بين تركيا والاقطار العربية.

ظروف الصراع الدولى
وأثره فى السياسة الخارجية التركية

طورت تركيا علاقاتها مع الدول الغربية في الميادين التى تخدم مصالحها السياسية والاقتصادية والاقليمية في المنطقة. حيث حققت تحكما بمضائقها (البسفور والدردنيل) في مؤتمر (مونترو) عام ١٩٣٦. ثم باقتطاعها وبالتواطؤ مع فرنسا (الاسكندرونة) من سوريا وضمها الى رقعتها الاقليمية عام ١٩٣٩ ثمن وقوفها على الحياد ابان الحرب العالمية الثانية الذى التزمت به الى اواخر الحرب حتى اعلنت انضمامها الى جانب الحلفاء ضد المحور كصيغة شكلية تجيز لها المشاركة في مؤتمر السلام بعد انتهاء الحرب.

وازاء المطالب السوفيتية الاقليمية في الاراضى والمضائق التركية (٧). المقرونة بالتهديدات المستمرة بعد الحرب العالمية الثانية اندفعت تركيا نحو الدول الغربية وبخاصة الولايات المتحدة الامريكية التى تبوأت زعامة الغرب للحصول على الدعم السياسى والدبلوماسى والمساعدات الاقتصادية والعسكرية التى تحققت بفضل مشروع (ترومان) عام ١٩٤٧ المتضمن تقديم مساعدات اقتصادية ومالية وعسكرية لتركيا واليونان لتمكينهما من الوقوف امام التهديدات السوفيتية بعد ان اعلنت بريطانيا عجزها عن الوفاء بالتزاماتها تجاه الدولتين المعنيتين.

لقد ادركت الولايات المتحدة الامريكية منذ ذلك الوقت اهمية تركيا من ناحية موقعها الاستراتيجى المتحكم بالمضائق وبقدراتها العسكرية والبشرية، واستقرار اوضاعها الداخلية وكونها من اكثر الدول الشرقية ميلاً للغرب وتشبثا بحضارته فعملت على دفعها من اجل [illegible] المنطقة العربية ضمن المحور الغربى. وساهمت في تأكيد المخاوف التركية من المخاطر الناجمة عن أي نوع من [illegible] بين الاقطار العربية، ومن الطبيعى ان [illegible] توجهاً قومياً مسألة تقع ضمن هذا [illegible] كل من بريطانيا والولايات المتحدة الامريكية [illegible] دور [illegible] في شل هذا التوجه، الامر الذى يشكل [illegible] الغرب ومشاريعه في المنطقة العربية (٨).

وكان البديل المقترح ان تتوجه تركيا لعقد نوع من التحالف مع العراق يكون اساساً لتكتل اقليمى يحول دون اى مشروع عربى وحدوى فكانت المعاهدة العراقية التركية عام ١٩٤٦ (٩). والتى جعلت اساساً لدخول اقطار عربية اخرى اليها. فهى بداية لسلسلة من المشاريع والاحلاف الغربية في المنطقة العربية بعد الحرب العالمية الثانية التى ابتدأت اوائل الخمسينات من خلال التصريح الثلاثى الذى شاركت في اصداره الولايات المتحدة الامريكية وبريطانيا وفرنسا في ٢٥ أيار ١٩٥٠ الذى استهدف التدخل في شؤون الاقطار العربية وابقاءها مجزأة، والحفاظ على مصالح الغرب الحيوية في المنطقة من خلال انشاء منظمة اقليمية تحت ستار الدفاع عنها ضد الخطر السوفيتى. ومشروع قيادة الشرق الاوسط الذى شاركت في اعداده الدول الثلاث الى جانب تركيا عام ١٩٥١ لاحتواء مصر وجعلها قاعدة للنفوذ والوجود الغربى في المنطقة تحت غطاء مواجهة الخطر السوفيتى ايضا (١٠). لكنها فشلت في مساعيها رغم نجاح الضغط الامريكى على بريطانيا حول مطالب مصر بتعديل معاهدة ١٩٣٦ بمعاهدة جديدة تم التوصل اليها في ١٩ تشرين الاول ١٩٥٤ وقررت فيها بريطانيا الجلاء عن قناة السويس.

وازاء الموقف المصرى المتشدد من المشاريع الغربية اتجه الغرب نحو العراق ليحل مكان مصر في هذه المشروعات لما يحتل من مكانة واهمية بين الاقطار العربية. ولما يحمله من ميزات

اهمها تزايد انتاجه النفطي، وتضاعف اهميته الاستراتيجية لوقوعه على الخليج العربي المنطقة الغنية بالنفط. كما ان كبار ساسته وفي مقدمته نوري السعيد وعبدالاله كانوا ميالين للتعاون مع الغرب بشكل صريح وسبق لهم وان دخلوا معه في معاهدات واحلاف.

ولما كانت تركيا ضالعة في هذا المخطط منذ مجيء الحزب الديمقراطي الى الحكم برئاسة عدنان مندريس عام ١٩٥٠. وارتباطها بحلف شمال الاطلسي عام ١٩٥٢ ثم بحلف البلقان مع يوغسلافيا واليونان عام ١٩٥٣. فان فشل جهودها في جر مصر لبناء هيكل امني للدفاع عن الشرق الاوسط جعل العراق الخيار البديل والمناسب، فعقد الحلف العراقي التركي في ٢٤ شباط ١٩٥٥، وتطور الى حلف بغداد بعد دخول بريطانيا وايران وباكستان فيه، ومشاركة الولايات المتحدة الامريكية في بعض لجانه الفرعية (١١). على امل ان تؤدي الضغوط الى توسيع الحلف ليشمل اقطارا عربية أخرى.

لكن وقوف مصر بوجه الحلف ورفضها الانضمام اليه رغم الضغوط التي تعرضت لها اضعفته كثيرا الى درجة جعلته مقتصرا على العراق فقط دون مشاركة أي قطر عربي اليه. فقد اعتقد الرئيس جمال عبدالناصر بان حلف بغداد سيؤدي الى انقسام الوطن العربي والى عزل مصر وجعلها تواجه الخطر الصهيوني وحدها (١٢). وقد سعى في محاولة سياسية تكتيكية عرقلة مساعي حلف بغداد في تحقيق مراميه واهدافه السياسية في المنطقة العربية باقناع كل من العراق وتركيا بضرورة التخلي عن محاولتهما ادخال اقطار عربية اخرى الى الحلف، فقد نسب اليه قوله انه يريد التفاهم مع تركيا حول الشيوعية و(اسرائيل) وكل ما يشترطه للوصول الى مثل هذا التفاهم ان تتخلى تركيا ويتخلى العراق عن سياستهما في الضغط على الاقطار العربية للانضمام الى حلف بغداد، وعندذاك تعتبر مصر حلف بغداد امرا واقعا بالنسبة لتركيا والعراق (١٣). لكنه فشل في تحقيق مساعيه مما اضطر مصر الى ان تعقد مواثيق دفاعية ضد هذا الحلف مع سوريا والمملكة العربية السعودية في ٢٠ و ٢٧ تشرين الاول ١٩٥٥. ثم انضمت اليمن اليهم في نيسان ١٩٥٦، رغم المحاولات الامريكية التي حاولت عرقلة عقد اتفاقيات عسكرية بين مصر والاقطار العربية الأخرى. ولاسيما مع سوريا بسبب تأثير ذلك مباشرة على امن الكيان الصهيوني، ولكون هذه الاتفاقيات تتعارض والسياسة الامريكية بانشاء احلاف عسكرية لا تكون تحت اشرافها أو سيطرتها المباشرة في المنطقة العربية.

الضغوط التركية والغربية ضد سوريا

وازاء الموقف المصري الاخير سعت دول حلف بغداد الى الاطاحة بحكم عبدالناصر بكل الطرق والوسائل الممكنة، في نفس الوقت الذي قررت فيه العمل على ضم سوريا الى هذا الحلف اذا تعذر ضمها للعراق بصيغة وحدة او اتحاد، بغية خلق عرش للامير عبدالاله في سوريا بعدتولي الملك فيصل الثاني سلطاته الدستورية في العراق عام ١٩٥٣ (١٤).

وبدأت حملات الضغط تتوالى على سوريا لارغامها على الدخول في حلف بغداد والقبول بمشروع ايزنهاور الذي طرحته الولايات المتحدة الامريكية في آذار ١٩٥٧، حيث ابلغ السفير الامريكي في دمشق الحكومة السورية عن تأييد حكومته لحلف بغداد، وعبر عن املها في انضمام سوريا اليه (١٥). لكنه جوبه بالرفض كما جاء على لسان وزير الخارجية السورية آنذاك صلاح الدين البيطار بان «مشروع ايزنهاور وحلف بغداد جسمان لروح واحدة» (١٦). مما حدا بالولايات المتحدة الامريكية الى ممارسة نوع من الحصار الاقتصادي على سوريا وذلك بان عرضت على دول عدة كانت تشتري القمح السوري بشرائه من الولايات المتحدة الامريكية باسعار ادنى من كلفة انتاجه (١٧). كما طلبت من حكومات لبنان والاردن والعراق وتركيا والكيان الصهيوني تشديد الحصار لعزل وتدبير مؤامرات لقلب نظام الحكم فيها، ولكن سرعان ما تم كشف هذه الخطط والقضاء عليها. في نفس الوقت الذي استطاعت فيه سوريا ان تعقد اتفاقيات عسكرية واقتصادية كبيرة مع الاتحاد السوفيتي في آب ١٩٥٧ (١٨). ففشلت بذلك المؤامرات التي دبرتها الحكومة الامريكية وفشل حصارها الاقتصادي على سوريا، فاتجهت نحو تركيا لتلعب دورها في محاولات الضغط على سوريا عام ١٩٥٧ نظرا لاطمئنانها التام اليها، حيث اصبحت تركيا في عهد عدنان مندريس كما جاء في صحيفة (اللوموند) الفرنسية «تحاول ان تلعب دور الممثل الحاصل على كل الصلاحيات لتمثيل الغرب في الشرق الاوسط» (١٩). بحكم موقعها الجغرافي القريب من سوريا ومعاداتها للاتحاد السوفيتي وامتلاكها لاكبر قوة عسكرية في الشرق الاوسط آنذاك، ورغبتها في حث الولايات المتحدة الامريكية على تقديم المزيد من المساعدات لتركيا مقابل الضغط على الاقطار العربية. هذا بالاضافة الى ان رئيس الوزراء التركي عدنان مندريس كان يريد ان يدعم موقفه داخليا الذي اخذ بالتصدع بسبب ارتداده عن خطوات مصطفى كمال الاصلاحية على الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي (٢٠). وتفاقم الازمات الداخلية ومنها العجز التجاري الكبير الذي كاد ان يعصف بحكومة مندريس التي تعرضت الى نقد شديد حتى من قبل الحزب الديمقراطي الحاكم نفسه (٢١). وحتى في مجال السياسة الخارجية عمل مندريس على انتهاج سياسة جديدة بديلة لسياسة مصطفى كمال الاستقلالية تجاه الغرب تمثلت بمحاولات التوسع نحو الشرق العربي (٢٢).

ويذكر في هذا الصدد بان تركيا بدأت بالتطلع الى مصالحها في الشرق الاوسط منذ تولي الحزب الديمقراطي الحكم عام ١٩٥٠. ومنذ منتصف الخمسينات عملت على استعادة النفوذ التركي في المنطقة العربية وتحقيق مطامعها الاقليمية فيها. وقد لوح جون

فوستر دالاس وزير الخارجية الامريكية للمسؤولين الاتراك مطامعهم تلك عند زيارته للشرق الاوسط عام ١٩٥٣ بقوله «ان حكومة الولايات المتحدة الامريكية لم تعر فيما مضى مطامح تركيا الاهتمام الكافي» (٢٣).

لقد اتصفت العلاقات السورية التركية بالتوتر الدائم بسبب اغتصاب تركيا للاسكندرونة، ومشكلات الحدود التي ظلت قائمة بالرغم من ان العلاقات الدبلوماسية بينهما قد اقيمت منذ استقلال سوريا عام ١٩٤٦، ورافقت تلك المشاكل والضغوط التركية تحركات عسكرية استفزازية على حدود سوريا الشمالية.

وقد بدأت تركيا حملاتها ضد سوريا جزاء تمسكها بموقفها المعارض لحلف بغداد بان اخذت تروج في وسائل اعلامها ما اعلنه مشروع ايزنهاور كما سبق ذكره بان هنالك فراغا في الشرق الاوسط يجب ملؤه، وساهم رئيس الوزراء التركي عدنان مندريس بدوره في عملية التضليل والتشويش ضد سوريا واتهامها بانها قد اصبحت صنيعة للاتحاد السوفيتي ومستودعا لاسلحته، وشاركه في هذا الرأى الرئيس الامريكي ايزنهاور بقوله «ان كل شيء حول سوريا غامض، لكن شكنا قوى بان الشيوعيين يسيطرون على الحكومة فيها» (٢٤).

كما اعلن وزير الخارجية الامريكية دالاس قلق حكومته على تركيا من انها تواجه خطرا سوفيتيا من جراء تراكم الاسلحة السوفيتية بكثرة في سوريا.

وقد رد وزير الخارجية السورية صلاح الدين البيطار على تلك الادعاءات في خطابه امام الهيئة العامة للامم المتحدة في تموز ١٩٥٧ موضحا بان السبب الدافع لسوريا الى حيازة هذه الاسلحة جاء من اجل الدفاع عن نفسها، وهي لاتشكل اى خطر على البلاد المجاورة لسوريا ولاسيما تركيا، حيث لاتوجد اية نيات عدائية سورية تجاهها (٢٥).

كما رفض الرئيس السورى شكرى القوتلي في خطاب له موجه للشعب السورى في ٢٣ ايلول ١٩٥٧ تلك الاتهامات الموجهة ضد بلاده بقوله : «ان تعاملنا مع الاتحاد السوفيتي يقوم على أسس صريحة وواضحة من تبادل المنافع والمصالح، وان ليس للشيوعية اى تحكم في امورنا وشؤوننا وسياستنا، واننا لن نبيع بلادنا ولن نوطىء قواعدنا لاحد ولن نسمح لاى معسكر من المعسكرين المتخاصمين ان يستخدمها لاغراضه العسكرية والحربية» (٢٦).

اخذت الولايات المتحدة الامريكية من خلال بعثة لوى هندرسن المندوب الخاص للرئيس الامريكي ايزنهاور الى تركيا تمارس نشاطا متزايدا ضد سوريا، اسفر عن اقناع المسؤولين الاتراك بتحشيد قواتهم العسكرية على الحدود السورية والقيام بمناورات عسكرية تمهيدا للهجوم عليها بعد ان وعدوهم بمنطقة حلب ثمنا لذلك (٢٧). فكثرت التحرشات التركية بالرعايا السوريين، وقطعت السلطات التركية مياه نهر (جعجع) عن سوريا، واخذت الدوريات التركية تتسلل عبر الاراضي السورية وتطلق العيارات النارية على بعض قرى الحدود، ورافق ذلك ظهور بعض قطع الاسطول السادس الامريكي في المياه الاقليمية السورية، وقد لاح في الافق بان عدوانا تركيا سيقع على سوريا ويشترك في دعمه واسناده الاسطول السادس الامريكي، الذى سيعمل على عزل سوريا بحريا اذا لم يساهم بالعدوان الفعلي ضدها.

ولمجابهة هذا التحدى بادرت الحكومة السورية الى اتخاذ الاجراءات العسكرية السريعة، وتنظيم مقاومة شعبية في جميع انحاء البلاد، وتوزيع الاسلحة الخفيفة المنوعة على سكان مناطق الحدود السورية التركية الذين قاموا بتحصين قراهم ومزارعهم ومدنهم استعدادا لمجابهة العدوان (٢٨).

لكن الاتحاد السوفيتي حذر تركيا بان اى عمل عدواني ضد سوريا سيحملها عواقب وخيمة. في الوقت نفسه سارعت مصر بارسال قوات مصرية الى سوريا للدفاع عنها بموجب المعاهدة السورية المصرية لعام ١٩٥٥ مما اسهم في افشال خطط الامريكان والاتراك في مهاجمة سوريا واجبارها على الرضوخ للمخططات الغربية.

وقد انتهت هذه الازمة بعد وقت قصير من عرضها على الجمعية العامة للامم المتحدة لمناقشتها، وحلت القضية بعد ان انكرت تركيا وجود اية نوايا عدوانية لديها ضد سوريا (٢٩).

قيام الوحدة السورية المصرية ١٩٥٨

شهدت المنطقة العربية خلال الخمسينات احداثا مهمة كان من ابرزها قيام الوحدة العربية بين سوريا ومصر في الثاني والعشرين من شباط عام ١٩٥٨. حيث ساهمت الضغوط والتهديدات الغربية والتركية والصهيونية ضد سوريا بالتعجيل نحو اللقاء السورى المصرى وبالتالي اعلان قيام الوحدة بينهما نتيجة الجهود الكبيرة والمتميزة التي بذلها حزب البعث العربي الاشتراكي داخل القطر السورى منذ عام ١٩٥٦ الذى مهد الاوضاع للحوار والتفاعل مع القيادة الناصرية التي اثمرت تحقيق هدف الوحدة العربية بين سوريا ومصر كخطوة اولية على طريق توحيد باقي الاقطار العربية وضمها الى دولة الوحدة سميت بـ (الجمهورية العربية المتحدة) عملت على ادخال مصر باعتبارها آنذاك مركزا للاشعاع القومي التحررى في المنطقة العربية في قلب احداث الشرق العربي (٣٠).

ولقد اوضح رئيس دولة الوحدة عبدالناصر منذ البدء ان سياسة الجمهورية العربية المتحدة في الداخل والخارج تقوم على أسس ثلاث هي (الاتحاد) و (عدم الانحياز) و (القومية العربية) (٣١).

وهذه السياسة تعني ترسيخ أسس وبنيان الوحدة السورية المصرية داخليا لتكون نموذجا يقتدى به عربيا، وتكوين قوة عربية ذاتية تطمح لان تكبر وتقوى باطراد كلما نجحت في توسيع

دائرتها العربية بما يحقق طموح العرب في الوحدة والاستقلال الحقيقي، ورفض اى نفوذ او وجود اجنبي في الوطن العربي، في نفس الوقت الذى تحافظ فيه على حيادها في تعاملها مع القوى الدولية الكبرى، فقد قال عبدالناصر «ان سياستنا هى الوحدة ضد الاحلاف، وضد السيطرة الاجنبية وضد مناطق النفوذ.. لا يملأ فراغا في بلادنا الا ابناء وطننا» رغم ادراكه للصعوبات والعراقيل التى سوف تعترضه حيث قال «ان هذه السياسة ليست سياسة سهلة، بل هى سياسة صعبة» (٣٢).

موقف الاوساط الغربية

لقد جوبهت هذه الخطوة الوحدوية العربية بردود فعل عدائية بين الاوساط الغربية وحلفائها في المنطقة الذين بدؤوا يروجون ضدها تشويها وافتراءات مبالغ فيها، وبعيدة عن الواقع واوجه الحقيقة بهدف اجهاضها والقضاء عليها لانها تعد تهديدا خطيرا للمصالح الغربية الحيوية في المنطقة، وبداية حقيقية لانحسار نفوذها فيها، فقد تركزت مزاعمهم حول الوحدة بانها تعبير عن مطامع عبدالناصر التوسعية، وخطوة متقدمة نحو الشيوعية (٣٣). كما اشاروا الى ان اعلان الوحدة السورية المصرية معناه نشوء اضطرابات جديدة في الشرق الاوسط لانه لن يوفر الاستقرار في المنطقة، بل على النقيض من ذلك يشير الى بدء المتاعب فيها (٣٤).

كما احيطت دولة الوحدة بقوىً دولية معادية لها، زاد من تاثيرها انها كانت تقع على حدود سوريا، وهذه القوى هي تركيا واسرائيل والنظامان الملكيان في العراق والاردن.

ردود الفعل التركية

لقد عبرت الحكومة التركية ومنذ البدء عن مواقفها التى اتسمت بالعداء والرفض لهذه الخطوة التى لا تنسجم مع مصالحها ومصالح القوى الغربية في المنطقة، وتاتى هذه المواقف منسجمة ومتواصلة مع المواقف العدائية السابقة التى وقفتها تركيا تجاه المحاولات العربية السابقة نحو الوحدة او الاتحاد بين الاقطار العربية التى اشرنا اليها سابقا.

ومن الطبيعى ان تنعكس هذه المواقف التركية تجاه الوحدة العربية على مواقفها تجاه قيام الوحدة السورية المصرية، وقد اتخذت اشكالا مختلفة ولكنها تلتقى في هدف واحد، هو القضاء على هذه الوحدة، سيما وان العلاقات التركية المصرية كانت قد توترت منذ بداية عام ١٩٥٤ حين ابعدت الحكومة المصرية السفير التركى وقطعت علاقاتها الدبلوماسية مع تركيا بسبب تصريحات عدائية ادلى بها السفير التركى في القاهرة (٣٥).

وجاء اول رد فعل رسمي من قبل الحكومة التركية تجاه قيام الوحدة السورية المصرية متسما بالعداء والسلبية من خلال تصريح ادلى به رئيس الوزراء التركى عدنان مندريس قال فيه «انه لامر لايدعو الى الارتياح ان ينام المرء وعلى حدوده دولة تعدادها اربعة ملايين نسمة، ويستيقظ في الصباح فيجد انها اصبحت ثلاثين مليونا» (٣٦)، كما جرت في تركيا حملات معادية ضد هذه الوحدة ظهرت في الصحافة التركية التى بدأت بنشر المقالات المعادية لمصر وسوريا، كانت تكرر فيها تقييم الغرب للسياسة الداخلية والخارجية للجمهورية العربية المتحدة، حيث استفزها طموح العرب الى الوحدة التى لايتفق ومصالحها (٣٧).

وقد يوحى الموقف التركى تجاه هذه الوحدة بالتناقض، اي بين رفض الاتراك ومعاداتهم لدولة الوحدة، وبين امتناع تركيا شأنها شأن بقية دول حلف بغداد الاخرى عن الاستجابةلطلب الحكومة العراقية بعدم الاعتراف بالجمهورية العربية المتحدة، حيث اعترفت دول حلف بغداد بقيام الجمهورية العربية المتحدة باستثناء الحكومة العراقية التى لم تعترف بها الا بعد قيام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ في العراق ومجيء حكومة عراقية جديدة (٣٨).

وكانت الحكومة التركية قد اعلنت اعترافها بالجمهورية العربية المتحدة رسميا في ١١ آذار ١٩٥٨ (٣٩). وكان تبرير اعتراف تركيا ودول حلف بغداد بهذه الوحدة بان عدم الاعتراف بها ليس من مصلحة الحلف (٤٠) لانها لاتريد تحدى المشاعر القومية العربية التى يخشى فعلها في حالة التصدى لها بشكل علنى ومكشوف. فالموقف المتناقض لم يتجاوز صيغته الشكلية، والاعتراف التركى بالوحدة السورية المصرية يعبر عن موقف تكتيكى تحاول من خلاله تركيا تضليل السوريين والمصريين بان ليس في نيتها اية مواقف عدائية تجاههم. لكن واقع الحال يظهر العكس تماما، ففي اثناء انعقاد مؤتمر انقرة لدول حلف بغداد في اواخر كانون الثانى واوائل شباط ١٩٥٨ اتفقت دول الحلف على ضرورة هدم الوحدة التى عقدت بين سوريا ومصر عن طريق استخدام اسلوب وحدوى مقابل يتلخص في ضم سوريا الى العراق (٤١). او اقامة تكتل اقليمى تحت مظلة اسلامية تبطل مفعول الاتجاه القومى الوحدوى، حيث كان الاتراك يحاولون تغطية تحركاتهم السياسية ضمن هذا الاطار. وقد الح مندريس الى ذلك في خطابه الذى القاه في اجتماع نظمه الحزب الديمقراطى الحاكم في ولاية (بورصة) التركية بمناسبة زيارته لها في ٢٠ شباط ١٩٥٨ حيث قال «لقد اتفقنا مع اخواننا في الدين، العراقيين والباكستانيين والايرانيين على الدفاع عن كيان هذه الدول الاسلامية التى تعرضت للظلم والغدر سنوات عديدة» (٤٢).

كما كرر مندريس في خطابه انتقاد قيام الوحدة بين سوريا ومصر من خلال اتهام الجمهورية العربية المتحدة بانها قد اصبحت تحت النفوذ الشيوعى وتتلقى مساعدات من الاتحاد السوفيتى (٤٣).

وفي الوقت نفسه حرضت الحكومة التركية المسؤولين في الحكومة العراقية على ان يطلقوا تصريحات عدائية ضد قيام الجمهورية العربية المتحدة اثناء وجودهم في استانبول لحضور اجتماعات مؤتمر دول حلف بغداد المشار اليها، وهو امر يتناف

مع الروابط القومية والتاريخية فضلا عن تقاطعه مع الاصول والاعراف الدولية، فقد اعلن رئيس الوزراء نوري السعيد «ان اتحاد مصر وسوريا لا بأس به اذا اعتبرنا انه يزيل احداهما» اما وزير الخارجية فاضل الجمالي فقد اضاف قائلا «هنالك أمر غريب وغير طبيعي في هذا الاتحاد الذي هو خطوة اخرى لفصل مصر وسوريا عن بقية الدول العربية، وما من شك في ان الامر الاساسي الذي يفصل مصر وسوريا عن بقية العالم العربي هو الشيوعية» (٤٤).

وقد رد عبدالناصر على تصريحات المسؤولين العراقيين المعادية للوحدة ووصفهم بانهم (اعوان الاستعمار) (٤٥).

من جانب أخر ساهمت تركيا مع دول حلف بغداد في انشاء اذاعة سرية تحت اسم (صوت الاصلاح) تبث برامج معادية للوحدة السورية المصرية (٤٦).

وبعد مشاورات سريعة تمت بين الحكومتين التركية والعراقية جاءت الخطوة العملية التي ساهمت تركيا في تحقيقها والتي كانت بمثابة اول رد فعل عملي من قبل تركيا ودول حلف بغداد تجاه الوحدة السورية المصرية. وهي دفع العراق والاردن لعقد اتحاد بينهما عرف بـ (الاتحاد الهاشمي) (٤٧).

وقد تمت هذه الخطوة بعد ان اقنع نوري السعيد الملك فيصل الثاني بالاتصال بالملك حسين ملك الاردن لتنسيق مواقفهما وجهودهما في مجابهة قيام الوحدة السورية المصرية، رافق ذلك زيارة رسمية قام بها الرئيس التركي جلال بايار الى الاردن بعد اجتماع لدول حلف بغداد تعبيرا عن تأييد تركيا للاتحاد الهاشمي وتوطئة لتهيئة الاجواء المناسبة من اجل انضمام الاردن الى هذا الحلف (٤٨).

لقد اعلن عن قيام الاتحاد الهاشمي بصورة مفاجئة وسريعة في ١٤ شباط ١٩٥٨، اي بعد ايام قليلة من اعلان قيام الوحدة السورية المصرية، وقد سميت الدولة الجديدة التي تضم العراق والاردن بـ (الاتحاد الهاشمي العربي) وتستهدف هذه الخطوة حماية النظام الملكي في الاردن ومنعه من الانضمام الى الجمهورية العربية المتحدة تحت ضغط وتأثير الحركة التقدمية الاردنية التي كانت قوية، وتبدي معارضة ملحوظة للسلطة، وكذلك في تضليل الشعب العربي وزرع روح اليأس والالتباس حول مشاريع الوحدة العربية ومفاهيمها عن طريق الايحاء بان هذا الاتحاد يحقق حلمه وتطلعاته نحو الوحدة.

وقد بارك رئيس الوزراء التركي عدنان مندريس قيام الاتحاد الهاشمي، واعتبره نصراً لحلف بغداد (٤٩)، بضم الاردن اليه عن طريق عضوية العراق في حلف بغداد وفي الاتحاد الهاشمي، وخطوة جريئة ضد قيام الجمهورية العربية المتحدة، وعاملا على اعاقة التفاف الاقطار العربية الاخرى حولها (٥٠).

غير ان عبدالناصر انتقص من جدوى قيام ذلك الاتحاد، ونفى تأثيره السلبي على قيام الوحدة السورية المصرية، ووصفه قائلا «انه كالهشيم الذي تذروه الرياح، أما الجمهورية العربية المتحدة فتمثل ارادة الشعب العربي» (٥١).

وقد رافقت هذه المواقف العدائية التركية محاولات تآمرية حاكتها الدول الاستعمارية ودول حلف بغداد، حيث اعلنت الحكومة السورية في الثالث عشر من شباط ١٩٥٨ نبأ القاء القبض على مجموعة من المتسللين الى سوريا قدموا اليها عبر لبنان والاردن، وادلوا باعترافاتهم التي بينوا فيها تفاصيل المؤامرة التي كانوا يزمعون تنفيذها في الحادي والعشرين من شباط ١٩٥٨ يوم الاستفتاء الشعبي على اعلان دولة الوحدة السورية المصرية في اماكن متفرقة من سوريا عن طريق استفزاز مشاعر الشعب السوري، واثارة المشاكل والاضطرابات لتخريب عملية الاستفتاء وتأزيم الوضع الداخلي وتبرير التدخل الاجنبي العسكري في سوريا. حيث تزامن الاعداد لهذه المؤامرة مع وجود حشود عسكرية تركية واخرى صهيونية على الحدود السورية في شمال البلاد وجنوبها من اجل ضرب الوحدة السورية والمصرية واجهاضها (٥٢).

أما اصداء مواقف الحكومة التركية تجاه قيام الوحدة السورية المصرية على الاوضاع في داخل تركيا فانها لم تكن ايجابية للحكومة وبخاصة لدى قوى الاحزاب المعارضة، فقد انتقد حزب الشعب الجمهوري المعارض الذي كان يعد من اقوى الاحزاب التركية مواقف الحكومة التركية السلبي تجاه هذه القضية، ودعا الى ضرورة التعامل معها بشيء من الحكمة والروية، وانتظار النتائج التي ستسفر عنها هذه الخطوة، رغم ان مواقفه لا تختلف عن مواقف حكومة عدنان مندريس العدائية تجاهها، لكنه انتقد اسلوب التعامل معها، حيث جاء في بيان اصدره في هذه المناسبة جاء فيه «ان اتحاد الدولتين السورية والمصرية وقيام الجمهورية العربية المتحدة ستكون له في العالم العربي أثار قومية، ولذلك يجب متابعة مثل هذه الحركات بسياسة انتظار غير عدائية ومحتاطة» (٥٣).

ولتبرير مواقف حكومة عدنان مندريس ازاء هذه القضية على ضوء الانتقادات التي وجهت اليه من قوى المعارضة ادلى وزير الخارجية التركي فطين رشدي زورلو بتصريح قال فيه «ان انشاء علاقات وطيدة بين دول الشرق الاوسط هـو من مباديء سياستنا الخارجية طالما كانت هذه العلاقات تقف امام التسلل الاجنبي وتؤدي الى عدم وقوع جارتنا سوريا في قبضة الاتحاد السوفيتي، ان الشيء الوحيد بالنسبة لانقرة هو ان لاتصبح اية دولة مجاورة لنا اداة طيعة لتنفيذ المخططات الشيوعية» (٥٤).

ويلاحظ من خلال هذا التصريح المغالطات المقصودة لتشويه هوية الخطوة الوحدوية بين سوريا ومصر، وتأكيد المواقف العدائية التركية تجاهها.

وعلى اثر توتر الاحداث الجارية في لبنان عام ١٩٥٨ التي وصلت الى حافة الحرب الاهلية والتدخل العسكري الامريكي

فيه. تكررت محاولات تركيا ودول حلف بغداد لمهاجمة الجمهورية العربية المتحدة، واتهم الرئيس جمال عبدالناصر بانه فرض هذه الوحدة على سوريا ويريد فرضها الآن على لبنان. وقالت صحيفة (جمهوريت) التركية تحت عنوان (الشرق الاوسط والغرب) «اذا اردنا ان لانمسح الشرق الاوسط من خارطة المدنية الغربية يجب ان نرجع السكينة والطمأنينة الى لبنان..» (٥٥).

وقد نفى الرئيس عبدالناصر الادعاء القائل بانه يريد فرض الوحدة على لبنان فقال انه يسعى لان يظل لبنان بلدا حرا مستقلا، وان جل ما يطلبه هو ان لايكون لبنان مركزا للمؤامرات الاجنبية التى تحاك ضد الجمهورية العربية المتحدة (٥٦).

وشرعت دول حلف بغداد بمساعدة الرئيس اللبناني كميل شمعون لتنفيذ اعمال عدائية ضد الجمهورية العربية المتحدة واتفق على تنفيذها في حزيران ١٩٥٨ لكنها اجلت اثر النصيحة التى تلقاها من الحكومة البريطانية بعد وصول مراقبى الامم المتحدة الى لبنان (٥٧).

وللوقوف بوجه تزايد المخاطر الناجمة عن قيام الوحدة السورية المصرية على المصالح الغربية في المنطقة العربية، عملت هذه القوى على عزل الجمهورية العربية المتحدة ومهاجمتها من كافة المحاور، فاخذت تركيا تهدد سوريا، وبدات دول حلف بغداد تنشر الدعايات ضدها، وتحدثت وسائل الاعلام الغربية عن قرب قيام معركة جديدة في المنطقة العربية، ورافق هذه الحملات تصريح لرئيس الوزراء التركى عدنان مندريس في خطاب القاه امام مؤتمر الحزب الديمقراطى الحاكم في مدينة (ازمير) جاء فيه «ان الدول التى تكون ضعيفة من مولدها وتأسيسها ضعيفة في سياستها الداخلية، غير مستقرة، وهى الميدان الذى يختاره ويفضله الجانب المقابل، ولذلك اضطرت سوريا الى التضحية باستقلالها والالتحاق بدولة اخرى، وانها كذلك يمكن ان تعتبر الآن فاقدة لشخصيتها المستقلة» (٥٩).

لقد استمر التنسيق بين المسؤولين في تركيا والعراق للقيام بعمل مضاد ضد دولة الوحدة، ويذكر في هذا المجال ان رئيس الوزراء العراقى نورى السعيد سافر الى بريطانيا بعد ان اجرى مشاورات سريعة حول الموضوع الانف الذكر مع رئيس الوزراء التركى عدنان مندريس، وعرض على المسؤولين البريطانيين اقتراحا يتضمن تدخلا تركيا وعراقيا بارسال قواتهما الى سوريا، على ان تنزل قوات بريطانية في الاردن واخرى امريكية في لبنان، وبذلك تتم مهاجمة سوريا من كافة المحاور والاتجاهات، وتقطع من جسم الجمهورية العربية المتحدة، على ان يعقب ذلك في مرحلة لاحقة مهاجمة مصر واسقاط حكم الرئيس جمال عبدالناصر. وقد حددت تفاصيل هذه الخطة بان تقوم (اسرائيل) اولا بتهديد حدود سوريا فتضطر الاخيرة لحشد قواتها على حدود الاردن لمجابهة التهديد (الاسرائيلى) فيؤخذ ذلك الحشد حجة لكى يحشد العراق قواته على حدود سوريا دفاعا عن الاردن شريك العراق في الحلف الهاشمى، ثم يعقب ذلك خطوة ثانية وهى بتسليح قبائل البدو على حدود سوريا وحملها على اثارة القلاقل على الحدود السورية العراقية مما يضطر القوات السورية الى مطاردتهم الى داخل حدود العراق، وعندها يتحرك الجيش العراقى ويقتحم حدود سوريا بحجة الدفاع عن النفس ورد العدوان يصاحبه دعم عسكرى للعراق من قبل تركيا على اعتبار العراق عضوا مع الاخيرة في حلف بغداد (٦٠).

وصار الاتفاق على ان تناقش هذه الخطط في اجتماع استثنائى لدول حلف بغداد يعقد في انقرة في الرابع عشر من تموز ١٩٥٨، لكن الاحداث سارت باتجاه معاكس تماما، فقد قامت في العراق في اليوم نفسه ثورة اطاحت بالنظام الملكى في العراق وقضت على رموز النظام فيه بما فيهم الملك فيصل الثانى والامير عبدالاله ورئيس الوزراء نورى السعيد. وبذلك سقطت هذه الخطة قبل ان يكتب لها التنفيذ، فلقد فاجأت ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ في العراق الدوائر الاستعمارية الغربية، وسببت صدمة قوية لها، حيث سارعت الولايات المتحدة الامريكية وبريطانيا الى انزال قواتهما في لبنان والاردن، واعدت تركيا خططا عسكرية لمهاجمة العراق والقضاء على نظام الحكم الجديد فيه (٦١).

وقد حاول الرئيس جمال عبدالناصر في اثناء مباحثاته مع رئيس الوزراء السوفيتى نيكيتا خروشوف في موسكو ايام قيام الثورة في العراق ان يحصل على تأييد ودعم سوفييتى للاقطار العربية لمواجهة التهديدات الامريكية والتركية وبخاصة تجاه سوريا والعراق بان يصدر الاتحاد السوفيتى انذارا للغرب شبيها بالانذار الذى وجهه لبريطانيا وفرنسا في اثناء العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦، حيث اشار عبدالناصر الى ان الامريكيين يمكن ان يحرضوا تركيا لمهاجمة سوريا، وان ذلك سيؤدى الى تصعيد الموقف في المنطقة فيما اذا نفذت تركيا ذلك، حيث ستضطر مصر الى مقاتلتهم (٦٢). واعلن عبدالناصر ان اي عدوان على العراق هو عدوان على الجمهورية العربية المتحدة، وانه مستعد للقتال في سبيل حماية الثورة في العراق، ويضع كل امكانياته تحت تصرف رجال الثورة في العراق، ويضع كل امكانياته تحت تصرف رجال الثورة في العراق (٦٣). وجاء ذلك ردا على الموقف التركى العدائى لكل من العراق والجمهورية العربية المتحدة اثر قيام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨، فقد قامت تركيا بتحشيد قواتها العسكرية على الحدود السورية والعراقية، واعلن رسميا في تركيا بان مناورات كبيرة تجريها القوات المسلحة التركية، وحدثت بعض الاصطدامات على الحدود السورية التركية، وكانت الطائرات الحربية التركية تخرق الاجواء الاقليمية السورية عدة مرات، وتوافقت هذه الاجراءات مع الضغوط التى كان يتعرض لها العراق والجمهورية العربية المتحدة، وغيرهما من الاقطار العربية من قبل الولايات المتحدة الامريكية والدول الغربية (٦٤).

ولقد جرت لقاءات مبكرة بين قادة الثورة في العراق مع قادة الجمهورية العربية منذ الايام الاولى للثورة، حيث وصل الى دمشق في ١٥ تموز ١٩٥٨ مبعوث لحكومة الثورة في العراق للاتصال بالمسؤولين في الجمهورية العربية المتحدة لشرح اهداف الثورة وطلب دعمهم للعراق ماديا ومعنويا بصورة عاجلة (٦٥)، وتم عقد اتفاقية دفاعية بين الجمهورية العراقية والجمهورية العربية المتحدة وقعت بدمشق في ١٩ تموز ١٩٥٨ (٦٦). التى اثارت عدم رضا واستياء تركيا، فقد عبرت صحيفة (حريت) التركية الناطقة بلسان الحزب الحاكم عن ذلك بقولها «لقد استعجلت الحكومة العراقية بتوقيع اتفاقية التعاون المتبادل مع الرئيس المصرى جمال عبدالناصر والاتصال به» (٦٧).

ان اكثر ما كانت تخشاه الدوائر الاستعمارية الغربية من قيام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ في العراق هو قضية انضمام الجمهورية العراقية الى الجمهورية العربية المتحدة ضمن صيغة وحدة ثلاثية تجمع الاقطار العربية الثلاث، مصر وسوريا والعراق، في دولة واحدة والتى اذا ما تمت فانها ستقلب موازين القوى في المنطقة العربية، وتضرب المصالح الغربية والصهيونية في الصميم، وتهدد بزوال وجودهما في المنطقة العربية، وهذا ما يفسر اسراع الولايات المتحدة الامريكية وبريطانيا بانزال قواتهما الفورى في لبنان والاردن. وتحشيد تركيا لقواتها العسكرية على حدود العراق واستعدادها للدخول في الاراضى العراقية للحيلولة دون حدوث ذلك، فهذه القوى كانت تخشى من قيام حكومة الثورة في العراق بخطوة تقرر فيها الخروج من حلف بغداد. فضلا عن اضافة دعم واسناد كبيرين للجمهورية العربية المتحدة في حالة انضمام العراق اليها بثقله السياسى والاقتصادى والعسكرى والبشرى الامر الذى يضر بالمصالح التركية في المنطقة. وقد تحدثت صحيفة (حريت) التركية عن ذلك بمرارة قائلة «انه من المستبعد ان تنتمى حكومة العراق الجديدة الى اى تنظيم دفاعى انشىء ضد الشيوعيين واعوانهم الناصريين، وان اعوان عبدالناصر عجزوا عن القيام بشىء الى الآن. ولكن لايمكن التنبؤ بما سيتم في المستقبل» (٦٨).

ولكن عندما اطمأنت القوى الغربية وتركيا الى ان اللقاء بين العراق والجمهورية العربية المتحدة اصبح مستبعدا نظرا للخلافات التى نشأت بين الحكومة العراقية وحكومة الجمهورية العربية المتحدة عدلت تركيا عن خطتها بغزو اراضى العراق. وانسحبت القوات الامريكية من لبنان في ٢٥ تشرين الاول ١٩٥٨، والقوات البريطانية من الاردن في ٢٢ تشرين الثانى من العام نفسه.

ومنذ ذلك التاريخ عملت تركيا على تحسين علاقاتها مع حكومة العراق لاسباب عديدة من بينها ان رئيس الوزراء العراقى عبدالكريم قاسم قد احبط المحاولات التى كان تجرى لضم العراق الى الوحدة السورية المصرية، وذلك يتفق مع مصا - تركيا والدول الغربية.

وبفعل عوامل ذاتية وموضوعية احاطت بتجربة الوحدة السورية المصرية، فضلا عن الضغوط الاستعمارية المشار لها سابقا، انتهت هذه التجربة بحدوث الانفصال في ٢٨ ايلول ١٩٦١. وقد اعربت تركيا عن فرحها واغتباطها بهذا الحدث (٦٩) وكانت تركيا احدى الدول الخمس التى سارعت بالاعتراف بحكومة الانفصال السورية (٧٠).

وقد هاجم الرئيس جمال عبدالناصر هذه الدول، ووصف الحكومة التركية التى اقدمت على الاعتراف بحكومة الانفصال بانها «حكومة عسكرية فاشية» (٧١).

واتجهت تركيا لاقامة علاقات ودية مع حكومة الانفصال في سوريا بعد اعترافها الفورى بها، وقد ادت هذه الخطوة الى المزيد من التدهور في العلاقات المصرية التركية، فضلا عن قطع العلاقات الدبلوماسية بين القاهرة وانقرة، والتى لم تعد بصورة كاملة حتى عام ١٩٦٥.

ولقد بقيت سياسة تركيا تتركز في قطع الطريق على الحكومات المتعاقبة في سوريا من الدعوة الى او تشكيل وحدة او اتحاد مع اى قطر عربى بعد ان أخفقت محاولة الوحدة بين سوريا ومصر.

خلاصـــة واستنتاجات عـــامة

في ضوء ما تقدم يتبين لنا ان الموقف التركى ازاء قيام الوحدة السورية المصرية قد اتصف بالعداء والسلبية تجاه هذه الخطوة، ويأتى هذا الموقف انسجاما مع طموحات حكومة تركيا ومصالحها في استعادة النفوذ التركى في المنطقة العربية، وتحقيق مطامعها الاقليمية فيها، ولاسيما في الاراضى السورية التى ابتدأت بالاستحواذ على لواء الاسكندرونة عام ١٩٣٩ تحت المظلة الغربية التى تريد الابقاء على واقع التجزئة القومية في الوطن العربى للابقاء على نفوذها ووجودها.

وقد اتخذت المواقف التركية العدائية تجاه الوحدة السورية المصرية اشكالا وصيغا متعددة. ولكنها تلتقى على هدف واحد وهو هدم هذه الوحدة والقضاء عليها سواء بالوسائل المباشرة او غير المباشرة بالاتفاق والتنسيق مع حكومة العهد الملكى في العراق التى كانت بدورها تحاول الهيمنة على سوريا وادخالها في حلف بغداد.

ولم تتورع تركيا حتى من استخدام الوسائل العسكرية لتحقيق اهدافها تلك في مناسبات مختلفة بايحاء ودعم من القوى الغربية، جاعلة من نفسها صاحبة النفوذ الاقوى في منطقة الشرق الاوسط.

ولكن رغم هذه المواقف العدائية التى اتخذتها تركيا تجاه الوحدة والمتناسقة مع مواقف القوى الغربية المعادية للوحدة، فان سقوط تجربة الوحدة السورية المصرية لم تكن بفعل العوامل والضغوط الخارجية بقدر ما كانت بفعل العوامل والضغوط الداخلية التى تسببت في فشلها والقضاء عليها.

ان المواقف التركية السلبية تجاه القضايا العربية وبخاصة قضية الوحدة العربية بين سوريا ومصر عام ١٩٥٨ قد اساءت كثيرا الى العلاقات العربية التركية. وكان الاتراك يعللون مواقفهم بالضغوط الامريكية وشروط حلف الاطلسي، في حين كان العرب يسعون لاقامة علاقات ودية متكافئة مع تركيا خارج نطاق التكتلات والاحلاف العسكرية.

وقد حمل ذلك المؤرخ السوفيتي (توركاى عطايوف) الى القول ان تركيا قد اضرت بنفسها كثيرا عندما كانت تقوم بدور الوسيط وتنفذ رغبة الغرب، وانها خسرت احترام شعوب الشرق الاوسط بسياستها هذه.

ويمكن الاشارة هنا الى ان تركيا قد استفادت من تجربتها السابقة تلك، فعملت على تغيير مواقفها فيما بعد بما يخص القضايا العربية بشكل افضل من السابق، حيث تطورت العلاقات العربية التركية في السنوات الاخيرة بعد ان تفهم المسؤولون الاتراك مصالح الاقطار العربية في الوحدة والاستقلال، واهمية تطوير العلاقات بين تركيا وبين الاقطار العربية وبخاصة في المجال الاقتصادي بعد ان ادركوا عجز الاقتصاد الاوروبي عن تحقيق الفوائد المطلوبة للاقتصاد التركي. ولو انها لم تصل بعد الى مستوى المواقف المطلوبة من تركيا وبخاصة تجاه القضية الفلسطينية بما يناسب الروابط التاريخية والدينية والثقافية التي تربط تركيا بالاقطار العربية.

هوامش

(١) محمود علي الداود، العلاقات العربية التركية والعوامل المؤثرة فيها، مجلة المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، العدد الخامس والاربعون (تشرين الثاني، نوفمبر) ١٩٨٢ ص ٦٢
(٢) محمد جميل بيهم، العرب والترك في الصراع بين الشرق والغرب، ١٩٥٧ ص ٢١٩.
(٣) لمزيد من التفاصيل انظر عوني عبدالرحمن مصطفى، العلاقات العراقية التركية ١٩٣٢ ـ ١٩٥٨ رسالة ماجستير مقدمة الى المعهد العالي للدراسات القومية والاشتراكية، الجامعة المستنصرية ١٩٨١ ص ٢٤ ـ ٣٣
(٤) ناجي شوكت، سيرة وذكريات ثمانين عاما، مطبعة دار الكتب ط/ ٢ بيروت ١٩٧٥ ص ٤٠٢
(5) F. o. 371/ 35012, E. 57971/ 489/ 93, Confidential No. 337. Mr Thompson Baghdad 12 sep. 1943. to mr Eden

نقلا عن ممدوح عارف الروسان، العراق ومشروع الضمان الجماعي العربي ١٩٤٩ ـ ١٩٥٤، مجلة افاق عربية العدد الرابع، السنة الرابعة حزيران ١٩٧٩ ص ١٩.
(٦) المصدر نفسه ص ٢٤
(٧) طالب الاتحاد السوفيتي بتعديل معاهدة (مونترو) لعام ١٩٣٦ بما يؤمن مشاركة القوات السوفيتية في الدفاع عن المضائق التركية، وعن تخلي تركيا عن منطقتي (قارص) و (اردهان) لارمينيا وجورجيا السوفيتيتين انظر

G. Lewis Turkey Ernest Benn Limited, Londar 1965. P. 124.

(8) F. O. 371 4502 E 608/195,93, Report From H. K. Cornwallis to Eden, dated in 9 Th januray 1945. NO. 15

(٩) انظر تفاصيل هذه المعاهدة في عوني عبدالرحمن مصطفى، العلاقات العراقية التركية، المصدر السابق ص ١٠٥ ـ ١٢٧
(١٠) لمزيد من التفاصيل حول هذه المشروعات انظر المصدر نفسه ص ١٢٨ ـ ١٤٠
(١١) شاركت الولايات المتحدة الامريكية في اعمال لجنتين مهمتين من لجان الحلف، هما اللجنة الاقتصادية ولجنة محاربة النشاطات الهدامة، وشاركت فيما بعد في اللجنة العسكرية
(١٢) محمد حسنين هيكل، عبدالناصر والعالم، دار النهار للنشر، بيروت ١٩٧١ ص ١١٧
(١٣) وزارة الخارجية العراقية ٣٠٥/٣٠٥/٦ تقرير من المفوضية العراقية في طرابلس الغرب ـ ليبيا الى وزارة الخارجية العراقية في ٢٧ شباط ١٩٥٦
(١٤) ناجي شوكت، سيرة وذكريات ثمانين عاما، مطبعة دار الكتب ط/ ٢ بيروت ١٩٧٥ ص ٥٨٥
(١٥) نضال البعث، القطري السوري، دار الطليعة للطباعة والنشر ط/ ٢ بيروت ١٩٧٢ ص ١٠٦
(١٦) سمر روندو، مستقبل الشرق الاوسط، تعريب نجدة هاجر، سعيد الغز، منشورات المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر ط/ ١ بيروت ١٩٥٩ ص ١٩٥
(١٧) نضال البعث، المصدر السابق ص ١٠٩
(١٨) روندو، المصدر السابق ص ١٩٥ ـ ١٩٦.
(١٩) ج خاكوف، تركيا المعاصرة (السياسة والاقتصاد) موسكو ١٩٧٧ (بالروسية) ص ٨٨.
(٢٠) منح الصلح، الاسلام وحركة التحرر العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط/١ بيروت ١٩٧٣ ص ٢٩.
(٢١) عزيز شريف، من حلف بغداد الى تحرير القنال، مطبعة دار الجلاء ط/١ بيروت ص ٥٥
(٢٢) منح الصلح، المصدر السابق ص ٢٩
(٢٣) عزيز شريف، المصدر السابق ص ٥٦.
(24) Herbert, k. Tillema: Appeal to Force, Thomas. Y. Crowell Company. INC. U.S.A. 1973 P. 76
(٢٥) صلاح الدين البيطار، السياسة العربية بين المبدأ والتطبيق، دار الطليعة للطباعة والنشر ط/١ بيروت ١٩٦٠ ص ١٢٣
(٢٦) مجموعة خطب شكري القوتلي، دمشق ١٩٥٧ ص ٢٠٣.
(٢٧) بلغت تحشدات تركيا العسكرية على حدود سوريا حوالي (٥٠) خمسين الف جندي و (٧٠٠) سبعمائة دبابة ومصفحة. انظر طاهر ابوفاشا، الجمهورية العربية المتحدة في عام ١٩٦١ ـ ١٩٦٢. القاهرة ١٩٦٢ ص ١٩٦.
(٢٨) احمد عبدالكريم، اضواء على تجربة الوحدة، مكتبة اطلس ط/١. ١٩٦٢ ص ٨١ ـ ٨٢
(٢٩) لمزيد من التفاصيل حول هذه القضية انظر باتريك سيل، الصراع على سوريا، ترجمة سمير عبده، محمود فلاحة، دار الانوار ط/١ بيروت ١٩٦٨ ص ٢٧٨ ـ ٤٠٠
(٣٠) لمزيد من التفاصيل انظر شبلي العيسمي، حول الوحدة العربية، دار الطليعة للطباعة والنشر ط/٢ بيروت ١٩٨٤. قاسم سلام، البعث والوطن العربي منشورات العالم العربي، احمد طربين، الوحدة العربية القاهرة ١٩٥٩، شبلي العيسمي، الوحدة العربية من خلال التجربة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط/ ٢ بيروت ١٩٧٣.
(٣١) خطب الرئيس جمال عبدالناصر في الاقليم الشمالي، دار القاهرة للطباعة ١٩٥٨ ص ٣٠
(٣٢) المصدر نفسه ص ٣٩
(٣٣) ميشيل ابو منديس، مرق.. تخصر.. ثورة العرب ١٩٥٥ ـ ١٩٥٨، تعريب خيري حماد، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط/١ بيروت ١٩٦١ ص ٢٧٤
(٣٤) جورج حنا، خواطر حول الجمهورية العربية المتحدة، دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٥٨ ص ١٨
(35) Ferenc. A. Vali: Bridge a cross The Bosporus The Foreign Policy of Turkey The Johns hopkins Press, Baltimore and London, 1971. P 283.
(٣٦) وزارة الخارجية العراقية ش/ ٨١٧٠/ ٨١٧٠/ ٦ تقرير السفارة العراقية في انقرة الى وزارة الخارجية بغداد في ٢١ شباط ١٩٥٨.
(٣٧) ب م بوتسخفيريا، سياسة تركيا الخارجية بعد الحرب العالمية الثانية، موسكو ١٩٧٦ (بالروسية) ص ١٦٧
(٣٨) فكرت نامق عبدالفتاح، سياسة العراق الخارجية في المنطقة العربية ١٩٥٣ ـ ١٩٥٨ دار الرشيد للنشر، بغداد ١٩٨١ ص ٤٧٥
(٣٩) احمد نوري النعيمي، السياسة الخارجية التركية بعد الحرب العالمية الثانية، دار الحرية للطباعة، بغداد ١٩٧٥ ص ٢٥٧
(٤٠) وزارة الخارجية العراقية ع/ ٩٢/٨٠٩٢/٨٠٩٢/ ٨ برقية من السفارة العراقية في طهران الى وزارة الخارجية، بغداد في ٢٤ شباط ١٩٥٨
(٤١) وزارة الدفاع، محاكمات، المحكمة العسكرية العليا الخاصة جـ/٧ مطبعة الحكومة، بغداد ١٩٥٨ ـ ١٩٦١ ص ٢٣٤٢
(٤٢) وزارة الخارجية العراقية ش/ ٧٧٠/ ٨١٧٠/ ٦ تقرير السفارة العراقية في انقرة الى وزارة الخارجية، بغداد في ٢٥ شباط ١٩٥٨.
(٤٣) المصدر نفسه
(٤٤) جورج حنا، المصدر السابق ص ١٧
(٤٥) خطب الرئيس جمال عبدالناصر، المصدر السابق ص ٤٣
(٤٦) المصدر نفسه ص ٣٦ ـ ٣٧
(47) Vali: op. cit. p. 286
(٤٨) هيكل، المصدر السابق ص ١١٢
(٤٩) جورج حنا، المصدر السابق ص ٣٢.
(٥٠) محاضر جلسات مباحثات الوحدة، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٣ ص ٧٤
(٥١) خطب الرئيس جمال عبدالناصر، المصدر السابق ص ٣٠ ـ ٣١
(٥٢) طاهر ابو فاشا، المصدر السابق ص ١٤٣
(٥٣) وزارة الخارجية العراقية ش/ ٨١٧٠/ ٨١٧٠/ ٦ تقرير من السفارة العراقية في انقرة الى وزارة الخارجية بغداد في ٢٥ شباط ١٩٥٨
(54) David Dallin, Soviet foreign policy after stalin. londom 1962. p. 472.

نقلا عن النعيمي، المصدر السابق ص ٢٥٧
(٥٥) وزارة الخارجية العراقية ش/ ٨١٧٠/ ٨١٧٠/ ٦ تقرير من السفارة العراقية في انقره الى وزارة الخارجية، بغداد في تموز ١٩٥٨.
(٥٦) خطب الرئيس جمال عبدالناصر، المصدر السابق ص ٣١
(٥٧) فكرت نامق، المصدر السابق ص ٣٥٣
(٥٩) وزارة الخارجية العراقية ش/ ٨١٧٠/ ٨١٧٠/ ٦ تقرير من السفارة العراقية في انقرة الى وزارة الخارجية، بغداد في ٩ تموز ١٩٥٨.
(٦٠) ر. ل. كارانجيا، الفجر العربي، منشورات المكتبة الاهلية ط/١ بيروت ١٩٥٩ ص ١٥١
(٦١) لمزيد من التفاصيل انظر عوني عبدالرحمن مصطفى، العلاقات العراقية التركية المصدر السابق ص ١٧٥ ـ ١٩٥
(٦٢) هيكل، المصدر السابق ص ١٨٩
(٦٣) احمد عبدالكريم، المصدر السابق ص ١٣٧
(٦٤) بوتسخفيريا، المصدر السابق ص ١٦٥
احمد عبد الكريم المصدر السابق ص ١٣٦

(٦٦) صحيفة الجمهورية، بغداد في ٢٠ تموز ١٩٥٨

(٦٧) وزارة الخارجية العراقية ض / ٢٢٣٦/ ٢٢٣٦/ ١٠ كتاب من السفارة العراقية في انقرة الى وزارة الخارجية، بغداد في ١٥ ايلول ١٩٥٨.

(٦٨) وزارة الخارجية العراقية ش / ٢٢٣٦/ ٢٢٣٦/ ١٠ كتاب من السفارة العراقية في انقرة الى وزارة الخارجية. بغداد في ٢٢ تشرين الاول ١٩٥٨

ونتيجة خشية الحكومة التركية من نتائج قيام العهد الجديد في العراق والتقارب الذي حصل بين الحكومة العراقية الجديدة، وبين كل من الجمهورية العربية المتحدة والاتحاد السوفيتي فقد وقعت حكومة مندريس وبشكل سري اتفاقا مع الكيان الصهيوني يقوم على ايجاد حلف دولي يكون في مقدوره الوقوف في وجه التطورات التي احدثتها ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨، وقد تطور هذا الاتفاق الى حلف وصف بـ (الحلف التطويقي) بعد ان انضمت اليه كل من ايران واثيوبيا كانت خطوات اقامته قد بدأت قبل العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ وتم الاسراع بتنفيذه بعد فشل العدوان الثلاثي وقيام الجمهورية العربية المتحدة

انظر مجلة الوطن العربي نقلا عن كتاب (سيرة بن غوريون) تأليف ميكائيل بن زدهار العدد ١٠٧ و ٨/٢ آذار ١٩٧٩.

Vali: op. cit. p. 302.(٦٩)

(٧٠) خاكون، المصدر السابق ص ٨٩

(٧١) اعترفت بحكومة الانفصال في سوريا كل من الاردن وفرموزا وتركيا وايران وغواتيمالا انظر عبدالكريم زهرالدين، مذكراتي عن فترة الانفصال في سوريا ما بين ٢٨ ايلول ١٩٦١ و ٨ اذار ١٩٦٣ دار الاتحاد للطباعة والنشر ط/١ بيروت ١٩٦٨ ص ٢٦



العراق والغزو القره قوينلو في القرن الخامس عشر الميلادي

علي شاكر علي
كلية الآداب - قسم التاريخ

المقدمة

على الرغم من ظهور العديد من الدراسات حول تاريخ العراق الحديث الا ان الحقبة التاريخية الواقعة بين الغزو المغولي للعراق ١٢٥٨م والغزو الصفوي ١٥٠٨م، ما يزال يكتنفها الكثير من الغموض والابهام. من هنا تأتي اهمية هذا البحث الذي ينشد تسليط الاضواء على دولة القرة قوينلو التي حكمت العراق من ١٤١١ - ١٤٧٠م، وهي فترة اتسمت بالفوضى السياسية والاضطراب، فانعكس ذلك على حالة البلاد السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

وبما ان تسليط الأضواء على هذه الحقبة التاريخية من شأنه ان يعمق التصور حول التطورات اللاحقة. ويفسر عوامل الانكفاءة التي تعرضت لها البلاد، ويوضح مظاهرها بصورة جلية، لذا فان هذه الدراسة ترجو ان تكون قد وفقت في الوصول الى تحقيق بعض من هذه الغاية.. والله الموفق.

١ ـــ نشأة امارة القره قيونلو:

كانت القرة قوينلو من القبائل التركمانية التي استقرت في جهات ارزنجان وسيواس (١)، في زمن الايلخان المغولي ارغون (١٢٨٤ - ١٢٩٢) (٢). وكانت الظروف السياسية حيث الصراع بين الجلائريين والتيموريين، وما نجم عنه من غزوات مدمرة قادها تيمورلنك الاعرج الى بلاد فارس والعراق قد وفرت المناخ الملائم لاقامة كيان سياسي لها في جنوب شرق الاناضول على تخوم الدولة المملوكية ومملكة طرابزون المسيحية في جهات ارمينيا والبحر الاسود. وقد استغلت الاوضاع السياسية المضطربة بسبب هجمات تيمورلنك للتوسع في المناطق المجاورة، واضعة امكانيتها البشرية في خدمة الجلائريين الذين عانوا كثيرا من الغزو التيموري (٣).

تشير المصادر التاريخية الى ان عشيرة بهارلو، وهي بطن من قبيلة القره قوينلو اشتهرت بصرامة رجالها وشدة بأسهم، وتولى رؤسائها الزعامة بين القره قيونلو. وكان بيرام خواجة اول امراء القره قوينلو الذي نجح في توسيع حدود امارته بحكم اتصاله بالسلطان معز الدين اويس الجلائري، ووضع خدماته تحت تصرفه سنة ١٣٧٣م. ثم اتيح له ضم سنجار والموصل بعد وفاة السلطان اويس سنة ١٣٧٤م (٤).

وقد استمر القره قوينلو في تقديم خدماتهم للجلائريين في عهد السلطان احمد الجلائري الذي كان بأمس الحاجة الى قوتهم، وذلك لاستخدامهم في مواجهة التيموريين ومعالجة الاوضاع المضطربة في بغداد. وتشير المصادر الى ان السلطان احمد الجلائري عهد الى امير القره قوينلو الجديد قره محمد بن بيرام خواجة الذي اعتلى عرش الامارة منذ سنة ١٣٧٨ ليتولى القضاء على تمرد حاكم بغداد الشيخ علي يار فكان له ما اراد وذلك في سنة ١٣٨٦م (٥).

وقد دفع قره محمد حياته ثمنا لتبعيته للدولة الجلائرية، ففي اثناء احتدام الصراع بين الجلائريين والتيموريين خلال السنوات ١٣٩٣ - ١٤٠٢م قتل قره محمد اثناء معركة جرت قرب تبريز سنة ١٣٨٩ (٦). غير ان موقف القره قوينلو من الجلائريين لم يتغير اذ استمر الأمير الجديد قره يوسف بن قره محمد في مساندة السلطان احمد الجلائري ضد التيموريين حتى زوال الخطر التيموري.

ولم تعدم امارة القرة قوينلو الفائدة من هذه التبعية اذ ان دائرة تحركها ونشاطها العسكري امتدت لتشمل اجزاء مهمة من المناطق الخاضعة لنفوذ الدولة الجلائرية حتى انه عند مقتل تيمورلنك وعودة السلطان احمد الجلائري الى بغداد سنة ١٤٠٥م (٧) كانت حدود امارة القره قوينلو قد اتسعت لتشمل اراض تمتد من اذربيجان الى ماردين والموصل. الامر الذي دفع السلطان احمد الجلائري الى التفكير في تقليص نفوذهم خاصة وان الظروف السياسية الجديدة التي اعقبت مصرع تيمورلنك قد حكمت على الدولة التيمورية بالزوال وجعلت السلطان احمد الجلائري لايعبأ بالقوى العسكرية التي كانت تمده بها امارة القره قوينلو كما ان السلطان احمد الجلائري كان يخشى من ان يتطور نفوذ القره قوينلو فيهدد مركزه في العراق ويؤذن بنهاية الحكم الجلائري. وهكذا شن السلطان احمد الجلائري هجوما على القره قوينلو في جهات اذربيجان، غير ان قره يوسف وجموع القره قوينلو تمكنوا من الحاق الهزيمة بالسلطان وجيشه. وقد اسر السلطان نفسه مع عدد كبير من قادته واتباعه، فأمر قره يوسف بقتله لتنكره ونسيانه الجميل الذي اسداه القره قوينلو اثناء الغزو التيموري للدولة الجلائرية ثم الحق به من تبقى من قادته واتباعه فذاقوا جميعا طعم الردى. وكان ذلك في سنة ١٤١٠م (٨). فآلت الى القره قوينلو ممتلكات الجلائريين في جهات اذربيجان واهمها تبريز والسلطانية (٩).

٢ ـــ بغداد في مرحلة الانتقال:

كانت بغداد في عهد السلطان احمد الجلائري في وضع سياسي لا يحسد عليه، وعند مقتل السلطان احمد الجلائري آلت حكومتها الجلائرية الى صبي يعرف بشاه محمود بن شاه ولد وهو حفيد السلطان اويس الجلائري (١٠). وكانت زوجة والده دوندو خاتون (١١) صاحبة العقد والحل في بغداد. وكان جل اهتمامها هو حماية

العرش الجلائري والتشبث في حكم بغداد ما استطاعت الى ذلك سبيلا، مع الاحتفاظ بسهم اخير في جعبتها تستثمره للافلات والهرب اذا ضاقت بها الامور أو ادركها خطر السبى على يد اعدائها القره قوينلو.

وقد تفتقت مخيلتها عن خطة لا تخلو من الطرافة والبراعة في آن واحد اذ اوعزت الى احد الامراء المنقادين لها وهو بخشايش ليتولى حكومة بغداد موعزة له الترويج الى ان السلطان احمد الجلائري ـ وكانت الاشاعات تدور حول هزيمته ومقتله ـ مختبىء في بغداد وانه سوف يظهر بعد حين (١١ ب).

ويبدو ان الترويج لفكرة اختفاء السلطان في بغداد كانت تجد اذانا صاغية من قبل بعض السكان، اذا علمنا ان السلطان احمد احتفى مرات عديدة ثم ظهر فجأة.

والطريف ان سكان بغداد انقسموا في وسط هذا الجو المشحون بالقلق والاضطراب بين مصدق ومكذب لفكرة بقاء السلطان حيا بينما كانت حملة الشاه محمد بن قره يوسف في طريقها الى بغداد، طلب بخشايش من دوندو خاتون ان تزوجه ابنتها (١٢). ويبدو ان بخشايش الذي وجد في هذه الظروف فرصة سانحة للاستئثار بعرش السلطنة عن طريق الزواج بأميرة ساحرة الجمال. اراد ان يضمن ابقاء دوندو خاتون بجانبه حتى الفصل الاخير من اللعبة التي خططا لها سويا. ولم يكن امام دوندو خاتون التي احيطت علما باقتراب الحملة من بغداد غير التظاهر بالموافقة.

لقد امرت دوندو خاتون باقامة حفلة عرس كبيرة في قلندرخانة (١٣) امعانا منها في تضليل بخشايش بحجة اضفاء بركة المشايخ والصوفية ممن اقاموا في هذا المكان المبارك، على هذا الزواج، وفي ليلة الزفاف امرت دوندو باغتيال بخشايش (١٤).

بعد ان دبرت دوندو خاتون اغتيال بخشايش بدأت تعد العدة للهروب من بغداد، ولان اقتراب حملة الشاه محمد واستمرار اختفاء السلطان احمد يمكن ان يؤديا الى حدوث الاضطرابات في بغداد ويحولا دون خروجها وعائلتها واموالها. لذا عمدت الى اسناد الحكومة الى احد وجهاء بغداد ليتولى تأكيد الاشاعة السابقة حول اختفاء السلطان واقتراب ظهوره.

ويبدو ان عبدالرحيم بن الملاح الحاكم الجديد لبغداد الذي شعر بالزهو لاستلامه مقاليد الحكومة، انطلت عليه لعبة دوندو خاتون. فصار يروج بحماس لفكرة اختفاء السلطان. بل ان ابن حجر العسقلاني يقول «انه شاع بين الناس ان عبدالرحيم شاهد السلطان في المنام وهو راكب على فرسه ووعده بالخروج في النهار» (١٥)، وهكذا صدرت الاوامر بتزيين بغداد اجمل زينة على شرف خروج السلطان احمد من المكان الذي يختبىء فيه. وبينما كان البغداديون منهمكين في تزيين بغداد انسلت دوندو خاتون ليلا مع افراد اسرتها واموالها من بغداد واتجهت بسفينة الى واسط ومنها الى تستر متجنبة الوقوع بيد القره قوينلو الذين دخلوا بعد بضعة ايام بغداد (١٤١١ م/ ٥ محرم ٨١٤ هـ) (١٦). وبذلك كانت خاتمة هذا الفصل الطريف المتبقي من قصة الحكم الجلائري في بغداد.

٣ ـ الحكام التركمان القره قوينلو في العراق :

بعد هروب دوندو خاتون من بغداد وزوال الحكم الجلائري، اصبح الشاه محمد بن قره يوسف التركماني حاكما فيها، وقام هذ[ا] بدوره بتوزيع المناصب لاقربائه في اهم المدن العراقية على شك[ل] اقطاعيات استغلال «اولكة» (١٧).

اسقط في يد الشاه محمد بن قره يوسف بعد ان دخل بغدا[د] ووجد ان دوندو خاتون قد رحلت مع كنوزها من المدينة، وتبد[و] مشاعر المرارة لدى الحاكم القره قوينلو الجديد ازاء ما حصل [في] بغداد واضحة في سلوكه ازاء الجماعة التي اشاعت فكرة بقا[ء] السلطان احمد حيا، وزعمت باختفائه وقرب ظهوره. لقد طلب قائم[ة] باسمائهم كادت ان تستوعب معظم وجهاء بغداد الامر الذي جع[ل] الشاه محمد يتردد في معاقبتهم جميعا واخيرا اكتفى بقتل الشي[خ] احمد السهروردي باعتباره على رأس المروجين لتلك الاشاعة (١٨).

تدهور الوضع السياسي في العراق، بعد احتلال الشاه محمد ب[ن] قره يوسف بغداد ذلك لان سلطة القره قوينلو لم تكن لتشمل ا[لا] بعض المراكز المهمة، حيث يعبر النفوذ القره قوينلو فيها عن اهميت[ها] الاقتصادية، او دخولها ضمن دائرة النفوذ القره قوينلو التي كان[ت] تمتد في المنطقة الواقعة بين ديار ـ بغداد ـ تبريز.

وتشير المصادر التاريخية الى تعيين حكام على مدن كركوك والموصل، وداقوق والدجيل. اما باقي انحاء العراق فانها ظلت [في] ايدي حكامها المحليين او بيد حكام من الاسرة الجلائرية السابقة وقدنازع هؤلاء جميعا سلطة القره قوينلو حتى انه بالوسع وصف عهد القره قوينلو بانه عهد صراع ومنافسة بينهم وبين مراكز القو[ى] هذه.

ففي مدينة حديثة الواقعة في اعالي الفرات كان الشيخ حار[ث] الطائي يتولى امورها بالرغم من تظاهره بالولاء لسلطة القره قوينلو بينما كانت الحلة وهي اهم مدن الفرات الاوسط خاضعة لسلط[ة] الجلائريين، مشكلة بذلك مصدر تهديد مستمر للحكام القره قوينل[و] في بغداد. كما كانت مدينة واسط الواقعة جنوب بغداد في جهة نه[ر] دجلة مركزا آخر من مراكز الاسرة الجلائرية. وقد استمدت شانه[ا] شأن مدينة الحلة اسباب صمودها بوجه القره قوينلو من مساعدا[ت] الحكام الجلائريين والتيموريين في عربستان وفارس.

تشير بعض المصادر الى ان الشاه محمد، اعفى ارباب الخرا[ج] من الدفع لمدة سبع سنوات (١٩). ويبدو ان هذا الاجراء اتخذ م[ن] اجل تطمينهم بعد الفوضى والاضطراب التي رافقت الغزو التيمور[ي] والصراع الجلائري ـ القره قوينلو. وبرأينا ان ذلك لايمنع من قيا[م] الحكام التركمان باستيفاء ما يريدونه من ضرائب او خراج بع[د] تحقيق عمران ما يمكن عمرانه من الاراضي. وفي الوقت الذي يقرر الحكام التركمان ولعل ما يعزز هذا الرأي هو قيام الشاه قره يوسف امير القره قوينلو بمغادرة العاصمة تبريز متوجها الى بغداد في سن[ة] ١٤١٨ م/ ٨٢١ هـ (٢٠) أي بعد مرور سبع سنوات على دخول ولد[ه] الشاه محمد مدينة بغداد ومحاصرته للمدينة ثم جرد سجلا[ت] وحسابات حكومة بغداد واستيفاء ما بذمتها من اموال، كان الشا[ه] محمد قد راوغ في دفعها منذ سنة ١٤١١م/ ٨١٤ هـ (٢٠).

والملاحظ ان مدينتي بغداد وتبريز كانتا تمثلان اهم المرا[كز] السياسية والاقتصادية في دولة القره قوينلو، بدليل انه بعد وفا[ة] الشاه قره يوسف ١٤٢٠ / ٨٢٣ هـ (٢١) انفجر صراع عائلي بي[ن]

افراد أسرة القره قوينلو الحاكمة من اجل السيطرة على كل من بغداد وتبريز. فقد توجه اسكندر بن قره يوسف حاكم كرخيني (كركوك) نحو تبريز بينما تحرك كل من اسبان وجهانشاه نحو بغداد. وبقدر تعلق الامر بمدينة بغداد فقد تمكن اسبان خلال الاربع سنوات التي تلت وفاة الشاه قره يوسف من بسط نفوذه على العديد من المراكز الزراعية التي كانت تمول بغداد وهي الدجيل وحربى والخالص. كما قطع الطريق الذي يربط بغداد بفارس لمنع شقيقه الشاه محمد من الاتصال بامراء القره قوينلو في بلاد فارس.

وأخيرا قرر اسبان دخول بغداد بطريقة، يضمن فيها القبض على شقيقه ومصادرة امواله، ولذلك فقد تظاهر بالتوجه نحو الحلة، لمحاربة بقايا الأسرة الجلائرية ، فتمكن من دخولها بعد استسلام حكامها الجلائريين ثم توجه نحو واسط متظاهرا برغبته في فرض السيطرة على منطقة الجزائر (الحمار) ولكنه عاد ادراجه سرا الى النعمانية ومنها الى المدائن واخيرا تسلل مع ثلة من جنده الى بغداد عبر الباب الوسطاني ولكن محاولته للقبض على الشاه محمد باءت بالفشل، فقد تمكن الشاه محمد الذي اطلق سيقانه للريح هو وولده الشاه بوداق، من مغادرة قصره متوجها الى الكاظمية ومنها فرّ الى الحديثة حيث وقع دخيلا عند اميرها الشيخ حارث الطائي الذي تلقاه «بالاعزاز والاكرام» على حد قول الغياثي ومكنه من حكومة الموصل (٢٢).

اما اسبان فقد اصبح حاكما على بغداد منذ سنة ١٤٣٢م/ ٨٣٦ هـ حتى وفاته ١٤٤٥م/ ٨٤٨ هـ (٢٣) حين تجدد النزاع ثانية بين الامراء التركمان حول بغداد، وقد آلت حكومتها في النهاية الى جهانشاه شقيق اسبان الذي آلت له ايضا مدينة تبريز بعد ان انتزعها من شقيقه اسكندر.

حاصر جهانشاه مدينة بغداد مدة ستة اشهر خلال سنة ١٤٤٧م/ ٨٥٠ هـ (٢٤)، فاستسلمت له، ليتعاقب على حكمها ولداه محمدي ميرزا (١٤٤٧م/ ٨٥٠ هـ - ١٤٤٩م/ ٨٥٢ هـ)، وبير بوداق (١٤٤٩م/ ٨٥٢ هـ - ١٤٦٧م/ ٨٧٠ هـ).

٤ ـ حاكم بغداد بير بوداق يتمرد على سلطة والده جهانشاه :

على الرغم من اسناد جهانشاه حكومة بغداد الى ولده بير بوداق سنة ١٤٤٩م الا ان طموح بير بوداق لمد سيطرته على اجزاء اخرى من ممتلكات القره قوينلو دفعته للاغارة على مناطق تعتبر اداريا ضمن دائرة نفوذ امراء اخرين من عائلة القره قوينلو (٢٥). كما انه لم يتوان عن الزحف الى تبريز منتهزا فرصة غياب ابيه جهانشاه عنها وانشغاله في بلاد الكرج ، وذلك خوفا من ان تقع بيد غيره اذا ما طرأ حادث لوالده. ولكنه عاد ادراجه الى بغداد بعد عودة جهانشاه معتذرا بخوفه من سيطرة امراء القره قوينلو عليها. وقد اضطر جهانشاه الى قبول هذا العذر على مضض منه. والملاحظ ايضا ان بير بوداق كان يتطلع دائما نحو شيراز. وتذكر بعض المصادر، ان احلامه في السيطرة على شيراز كانت تراود مخيلته، لذا فانه عمل ما في وسعه من اجل مساومة والده وحثه لضمها الى دائرة نفوذه، وقد شجعته على ذلك طلبات ابيه المتكررة لتعزيز نفوذ القره قوينلو في فارس. ففي سنة ١٤٥٢م/ ٨٥٥ هـ كان بير بوداق يقود حملة من اجل الاستيلاء على تستر (شوشتر) من اجل ضمها الى الدولة القره قوينلوية بعد وفاة سلطانها محمد بن بايسنقر التيموري (٢٦). فكان له ما أراد. وفي سنة ١٤٤٥م/ ٨٥٧ هـ كان بير بوداق على رأس حملة جنبا الى جنب مع ابيه جهانشاه للمساعدة في اعادة اصفهان الى حظيرة الدولة القره قوينلوية. كما كان في سنة ١٤٦٠م/ ٨٦٣ هـ على رأس حملة ثالثة لقمع عصيان ثان في مدينة اصفهان (٢٧).

يبدو ان جهانشاه اقتنع في النهاية بضرورة مكافئة بير بوداق الا انه كان يخشى من تعاظم نفوذ ولده بحيث ينتهي به الامر الى السيطرة على تبريز نفسها، فعرض على ابنه حكم شيراز - بعد ان آلت إليه مدينة شيراز - والتخلي عن بغداد.ولكن بير بوداق كان يطمع بالاثنين معا،فتجاهل عرض ابيه مفضلا حكم بغداد على شيراز ولعل السبب في ذلك هو ان بغداد البعيدة نسبياً عن مركز القره قوينلوية (تبريز) كانت في وضع استراتيجي أفضل من شيراز.

لاشك ان سياسة جهانشاه هذه، تركت اثارا سيئة لدى بير بوداق لذلك نرى ان الاخير يعمد الى جمع ارباب الحرف والصناعات في مدينة شيراز فيلحقهم بركبه ثم يسرع الخطى نحو مدينة بغداد خشية وصول امير جديد عليها. فلما وصلها سنة ١٤٦٣م/ ٨٦٣ هـ عمل على قطع الاموال عن ابيه مدة ثلاث سنوات على التوالي. الامر الذي أدى الى نشوب الحرب بينهما.

فقد توجه جهانشاه الى بغداد ووصلها ١٤٦٦/ ٨٦٩ هـ وفرض عليها الحصار والطريف ان جهانشاه كتب الى ابنه قائلا: جئناك ماذا تفعل ؟ (٢٨).

شعر بير بوداق بان حكمه شارف على الزوال، ولذلك قرر التشبث والمقاومة حتى النهاية. اما جهانشاه فانه لم يكن امامه بد من القضاء على بير بوداق الذي اجبره على قيادة حملة توجه خلالها من تبريز الى بغداد. ومهما يكن من امر. فقد كان الحصار شديدا على اهالي بغداد الذين لاقوا الامرين من عنت وعناد المتقاتلين. وشهدت المدينة مجاعة مخيفة اضطرت الكثير من السكان الى ترك المدينة واللجوء الى معسكر جهانشاه مجازفين بحياتهم بالرغم من العقوبات الصارمة التي كان بير بوداق يوقعها بالفارين او بذويهم واخيرا استسلم بير بوداق وطلب الامان. وهكذا فتحت ابواب بغداد ١٤٦٧م/ ٨٧٠ هـ غير ان بير بوداق لقى حتفه على يد اخيه محمد ميرزا (٢٩).

وقد آلت حكومة بغداد الى الامير محمد التواجي الذي اشترك في قتل بير بوداق وحكمها مدة ثلاث سنوات (١٤٦٧ - ١٤٧٠) ثم تولاها من بعده الامير حسين علي بن زينل القره قوينلو مدة سنة واحدة ٨٧٤ هـ واخيرا تولاها شقيقه الشاه منصور بن زينل قرابة شهرين الذي بمقتله (٣٠) انقرض الحكم القره قوينلو في العراق ليبدأ عهد امارة تركمانية جديدة هي الدولة الاق قوينلوية.

٥ ـ الانحلال السياسي وآثاره الاجتماعية :

دام حكم القره قوينلو في العراق قرابة ستين سنة. كانت البلاد خلالها مسرحا للتطاحن بين الامراء المتنافسين من الاسرة الحاكمة

القره قوينلوية، وقد ترك هذا التطاحن حالة مريعة من الفوضى والاضطراب، كان من مظاهرها البارزة اعمال التخريب والفتك بالسكان وكذلك نهب المدن وانتشار الامراض والاوبئة وحدوث المجاعات. وسنحاول القاء ما تيسر من اضواء على مظاهر الفوضى تلك.

٦ ــ أعمال التخريب والفتك بالسكان :

لما كانت سلطة الحكام القره قوينلو تتركز في داخل المدن، وهي في الغالب لاتتعدى اسوارها، لذلك كان سكان تلك المدن هدفا لاية حملة عسكرية، اذ كان الالاف يقضون نحبهم اثناء الحصار او عند اقتحام المدينة من قبل العساكر المهاجمة. ففي اثناء حصار مدينة اربيل ١٤٣٥م/ ٨٣٩ هـ الذى استمر اكثر من عام بقيادة اسبان شقيق جهانشاه بن قره يوسف، مات عدد كبير من الناس نتيجة تسميمهم بمياه الشرب، ذلك لان اسبان الذى عجز عن اقتحام قلعة المدينة عمد الى رمي السم في ابارها. وهكذا كما يقول الغياثي «وقع الموت فيهم وازرقت جلودهم ونتنت افواههم» (٣١). وقد استمرت اثار هذا العمل الذى قام به اسبان فترة طويلة، ويشير الغياثي الى ذلك فيقول «وكان اذا مرض منهم شخص قيل انما هو من طول مدة الحصار» (٣٢). ويبدو ان اسباب الموت تعددت، فمن الناس من قتله الظمأ ومنهم من ظهرت عليه آثار التسمم فيما بعد بسبب تسمم الحيوانات والمزروعات.

وفي سنة ١٤٤٦م/ ٨٥٠ هـ وضع جهانشاه السيف في اهالي بغداد حتى وصفت المصادر عمله بانه كان لايقل وحشية عن اعمال تيمورلنك (٣٣). كما تعرض الالاف من سكان بغداد للموت والتجويع اثناء حصار جهانشاه لمدينة بغداد ١٤٦٥م/ ٨٦٦ هـ ويذكر ان بير بوداق بن جهانشاه الذى اعتصم في مدينة بغداد اثناء حصارها المذكور، قد عامل البغداديين، بمنتهى القسوة والوحشية، وذلك اعتقادا منه بان اجراءاته هذه ستمنع الجند والاهالى من الهرب. وكان من ضحاياه الكثير من ابناء وازواج الهاربين اللائي - كما يقال - القى بجثثهم في نهر دجلة تشفيا وانتقاما (٣٤).

وكان دخول جهانشاه للمدينة اثر الحصار الاخير كارثة حقيقية حاقت بالمدينة المنكودة الحظ، المبتلية بهؤلاء الحكام المتعطشين للدماء وفي ذلك يتحدث صاحب الديار بكرية، والمرارة تملأ فمه «اصبحت المدينة مباحة. وغدا الذبح والنهب ديدن القوم وسط عويل النساء» (٣٥).

ب ــ نهب المدن :

لم يختلف القره قوينلو عن غيرهم من برابرة آسيا التتر والمغول الذين كانوا يذيعون بين عساكرهم مدة معلومة تستباح فيها المدن المفتوحة. وذلك تشجيعا لعساكرهم على اقتحام المدن المحاصرة. وهكذا كان حال المدن العراقية التى ابتليت بتنافس الامراء التركمان وسعيهم المستمر وراء تموين حملاتهم العسكرية بالمؤونة والارزاق فالشاه محمد بن قره يوسف الذى دخل بغداد ١٤١١ م اجاز لعساكره نهب المدينة يوما كاملا (٣٦). وجاء في احد المصادر ان دخول اسبان الى مدينة بغداد ١٤٣٢ م تسبب في خراب المدينة ونهبها حتى لم يبق من «اسواقها وحوانيتها غير حانوتين وثلاثة افران تخبز الخبز» (٣٧). وفي سنة ١٤٤٧ م حين دخل جهانشاه بغداد اجاز لعساكره نهب المدينة ثلاثة أيام بلياليها، ولم تقتصر اعمال النهب والابتزاز على أيام حصار المدن واحتلالها (٣٨)، بل يمكن ان تستخلص من المصادر التاريخية ان النهب والابتزاز كان عملية منظمة يقوم بها الحكام التركمان القره قوينلو في الظروف والاحوال الاعتيادية ايضا. ففى اثناء حصار بغداد ١٤٤٥م/ ٨٤٩ هـ وزع احد الامراء التركمان ويدعى شيخى بيك على الجند مبالغ طائلة من الاموال من اجل حثهم على مقاومة الحصار. وكانت تلك الاموال اصلا قد اكتنزت من الضرائب الفاحشة التي جبيت من الاهالى وقد اشار احد المؤرخين الى حالة التضخم التى سببتها عملية توزيع الاموال على الجند قائلا «صارت الدراهم بسعر الفلوس في بغداد، وبلغ سعر رأس الغنم الف دينار، ولم يكن ذلك ناجما عن قلة الغنم واللحم، فقد كان للناس في بغداد غنم ودجاج كثير. ولكن سبب ذلك كثرة الدراهم» (٣٩). كما ذكر ان الامير التركماني بير بوداق فرض على اهالى بغداد سنة ١٤٦٥م/ ٨٦٦ هـ مبلغ الف وثمانمائة تومان (٤٠)، باسم ضريبة مال الامان. غير ان البغداديين عجزوا عن دفعها الامر الذى دفع بير بوداق الى تعذيب الاهالى بغية استحصال الضريبة منهم قهرا. وذكر الغياثى هذه الحادثة قائلا: «لقد وقع في بغداد ضرب وعقوبة وتعذيب لايعلمه الا الله» (٤١).

ج ــ انتشار الامراض والاوبئة :

كان انتشار الامراض والاوبئة نتيجة طبيعية لاحوال البلاد المتردية الناجمة عن تطاحن العساكر والفتك بالسكان واهمال السدود والقنوات وكثرة المستنقعات. ولاشك فانه في ظروف كهذه الظروف تكون الامراض المتوطنة مسألة واردة. على ان المصادر التاريخية ميزت بعض السنوات التى شهدت فيها البلاد اوبئة عامة. وخاصة وباء الطاعون الذى يتردد ذكره في المصادر المذكورة من قبيل طاعون ١٤١٧م/ ٨١٩ هـ الذى انتشر في معظم بلاد المشرق العربي (٤٢)، وكذلك طاعون ١٤٣٠م/ ٨٣٤ هـ الذى انتشر في بلاد المشرق عامة ايضا (٤٣)، والذى تشير المصادر الى انه ظل يحصد الناس حصدا حتى سنة ١٤٣١ م/ ٨٣٥ هـ (٤٤). وفي سنة ١٤٣٧م/ ٨٤١ هـ تعرض العراق الى وباء عام. فتك على ما يبدو بعشرات الالاف من السكان، حتى ان الغياثي وصف بغداد بعد ذلك الوباء قائلا «انه لم يبق من اهل بغداد واحد من الجملة، كما لم يبق من مدينة حديثة غير سبع انفس فقط» (٤٥). وتشير بعض المصادر الى ظهور الامراض في اعقاب فيضان سنة ١٤٣٦م/ ٨٤٠ هـ الذى اغرق اطراف البصرة ونشر مرض الملاريا على الارجح (٤٦)، وهو المرض نفسه الذى تعرضت له جند اسبان وافراد القبائل العربية القاطنة في اطراف الحويزة سنة ١٤٤٠م/ ٨٤٤ هـ على الارجح ايضا (٤٧).

د ــ المجاعات والكوارث الطبيعية :

ارتبط حدوث المجاعات بظروف البلاد السياسية وخاصة ابان حوادث حصار المدن حيث تشير المصادر، الى حوادث حصار بغداد والتى سبقت الاشارة لها والتى تسببت غالبا مجاعات رهيبة بين

سكانها. ففي عام ١٤٣٠م/ ٨٣٤ هـ وقعت مجاعة رهيبة في مدينة الحلة اثناء حصار اسبان لها (٤٨). كما شهدت مدينة واسط مجاعة شديدة اثر محاصرة المشعشعين لها سنة ٨٥٨ هـ (٤٩). وعانت معظم القرى والمدن الواقعة شمال بغداد من الحصار والتجويع ونهب المحاصيل على يد العساكر التركمانية التى كانت تتجول خلال تلك المدن في مناسبات عديدة. وهذا ما تشير له المصادر المتوفرة والتى جاء فيها ان احد امراء جهانشاه ويدعى سلطان علي ميرزا هاجم في سنة ١٤٥٧م/ ٨٦٠ هـ مهرود وديالى وبعقوبة والمدائن فحاصرها ونهب محاصيلها (٥٠) وكانت الكوارث الطبيعية سببا من اسباب زيادة الحالة سوءا والاوضاع تدهورا مسببة القحط والغلاء في البلاد. فقد كانت سنة ١٤٣١م/ ٨٣٥ هـ سنة محل وجدب. فانقطعت الغلة وساءت الاحوال وزاد بلاء بغداد المحاصرة بلاء، حتى اكل الناس الكلاب والسنابير والحمير ثم حل الجراد ليأكل أخر ما تبقى من عشب البلاد وخضارها وغلالها وارتفعت اسعار الحنطة وماتت الدواب، ويقال ان المن الواحد من لحم الضان كان يباع بدينار ذهب وبيع لحم الكلب بستة دراهم للمن الواحد (٥١) ويبدو ان المجاعة استمرت عاما ثالثا ١٤٣٢م/ ٨٣٦ هـ اشتد خلالها البرد وهلكت المواشي وتلفت الزروع والاشجار (٥٢)، كما حلت ببغداد ١٤٥٥م/٨٥٨ هـ كارثة جديدة بسبب تساقط الثلوج بصورة لم تعرفها البلاد من قبل. مات خلالها معظم مناحل البلاد وهلكت الاشجار (٥٣) وبات الناس خائرى القوى، فاغرى الاسراء.

٦ ــ القوى العربية القبلية والحكم القره قوينلو :

تمثل القبائل العربية في هذه الفترة من تاريخ العراق، وكما كانت سابقا ولاحقا، احدى القوى السياسية التى لعبت دورا كبيرا في تاريخ الشرق الادنى فالقبائل العربية باعتبارها مؤسسات سياسية محلية تميزت بحبها الفطرى للحرية والسيادة. كانت ترنو للاستقلال دائما مواجهة بذلك تطورات الاحداث السياسية ومجرياتها، ومقاومة محاولات القوى الاجنبية لمد نفوذها وتوسيع سيطرتها في البلدان والمدن العراقية.

وعلى الرغم من ان الخارطة القبائلية للعراق تظهر وجود مشيخات عديدة مثل مشيخة بنى اسد في الاحواز، والمنتفك في الفرات الادنى وعنيزة في نواحي الانبار (٥٤)، وبنو شيبان في جهات الموصل (٥٥)، وآل جحيش في جهات الحلة وآل جوذر في جهات الحلة ايضا (٥٦)، الا انه يمكن الاشارة الى امارتين عربيتين لعبتا دورا سياسيا متميزا في تاريخ العراق خلال هذه الحقبة. الامارة الاولى هى امارة آل الفضل في الفرات الاعلى والتى كان مركزها الرحبة وتوارث مشيختها امراء ينحدرون من سلالة حديثة الطائى. وتشير المصادر التاريخية الى ان شيوخها المعاصرين لعهد القره قوينلو في العراق لعبوا دورا ملحوظا في مقاومة الحكم القره قوينلو، شأنهم في ذلك شأن اسلافهم الذين قاوموا الغزو التيمورى. ففي سنة ١٤٢٦م/ ٨٣١ هـ هاجم عذرا بن علي بن نعير بن حيار بن مهنا بن عيسى حديثة الطائى مدينة الحلة التى قيل انها «خلت من حاكم ذى شوكة ومناعة» (٥٧). وذلك على ما يبدو لنا محاولة للحيلولة دون سقوطها بيد القره قوينلو. وتشير المصادر الى ان الشيخ عذرا دخلها وعين فيها نائبا عنه لحكمها (٥٨). ولاشك فان دخول الشيخ عذرا الى مدينة الحلة كان محاولة ناجحة اخرت من سقوطها بيد القره قوينلو مدة تقارب عشر السنوات. وقد قام شقيقه الشيخ مدلج بن علي بن نعير بن حيار بن عيسى حديثة الطائى بمواصلة شن الهجمات ضد مراكز القره قوينلو. ولم تتوقف الغارات الا في وقت لاحق ١٤٢٩م حين نشب صراع عشائرى داخل الامارة انتهى بمقتل الشيخ مدلج بن علي على يد ابن عمه قرقماس (٥٩)، الذى استعان على ما يبدو بالقره قوينلو لتثبيت سلطته على ابناء امارته.

بالنظر لتطور الاحداث وتفاقم الصراع بين الامراء القره قوينلو، فقد لعب شيوخ هذه الامارة دورا جديدا في المرحلة التالية، اذ ساندوا بعض امراء القره قوينلو ضد منافسيهم الاخرين، وفي رأينا ان هذا السلوك لايخرج عن محاولة لرد الاعتبار للامارة، وهو يوازى بالضرورة حالة التداعى والتمزق التى كان حكم القره قوينلو يعانى منها. وفي هذا السياق يمكن ان يفسر الاستقبال والحفاوة التى لقيها الشاه محمد حاكم بغداد القره قوينلو وتمكينه من حكومة الموصل ضد شقيقه اسبان والتى اضطلع بهذه المهمة الشيخ حارث بن عذرا الطائى . الذى آلت اليه مقاليد المشيخة فى امارة آل فضل العربية .

اما الامارة الثانية فهى الامارة المشعشعية التي جمعت تحت لوائها جمهرة من القبائل العربية مثل نيس الدوب (المعادى) وفرع من بنى طىء وبنى اسد وكذلك قبائل بنى ليث وبنى اسعد المنتشرة فى انحاء عربستان (٦٠) . وهذه الامارة منسوبة الى مؤسسها محمد بن فلاح المشعشعى الذى زعم ان بدنه كان يتشعشع ويهتز عندما يطالع العلوم الغريبة التى اقتبسها من شيخة احمد بن فهد الحلى (٦١) .

كان مؤسس الامارة سيد محمد بن فلاح قد بدا نشاطه السياسى والعسكرى من احدى قرى الحويزة المسماة قرية (ابى الشول). فقد اشارت بعض المصادر الى ان محمد بن فلاح قام سنة ١٤٤١م/ ٨٤٥ هـ بمهاجمة الحويزة بطريقة لاتخلو من الطرافة اذ انه امر النساء ان ترتدى العمائم وتسوق الجاموس خلف الرجال حتى ان حاكم الحويزة التيمورى استبد به الهلع بعد مشاهدته هذا الحشد الكبير من المقاتلين وفر من المدينة بدون قتال متحصنا لفترة قصيرة في قلعتها ثم اضطر الى الهرب منها ايضا (٦٢). وهكذا اصبحت مدينة الحويزة مقرا للامارة الجديدة ومركزا شنت منها الهجمات على المناطق المجاورة، وخاصة جهات البصرة وواسط وتشير المصادر الى ازدياد قوته وتكاثر اعوانه بعد ان انقادت له قبائل بنى ليث وبنى حطيط وبنى اسعد وبنى اسد (٦٣).

ان اتساع دائرة نفوذ الامارة المشعشعية الى جهات واسط وضعها فى موضع المواجهة لحكم القره قوينلو فى العراق ، وهى مواجهة يمكن اعطاؤها ابعادا سياسية وقومية باعتبار حقيقة ان المواجهة تجاوزت التوافق الفكرى الملحوظ بين القره قوينلو والمشعشعين .

ولاشك فان اعتماد هذه الفكرة لاتفترض بالضرورة التزام

المشعشعين سلوكا ايجابيا ازاء المناطق التى كانوا يهاجمونها لاعتبارات تتعلق بطبيعة تلك الفترة وضراوة الصراع السياسى في المنطقة، كما ان هذا التحليل ينسحب على القره قوينلو وغيرهم من القوى السياسية ايضا.

لقد كان انفجار الصراع بين الامراء القره قوينلو في العراق دافعا قويا لامراء الامارة المشعشعية كى يهاجموا مناطق نفوذ القره قوينلو في العراق ففي سنة ١٤٥٠م/٨٥٣ هـ حاصر الامير علي بن محمد بن فلاح مدينة واسط وضربها بالمنجنيق ثم دخلها واسند حكمها الى شخص يقال له دراج (٦٤) وفي سنة ١٤٥٤م/٨٥٧ هـ حاصر علي بن محمد بن فلاح مدينة النجف ولم ينسحب منها الا بعد ان اجبر اهلها على تسليمه قسما من كنوز مشهد الامام علي (رض) والتى تضمنت مئة وخمسين سيفا واثنى عشر قنديلا ستة منها ذهب والاخرى فضة (٦٥). ويبدو انه اراد جمع سيوف الامراء والملوك السابقين، وهو مسلك لايخلو من السذاجة في اظهار القوة والمباهاة. اضطرت حكومة بغداد القره قوينلوية الى ارسال حملة بقيادة دوابك ضمت عساكر من بغداد والحلة. بقصد القضاء على علي المشعشعي. الا ان الامير المشعشعي تمكن من الحاق الهزيمة بعساكر القره قوينلو التى فر الناجون منها وعلى رأسهم دوابك وبسطام بك حاكم الحلة، الى بغداد. وقد تابع الامير علي المشعشعي العساكر الهاربة حتى الحلة فنهبها ثم توجه منها الى النجف ومنها الى كربلاء مستبيحا لنفسه ما تبقى من سيوف وقناديل وانية وفرش (٦٦).

وقد ساعد استمرار اضطراب احوال البلاد الامير المشعشعي على تكرار هجماته على المدن. ففي سنة ١٤٥٦م/٨٥٦ هـ توجه الامير المشعشعي الى مهرود ثم هاجم بعقوبة ووصل الى المدائن وقد نهب هذه المناطق واحرق مالم يتمكن من حمله (٦٧) بينما وقف الامراء القره قوينلو يتفرجون دون ان يواجهوه مواجهة جدية.

وقد استمر نفوذ المشعشعين في عهد الامير محسن بن محمد بن فلاح ١٤٦١ ـ ١٤٩٩/٨٦٦ ـ ٩٠٥ هـ حيث شملت امارتهم انحاء واسعة من عربستان وجنوب العراق وسواحل الخليج العربي (٦٨).

٧ ـ الانحطاط الثقافي :

لما كانت حقبة حكم القره قوينلو من اكثر الحقب التى شهدتها بغداد اضطرابا وفوضى، فقد اصيبت الحالة الثقافية التى شهدت انتعاشا ملحوظا في اواخر العهد الجلائرى انحلالا كبيرا. وكانت ابرز مظاهر ذلك الانحلال الهجرة الجماعية لعلماء بغداد ومشايخها الى الشام ومصر واليمن.

ان متابعة كتب التراجم التى اهتمت بشخصيات ورجالات هذه الحقبة والحقبة التى تلتها تظهر اصولا عراقية لكثير من اولئك العلماء والمشايخ ولعل من ابرز هؤلاء العلماء هو الشيخ مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادى صاحب القاموس المحيط الذى اضطر الى ترك وظيفته في المدرسة النظامية ببغداد والهجرة الى اليمن سنة ١٤١٤/٨١٧ هـ حيث نصب قاضيا هناك. اجلالا لعلمه واحتراما لقدره (٦٩). وكذلك القاضي تاج الدين احمد النعماني الكوفي العالم في علوم اللغة والحديث، وقد اضطر الى ترك مدرسته في جامع النعمان ببغداد والهجرة الى دمشق حيث وافاه الاجل فيها ١٤٣٥ ـ ٨٣٤ هـ (٧٠).

ولم يكن مصادفة في هذا العهد المضطرب، ان تقتصر معلوماتنا على شاعر واحد عاش في البصرة على الرغم من جهودنا المضنية للبحث عن رجالات الادب في هذا العصر، ويدعى هذا الشاعر عطاء ابن عبدالعزيز القحطاني البصرى المشهور بابن اللوكة المتوفى سنة ١٤٥٦/٨٦٠ هـ ومن شعره :

لما تبدى وقد اكبرت صورته ... بدر بحار المعنّى في معانيه

وقد قلت يا لائمي في محبته ... فذ لكن الذى لمتني فيه (٧١)

وقد شاعت خلال هذه الحقبة اللغة الفارسية والتركية بدرجة اقل، اما اللغة العربية، فانها تدهورت كثيرا قد اختلط فيها الكثير من الكلمات الفارسية والتركية وغلبت عليها اللهجة العامية، ويقف كتاب التاريخ الغياثى لمؤلفه غياث الدين عبدالله بن فتح الله البغدادى، دليلا شاخصا على مدى تدهور اللغة العربية، وغلبة اللهجة العامية فيها. وكان الشيخ الغياثى المتوفى سنة ١٤٩١/٨٩٦ هـ قد عاصر احداث هذه الحقبة التاريخية وهجر بغداد مع من هجرها من العلماء الى دمشق ولم يعد اليها الا بعد استقرار اوضاعها نسبيا في عهد الاق قوينلو حيث تولى منصب كاتب ديوان الانشاء في حكومة بغداد (٧٢).

ختاما لابد من الاشارة الى جهانشاه كواحد من الملوك الشعراء والذى خلف ديوانا باللغتين التركية والفارسية (٧٣).

الخاتمة

بسقوط حكم القره قوينلو في العراق، تكون صفحة اخرى من تاريخ الحقبة المظلمة التى اعقبت الغزو المغولى قد انطوت، بينما بقى العراق ينافح عن شخصيته وكيانه.

ان تدوين احداث هذه الحقبة التاريخية، بكل ما تحمله من ويلات واضطرابات وبكل ما تعينه من عبر وعظات، ان هى الا مؤشر لانسان العراق في رحلته الطويلة لتجاوز مرحلة الانكفاء والتقدم بثبات نحو المستقبل.

الهوامش والمصادر :

(١) ارزنجان وسيواس : ارزنجان وتذكر ارزنكان ، مدينة كانت قديما ضمن بلاد ارمينية ، وهي الآن في الجهة الشرقية من تركيا ، اما سيواس احدى المدن التركية الآن ، وتقع على نهر قزل ايرمق انظر : كي لسترنج . بلدان الخلافة الشرقية . ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد (مطبعة الرابطة ، بغداد ـ ١٩٥٤) ص ١٥٠ ـ ١٧٩ ، وتزعم المصادر العثمانية ان القبائل القره قوينلوية التى استقرت في هاتين المنطقتين هم من البارانية نسبة الى باران احد احفاد اوغوز البطل الاسطورى لدى الاتراك انظر : محمود بن حسين الكاشغرى . ديوان لغات الترك (دار الخلافة العلية ١٣٣٣هـ) ج/١ ص ١٥٦ . احمد بن لطف الله المولوى . صحائف الاخبار (استانبول ١٢٨٥) ج/٢ ص ١٤٩ .

(٢) ابو العباس احمد بن يوسف القرماني . اخبار الدول واثار الاول ، (بغداد ١٢٨٢هـ) ص ٣٣٦ .

(٣) عن الغزو التيمورى للعراق والشام يمكن الرجوع الى : جاسم مهاوى حسين تاريخ الغزو التيمورى للعراق والشام واثاره السياسية (١٣٨٥ ـ ١٤٠٥) اطروحة ماجستير غير منشورة (كلية الآداب ـ جامعة بغداد ١٩٧٦م) .

(٤) صحائف الاخبار ج/٢ ص ١٥.

(٥) نفس المصدر السابق ج/٢ ص ص ١٥٠ ـ ١٥١ جهانكير زيل اوغلو ، مختصر اذربيجان تاريخى (استانبول ١٩٢٤) ص ٨٩ .

(٦) شمس الدين محمد بن عبدالرحمن السخاوى ، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (بيروت لا ت) ج/١ ص ٢٢١ .

(٧) بحرية اوج اوق النساء الحاكمات في التاريخ ، ترجمه عن التركية ابراهيم الداقوقى [illegible]

(٨) مختصر اذربيجان تاريخى ص ٨٩ .

(٩) السلطانية وتسمى قنغرلان ، وهي مدينة بناها السلطان اولجايتو بن ارغون بين ابهروزنجان . وقد اتخذت حاضرة الدولة الايلخانية في بعض الفترات . انظر بلدان الخلافة الشرقية ص ٢٥٧

(١٠) عبدالله بن فتح الله البغدادى . التاريخ الغياثى ، الفصل الخامس تحقيق طارق المدانى (مطبعة اسعد . بغداد ١٩٧٥) ص ١٣٧ انظر كذلك Clement Huart. Histoire de Baghdad . Paris. 1901 P. 23.

(١١) دوندو خاتون . هي بنت السلطان حسين بن أويس الجلائرى ، وتقول الدكتورة بحرية اوج اوق بان السلطان حسين كان يضع الحجاب على وجهه بسبب جماله الخارق في اثناء خروجه الى الشارع . لانه كان لا يرتاح من نظرات الناس اليه . وقد قتل السلطان حسين على يد شقيقه احمد فعاشت دوندو في كنف عمها وهربت معه الى مصر وقد سحر جمال دوندو السلطان المملوكي ظاهر برقوق ، فتزوجها مدة من الزمن ثم جاءت الى بغداد مع عمها ، فتزوجت من الشاه ولد الذى قتل بتشجيع منها على الأرجح . انظر . النساء الحاكمات في التاريخ صص ١٣٣ ـ ١٢٤ .

(١١ ـ) التاريخ الغياثى . ص ٢٤٥ وما بعدها ، الحافظ بن حجر العسقلانى ، انباء الغمر بانباء العمر ، تحقيق حسن حبشى (القاهرة ١٩٧٢) ج/٢ ص ٤٦٠

(١٢) عباس العزاوى ، تاريخ العراق بين احتلالين (مطبعة بغداد الحديثة . بغداد ١٩٣٦) ج/٢ ص ٢٠٩ Henery H. Howerth History Of The Monjols. New York 1888 Vol 309.

(١٣) قلندرخانة نسبة الى القلندرية وهم طائفة من المتصوفين ، وكانت قلندرخانة تقع في الجهة الشرقية من نهر دجلة انظر . جواد احمد سوسة ، دليل خارطة بغداد (بغداد ١٩٥٨) ص ٢٢٢

(١٤) التاريخ الغياثى ص ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦ ,Howorth Op. Oit. Vol. 3. P. 678.

(١٥) انباء الغمر بانباء العمر ج ٢ ص ٤٦٠.

(١٦) تاريخ العراق بين احتلالين ج ٢ ص ٣١.

(١٧) التاريخ الغياثى ص ٢٥٣

(١٨) نفس المصدر السابق ص ٢٤٦

(١٩) نفس المصدر السابق ص ٢٤٨

(٢٠) الضوء اللامع ج ٦ ص ٢١٧

(٢١) شرف خان البدليسى ، شرفنامة ، ترجمه عن الفارسية ، محمد على عونى (القاهرة ١٩٦٢) ج/٢ ص ٧٦

(٢٢) التاريخ الغياثى ص ٢٥٣ .

(٢٣) ابو المحاسن يوسف بن تغرى بردى . النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، تحقيق ، جمال محمد محرز وفهيم محمد شلتوت (الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧١) ج ١٤ ص ٣٤٩

(٢٤) التاريخ الغياثى ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤

(٢٥) حميد الدين محمد بن سيد برهان ميرخوند ، تاريخ روضة الصفا (تهران ١٣٣٩) ج/٦ ص ٨٥٣ ـ ٨٥٤

(٢٦) ابو بكر الطهرانى ، ديار بكرية ، تحقيق ، نجاتى لوغال وفاروق سومر (انقرة ١٩٦٢) ج/٢ ص ٢٢٠ ٨

(٢٧) نفس المصدر السابق ج/٢ ص ٣٤٠ شرفنامة ، ج/٢ ص ٩٨ .

(٢٨) ديار بكرية ، ج/٢ ص ٣٧٢ ، يحيى بن عبداللطيف القزوينى ، التواريخ (تهران لا ت) ص ٢١٦ .

(٢٩) غياث الدين محمد بن همام الدين خواندمير ، حبيب السير في اخبار افراد بنى البشر (طهران ـ ١٣٣٣هـ) ج/٤ ص ٨٦ ديار بكرية ج/٢ ص ٢٧٣ ، وقارن مع ما يذكره مرتضى نظمى زاده كلشن خلفا ترجمه عن التركية ، موسى كاظم نورس (النجف ١٩٧١) ص ١٧٥

(٣٠) التاريخ الغياثى ص ٣٣٥ ـ ٣٣٦ .

(٣١) نفس المصدر السابق ص ٢٦٩

(٣٢) المصدر نفسه

(٣٣) المصدر السابق ص ٢٨٦ .

(٣٤) حبيب السير ج/٤ ص ٨٦ ، ديار بكرية ج/٢ ص ٢٧٣

(٣٥) ديار بكرية ج/٢ ص ٢٧٣

(٣٦) التاريخ الغياثى ص ٢٤٧ . تاريخ العراق بين احتلالين ج/٢ ص ٣١٠ ٨

(٣٧) مؤرخ شامى مجهول . حوليات دمشقية ، تحقيق حسن حبشى (القاهرة ١٩٦٨) ص ٦٤

(٣٨) التاريخ الغياثى ، ص ٢٦٤ .

(٣٩) المصدر السابق ص ٢٨٢ .

(٤٠) التومان : عمله ايرانية ذهبية . وقد اختلفت قيمته باختلاف الزمان والمكان . انظر انستاس مارى الكرملى . النقود العربية وعلم النميات (القاهرة ١٩٣٩) ص ١٧١

(٤١) التاريخ الغياثى ، ص ٣١٧

(٤٢) على بن داود الصيرفي ، نزهة النفوس والابدان في تواريخ الزمان . تحقيق . حسن حبشى (القاهرة ١٩٧١) ج/٢ ص ٢٩٩

(٤٣) حوليات دمشقية ص ٦ .

(٤٤) انباء الغمر بانباء العمر ، ج ٣ ص ٤٨١

(٤٥) التاريخ الغياثى ، ص ٢٧٠

(٤٦) عباس العزاوى . تاريخ العراق بين احتلالين (بغداد ١٩٣٩) ج ٣ ص ٩٨ ٨

(٤٧) التاريخ الغياثى . ص ٢٧٤

(٤٨) المصدر السابق ص ٢٦٢

(٤٩) محمد هليل الجابرى ، امارة المشعشعين . اطروحة ماجستير غير منشورة (كلية الآداب ـ جامعة بغداد ١٩٧٣) ص ٦٦

(٥٠) التاريخ الغياثى ، ص ٣١١ .

(٥١) حوليات دمشقية ص ٢٢ .

(٥٢) ياسين خير الله العمرى ، الآثار الجلية في الحوادث الارضية ، مخطوط في مكتبة المجمع العلمى العراقى . رقم ٤٦/٤٧ ورقة ١٦١

(٥٣) التاريخ الغياثى ص ٣١٠

(٥٤) احمد بن على القلقشندى ، نهاية الارب في معرفة انساب العرب (بغداد ١٩٥٨) ص ٣٤٨

(٥٥) المصدر السابق ص ٣٨٦

(٥٦) تاريخ العراق بين احتلالين ج/٣ ص ٢٥٨

(٥٧) التاريخ الغياثى ص ١٢٤

(٥٨) المصدر السابق ص ١٢٦

(٥٩) تاريخ العراق بين احتلالين ج ٣ ص ٧٦

(٦٠) جاسم حسن شبر تاريخ المشعشعين وتراجم اعلامهم (النجف ١٩٦٥) ص ٤٨

(٦١) على نعمة الحلو . الاحواز في ادوارها التاريخية الطبعة الاولى (دار البصرى . بغداد ١٩٦٩) القسم الأول ج ٢ ص ١٤٧ .

(٦٢) المصدر السابق . ق ١/ ج٢ ص ١٥٨

(٦٣) المصدر السابق . ق ١ / ج ٢ . ص ١٥٩

(٦٤) المصدر نفسه ق ١ / ج ٢ ص ١٦١

(٦٥) التاريخ الغياثى ، ص ٢٠٨ .

(٦٦) المصدر السابق ص ٣٠٩ ـ ٣١٠ .

(٦٧) على نعمة الحلو . المصدر السابق . ص ١٦٤ .

(٦٨) المصدر السابق ص ١٦٧

(٦٩) ابو الفلاح عبدالحى بن العماد الحنبلى . شذرات الذهب في اخبار من ذهب . (القاهرة ١٣٥١ هـ) ج ٧ ص ١٢٦ .

(٧٠) عباس العزاوى تاريخ الأدب العربى (بغداد ١٩٦٠) ج ص ٦٢

(٧١) الضوء اللامع ج ٥ ص ١٢٦

(٧٢) انظر الأضواء الجديدة التى سلطها الدكتور عماد الجواهرى حول عصر الغياثى وشخصيته في بحثه المعنون « الاق قوينلو نموذج من العلاقات السياسية في الشرق الأدنى اواخر القرن الخامس عشر » المنشور في مجلة دراسات عربية . العدد ١ ، ٢ ، ٧ بيروت [illegible]

(٧٣) نشر الأستاذ المحامى عطا ترزى باشى . بعضا من اشعار جهانشاه في مجلة الاخاء البغدادية العدد ١١ لسنة ١٩٧٣ وذلك في بحثه المعنون « جهانشك توركجة شعرلى » اى اشعار جهانشاه التركية » ويمكن الرجوع حول نفس الموضوع الى Hakki Uzun Carsil Oglu.

Anadlu Beyiklirı Ve Ak Koyunlu Kara Koyunlu. Ankara 1937. S. 92'3



د . أمين توفيق الطيبي

تمهيـــد :

كانت للعرب السيادة البحرية في البحر المتوسط (بحر الروم ـ البحر الشامي) في القرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد ، وبفضل هذه السيادة استطاعوا ان ينتزعوا من ايدي الروم البيزنطيين اكبر جزر البحر المتوسط كصقلية واقريطش (كريت) وقبرص (١) وفي زمن كانت فيه حروب الصوائف والشواتي لا تنقطع في مناطق الثغور بين العرب والروم ، اتخذ العرب هذه الجزر قواعد هامة للتجارة وللاغارة على أراضي الروم . وقد تم فتح جزيرة صقلية البيزنطية على يد عرب افريقيا في عهد الأغالبة ، أما جزيرة اقريطش فقد فتحتها واستقرت فيها جماعة عربية قدمت من الأندلس بعد ان اضطرت الى النزوح عن موطنها في اعقاب ثورة الربض الشهيرة بقرطبة .

وقد قدّر لبعض هؤلاء النازحين الأندلسيين ان ينزلوا على ساحل مصر ، وان يسيطروا على الاسكندرية ويقيموا فيها امارة مستقلة لمدة عشر سنوات ، الى ان اضطروا من جديد ، وعلى ايدي العباسيين هذه المرة ، الى الرحيل عن البلاد . وهكذا قُدِّر لهؤلاء الأندلسيين المغامرين ان يفتتحوا جزيرة اقريطش البيزنطية وان يستوطنوها نحو قرن ونصف القرن من الزمن . وقد اتخذوا الجزيرة مركزا للتجارة ، وقاعدة لمواصلة الغزو البحري على مراكب الروم واراضيهم في منطقة بحر ايجه ، لا بل انهم أغاروا على البر اليوناني ذاته واستقروا في بلاد اليونان فترة من الزمن . وقد عرف هؤلاء العرب الأندلسيون بالجرأة والاقدام ، ويصفهم الاصطخري بأنهم « أهل غزو » (٢) ويتحدث ابن حوقل عن الجزيرة فيقول انه « لم يكُنْ للنصرانية فيها مدخل ولا مخرج ، وأهلها في غاية الجهاد » (٣) . وقد تعاقب على حكم الجزيرة عشرة من الأمراء من ذرية فاتح الجزيرة أبي حفص عمر بن عيسى بن شعيب البلوطي المعروف بالأقريطشي والأندلسي ، الى ان استرد الروم البيزنطيون الجزيرة عام ٣٥٠ هـ/ ٩٦١م بعد حرب ضروس وحصار طويل لعاصمة الجزيرة (الخندق) دام تسعة شهور لم يجد اثناءه عرب إقريطش مغيثا او نصيرا في المشرق او المغرب . ففي مصر ، كانت دولة الأخشيديين تحتضر ، وفي الشام لم يكن للحمدانيين اسطول ، وكانوا في هذه الآونة يكابدون حربا ضروسا مع الروم . وكان بوسع العبيديين الفاطميين في افريقيا مدّ يد المساعدة ، لولا انشغالهم في الصراع الدائر في المغرب مع خلافة قرطبة الأموية وانشغالهم كذلك في التصدي للروم في مياه صقلية ، كما ان الفاطميين انذاك كانوا يخططون لغزو المشرق وللقضاء على الخلافة العباسية ، وكانت إقريطش ولاية عباسية .

وما ان استرد الروم البيزنطيون جزيرة إقريطش حتى عملوا على تنصير مسلميها بالاكراه ، ورحل بعضهم عن الجزيرة الى الأندلس وصقلية والاسكندرية (٤) .

ثورة أهل الربض ونزوح جمع منهم الى المشرق

على أثر ثورة أهل الربض الجنوبي بقرطبة على الأمير الحكم بن هشام سنة ٢٠٢ هـ/ ٨١٨ م وقمعها بعنف ، أنذر الثائرون بوجوب مغادرة الأندلس على الفور ، فتوجه بعضهم الى المغرب واستقر في فاس (عدوة الأندلس) ، وأما الباقون ، ويقدر عددهم بنحو خمسة عشر الفا ، دون النساء والأطفال (٥) فقد نزحوا الى المشرق في ٢٠ رمضان سنة ٢٠٢ هـ/ ١ ابريل ٨١٨ م بطريق البحر « حتى انتهوا الى الاسكندرية وذلك في أول ولاية المأمون ، فعارَّهم اهلها وذهبوا الى اذلالهم ، فأبوا الضيم وثاروا بهم فغلبوهم .. وملكوا الاسكندرية مدَيْدة ، الى ان ورد عبدالله بن طاهر اميرا على مصر من قبل المأمون ، فصالحهم على التخلي عنها على مال بذله لهم وخيرهم في النزول بحيث شاؤوا من جزائر البحر ، فاختاروا جزيرة إقريطش من البحر الرومي » (٦)

ويرى المستشرق اماري ان هؤلاء الأندلسيين اقاموا بعض الوقت في الأندلس والمغرب ولم يصلوا الى مصر الا بعد ثماني سنوات من وقعة الربض وبعد ان زودهم أمير قرطبة بالمراكب اللازمة لتمكينهم من التوجه الى المشرق ، كما انهم قبل التوجه الى مصر زاولوا الغزو البحري ضد مراكب النصارى في غربي البحر المتوسط (٧) .

وكانت الظروف في مصر مواتية ، اذ كان قد انتزى في الفسطاط على الخليفة المأمون الوالي عبدالله بن السري ، فانتهز الأندلسيون الفرصة ونزلوا الى البر قرب الاسكندرية وتحالفوا باديء الأمر مع احدى القبائل العربية المجاورة للمدينة ، ثم تمكنوا من السيطرة على الاسكندرية حيث اقاموا امارة مستقلة ظلت قائمة نحوا من عشر

سنوات . وكما يقول ابن الأبار ، فان هؤلاء الأندلسيين كانوا ذوى أنفة يأبون الضيم ويقال « انه لم يخرج منهم طائفة بناحية من نواحى الدنيا الا وتغلبوا عليها واستوطنوها » (٨). وكان زعيمهم ابو حفص عمر ابن شعيب البلوطى المعروف بابن الغليظ من اهل قرية بطروش من فحص البلوط المجاور لقرطبة ، « ولأهله جلادة وحزم على مكافحة اعدائهم » (٩).

ولما وصل عبدالله بن طاهر بن الحسين الوالى الجديد على مصر من قبل المأمون وقضى على ثورة ابن السري فى الفسطاط ، توجه الى الاسكندرية وحاصرها بضعة أيام ، او تسعة شهور حسب رواية ميخائيل السريانى (١٠)فسأله الأندلسيون الامان على ان يرتحلوا الى بعض أرض الروم فأعطاهم الأمان (١١) الا انه يبدو من عبارة ابن الأبار « فصالحهم على التخلي عنها » الاسكندرية « على مال بذله لهم » « وعبارة ابن خلدون » وبعثهم الى إقريطش ، وعبارة المقرى « أجازهم الى إقريطش » (١٢) ان هؤلاء الأندلسيين استسلموا بشروط منها تأمينهم وتقديم العون المالى لهم ، وكذلك تزويدهم بالمراكب لغزو جزيرة إقريطش البيزنطية . وبذلك تسنى للوالي العباسى التخلص منهم ودفعهم الى مناهضة الروم اعداء الدولة العباسية ، ولعله اخذ عهدا عليهم باعلان ولائهم للخليفة العباسى فى الجزيرة اذ ما أن افتتحوا جزيرة إقريطش حتى اعلنوا ولاءهم للخليفة العباسى ، كما تدل على ذلك المصادر الكتابية والعملة . فقد عثر على فلس فى جزيرة كريت نقش على وجهه اسم الفاتح ابي حفص وعلى ظهره اسم الخليفة العباسى المتوكل على الله (١٣).

وثمة تباين فى الآراء بشأن السنة التى خرج فيها الأندلسيون من الاسكندرية وافتتحوا جزيرة إقريطش ، وقد تناول هذا الموضوع باسهاب ى . بروكس E. Brooks فى بحث نشره بعنوان « إحتلال العرب لجزيرة كريت The Arab Occupation Of Crete معتمدا على المصادر العربية والبيزنطية المتوفرة . فحسبما يذكره اليعقوبى والكندى ، كان سقوط الاسكندرية فى يد الوالي العباسى فى ربيع اول سنة ٢١٢ هـ/مايو - يونيو ٨٢٧ . ويضيف المؤرخ ميخائيل السريانى بأن الأندلسيين فى الاسكندرية صمدوا للحصار تسعة شهور ، وعليه فان سقوط المدينة كان فى شهر ديسمبر سنة ٨٢٧م . ويخلص بروكس الى القول بأن العرب الأندلسيين خرجوا من الاسكندرية بعد سقوطها وافتتحوا جزيرة كريت فى اواخر سنة ٢١٢ هـ/ اوائل سنة ٨٢٨ م(١٤).

وجدير بالذكر انه فيما يتعلق باخبار فتح العرب للجزيرة ، فاننا نعتمد كلية على المصادر البيزنطية ، اذ لا تذكر المصادر العربية شيئا عن اخبار الفتح باستثناء البلاذري الذى أورد ثلاث عبارات مقتضبة عن الفتح اقتبسها عنه ياقوت وهى « غزاها (إقريطش) فى خلافة المأمون ابو حفص عمر بن عيسى الاندلسي المعروف بالاقريطشى فافتتح منها حصنا واحدا ونزله ، ثم لم يزل يفتح شيئا بعد شيء حتى لم يبق فيها من الروم احدا ، وخرب حصونهم »(١٥). ومما هو جدير بالذكر كذلك ان قصة اهل الربض ووصولهم الى الاسكندرية ثم افتتاحهم لجزيرة كريت لا يذكرها الا المؤرخون العرب . وأما المؤرخون البيزنطيون فلا يذكرون مصر ، ويبدو أنهم حسبوا ان الفاتحين العرب جاؤوا من الأندلس (١٦)

إقريطش فى مصنفات الجغرافيين العرب

عرفت جزيرة كريت عند الجغرافيين العرب باسم إقريطش (بفتح الهمزة وتكسر)(١٧). وقد تحدث الجغرافيون العرب عن موقع الجزيرة ومساحتها وخيراتها وكثرة مراسيها ، فالاصطخرى يقول ان إقريطش دون قبرص مساحة وعمارة (١٨). وعن موقعها يقول المراكشى انها مقابلة « لبر برقة اول المغرب »(١٩) أما ياقوت فيقول انه « يقابلها من بر افريقية لوبيا ، وهى جزيرة كبيرة فيها مدن وقرى »(٢٠) ويقول ابن خلدون ان اقريطش « من جزر البحر الرومى مابين صقلية وقبرص فى مقابلة الاسكندرية » (٢١) ويذكر الحميرى ان الجزيرة تسمى ايضا « اقريطش البتربلش » وترجمته مائة مدينة ، وكذلك كان بها مائة مدينة (٢٢). ويعلق كنارد على التسمية بتربلش بأنها تحريف لاسم الجزيرة اليونانى القديم Hekatompolis (٢٣)

والجزيرة كثيرة الكروم والأشجار ، وفيها معدن (منجم) ذهب ، وفى جبالها وعول كثيرة ، وهى كثيرة المعز (٢٤) وتستورد الجزيرة زيت الزيتون من افريقية والأندلس . ويصاد سمك التونة فى مياهها ويصدر بعد تجفيفه ، ويضيف الزهرى ان إقريطش تصدر الأنتيمون والمصطكى والمكسرات والرمان والجبن (٢٥) وتصدر الجزيرة الى مصر العسل والجبن (٢٦).

ويتحدث الجغرافيون العرب عن اعشابها الطبية فيذكر الزهرى عشبا طبيا لا يوجد الا فى إقريطش وفى الهند ، وهو ينمو كطفيليات على نبات الزعتر ، ولعله الأنتيمون الذى يذكره الحميرى ويصفه بأنه لا مثيل له ، والذى يقول عنه القلقشندى انه يستعمل فى الأدوية (٢٧).

ويزعم صاحب (الصلة لتاريخ ثيوفانيس) ان فاتح الجزيرة أبا حفص أشاد بوفرة اللبن والشهد فى الجزيرة لكى يثنى اتباعه عن التفكير فى مبارحة الجزيرة بعد نزولهم الى البر فيها (٢٨).

وفضلا عن خصب الجزيرة ووفرة غلاتها فانها كانت مركزا تجاريا هاما « كثيرة الخير والمير والتجارة ، والوارد منها والصادر اليها رائج » (٢٩)

افتتاح إقريطش وأمارة أبى حفص عمر بن شعيب

فى خلافة معاوية بن أبى سفيان ، وله الفضل فى انشاء اول اسطول عربى ، غزا العرب جزيرة إقريطش لأول مرة سنة ٥٤ هـ - ٣ - ٦٧٤م ، ثم غزوا الجزيرة فى خلافة الوليد بن عبدالملك وفي خلافة هارون الرشيد (٣٠) ، الا ان هذه الغزوات كانت بمثابة غارات على قواعد الروم وللظفر بالغنائم .

اما افتتاح الجزيرة وبغرض الاستيطان ، فقد كان فى اواخر سنة ٢١٢ هـ/اوائل ٨٢٨ م على يد العرب الأندلسيين القادمين من الاسكندرية بقيادة أبى حفص عمر بن شعيب الذى تسميه المصادر البيزنطية Apochaps, Apocapso وتقول المصادر البيزنطية ان هؤلاء الأندلسيين سبق ان اغاروا على الجزيرة قبل افتتاحها (٣١) ويبدو ان غارتهم الأولى كانت غارة استطلاعية تمهيدية .

كانت إقريطش أنذاك تابعة للامبراطورية البيزنطية التى كانت فى تلك الفترة تعانى من متاعب داخلية وخارجية أوهنتها وفتت فى عضدها . فقد انهكتها الحرب الأهلية التى تزعمها الثائر المطالب بالعرش توماس ، كما كانت الامبراطورية تعانى من منازعات مذهبية

حادة نتيجة لقيام حركة مناقضة الايكونات او الصور ، وهى الحركة التى كان يناصرها أباطرة الأسرة الفريجية الحاكمة آنذاك . اضف الى ذلك ان الامبراطورية كانت تواجه حملة عرب افريقية على صقلية وغاراتهم على ممتلكات البيزنطيين في جنوب ايطاليا . ثم انه يبدو ان عناية البيزنطيين بالأسطول قد قلت منذ سقوط الدولة الأموية في المشرق ، وأدى ذلك الى عواقب وخيمة منها فقدان البيزنطيين لجزيرتي إقريطش وصقلية في آن واحد تقريبا(٣٢). وعلى ذلك ، فيبدو ان إقريطش كانت خالية من الحاميات العسكرية يؤيد ذلك قول ابن الابار ان الجزيرة « كانت يومئذ خالية من الروم »(٣٣). كما ان الأهالى كانوا على غير المذهب الدينى الرسمى المناهض للايكونات ، وكانوا يعانون من سوء الادارة البيزنطية ، ولذلك فانهم لم يبدوا مقاومة للفاتحين على افتتاح الجزيرة والاستقرار فيها بعد نزوحهم عن قرطبة اولا ثم عن الاسكندرية بعد ذلك .

وكما ذكرنا من قبل فان تفاصيل اخبار الفتح وصلتنا في معظمها عن طريق المؤرخين البيزنطيين ، والبلاذرى هو الوحيد بين المؤرخين العرب الذى أشار الى افتتاح الجزيرة وفي غاية الايجاز . وتقول المصادر البيزنطية ان العرب الأندلسيين وصلوا الى إقريطش في عهد الامبراطور ميخائيل الثانى (حكم ٨٢٠ ـ ٨٢٩م) على ظهر أربعين مركبا وانهم نزلوا الى البر عند رأس Charax وعلى رأسهم ابو حفص Apocapso وشيدوا في مكان نزولهم على ساحل الجزيرة الشمالي حصنا حفروا حوله خندقا عميقا ، ومنه اشتق اسم المدينة التى قامت حول الحصن فيما بعد ، وهى مدينة (الخندق) ومن الاسم العربى للمدينة اشتق اسمها اليونانى Chardax وكذلك الاسم كانديا Candia الذى عرفت به المدينة ايام حكم البنادقة ثم الاتراك العثمانيين للجزيرة ، وهو الاسم الذى ظل مستعملا حتى مطلع القرن العشرين ، حينما استبدل باسم المدينة الحالى Herakleion ومن الخندق اخذ العرب يغيرون على اطراف الجزيرة وداخلها . وعلى حد قول البلاذرى لم يزل ابو حفص « يفتح شيئا بعد شىء حتى لم يبق فيها من الروم احدا ، وخرب حصونهم »(٣٤) وتذكر المصادر البيزنطية ان ابا حفص أحرق المراكب ، وأطرى ثروة الجزيرة حاثا اتباعه على البقاء فيها . ويروى انه خاطبهم قائلا : « فيم شكواكم ؟ لقد حملتكم الى ارض تفيض باللبن والشهد . هذه أرضكم الحقة ، فاستريحوا وانسوا اوطانكم المجدبة » . قالوا : « وأولادنا ؟ » فأجابهم « سوف تؤدى الأسيرات الحسان لكم وظائف الزوجات ، ومن ثم تصبحون آباء جيل جديد »(٣٥). وكما يعلق كنارد ، فان الرواية تبدو مستبعدة واسطورة من نسج خيال الكتاب البيزنطيين ، اذ أن الأندلسيين كانوا قد اصطحبوا عائلاتهم معهم . ويفترض امارى ان العرب احرقوا بعض مراكبهم المعطوبة ولعل ذلك كان مصدر الرواية البيزنطية(٣٦).

ويذكر ابن حزم القرطبى ان اكثر المفتتحين لجزيرة إقريطش كانوا من أهل الأندلس(٣٧)، الذين ما ان فرغوا من افتتاح الجزيرة حتى دعوا المسلمين من الشام وافريقية والأندلس للاستيطان فيها . ويقول ابن الأبار ان الجزيرة كانت « يومئذ خالية من الروم » فاحتمل الأندلسيون « اليها بقتنتهم ونزلوها فاعتمروها ، وجاءهم الناس من كل مكان فاوطنوها معهم »(٣٨).

وقد عمل اول ولاتها أبو حفص على النهوض باقتصاد الج وقسمها اداريا الى اربعين كورة او اقليما ، ولم يسمح للأجانب بالابحار او الاتجار في منطقة بحر ايجه ، مالم يؤدوا له ضريبة مسبقة (٣٩) .

وما ان استقر ابو حفص وقومه في الجزيرة حتى أقام امارة مستقلة مع الاعتراف بسيادة الخليفة العباسى في بغداد . كما كان امراء الأغالبة قد فعلوا في افريقية قُبَيل ذلك . ولعل ذلك كان بموجب اتفاق مسبق مع والي مصر عبدالله بن طاهر بن الحسين ومن ذرية ابى حفص ، تعاقب على حكم إقريطش عشرة امراء نحوا من قرن ونصف قرن من الزمن .

وقد اتخذ العرب من الجزيرة مركزا للتجارة وللغزو البحرى ضد مراكب الروم واراضيهم وجزرهم في منطقة بحر ايجه(٤٠). واصبحت إقريطش شوكة مؤلمة في جنب الروم ، واصبحت عاصمتها الخندق مأوى لغزاة البحر المسلمين ، اذ منها ومن طرسوس وطرابلس الشام كان غزاة البحر ينتشرون في مياه بحر ايجه فيغنمون المراكب وينقضون على الجزر ، وفر سكانها وسكان سواحل بحر ايجه الى الداخل(٤١). وتعتبر إقريطش من اهم القواعد الاستراتيجية في شرقي البحر المتوسط ، وعبثا حاول الامبراطور ميخائيل الثانى ومن جاء بعده استردادها . ويقول اومان ان موانىء الجزيرة المائة « اصبحت اوكارا لقراصنة لا عد لهم باتوا وبالا على التجارة في الشرق . كما شكلوا خطرا كبيرا على الامبراطورية »(٤٢).

وفي نفس السنة التى افتتحوا فيها الجزيرة ، اغار عرب إقريطش على جزيرة ايجينا ، فهجرها أهلها لكثرة الغارات عليها(٤٣). وفي سنة ٢١٤ هـ/ ٨٢٩ م دمر العرب اسطولا بيزنطيا قرب جزيرة ثاسوس Thasos وعاثوا بمنطقة جبل آتوس Athos شرقى سلانيك . واغاروا على سواحل آسيا الصغرى الغربية(٤٤). ولعل عرب إقريطش ساهموا كذلك في افتتاح جزيرة صقلية اذا ما اخذنا بوجهة نظر امارى الذى يروى بأن الأندلسيين الذين قدموا لنجدة أسد بن الفرات جاؤوا من جزيرة إقريطش وهو في رأيه هذا يستند الى عبارة ابن عذارى الذى يقول ضمن احداث سنة ٢١٢هـ عند الحديث عن محاصرة اسد بن الفرات لمدينة سرقوسة برا وبحرا « وجاءته الامداد من افريقية والأندلس وغيرهما »(٤٥).

وفي هذه الظروف السيئة التى احاطت بالامبراطورية البيزنطية بعث الامبراطور ثيوفيل في سنة ٢٢٥ هـ/ ٣٩ ـ ٨٤٠ م بسفارة الى أمير قرطبة الأموى عبدالرحمن الثانى (الأوسط) للاستعانة به ضد أمراء الأغالبة في القيروان لغزوهم صقلية ، وضد العرب الأندلسيين لغزوهم جزيرة إقريطش ، وهما من اتباع العباسيين اعداء بنى امية . كما ذكر الامبراطور امير قرطبة بأن العباسيين كانوا قد اغتصبوا الخلافة من أيدى بنى امية الخلفاء الشرعيين . ومن الجدير بالذكر ، ان الدولة البيزنطية كانت في تلك الآونة تواجه اخطارا كبيرة ، فالخليفة العباسى المعتصم ، وقد تخلص من بابك الخرمي وفتنته ، توغل غازيا في آسيا الصغرى على رأس جيش لجب ، وفتح مدينة عمورية (٨٣٨م) كما ان اقريطش وصقلية البيزنطيتين افتتحتا على أيدى العرب الموالين للعباسيين . وقد احتفظ لنا المؤرخ القرطبى ابو مروان بن حيان بنص رد الأمير عبدالرحمن الثانى على كتاب ثيوفيل ، ومنه يتبين ان امير قرطبة كان شديد التحفظ ، ولم يلتزم بشىء تجاه الامبراطور

البيزنطى . وقد تضمن رد الأمير الفقرة التالية بشأن الاندلسيين الذين استولوا على جزيرة إقريطش : « وأما ما ذكرت من أمر ابى حفص الأندلسى ومن صار معه من أهل بلدنا فى خضوعهم لابن ماردة (المأمون) ودخولهم فى طاعته . وما سألت من النظر فى أمورهم والانكار لفعلهم ، فانه لم ينزع اليه منهم الا سفلتهم وسوادهم وفسقتهم واباقهم ، وليسوا فى بلدنا ولا برتبتنا فنغير عليهم ونكفيك مؤنتهم ، وانما اضطروا الى الدخول فى طاعة ابن ماردة لمأمنهم من بلاده . ودنوّ ناحيتهم من ناحيته ، ولم نكن نحسبك تعجز عنهم .. وان الله بحوله وقوته وفضله ومنته رد الينا سلطانا بالمشرق وما كان تحت أيدى أبائنا منه ، نظرنا فى ذلك بما فيه صلاح لنا ولك ، واستقامة لطاعتنا وطاعتك ، وعرفنا الذى يكون من معونتك على ما دعوت اليه ، وحضضت عليه بما يعرفه الصديق لصديقه .. » (٤٦).

نفر من علماء إقريطش وصلات الجزيرة بالخارج

ان المعلومات التى وصلتنا عن التاريخ الداخلى لجزيرة إقريطش فى فترة الحكم العربى للجزيرة ضئيلة جدا ، ولعل ذلك يرجع الى انقطاع الجزيرة وعزلتها ، ثم الى كون الروم بعد استردادهم للجزيرة بادروا الى تنصير أهلها قسرا والى تدمير مساجدها وتحويلها الى كنائس ، وحرق المصاحف والكتب(٤٧)، اذ ان نيقوفور فوقاس الذى قاد الحملة التى استرد بها الروم الجزيرة عام ٣٥٠ هـ/٩٦١م كان صليبى النزعة ، شديد التعصب ضد الاسلام والمسلمين ، وكان - كما تصفه المصادر البيزنطية المعاصرة - جنديا وراهبا فى آن واحد ، وقد آلى على نفسه بأن يكرس حياته لمحاربة المسلمين واسترداد جميع ما سبق ان استولوا عليه من أراضى الدولة البيزنطية .

ومع ذلك ، فان النتف الواردة عن أعلام المسلمين فى إقريطش فى كتب التراجم ومعاجم البلدان تبين ان الجزيرة احتفظت دوما بصلات اقتصادية وثقافية وثيقة مع الاندلس الوطن الأم طوال فترة الحكم الاسلامى فيها ، وكانت عاصمتها الخندق مركزا فكريا ساطعا(٤٨). كما اقام مسلمو اقريطش علاقات ودية مع الشام ومصر وافريقية ودعوا المسلمين الى الاستيطان فى الجزيرة(٤٩).

ويذكر كل من ياقوت والحميرى اسماء علماء من اقريطش من اصل اندلسى يحملون النسبة الأقريطشى ، ويقول الحميرى انه كان باقريطش « علماء جلة من الاندلسيين »(٥٠). وجدير بالذكر ان الفقهاء كانوا قد لعبوا دورا هاما فى قيام اهل ربض قرطبة على الأمير الحكم بن هشام لاستهتاره بأمور الدين ، وقد خرج العديد منهم فى جملة من خرج من فلّ الربضيين من قرطبة ونزحوا الى المغرب والمشرق . وزعيم الاندلسيين الذين افتتحوا جزيرة إقريطش - ابو حفص عمر بن شعيب - كان أحد هؤلاء الفقهاء ، فضلا عن كونه قائدا واميرا ، وهو فى ذلك يشبه معاصره القاضى أسد بن الفرات الذى ولاه ثالث امراء الأغالبة زيادة الله الأول قيادة الحملة التى ارسلت من سوسة بأفريقية لفتح جزيرة صقلية فى صيف عام ٢١٢ هـ/٨٢٧م مع احتفاظه بولاية القضاء فى القيروان . ويذكر الحميدى والضبى ، استنادا الى ابن حزم القرطبى ، أن أبا حفص عمر بن شعيب المعروف بالغليظ البلوطى هو الذى غزا إقريطش وافتتحها وتداولها بنوه بعده ، ويضيفان ان ابا حفص كان قد كتب بالعراق وبمصر ايضا (٥١). ويقول ياقوت ان فاتح إقريطش كان سمع يونس ابن الأعلى وغيره بمصر ، ثم ندب لفتح الجزيرة حتى افتتحها(٥٢). كما يذكر ياقوت من علماء اقريطش احد الرواة وهو محمد بن عيسى ابو بكر الاقريطشى الذى حدث بدمشق عن محمد ابن القاسم المالكى ، وروى عنه عبدالله بن محمد النسائى المؤدب (٥٣).

ويترجم ابن الفرضى للفقيه مروان بن عبدالملك من أهل قرطبة المعروف بابن الفخار ، وكان قد درس على بقى بن مخلد بقرطبة ، ثم بارح الاندلس فى اوائل القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد فيقول « رحل الى المشرق .. ثم صار الى إقريطش فاستوطنها ، وجمع تاريخا على الامصار ، لقيه احمد بن خالد من قرطبة ، وسمع منه التاريخ » وكان متضلعا بالحديث ، وكان زاهدا متقشفا فى حياته مع انه كان ميسورا ، وقد اجتمع به احمد بن خالد فى اقريطش - وقد تجاوز ابن الفخار الستين من العمر - وذكر انه كانت على « مروان تدور فتيا اهل إقريطش »(٥٤). كما يترجم ابن الفرضى لعالم اندلسى أخر سكن جزيرة إقريطش هو يحيى بن عثمان(٥٥). وكان كثير من علماء الأندلس يعرجون على جزيرة اقريطش اثناء رحلاتهم الى المشرق فى طلب العلم او لتأدية فريضة الحج ، ويجتمعون بعلمائها وينقلون اخبارهم لمواطنيهم لدى عودتهم الى الأندلس ، وكان يطيب لبعضهم المقام فى الجزيرة فيستقرون فيها ، ولا غرابة فى ذلك . فقد كانت الجزيرة بمثابة ابنة الأندلس .

ويذكر الحميرى عالما من ذرية ابى حفص ، اسمه عمر بن عيسى بن محمد بن يوسف ابن ابى حفص ، ويقول ان له كتابا « فى معانى القرآن وغرائبه ألَّفه فى حبس القسطنطينية يدل على علمه باللسان ، واتساع باعه فى العلم »(٥٦). ولما كانت إقريطش قد سقطت فى أيدى الروم عام ٣٥٠ هـ/٩٦١م ونقل افراد الأسرة الحاكمة الى القسطنطينية وزج ببعضهم فى السجون فان عمر هذا كان حيا بعد تلك السنة ، ويبدو انه كان ممن سجن هناك من افراد أسرة ابى حفص ، ولعل ذلك يرجع الى رفضه اعتناق النصرانية .

ويقول الحميرى انه كان باقريطش علماء جلة من الأندلسيين منهم الفتح بن العلاء قاضيها ، واسحاق بن سالم ، وموسى بن عبدالملك ، ومحمد بن عمر اخو يحيى المعروف بابن ابى الدوانق ثم خرج الى مصر وبها توفى ، واسماعيل بن بدر ، وابنه محمد ، وابن ابنه اسماعيل هذا فى الحصار (حصار الروم لمدينة الخندق) واصاب العدو أهله وماله (٥٧)

ومما يدل على ان اقريطش كانت على اتصال بالخليفة العباسى فى بغداد انه تم فى سنة ٢٤٩ هـ/٨٦٢ م نفى الوزير السابق احمد بن الخصيب الى جزيرة اقريطش من قبل الخليفة المستعين(٥٨).

ومع ان امارة إقريطش العربية كانت فى حرب تكاد تكون مستمرة مع الروم البيزنطيين ، الا انه يبدو انه كانت ثمة علاقات دبلوماسية بين الجانبين . وقد نشر فاسيلييف نص كتاب موجه فى نهاية عام ٢٩١هـ/٩٠٤م او اوائل عام ٢٩٢ هـ/٩٠٥م الى امير اقريطش محمد بن شعيب حول الافراج عن بعض الأسرى من الروم(٥٩).

وفى طليعة العلماء البيزنطيين فى القرن الرابع الهجرى/العاشر الميلادى البطريق نيقولاووس ميستيكوس الذى خلف مجموعة من الرسائل كان قد وجهها الى عدد من الرؤساء ورجال الدين ، ومما جاء

فى رسالته الى أمير اقريطش قوله « الروم والعرب اعظم قوتين فى العالم يعلوان ويتألقان كالشمس والقمر فى السماء ، ولذا يجب ان نعيش اخوة على الرغم من اختلافنا فى الطبائع والعادات والدين »(٦٠).

نشاط عرب إقريطش فى ميدان الغزو البحرى

نشط عرب جزيرة إقريطش فى ميدان الغزو البحرى فى شرقى البحر المتوسط ، وكانوا مصدر رعب للروم يأسرون مراكبهم التجارية ويشنون الغارات الجريئة على جزر بحر ايجه وسواحله من اراضى الروم البيزنطيين(٦١). ويحدثنا الاصطخرى الذى عاصر فترة الحكم العربى للجزيرة فيقول ان سكان اقريطش « جميعا مسلمون أهل غزو »(٦٢). ويصف ابن حوقل اهل الجزيرة بأنهم فى غاية الجهاد « ولم يكن للنصرانية فيها (اقريطش) مدخل ولا مخرج »(٦٣). ويضيف بأن اخذ المسلمين لجزيرتى إقريطش وقبرص بخيراتهما وتجارتهما الزاهرة « احد الأسباب الزائدة فى اطماع الروم ، لأنهما بما كان فيهما من الرجال والعدة والعتاد كالنار لهيبها لا يفتر ، واوارها لا يقصر ، ينكون فى بلد النصرانية صباح مساء نكاية بينة ظاهرة يوجبها لهم قربهم من مطالبهم ومجاورتهم للروم فى مساكنهم »(٦٤).

لذلك حاول الروم مرارا مهاجمة الجزيرة منذ أول افتتاح المسلمين لها للقضاء على هذا الخطر الذى طالما هدد تجارتهم واراضيهم . ففى سنة ٢٢٨ هـ / ٨٤٣ م تمكن الروم من النزول بعض الوقت فى الجزيرة ، الا ان قائد الحملة ثيوكتيستيس Theoctistas اضطر الى العودة على عجل الى القسطنطينية بسبب الدسائس التى حيكت ضده ، ففتك العرب بجنده الذين خلفهم فى الجزيرة(٦٥).

ولما كانت جزيرة إقريطش تتلقى اسلحتها من مصر ، فان اسطولا بيزنطيا أغار على دمياط فى صيف سنة ٢٣٨ هـ / ٨٥٣م وظفر بكمية وافرة من الأسلحة المعدة لاقريطش فى حين قامت قطع بحرية أخرى بمهاجمة سواحل الجزيرة ذاتها(٦٦) وعن الغارة على دمياط يقول الطبرى انه فى صيف سنة ٢٣٨هـ / ٨٥٢ م جاءت للروم ثلاثمائة مركب ورست عند دمياط « واحتملوا سلاحا كان فيها أرادوا حمله الى ابى حفص صاحب اقريطش نحو من الف قناة وآلتها .. ويقال ان الروم الذين كانوا فى الشلنديات التى اناخت بدمياط كانوا نحوا من خمسة آلاف رجل ، فأوقروا سفنهم من المتاع والأموال والنساء ، وأحرقوا خزانة القلوع ، وهى شرع السفن واحرقوا مسجد الجامع ... ثم صاروا الى اشتوم تنيس واحرقوا مافيها من المجانيق والعرّادات» (٦٧) ويقول المقريزى ان نزول الروم بدمياط كان يوم عيد الأضحى من سنة ٢٣٨ هـ وقتلوا جمعا كثيرا من المسلمين ، فأمر الخليفة المتوكل العباسى ببناء حصن دمياط على الأثر وانشىء الأسطول بمصر (٦٨).

وفى مطلع القرن الرابع الهجرى ـ العاشر الميلادى كان العرب يسيطرون على مياه البحر المتوسط والأرخبيل اليونانى ، وكثيرا ما تعرضت لغاراتهم جزر الأرخبيل وساحل البلوبونيس بجنوب اليونان وتساليا فى شمالها(٦٩). وفى سنة ٢٨٩ هـ / ٩٠٢ م دمر غزاة البحر العرب مدينة دمترياس Demetrias الغنية على ساحل تساليا(٧٠). واخطر من ذلك كله الحملة البحرية الكبرى التى قادها سنة ٢٩١ هـ / ٩٠٤ م ليو/لاوون الطرابلسى ، يونانى كان قد اعتنق الاسلام ، وكانت وجهته بادىء الأمر القسطنطينية ثم غير خطته فجاة وهدف

سلانيك ، وكانت آنذاك مركزا تجاريا وثقافيا عظيما تلى القسطنطينية اهمية وثروة ، ودخل المدينة عنوة بعد حصار دام ثلاثة ايام ، وانسحب المغيرون بغنائم وفيرة وبالألوف من الأسرى(٧١). وذكر ان ليو سبى اثنين وعشرين الفا من أهل سلانيك ، باعهم فى اسواق الرقيق فى الخندق وطرابلس الشام(٧٢). وفى طريق العودة ، رست مراكب الحملة فى مياه إقريطش حيث بيع بعض الأسرى . ولاشك فى ان امتلاك العرب لاقريطش مكن من نجاح هذه الغارة على سلانيك (٧٣)

لقد شق هذا المصاب على الروم فاعدوا حملة كبرى سنة ٩١١ م قادها هيميريوس Himerius ولكنه منى بكارثة واضطر اسطوله الى الانسحاب . وفى طريق عودته الى القسطنطينية هوجم فى ربيع سنة ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م قرب جزيرة كيوس Chios من قبل اسطول بحرى بقيادة ليو الطرابلسى ومنى بهزيمة ساحقة ، وتذكر المصادر اليونانية ان القوات البيزنطية فى هذه الحملة كانت تضم ٧٠٠ مرتزق روسى(٧٤). كان ذلك بعد ان توطدت العلاقات بين الامبراطور البيزنطى قبل ذلك ببضع سنوات وبين أمير كييف Kiev وسمح الاتفاق المعقود بينهما بمشاركة الروس فى حملات الامبراطور(٧٥).

وكان العرب فى مطلع القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى قد اتموا فتح جزيرة صقلية ، وسيطروا على مجاز مسينة وواصلوا غاراتهم على البر الايطالى وسواحل البحر الأدرياتيكى ، ان نشاط العرب البحرى من هذين الثغرين ـ إقريطش وصقلية ـ ينبغى ان ينظر اليه ضمن اطار حرب الثغور بين العباسيين والبيزنطيين ، ولاشك فى ان هذه الغزوات البحرية فى البحر المتوسط قد اشغلت البيزنطيين عن تركيز جهودهم الحربية ضد المسلمين فى منطقة الثغور الشامية والجزرية .

وعاود البيزنطيون مهاجمة دمياط فى سنة ٣٠٧ هـ / ٩١٩ ـ ٩٢٠ م ، اذ طرقوا دمياط « فى نحو مائتى مركب ، فاقاموا يعيثون فى السواحل شهرا وهم يقتلون ويأسرون ، وكانت للمسلمين معهم معارك » (٧٦) .

وقبيل منتصف القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، هاجم عرب إقريطش سواحل آسيا الصغرى والبلوبونيس ووسط بلاد اليونان ، ولعلهم وصلوا الى اثينا ، مما استدعى اقامة تحصينات دفاعية فيها(٧٧). فأعد الامبراطور اسطولا ضخما لمهاجمة إقريطش سنة ٩٤٩م بقصد القضاء النهائى على نشاط غزاة البحر منها ، الا ان الحملة باءت بالفشل التام ، وهزم الجنود بعد نزولهم الى البر اثر هجوم مباغت من جانب العرب ، وفقد الروم عددا كبيرا من مراكبهم (٧٨)

لقد تم فى السنوات الأخيرة العثور على احدى عشرة قطعة نقدية عربية من عملة إقريطش فى مكان السوق Agora فى مدينة اثينا وفى مدينة كورنث ، ولعل لوجودها فى اثينا صلة بالنقش الكتابى الهام من المسجد العربى بأثينا ، وهو النقش الذى عثر على قطع منه فى مكان السوق وعلى مقربة منه . ومع ان تاريخ النقش غير معروف بالضبط ـ قد يعود الى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى او القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ـ الا ان معظم العملات الاقريطشية التى عثر عليها فى اثينا تعود الى القرن الثالث الهجرى / التاسع

الميلادى . ويحتمل ان تعود قطعتان منها الى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى . وفي هذا دليل على احتمال وجود العرب في اثينا في القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى ، او القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى . وقد يكون العرب جاؤوا من جزيرة اقريطش مغيرين او اسرى حرب او تجارا ، او قد يكونون عبروا عبورا ، كما ان القطع يمكن ان يكون قد جلبها من جزيرة اقريطش تجار يونان او اسرى حرب يونان بعد الافراج عنهم(٧٩).

اما بالنسبة لمدينة كورنث ، فانه يكاد يكون من المؤكد ان بعض القطع النقدية التى عثر عليها في المدينة تعود الى القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى . وتشير المصادر الكتابية الى قيام العرب بشن غارات على منطقة كورنث في سنة ٢٦٥ - ٢٦٦ هـ / ٨٧٩ م ، ولعلهم احتلوا المدينة فترة من الزمن . ويخلص عالم النميات مايلز Miles الى القول بانه يعتقد ان « عملات أمراء كورنث هى من المرجح دليل على وجود صلة تجارية بين المدينة وبين جزيرة إقريطش العربية اكثر من كونها آثارا لنشاط حربى في المكان ، وعلى ذلك فانا نرى ان علينا ان نعيد النظر في الراى التقليدى بشأن عرب جزيرة إقريطش ، وهو انهم لم يكونوا سوى قراصنة برابرة . ليس الا ، وان علينا ان نسلم بانه حتى في اثناء غاراتهم على جزر بحر ايجه والبر اليونانى ، فانهم قد يكونون على الأقل قاموا بدور وسطاء لتبادل السلع والثقافة » (٨٠).

استرداد الروم البيزنطيين لجزيرة اقريطش (٣٥٠ هـ / ٩٦١ م)

منذ منتصف القرن الرابع للهجرة / العاشر للميلاد، اخذت الامبراطورية البيزنطية بزمام المبادرة في صراعها مع المسلمين، ورجحت كفتها لفترة قرن من الزمن، بفضل ثلاثة من الاباطرة أولهم نيقوفور فوقاس، قائد الحملة الضخمة التى استرد بها الروم الجزيرة من ايدى المسلمين بعد صمود هؤلاء دون نصير نحوا من تسعة شهور. كانت الدولة العباسية التى تتبعها الجزرة ضعيفة ممزقة الاوصال آنذاك. اما الدولتان الأموية في الاندلس والعبيدية في افريقية فكانتا في ذروة قوتهما، الا انهما كانتا في صراع مرير للسيطرة على المغرب. وانتهز الروم هذه الفرصة السانحة لتجديد صلاتهم بالخليفة الاموى الناصر في قرطبة. وتبادل الامبراطور قسطنطين السابع السفارات مع الخليفة الناصر، وكلاهما معاد للعبيديين (٨١). وتؤكد المصادر الاسماعيلية وجود اتفاق بين الامويين والبيزنطيين ضد الفاطميين، وفي ذلك يقول القاضى النعمان: «وكتب (الناصر) الى طاغية الروم يسأله النصرة.. فأجابه الى ذلك» (٨٢). ويذكر القاضى النعمان ان مسلمى جزيرة إقريطش استنجدوا بالمعز لدين الله الفاطمى لحرب الروم (٨٣).

في هذه الظروف المواتية، جهز البيزنطيون حملة كبرى لاسترداد إقريطش والتخلص نهائيا من الغارات التى طالما تعرضت لها اراضيهم، بقيادة نيقوفور فوقاس الذى يعتبر من اكفأ قادتهم واشدهم عداء للاسلام والمسلمين. والمصادر العربية، دون البيزنطية، تمدنا بتاريخ بدء الحملة ونهايتها، كما تمدنا ببعض المعلومات القيمة عن تفاصيلها. يقول ياقوت: «أناخ عليها (إقريطش) نقفور بن الفقاس الدمستق في خلافة المطيع (حكم ٣٣٤ - ٣٦٣ هـ / ٩٤٦ - ٩٧٤م) في آخر جمادى الاولى سنة ٣٤٩ (اواخر يوليو ٩٦٠م) في ٧٢٠٠٠ منهم خمسة آلاف فارس» (٨٤). ويذكر ابن خلدون ان النصارى نازلوا الجزيرة في سبعمائة مركب (٨٥).

ويروى النويرى حكاية عن الطريقة التى تم بها للروم الاستيلاء على إقريطش يقول فيها ان الامبراطور لجأ الى الحيلة لما أعياه اخذ الجزيرة، فبدأ بأبرام معاهدة صداقة مع اميرها، وتعهد بان يدفع له ضريبة سنوية على ان يكف عن الاغارة على جزر بحر ايجه ليعود اليها أهلها. فوافق الامير عبدالعزيز على ذلك، واخذ التجار اليونان يمارسون اعمالهم بين إقريطش والقسطنطينية وجزر بحر ايجه، وازداد بالتالى رخاء الجزيرة وقلت العناية بالاسطول. ثم كتب الامبراطور الى الامير يقترح ارسال خمسمائة فرس الى الجزيرة بسبب قحط اصاب الامبراطورية على ان يتقاسما نسلها، ثم لم يلبث ان ارسل الامبراطور حملة الى الجزيرة ورست مراكبه قرب المكان الذى كانت ترعى فيه الخيول، فنزل الجنود وامتطوها واغاروا على المسلمين بغتة، وتم لهم بذلك الاستيلاء على الجزيرة (٨٦). ورواية النويرى هذه، وان لم يتقبلها العقل، انما يستدل منها على اعتماد الروم في استيلائهم على الجزيرة على عنصرى الخداع والمباغتة، وكما يقال والحرب خدعة.

ولدى وصول الحملة الى الجزيرة، بادر فوقاس بضرب حصار شديد على عاصمتها (الخندق) لقطع وصول الامدادات اليها. وكما يقول ياقوت «لم يزل محاصرا لها حتى فتحها عنوة بالحرب والجوع في نصف المحرم سنة ٣٥٠ هـ / ٧ مارس ٩٦١ م. فقتل ونهب وسبى، واخذ صاحبها عبدالعزيز بن شعيب من ولد ابى حفص عمر ابن عيسى الاندلسى وامواله وبنى عمه (أى اقاربه) وحمل ذلك كله الى القسطنطينية. وقيل انه حمل الى القسطنطينية من اموالها وسبى اهلها نحوا من ٣٠٠ مركب. وهدموا حجارة المدينة والقوها في الميناء الذى دخلت مراكبهم فيه لئلا يدخل فيه بعدهم عدو» (٨٧).

اما المصادر البيزنطية فتقول ان نيقوفور حفر خندقا على طول الجزيرة، ليعزل المدينة عزلا تماما، ثم ضربها بالمجانيق الى ان سقطت في يده، بعد مقاومة طويلة وعنيفة. وبعد سقوطها، تعرضت المدينة للنهب والسلب، وأسر آخر امرائها الذى تسميه هذه المصادر Kouroupas ولعله تحريف عن (القرطبى) كما أسر ابنه Anemas (النعمان) وأفراد أسرتهم. وبعد ان دك فوقاس أسوار المدينة، شيد في ظاهرها حصنا استقرت فيه حامية بيزنطية. ودمرت مساجد المدينة واحرقت المصاحف (٨٨).

ويقول كل من ابن الاثير وابن خلدون، ان اهل إقريطش استصرخوا صاحب افريقية المعز لدين الله سنة ٣٥١ هـ / ٩٦٢م. فارسل اليهم نجدة اوقعت بالروم، وهذا امر مستبعد اذ ان الجزيرة كانت قد سقطت في ايدى الروم قبل ذلك بعام، وان هى وصلت فان وصولها جاء بعد فوات الاوان.

وتقول المصادر البيزنطية ان امير إقريطش استغاث بعرب الاندلس وافريقية، وان عددا من المراكب وصل وانزل جنودا في الجزيرة تمكنوا من تسلق أسوار مدينة الخندق، ولكنهم عادوا الى مراكبهم لما ادركوا عدم جدوى اية مساعدة (٨٩). وتذكر احدى الروايات اليونانية، ان نجدة وصلت من افريقية لمهاجمة المحاصرين للمدينة من الخلف، الا ان فوقاس علم بوصولها وارسل قوة من الارمن اعترضت سبيلها

واوقعت بها، واعلن فوقاس نبأ انتصاره بان اطلق رؤوس القتلى من الجنود العرب بالمجانيق الى داخل المدينة المحاصرة(٩٠)

لقد استنجد الامير عبدالعزيز بالمسلمين شرقا وغربا دون جدوى. فان القليل الذى جاءه من طرسوس ومن افريقية قضى عليه الروم قبل وصوله اليه(٩١). والحقيقة ان مسلمى اقريطش لم يظفروا باية مساعدة تذكر لمواجهة الجموع التى داهمتهم. فامير حلب انذاك، سيف الدولة الحمدانى، لم يكن لديه اسطول، كما انه كان في صراع مرير مع الروم، وقد رجحت كفتهم ضده منذ سنة ٩٥٨م. واما امير مصر الاخشيدى ابو الحسن علي ابن اخشيد، فكان عاجزا عن المساعدة. وفي افريقية قام المعز الدين الله بانهاء الهدنة مع البيزنطيين، وطلب الى الامبراطور رفع الحصار المضروب على الجزيرة، كما وعد بارسال مساعدة الى أهل اقريطش. وذكر ان المعز لدين الله اقترح على امير مصر الاخشيدى ان تجتمع مراكبهما في برقة في اليوم الاول من ربيع ثانى عام ٣٥٠ هـ/ ٢٠ مايو ٩٦١م. ويلاحظ ان هذا التاريخ يأتى بعد سقوط الجزيرة في ايدى الروم باكثر من شهرين. وقد نشرت الوثائق المتعلقة بذلك في كتاب (المجالس والمسايرات) للقاضى ابى حنيفة النعمان، صديق المعز لدين الله وكبير دعاة الاسماعيلية (٩٢)

ان البيزنطيين باستيلائهم على جزيرة كريت استعادوا نقطة استراتيجية وتجارية هامة في البحر المتوسط، وتخلصوا من «وكر للقراصنة» طالما اقضّ مضجعهم(٩٣). ويرى احد مؤرخى الدولة البيزنطية ان بيزنطية لم تسجل انتصارا اعظم من هذا الانتصار لقرون عديدة خلت(٩٤). وبرزت الآن الدولة البيزنطية من جديد كقوة بحرية حاسمة في شرقى البحر المتوسط(٩٥). وتمكن نيقوفور من القول «ان القوة في البحر هى لي وحدى»(٩٦). ورحب اليهود بسقوط الجزيرة في أيدى البيزنطيين، للتخلص من غارات اهلها وما كانوا يفرضونه من اتاوات على التجار، وكان التجار اليهود، وخاصة الرادانية منهم، يحتكرون التجارة عبر البحر المتوسط آنذاك(٩٧).

تنصـــير مسلمـــى إقريطش

يقول الاصطخرى الذى الف كتاب (المسالك والممالك) قبيل استرداد الروم لجزيرة اقريطش ان سكان الجزيرة «جمعيا مسلمون اهل غزو، وبين اظهرهم نبذ (اى قليل) من النصارى، كما يكون ببلدان المسلمين»(٩٨). بيد انه ما ان سقطت الجزيرة في ايدى الروم حتى بادر هؤلاء الى تنصير مسلميها بالضغط والاكراه. وتحت رعاية اباطرة القسطنطينية، قام عدد من المبشرين المتحمسين بنشاط كبير لتنصير المسلمين في اقريطش. ويفهم من عبارة للرحالة الاندلسى ابن جبير ان اعتناق مسلمى اقريطش للنصرانية تم تدريجيا، وبمزيج من الضغط والترغيب، فهو يقول «لم تزل بهم (بمسلمى اقريطش) الملكة الطاغية من النصارى والاستدراج الشىء بعد الشىء حالا بعد حال حتى اضطروا الى التنصر عن أخرهم»(٩٩). ويضيف صاحب (المعجب) ان مسلمى اقريطش بقوا في الجزيرة بعد سقوطها في ايدى الروم «سنين الى ان تفرقوا، فرحل بعضهم الى الاندلس، واختار بعضهم سكنى صقلية، وانتقل بعضهم الى الاسكندرية»(١٠٠).

كما فعل بالنسبة لاستيلاء الروم على اقريطش، فان النويرى يروى قصة طريفة عن الكيفية التى تم بها تنصير المسلمين في جزيرة اقريطش، خلاصتها ان عددا من وجهاء الجزيرة المسلمين زاروا القسطنطينية للتعبير عن ولائهم للامبراطور، فقوبلوا بكل حفاوة وتكريم، واغدقت عليهم الهدايا، وكان ذلك بمناسبة عيد الميلاد المسيحى. ولما عادوا الى القسطنطينية ثانية بعد شهور، لتقديم ولائهم للامبراطور بمناسبة عيد الفصح المسيحى، اسيئت معاملتهم وزج بهم في السجون، وحيل بينهم وبين الطعام والشراب الى ان اضطروا الى اعتناق المسيحية، وعندئذ فقط افرج عنهم وسمح لهم بالعودة الى وطنهم. ولدى وصولهم الى الجزيرة منعوا من الالتحاق بعائلاتهم حتى تتنصر، وهكذا تم للروم ما ابتغوه من تنصير المسلمين في جزيرة اقريطش(١٠١)ويفهم من هذه الحكاية ان عملية التنصير تمت بصورة رسمية وبالاكراه.

ويقتبس كنارد عبارة لصاحب (كتاب العيون، الورقة ٢٧٦) مفادها انه عند استيلاء الروم على مدينة الخندق، عاصمة الجزيرة، قاموا بتدمير مساجدها واحراق المصاحف الشريفة فيها(١٠٢)

وعند مرور الرحالة الاندلسى ابن جبيربجزيرةصقلية (٥٨١ هـ/ ٤ ـ ١١٨٥م) في طريق عودته الى بلاده من تأدية فريضة الحج، لاحظ الرحالة عن كثب احوال المسلمين في صقلية النورمانية أنذاك، وكانت سيئة وتنذر بأوخم العواقب، فعلق على ذلك بقوله «واهل النظر في العواقب منهم (من مسلمى صقلية) يخافون ان يتفق على جميعهم ما اتفق على أهل جزيرة إقريطش من المسلمين في المدة السالفة (أى قبل ذلك بقرنين من الزمن) فانه لم تزل بهم الملكة الطاغية من النصارى والاستدراج الشيء بعد الشيء حالا بعد حال، حتى اضطروا الى التنصر عن آخرهم، وفر منهم من قضى الله بنجاته»(١٠٣)

ويبدو ان ما حل بمسلمى اقريطش كان له صداه في العالم الاسلامى، اذ وقعت حوادث شغب في مدينة الفسطاط بمصر استهدفت النصارى فيها(١٠٤)

ان عاشر امراء اقريطش العرب وأخرهم وهو عبدالعزيز بن شعيب Kouroupas من ولد ابي حفص، أسره نيقوفور فوقاس ونقله وامواله واقاربه الى القسطنطينية(١٠٥)ويبدو انه كان متقدما في السن، ولعله ولي الامارة في شيخوخته. وقد ظل على اسلامه وعومل معاملة كريمة، أما ابنه النعمان Anemas فقد تنصر والتحق بخدمة الحرس الامبراطورى في القسطنطينية، وتذكر المصادر اليونانية انه قتل في معركة سلستريا على نهر الدانوب بين البيزنطيين والروس سنة ٩٧١م (١٠٦)

وتذكر المصادر البيزنطية انه بعد استرداد الروم لاقريطش جرى نشاط تبشيرى على يد راهب من أسيا الصغرى هو القديس نيقون St. Nicon فقد تولى بحماس شديد تنصير مسلمى جزيرة كريت ثم توجه الى اسبارطة ببلاد اليونان للتبشير بين الصقالبة الذين استقروا على مقربة من المدينة(١٠٧)وقد نقل نيقوفور فوقاس جاليات يونانية وارمنية واسكنها جزيرة اقريطش، وهو الذى استدعى الراهب نيقون من أسيا الصغرى ليبشر فيها بين المسلمين(١٠٨) اذ كانت سياسة اباطرة البيزنطيين تقوم على ايجاد مجتمع متجانس وموحد مذهبيا في مختلف ولايات الامبراطورية. وكذلك فعل النورمان في صقلية عند استيلائهم عليها من ايدى المسلمين في اواخر القرن الخامس للهجرة/ الحادى

عشر للميلاد، فقد شجعوا، وبتأييد من الكنيسة الكاثوليكية، هجرة النصارى من اللمبارد والنورمان اليها.

وقد اصبحت مدينة الخندق بعد استيلاء الروم على الجزيرة عاصمة مدنية ودينية لها. وكما حدث في صقلية بعد استيلاء النورمان عليها من ايدى المسلمين، فان نظاما اقطاعيا ساد ريف جزيرة اقريطش بعد استيلاء الروم عليها، واستغل السادة الجدد في فلاحة الاراضى التى استحوذوا عليها طبقة من الكادحين العرب المتنصرين تعرف باسم Parici ومع انه لا تتوفر لدينا المعلومات الكافية عن هذه الطبقة، فان من المحتمل ان وضعها كان شبيها بوضع فلاحي الارض المسلمين Villeins في صقلية النورمانية الذين يرد ذكرهم في الوثائق العربية باسم (رجال الجرائد) او (اهل الجرائد) ويعرفون في اللاتينية باسم Servi glebae وهو وضع يشبه وضع الارقاء. فلم تكن لافراد هذه الطبقة حرية شخصية، وكان عليهم القيام بالخدمة العسكرية عند الطلب، وهم يخضعون لنظام السخرة، في العمل، وكانوا في صقلية يدفعون جزية سنوية للملك النورماني(١٠٩)

هذا ولم يبق شيء يذكر من آثار الحصن العربى في مدينة الخندق، والتى اصبحت تعرف منذ مطلع القرن العشرين باسم هيراقليون Heracleion ويذكر مصدر حديث انه في القرن التاسع عشر، وعلى مسافة قليلة شرقى مدينة الخندق، كانت ماتزال توجد قرية عربية يتراوح سكانها بين ٢٠٠٠ و ٣٠٠٠ نسمة(١١٠)فهل استوطن اهل هذه القرية الجزيرة في فترة الحكم العثمانى لها، وهى الفترة التى بدأت سنة ١٦٤٥م واستمرت ثلاثة قرون ونصف القرن، ام هل هم من عقب اقريطش الاوائل ؟

اهمية النميات Numismatics للباحث في تاريخ امارة كريت العربية(١١١).

ان دراسة العملة او النميات Numismatics أمر على جانب كبير من الاهمية للمؤرخ، اذ ان ما في العملات من اسماء للاشخاص ومكان الضرب ووزن العملة كل ذلك يضيف الى ما ورد في المصادر الكتابية والاثرية او هو يصححها.

حتى عام ١٩٥٣م لم تتوفر سوى خمس عشرة قطعة من الدنانير الذهبية والفلوس النحاسية ترجع الى امارة كريت العربية. الا انه بعد تلك السنة وحتى عام ١٩٧٠، تم العثور على المزيد من هذه النقود في الجزيرة نفسها، وفي بلاد اليونان، بحيث بلغ مجموع هذه القطع الآن مائتين وثمان وستين قطعة ومعظمها فلوس نحاسية.

ويرى عالم النميات مايلز ان التاريخ الوافى لفترة حكم العرب لجزيرة كريت على اساس جميع المصادر العربية واليونانية الكتابية وعلى اساس الادلة الأثرية لم يكتب بعد، وهذه القطع النقدية التى تم العثور عليها تعتبر مساهمة لكتابة مثل هذا التاريخ(١١٢)

ان الدنانير والدراهم التى تم العثور عليها تزودنا ببعض السنوات التاريخية الثابتة. ولا ترد في المصادر التاريخية الاسماء الجديدة في القطع التى عثر عليها. وليس بالامر الهين او اليسير اعداد شجرة كاملة باسماء الامراء العرب الذين حكموا جزيرة كريت، اذ ان امكانيات الخطأ تكمن في أمور عديدة منها: عدم ورود كلمة (ابن) في القطعة النقدية، وقد لا تكون ثمة صلة أبوية بين اسمين واردين فيها وعدم معرفة ما اذا كان كل الاشخاص المذكورة اسماؤهم من ذرية الفاتح ابى حفص، وما اذا كان قد ولي الامارة فعلا الشخص الذى يرد اسمه في العملة وليا للعهد(١١٣)ومع هذه التحفظات، فقد امكن اعداد شجرة نسب مبدئية، للامراء العشرة الذين تعاقبوا على حكم جزيرة اقريطش اعتمادا على الاسماء الواردة في المصادر الكتابية، وفي قطع النقود التى تم العثور عليها وهى كالآتى(١١٤)

شجرة نسب مبدئية

للامراء العشرة من أسرة ابى حفص

الذين حكموا جزيرة اقريطش (كريت)

١ـ ابو حفص عمر (فاتح الجزيرة ٢١٢ هـ/٨٢٨م) Apokhaps (فلوس ما بين ٢٣٢ و ٢٤٧ هـ/ ٨٤٧ ـ ٨٦١م)

٢ ـ شعيب (دنانير ضربت ٢٧١، ٢٧٥، ٢٨١ هـ/ ٤ ـ ٨٨٥، ٨ ـ ٨٨٩، ٤ ـ ٨٩٥م) Saipis

٣ ـ (ابو عبدالله) عمر Babdel

٤ ـ محمد بن شعيب (فلوس) زرقون ؟ Zerkounis

٥ ـ يوسف (بن) عمر

٦ ـ علي بن يوسف (فلوس)

٧ ـ احمد (بن) عمر (درهم ٣٢٦ هـ/ ٧ ـ ٩٣٨م)

٨ ـ شعيب (بن) احمد (فلوس)

٩ ـ علي بن احمد (دينار ٣٣٧ هـ؟ ٨ ـ ٩٤٩م ؟ دينار ٣٤٠ هـ/ ١ ـ ٩٥٢م؟)

١٠ ـ عبدالعزيز بن شعيب (القرطبى؟ Kouroupas (دينار ٣٤٣ هـ/ ٤ ـ ٩٥٥م) (درهم ٣٥٠ هـ/ ٩٦١م)

وهذه بعض الملاحظات التاريخية عن ثلاثة نماذج من هذه العملات.

يحمل فلس عثر عليه في جزيرة كريت على الوجه عبارة (لا اله الا الله وحده لاشريك له) واسم فاتح الجزيرة وقد رسم هكذا (عمر بن عسى) وعلى ظهر الفلس نقشت عبارة (محمد رسول الله) وتحتها اسم الخليفة العباسى، وقد رسم هكذا (المتوكل على الله) ولما كان المتوكل ولي الخلافة من سنة ٢٣٢ الى سنة ٢٤٧ هـ/٨٤٧ ـ ٨٦١م فان تاريخ ضرب هذا الفلس لا يمكن ان يكون قبل سنة ٢٣٢ هـ/٨٤٧م، اى بعد نحو عشرين سنة من افتتاح الجزيرة، او ان يكون بعد سنة ٢٤٧ هـ/ ٨٦١م(١١٥)ويؤكد هذا الفلس ما ورد في المصادر الكتابية من ان امارة اقريطش اعلنت ولاءها للعباسيين منذ افتتاح الجزيرة على يد ابى حفص.

دينار يحمل التاريخ الهجرى ٣٤٣، وعلى وجهه عبارة (لا اله الا الله وحده لاشريك له. بن شعيب) وعلى ظهره عبارة (محمد رسول الله المطيع لله، عبدالعزيز). ونقشت على الحاشية الداخلية للدينار عبارة: بسم الله ضرب هذا الدينار باقريطش سنة ثلث واربع..

يقول مايلز ان هذا الدينارفريد ومهم لعدة اسباب. ففى حين ان المصادر الكتابية تفيدنا فقط ان حكم الامير عبدالعزيز Kouroupas انتهى سنة ٣٥٠ هـ/٩٦١م لدينا الآن بفضل هذا الدينارتاريخ محدد وهو ان عبدالعزيز كان اميرا قبل سبع سنوات على الاقل من أسر نيقوفور فوقاس له في سنة ٣٥٠ هـ/ ٩٦١م. كذلك فان هذا الدينار دليل ... على ان امراء كريت كانوا ما يزالون يضربون عملة ذهبية في

السنوات الاخيرة من حكمهم للجزيرة(١١٦).

ان الاسم العربي لجزيرة كريت هو اقريطش يرد كثيرا في المصادر التاريخية والادبية والجغرافية الكتابية، الا ان هذه اول مرة يرد فيها الاسم في كتابة منقوشة Epigraphy سواء اكان ذلك في السكة او على الحجر. اما ورود الاسم (اقريطش) لمكان الضرب بدلا من العاصمة (الخندق) فليس فيه ما يدعو الى الدهشة، اذ ثمة امثلة عديدة في النميات الاسلامية يرد فيها اسم الولاية بدلا من اسم الحاضرة او المدينة الرئيسية بالولاية. مثال ذلك: فلسطين، افريقية، الاندلس، اذربيجان(١١٧)

درهم يحمل السنة ٣٥٠ هـ وعلى وجهه عبارة (لا اله الا الله وحده لا شريك له، بن شعيب) وعلى الظهر عبارة (محمد رسول الله. المطيع لله عبدالعزيز) ومع ان مكان الضرب في الحاشية غير واضح، الا ان السنة المذكورة هي «سنة خمسين وثلثمائة».

وهذا الدرهم محفوظ في خزانة العملة الملكية بمدينة ستوكهلم، وكان قد عثر عليه في السويد، ويحتمل ان يكون ذلك في جتلاند بجنوب السويد.

ومن الغريب انه لم يعثر الا على هذا الدرهم الفريد من عهد امارة آخر امير عربي في جزيرة كريت، فكيف وصل الى السويد ؟ ان من غير المحتمل ان يكون الدرهم قد جاء عن طريق احدى الطرق المعروفة التي وصلت فيها العملات العربية من الشرق الى منطقة بحر البلطيق. اما الاكثر احتمالا فهو امكانية وجود صلة ما بالنعمان Anemas ابن عبدالعزيز الذى حارب في صفوف البيزنطيين ضد الامير الروسي سفياتوسلاف Sviatoslav وقتل في معركة سلستريا سنة ٩٧١م. ولعل النعمان، او احد رفاقه العرب الكريتيين، كان يحمل القطعة التي صدرت عن آخر امرائهم، ففقدها في ساحة القتال، وعثر عليها احد الجنود الروس او الفارانجيين (اهل الشمال من اسكنديناوة) وهذا حملها بدوره الى جتلاند او الى بلاد السويد(١١٨).

هوامش

(١) يتحدث ابن خلدون عن سيادة المسلمين البحرية آنذاك فيقول: «وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه مثل ميورقة ومنورقة ويابسة وسردانية وصقلية وقوصرة ومالطة واقريطش وقبرص والمسلمون خلال ذلك كله قد تغلبوا على كثير من لجة هذا البحر. وصارت اساطيلهم فيه جائية ذاهبة والعساكر الاسلامية تجيز البحر في الاساطيل». انظر (المقدمة) ص ٢٥٤

(٢) الاصطخرى المسالك والممالك ٧٠

(٣) ابن حوقل صورة الأرض ١٨٤

(٤) المراكشي المعجب ٢١. ابن جبير الرحلة ٢٨٠.

(٥) ابن الابار. الحُلّة ١/ ٤٥. ابن سعيد المغرب ١/ ٤٢

(٦) ابن الابار الحُلّة ١/ ٤٥.

(٧) امام الدين حُكم مسلمي قرطبة في اقريطش (بالانجليزية) ص ٣٠٠.

(٨) ابن عذارى البيان المغرب ٢/ ١١٥

(٩) الحميرى. الروض المعطار ٩٢

(١٠) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٣/ ١٠٩٢ ابن الأثير الكامل في التاريخ ٥/ ٢١٢

(١١) بروكس (Brooks) احتلال العرب لجزيرة كريت (بالانجليزية) ص ٤٣٢

(١٢) ابن الابار. الحلة ١/ ٤٥ ابن خلدون العبر ٤/ ٢٧٤ المقرى: نفح الطيب ١/ ٢١٨

(١٣) مايلز (Miles) عملة امراء كريت العرب (بالانجليزية) ص ٢١

(١٤) بروكس (Brooks) احتلال العرب لجزيرة كريت (بالانجليزية) ص ٤٣٢.

(١٥) المصدر السابق ص ٤٣١ ياقوت معجم البلدان ١/ ٢٣٦.

(١٦) بروكس (Brooks) احتلال العرب لجزيرة كريت (بالانجليزية) ص ٤٣١

(١٧) ياقوت معجم البلدان ١/ ٢٣٦ وثمة مخدّر يُنعت بالأقريطشي (بفتح الهمزة او كسرها). وقد تستعمل الكلمة اسما مرادفا للبنج (انظر دوزى ملحق القواميس العربية ١/ ٣٠)

(١٨) الأصطخرى المسالك والممالك ٧٠

(١٩) المراكشي: المُعجب ٢١.

(٢٠) ياقوت: معجم البلدان ١/ ٢٣٦.

(٢١) ابن خلدون: العبر ٤/ ٤٥١.

(٢٢) الحميرى: الروض المعطار ٥١.

(٢٣) دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة الثانية بالانجليزية). المجلد الثالث ص ١٠٨٢.

(٢٤) الحميرى: الروض المعطار ص ٥١.

(٢٥) دائرة المعارف الاسلامية، مجلد ٣ ص ١٠٨٢

(٢٦) القلقشندى: صبح الأعشى ٥/ ٣٧١.

(٢٧) دائرة المعارف الاسلامية مجلد ٣ ص ١٠٨٢. الحميرى الروض المعطار ٥١ القلقشندى صبح الأعشى ٥/ ٣٧٢.

(٢٨) دائرة المعارف الاسلامية، مجلد ٣ ص ١٠٨٢

(٢٩) ابن حوقل: صورة الأرض ١٨٤.

(٣٠) ياقوت: معجم البلدان ١/ ٢٣٦.

(٣١) دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة الثانية بالانجليزية)، مجلد ٣ ص ١٠٨٢

(٣٢) استروجورسكي (Ostrogorsky): تاريخ الدولة البيزنطية (بالانجليزية) ص ٢٠٦

(٣٣) ابن الأبار: الحلّة ١/ ٤٥. ابن سعيد: المُغرب ١/ ٤٢

(٣٤) ياقوت: معجم البلدان ١/ ٢٣٦.

(٣٥) عنان مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام ٨٦

(٣٦) دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة الثانية بالانجليزية) ٣/ ١٠٨٣

(٣٧) المقرى نفح الطيب ٤/ ١٥٧.

(٣٨) ابن الأبار: الحلّة ١/ ٤٥.

(٣٩) إمام الدين. حكم مسلمي قرطبة في إقريطش (بالانجليزية) ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥

(٤٠) يدعوهم الكتّاب الغربيون باسم (القرصان) ونؤثر ان نسميهم (غزاة البحر). اذ انهم مارسوا الغزو البحرى ضد مراكب واراضي اعدائهم الروم، وهو ضرب من الجهاد المشروع في وقت كانت فيه الحروب قائمة بين المسلمين والروم، ولا نسمع عن غارات لهم على مراكب او أراضي المسلمين. وجدير بالملاحظة ان كلمة (قرصان) مأخوذة عن الايطالية (Corsale) وترد الكلمة احيانا بلفظها الايطالي قرصال وكرسال. انظر تحت كلمة (قرصان) دوزى: ملحق القواميس العربية ٢/ ٣٣٧، وكذلك كلمة (كرسال) ٢/ ٤٦٤

(٤١) رستم الروم ٢/ ١٩.

(٤٢) اومان (Oman): الامبراطورية البيزنطية (بالانجليزية) ص ٢٠٨

(٤٣) إمام الدين: حكم مسلمي قرطبة في إقريطش (بالانجليزية) ص ٣٠٦

(٤٤) دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة الثانية بالانجليزية) ٣/ ١٠٨٣

(٤٥) ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ١٣٢ دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة الثانية بالانجليزية) ٣/ ١٠٨٣ احمد، عزيز تاريخ صقلية الاسلامية ص ٧ ـ ٨

(٤٦) ليفي ـ بروفنسال: الاسلام في المغرب والأندلس ١١٨، ١٠٣ ـ ١٠٤

(٤٧) دائرة المعارف الأسلامية (الطبعة الثانية بالانجليزية). مجلد ٣ ص ١٠٨٤

(٤٨) ليفي بروفنسال: المادة عن ابي حفص في دائرة المعارف الاسلامية ١/ ١٢١

(٤٩) امام الدين حكم مسلمي قرطبة في إقريطش ص ٣٠٨

(٥٠) الحميرى. الروض المعطار ٥١.

(٥١) الحُميْدى جذوة المقتبس ٢٨٢ (ترجمة رقم ٦٨٨) الضبّي بغية الملتمس ٣٩٤ (ترجمة رقم ١١٦٤)

(٥٢) ياقوت معجم البلدان ١/ ٢٣٦.

(٥٣) نفس المصدر والصفحة.

(٥٤) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس ٢/ ١٢٢ (١ ترجمة رقم ١٤١٥) انظر كذلك ليفي ـ بروفنسال تاريخ اسبانيا الاسلامية (بالفرنسية) ٢/ ١٤٥ الحاشية رقم ٢

(٥٥) ابن الفرضي. تاريخ علماء الأندلس ٢/ ١٨٩ (ترجمة رقم ١٥٨٨)

(٥٦) الحميرى. الروض المعطار ٥١

(٥٧) نفس المصدر والصفحة.

(٥٨) الطبري تاريخ الرسل والملوك. القسم الثالث ص ١٥٠٨ ابن خلدون العبر

(٥٩) دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة الثانية بالانجليزية) ٣/ ١٠٨٥

(٦٠) رستم الروم ٢/ ١٠٠.

(٦١) ليفي ـ بروفنسال. تاريخ اسبانيا الاسلامية (بالفرنسية) ١/ ١٧٢

(٦٢) الاصطخرى: المسالك والممالك ٧٠.

(٦٣) ابن حوقل: صورة الأرض ١٨٤.

(٦٤) نفس المصدر والصفحة.

(٦٥) دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة الثانية بالانجليزية) ٣/ ١٠٨٣

(٦٦) نفس المصدر والصفحة

(٦٧) الطبرى تاريخ الرسل والملوك. القسم الثالث ص ١٤١٧

(٦٨) المقريزي الخطط ١/ ٧ ـ ٣٧٨.

(٦٩) استروجورسكي (Ostrogorsky) تاريخ الدولة البيزنطية (بالانجليزية) ص ٢٥٧

(٧٠) نفس المصدر والصفحة

(٧١) نفس المصدر ص ٢٥٨

(٧٢) اسد الروم ٢/ ١٩.

(٧٣) دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة الثانية بالانجليزية) ٣/ ١٠٨٤ .
(٧٤) استروجورسكى (Ostrogorsky) تاريخ الدولة البيزنطية (بالانجليزية) ص ٢٥٨
(٧٥) نفس المصدر ص ٢٥٩
(٧٦) المقريزى : الخطط ١/ ٣٧٨
(٧٧) شرف (Sharf) : اليهود فى الامبراطورية البيزنطية (بالانجليزية) ص ١٠٠ .
(٧٨) استروجورسكى (Ostrogorsky) . تاريخ الدولة البيزنطية (بالانجليزية) ص ٢٨٢ . فاسيلييف (Vasiliev) : تاريخ الامبراطورية البيزنطية (بالانجليزية) ١/ ٣٠٧ .
(٧٩) مايلز (Miles) : عملة امراء كريت العرب (بالانجليزية) ص ١١ ، ١٢
(٨٠) نفس المصدر ص ١٣
(٨١) المقرى : نفح الطيب ١/ ٣٤١ . ابن عذارى البيان المغرب ٢/ ٣٢٢ . ليفى ـ بروفنسال : تاريخ اسبانيا الاسلامية (بالفرنسية) ٢/ ١٥٠ ـ ١٥١
(٨٢) العبادى : فى التاريخ العباسى والأندلسى ٤٠٢
(٨٣) حسن ابراهيم حسن . تاريخ الدولة الفاطمية ٤٧٩ .
(٨٤) ياقوت : معجم البلدان ١/ ٢٣٦
(٨٥) ابن خلدون : العبر ٤/ ٩٨ .
(٨٦) النويرى : نهاية الأرب ، الجزء ٢٢ ، وهو يتناول تاريخ المغرب والأندلس ، نشرة ماريانو جسبار ريميرو ١٩١٧ ، وقد اعتمدنا رواية النويرى كما نقلها كنارد (دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الثانية بالانجليزية ٣/ ١٠٨٤) .
(٨٧) ياقوت : معجم البلدان ١/ ٢٣٦ . انظر كذلك الحميرى الحميرى الروض المعطار ٥١ ابن خلدون : العبر ٤/ ٩٨ .
(٨٨) دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة الثانية بالانجليزية) ٣/ ١٠٨٤ .
(٨٩) ابن الاثير : الكامل ٧/ ٥ . ابن خلدون . العبر ٤/ ٢ ـ ٥١٣
(٩٠) دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة الثانية بالانجليزية) ٣/ ١٠٨٤ .
(٩١) كلتون (Vlutton) جزيرة كريت ص ٩٥
(٩٢) رستم : الروم ٢/ ٣٤ .
(٩٣) دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة الثانية بالانجليزية) ٣/ ١٠٨٤
(٩٤) فاسيلييف (Vasiliev) تاريخ الامبراطورية البيزنطية (بالانجليزية) ١/ ٣٠٨ .
(٩٥) استروجورسكي (Ostrogorsky) تاريخ الدولة البيزنطية (بالانجليزية) ص ٢٨٤
(٩٦) فريونيس (Vrgonis) بيزنطية واوروبا (بالانجليزية) ٨٧
(٩٧) اسد رستم : الروم ٢/ ٢٥
(٩٨) انظر شرّف (Sharf) . اليهود فى الامبراطورية البيزنطية (بالانجليزية) ص ١٠٨
(٩٩) الاصطخرى · المسالك والممالك ٧٠
(١٠٠) ابن جبير : الرحلة ٢٨٠
(١٠١) المراكشى : المُعجب ٢١ .
(١٠٢) النويرى : نهاية الأرب ، الجزء ٢٢ ، وهو يتناول تاريخ المغرب والأندلس ، نشره ماريانو جسبار ريميرو ، مدريد ١٩١٧ وقد اعتمدنا رواية النويري كما نقلها إمام الدين فى مقاله بعنوان (حكم مسلمي قرطبة لاقريطش) ص ٢١٢
(١٠٣) دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة الثانية بالانجليزية) ٣/ ١٠٨٤
(١٠٤) ابن جُبيْر : الرحلة ٢٨ .
(١٠٥) دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة الثانية بالانجليزية) ٣/ ١٠٨٤
(١٠٦) ياقوت : معجم البلدان ١/ ٢٣٦ .
(١٠٧) مايلز (Miles) عملة امراء كريت العرب (بالانجليزية) ص ٨٣
(١٠٨) فريونيس (Vryonis) بيزنطية واوروبا (بالانجليزية) ص ٨٧ .
(١٠٩) اسد رستم : الروم ٢/ ٣٥ .
(١١٠) احمد ، عزيز : تاريخ صقلية الاسلامية (بالانجليزية) ص ٧٠ عباس ، احسان : العرب فى صقلية ٢ ـ ١٤٣ . كلتون (Clutton) . جزيرة كريت ٩٦
(١١١) كلتون (Cgutton) جزيرة كريت ١٨٠ .
(١١٢) اعتمدنا فى هذه الفقرة عن النُميْات على عالم النُميْات البارز جورج سى . مايلر (George C. Miles) فى كتابه . عُملة امراء كريت العرب ، نيويورك ٩٧٠ (The Coinage Of The Arab Amirs Of Crete)
(١١٣) مايلز : عُملة امراء كريت العرب (بالانجليزية) ص ١ ، حاشية رقم ٢
(١١٤) نفس المصدر ص ٥ .
(١١٥) نفس المصدر ص ٣ ، ٤ .
(١١٦) مايلز . عُملة امراء كريت العرب (بالانجليزية) ص ٢١ ـ ٢٢ .
(١١٧) نفس المصدر ص ٨٠ ـ ٨١
(١١٨) نفس المصدر ص ٨١

ثبت بالمصادر والمراجع

(أ) مصادر ومراجع عربية :

ابن الأبار : الحلَّة السيراء ، الجزء الأول ، تحقيق حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٦٣ .

ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، الجزآن الخامس والسابع ، بيروت ١٩٧٨ .

ابن جبير : رحلة ابن جبير ، بيروت ١٩٦٨ .

ابن حوقل : صورة الأرض ، بيروت ، بدون تاريخ .

ابن خلدون ، عبدالرحمن : المقدِّمة ، القاهرة ، بدون تاريخ .
كتاب العبر ، المجلدان الثالث والرابع ، بيروت ١٩٥٨ ، ١٩٦٦ .

ابن سعيد : المُغرب فى حلي المغرب ، الجزء الأول ، تحقيق شوقى ضيف ، القاهرة ١٩٥٣ .

ابن عذارى : ابو العباس : البيان المغرب ، الجزآن الأول والثانى ، بيروت ٤٨ ـ ١٩٥٠ .

ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ، قسمان فى مجلد واحد ، القاهرة ١٩٦٦ .

الأصطخرى : كتاب المسالك والممالك ، ليدن ١٩٢٧ .

حسن ، حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ، القاهرة ١٩٦٤ .

الحُميْدى : جذوة المقتبس ، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي ، القاهرة ١٩٥٢ .

الحميرى : ابن عبدالمنعم : الروض المعطار فى خبر الأقطار ، تحقيق احسان عباس ، بيروت ١٩٧٥ .

رستم ، أسد : الروم وصلاتهم بالعرب ، الجزء الثانى ، بيروت ١٩٥٦ .

الضبِّى : بغية الملتمس ، تحقيق ف . كوديرا ، مدريد ١٨٨٥ .

الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، القسم الثالث ، بيروت ، بدون تاريخ .

العبادي ، احمد مختار : فى التاريخ العباسى والأندلسى ، بيروت ١٩٧٢ .

عباس ، احسان : العرب فى صقلية ، القاهرة ١٩٥٩ .

عنان ، محمد عبدالله : مواقف حاسمة فى تاريخ الأسلام ، القاهرة ١٩٦٢ .

القلقشندى ، ابوالعباس احمد : صبح الأعشى فى صناعة الأنشا ، الجزء الخامس ، القاهرة ١٩٦٣ .

ليفى ـ بروفنسال ، إ : الاسلام فى المغرب والأندلس ، ترجمة محمود عبدالعزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمى ، القاهرة ١٩٥٦ .

المراكشى ، عبدالواحد ، المُعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربى العلمى ، القاهرة ١٩٤٩ .

المقريزى ، تقى الدين احمد : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، الجزء الأول ، بيروت ، بدون تاريخ .

المقّرى ، ابو العباس احمد : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، الجزآن الأول والرابع ، تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد ، القاهرة ، ١٩٤٩ .

ياقوت (الحموى) : معجم البلدان ، الجزء الأول ، بيروت ١٩٧٧ .

مراجع أجنبية

Ahmad, A: A History of Islamic Sicily, Edinburgh 1975.

Brooks, E: "The Arab Occupation of Crete," in English Historical Review, XXVIII (1913), pp. 431-443.

Clutton, E. & Kenny, A: Crete, U.S.A. 1976.
Dozy, R.: Supple'ment aux dictionnaires arabes, 2 vols. Leiden 1881.
Encyclopaediaof Islam (New Edition), Leiden-London: Vol. I (1960), s.v. Abu Hafs 'Umar, p. 121 (by E. ' Levi-Provencal);
Vol. III (1971) s.v. Ikritish, pp. 1082-6 (by M. Canard).
Imamuddin, S.M.: "Cordovan Muslim Rule in Iqritish (Crete)." in Journal of the Pakistan Historical Society, vol. VIII (1960), pp. 297-312.
Le'vi-Provencal, E.: Histoire de l'Espagne Musulmane, vols. I & II, Paris-Leiden 1950.
Miles, George C.: The Coinage of the Arab Amirs of Crete, New York 1970.
Oman, C.W.C.: The Byzantine Empire, London 1892.
Ostrogorsky, G.:The History of the Byzantine State, Oxford 1968.
Sharf, A.: Byzantine Jewry, London 1971.
Vasiliev, A.A.:History of the Byzantine Empire, 2 vols., University of Wisconsin Press, U.S.A. 1971-3.
Vryonis, Speros: Byzantium and Europe, London 1967.



القرامطة وقبائل الأعراب البادية

بقلم :
الدكتور عبدالله أبو عزة
المجمع الثقافي - ابوظبي

ظهرت حركة القرامطة (١) في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي). كما هو معروف. وكانت البداية في منطقة الخليج العربي، لكن نشاط الحركة ما لبث ان امتد في الاتجاهات الأربعة. ويعتبر كثيرون ممن تناولوا موضوع القرامطة بالدراسة، من القدامى والمحدثين، ان قرامطة اليمن، ومؤسسى الدولة الفاطمية في شمال افريقيا، وقرامطة الشام والعراق فروع لحركة قرمطية واحدة. ومن غير ان نشير الى موافقتنا او مخالفتنا لهذه المقولة نود ان نركز حديثنا في هذا البحث على جانب من نشاط وعلاقات قرامطة البحرين. فهنا على سواحل الخليج العربي قامت للقرامطة دولة في اواخر العقد التاسع من القرن الثالث الهجري، وما لبثت قوتها العسكرية وتحركاتها وغاراتها المرعبة ان اثارت الذعر في قلوب الحكام والمحكومين في المنطقة الممتدة بين عُمَانَ ومصر، مروراً بنجد والحجاز والعراق وبلاد الشام. وقد عمّرت هذه الدولة القرمطية حتى سنة ٤٦٦ هـ تقريبا، لكن القرن الأخير من حياتها اتصف بالانكماش والضعف العسكرى.

وتظهر لنا المصادر التاريخية علاقات حميمة، وتعاوناً نشطاً بين القرامطة واعراب البادية. ولم تحظ هذه الظاهرة بأية دراسة علمية، في حدود ما اعلم. ولذا سنحاول - من خلال هذا البحث - ان ندرس هذه العلاقة، ونستكنه فحواها ونسبر اغوارها.

كانت الصحراء العربية الشاسعة الميدان الاساسى والرئيسى لتحركات القرامطة ونشاطاتهم. ومن المؤكد ان تحركاتهم بدأت مرحلتها الأولى في السواد، ريف العراق، لا في الصحراء، غير ان تلك المرحلة المبكرة سرعان ما بلغت نهايتها، فاستبعد أي وجود مؤثر لهم من السواد، وتحول نشاطهم - خاصة العسكرى منه - الى البادية. ومن الملاحظ ان حكمهم لم يثبت في المدن ومناطق الاستقرار سوى ثباته في مدن البحرين وقراها.

والبادية هى مستقر قبائل الاعراب، ولذلك كان لا بد من وجود علاقة مُرضية وواضحة مع تلك القبائل لكل من يتخذ الصحراء ميدانا لحياته وتحركاته وانشطته، والا حدث الصدام واستحال التعاون بين الجانبين. ويظهر من المعلومات التى تزودنا بها المصادر ان العلاقات كانت وثيقة بين القرامطة وقبائل الاعراب، وان رجال القبائل شكلوا عنصرا مهما - بل كانوا أهم عنصر من الناحية العددية - في قوة القرامطة العسكرية. والحقيقة ان هذه الظاهرة ملفتة للنظر. وقد اشار الدكتور سهيل زكار اليها اشارة غير مباشرة - بل ضمنية - عندما تحدث عن ترافق نشاط القرامطة مع «هجرة بدوية كبيرة من الجزيرة العربية جلبت قبائل من عامر بن صعصعة الى العراق والجزيرة والشام الاعلى، وقسما من طيء الى فلسطين...» ونبه الدكتور زكار الى ان هذه الظاهرة «بحاجة الى دراسة، ومثل هذه الدراسة المطلوبة لايمكن قيامها دون تتبع المصادر (٢).» كذلك فقد تعرض الدكتور عبدالعزيز الدورى للموضوع بصورة ضمنية أيضا في دراسته الممتازة لتاريخ العراق الاقتصادى في القرن الرابع الهجرى. واعتبر الدكتور الدورى «حركة قرامطة البحرين مثلا رائعا في القرن الرابع الهجرى لضغط البادية على العراق...» ووضعها في اطار العلاقة النمطية بين البادية والريف الزراعى، وفسرها بالظروف المناخية، ضمن سياق مستمر عبر عصور التاريخ من الصراع الدائم بين البدو والزراع. وقد خالف الدكتور الدورى الدكتور زكار في مسألة حدوث الهجرة البدوية، فنفى ان تكون المصادر قد اوردت حدوث «هجرات قبائل جديدة من الجزيرة العربية، ولكن بعض القبائل تظهر اهميتها على المسرح خلال هذا القرن، مما يدل على أحد امرين : فاما ان تكون تلك القبائل قد تضخمت بمجيء جماعات جديدة، او ان تكون دخلت العراق حديثا (٣).»

وعندى ان الاستاذين الفاضلين أهملا حقيقة هامة او تجاهلاها، او لعلها ندت عن ملاحظتهما على الرغم من وضوحها الشديد، وهى تعطى التفسير المنطقى والعلمى الذى لا يفتقر الى الادلة والبراهين، للدور البارز الذى لعبته قبائل الاعراب البادية

في تحركات القرامطة العسكرية، وسنتعرض لهذه الحقيقة بعد أن نعطى عددا من الامثلة التى تبين كثافة الحضور البدوى في تحركات القرامطة العسكرية.

الاعـراب في قوات القرامطـة :

يصف المسعودى قرامطة منطقة الكوفة الذين كانوا مع مسعود بن حريث وعيسى بن موسى، وهو ابن اخت عبدان «الملقب قرميط» ان معظمهم كانوا من بنى ذهل وبنى رفاعة (٤). وعندما ظهرت دعوة القرامطة في البحرين قبل تولى ابى سعيد الجنابى زعامتهم كان ممن ناصر الداعية يحيى بن المهدى بنو كلاب وبنو عقيل والخريس (٥). وحين ظهر ابو سعيد في البحرين انضم اليه الاعراب (٦). وتبين لنا من اخبار اول مواجهة جرت بين القرامطة والجيش العباسى في عهد المعتضد سنة ٢٨٧ هـ ان القوة القرمطية كانت سبعمائة فارس وراجل» من كلاب وعقيل وبحرانيين (٧)». وبعد ان تأكد زكرويه بن مهرويه ان جهوده الثورية لن تحقق الانتصار لدعوته في جنوب العراق بسبب قربه من حاضرة الخلافة وتتابع الجيوش العباسية لقتاله، اتجه الى قبائل الاعراب البادية القريبة من الكوفة «من اسد وتميم وغيرهم من قبائل الاعراب (٨).» وكان أهم انصار دعوته في الشام بنو كلب، وكان الذين استجابوا له «طوائف من الاصبغيين والعليصيين وصعاليك من سائر بطون كلب (٩)». وبهم حارب القرامطة في الشام، حيث نعرف من نص الخطاب الذى بعث به وزير الدفاع العباسى الى الخليفة ان معظم قادة مقاتلى القرامطة كانوا من بنى العليص الكلبيين (١٠). وعند خروج زكرويه سنة ٢٩٣ هـ خرج في الكلبيين وغيرهم. وحين سار من مقره بجنوب العراق لمهاجمة قوافل الحجيج مر «في طريقه بطوائف من بنى أسد فأخذها من بيوتها وقصد الحاج المنصرفين عن مكة (١١). وفي أحداث سنة ٣١٢ هـ / ٩٢٤ م نقرأ ان أحد الدعاة ظهر بمنطقة الكوفة «وجمع جمعا عظيما من الأعراب وأهل السواد، لكن القوات العباسية تمكنت من هزيمته (١٢). ولعل مما يؤكد ما نقصد ابرازه من كون النسبة الكبرى من مقاتلى القرامطة من الاعراب ما ورد على لسان أحد اتباع أبى طاهر من ان المغانم التى يحصل عليها القرامطة في حروبهم انما يفوز باكثرها «الأعراب والشذاذ من الناس (١٣)». وقد عزا ثابت بن سنان وابن الاثير كلاهما هزيمة القرامطة في غزوهم لمصر سنة ٣٦٣ هـ الى نجاح المعز لدين الله الفاطمى في استمالة حليفهم حسان بن الجراح الطائى، امير الاعراب الطائيين بالشام وذلك عن طريق رشوته بمبلغ كبير من المال (١٤).

والحقيقة ان الاعراب لم يقاتلوا في صفوف القرامطة فقط، بل قاتلوا احيانا مع قوات السلطة العباسية ضد القرامطة، ولعل ابرز من شارك في هذا الدور جماعات من بنى حمدان التغلبيين. وكان ابرز قادتهم الحسين بن حمدان.

تفســير دور الأعــراب :

من المعروف والمسلم به ان مقاتلى القبائل الاعرابية البادية انضموا الى جيوش الفتح الاسلامى في عصر الخلفاء الراشدين، خاصة في عهد أبى بكر وعمر رضى الله عنهما. وكانوا بين محتسب وطامع، كما قال البلاذرى (١٥). أى إن منهم من ذهب للجهاد، احتسابا لوجه الله ورغبة في رضوانه، بينما ذهب أخرون طمعا في الغنائم. وهكذا استبدل كثير من الأعراب حياة الغزو والسلب والنهب بحياة الجهاد في سبيل الله.

ولقد استمر العنصر العربى عماد جيوش الدولة الاسلامية الوحيد طوال العهدين الراشدى والاموى، والى ان نجحت الثورة العباسية، وجاء العباسيون الى الحكم، فتغير الحال، وشاركت عناصر من شعوب اخرى العرب هذا الشرف. وقد رجحت كفة العناصر الفارسية منذ بداية الثورة العباسية، الا ان العنصر العربى ظل يمثل ثقلا محسوسا في الجيوش العباسية حتى عصر المأمون، عندما طغت موجة فارسية جديدة زادت من ضعف الوجود العربى. وقد شارك العنصر التركى العرب والفرس في الانتساب الى الجيوش العباسية في وقت مبكر، فليس صحيحا ان المعتصم هو أول من أدخل الاتراك في الجيش بنسب كبيرة، بل أنهم كانوا موجودين، وكان منهم قادة فرق واداريون في اقاليم الحدود حتى منذ عهد الخليفة المهدى بن المنصور ـ محمد بن عبدالله بن محمد ـ (ت ١٦٩ هـ / ٧٨٥ م).

ولسنا نقلل من عظم تأثير الخطوة التى اتخذها المعتصم، لكننا نريد فقط ان ننفى نسبة البدء بعملية ادخال الاتراك الى هذا الخليفة. ومع ذلك فقد كان هو ـ أي المعتصم ـ الذى اعتمد على العناصر التركية اعتمادا كليا وجعل لها السيطرة على الجيش وتكوين جميع فرقه. وهكذا خلا الجيش العباسى من العنصر العربى، ومن أى وجود عربى سواء في القيادات والادارة العسكرية او في تكوين اي فرقة اساسية. وبالتدريج فقد العرب صفاتهم العسكرية، واصبح ينظر الى عسكريتهم باستخفاف بالقياس الى العناصر التركية وغيرها. وقد جاء هذا التطور في المؤسسة العسكرية قبيل ظهور حركة القرامطة بفترة قصيرة.

لقد كانت الجيوش الاسلامية في العهدين الراشدى والاموى وشطرا من العهد العباسى تمتص الفائض البشرى المتتابع الذى تنتجه قبائل شبه الجزيرة العربية، وكانت تفتح ميدانا واسعا ومغريا للمغرمين بالحياة على ظهور الخيل وفي ساحات القتال، بل وحتى لاولئك الذين يحبون الغنائم. فلما جاء عهد المأمون ومن بعده المعتصم اغلق هذا الباب، ولذا اخذ الفائض البشرى يتراكم ولم يجد له سوى المتنفس القديم الذى كان يلجأ اليه قبل الاسلام، وهو الغزو والغارات والسلب والنهب. وقد تصادف حدوث هذا التراكم مع ظهور حركة القرامطة (١٦). وهذا هو مدخل الصلة بين حديثنا عن وضع العرب في الجيوش الاسلامية وبين موضوع بحثنا الحالى عن حركة القرامطة، وسنعدد هنا

بعض الوقائع والشواهد التى تؤكد حدوث التطور الذى اشرنا اليه.

كان الفائض البشرى الاعرابى مهيأ لحياة الغزو بحكم طبيعة الحياة البدوية، فالاعرابى لا يشتغل بالزراعة والتجارة الا في حالات نادرة، ولذلك فهو يعيش في فراغ، لان الرعي والحلب يقوم به الصبية والنساء والغلمان، او من يعيشون على هامش حياة القبيلة من حيث الاهمية الاجتماعية والنسبية. واذا لم يعمل الاعراب في جيش الدولة فقد كانوا على استعداد لان ينضموا الى اية قوة محاربة تعدهم وتمنيهم بالمنافع. كما كانوا على استعداد للعمل لحسابهم الخاص حين يبرز منهم شخص يتمتع بمواهب قيادية كافية.

تعاونهم مع صاحب الزنج:

فعندما ظهر علي بن محمد، الملقب بصاحب الزنج، في البحرين سنة ٢٤٩ هـ/٨٦٣ م ووالاه قسم من اهلها ثم تنكروا له بسبب ما قام بينهم من خلاف وصدامات اذ ذاك تحول الى البادية، ومعه بضعة نفر من خلصاء اصحابه الذين اعتمد عليهم. وقد استطاع ان يجمع حوله اعداداً كبيرة من الاعراب بسهولة ثم زحف بهم على البحرين. ولكن الهزيمة الساحقة التي نزلت بجموع الاعراب الذين جاؤوا معه وما منوا به من خسائر كبيرة في الارواح جعلهم يتنكرون له ويتفرقون عنه. وعند ذلك اتجه الى البصرة، فنزل في بنى ضبيعة (١٧). وعندما ضيق الجيش العباسى بقيادة الموفق الخناق على صاحب الزنج كان حلفاؤه من قبائل الاعراب هم الذين يمدونه باحتياجاته (١٨). ولذا وجه الموفق حملة ضد هؤلاء الاعراب فقتلت منهم جماعة واخذت ما معهم من ابل وغنم اتوا بها لتزويد عسكر صاحب الزنج. ثم عين قوة لمنع الاعراب من الاتصال بعسكر صاحب الزنج، وعمل على اغرائهم بالتعامل مع سوق البصرة الذى اصبح خاضعا له (١٩). ثم وجه بعد ذلك قوة هاجمت جماعة اخرى من اعراب بنى تميم لمعاونتهم لصاحب الزنج. وفي سنة ٢٨٠ هـ هاجم المعتضد اعراب بني شيبان لما قاموا به من سلب ونهب وافساد (٢٠). وفي سنة ٢٨١ هـ هاجم جيش ارسله جماعات من أعراب بنى تغلب الذين تزعمهم حمدان بن حمدون، وذلك لتحالفهم مع هارون الشارى، الزعيم الخارجى الثائر بمنطقة الموصل (٢١).

وبجانب تعاون الاعراب وتحالفهم مع الثائرين نجد امثلة كثيرة على قيام الاعراب بالعمل مستقلين: من ذلك ما قام به صالح بن مدرك الطائى واتباعه من طىء سنة ٢٨٥ هـ، ففى تلك السنة قطع الطريق على قوافل الحاج العائدة من مكة المكرمة وهزم القوة العباسية الموكلة بحماية الحجاج واخذ الاعراب ما كان مع الحجاج «من الاموال والتجارات، واخذوا جماعة من النساء والجوارى والمماليك فكانت قيمة ما اخذوه الفى الف دينار (٢٢).» وفي السنة التالية هاجمت جماعات من اعراب بنى شيبان منطقة الانبار بغرض السلب والنهب، وهزموا الحامية العباسية هناك، مما دعا الخليفة المعتضد الى تسيير قوة كبيرة لدحرهم، فساروا الى منطقة عين التمر وافسدوا فيها، فبعث اليهم بجيش ثان فانسحبوا في اتجاه بادية الشام، فعجز الجند عن متابعتهم وعادوا الى بغداد (٢٣). ثم عادت طىء بعد عامين من غارتها السابقة الى الاغارة على الحجاج من جديد عند موضع يسمى المعدن. وبعد حرب استمرت يومين انهزم الاعراب الطائيون وقتل عدد كبير منهم (٢٤). وعندما انهزم الجيش العباسى بقيادة العباس بن عمرو الغنوى امام القرامطة في العام نفسه وسارت فلوله صوب البصرة وخرج اهل البصرة لمعونة المنهزمين قام اعراب بنى اسد بمهاجمة النجدة ومهاجمة المنهزمين وقتلوا اعدادا منهم ونهبوا ما استطاعوا نهبه (٢٥). ومما يلفت الانظار بالنسبة لتلك الواقعة ان الاعراب شكلوا العدد الاكبر من قوة القرامطة، كما كانت قوة اعرابية منضمة للجيش العباسى، وكانوا من بنى ضبة، كما ان اعراب بنى أسد قاموا بالدور الذى اشرنا اليه، أى ان ثلاث جماعات من الاعراب قامت بادوار متناقضة في آن واحد.

وتعرضت قوافل الحاج لغارات الاعراب من جديد عام ٣٠٢ هـ حيث نهبوا الجمال والاموال، كما سبوا ثمانين امرأة من الحرائر، بجانب اعداد من المماليك والاماء (٢٦). كما تعرض ريف الكوفة ومدينة الحيرة لهجمات الاعراب بعد ذلك ببضع سنوات، مما اضطر السلطة في بغداد الى توجيه قوة عسكرية ردتهم عن المنطقة، بعد ان اوسعوها سلبا ونهبا (٢٧).

ومن الطريف ان الاعراب قد هاجموا عسكر القرامطة ونهبوه وهو في اوج قوته. ففي سنة ٣١٧ هـ، وبعد ان هاجم ابو طاهر سليمان بن الحسن بن بهرام الجنابي الحجاج في مكة وقتل منهم الآلاف وملأ بجثثهم بئر زمزم، واقتلع الحجر الاسود وكسوة الكعبة ثم عاد متوجها الى الاحساء هاجمته قبيلة هذيل، وهى من القبائل المضرية، بينما كان يسير بقواته وغنائمه في منطقة صعبة المسالك، تغلب على سطحها المضايق والشعاب والجبال. وقد حارب الهذيليون القرامطة حربا شديدة «بالنبل والخناجر، ومنعوهم من المسير، واشتبهت عليهم الطرق فاقاموا بذلك ثلاثة ايام حائرين بين الجبل والاودية.. واقتطعت هذيل مما كان معهم الوفا كثيرة من الابل والثقلة (٢٨).»

كانت هذه الامثلة التى عددناها تحكى انخراط البادية في الغزو والغارات في داخل الدولة الاسلامية قبل ظهور القرامطة، واثناء فترة نشاطهم. وقد استمرت هذه العادة البدوية بعد ان ران الضعف على دولة القرامطة واصاب الشلل حركتهم. بل لقد اصبح القرامطة ضحية لتسلط البادية. ففي سنة ٣٧٨ هـ/ ٩٨٨ م جمع شيخ قبيلة المنتفق حوله عددا كبيرا من الاعراب هاجم بهم القرامطة وهزمهم وقتل قائدهم. ثم انه طارد فلولهم المنهزمة صوب الاحساء، وهناك التجأ القرامطة الى المدينة وتحصنوا خلف اسوارها. ولم ير الاصيفر ـ وهذا هو لقب زعيم

المنتفق ـ فائدة في محاصرتهم، فترك الاحساء وقصد القطيف، فنهب ما كان للقرامطة فيها من اموال وعبيد ومواشي، وعاد بغنائمه الى البصرة (٢٩).

وبعد أربع سنوات نجد الاصيفر يرسل مندوبا عنه الى بغداد فيعرض ان يتولى تسيير قوافل الحاج ويضمن سلامتها في غدوها ورواحها، وان تعاد الخطبة للخليفة القادر من حد اليمامة والبحرين الى الكوفة. وقد قبلت سلطات بغداد هذا العرض حيث كانت عاجزة عن ان تحقق شيئا مما يحققه اعتمادا على قدراتها الذاتية. وقد انعمت على شيخ المنتفق بخلعة خليفية ولواء (٣٠). بيد ان هذا الوفاق لم يدم طويلا، فبعد سنتين فقط وقف الاصيفر بنفسه في طريق الحاج ومنع قوافلهم من العبور مشتكيا من ان سلطات بغداد استعملت معه اساليب الخداع عندما طلت الدراهم الفضية بالذهب واعطته اياها على انها دنانير ذهبية خالصة. وقد جرت مفاوضات مطولة بينه وبين الشخصيات البارزة من الحجاج فاصر على ان تدفع له رسوم المرور عن السنة السابقة وعن سنته الحالية. ولما عجزوا عن اقناعه عاد الحجاج من الطريق من غير ان يؤدوا الفريضة (٣١).

وفي السنوات التالية جرى تأمين المال وتم دفعه للاصيفر في وقت مبكر. فسارت قوافل الحجيج دون مخاطر او تعطيل، وتتابع الامر على هذا النحو حتى سنة ٤٠٣ هـ/ ١٠١١ م، باستثناء ما حدث سنة ٣٩٤ هـ. ففي تلك السنة وقف الاصيفر بجموعه في طريق الحجاج ومنعهم من المسير، غير ان قلبه ما لبث ان رق لسماع القرآن مرتلا بصوت اثنين من مشاهير المقرئين كانا مع الحجاج في ذلك العام. وعلى أثر ذلك سمح للقوافل بالمسير، وقال للمقرئين: «تركت لكما الف الف دينار (٣٢)». وما لبث الاصيفر ان مات بعد ذلك ببضع سنوات (٣٣). وعندما زار الرحالة ناصر خسرو الاحساء سنة ٤٤٣ هـ/ ١٠٥١ م وجد هناك أميرا من أمراء الاعراب يحاصرها. وقد ذكر ان ذلك الامير استولى على أحد اسوار المدينة بعد ان رابط امامها وشن عليها الغارات قرابة سنة كاملة دون ان يتمكن من احتلالها (٣٤).

وصفوة القول ان تعاون الاعراب مع القرامطة لم ينشأ من التقاء عقائدى او دوافع دينية، بل نشأ من التقاء المصالح، فقد كان القرامطة بحاجة الى القوى المقاتلة من الاعراب، كما كان الاعراب بحاجة الى قيادة تنظمهم وتعطى شهوتهم للغزو والغارات غطاء من الشرعية ينفى عنها صفة السلب والنهب. ولقد كانت قبائل الاعراب تمارس هذا النشاط منذ العصر الجاهلي. وتحدثنا المصادر عن ان القوافل التجارية لم تكن تستطيع السير الا بخفارة، أى حماية قوة قبلية نافذة في منطقة مرورها لقاء اتاوة او منفعة محددة. وفي القرن الاول قبل الهجرة قام قصى بن كلاب، وهو الجد الرابع لرسول الله صلى الله عليه وسلم بتنظيم تجارة مكة في شبه الجزيرة العربية على هذا الاساس. وعندما جاء الاسلام حرم الغزو والغارات والسلب والنهب وفتح للاعراب باب الجهاد في سبيل الله، للدفاع عن الاسلام ولاعلاء كلمته ضد قوى الطغيان. واستمر الحال كذلك الى ان جاء الخليفة العباسى الثامن ـ المعتصم ـ واعتمد على الأتراك بتشكل كامل. واستبعدت العناصر العربية، واصبح المقاتلون من الاعراب عاطلين عن العمل. ومع تراكم هذا الفائض البشرى المتعطل بدأت جماعات الاعراب تشغل نفسها بالغارات على المدن والقرى والمراعى والمزارع والحقول وطرق التجارة والحج، وذلك لكى تحصل على ضرورياتها من ناحية، ولتشبع نزعتها الموروثة عبر القرون نحو حب الحرب والمغامرة. وقد عرضنا أمثلة كثيرة لهذا النشاط قبل ظهور القرامطة، واثناء سيطرتهم وبعد ضعفهم. لقد استخدم القرامطة الاعراب استخداما جيدا، واعطوهم الغطاء الشرعى كما ذكرنا، واعطوهم بذلك المبرر الوجدانى الذى يحرر نفوسهم من أى شعور بالذنب، ويطلق غرائزهم الوحشية وقسوتهم من عقالها مادام ضحاياهم من الحجاج والنساء والاطفال كفارا، ومادام المال والتجارة للكفار. وقد رأينا كيف ان القرامطة انفسهم وقعوا ضحية هجمات الاعراب اثناء غزو مصر، امام اسوار القاهرة، بل ومهاجمتهم لمعسكرهم ونهبه بعد ان حلت به الهزيمة.

المصـــادر والمراجـــع

١ ـ رفض الدكتور F. du Blois تسمية قرامطة البحرين بـ «القرامطة» وذلك ضمن بحث له لم ينشر بعد القاه في ندوة الدراسات العربية Seminar For Arabian Studies التي انعقدت في كلية سانت كروس في جامعة اكسفورد (٣٠/ ٧ ـ ١/ ٨/ ٨٥). وكان عنوان بحثه The Abu Sa'Idis Or The So—Called Qarmatians Of Bahrain

وقد استند الدكتور du Blois على رواية ناصر خسرو المعروفة حيث عرف القرامطة انفسهم له بانهم «ابو سعيديين» ولقد ناقشته في رايه هذا، اذ كنت مشاركا في الندوة، وذكرت له انني اميل الى ان ذلك الموقف كان تطورا لاحقا لم يكن موجودا في المرحلة الاولى من حياة دولة القرامطة، وتمسك كل منا برايه.

٢ ـ الدكتور سهيل زكار، مقدمته لكتاب **تاريخ اخبار القرامطة** تاليف ثابت بن سنان وابن العديم، تح. د. سهيل زكار (بيروت. دار الامانة ومؤسسة الرسالة، ١٩٧١) ص ١٨ ـ ١٩.

٣ ـ الدكتور عبدالعزيز الدورى، **تاريخ العراق الاقتصادى في القرن الرابع الهجرى** (بيروت: دار المشرق، الطبعة الثانية، د. ت.) ص ٢٦ ـ ٢٧.

٤ ـ ابو الحسن علي بن الحسين المسعودي، **التنبيه والاشراف**، تح. عبدالله اسماعيل الصاوى (بغداد: مكتبة المثنى، ١٩٣٨) ص ٣٣٩.

٥ ـ ابو الحسن علي بن ابى الكرم المعروف بابن الأثير، **الكامل في التاريخ** (بيروت: دار صادر ودار بيروت، ١٩٦٥) **مجلد** ٧، ص ٤٩٤ ـ ٤٩٥.

٦ ـ ابو جعفر بن محمد بن جرير الطبرى، **تاريخ الرسل والملوك**، تح. محمد ابو الفضل ابراهيم (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٨ ـ ١٩٦٩) مجلد ١٠ ص ٧١.

٧ ـ المسعودى، **التنبيه والاشراف** ٣٤١.

٨ ـ الطبرى مجلد ١٠، ص ٩٤ ـ ٩٥.

٩ ـ ثابت بن سنان **تاريخ اخبار القرامطة** ص ٢٦.

١٠ ـ الطبرى، مجلد ١٠، ص ١٠٩ ـ ١١٢، وانظر المسعودى **التنبيه والاشراف** ص ٣٢٢ ـ ٣٢٥

١١ ـ الطبرى، ١٠، ص ١٣٠ ـ ١٣١ ـ و ١٣٥.

١٢ ـ ابن الاثير، ٨، ص ١٥٧.

١٣ ـ تقى الدين احمد بن علي المقريزى، **اتعاظ الحنفاء باخبار الائمة الفاطميين الخلفاء** تح. د. جمال الدين الشيال (القاهرة المجلس الاعلى للشئون الاسلامية، ١٩٦٧ م) مجلد ١، ص ١٨٣.

١٤ ـ ثابت بن سنان، ص ٦٠، ابن الأثير، ٨، ص ٦٣٨ ـ ٦٤٠.

١٥ ـ ابو الحسن احمد بن يحيى بن جابر المعروف بالبلاذري **فتوح البلدان** تح. رضوان محمد رضوان (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٥٩) ص ١١٥.
١٦ ـ تولى المعتصم الخلافة سنة ٢١٨ هـ/ ٨٣٣ م وتوفى سنة ٢٢٧ هـ/ ٨٤١ م وظهرت حركة القرامطة في جنوب العراق والبحرين بين سنتى ٢٥٥ هـ/ ٨٦٩ م و ٢٨٧ هـ/ ٩٠٠ م.
١٧ ـ الطبرى، ٩، ص ٤١٠ ـ ٤١١.
١٨ ـ المصدر نفسه، ص ٦٠٣ ـ ٦٠٤.
١٩ ـ المصدر نفسه، ص ٦٠٥ ـ ٦٠٧.
٢٠ ـ المصدر نفسه مجلد ١٠، ص ٢٢ ـ ٢٣.
٢١ ـ المصدر نفسه، ص ٣٦ ـ ٤٠.
٢٢ ـ ابو الفرج عبدالرحمن بن الجوزي **المنتظم في تاريخ الملوك والامم** (حيدر اباد: مطبعة دائرة المعارف العثمانية) مجلد ٦، ص ٢، وانظر ابن الأثير، مجلد ٧، ص ٤٩٠.
٢٣ ـ ابن الأثير، ٧، ٤٩٥ ـ ٤٩٦.
٢٤ ـ المصدر نفسه ص ٥٠٨.
٢٥ ـ الطبرى، ١٠، ٨٦ ـ ٨٧.
٢٦ ـ المصدر نفسه ص ١٥٠ ـ ١٥١.
٢٧ ـ ابن الأثير، مجلد ٨، ص ١٨٠.
٢٨ ـ المسعودي **التنبيه والاشراف** ٣٣٥.
٢٩ ـ ابن الأثير، مجلد ٩، ص ٥٨ ـ ٥٩.
٣٠ ـ ابن الجوزي، مجلد ٧، ص ١٧٠.
٣١ ـ المصدر نفسه، ص ١٧٤.
٣٢ ـ المصدر نفسه، ص ٢٢٧، وانظر ابن الأثير، مجلد ٩، ص ١٨٢.
٣٣ ـ ابن الاثير مجلد ٩، ص ٢١٢.
٣٤ ـ ناصر خسرو سفرنامه ، ترجمة الدكتور يحيى الخشاب، (بيروت: دار الكتاب الجديد، ١٩٧٠) ص ١٤٥.



الاتصالات مع الجهات البيزنطية الرسمية في الشام في العصر الراشدي

من خلال المصادر العربية

الدكتور جاسم صكبان علي
قسم التاريخ / كلية التربية / جامعة البصرة

الاتصالات مع الجهات البيزنطية الرسمية في الشام في العصر الراشدي

كانت الشام قبل الاسلام ضمن دائرة النفوذ البيزنطي. وقد كسب أهل مكة صداقة القيصر البيزنطي اذ ذهب زعيمهم هاشم بن عبد مناف الى الشام ووطأ ارض قيصر وكسب صداقته. وكان قيصر يدعوه الى بلاطه وصار هاشم يتردد عليه. وحين ادرك انه نال رضاه، سأله ان يعطي تجار مكة كتابا يؤمن فيه تجارتهم وانفسهم. فاستجاب قيصر لطلبه فضمن لتجار مكة صك الامان عند زيارتهم للشام فكانت قريش تخرج بتجارتها الى الشام، وكثيرا ما كان هاشم معهم في هذه التجارة ومات في احدى سفراته الى الشام (١).

واستمرت هذه الصلات الحسنة في زمن الرسول (ص). فقد كتب الرسول رسالة الى هرقل، ارسلها بيد دحية بن خليفة الكلبي، يدعوه فيها للاسلام، صيغت فقراتها باسلوب دبلوماسي بارع يحمل كل معاني السياسة وحسن الجوار وكشفت عن عظمة الدبلوماسية العربية في عهد الرسول (٢). وقد اجاب هرقل على رسالة الرسول جوابا دبلوماسيا وارسل مع دحية مجموعة من الهدايا للرسول (٣).

وفي العصر الراشدي - عصر تحرير الشام - لم تكن العلاقات البيزنطية العربية علاقة عداء دائم بحيث استهدفت كل دولة القضاء على الاخرى وانما نظمت كل قوة منهما علاقتها بالقوة الثانية على الاسس الدينية. وقد كشفت الرسائل والوفود المتبادلة بين القيصر البيزنطي والخلفاء الراشدين وولاتهم في الشام عن هذه الحقيقة.

وسيقتصر هذا البحث على (الاتصالات العربية الاسلامية مع الجهات البيزنطية الرسمية في الشام في العصر الراشدي من خلال المصادر العربية). متضمنا النقاط الآتية:

١ - مقدمة عامة عن تحرير الشام.

٢ - الرسل والرسائل المتبادلة بين القوتين في العصر الراشدي.

٣ - اغراض الاتصالات ونتائجها.

١ - تحرير الشام

اهتم ابوبكر بتحرير الشام قبل غيرها لقربها من قاعدة الدولة العربية الاسلامية اذ قال تعالى (قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة) ووجود تحشدات بيزنطية كبيرة وتحكم الشام في مواصلات العراق والشام ولذا فان أي تحرك عربي اسلامي سيكون مهددا بالخطر مالم تتم سيطرة العرب على طريق المواصلات هذه. يضاف الى ذلك ان معظم القبائل العربية في الشام اعلنت استعدادها للتعاون مع المحررين العرب والوقوف الى جانبهم (٤).

ولما تكامل عدد الجيوش العربية في المدينة سيرهم ابوبكر الى الشام في اوائل عام ١٣ هـ/ ٦٣٤ م على رأي معظم المؤرخين. وكان يقود هذه الجيوش أربعة قواد وهم: ابو عبيدة وعمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة، ويزيد بن ابي سفيان. تعد موقعة العربة جنوب البحر الميت اول معركة اصطدم بها العرب بالبيزنطيين (٥). ولما اشتد الضغط البيزنطي على عمرو بن العاص في جنوب فلسطين استدعى خالد بن الوليد من العراق لمساعدة القواد الاربعة في الشام. فجاء خالد منجدا لهم وقد التقى في بصرى بابي عبيدة وشرحبيل بن حسنة ويزيد بن ابي سفيان، وساعدهم على تحريرها (٦).

ثم سار القواد الاربعة لملاقاة البيزنطيين الذين انسحبوا الى اجنادين، فوقعت معركة اجنادين في ٢٨ جماد الاول من عام ١٢ هـ/ ٦٣٤م التي انتهت بانتصار العرب (٧). وتبعتها معركة اليرموك التي اثبتت قدرة وفعالية المقاتل العربي والتي شاركت النساء العربيات المسلمات فيها. وفر هرقل من انطاكية الى القسطنطينية (٨).

ثم واصل العرب عملية تحرير الشام إذ اصطدموا بالبيزنطيين في فحل جنوب بحيرة طبرية واستولوا على بيسان فانسحب البيزنطيون الى دمشق، بعد ان هزمهم العرب في مرج الصفر، وتحصنوا بابوابها في ١٤ هـ/ ٦٣٥م (٩).

وبعد سقوط دمشق سنة ١٤ هـ/ ٦٣٥م بيد العرب قرر هرقل يخوض حربا فاصلة مع العرب فشكل جيشا كان جبلة بن

الايهم الغساني من ابرز قواده. وعندما رأى العرب ضخامة الجيش البيزنطى اخلوا شمال سورية وحتى دمشق وتوجهوا نحو الجنوب وتجمعت جيوشهم بقيادة خالد بن الوليد شرقى نهر الاردن و شرقى نهر اليرموك. وعبر البيزنطيون نهر الاردن الى سهل الياقوصة في حين سيطر العرب على اخدوده الذى يسيطر على نهر الياقوصة وبذلك سيطروا على الطريق المؤدى الى الداخل. ثم بدأت الحرب في ١٥ هـ/ ٦٣٥م وانتهت بانتصار العرب (١٠) وبعد ان انتصر العرب في اليرموك توجهوا الى المناطق التى اتوا منها واسترجعوا المدن التى اخلوها ومنها دمشق وكان انتصار العرب في اليرموك نقطة تحول في تاريخهم وتاريخ العالم لانه جعل العرب اسيادا للشام وبدؤوا بعصر التنظيم والادارة (١١).

٢ ـ الرسل والرسائل المتبادلة بين القوتين :

وارسل الخلفاء الراشدون اتصالاتهم بالجهات البيزنطية الرسمية سائرين على النهج الذى رسمه الرسول صلى الله عليه وسلم ، فكتبوا رسائل وارسلوا وفودا الى هرقل ، وقد اشار هرقل الى هذه الرسائل والرسل عندما كتب رسالة الى معاوية يقول فيها (ان الملوك قبلك كانت تراسل الملوك منا ويجتهد بعضهم فى ان يغرب على بعض) (١٢) .

وكانت هذه الاتصالات تتم بطريقتين . أما بواسطة الرسل او بالرسائل فهناك رسائل ورسل ارسلها العرب الى البيزنطيين واخرى ارسلها البيزنطيون الى العرب ، فاما رسائل ورسل العرب الى البيزنطيين فقد بدأت منذ عهد ابى بكر . روى العدوى ان ابابكر ارسل وفدا متكونا من ثلاثة اشخاص الى قيصر البيزنطيين (١٣) . ولم يذكر العدوى مصدر خبره وقد فتشت فى المصادر المتوفرة لدى عن مصدر هذا الخبر فلم اجد له اى اشارة . وعلى كل حال فانه من الممكن قبول رواية العدوى لأن الرسول صلى الله عليه وسلم وعمر كانا قد ارسلا وفودا ورسائل الى القيصر المذكور ومن المحتمل جدا ان يكون ابو بكر قد اقتدى بالرسول صلى الله عليه وسلم وارسل وفدا لقيصر البيزنطيين يحمل معه رسالة يدعوه فيها للاسلام وتحمل الرغبة فى استمرار علاقة المودة وحسن الجوار .

وازدادت الاتصالات الرسمية مع البيزنطيين نشاطا فى خلافة عمر بن الخطاب لاتساع رقعة الدولة العربية فى الشام واقتراب حدودها من آسيا الصغرى موطن البيزنطيين ولذا فقد كتب عمر بن الخطاب الى هرقل يدعوه للاسلام ووجه اليه رسولا من اصحابه وهو جثامة بن مساحق الكنانى « فلما انتهى اليه الرجل بكتاب عمر اجابه الى كل شىء سوى الاسلام » (١٤) وهذا يعنى ان القيصر قد استجاب لدعوات السلام والصداقة وتبادل العلاقات فى الأمور المختلفة .

ولا تروى المصادر العربية المتوفرة فى الوقت الحاضر نصوص الرسائل المتبادلة بين الرسول وهرقل .

ويبدو ان سبب ذلك هو ان رسائل الرسول صلى الله عليه وسلم مع حكام العالم قد طغت على أذهان الرواة المسلمين الذين اهتموا بها فحفظوا نصوصها واهملوا نصوص رسائل الخلفاء الراشدين الى هرقل لأنها اقل اهمية من رسائل الرسول . ولا تشير المصادر السريانية الى هذا النوع من الاتصالات العربية مع الجهات البيزنطية الرسمية ولعل سبب ذلك هو عدم رغبة كتاب هذه المصادر فى رواية الجوانب الايجابية عن التاريخ العربى الاسلامى لانهم ينتمون الى طبقة رجال الدين الذين اعتبروا الاسلام حركة نصرانية هرطقية يجب مقاومتها وتجاهل الجوانب الايجابية منها والتركيز على الجوانب السلبية وتضخيم بعض الممارسات الفردية ، التى لم تكن جزءا من سياسة الدولة انما هى اخطاء فردية .

ولم تقتصر الاتصالات مع الجهات الرسمية البيزنطية على الخلفاء الراشدين، فقد كان بعض عمالهم في الشام يتراسل مع البيزنطيين ويرسل لهم وفودا «لتنظيم العلاقات المختلفة بين القوتين. روى الاصفهانى ان معاوية بن ابى سفيان والي الشام كان قد ارسل وفدا لقيصر بزعامة عبدالله بن مسعدة الغزاوى (١٥). ورغم ان الاصفهانى لم يذكر مهمة الوفد ولكن يبدو ان مهمته هى بيان رغبة العرب في العيش بسلام مع جيرانهم البيزنطيين واظهار رغبتهم في التمسك بمبادىء حسن الجوار والتعاون في مجالات الاقتصاد والسياسة.

ولم تكن رسل معاوية ومراسلاته مقتصرة على قيصر الروم، فقد كان يراسل بعض بطارقة الروم الذين يظهرون كيدا للعرب لغرض الايقاع بهم عند القيصر، فكان يحتال لهم باهدائهم الهدايا ومكاتبتهم ثم يرسل لهم الرسائل كأنها اجوبة على رسائل تأتى اليه منهم يعلمهم فيها انه وثق بما وعدوه بها من نصره وخذلانهم القيصر وامر رسله بان تخفى الكتب عن البطارقة وبنفس الوقت يعملون على نشرها بين الناس للايقاع بالبطارقة عند القيصر (١٦).

ويبدو ان البيزنطيين لم يتمسكوا بمبادىء حسن الجوار وانهم كانوا غير راغبين في العيش بسلام مع العرب، فقد ارادوا استغلال ما لحق بالعرب من ضعف بسبب الحرب الاهلية بعد مقتل عثمان للتوسع على حساب حدود الدولة العربية، ففكروا بغزو الشام ايام صفين ولذا فقد كتب معاوية والي الشام رسالة تهديد الى القيصر، فصالحه القيصر على ان يؤدى معاوية اليه مالا. واخذ كل طرف رهنا من الطرف الآخر. لكن البيزنطيين غدروا وقتلوا رهن العرب فابى العرب ان يستحلوا قتل من في ايديهم من رهن البيزنطيين وخلوا سبيلهم واستفتحوا بذلك عليهم وقالوا : وفاء بغدر خير من غدر بغدر . فكتب معاوية الى القيصر: تالله لئن قمت على ما بلغنى لأصالحن صاحبى ولأكونن مقدمته اليك ولاجعلن القسطنطينية الحمراء حممة سوداء ولانزعنك من الملك نزع الاصطفلينة ولأردنّك اريسا من الارارسة ترعى الدوابل (١٧).

ولما لم يستجب القيصر لتحذيرات معاوية. قرر العرب ايقاف البيزنطيين عند حدهم بالقوة. فحاصروا القسطنطينية، فندم البيزنطيون على فعلتهم وتفاوضوا مع العرب وعقدوا معاهدة صلح تم الاتفاق فيها على ان يدفع البيزنطيون للعرب غرامة مالية

وان يسلم ابن اخ الامبراطور رهينة للعرب لضمان دفع الغرامة بشكل منظم (١٨).

واجرى قادة تحرير الشام سلسلة من الاتصالات مع الجهات الرسمية البيزنطية وكانت هذه الاتصالات على شكل رسائل ووفود تبادلوها مع بطارقة الروم في الشام فبعد ان هزم الروم في تبوك (١٣ هـ/ ٦٣٤م) بعثوا رجلا من العرب المتنصرة (القداح) ليفاوض العرب. وجاء وفد البيزنطيين الى عسكر العرب ثم رجع الى معسكر البيزنطيين بصحبة وفد عربي اسلامي يرأسه ربيعة بن عامر. وجرى اللقاء بين ممثل العرب وبين القائد البيزنطي (جرجيس) وفي هذا اللقاء سأل القائد البيزنطي رئيس وفد العرب ماذا تريدون ؟ فاجابه الجزية.. او السيف. فقال جرجس فما منعكم ان تقصدوا الفرس وتدعوا الصداقة بيننا وبينكم ؟ فقال ربيعة ابتدأنا بكم لانكم اقرب الينا من الفرس وان الله تعالى امرنا بذلك في كتابه، قال تعالى «يا ايها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة» (١٩).

وارسل ابو عبيدة رسالة الى هريس بطريق بعلبك عارضا عليه الاسلام او الذمة او الحرب. ثم ارسل هريس وفدا لمفاوضة العرب (٢٠). وكتب ابو عبيدة رسالة الى بطريق حمص دعاه فيها بمثل ما دعا بطريق بعلبك لكن هذا البطريق رفض الدعوة. وبسبب الحصار العربي الشديد على المدينة بعث بطريقها وفدا يضم مجموعة من القسوس والرهبان وامرهم ان يفاوضوا ابا عبيدة وياخذوا عليه العهود والمواثيق. فكان لهم ما ارادوا (٢١).

وبعث بطريق الرستن رسالة الى ابي عبيدة يقول فيها (مهما كانت لك حاجة فدعنا نقضيها ونريد منكم المراعاة لاهل سوادنا) (٢٢).

روى ابن العبري (٢٣) وميخائيل السوري (٢٤) ان البطريق ابن شهرباز المقيم في حمص سلم نفسه للعرب وسالمهم وكتب الى عمر بن الخطاب (ان انت جعلتني قائدا واعطيتني جيشا من العرب فاني انزل فارس واحارب الاعداء واجعل البلاد كلها في خدمتك والزم الجميع ان يؤدوا الجزية) وعندما استلم عمر الرسالة استشار البعض فقالوا (لا يغرنك الكلام الكاذب الذي تفوه به ابن شهرباز لانه كلام خداع وافتراء وهو يريد ان يفعل ما كتب به اليك فهو لم يحن على ابناء جنسه واسياده ولم يحفظ المودة والصدق لمن هم من لحمه ودمه بل قتلهم كالغرباء فكيف يحفظ لك العهد والاخلاص انه انما يتوسل بذلك ذريعة حتى اذا حكم تمرد عليك).

وبعث ماهان قائد قوات الروم في الشام قبل معركة اليرموك، احد قواده العسكريين (جرجير) رسولا الى ابي عبيدة، فكلم الرسول ابا عبيدة باسلوب تهديد ووعيد اذ قال من جملة ما قال «يا معشر العرب لايغرنكم ان تقولوا هزمنا عساكر الروم في مواطن كثيرة.. فانصرفوا الى بلادكم.. والا كنتم من الهالكين» (٢٥) فرد عليه ابوعبيدة بكلام اعنف منه ورجع جرجير الى ماهان واخبره بما جرى. ثم اراد ماهان ان يضرب العربي بالعربي، فارسل لابي عبيدة جندا بقيادة جبلة بن الأيهم الغساني. فجاء جبلة الى صفوف العرب المسلمين وطلب المبارزة فخرج له عبادة ابن الصامت. ودار بين الاثنين حديث طلب فيه جبلة من عبادة التوسط لعقد الصلح مع البيزنطيين اذ قال (يابن العم انا ما خرجت الا اريد النصيحة لكم فان ابيتم ذلك فاسأل قومك يجيبوننا الى الصلح فقال عبادة لاصلح بيننا الا باداء الجزية او الاسلام او السيف وهو حد بيننا وبينكم) (٢٦). فرجع جبلة خائبا الى ماهان. وحاول العرب المسلمون افشال خطة ماهان وذلك بإرسال وفد الى جبلة لاقناعه بترك البيزنطيين والانضمام للعرب لكنه وان اكرم الوفد رفض الدخول في الاسلام. وعندما انهزم البيزنطيون بعد اليرموك صار جبلة بن الايهم في جملة قومه الى موضعه بالشام فارسل اليه يزيد بن ابي سفيان ان اقطع على ارضك بالخراج واداء الجزية فقال جبلة (انما يؤدي الجزية العلوج وانا رجل من العرب) (٢٧).

وفي اثناء تقدم عمرو بن العاص لتحرير فلسطين ارسل البيزنطيون وفدا لمفاوضة عمرو بن العاص كان اسم رئيس الوفد الارطبون وكان يتقن العربية وقبل لقائه بعمرو بن العاص كتب اليه «... انت في قومك مثلي في قومي والله لا تفتح من فلسطين شيئا بعد اجنادين فارجع ولا تغر..» (٢٨) فاجابه عمرو برسالة قال فيها «جاءني كتابك وانت نظيري ومثلي في قومي لو اخطاتك خصلة تجاهلت فضيلتي وقد علمت اني صاحب فتح هذه البلاد واستعدي عليك فلانا وفلانا - لوزرائه - فاقرئهم كتابي ولينظروا فيما بيني وبينك» (٢٩). وفي اثناء وصول العرب الى واثن القريبة من غزة خرج اليهم بطريقها. وجرت مفاوضات بينه وبين عمرو ابن العاص عرض فيها البطريق على عمرو ان يدفع مالا للعرب على ان ينصرفوا من القرية المذكورة. لكن عمرا رفض ذلك وقرر فتحها (٣٠).

وذهب وفد عربي لمفاوضة البيزنطيين قبل اليرموك، ويتكون الوفد من ابي عبيدة ويزيد بن ابي سفيان والحارث بن هشام وضرار بن الازور وابي جندل بن سهيل. واجتمع الوفد مع الوفد البيزنطي الذي ترأسه اخو هرقل «ولم يأت بينهم وبين المسلمين صلح فرجع ابوعبيدة واصحابه واتعدوا فكان القتال حتى جاء الفتح» (٣١).

وفي اثناء الحصار العربي على دمشق. ارسل اهلها وفدا لمفاوضة العرب. كان رئيس الوفد منصور بن سرجون وهو من وجهاء المدينة ومدير الشؤون المالية فيها. وكان على خلاف مع هرقل لان الاخير قد اجبره على شراء منصبه بمائة الف دينار ولذا فقد عرقل منصور وصول المؤن والمعدات اللازمة للجيش البيزنطي الذي قدم بقيادة ماهان. وقد كان منصور بن سرجون يامل بان انتصار العرب سيخلصه من البيزنطيين ولذا فانه عمل على مساعدة العرب في دخول المدينة (٣٢)، ولم يكن منصور بـ

سرجون هو الوحيد الذى اتصل بالعرب، فقد اتصل بهم اصحاب اسقف المدينة واهل الدير الملاصق لاسوار المدينة وقدموا لهم مساعدات (٣٣).

وكان الخلفاء الراشدون يختارون الوفود والرسل المرسلين للقيصر. واما الوفود والرسل المرسلون للبطارقة فكان اختيارهم يتم عن طريق القواد العرب في الشام في الاعم الاغلب، وقد حرص العرب على ان يكون الموفدون والرسل من العلماء والعارفين بأمور الاسلام وتاريخ العرب وانسابهم. والقادرين على ضبط اعصابهم وقت الشدة. واصحاب قدرة على الدعابة الطريفة. ومن القادرين على استنباط غوامض الامور ويكون الموفد حليما «قادرا» على كظم الغيظ، متأنيا، حازما، وان يكون من نسب محتد ليكسب مظهرا «ارستقراطيا» يجعله على اتصال بشاكلته من اهل الامم التى يذهب اليها. اضافة الى وجوب توفر الصفات الجسمية مثل تمام القد واحتداد الطول وان يكون وسيما لاتقتحمه العيون ولا تزدريه النواظر (٣٤).

أما وفود ومرسلو البيزنطيين فكانوا من رجال الدين الدهاة العارفين بامور دينهم، واصحاب قدرة على النقاش والجدل في دينهم فصيحى اللسان وعارفين بالعربية اضافة الى لغتهم القومية (٣٥).

وكانت رسل البيزنطيين للعرب من نفس المستوى الوظيفى للمرسل اليه، فقد كتب الارطبون الى عمرو بن العاص «انك صديقى ونظيرى، انت في قومك مثلى في قومي» (٣٦). ومع ذلك فقد فرض القادة والولاة العرب مكانتهم عند الامبراطور البيزنطى نظرا لما ابدوه من عبقرية عسكرية فاخذ يكاتبهم ويرسل وفودا لهم فقد كتب الى معاوية عندما كان واليا على الشام ايام عثمان. وارسل رسولا الى خالد بن الوليد قبل وصوله الى دمشق طالبا منه اطلاق سراح ابنته التى وقعت اسيرة عند العرب (٣٨).

٣ ـــ اغراض الاتصالات ونتائجها .

ولهذه الاتصالات اهداف دينية وحربية وسياسية. وتعد الاهداف الدينية اهمها لان العصور الوسطى كانت عصور الدين. وكانت هناك دولتان هما الدولة العربية والدولة البيزنطية. وقد قامت الدولتان على اساس دينى. ولما كان الاسلام دينا عالميا كلف العرب بنشره في العالم، لذا فقد دعا ابوبكر وعمر بن الخطاب قيصر الروم للاسلام (٣٩). وعرض القواد الاربعة الاسلام على ممثلى المدن الشامية المختلفة فعقدت مع العرب عهود الصلح المعروفة. وارسل هرقل رجال دين نصارى لمناقشة العرب المسلمين في امور دينية مختلفة (٤٠). وتفاوض بعض القسوس مع العرب وحصلوا على امتيازات دينية منهم (٤١).

أما الاهداف العسكرية فتتجلى في الرغبة في حل المشاكل الخارجية بعقد هدنة مؤقتة لغرض التفرغ لمحاربة الخصوم كما حصل لمعاوية والي الشام عام ٣٥ هـ/ ٦٥٥ م عندما عقد البيزنطيون بالعرب لكن معاوية حل المشكلة بالاتصالات المكثفة مع القيصر وتوجت هذه الاتصالات بعقد معاهدة صلح مع القوتين (٤٢). ومن الاهداف العسكرية لهذه الاتصالات هي استغلال الوقت لتدعيم القوة الحربية واستئناف القتال. فقد عقد بطرك اركه معاهدة مع خالد بن الوليد، وقبل عقد المعاهدة قال البطرك لسكان المدينة «فان كان قومنا هم الغالبون فسخنا صلحهم» (٤٣)، وسار على نفس السياسة بطرك قنسرين اذ عقد معاهدة مع العرب لغرض كسب الوقت حتى تصل امدادات البيزنطيين (٤٤). وحذا بطرك جوسيه حذوه (٤٥).

وجرت بعض الاتصالات الرسمية لاطلاق سراح الاسرى (٤٦)، وكثيرا ما حاول البيزنطيون مساومة العرب إذ كانوا يخيرونهم بين الانسحاب من المناطق التى يخضعونها لهم وبين اعدام الاسرى العرب، ومثل ذلك ما جرى بين وفد العرب والبيزنطيين الذى ترأسه جبلة بن الايهم، فقد قال جبلة لممثل وفد العرب اما ان يرجع ابوعبيدة من حيث قدم ولا يتعرض لبلاد هرقل او اعدام سعيد بن عامر الانصارى الذى وقع اسيرا بيد البيزنطيين في قنسرين (٤٧). واستعمل القائد البيزنطى نفس الاسلوب اثناء مفاوضاته مع خالد بن الوليد، فقد هدد خالد بقتل الاسرى العرب اذا لم ينسحب العرب من المدن التى سيطروا عليها قبل اليرموك (٤٨).

واجرى معاوية اتصالات مع الجهات الرسمية البيزنطية لتحقيق بعض الأهداف السياسية فقد عمل اثناء ولايته على الشام على الاطاحة ببعض البطارقة لدى القيصر وذلك بكتابة رسائل كانها اجوبة على رسائل كتبوها له، ويدون فيها مساعدتهم ومساندتهم لمعاوية ضد القيصر لغرض الايقاع بهم وقد نجح في تحقيق هذا الهدف (٤٩). وحاول جرجس قائد البيزنطيين ان يستعمل طرقا سياسية للتخلص من العرب فقد اتصل بهم عارضا عليهم ان يقصدوا الفرس لمحاربتهم ويدعون الصداقة بين العرب وبين البيزنطيين (٥٠).

وامتازت الرسائل المتبادلة بين العرب والجهات البيزنطية الرسمية بانها قصيرة موجزة سلسة فصيحة وبعيدة عن الاطناب والتكلف (٥١). وقد كتب العرب رسائلهم بطريقة الوعظ والارشاد في حين كانت اجوبة البيزنطيين على الرسائل العربية مليئة بالتهديد والوعيد.

ويبدو ان العربية كانت لغة المراسلات والمفاوضات (٥٢). في الشام لان سكان الشام كانوا عربا فاصبح من اللازم على الحكام البيزنطيين معرفة لغة سكان البلاد لتسهل مهمة ادارتها ولا تشير المصادر المتوفرة في الوقت الحاضر الى استخدام مترجمين في هذه الاتصالات الا في حالتين الاولى عندما طلب كلوس بن يوحنا، احد قواد البيزنطيين عندما حاصر العرب دمشق مترجما عندما برز لمقاتلة خالد بن الوليد والثانية عند مجيء عمر بن الخطاب الى بيت المقدس ومقابلة البطرك له (٥٣).

ولا تشير المصادر المتوفرة في الوقت الحاضر الى رسائل تبادلها العرب مع جهات رسمية غير بيزنطية لمقارنتها بهذه الرسائل.

والخلاصة فان الاتصالات مع الجهات الرسمية البيزنطية في العصر الراشدي كانت تهدف لتوثيق الروابط السياسية وانهاء حالات الحرب والتوتر بين الدولتين، وقد تبادل الطرفان الوفود والرسائل للاتفاق على انهاء الحرب. وصيغت الرسائل العربية للبيزنطيين باسلوب يحمل كل معاني الدبلوماسية الناضجة.

وقد زود رؤساء الوفود العربية بتعليمات للتأكد من صحة طلب الطرف الثاني للصلح والمهادنة وذلك لان الطرف البيزنطي كثيرا ما كان يطلب المسالمة لغرض استغلال الوقت لتدعيم قوته واستئناف القتال. وقد اختير رؤساء الوفود العربية من الاذكياء الذين يتمكنون من التفاهم مع الجهات البيزنطية الرسمية وكان رؤساء الوفود العربية اشبه بما يسمون في الوقت الحاضر بالسفراء فوق العادة والذين يرسلون لاداء مهمة معينة. ثم تنتهي وظيفتهم بانتهاء المهمة المرسلين من اجلها مثل عقد المعاهدات، وكان الوفد العربي يمثل الخليفة ويوقع المعاهدات والاتفاقيات نيابة عنه.

وقد ضمنت الدولة العربية للوفود القادمين اليها السلام والامان طيلة مدة اقامتهم في بلاد العرب حتى يرجعوا مطمئنين الى بلادهم وقد اكدت كتب الفقه على الامان الذي يشبه الحصانة الدبلوماسية في الوقت الحاضر. ولم يذكر التاريخ حادثة مخالفة لذلك.

وقد تمسك العرب بالعهود والمواثيق التي عقدوها مع البيزنطيين وضمنوا حياة الاسرى والرهائن وعاملوهم معاملة حسنة تليق بهم كاناس ضعفاء عزل. في حين ان البيزنطيين نقضوا الكثير من العهود والمواثيق وقتلوا الاسرى العرب وخيروا العرب بين الانسحاب وبين قتل الاسرى العرب عند البيزنطيين.

الهــوامش

١ ـ القالي البغدادي ، ابو علي اسماعيل بن القاسم ، كتاب ذيل الأمالي والنوادر (بيروت ١٩٨٠) ص ١٩٩ ، كستر ، م ، ج . الحيرة ومكة وصلتهما بالقبائل العربية ، ترجمة يحيى الجبوري (بغداد ١٩٧٦) ص ٤٤ .

٢ ـ الطبري ، محمد بن جرير ، تاريخ الطبري ، ج ٢ تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم (القاهرة ص ٦٤٩) .

٣ ـ نفس المصدر والجزء ص ٦٥٠ راجع العددي ، ابراهيم احمد ، السفارات الاسلامية الى اوروبا في العصور الوسطى (القاهرة ١٩٥٧) ص ٧ ـ ٨ .

٤ ـ علي ، جاسم صكبان دراسات في التاريخ العربي من خلافة ابي بكر حتى سقوط الدولة الاموية. تحت الطبع حداد ، جورج مرعي فتح العرب للشام (بيروت ١٩٢١) ص ٢٢ .
A.A. Vasiliev, History Of The Byzantine Empire Vol. 1
.(Canada, 1952) P. 209

٥ ـ الطبري ، المصدر السابق ج ٢ ص ٤٠٦

٦ ـ المصدر السابق والجزء ص ٤١٧ ، الواقدي ، فتوح الشام (القاهرة ١٨٦١) ص ٢٥ ، ٣٠ البلاذري ، فتوح البلدان (بيروت ١٩٧٨) ص ١٢٠

٧ ـ الطبري ، المصدر السابق ج ٢ ، ص ٤١٨ ، ص ٤٧٩ . اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ج ٢ (نجف ١٩٦٤) ص ١٢٤ ، خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة بن خياط ج ١ ، تحقيق اكرم ضياء العمري (نجف ١٩٦٧) ص ٨٧ .

٨ ـ الطبري ، المصدر السابق ج ٢ ص ٤٠١ ، خليفة بن خياط ، المصدر السابق ج ١ ص ٨٧ .

٩ ـ البلاذري ، المصدر السابق ص ١٢٢ ، ١٢٧ ، اليعقوبي ، المصدر السابق ج ٢ ص ١٢ ، الطبري المصدر السابق ج ٢ ص ٤١٩ .

١٠ ـ خليفة بن خياط ، المصدر السابق ج ١ ص ١٠٠

١١ ـ حداد ، جورج ، المصدر السابق ص ١٠٣ .

١٢ ـ المبرد ، الكامل في الأدب ج ٢ تحقيق محمد ابو الفضل (القاهرة ص ١١٤)

١٣ ـ المصدر السابق ص ٨ .

١٤ ـ ابو الفرج الاصفهاني ، الأغاني ج ١٥ (بيروت ١٩٥٨) ص ١٢٧ ، ابن عبدربه ، العقد الفريد ، ج ٢ تحقيق احمد امين واخرين (القاهرة ١٩٥٦) ص ٥٦ .

١٥ ـ ابو الفرج الاصفهاني ، المصدر السابق ج ١٥ ص ١٢٠ .

١٦ ـ المبرد ، المصدر السابق ج ٢ ص ١١٢ ـ ١١٤ .

١٧ ـ ابن منظور ، لسان العرب (مادة ارس) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ (بيروت ١٩٦٥) ص ٢٧٧ . الحيدر آبادي ، مجموعة الوثائق السياسية (القاهرة ١٩٥٦) ص ٢٠٥ .

١٨ ـ Theoghanes, Theophsnis Chronographia (Bonn, 1939) P.34
6Michael The Syrian, Chronique De Michel Le Syrien-ed
J.B. Chabot (Paris, 1899-1901) P. 432

١٩ ـ الواقدي ، فتوح الشام ، ج ١ الطبعة الرابعة (القاهرة ١٩٦٦) ص ٦ ز

٢٠ ـ الواقدي ، المصدر السابق ج ٢ ص ٨٤ ـ ٩٠ .

٢١ ـ المصدر نفسه ج ١ ص ٩٧ ـ ٩٨ .

٢٢ ـ المصدر نفسه ج ١ ص ٩٨ ـ ٩٩ .

٢٣ ـ The Chronography, Trans. W. Budge (London, 1932) P. 94

٢٤ ـ Op., Cit., Vol.2. P.P. 416

٢٥ ـ الواقدي المصدر نفسه ج ١ ص ١١٠ .

٢٦ ـ المصدر السابق ص ١١٢ .

٢٧ ـ اليعقوبي ، المصدر السابق ج ٢ ص ١٣٢ .

٢٨ ـ الطبري ، المصدر السابق ج ٢ ص ٦٠٦ .

٢٩ ـ المصدر نفسه والصفحة .

٣٠ ـ ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ج١ تحقيق صلاح المنجد (دمشق ١٩٥١) ص ٤٦١ ٨

٣١ ـ الطبري ، المصدر السابق ج ٢ ص ٤٠٢ ، ابن عساكر ، المصدر السابق ص ٤٧٥ .

٣٢ ـ حداد ، جورج ، المصدر السابق ص ٧٧ ، حتي ، فليب ، تاريخ سورية ولبنان ج ٢ (بيروت ١٩٧٢) ص ١٠ .

٣٣ ـ البلاذري فتوح ص ١٤٤ ٨

٣٤ ـ العدوي ، المصدر السابق ص ٢٩ ـ ٣٩ .

٣٥ ـ الواقدي ، المصدر السابق ج ١ ص ٧٠٦ ، الطبري ، المصدر السابق ج ٢ ، ص ٦٠٥ .

٣٦ ـ الطبري ، المصدر السابق ج ٢ ص ٦٠٦ .

٣٧ ـ المبرد ، الكامل ، ج ٢ ص ١١٤ .

٣٨ ـ الواقدي ، المصدر السابق ج ١ ص ٥٨ .

٣٩ ـ ابن عبدربه ، المصدر السابق ج ٢ ص ٥٧ .

٤٠ ـ الواقدي ، المصدر السابق ج ١ ص ٦ .

٤١ ـ Bar-Hebraeus, Op., Cit., P. 96 البلاذري ، المصدر السابق ص ١٢٢ ، ١٤٤ ، ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ١ ص ٥٠٩ .

٤٢ ـ Michael, Op., Cit., Vol. 2. P. 431

٤٣ ـ الواقدي ، المصدر السابق ج ١ ص ١٥ .

٤٤ ـ المصدر السابق ج ١ ص ٧٢ .

٤٥ ـ المصدر نفسه ج ١ ص ٧٠ .

٤٦ ـ المصدر نفسه ج ١ ص ٥٨ .

٤٧ ـ المصدر نفسه ج ١ ص ٧٧

٤٨ ـ المصدر نفسه ج ١ ص ١٢٧ .

٤٩ ـ المبرد ، المصدر السابق ، ج ٢ ص ١١٤ .

٥٠ ـ الواقدي ، المصدر السابق ج ١ ص ٦ .

٥١ ـ الواقدي ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٨٤ ، ٩٤ ، ١٠١ ، الطبري ، المصدر السابق ج ٢ ، ص ٦٠٦ ، الحيدر أبادي ، المصدر السابق ص ٢٩٥ .

٥٢ ـ الواقدي ، المصدر السابق ج ١ ص ٨٤ ، ٩٤ ، ١٠١ ، الطبري ، المصدر السابق ج ٢ ص ٦٠٦ .

٥٣ ـ الواقدي ، المصدر السابق ج ١ ، ص ٢٠ ، ٢١ ، ١٦١

عمرو بن العاص

الدكتور بدري محمد فهد
كلية الآداب ـ جامعة بغداد

عمرو بن العاص

كانت الكتابة عن قادة العرب واعلامهم تخليدا لذكراهم وتاريخا لأمجادهم ومآثرهم لما قدموه للأمة من خدمات في ميادين مختلفة. ولقد أصبح هؤلاء القادة والاعلام رموزا لمجد العرب الخالد وأسوة للخلف من أجيال العرب الشابة. وهذا ما اقتضى الاحتفال بهم في مناسبات مختلفة وفي أقطار عربية متعددة. لتنشأ الأجيال الشابة مؤمنة بوطنها ومعتزة بتاريخها ومآثر اجدادها بعيدة عن التغريب والاستلاب الفكري.

لذا وجدنا الاضواء تُسلَّطُ مرة بعد أخرى على نتاج مؤلف او كاتب ويعاد التأليف حول قائد من قادة العرب انطلاقا من هذه النظرة التي عرضناها.

كما ان في كل عصر مستحدثات جديدة ومقاييس مستجدة في الحرب والسياسة وفي الاقتصاد والادب والتاريخ وهذا يستدعي اعادة النظر ووزن الأمور التراثية وفق الموازين المستحدثة والاستنارة بالآراء الجديدة.

وكتابتنا عن عمرو بن العاص استجابة لدعوة للمشاركة في ندوة عن القادة العرب وعمرو أهل الاشادة به واعادة ذكراه اذ انه قائد منتصر وانه محرر لثلاثة اقطار عربية هي فلسطين ومصر وليبيا.

١ ـ عائلته ونشاته :

هو عمرو بن العاص بن وائل السهمي القرشي، ابو عبدالله (١).
نشأ في بني سهم إحدى بطون قريش المعروفة، الذين عهدت اليهم قبل الاسلام الحكومة، والاموال المحجرة. أي السفارة والوساطة ما بين قريش وبعضها أو قريش وغيرها من القبائل والاشراف على الاموال التي اوقفت على المعابد (٢).

وكان ابوه العاص بن وائل من اشتغل بالتجارة كشأن قريش وكان من معارضي الاسلام، والمستهزئين بالرسول صلى الله عليه وسلم. فكان من جملة ايذائه للرسول صلى الله عليه وسلم انه كان يسميه بالابتر بعد وفاة ابنه عبدالله أي انه لايعيش له ذكر فانزل الله عز وجل فيه «إنّ شانئك هو الأبتر» (٣). وتوفي العاص بعد هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم الى المدينة بأشهر وهو ابن خمس وثمانين سنة على الكفر (٤).

أما أمه فهي سلمى بنت حرملة وتلقب (النابغة) من بني عنزة وقعت سبيّة فبيعت في سوق عكاظ فانتقلت من يد الى أخرى حتى صارت عند العاص بن وائل فولدت له عمرا (٥).

وكان لعمرو أخ شقيق سبقه الى الاسلام وهو هشام بن العاص، ممن هاجر الى الحبشة في المرة الثانية ثم قدم مكة فحبسه أبوه ومنعه من اللحاق بالمدينة حتى توفي ابوه. ثم حبسه قومه فلم يزل بمكة حتى واتته الفرصة للافلات من حبسه فقدم على النبي صلى الله عليه وسلم بعد الخندق وجاهد مع المسلمين وقتل بالشام. وكان اصغر سنا من عمرو ويكنى أبا العاص فكناه النبي صلى الله عليه وسلم ابا مطيع (٦)

وكان لعمر أخ أخر من أمه يسمى عمرو (أو عروة) بن ابي اثاثة بن عبدالعزى العدوي. وكان من مهاجرة الحبشة. وقد مات في الحبشة ولا عقب له (٧).

وكان عمرو من فرسان قريش، وابطالها قبل الاسلام مذكورا بذلك فيهم وكان شاعرا حسن الشعر، حفظ عنه الكثير في مشاهد شتى، كما عرف عنه الذكاء (٨).

ومن قبيل معرفة قريش بقابليات عمرو وشدة ذكائه ان قريشا ارسلته مع عبدالله بن ابي ربيعة المخزومي (وقيل عمارة بن الوليد المخزومي) يقنع النجاشي بتسليم المسلمين الملتجئين عنده بانهم

الحجج المزيفة لاقناعه وحاملين هدايا قريش اليه. الا انه رفض حججهم ومطالبهم وارجعهم خائبين الى مكة مما زاد من حنق قريش على المسلمين والاكثار من ايذائهم (٩).

استمر عمرو كأبيه معاديا للاسلام وشارك قريشا في تصديها للنبى صلى الله عليه وسلم فقد جاء عنه انه كان في قافلة قريش العائدة من الشام، مع ابى سفيان في السنة الثانية من الهجرة التىخرج اليها النبى صلى الله عليه وسلم (١٠). وانه كان ضمن اربعة اختارتهم قريش ليستنجدوا بالقبائل المحالفة لها بعد معركة بدر (١١). وانه ممن خرج مشاركا في معركة احد، واختلف في قيادته للخيل فقد كان عمرو قائد الخيالة، وقيل لا بل صفوان بن امية (١٢) وشارك في معركة الخندق ورجع منها متيقنا ان النبى صلى الله عليه وسلم وصحبه سائرون في طريق الانتصار، وان قريش الى خذلان (١٣).

ثم أسلم عام ٨ هـ قبل فتح مكة بستة اشهر وكان قدقدم الى المدينة مع خالد بن الوليد، وعثمان بن طلحة، فلما دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لصحابته «قد رمتكم مكة يا فلاذ كبدها» تقديرا منه لمكانتهم في قومهم وعزتهم في قريش وتظهر جملة من الروايات ايمان عمرو في وقت سابق لهذا العام اي عام ٨ هـ بعضها يرجع بزمنه الى عهد هجرة الحبشة الاولى وان الذى اقنعه بالاسلام النجاشى نفسه ملك الحبشة. وبعضها تجعله مؤمنا يخفى ايمانه عن أبيه وقومه منتظرا الوقت المناسب لخروجه الى المدينة وانه كان على موعد مع أخيه هشام حول مجيئه الى المدينة (١٤).

٢ ــ في عهـد النبى صلى الله عليه وسلم :

وأول عمل عَهَدَ النبى صلى الله عليه وسلم به الى عمرو ارساله الى رهاط لتحطيم سواع صنم الهذيل على بعد ثلاثة أميال من مكة. كانوا يحجون اليه ويعبدونه ويقضون عنده النذور (١٥).

وفي نفس العام الذى اسلم به عمرو عهد اليه الرسول صلى الله عليه وسلم بمهمة الى قبيلة عذرة وبلى (من قضاعة)، وكانت بلى اخوال ابيه وكانت تسكن الشام قائلا له «يا عمرو انى اريد ان ابعثك في جيش يسلمك الله ويغنمك، وارغب لك من المال رغبة صالحة» وكانت مهمة دعوتهم الى الاسلام، واستنهاضهم للجهاد فقام بالواجب وعاد في صفر من نفس السنة ويبدو ان قبيلة بلى لم تستجب له، وان خَبَرَ دعوتها الى الاسلام انتشر في بطون قضاعة لذلك استعدت للحرب وهذا ما يفهم من ارسال عمرو على رأس قوة من ٣٠٠ رجل وكان ذلك في شهر جمادى الاخرة من هذه السنة المذكورة الى قضاعة وقد سميت الغزوة بذات السلاسل نسبة الى ماء بارض جذام نزلوا عنده. ولما رأى عمرو وقلة من معه قياسا على جموع اعدائه من قضاعة وعامله ولخم وجذام كتب الى النبى يستمده، فايده بمائتين فاصبح مجموع ما عنده خمسمائة مقاتل فيهم من كبار الصحابة أبو عبيدة ــ وكان قائد المدد القادم اليه ــ وعمر بن الخطاب، وأبو بكر. ودارت المعركة وانتصر فيها المسلمون وغنموا غنائم عظيمة (١٦).

ويبدو ان عمرا اظهر في غزوة ذات السلاسل هذه مقدرة في القيادة، وبدت قابليته ومعرفته في ادارة الجيش وسلامته خلال مسيره وقتاله (١٧) فقد اتخذ جملة قرارات اثناء هذه الغزوة اولها رفض ان يكون للجيش قائدان وذلك عندما اقترح ابو عبيدة قائد المدد ان يبقى قائدا لمجموعته. فاصر عمرو على توحيد القيادة.

وثانيا : ــ انه أمر بالسير ليلا ليخفى امره عن عيون الاعداء.

ثالثا : ــ انه لم يسمح بايقاد النار ليلا لكى لا يتعرف العدو الى عدد جنده.

رابعا : ــ انه لم يسمح بتعقب جند العدو خوفا من معاودة العدو للهجوم.

وكان النبى صلى الله عليه وسلم على علم بما كانت عليه سهم من قيامها بالحكومة كما اسلفنا كما انه قد خبر عمرا وعرفه فوجده اهلا للسفارة لهذا عهد اليه بالمهمة الثانية وهى حمل رسالة النبى صلى الله عليه وسلم الى ملكى عمان جيفر وعباد ابنى الجلندى لاقناعهما بالدخول في الاسلام بعد ايصال الرسالة اليهما. وقد ادى مهمته ونجح في اقناعهما. وبقى داعية للاسلام ومصلحا فيها وجابيا للصدقة حتى انتهى عهد النبى صلى الله عليه وسلم فاستدعاه ابوبكر بعد ان رغبه فيما هو خير له (١٨).

ويبدو ان النبى صلى الله عليه وسلم كان راضيا عنه فقد ورد في الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم قوله «عمرو بن العاص من صالحى قريش» (١٩).

٣ ــ في عهـد ابى بكـر الصـــديق (ر)

عاد عمرو من عمان فمر في طريقه ببنى عامر ونزل عند زعيمهم قرة ابن هبيرة وقد استقبل عمراً واستضافه وكانت حركة الردة قد وقعت وتسامعت بها القبائل علىاثر وفاة الرسول (ص). وكان قرة هذا يقدم قدما ويؤخر أخرى. فلما نزل به عمرو اخبره بما في نفسه ونفوس اهل الردة وهو عدم دفع الزكاة وقد اعتبرها اتاوة قائلا لعمرو «يا هذا ان العرب لا تطيب لكم نفسا بالاتاوة فان اعقبتموها من اخذ اموالها فستسمع لكم وتطيع، وان ابيتم فلا تجتمع عليكم». الا ان عمرا اجابه جوابا حازما واضحا بقوله «اكفرت يا قرة وتخوفت بالعرب، فو الله لأوطئن عليك الخيل في حفش امك» (٢٠).

ولما عزم الخليفة ابوبكر الصديق على محاربة المرتدين اختار عمراً قائداً لاحد الجيوش، وجعل وجهته الشام لمحاربة قضاعة، ويبدو ان انتصار عمرو في ذات السلاسل هو الذى جعل الخليفة ابابكر يرسله لمحاربة قضاعة بالذات لما أبداه من شجاعة ومن كفاءة في قيادة الجيش.

بعد ان انهى قادة حرب الردة مهماتهم بنجاح اخ را يفدون إلى المدينة ولما تكامل جمعهم في مستهل سنة ثلاث عشرة عقد الخليفة ابوبكر الالوية لتحرير العراق والشام فعقد لعمرو لواء وجعل وجهته الى فلسطين. وعقدت الوية أخرى ليزيد بن ابى سفيان، وشرحبيل بن حسنة، وابي عبيدة عامر بن الجراح وكانت تحت أمرة كل قائد ثلاثة آلاف جندى ثم امدهم ابوبكر حتى صار مجموعهم اربعة وعشرين الفا. وكانت بلاد الشام بلادا عربية يحكمها البيزنطيون غصبا وجورا فقد كان العرب يسكنون القسم الجنوبى منها في حوران وما يليها الى الجنوب الغربى مثل الكرك ومعان الى العقبة قرب البحر الاحمر وكان يسكنها من القبائل غسان ولخم وجذام وكلب وقضاعة وغيرهم. وكانت عاصمة هذا القسم بصرى حاضرة الملوك من بنى غسان. وكان قسم عظيم من الجزء الشرقى والشمال الشرقى الممتد من غوطة دمشق الى مدينة تدمر وما بعدها الى نهر الفرات مأهولا بالعرب ايضا من بنى

غسان والنمر وبهراء وتغلب وغيرهم وعاصمة هذا القسم مدينة دمشق (٢١)

كما ان العرب امتدوا في سكناهم صوب غزة. وقد كانوا كشأن اخوانهم عرب الشام ممن تحملوا صنوفا من جور الروم لذلك ما ان جاءت الجيوش العربية الى الشام حتى بادروا الى الاتصال بهم ودعوتهم لدخول فلسطين (٢٢).

فدارت معارك في جبهات مختلفة وفي هذه المعارك التى دارت على ارض الشام برزت كفاءة عمرو القيادية وذاع صيته ولا سيما بعد اقتراحه على القادة (بعد سماعه بتقدم جيش الامبراطور هرقل)، بتوحيد الجيوش العربية وتوحيد قيادتها وهكذا خاضوا معركة اليرموك وانتصروا على الجيش البيزنطي. وبينما هم في اليرموك جاء الخبر بوفاة الخليفة ابى بكر وتولية عمر (ر). واستمر عمرو مشاركا في تحرير الشام خلال عهد عمر بن الخطاب حتى تم التحرير.

٤ ـ في عهد عمر بن الخطاب (ر).

١ ـ تحرير مصر :

اصبح عمرو بعد حروب الشام معروفا بدهائه وفطنته وشجاعته، ولم تكن تخفى صفاته تلك عن الخليفة اليقظ عمر بن الخطاب وهو الخبير بالرجال. لذلك اسند اليه وحده مهمة جليلة وهي تحرير مصر ولا عبرة باختلاف الروايات حول فكرة تحرير مصر وان كانت قد جاءت كاقتراح من القائد عمرو لحماية بلاد الشام والقضاء على بقية القوات البيزنطية في مصر. التى يخشى ان تستفيد من موانىء مصر واسطولها للعودة الى الشام ومناجزة الجيوش العربية القتال أم ان تحرير مصر جاء بأمر من الخليفة عمر القائد العام لقوات المسلمين (٢٣).

ومصر لم تكن غريبة او مجهولة بالنسبة للعرب كما ان العرب لم يكونوا غرباء او مجهولين بالنسبة لشعب مصر. فقد كان العرب يعرفون دولة الفراعنة وان ابا العرب اسماعيل من أم مصرية وقد ذكر استرابون الجغرافى الاغريقى ان مدينة كبش في الصعيد كانت نصف عربية (٢٤).

وكان العرب يتسامعون باخبار الحرب بين الفرس والروم وكانوا يعقدون المراهنات على حاضرها ومصيرها. وقد تراهن المسلمون والمشركون على عاقبة الغزوة الفارسية للدولة البيزنطية لذلك جاء في القران الكريم في اول سورة الروم «الم غلبت الروم في ادنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين..» وكان نزول الآية الكريمة في سنة ٦١٥ م وهو تاريخ المعركة وكان النبى صلى الله عليه وسلم مايزال بمكة ولم تمض سبع سنوات حتى كانت النبوءة قد تمت واذنت بما يليها. وهو وعد المؤمنين بالنصر وانجاز الامر الالهى الذى دعاهم ان يسيروا في الارض وينظروا عاقبة المشركين (٢٥).

وقد عاش العرب هذه الاحداث ووعوها فقد جاء عن العلاء بن الزبير الكلابى انه حدث عن ابيه قال «رأيت غلبة فارس الروم ثم رأيت غلبة الروم فارسا ثم رأيت غلبة المسلمين فارسا والروم كل ذلك في خمس عشرة سنة» (٢٦)، كما ان القرآن الكريم ذكر مصر في عدة مواضيع. ان النبى صلى الله عليه وسلم قد بشر المسلمين بان الله سينصرهم على دولتى الفرس والبيزنطيين وسوف تقسم عليهم كنوزها (٢٧)

وكان النبى صلى الله عليه وسلم بعدصلح الحديبية عام ٦ هـ قد ارسل رسله الى الملوك والرؤساء في البلاد المجاورة لجزيرة العرب وكان ممن ارسل اليهم امبراطور الدولة البيزنطية هرقل والى المقوقس عظيم القبط وقد حمل رسالة النبى صلى الله عليه وسلم اليه حاتم بن ابى بلتعة (٢٨). وقد اكرم المقوقس رسول النبى صلى الله عليه وسلم وزوده بهدايا كان في جملتها جارية من اهل مصر اسمها مارية انجبت للنبى صلى الله عليه وسلم ابنه ابراهيم وعاش ستة عشر شهرا وقيل ثمانية عشر شهرا (٢٩).

أما معرفة المصريين للعرب فهى معرفة تمت بحكم الجوار والتجارة، كما ان انباء حروب التحرير في بلاد الشام وانتصارات العرب على الجيوش البيزنطية وهروب الامبراطور هرقل. كل ذلك قد وصل ولا شك الى مسامع المصريين فكونت لديهم فكرة عن بطولات العرب وشجاعتهم النادرة وهذا مما ادى الى انهيار معنويات البيزنطيين وهو احد الاسباب التى مكنت العرب من تحرير مصر لجيشهم الصغير القليل العدد.

ترأس عمرو جيشا قوامه ثلاثة آلاف وخمسمائة وقيل اربعة آلاف رجل واتجه بهم نحو مصر في اواخر عام ١٨ هـ/ ٦٣٩ م. ليكتب للعرب صفحة جديدة في تاريخهم ولينفرد بمجد تحرير ثلاثة اقطار عربية هى فلسطين ومصر وليبيا. وليظهر من فنون القيادة والادارة ما نال به اعجاب المؤرخين والقادة قديما وحديثا. وقد سار في نفس الطريق التاريخى الذى سارت فيه الجيوش ما بين مصر والشام محاذيا للبحر المتوسط فكانت مواقعه في مصر في القرن (شرق بورسعيد) وبلبيس وأم دنين وعين شمس ـ حصن بابليون ـ والفيوم. وهنا تورد الروايات شعور عمرو بقلة من معه من الجند وطلب المدد من الخليفة الذى سارع بامداده باربعة آلاف أخرى فأصبح جيشه ثمانية آلاف مقاتل فاستطاع فتح حصن بابليون وكتب عهد الصلح للمصريين (٣٠).

ثم تقدم شمالا باتجاه العاصمة الاسكندرية فوصلها بعد ان اصطدم بعدة حاميات رومية صغيرة. وحاصر الاسكندرية وعقد صلحا مع الروم.

ونظرا لما رافقته هذه المعارك والمواقع من شجاعة نادرة ابداها عمرو ابن العاص وجيشه الصغير العدد من سرعة في الحركة ما بين الصعيد والدلتا ومن سرعة في الانتصار واقتطاع مصر اولا وليبيا ثانيا من امبراطور البيزنطيين وتحويلها الى بلاد عربية منضوية تحت راية الاسلام. ادى ذلك الى خلاف بين المؤرخين فبعضهم ناقش جزيئات حركة التحرير مثل كيفية عبوره النيل الى الفيوم وكان حصن بابليون، مازال محاصرا وقبل ان يأتيه المدد من المدينة (٣١). في حين اعتبر بعض الباحثين ان ذلك حدث بسبب دهاء عمرو اذ انه بارساله سراياه الى الصعيد كان يقوم بمناورات.. للتعمية والاستطلاع ولم يكن ينوى الفتح، بل كان ينوى اشغال جنده، ومعرفة مدى امكانية التعويل على ولاء سكان البلاد، وان يضطر حاميات الروم في الصعيد الى البقاء حيث هي والعدول عن امداد الحامية المحاصرة في بابليون. فدهاء عمرو جعله يقوم بالمباغتة وسرعة الحركة واستعمال الخداع والتضليل ليربك العدو ويجعله يغير من خططه (٣٢).

كما ناقش المؤرخون سرعة انتصار عمرو بقواته القليلة على البيزنطيين في مصر وكانت لهم بها قوات تفوق قوات المسلمين عددا وعدة فمنهم من حاول ان يرجعها الى ظروف مصر بالدرجة الاولى (٣٣).

وبعضهم اعتبر ظروف مصر عوامل مساعدة لما حققه عمرو بن العاص من سرعة في الانتصارات ويحصر الظروف فيما يأتى (٣٤).

١ ـــ ان العلاقة بين مصر والدولة البيزنطية علاقة مادية فمصر تؤدى الخراج المفروض عليها سنويا قمحا وغلالا واموالا عينية ترسلها الى القسطنطينية.

٢ ـــ ان الجباية كانت بروح بعيدة عن العدالة لذلك كانت مصدر شكوى الفلاحين.

٣ ـــ عدم وجود وحدة ادارية بالمعنى الصحيح فكل اقليم مستقل بذاته.

٤ ـــ وجود الاضطهاد الدينى اذ كان الاقباط على المذهب اليعقوبى (المنوفستى) بينما كان مذهب الدولة البيزنطية الملكانى. وقد حاولت الدولة فرض مذهبها بقوة على الاقباط، واضطهدت تبعا لذلك قساوستها وبطارقتها وهناك من يضيف شيئا اجتماعيا وهو عدم وجود انسجام أو وفاق بين سكان العاصمة الاسكندرية وانهم كانوا اخلاطا منهم الاغريق وأهل الشام لا سيما رجال الدين المغاربين من الاضطهاد الدينى وغير رجال الدين واليهود. وكانوا يعدون بالالوف والعرب وبعض النازحين من كل مكان هذا فضلا عن الاقباط (٣٥).

وقد أجمل هؤلاء السادة الباحثون جملة أمور هي:

١ ـ مبادىء الاسلام التى حملها العرب من شجاعة وتضحية ورفعهم لشعار احدى الحسنيين (النصر او الشهادة)، التى جعلتهم ينتصرون في الشام على جيوش الامبراطورية البيزنطية بقيادة الامبراطور هرقل قبل مجيئهم الى مصر.

٢ ـ شجاعة وكفاءة عمرو بن العاص الذى اكتسب خبرة عالية بمعاركه في الشام. فضلا عما امتاز به من خصال مثل اطلاعه ومعرفته بما كانت عليه مصر ارضا وشعبا. فقد وردت عنه اخبار انه زار مصر قبل الاسلام (وان صيغت بشكل اسطورى). ومن دون شك فانه جمع معلوماته عن مصر اثناء وجوده في فلسطين يوضح ذلك ما ورد عنه من روايات جعلته راغبا في تحرير مصر ملحا على الخليفة بذلك، فضلا عن دهائه فقد كان يجيد حرب الدعاية وهذه احدى وسائله التى عرفت عنه في صفين فيما بعد (٣٦). ولعل لهذا السبب الاثر الكبير في معنويات البيزنطيين في مصر وخوفهم منه ومن جيشه قبل الاصطدام ونشوب المعارك وبعد ان انتهى من تحرير مصر من الصعيد الى الاسكندرية بادر بارسال قواته الى بلاد النوبة جنوب مصر الا انها لم تستطع مواصلة الحرب هناك فاضطرت للعودة. وبقي القتال بعد ذلك ينشب من حين الى حين بضع سنين حتى كانت خلافة عثمان فعُقد صلح مع أهلها (٣٧).

ب ـ تحرير ليبيا: انتهى عمرو من تحرير الاسكندرية في النصف الاخير من ايلول سنة ٦٤٥ م الموافق ذى القعدة سنة ٢١ هـ وسار بجيشه الى برقة لتحريرها فلما سمع اهلها آثروا عدم محاربته وآثروا ان يدخلوا تحت حكم الاسلام ويتمتعوا بما فيه من حرية وعدالة فصالحهم عمرو.

ثم سار الى طرابلس «اطرابلس» بعد ان ارسل الى ناحية الجنوب حيث مدينة زويلة القائد عقبة بن نافع الفهري لكى يأمن المباغتة من الجنوب بعد ان أمن ناحية الشرق بصلحه مع برقة ونزل عمرو حول اطرابلس في سنة ٢٣ هـ. وفي رواية سنة ٢٢ هـ فحاصرها شهرا حتى كشف طريقا بين البحر والسور يمكن السير عليه عند حصول الجزر وهكذا اقتحم المدينة وهرب الروم في السفن الراسية (٣٨).

ويبدو ان سبب تحرير ليبيا كان أمرا اقتضته الظروف العسكرية لكي يتم تأمين الحماية لمصر من ناحيتها الغربية. ولا نرى هنا داعيا لبحث أسباب انتصار عمرو السريع وقد كانت ليبيا مشحونة بالروم. فضلا عن بعدشقتها عن قاعدة عمرو الفسطاط وعن عاصمة المسلمين المدينة. لان تعاليم الاسلام هى التى علمت الجند الصبر وتحمل المشاق والتضحية في سبيل عقيدتهم فضلا عن شجاعة عمرو وحسن قيادته.

وقد اراد عمرو ان يواصل زحفه لتحرير افريقية (تونس) بعد ان وصل الى حدودها الشرقية الا ان الخليفة عمر بن الخطاب وجد ان بعدها عن طرابلس (تسعة ايام) سينهك الجند فأمر قائده بالتوقف عند الحد الذى وصل اليه (٣٩).

٥ ـــ في عهد عثمان بن عفان (ر):

رأى الخليفة عمر بن الخطاب كما في بعض الروايات ان يقسم ادارة البلاد بين عمرو بن العاص، وقائد ميمنته عبدالله بن سعد بن ابى سرح، فيجعل عمرا أميرا على اسفل مصر (الوجه البحري) وعبدالله بن سعد على أعلى مصر (الصعيد) (وكان عبدالله أحد فرسان بنى عامر (٤٠). اخا لعثمان بن عفان من الرضاعة) ويبدو ان ذلك استمر حتى مجيء عثمان وفي رواية ان عثمان بعد توليه الخلافة نزع ولاية الخراج من عمرو بن العاص وعهد بها الى عبدالله بن سعد فحصل العداء.. والكراهية بين الرجلين. فكتب كُلٌ منهما الى الخليفة يشكو صاحبه فامر الخليفة بعزل عمرو واستعمال عبدالله على الخراج والجند (٤١).

وفي رواية ثالثة انه بعد مجيء عثمان للخلافة بسنتين او ثلاث سنوات أى في عام ٢٥ هـ او في ٢٦ هـ، كما في رواية الطبرى وهو الاصح يولى عبدالله بن سعد أميرا على كل مصر، ويعزل عمرا عنها وهنا تختلف الروايات في سبب ذلك ففي بعضها يكون طلب العزل قد تقدم به عمرو نفسه بعد ان طلب من الخليفة بان يوليه كل مصر فرفض الخليفة طلبه لان تعيين عبدالله اميرا على الصعيد قد تم بأمر عمر ولم تكن بينهما قرابة فاستمر عبدالله اميرا محمود السيرة وقاد ثلاثة معارك انتصر فيها اثنتين في البر وهما تحرير افريقية والاوساد (٤٢) وواحدة في البحر (ذات الصوارى) طبقا لهذه الرواية يكون الخليفة قد عزل عمرا حتى اذا عاد الروم وهاجموا الاسكندرية ونزلوا فيها وقتلوا العرب الا من هرب فطلب السكان من الخليفة الاتيان بعمرو لاستردادها منهم فارجعه الى مصر (٤٣).

وفي رواية أخرى وهى الاقرب الى الصواب ان عثمان عزله بعد الانتصار بمدة شهر نتيجة لمطالبة عمرو السالفة الذكر (٤٤).

وهنا من يرجع سبب عزل الخليفة عثمان لمواليه عمرو عن مصر بعد ان ابقاه فترة من الزمن الى ما حصل من تصرفات عمرو بعد تحرير الاسكندرية ذلك ان نزول الروم بالاسكندرية عام ٢٥ هـ، وما تلاه من دحرهم من قبل عمرو وقتل المقاتل وسبى الذرية، ازعج عثمان خاصة بعد اخذ السبايا فامر بردهم (لا سيما الذين سبوا من القرى) الى مواقعهم لما كان بينهم وبين المسلمين من عهد وهذا ما دفع الخليفة الى عزله. وطبقا لهذه الرواية فان هذا العزل هو الذى أجَّج العداوة بين

عمرو والخليفة عثمان(٤٥). ويمكن القول بان وراء عزل عمرو اكثر من سبب وجيه ولا يكفي ان يقال بان عثمان ولى قريبه، واعتزل عمرو في فلسطين وكان يذهب الى المدينة، احيانا حتى قتل عثمان.

في عهـد معـاويـة :

يبدو ان عمرا كان يرقب الحوادث من موضعه في فلسطين ويتسقط اخبار الصراع بين الخليفة علي بن ابى طالب (ر) ومعاوية، وفي هذه الاثناء لم ير ميلا من الخليفة علي اليه بل وجد معاوية يستميله ويسترضيه حتى ذهب الى صفين وشهد معه المعركة وكان خير معين له حتى عَدَّهُ بعضهم القائد الحقيقي لجيش معاوية(٤٦). ثم كان التحكيم فأصبح ممثلا عن معاوية بعد اتفاقه معه على ولايته مصر ما بقي من حياته(٤٧). فقام بدوره الموكل اليه حسب الاتفاق فولاه معاوية بعد انتهاء معركة صفين على مصر بعد ان استنقذها من والي علي عليها محمد بن ابى بكر(٤٨). فلم يزل عليها الى ان مات بها وذلك في يوم عيد الفطر سنة ٤٣ هـ وكان قد بلغ حوالي تسعين عاما (٤٩).

٧ ــ ادارة عمرو لمصر بعد تحريرها :

اولا : بناء الفسطاط : ــ ان عمرا بعد تحريره مصر خطط لبناء عاصمة جديدة كشأن القادة العرب في الاماكن الاخرى التى حرروها، ليتخذها مقرا لادارة البلاد. وترك الاسكندرية العاصمة القديمة رغم خلو بيوت الروم الفارين منها، وامكانية استيعابها جند عمرو آنذاك.

اما اختياره موقع الفسطاط فقد كان موفقا من وجوه كثيرة، حيث انها في راس الدلتا مما يجعلها من الناحيتين الحربية والادارية في مأمن من هجمات العدو، ويسهل وصول العتاد والأقوات اليها لقربها من الاراضي الزراعية. كما انها في الجانب الشرقي من نهر النيل مما يسهل امر صلتها بعاصمة المسلمين المدينة. وأما مجاورتها للمقطم في مكان مرتفع لا يغمره ماء النيل في أثناء الفيضان. ويكفي دليلا على اختيارها هذا الموقع انه استمر مكانا للعاصمة المصرية حتى يوم الناس هذا(٥٠). ثم ان اتخاذ مكان الفسطاط جاء قرب عاصمة مصر القديمة (منف) التى تقع امام الفسطاط في الجانب الغربي وبينهما نهر النيل. وقرب موضع عين شمس المدينة الفرعونية القديمة.

وقد سار عمرو في تخطيط الفسطاط على نفس الأسس التى سار عليها ولاة الامصار عند بنائهم المدن وذلك ببناء المسجد وسط المدينة وقربه قصر الامارة الذى يسكنه الامير وعلى مسافة معينة فراغ يأتي بعده منازل الناس مقسمة وفق قبائلهم(٥١). ولهذا الف عمرو لجنة من (معاوية بن حديج التجيبي، وشريك بن سمي الغطيفي، وعمرو بن قحزم الخولاني، وجبريل بن ناشرة المغافري) (٥٢). لتقسيم خطط المدينة وفق قبائلهم واسكانهم فيها وتم ذلك سنة ٢١ هـ(٥٣). وقد بنى الناس الحمامات في خططهم وكانت تسمى (حمام الفار) لصغرها بالقياس الى حمامات الروم الكبيرة (الديماسات) (٥٤).

وتدل اوصاف الخطط وتقدير الابعاد طبقا لرواية ابن عبدالحكم، على ان موقع الفسطاط كان يشغل مسطحا طوله نحو خمسة آلاف متر، حدّهُ من الشمال جبل يشكر (الذى يقع عليه الآن جامع احمد ابن طولون، ومن الجنوب دير الطين (أو دير مار يوحنا) . وفي وسطه جامع عمرو، ممتدا على ضفة النيل مقابل الجزيرة (التى تعرف الآن بجزيرة الروضة) . وان عرض هذا المسطح لم يكن يزيد على ألف متر، لان النيل حدّهُ الغربي (٥٥).

الا ان مساحة الفسطاط تعرضت للزيادة بسبب الهجرة المتوالية اليها وكثرة المعمار بها حتى اصبحت مدينة كبيرة أربت على كثير من العواصم آنذاك وبعبارة المقريزي «أربت على عامة مدة المعمور حاشا بغداد...» (٥٦).

وفي الوقت الذى خطط عمرو الفسطاط، كان بعض جيشه قد احب المقام في الجيزة فكتب عمرو بذلك الى الخليفة، فأجاب عمرا برسالة اوضح فيها رايه ان يبقى جيشه في مكان واحد لايفصلهم النيل اذ قد يداهم عدو أهل الجيزة ولا يعلم اخوانهم بأمرهم الا متأخرين ولكن اذا وجد عمرو ان هؤلاء النازلين في الجيزة قد احبوا المقام فيها فله ان يتركهم في مواقعهم بعد ان يبنى لهم حصنا يحميهم عند الحاجة.

ثانيا : ادارة البلاد ــ أ ــ وظائف بيد الروم والاقباط : كان امام عمرو جملة مهام بعد تحريرها .منها المحافظة على مصر والاستعداد الدائم لصد اى هجوم من البيزنطيين. واكمال حركة التحرير باتجاه النوبة جنوبا والتقدم باتجاه افريقية غربا لذلك وجد ان من الحكمة ابقاء كثير من موظفي الادارة الاقباط، ومن آثر البقاء من البيزنطيين. وعدم اشغال جنده العرب بذلك، فعهدت الى هؤلاء البيزنطيين والاقباط ادارة دواوينهم وجمع ضرائبهم مع مراعاة التخفيف من الضرائب والغاء كثير مما كان يأخذه البيزنطيون والفراعنة (٥٧).

فكان عمرو بعد جمع الجزية وخراج الارض يقوم باقتطاع مقدار منه لاعمار مصر واصلاح اوضاعها مثل: (٥٨).

١ ــ انه نظم الري، وحفر الخلجان، واقام الجسور على الترع، وازال الجزر التى كانت تظهر في نهر النيل.

٢ ــ احصى السكان والمـال.

٣ ــ وضع المقاييس في نهر النيل في حلوان، واسوان ــ اذ ان فيضان النيل مهم للزراعة في مصر ومن ثم لتوفر الخيرات.

٤ ــ شقه ترعة ما بين النيل والبحر الاحمر اطلق عليها اسم خليج أمير المؤمنين. وهذه الترعة قناة تصل بين مدينة القلزم على البحر الاحمر وحصن بابليون على النيل، وهى قناة قديمة حفرها (امينس ــ تراجانوس) ثم انطمرت فلما حفرها عمرو اصبحت مقصرة للمسافة ما بين الفسطاط والمدينة، ويسرت حمل الغلال من مصر الى المدينة(٥٩). وقد كان لهذه المشاريع عمال متخصصون ومفرغون طوال العام(٦٠).

ب ــ وظـائف بيـد العـرب :

والى جانب اتخاذ الروم والاقباط في بعض الوظائف فان عمرا عين موظفين عربا لاستكمال ادارة البلاد فقد اتخذ حجابا لحمايته(٦١). وكون جهازا للشرطة جعل رئيسه خارجة بن حذافة. وكان ينوب عن عمرو طوال عهده حتى قتله خارجي معتقدا انه عمرو، اذ تخلف عمرو في بيته لاصابته في بطنه فلما عرف الحروري انه لم يقتل عمرا قال: «اردت عمرا واراد الله خارجة». ثم جعل عمرو على الشرطة السائب ابن هشام بن عمرو القرشي(٦٢). وكان يعمل في معية صاحب الشرطة عدد من الرجال لزجر الناس واقامة النظام والمحافظة عليه (٦٣).

وولى على الطواحين مسلمة بن مخلد، والذى اصبح واليا على مصر في عهد معاوية بعد وفاة عمرو. ولعل المقصود بالطواحين جمع الضرائب المخصصة على الطواحين.

وولى على المكس خالدا بن ثابت الفهمي جد بنى رفاعة الا انه استعفى عمرا عن هذا العمل فاعفاه (٦٤).

وقد كان عمرو يعين القاضي الذي يرشحه الخليفة عمر بن الخطاب (٦٥). كما كان يعين للقبائل عرفاء. فكان زبيد بن الحارث الحجرى (حجر حمير) وكان عداده من العتقاء وكان عريفهم(٦٦). وكان الملامس ابن جذيمة عريف حضرموت(٦٧). ولما استقرت الصدف عرف عليهم عمران بن ربيعة (٦٨). وكان هؤلاء العرفاء همزة وصل ما بين القبائل والامير. والراجح ان اختيارهم يتم من بين أهل الشرف والفضل في قبائلهم.

ج ــ سياسة الرعية :

ان عمرا بعد ان اكمل تحرير مصر وليبيا بادر الى اعلان الامان للسكان في ممارسة طقوس ديانتهم حسب شرائعهم المختلفة من يهود ونصارى بفرقهم المختلفة، فكان من نتيجة هذه السياسة ان عاد رئيس الاساقفة القبطى (بنيامين) وكان على مذهب الاقباط يعقوبي هرب نتيجة اضطهاد البيزنطيين له.

كما ان عمرا لم ينس جنده العرب فكان يصلح لهم الاراضي لبناء الدور عليها (٦٩). ويسمح لهم بالخروج عند عودتهم من حركات التحرير وحراسة الحدود الى الريف لا سيما في الربيع ليسمنوا خيولهم ويريحوها من عناء الحروب وقطع المسافات البعيدة، ولتكون مستعدة عند الحاجة مهيأة لذلك. وكان يحدد لهم موعدا لعودتهم الى الفسطاط. ويوصيهم بخيلهم خيرا، ويهددهم بانه عند عودتهم سيستعرض الجند والخيل معا فمن وجده قد سمن نفسه وترك حصانه من غير علة عاقبه بقطع مبلغ الحصان من ديوانه. ويبدو ان عمرا قد قسم القبائل حسب ريف مصر حتى لاتزدحم القبائل في اماكن معينة. فقد جاء في رواية «اذا جاء الربيع واللبن كتب لكل قوم بربيعهم، ولبنهم الى حيث احبوا، وكانت القرى التى ياخذ فيها عظمهم منوف، ودسنبدس، واهاس، وطحا..»(٧٠). وكان عمرو يقوم باسكان العرب المهاجرين الى مصر خلال ولايته سواء جاؤوا من الجزيرة او من الشام مثل بلى اخوال ابيه (٧١).

٨ ــ عمرو في التاريخ :

(أ) خلقته وخلقه : ــ وصف عمرو بانه كان قصيرا عظيم الهامة ناتىء الجبهة، واسع الفم، عظيم اللحية، عريضا ما بين المنكبين، عظيم الكفين والقدمين.

وعن الليث بن سعد انه «يملأ هذا المسجد» يريد ضخامة وهيبة (٧٢). ووصفه واصف اثناء ولايته على مصر وقد ارتقى المنبر قال فرايت «رجلا ربعه قصير القامة، وافر الهامة، ادعج أبلج، عليه ثياب مرشية كأن به العقبات تأتلق عليه حلة وعمامة وجبة..» (٧٣).

وقد حاول بعض المعاصرين ان يربط بين خلقته هذه ونسبه المطعون من جهة أمه في دفع عمرو الى التعويض بقوله «اذا جاز ان يكون لهذا التكوين الجسدى أثر في اخلاقه ودخائل طبعه فذلك اثر آخر يعين اثر النسب المغموز من جانب أمه وهو التماس التعويض» لكل ما في النفس من حول وحيلة وحفز الهمة الى مكان يسطع فيه المرء سطوعا يدارى المغمز في النسب والنقص في المظهر فيروع القلب بالسطوة والشارة اذا اجترأت عليه العيون أول نظرة أو اجترأت عليه الالسنة بالقلب والمهانة. رجل متهم بالنسب قصير، ولكن لا يضار بذلك في مقام الفخر بين ذوى الحسب والبسطة من عظماء الرجال» (٧٤).

وعرف عنه الأدب ونظم الشعر وسعة العقل، وقد وصفه قبيصة ابن جابر بقوله: «وصحبت عمرو بن العاص فما رأيت رجلا افصح او قال: ابين طرفا ولا احلم جليسا منه..» (٧٥).

وشاع عنه انه رابع أربعة عدوا من دهاة العرب وهم «معاوية للروية، وعمرو بن العاص للبديهة والمغيرة للمعضلات، وزياد لكل صغيرة وكبيرة»، اى ان عمرا كما يرى العقاد كان يصدر عن وحي العبقرية في حين كان معاوية صاحب عقل يصدر عن مران ويقتبس مما تمثلت أمامه من قدوة الآباء، كما ان عمرا كان مضطرا الى الوثوب والاقتحام لانه لن يفتح له باب بغير اقتحام. اما معاوية ففي موضعه وانتظار ساعته على هينة ووثوق.

وان البديهة من أعمال عمرو كثيرة تلازمه في جميع حالاته تذكيها المأزق الحاضرة ولا تخمدها الطمأنينة والامان(٧٦). فمن هذا القبيل انه شاع بين عرب الشام ان القائد البيزنطى (اريطون) او الارطون كما يسميه العرب صاحب دهاء ومكر. وكان في فلسطين اثناء حركة التحرير فلما تقدم نحوه عمرو لتحرير اجنادين وبقية مدن فلسطين وصل الخبر الى الخليفة عمر بن الخطاب، فأجاب «قد رمينا ارطبون الروم بارطبون العرب انظروا عما تنفرج» ثقة منه بان عمرا اقدر على رد حيل وخداع ارطبون الروم (٧٧).

ب ــ بين عمرو والخلفاء :

اختلفت الروايات في أمر اسناد تحرير مصر الى عمرو بن العاص ففي بعضها ان الاقتراح من عمرو اثناء وجود الخليفة عمر بن الخطاب بالجابية مجتمعا مع القادة العرب لوضع الخطط المستقبلية لادارة بلاد الشام وتقرير امر الجيوش، وفي بعضها ان عمرا سار دون علم الخليفة وانه لم يعلم به الا بعد ان قطع شوطا من الطريق فأرسل اليه رسالته المشهورة التى روتها كتب التاريخ(٧٨)، التىتنص على عودة عمرو عن مصر اذا وصلته الرسالة ولم يكن قد دخلها بعد وان يمضى قدما ان وصلته وهو داخل حدودها. فهناك من المؤرخين من اعتبر هذه الرسالة مجرد خرافة لانها تفترض جهل العرب بما عليه مصر من الثروة والخصب وما حل بساحتها من خلافات دينية بين حكامها الروم والمصريين وما تبع هذا الخلاف من اضطهاد ديني، فضلا عن الضرائب الثقيلة التى كان الشعب المصرى يئن من ثقلها. كما ان الايمان بصحة هذه الرسالة يفترض جهل العرب مرة اخرى بضرورة تحرير مصر اتقاء لخطر الروم ولتأمين السلامة على ربوع الشام. وان القبط سوف يقفون منهم موقف المحايد ان لم يصبحوا عونا لهم على الروم (٧٩).

وفي بعض الروايات ان الخليفة عمر بن الخطاب كتب الى عمرو بعد اتمام فتح الشام ان يندب الناس للمسير الى مصر، وتمضى الرواية لتقول ان عثمان بن عفان لما سمع بذلك جاء الى الخليفة عمر وقال له «يا أمير المؤمنين ان عمرا لمجرؤ فيه اقدام وكسب للامارة فاخشى ان يخرج في غير ثقة ولا جماعة فيعرض المسلمين للهلكة رجاء فرصة لا يدرى تكون أم لا». وان الخليفة عمر قدم على ذلك وكتب رسالته التى اشرنا اليها، الا ان عمرا لم يفتحها حتى دخل مصر(٨٠).

وكان الخليفة يتابع تقدمه أسوة ببقية ولاته على الامصار فكان يمده عند الحاجة كما حصل في بابليون وفي حصار الاسكندرية ثم كان يراقب تصرفاته اثناء ولايته. ويبدو ان الخليفة شعر بتأخير موعد الخراج وشك بتصرف واليه وان يكون قد اخذ شيئا لنفسه فارسل اليه

جملة كتب يسأل عن سبب تأخيره وقد ناقشه عمرو وحاول تبيان اسلوب الجباية ومواعيدها بالنسبة للسنة الزراعية في مصر (٨١). ثم نرى الخليفة بعد فترة يرسل اليه محمدا بن مسلمة الانصاري احد الصحابة ممن شهدوا بدرا وتحرير مصر ليحصى امواله ويقسمها فيعطي لعمرو ما يستحقه كأمير على بلاد مصر ويرجع الباقي الى بيت مال المسلمين(٨٢). وكانت هذه سنة اتبعها عمر مع ولاته فقد ارسل من قاسم اموال ابى هريرة واليه على البحرين، والنعمان بن بشير واليه على حمص (٨٣).

ومما لاشك فيه فان عمرا لم يكن يجرؤ ان يتصرف تصرفا يغضب الخليفة عمر بن الخطاب فانه يعلم أنه يحاسب في مأكله وملبسه وعدله فيمن معه من الجند فمن مجاراته للخليفة انه قدم عليه في المدينة (للمرة الثانية) زائرا فوجده يأكل ومعه بعض اصحابه وامامهم ثريد فما كان من الخليفة الا ان غرف بيده ثريدا وناوله لعمرو فاخذ هذا الثريد باليسرى وجعل يأكل باليمنى فلما خرج من عند الخليفة سأله من جاء معه لِمَ فعلت هذا. فقال: «ان الخليفة ليعلم ان عندى من الطعام ما هو أفضل من الثريد ولكن اراد ان يمتحنني فلو لم افعل ما رأيت للقيت منه شرا».

الا ان الروايات التى تظهر رضا الخليفة عن واليه كثيرة مما يدل على ان عمرا كان ناجحا في ادارته لمصر كنجاحه في قيادته الجيوش، فمن ذلك قول الخليفة «ما ينبغي لعمرو ان يمشي على الارض الا اميرا» (٨٤).

وكان الخليفة اذا استضعف رجلا في رايه وعقله قال: «اشهد ان خالقك وخالق عمرو واحد» يريد خالق الاضداد (٨٥).

وكان خلال وجوده بمصر يرسل الى الخليفة بالطعام ليوزع على سكان الحجاز وقد ارسل في احدى السنين طعاما كثيرا جعل الخليفة يعمد الى تأليف لجنة من (عبدالرحمن بن عوف، والزبير بن العوام، وسعد بن ابى وقاص) لتقسيمها على الناس. فكانوا يدفعون الى كل أهل بيت بعيرا بما عليه من طعام. فوسع الله على الناس (٨٦).

ولقد احتج عمرو برضا الخليفة عمر لما اختلف مع الخليفة عثمان فاخبره بان عمرَ مات وهو عنه راضٍ. وانا لنعلم ان الخليفة ابابكر (رض) مات وهو عنه راضٍ.

وكذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم قبله راضيا عنه كما ورد في الحديث «عمرو بن العاص من صالحي قريش» (٨٧).

اما ما حدث بينه وبين الخليفة عثمان فانه بعد ان تولى في عهده سنتين عزله عن مصر وقد اسلفنا القول في اختلاف الروايات حول عزله، الا انه لم يكن بسبب غنى عمرو واستغلال مركزه ودليلنا على ذلك ان عمرا شكى الحاجة بعد عزل عثمان له بأقل من عام فقال له عثمان لما بلغه من تحريضه عليه «ما اكثر ما تحمل خبر بان جبتك - اى طوق جبتك - وانما عهدك بالعمل عاما اول»(٨٨). واذا كان عمرو قد جنى مالا فان ذلك في عهد معاوية كما سيأتى في بيانه. والمهم في الامر ان عمرا ظل حاقدا على عثمان يحرض جنده عليه الى ان قتل.

وبعد قتله كان عمرو في مستقره بفلسطين يتابع الاخبار. الا انه لم يكن اثيرا عند الخليفة الراشد علي بن ابى طالب لذلك لم يرشحه لولاية مصر، فاستغل ذلك معاوية وتقرب اليه واستقدمه الى دمشق واتفق معه ان يوصله الى ما كان طمع اليه من ولاية مصر. فيقال ان معاوية تعهد ان يعطيه ولاية مصر طعمة له ما تبقى من حياته بعْدَ ان يعطى الجند وموظفي الادارة ما يستحقونه من عطاء وذلك لقاء وقوفه الى جانبه، وهكذا وجدناه كما اسلفنا القول القائد الحقيقي لمعركة صفين.

أما في عهد معاوية فيبدو انه أدار ولاية مصر بخبرته وفطنته فاثرى ثراء واسعا فخلف ٣٢٥،٠٠٠ ثلاث مئة وخمسة وعشرين الف دينار من الذهب والف درهم من الفضة، وغلة مائتى الف دينار بمصر وضيعة المعروفة بمصر بالوهط قيمتها ١٠،٠٠٠،٠٠٠ عشرة ملايين درهم (٨٩). اما الدميرى فقال بان عمرا خلف سبعين بهارا دنانير، والبهار من جلد الثيران قيل انه يسع اردبين (٩٠).

ج ـ قيـــادته الحـــربية :

بعد قيادة عمرو لمعركة ذات السلاسل، واشتراكه مع بقية القادة في تحرير الشام برزت شخصيته العسكرية الناجحة وزادتها شهرة تحريره لمصر وليبيا واصبح بامكان النقاد مقارنته بكبار القادة العالميين حيث امتلك الصفات العسكرية ممثلة في سعة اطلاعه وقد عرفناه تاجرا مسافرا وظهر هذا في معرفته لارض فلسطين ومصر وبراعة عسكرية كما بدت في انتصاره على مائة الف مقاتل من الروم بجيشه البالغ تسعة آلاف في معركة اجنادين في فلسطين ومعرفة اتجاهات العدو وغرضه من تحركاته لذلك وجدنا عمرا يقترح على قادة العرب في الشام توحيد جيوشهم وقيادتهم قبل معركة اليرموك، وتغيير مواضع الجيوش العربية وانزالها على طريق الروم في حين نزل الروم في «الواقوصة على ضفة نهر اليرموك من ارض حوران» فاصبح لهم وادى اليرموك بمثابة خندق لهذا قال عمرو عند ذاك «يا ايها الناس ابشروا.. حصرت والله الروم، وقل ما جاء محصور بخير» (٩١).

وبعد ان جعل الروم في موضع لا يفلتون منه دارت الدائرة عليهم ثم تسلل بقطعاته عبر صخور جبل العرب وكمن هناك خلف الروم على طريق انسحابهم الى دمشق (٩٢).

وكان يطبق فكرة التّماس بالقطعات ولعل هذه متأتية من جرأته التى اتصف بها، ففي «يوم العربة، حمل بنفسه وقتل قائد الروم بيده وفي حصار (اجنادين) اجتاز الاسوار وقابل قائد الروم (الارطبون) موهما اياه انه موفد من عمرو بن العاص. وكذلك فعل في حصار الاسكندرية اذ اجتاز اسوارها في أول التحام بحاميتها.

وكان من صفات القادة التى تحلى بها اصالة الرأى، وسرعة القرار، وكان يكره التردد والتأرجح. ويجيد حرب الدعاية وهذه احدى وسائله في صفين كما عرف عنه مخادعته الاعداء والايقاع بهم.

اما صفاته البدنية فقد مرت بنا فهو من المعمرين وذوى، البنية القوية مما امكنته خوض المعارك والصبر على القتال امام جنده رغم علو سنه فقد قاد معركة ذات السلاسل وعمره في الخمسين. وكان في معركة اجنادين في الواحدة والستين وفي اليرموك في الثانية والستين وفي معارك مصر قد جاوز الخامسة والستين.

اما طريقة عمرو في ادارة المعارك فكانت تعتمد المباغتة، وسرعة الحركة والحيلة والتجديد في الخطط، وخلق المواقف الجديدة للعدو (٩٣).

ان اجماع المؤرخين قديما وحديثا على عبقرية عمرو العسكرية والتى تكللت بالنجاح وكانت من ثمراتها تحرير فلسطين ومصر وليبيا، وهى بلاد لم يفتح اوسع منها قائد عربى آخر، وعلى يديه انتشر

الاسلام في هذه الاقطار الثلاثة وتم انتشالها من ظلم الروم.
كما ان التاريخ يذكر لعمرو دهاءه الفذ وادارته الحكيمة للبلاد التي كان يحكمها فضلا عن جهاده وتحريره البلاد التي أشرنا اليها (٩٤).

هوامش

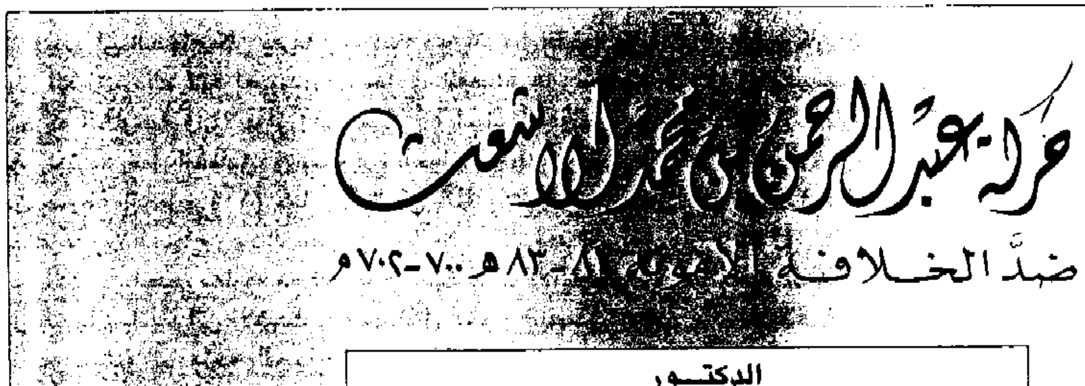
١ ـ ابن عبدالبر الاستيعاب ٣ ١١٨٤ ، ١١٨٥ .
٢ ـ العقاد . عمرو بن العاص ٦
٣ ـ سورة الكوثر (١٠٨/٣) .
٤ ـ البلاذري انساب ١ . ١٣٨
٥ ـ ابن عبد البر الاستيعاب ٣ ١١٨٥
٦ ـ البلاذري انساب ١ ١٢٨
٧ ـ ابن عبد البر الاستيعاب ٣ ١١٦١ . ابن الاثير : **اسد الغابة** ٣ : ٥٤٠٢ ـ ٤ ٨٣
٨ ـ ابن عبدالبر ٣ . ١١٨٨
٩ ـ ن . م : ٢٢٢ . ٣٣٤
١٠ ـ البلاذري انساب ١ ٢٨٨
١١ ـ ن م : ٣١٢
١٢ ـ ن م ٣١٣ . ٣١٦
١٣ ـ الطبرى ٣ ٣٠
١٤ ـ البلاذري . ٢١٥ . الطبرى ٣ ٣١ وانظر ابن عبدالبر : **الاستيعاب** ٣/١١٨٤ ـ ١١٨٥
١٥ ـ البلاذري انساب ١ ٣٨٠ ، الطبرى ٣ ٥٢٢ ابن عبدالبر : **الاستيعاب** ٣ : ١١٨٦
ان المصادر باستثناء ابن عبدالبر ، جعلت المهتمين المشار اليهما مهمة واحدة في حين كانت تواريخهما مختلفة وغرضهما مختلف
١٦ ـ محمد فرج شخصيات عسكرية اسلامية ٢٣٢
١٧ ـ ابن هشام السيرة مجلد ٢ ٦٠٧ ، ابن عبدالبر ، **الاستيعاب** ٣/١١٨٧
١٨ ـ الطبراني ، المعجم الكبير ١ ٧٤ ـ **ورواة الترمذي** ٣٩٢٤ ، واحمد ١ : ١٦١
١٩ ـ الخفش : بيت صغير ينفرد فيه النساء
٢٠ ـ رفيق العظم اشهر مشاهير الاسلام ٦٨ ـ ٧٠
الواقدي فتوح الشام ومصر ٤ ، ١٩ وانظر :
٢١ ـ العقاد عمر بن العاص (ص) ٢١ ٢١١ ـ نقلا عن مجلة المشرق اليسوعية السنة الثانية
٢٢ ـ ابن عبدالحكم ٥٣ ، ٥٧
٢٣ ـ الدكتور زكي محمد حسن من مصر الاسلامية ـ **المقدمة** ص ٢
٢٤ ـ العقاد عمرو بن العاص ١٩٠
٢٥ ـ البسوي المعرفة والتاريخ ١ ٢٧٩ ابن الاثير . **اسد الغابة** ٢ : ١٩٦
٢٦ ـ البسوي المعرفة والتاريخ ١ ٢٦٦
٢٧ ـ ابن عبدالحكم فتوح مصر ، ٤٥ . ٤٦
٢٨ ـ ابن الاثير : اسد الغابة ١ ٣٨ المقريزى . **الخطط** ١/١٢٥ ـ ١٢٩
٢٩ ـ ابن عبدالحكم فتوح ٥٨ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣
٣٠ ـ اسماعيل ابو العيشية مصر الاسلامية ٠٦
٣١ ـ العقاد ١٠٤ ، صالح مهدي عماش : القيادة الناجحة : ٣٥ ، ٣٧
٣٢ ـ محمد عبدالله عنان مصر الاسلامية . ٧٩ سعد زغلول عبدالحميد : الفتح العربي بالاسكندرية ٢٢٢١
٣٣ ـ اسماعيل ابو البني مصر الاسلامية ٢ ـ ٤
٣٤ ـ سعد زغلول : الفتح العربي بالاسكندرية ٢٢٢١
٣٥ ـ انظر محمود شيت خطاب قادة فتح الشام ومصر . ١٦٢
٣٦ ـ تبلر فتوح العرب لمصر ٢٧٥
٣٧ ـ ابن عبدالحكم فتوح مصر ١٧٠
٣٨ ـ ن م : ١٧٢ ـ ١٧٣
٣٩ ـ ابن عبد البر الاستيعاب ٢ : ٩١٨ ـ ٩١٩
٤٠ ـ الطبرى ٤ ٢٥٦
٤١ ـ هكذا اوردها ابن عبد الحكم ص ١٧٤ (الأوساد) ، والأرجح انها كورة الأوسية وهي كورة تابعة لمصر مثل ليبيا انما وردت هكذا ، كورة لوبيا ، كورة الأوسية كما وردت عند الجغرافيين ابن خرداذبه المسالك والممالك ٨٢ ط اوروبا ، ياقوت الحموى . البلدان ١ ٢٨١
٤٢ ـ ابن عبدالحكم فتوح ١٧٣ وانظر الطبرى ٤ : ٢٥٣
٤٣ ـ ن م : ١٧٨ وانظر العقاد عمرو ٢٤٦
٤٤ ـ ابن عبدالبر الاستيعاب ٣ ١١٨٧
٤٥ ـ صالح مهدي عماش القيادة الناجحة ١٥
٤٦ ـ في بعض الروايات انه حاول حصول اقرار ممثل الخليفة علي (ابو موسى الاشعري) لاهليته هو بالاخلافة فلما فشل حاول ترشيح ابنه ففشل ايضا
٤٧ ـ ابن الأثير اسد الغابة ٤ ١١٧
٤٨ ـ ابن عبدالبر : الاستيعاب ١١٨٧
٤٩ ـ انظر احمد ممدوح حمدي . عواصمنا الاسلامية قبل القاهرة ١٩٧
٥٠ ـ ابن عبدالحكم فتوح ٩٢ . ٩٦
٥١ ـ وردت من كتاب مصر الاسلامية وتاريخ الخطط حيويل ناشرة . وما اثبتناه من ياقوت الحموى معجم البلدان ٤ ٢٦٤ ط بيروت
٥٢ ـ القضاعي نقلا عن المقريزى الخطط ٧ ٥٢ ط أوربا
٥٣ ـ ابن عبدالحكم فتوح مصر ٩٦
٥٤ ـ محمد عبدالله عنان مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية ١٣
٥٥ ـ المقريزى الخطط ٧ . ٢
٥٦ ـ بتلر فتوح العرب لمصر . ٢٩١ . ٢٩٢
٥٧ ـ ابن عبدالحكم ١٥١
٥٨ ـ جاستون فييت : المواصلات في مصر في العصور الاسلامية ٣٥ ، عبد الرحمن زكي عواصم مصر الاسلامية ١٠١
٥٩ ـ ابن عبدالحكم ١٥١
٦٠ ـ ابن عبدالحكم فتوح ١٢٣
٦١ ـ وهشام بن عمرو هو الذى كان قد قام بنقض الصحيفة التي كتبتها قريش على بني هاشم ـ ابن عبدالحكم : ١٠٥ . ٢٣٣
٦٢ ـ ابن عبدالحكم ١٠٠
٦٣ ـ ابن عبدالحكم ١٤٠
٦٤ ـ ن م : ١١٢
٦٥ ـ ن . م ١١١
٦٦ ـ ن . م ١٢٤
٦٧ ـ ن . م ١٢٣
٦٨ ـ ابن عبدالحكم : فتوح مصر ١٠٨
٦٩ ـ ابن عبدالحكم فتوح ١٣٠ . ١٤١
٧٠ ـ ابن عبدالحكم فتوح ١١٣ . ١١٦
٧١ ـ ابن عبدالحكم فتوح ٥٨
٧٢ ـ ن م ١٤٠ (العقيان الذهب الخالص ، الدعج شدة سواد العين مع سعتها ، الأبلج المضيء المشرق)
٧٣ ـ العقاد عمرو ٣٦ ، (٢) النسوي المعرفة والتاريخ مجلد ١ ، ص ٦ ١
٧٤ ـ ابن عبدالبر : **الاستيعاب** ٣ ١١٨٨ ، العقاد عمرو ٤٥ ، ٤٧
٧٥ ـ الطبرى ٣ ٦٠٥
٧٦ ـ ابن عبدالحكم فتوح ٥٦ ، ٧٧٢
٧٧ ـ الدكتور زكي محمد حسن في مصر الاسلامية (المقدمة ص ب)
٧٨ ـ ابن عبدالحكم فتوح . ٥٧
٧٩ ـ ن م ١٥٨ ـ ١٦١
٨٠ ـ ن م ٩٣
٨١ ـ ن م : ١٤٦ ـ ١٤٧
٨٢ ـ ابن عبدالحكم فتوح مصر ١٧٩
٨٣ ـ ابن عبدالبر الاستيعاب ٣ ١١٨٨
٨٤ ـ ابن عبدالحكم فتوح مصر : ١٦٢ ، ١٦٣ . ١٦٥
٨٥ ـ الطبراني : المعجم الكبير ١ ٧٤ . ورواه الترمذي ٣٩٣٤ . واحمد ١ ١٦١
٨٦ ـ انظر العقاد عمرو ١٧
٨٧ ـ المسعودي) ملاوج ٣ ٢٣
٨٨ ـ العقاد ٣١
٨٩ ـ الطبرى ٣ ٢٩٣ صالح مهدي عماش / القيادة الناجحة ١٣ ، ١٤ ، ٨ ، ٢٧ ، ٣٣ . ٣٤ ، ٦٣ ، ٧٠
٩٠ ـ محمد فرج : شخصيات عسكرية اسلامية
٩١ ـ صالح مهدي عماش ٣٥ ـ ٣٧
٩٢ ـ محمود شيت خطاب قادة فتح الشام ومصر ١٦٢ ، وانظر محمد فرج شخصيات عسكرية اسلامية .

مصـــادر ومراجـــع البحـث

ابن الاثير عز الدين ابو الحسن علي بن محمد الجزري (ت ٦٣٠ هـ/١٢٣٢م) اسد الغابة في معرفة

الصحابه ـ ٥ اجزاء سنة ١٣٧٧ هـ.
احمد ممدوح حمدي: عواصمنا الاسلامية قبل القاهرة ـ ابحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ـ مطبعة دار الكتب ١٩٤٩ ـ ١٩٧٠م
اسماعيل ابو العينين : مصر الاسلامية
البلاذري : احمد بن يحيى (ت ٢٧٩ هـ/ ٨٩٢م). انساب الاشراف ـ ج/١ تحقيق الدكتور محمد حميد الله ـ دار المعارف بمصر.
بتلر : الدكتور الفرد ج.
فتح العرب لمصر ـ تعريب محمد فريد ابو حديد. مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٣٥١ هـ/ ١٩٣٣م
الزاوي الطاهر احمد
تاريخ الفتح العربي في ليبيا ـ ط/ ٣ دار الفتح ـ دار التراث العربي ليبيا ١٩٦٩م
زكي محمد حسن: الدكتور واخرون
في مصر الاسلامية ـ مطبعة المقتطف والمقطم ١٩٣٧م.
سعد زغلول عبدالحميد: الدكتور
الفتح العربي للاسكندرية ـ في كتاب تاريخ الاسكندرية وحضارتها منذ اقدم العصور ١٩٦٣م
صالح مهدي عماش: الفريق الركن
القيادة الناجحة ـ مطبعة الحكومة ـ بغداد ١٣٩٠ هـ/ ١٩٧٠م
الطبراني: الحافظ ابوالقاسم سليمان بن احمد (ت ٣٦٠ هـ/ ٩٧٢م) المعجم الكبير ـ حققه وخرج احاديثه حمدي عبدالمجيد السلفي. وزارة الاوقاف العراقية.
الطبري : ابوجعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ/ ٩٢٢م) تاريخ الرسل والملوك ـ ١٠ اجزاء تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم دار المعارف بمصر ١٩٦٠ ـ ١٩٦٩م
ابن عبدالبر ابو عمر يوسف بن عبدالله (ت ٤٦٣ هـ/ ١٠٧٠م) الاستيعاب في معرفة الاصحاب ـ اربع مجلدات ـ تحقيق علي محمد البجاوي ـ مكتبة نهضة مصر ومطبعتها ١٣٨٠ هـ/ ١٩٦٠م.
ابن عبدالحكم : ابو القاسم عبدالرحمن القرشي المصري (ت ٢٥٧/ ١٩٧١م) فتوح مصر واخبارها ـ ليدن ـ ابريل ١٩٢٠م
العقاد عباس محمود ـ عمرو بن العاص ـ مكتبة دار العروبة
النسوي . ابو يوسف يعقوب بن سفيان (ت ٢٧٧ هـ ٨٩٠م) المعرفة والتاريخ ـ ٣ مجلدات تحقيق الدكتور اكرم ضياء العمري. مطبعة الارشاد ـ بغداد ١٣٩٤ هـ/ ١٩٧٤م ـ ١٣٩٦ هـ/ ١٩٧٦م
محمد عبدالله عنان: مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية ـ ط ٢ مكتبة الخانجي القاهرة ١٩٦٩م/ ١٣٨٨ هـ
محمد فرج : شخصيات عسكرية اسلامية ـ دار الفكر العربي ١٩٧٤م
محمود شيت خطاب/ اللواء الركن : قادة فتح الشام ومصر ـ دار الفتح ـ بيروت ١٣٨٥ هـ/ ١٩٦٥م
المسعودي . ابو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦ هـ/ ٩٥٧م) مروج الذهب ومعادن الجوهر ـ اربع مجلدات ـ دار الاندلس ـ بيروت ١٣٨٥ هـ/ ١٩٦٦م
المقريزي : تقي الدين احمد بن علي (ت ٨٤٥ هـ/ ١٤٤١م) الخطط ـ ٧ مجلدات باعتناء ام جاستون فيت ١٩١٠م
ابن هشام . عبدالملك بن هشام (ت ٢١٣ هـ/ ٨٢٥م) السيرة النبوية ـ تحقيق مصطفى السقا، وابراهيم الابياري، وعبدالحفيظ شلبي ـ مطبعة البابي الحلبي، القاهرة ١٣٧٥ هـ/ ١٩٥٦م
الواقدي : ابو عبدالله محمد بن عمر المدني ٢٠٧ هـ/ ٨٢٢م، فتوح مصر والاسكندرية ـ طبع في بيروت ١٢٤١ هـ/ ١٨٢٥م باعتناء هنريك اندهمقر
ياقوت الحموي : شهاب الدين ابو عبدالله الرومي البغدادي (ت ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٩م) معجم البلدان ـ ٥ مجلدات ط بيروت ١٣٩٧ هـ/ ١٩٧٧م.





حركة عبدالرحمن بن محمد الاشعث ضد الخلافة الاموية ٨١-٨٣ هـ ٧٠٠-٧٠٢ م

الدكتـــور
محمد جاسم حمادى المشهدانى
قسم الدراسات التاريخية ـ معهد الدراسات القومية والاشتراكية الجامعة المستنصرية

تعد حركة عبدالرحمن بن محمد الاشعث من الحركات السياسية الكبيرة التى اجتاحت العراق، والجناح الشرقى من الخلافة الاموية، وتعد من بين الحركات الخطرة التى كادت ان تعصف بالخلافة الاموية، حيث ارعبت الخليفة الاموى، ومن الملفت للنظر انضمام مجموعات كبيرة من الاعاجم الى هذه الحركة في محاولة جادة لاسقاط الخلافة الاموية، وتقويض السيادة العربية، كما ابرزت الاحداث الدور القيادى الجيد الذى سلكه الحجاج في معالجة الأمور والقضاء عليها، والمتابعة الدقيقة للأمور ومجرياتها من قبل الخليفة الاموى عبدالملك بن مروان.

وقد قسمت الموضوع الى عدة مباحث وعلى الوجه الآتى:

اولا : شخصية عبدالرحمن بن الأشعث، وعلاقته بالحجاج بن يوسف الثقفى.

ثانيا : عبدالرحمن بن الاشعث في سجستان.

ثالثا : ابن الاشعث يعلن عن حركته المعارضة للخلافة الأموية سنة ٨١ هـ.

رابعا : معركة روستقباذ في الاحواز سنة ٨١ هـ.

خامسا : عبدالرحمن بن الاشعث في مدينة البصرة.

سادسا : معركة الزاوية سنة ٨١ هـ في البصرة.

سابعا : ابن الاشعث في مدينة الكوفة.

ثامنا : معركة دير الجماجم واندحار ابن الاشعث.

تاسعا : معركة مسكن وانهزام ابن الاشعث ومصيره ومصير انصاره.

اولا : «شخصية عبدالرحمن بن محمد الاشعث وعلاقته بالحجاج بن يوسف الثقفى»

أ ـ شـخصيته :

اختلفت آراء العلماء في تسمية ابيه وجده، فابن سعد (ت، ٢٣٢) والنسائى (ت، ٣٠٣) وابن حزم (ت، ٤٥٦) يذكرون ترجمته على الوجه الآتى :

هو «عبدالرحمن بن محمد بن الاشعث بن قيس». اما ابو داود (ت، ٣٥٤) وابن ابى حاتم الرازى (ت، ٥٧٥) والذهبى (ت، ٧٤٨) وابن حجر العسقلانى (ت، ٨٥٢) فانهم يذكرون ترجمته على النحو التالى: «عبدالرحمن بن قيس بن محمد بن الاشعث» ويؤكد ابن حجر بان هذا الرأى «هو الصواب» اما البسوى (ت، ٣٧٨) فيروى بانه: «عبدالرحمن بن محمد بن قيس بن محمد بن الاشعث» (١).

واننا نرجح رأى ابن سعد (ت، ٢٣٣) لكونه عالما بالانساب، ومختصا فيها، ولثقته الكبيرة، ولتأكيد النسائى (ت، ٣٠٣) على رأى ابن سعد، وكذلك ابن حزم عالم الانساب في قبائل العرب، ومعرفته بتفاصيل اخبارهم، وتتبع سير رجالهم، ولشيوع استخدام هذه التسمية في المصادر التاريخية والادبية.

وينتسب عبدالرحمن بن محمد الاشعث الى قبيلة كندة العربية، ونسبه ابن حزم قائلا «هو عبدالرحمن بن محمد بن الاشعث بن قيس بن معد يكرب بن معاوية بن جبلة بن عدى بن ربيعة بن معاوية بن الحارث بن معاوية بن ثور بن مرتع بن معاوية بن كندة» (٢). اما سبب شيوع لقب الاشعث عليه فذلك نسبة «لشعث الرأس» (٣) وكان يسكن احدى قرى آل الاشعث الى جانب الكوفة (٤).

وروى حديثا واحدا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك عن أبيه عن جده عن عبدالله بن مسعود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في البيعان والسلفه، كما انه روى عنه ابو العميس (٥).

وكان ابن الاشعث كما يروى البلاذرى (ت، ٢٧٩) «معجبا عظيم الكبر»، وقال ابن قتيبة، كان «جميلا بهيا منطقيا، مع ما كان له من التقدم والشرف، فازهاه ذلك وملأه كبرا وفخرا وتطاولا...» (٧).

ب ـ علاقته بالحجاج بن يوسف الثقفى وولايته على سجستان :

تزوج الحجاج بن يوسف اخته ميمونة بنت محمد بن الاشعث رغبة في شرفها، مع ما كانت عليه من جمالها وفضلها، واراد بذلك استمالة اهلها وقومها الى مصافاته ليكونوا له يداً على من ناوأه، كما يذكر ذلك ابن قتيبة، ولذلك فان الحجاج قرب عبدالرحمن اليه «فالزمه بنفسه والحقه بأفاضل اصحابه وخاصته وأهل سرّه واجرى عليه العطايا الواسعة صلة بصهره وحبا لاتمام الصنيعة اليه، والى جميع أهله».

ويبدو ان الحجاج كان يعرفه بشجاعته وجرأته قبل قدومه والياً على العراق، ذلك لانه لعب دوراً مهماً في القضاء على معارضة الحركة الخارجية في الاحواز (٩)، حتى انه استهزأ بقوتهم، ولم يأمر جنوده بعمل الخنادق، ووصف قوة الخوارج بقوله: «أهون عليَّ من ضرطة الجمل» (١٠) كما يلاحظ ان الثقة كانت فيما يبدو متزعزعة بين الحجاج وعبدالرحمن بن الاشعث، وذلك بعد ان خسر ابن الاشعث احدى معاركه مع الخوارج، حيث كانت الانباء تتوارد الى الحجاج باتهام ابن الاشعث بانه لم يقاتل الخوارج بصدق حيث انكسر جيشه ثم منحه الحجاج العفو والأمان.

ويروي ابو مخنف (ت. ١٥٧) وعوانة بن الحكم الكلبي (ت. ١٤٧) «بان الحجاج كان مبغضا لعبدالرحمن بن محمد بن الاشعث، وكان عبدالرحمن رجلا معجبا ذا نخوة وابهة، وكان الحجاج يقول: ما بالعراق رجل ابغض إليَّ منه، وما رايته قط ماشيا او راكبا الا احببت قتله»، وكان عبدالرحمن يقول: «ما رايت قط أميرا فوقي الا ظننت اني احق بأمرته منه» (١١)، ويروي عامر الشعبي بانه كان يوما عند الحجاج، اذ دخل عبدالرحمن بن محمد بن الاشعث يتمشى فقال: «انظروا الى مشية المقيت والله لهممت ان اضرب عنقه، فلما سلم عليه قال: انك لمنظراني، قال: ومخبراني اصلح الله الامير ثم جعل يقول انا منظراني، انا منظراني» (١٢) وعندما حدث عامر الشعبي عبدالرحمن بن الاشعث بما قاله الحجاج، قال عبدالرحمن «.. والله لاحاولن ازالة سلطانه ان طال لي وله عمر» (١٣)، وفي رواية ان الحجاج كان اذا رآه مقبلا يقول: «اما والله يا عبدالرحمن انك لتقبل عليَّ بوجه فاجر، وتدبر عني بقضاء غادر، وايم الله لتبتلين حقيقة امرك على ذلك» (١٤).

ولذلك نرى ان جوهر العلاقة بينهما كان سيئا، ولذلك اراد الحجاج ان يبعده خارج الكوفة، لمقاتلة الخارجين على الخلافة الاموية املا في ان يحقق ما يمكن تحقيقه في مواجهة المعارضين، والمعادين للخلافة خاصة وانه ربما كان يخشاه بسبب جرأته، وشدته وشجاعته، وقد صادف قرار تولية الحجاج له على سجستان (١٥) معارضة شديدة من قبل عمه اسماعيل بن الاشعث الذي اشار على الحجاج ان لايولي عبدالرحمن وقال للحجاج: «انني والله اخاف خلافة والله ما جاء جسد الفرات قط فرأى ان لا أحد عليه سلطانا، فقال ليس هناك اني لست كاولئك هو لي اهيب، وفيما لدي ارغب من ان يخالفني او يخرج يدا من طاعتي» (١٦) وفي رواية انه قال للحجاج: «اصلح الله الأمير أنا اعلم به منك، فانك به غير عالم، ولقد أدبته بكل أدب، فأبى ان ينهى عجبه بنفسه، ونحن نتخوف ان يفتق بنا فتقا، او يحدث حدثا يصيبنا فيه منك ما يسوءنا، فقال الحجاج: كما قلتم والراى كما رايتم، ولقد استعملته على بصيرة فان يستقم فلنفسه نظر، وان يفترج سبيله عن بصار الحق يهدى ان شاء الله» (١٧)، ويعلل ابن قتيبة سبب تولية الحجاج له بقوله: «اراد ان يبتلي حقيقة ما يتفرس فيه الغدر والفجور، وان يبدى منه ما يكتم من غائلته، فكتب اليه عهده على سجستان» (١٨). وكان عبدالرحمن بن الاشعث منشغلا في قتال الخوارج في الوقت الذي قرر فيه الحجاج توليته على سجستان. وقرر الحجاج توليته خلفا لعبيدالله بن ابي بكرة والي سجستان الذي كان كما يصفه المهلب بن ابي صفرة للحجاج بقوله: «..هو اعلم بسجستان مني» (١٩)، وعندما قدم عبيد الله سجستان منعه رتبيل الاتاوة التي كان يؤتيها، فامره الحجاج بغزوه في أهل الكوفة والبصرة، وكان على أهل الكوفة شريح بن هاني الحارثي، الذي توغل في بلاد العدو اكثر مما كان يجب حتى قرب من مدينة كابل (٢٠). الامر الذي مكن رتبيل من مهاجمته، وبعث الى رتبيل يطلب منه الصلح، وقد اصاب الجيش العربي ضرر كبير بسبب وعورة المنطقة، فتوفي كثير منهم، فمات عبيد الله بن ابي بكرة كمدا، وكان قد استخلف ابنه ابا برذعة الذي بقي واليا على سجستان حتى قدوم عبدالرحمن بن محمد الاشعث (٢١). وقد ذكر ابو عبيدة معمر بن المثنى (ت.) بان الحجاج بن يوسف كان قد وجه هميان ابن عدي السدوسي الى كرمان، وجعله مسلحة فيها ليمد عامل سجستان والسند ان احتاجا الى مدد فعصى هميان ومن معه، فوجه الحجاج ابن الاشعث في محاربته فهزمه وانتصر عليه (٢٢).

وكان الحجاج قد جهز جيشا جرارا من اهل الكوفة والبصرة قوامه اثنا عشر الف وفي رواية عشرة آلاف مقاتل (٢٣)، رغم ان الطبري يرفع العدد الى عشرين الف من اهل الكوفة، وعشرين الف من اهل البصرة (٢٤)، وقد انتخبهم من اهل الجلد والقوة والهيئة، والعطاء، وجهزهم وقواهم (٢٥)، قال الطبري: «واعطى الناس اعطياتهم كاملة، واخذ الخيول الجيدة، والسلاح الكامل، واحسن الى الرجال الشجعان.. وانفق عليهم الفي الف سوى اعطياتهم» (٢٦)، وسمي هذا الجيش بجيش الطواويس (٢٧)، لتكامل اهبتهم وعدتهم ونبلهم وشجاعتهم (٢٨).

وقاد عبدالرحمن بن الاشعث هذا الجيش العظيم متوجها الى سجستان فوصلها في آخر سنة ٧٩ هـ/٦٩٨م، وذكر اليعقوبي، بان الحجاج استعمله على بست (٢٩)، والرخج (٣٠) اضافة الى سجستان (٣١).

ان قرار الحجاج بتولية عبدالرحمن بن الاشعث على سجستان ووضعه هذا الجيش الكبير تحت قيادته، كان قرارا غير موفقا، وذلك نظرا لانعدام الثقة بينهما منذ البداية، وعدم اهتمامه بنصيحة عمه اسماعيل بن الاشعث الذي اشار عليه بضرورة عدم توليته لعبدالرحمن، وعلق المؤرخ ابن قتيبة على تحرك جيش ابن الاشعث بقوله: «كان مصرا لخلع طاعة الحجاج» (٣٢).

ثانيا: عبد الرحمن بن الاشعث في سجستان:

دخلت القوات الاموية بقيادة عبدالرحمن بن الاشعث مدينة سجستان سنة ٧٩ هـ/٦٩٨م، والقى فيها خطبته المشهورة التي قال فيها: «ان الامير الحجاج ولاني ثغركم وامرني بجهاد عدوكم الذي استباح بلادكم واباد خياركم، فأياكم ان تخلف رجل منكم فيحل بنفسه العقوبة، اخرجوا الى معسكركم» (٣٣)، ولما علم الملك رتبيل بذلك كتب الى ابن الاشعث كتابا يعرض عليه الصلح والهدنة نصه: «انه ليست أمة من الامم اعظم في انفسنا ولا احق بالاجلال والاكرام والتبجيل عندنا منكم، وقد كان من مصاب اخوانكم ما علمتم، وما كان ذلك عن هوى مني ولا ارادة، وقد كنا صالحناكم على صلح فيما مضى، ولولا ان ابن ابي بكرة نقض وبدل لجرينا في

امره مجرانا في امر غيره، ونحن نسألك ان تصالحنا وتقبل منا ما كان غيرك ممن كان قبلك يقبله» (٣٤). ورفض عبدالرحمن عرضه، وارسل اخاه القاسم بن محمد على راس قوة كبيرة من الخيالة فنزل مدينة الرخج، ونزل عبدالرحمن في بست (٣٥)، وحققا انتصارات عظيمة فيهما على الفز، والخلخ، وحاربا من يلي تلك البلادمن ملوك الهند مثل رتبيل وغيره (٣٦).

ولم يفضل ابن الاشعث التوغل في بلاد رتبيل، وانما اراد ان يستولى على جزء منها، في كل عام حتى يستطيع القضاء عليه تدريجيا وفق ما يسمى حاليا بحرب الاستنزاف، وكان يطلع الحجاج على خططه هذه منذ البداية (٣٧). ويبدو ان ابن الاشعث قد ادرك خطورة توغله في المسالك الوعرة لاراضي رتبيل كما حصل لعبيد الله بن ابى بكرة وجيشه عندما اوغلوا في اراضي وعرة وسدت عليهم الطرق ولذلك فانه كتب الى الحجاج يعلمه بانه سوف لا يتوغل في بلاد رتبيل (٣٨). وقد استاء الحجاج من سياسة عبدالرحمن بن الاشعث وكتب اليه:

«أما بعد فان كتابك أتاني وفهمت ما ذكرت فيه، وكتابك كتاب امرىء يُحب الهدنة ويستريح الى الموادعة قد صانع عدوا قليلا ذليلا قد اصابوا من المسلمين جندا كان بلاؤهم حسنا وغناؤهم في الاسلام عظيما، لعمرى يا ابن أم عبدالرحمن انك حيث تكف عن ذلك العدو بجندى وحدي لسخي النفس عمن اصيب من المسلمين انى لم اعدد رأيك الذى زعمت انك رأيته رأى مكيدة، ولكن رأيت انه لم يحملك عليه الا ضعفك، والتياث رأيك فامض لما امرتك به من الوغول في ارضهم، والهدم لحصونهم، وقتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم» (٣٩). ثم اردفه بكتاب آخر جاء فيه: «اما بعد فَمُرْ من قبلك من المسلمين فليحرثوا وليقيموا، فانها دارهم حتى يفتحها الله عليهم» (٤٠)، ويبدو ان الحجاج اراد ان يتبع معهم سياسة التجمير في بلاد بعيدة نائية، حينما نص في كتابه على ان يحرثوا ويقيموا، وهذا أمر لايروق مطلقا للمقاتلة الذين تركوا ابناءهُم وزوجاتهم، ولذلك فان اجراءات ابن الاشعث كانت متوافقة ومتطابقة مع رغبة المقاتلين، ولذلك فانه اصر على موقفه في عدم التوغل الى المناطق البعيدة من بلاد رتبيل، ويبدو انه كتب للحجاج بذلك يخبره، الامر الذى أثار نقمة الحجاج عليه، فكتب اليه عدة كتب شديدة اللهجة منها ما نصه: «يا ابن الحايك الغادر كتابك اليّ كتاب رجل أحبَّ الهدنة والموادعة.. اني لم أعدد برأيك مكيدة ولكن ما عددته ضعفا وجبنا..» (٤١)، وهدده الحجاج بالعزل عن امارة سجستان حينما كتب اليه «اما بعد، فامض لما امرتك به من الوغول في ارضهم ، والا فان اسحاق بن محمد اخاك امير الناس فخلّه وماوليته » وفي رواية قال له في كتابه «ان انت توقفت عن المسير في بلاد العدو وليت اسحاق بن محمد بن الاشعث جندك وصيرتك من تحت يده، كبعض اهل المصر» (٤٢)، ويروى انه لما قرأ كتاب الحجاج قال: «أنا أحْملُ ثقل اسحاق، فعرض له، فقال لاتفعل، فقال: ورب هذا - يعنى المصحف - لئن ذكرته لاحد لاقتلنك..» (٤٣). وقد حسمت كتب الحجاج التهديدية هذه العلاقة المهزوزة بين الحجاج وبين ابن الاشعث، الامر الذى اغضب ابن الاشعث غضبا شديدا، فقال: «يكتب اليّ ابن ابي رغال، بمثل هذا الكتاب وهو والله الجبان وابوه من قبله».

وكان ابن الاشعث يستند في موقفه هذا على تأييد واسناد المقاتلين من جند الكوفة والبصرة، اضافة الى قوة اخرى كبيرة وصلته بقيادة الصباح بن محمد والقاسم بن محمد اخويه. وكانوا بطبرستان، اضافة الى قوة اخيه اسحاق بن محمد بن الاشعث التى وصلته.

ولذلك قرر ان يعلن عن حركته المعارضة للحجاج فجمع المقاتلين وخاطبهم قائلا :

«ايها الناس والله انى لكم ناصح ولصلاحكم محب، ولكم في كل ما يحيط بكم نفقة ناظر، وقد كان من رأى فيما بينكم وبين عدوكم رأى استشرت فيه ذوى احلامكم واولى التجربة للحرب منكم فاشاروا على بانكار ذلك وكراهيته اياه، وامرني ان اتوغل بكم تغريرا لجماعتكم كما غرر باخوانكم بالامس، فقالوا، لا بل نأبى على عدو الله امره ولانسمع له ولانطيع، فان ابن ابي رغال لايريد بنا خيرا، وعقد لمن وثق به رحل الوية..» (٤٤)، وفي رواية انه قال لهم «..وقد كان من رأى فيما بينكم وبين عدوكم رأى استشرت فيه ذوى احلامكم، واولي التجربة للحرب منكم فرضوه لكم رأيا ورأوه لكم في العاجل والآجل صلاحا، وقد كتبت الى اميركم الحجاج، فجاءني منه كتاب يعجزني ويضعفني ويأمرني بتعجيل الوغول بكم في ارض العدو، وهي البلاد التى هلك اخوانكم فيها بالامس، وانما انا رجل منكم امضى اذا مضيتم وأبى اذا أبيتم، فثار اليه الناس فقالوا : لا بل نأبى على عدو الله ولا نسمع له ولانطيع» (٤٥)، ولذلك كانت خطبة ابن الاشعث هذه قد رسمت الخطوط الاولى لحركة معارضة سياسية كبيرة ضد الخلافة الاموية، رغم انها لم تكن ظاهريا كذلك، وانما كان هدفها الاساسى هو القضاء على الحجاج بن يوسف الثقفى في العراق.

ثالثا : ابن الاشعث يعلن عن حركته المعارضة للخلافة الاموية سنة ٨١ هـ/ ٧٠٠ م

قرر ابن الاشعث قيادة الحركة المعارضة للحجاج وللخلافة الاموية بعد ان اطمأن الى موقف جنده، الذين ضجوا قائلين «لابل نأبى على عدو الله ولانسمع له ولانطيع» كما اعلن عدد من القادة العرب مساندتهم لحركة ابن الاشعث، وابرزهم عامر بن واثلة الكنانى الذى قال: «اما بعد فان الحجاج والله ما يرى بكم الا ما راى القائل الاول اذ قال لاخيه احمل عبدك على الفرس، فان هلك هلك وان نجا فلك، ان الحجاج والله ما يبالى ان يخاطر بكم فيقحمكم بلادا كثيرة اللهوب واللصوب، فان ظفرتم فغنمتم اكل البلاد وحاز المال، وكان ذلك زيادة في سلطانه وان ظفر عدوكم كنتم انتم الاعداء البغضاء الذين لايبالى عنتهم ولايبقى عليهم. اخلعوا عدو الله الحجاج، وبايعوا عبدالرحمن فانى اشهدكم انى اول خالع، فنادى الناس من كل جانب فعلنا فعلنا، قد خلعنا عدو الله»، ثم اعلن القائد عبدالمؤمن بن شبث بن ربعى التميمي فقال: «عباد الله انكم ان اطعتم الحجاج جعل هذه البلاد بلادكم ما بقيتم، وجمركم تجمير فرعون الجنود، فانه بلغنى انه اول من جمر البعوث، ولن تعاينوا الاحبة فيما أرى او يموت اكثركم، بايعوا اميركم

وانصرفوا الى عدوكم فانفوه عن بلادكم» (٤٦).

وقد ايد عبدالرحمن عدد من الرجال كعبدالرحمن بن ربيعة بن الحارث بن نوفل، وبنوه عون بن عبدالله، وعمرو بن موسى بن معمر ابن عثمان بن عمر، ومحمد بن سعد بن ابى وقاص، وبقية جند الكوفة والبصرة، وخاطبهم عبدالرحمن بن الاشعث قائلا : ماترون؟ قالوا: نحن معك فأطلع عدو الله وعدو رسوله» (٤٧)، وكتب عبدالرحمن بن الاشعث برسالة الى المهلب بن ابي صفرة الازدى يدعوه الى خلع طاعة الحجاج، فاجابه المهلب: «ما كنت لاغدر بعد سبعين سنة..» وقال لرسول عبدالرحمن: «قل له اتق الله في فناء المسلمين» (٤٨) وكان أهل الكوفة والبصرة قد ازداد حماسهم للانضمام الى حركة ابن الاشعث، لانهم كانوا في «..صبابة الى ابنائهم ونسائهم فليس شيء يردهم حتى يسقطوا الى اهليهم ويشموا اولادهم» (٤٩).

ومن العوامل المشجعة لابن الأشعث هو اسناد حركته من قبل الاعاجم من الموالى الذين انضموا اليه باعداد كبيرة جدا، املا في تحقيق ما كانوا يهدفون الى تحقيقه ضد السيادة العربية، خاصة وان الحجاج كان يترصد ويراقب حركاتهم وتصرفاتهم بدقة، ولذلك فانهم كانوا ناقمين على الامويين عموما وعلى الحجاج بصفة خاصة، وكان الشاعر اعشى همدان يسير بين يدى ابن الاشعث لما قرر التوجه الى العراق، وهو ينشد (٥٠).

شطت نوى من داره بالايوان ... ايوان كسرى ذى القرى والريحان
من عاشق امسى بزابلستان ... ان ثقيفا منهم الكذابان
كذابها الماضي وكذاب ثان ... امكن ربي من ثقيف همدان

كما ان الموالي كانوا ناقمين على الحجاج ذلك لان عماله قد كتبوا اليه «ان الخراج قد انكسر، وان اهل الذمة قد اسلموا ولحقوا بالامصار، فكتب الى البصرة وغيرها ان من كان له اصل من قرية فليخرج اليها فخرج الناس، فجعلوا يبكون وينادون يا محمداه، يا محمداه، يا محمداه ولايدرون اين يذهبون» (٥١)، ذلك لان الحجاج اراد ان يحد من نفوذهم في الامصارالعربية، ولذلك امر بارجاعهم الى قراهم، ليجعل من العراق معقلا للجيوش العربية.. ومن اجل الحفاظ على الاصالة العربية في الامصار العربية التى شيدت في العصور الاسلامية. وقد استغل الاعاجم كل مناسبة وحركة معارضة للخلافة الاموية ليعلنوا انضمامهم اليها املا في تقويض السيادة العربية خاصة وان الخلافة الاموية قد اتبعت سياسة عربية على النطاق المحلى والاسلامي.

وقد دعا ابن الاشعث كل العناصر للانضمام الى حركته من اجل تحقيق اهدافه ضد الخلافة الاموية، ولذلك انضم الى حركته الخوارج، والمرجئة، وغيرهم من المعارضين للخلافة الاموية. ولذلك بعد ان فشلت حركة ابن الاشعث كان الحجاج يسأل كل شخص من اتباع ابن الاشعث من الذين وقعوا في اسر القوات الاموية، قائلا لكل شخص منهم: «انت مؤمن ام كافر، ليعرف بذلك الخوارج من غيرهم» (٥٢) كما انضم الى حركة ابن الاشعث جماعة من طائفة القراء من أهل الكوفة والبصرة.

وبعد ان اطمأن ابن الاشعث الى موقف انصاره منه خاطبهم بقوله «تبايعون على خلع الحجاج عدو الله، وعلى نصرتى، وعلى جهاد عدوى معي حتى ينفيه الله من ارض العراق فبايعه الناس، ولم يذكر خلع عبدالملك اذ ذاك بشيء» (٥٣). وفي رواية كانت بيعته «على كتاب الله وخلع آية الضلالة وجهاد المحلين» (٥٤).

وبعد ان تمت مبايعة الجنده، قالوا له «تنصرف الى العراق فنخرج الحجاج عدو الله من العراق، فان جهاده اولى» (٥٥) ويلاحظ ان ابن الاشعث كان ذكيا في تصرفه في عدم اعلانه خلع الخليفة عبدالملك بن مروان، ولذلك «لم يذكر خلع عبدالملك اذ ذاك بشيء» (٥٦)، خاصة وان جند الكوفة والبصرة كانوا مستائين جدا من سياسة التجمير التى كان الحجاج قد انتهجها معهم. وبعد ان قرر ابن الاشعث التوجه الى العراق أقر على بست عياض بن هميان البكرى، من بنى سدوس بن شيبان بن ذهل بن ثعلبه، وعلى زرنج عبدالله بن عامر التميمى ثم الدرامى، وعلى كرمان حريثة بن عمر التميمى، ثم بعث الى الملك رتبيل فصالحه «على ان ابن الاشعث ان ظهر فلا خراج عليه ابداً ما بقى، وان هزم فاراده الجاه عنده» (٥٧)، وكان ابن الاشعث قد خاطب جنده قائلا: «نسير الى العراق ونكتب بيننا وبين رتبيل كتاب صلح فان تم امرنا ووقفنا عنه، ورقبنا له، وان كانت الاخرى اتخذناه ملجأ ثم رأى القوم على ذلك، وكتب بينه وبين رتبيل بهذا الشرط» (٥٨).

وبعد ان اطمأن ابن الاشعث على وضعه في جبهة سجستان، وبعد ان اطمأن الى موقف اصحابه تجاهه كتب رسالة الى الحجاج ابن يوسف، يتهدده ويتوعده فيها، وجاء فيها «بسم الله الرحمن الرحيم، من عبدالرحمن بن محمد بن الاشعث الى الحجاج بن يوسف، سلام على اهل طاعة الله واوليائه الذين يحكمون بعدله، ويؤمنون بعهده، ويجاهدون في سبيله، ويتورعون لذكره، ولايسفكون دما حراما، ولايعطلون للرب احكاما ولايدرسون له اعلاما، ولاينكبون النهج، ولايبرمون السيء، ولايسارعون في الغى، ولايدللون الفجرة، ولايتراضون الجورة، بل يتمكنون عند الاشتباه، ويتراجعون عند الاساءة، اما بعد فانى احمد الله حمدا بالغا في رضاه منتهيا الى الحق في الامور الحقيقية لله علينا، وبعد فان الله انهضني لصاولتك وبعثني لمناضلتك حين بحرت امورك، وتهتكت صورتك فاصبحت صدقا اؤمل من الله ذلك ان يصيرك في حبالك وان يجييء بك في القرن ويسحبك للذقن وينصف منك من لم تنصفه من نفسك ويكون هلاكك بيدى من اتهمته وعاديته، فلعمرى لقد طال ما تطاولت وتمكنت، واخطيت وخلت ان لن تبور، وانت في فك الملك تدور، واظن مصداق ما اقول، ستجده عن قريب قسر لامرك ولاق عصابة خلقك في حبالها خلفها نكالها، وتدرعت حلالها تدرعها مطالها، ولا يحذرون منك جهدا ولايرهبون فيك وعيدا، ويتأملون خزايتك ويتجرعون امارتك عطاشا الى دمك، يستطعمون لله لحمك وايم الله لينافقنك منهم الابطال الذين بيتهم فيما يحاولونك به على طاعة الله شروا انفسهم تقربيا الى الله فاعصى عن ذلك يا ابن أم الحجاج، فستحمل عليك ان شاء الله ولا حول ولا قوة الا بالله والسلام على طاعة الله» (٥٩).

يتبين لنا من نص الرسالة كيف ان ابن الاشعث كان عنيفا في رسالته وتهديده ووعيده للحجاج، وكان وقع هذه الرسالة شديدا على

الحجاج الذى كتب رسالة شديدة اللهجة الى عبدالرحمن بن الاشعث جاء فيها: «من الحجاج بن يوسف الى عبدالرحمن بن الاشعث السلام على اهل النزوع من التربيع واسباب الرواء لا الى معادن السوء والنقم في الغي، فانى احمد الله الذى خلاك في حيرتك اذ يهتك في السيرة، وهلك للضرورة، حتى اقحمك امورا اخرجك بها عن طاعته، وجانب ولايته، وعسكرت بها في الكفر وذهلت بها عن الشكر افلا تشكر في السراء، ولاتصبر في الضراء، اقبلت مستنا بحريم الحرة وتستوقد الفتنة لتصلى بحرها، وجلبت لغيرك ضرها، وقلت وتاق الاحتجاج، ويارزة الحجاج لابل امك الهيل، وعزة ربك لتركبن لنحرك، ولتغلبن لظهرك، ولتخطين فريستك، ولتحضن حجتك، ولتنجن مقامك ولتشغلن سهامك، كانى بك تصير الى غير ابطاها، والسلام على من اناب الى الله وسمع واجاب» (٦٠). وان هذا هو اسلوب الرسائل المتبادلة بين الاعداء.

اتجه ابن الاشعث بقواته المعارضة نحو العراق، حيث وصل الى مدينة فارس، وهناك اعلنوا عن خلعهم لعبدالملك بن مروان، وهذا التصرف اعطى بعدا جديدا لحركة ابن الاشعث متمثلة باعلانه المعارضة الواضحة والصريحة ضد الخلافة الاموية وليس ضد الحجاج كما كانت تبدو سابقا. وقال بعض جنده «اذا خلعنا الحجاج فقد خلعنا عبدالملك، فاجتمعوا الى ابن الاشعث فكان اول الناس قال خلعت عبدالملك بيحان بن الحر احد ولد ربيعة بن نزار ثم احد بنى بكر بن وائل، والذى خاطب الناس بقوله «ايها الناس انى قد خلعت ابا الذبان (٦١) خلعى قميصى هذا فخلعه الناس» (٦٢).

اما بالنسبة للحجاج بن يوسف فانه راسل عبدالملك بن مروان عدة مرات، لتدارك الامر، واتجه الحجاج بنفسه الى البصرة، واقام بها وعزم على لقاء ابن الاشعث، وكان ابن المهلب قد كتب الى الحجاج مشيرا عليه بان لايقاتله حتى يرد الناس منازلهم «فيركنوا الى الدعة وتمنعهم الرقة على اولادهم وعيالهم من المحاربة، ويحدث لهم أراء غير أرائهم وينتقضوا عنهم التفرق عن امرهم ويفد الرجل اخوه، والرجل قومه فيفتر عزمه ولم يلتفت الى كتابه ومشورته» (٦٣)، لانه كان قد كتب اليه بان لاهل العراق صبابة الى ابنائهم ونسائهم فليس شيء يردهم دون اهليهم فلا تستقبلهم، وخل لهم السبيل حتى يأتوا البصرة، فيواقعوا نساءهم ويشتموا اولادهم فترق قلوبهم ويخلدوا الى المقام في منازلهم فيتفرقوا عن ابن الاشعث.. فان الله ناصرك عليهم» (٦٤).

غير ان الحجاج لم يهتم بتوجيهات ابن المهلب، ورفض رأيه وكان رأى المهلب رائعاً جدا، وفيه بعد نظر كبير، ويبدو ان الحجاج قد راعته رسالة المهلب اليه والتى يصف فيها تحرك قوات ابن الاشعث، عندما كتب اليه «اما بعد فان اهل العراق قد اقبلوا اليك وهم مثل السيل المنحدر من عل، وليس شيء يرده حتى ينتهى الى قراره..» (٦٥)، ويصف المؤرخ الذهبى تحرك جيش ابن الاشعث بقوله: «كالسيل العرم، والتف عليه الامم» (٦٦). فاسرع الحجاج بالكتابة الى الخليفة عبدالملك بن مروان يخبره بذلك، ويشير الطبرى الى ان عبدالملك قد ذهل ايضا، حيث انه لما وقع اليه كتاب الحجاج هاله ثم نزل عن سريره، وبعث الى خالد بن يزيد بن معاوية، ودعاه فأقراه الكتاب، وراى مابه من الجزع فقال «يا امير المؤمنين ان كان هذا الحديث من قبل سجستان فلا تخفه، وان كان من قبل خراسان تخوفته، وخطب في الناس قائلا: ان اهل العراق طال عليهم عمرى فأستعجلوا قدرى..» (٦٧)، ومما افزع عبدالملك وصول انباء خلعه من قبل ابن الاشعث وجيشه في مدينة فارس.

واستمرت المراسلات والمشاورات بين الخليفة عبدالملك والحجاج بن يوسف، واخذ يرسل الامدادات بصورة مكثفة الى الحجاج حيث تصل الامدادات يوميا من الشام على البريد، وعلى الخيل العتاق المقدحة، وبعضهم على الابل الناجية وكتب الحجاج تتصل بعبدالملك كل يوم بخبر عبدالرحمن (٦٨). في الوقت الذى كانت فيه المعلومات عن تحرك ابن الاشعث تصل تفصيليا الى الحجاج، وعن نزوله في الاماكن مكانا مكانا، وقاد بنفسه الجيش الاموى لمواجهة الموقف حتى نزل رستقباد (٦٩) وهى دستوى من كور الاحواز (٧٠). ينتظر قدوم ابن الاشعث (٧١).

«معركة روستقباذ في الاحواز»

غادرت قوات المعارضة بقيادة عبدالرحمن بن الاشعث مدينة فارس باتجاه العراق. وقد اطلق عبدالرحمن على نفسه «القحطانى ناصر امير المؤمنين» (٧٢) وبانه «القحطانى الذى ينتظره اليمانية وانه يعيدالملك فيها، فقيل له ان القحطانى على ثلاث احرف، فقال اسمى عبد، واما الرحمن فليس من اسمى» (٧٣) وذكر المطهر المقدسى ان القحطانى كان مشهورا عندهم (٧٤).

اما القوات الاموية فانها كانت بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفى في منطقة روستقباذ من كور الاحواز، واقبل ابن الاشعث فنزل في تستر (٧٥)، وكان يفصل بينهما النهر، ودارت اول معركة بين الجانبين حيث انتصرت القوات الاموية بقيادة مطهر بن حر الطائى، الذى كتب بالنصر الى الحجاج الذى فرح كثيرا وقام خطيبا وقال: «احمدوا الله على هلاك عدوكم» فما نزل من خطبته حتى اتاه نبأ انتصار عظيم حققته قوات ابن الاشعث والذى استغل الظروف الجوية في يوم كثيف الضباب لايكاد الرجل يتبين فيه صاحبه (٧٦). والذى امر قواته باقتحام النهر والهجوم على القوات الاموية، مباغتا قوات الخلافة الاموية، وقتل منهم ما يقارب ثمانين الف مقاتل (٧٧). وحينما علم الحجاج بذلك قال لجنده «ايها الناس ارتحلوا بنا الى البصرة فان هذا مكان لايحمل الجند، وانصرف حتى نزل الزاوية وبعث الى طعام التجار بالكلأ فاخذه فحمله اليه، وقال من كان منهم وليا رددت عليه، ومن كان عدوا فماله ودمه حلال لنا، وخلى البصرة لاهل العراق وقال عند انسحابه: «..فان هذا المكان الذى نحن به لايحمل الجند» (٧٩).

وكان عامل الامويين على البصرة الحكم بن ايوب الثقفى (٨٠). وكان الحجاج قد امر خلال انسحابه بهدم القناطر وقطع الجسور الى ان نزل في الزاوية (٨١) يوم الخميس لسبع ليال بقين من ذى الحجة سنة ٨١ هـ/ ٧٠٠ م (٨٢). وقد ندم الحجاج ندما شديدا على عدم سماعه لنصحة المهلب، عندما طلب منه الا يتعرض لمحاربة جند البصرة الذين مع ابن الاشعث مع بقية جند الكوفة، حتى يدخلوا مدينة البصرة ويشموا اولادهم، ويسكنوا الى بيوتهم ولما رجع الى البصرة دعا بكتاب المهلب فقراه ثم قال: «لله ابوه ! اى صاحب هو اشار علينا بالراى ولكنا لم نقبل» (٨٣).

ولذلك فقد اخطأ الحجاج في تقديره لطبيعة منطقة روستقباذ في الاحواز، لان جند العراق كانوا مستميتين في قتال الجيش الاموى، وممن قتل مع جيش ابن الاشعث ليلة واقعة دجيل، ابو عبيدة بن عبدالله بن مسعود الهندلي، وقدروى عن طائفة وقتل معه ليلتئذ عبدالله بن شداد بن الهاد الليثي ابن خالة خالد بن الوليد، وكان فقيها كثير الحديث ولقى كبار الصحابة، وادرك معاذ بن جبل (٨٤).

وقد كان لهذا الانتصار اثره الكبير على رفع معنويات قوات ابن الاشعث، والذى خاطب انصاره قائلاً: «اما الحجاج فليس بشيء، ولكنا نريد غزو عبدالملك»، وروى ان جيشه بلغ حتى هذه اللحظة ثلاثة وثلاثين الف فارس، ومائة وعشرين الف راجل (٨٦). وقد كتب الحجاج الى عبدالملك بن مروان يعلمه بخبر ابن الاشعث فكتب اليه عبدالملك «لعمرى لقد خلع طاعة الله بيمينه، وسلطانه بشماله، وخرج من الدين عريانا، وانى لارجو ان يكون هلاكه وهلاك اهل بيته، واستئصالهم في ذلك على يدى امير المؤمنين» (٨٧).

خامسا : «عبدالرحمن الاشعث في مدينة البصرة»

دخلت قوات عبدالرحمن بن محمد الاشعث مدينة البصرة فبايعه اهلها على حرب الحجاج، وخلع عبدالملك بن مروان، وانضم اليه القراء والشيوخ (٨٨).

وكان قراء اهل البصرة مستائين جدا من الحجاج بن يوسف، ذلك لان عمال الحجاج قد كتبوا اليه بانكسار الخراج لان اهل الذمة قد اسلموا ولحقوا بالامصار، فأمر الحجاج بارجاعهم الى قراهم كما مر بنا «فجعل قراء اهل البصرة يخرجون اليهم متقنعين فيبكون لما يسمعون منهم ويرون» (٨٩). ولذلك انضموا باعداد كبيرة جدا الى حركة ابن الاشعث حيث كان عدد «خمس مائة كلهم يرون القتال» (٩٠) ومنهم سليم بن يسار، وعقبة بن عبدالغافر العوذى، وعقبة بن وساج البرساني، وعبدالله بن غالب الجحضمى، والنظر بن انس ابن مالك، وابو الجوزاء، وعمران بن عصام الضبعي، وسيار بن سلامة ابو المنهال الرياحي، ومالك بن دينار، ومرة بن دباب المرادى، وابو نجيد الجحضمى، وابو شيخ الهنائي، والحسن بن ابى الحسن وكثير غيرهم (٩١). وكان قسم منهم قد قتل في المعركة التى جرت في الاحواز.

سادسا : «معركة الزاوية سنة ٨٢ هـ / ٧٠١ م في البصـــرة»

وهكذا اصبحت قوات ابن الاشعث في داخل مدينة البصرة، وتحيط بها وبضواحى المدينة القوات الاموية، وكانت الامدادات تصل الى الحجاج يوميا، وقد استشار بـان الاشعث عباد بن الحصين وكان كبير السن، فقال له «ارى ان تخندق على المربد وما يليه ثم تدعهم حتى يخرجوا من معسكرهم بالزاوية (٩٢)، فيأتوك معيين كالّين، ويخرج الناس اليهم نشاطا جامين» (٩٣)، فخندق ابن الاشعث، ولم يعمق في الحفر، وخندق ناس من الناس على ما يليهم، وخندق الحجاج على عسكره، وقد اشار اصحاب ابن الاشعث عليه بضرورة الخروج لقطع الامدادات عن الحجاج من جهة الشام، ولقتاله، ولذلك خطب بالناس قائلا «ان الله قد جمع كلمتكم واعز دعوتكم فاخرجوا اليهم فجاهدوهم على اسم الله فخرج، وخرج الناس (٩٤)، ودارت معركة عنيفة في الـزاوية، وحققت قوات ابن الاشعث انتصارات مهمة على الجيش الاموى الذى بادر اغلبه على الهرب، باستثناء الحجاج ومن معه فانه «جثا على ركبتيه، وانتظى نحوا من شبر من سيفه وقال «لله در مصعب! ما كان اكرمه حين نزل به ما نزل» (٩٥)، وعزم على ان لايفر (٩٦)، وصبر معه آل سعيد بن العاص، وظفر الحجاج بأهل الزاوية، واقبل الى البصرة فقاتله الناس قتالا شديدا على افواه الدروب والسكك، فقال الحجاج «دعوهم فأنهم منهزمون، والان يتفرقون» فوقعت الواقعة على ابن الاشعث، وجنده، والذى ترك البصرة باتجاه الكوفة وخلف على البصرة عبدالرحمن بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب وقال له «قاتل بالناس، فان عندهم قتالا شديدا ولهم نشاط فاني منصرف الى الكوفة وممدك بالرجال»، وقد بايع اهل البصرة عبدالرحمن بن العباس على الصبر، فقاتل بهم الحجاج (٩٧)، وقدعلق المؤرخ البلاذرى (ت، ٧٩) على تصرف ابن الاشعث بتركه البصرة بقوله: «وكانت تلك الفعلة من ابن الاشعث هزيمة» (٩٨) وقد غادر البصرة بحجة ان مطر بن ناجية الرياحى قد وثب بالكوفة وقال «انما انصرفت وفي الناس فضل وعندهم قتال لانه بلغنى ان مطر بن ناجية الرياحى وثب بالكوفة فغاظنى ان اكون فتحت بابا دخل مطر منه، وان يكون انما قدر على الوثوب بى فيكون له صوت معى فاردت ان الحقه فأحول بينه وبين ارادته» (٩٩). ولذلك اتجه الى الكوفة في الف من اهلها، ويبدو انه قد تعرض الى ضغط من قبل جند الكوفة، اضافة الى ان الكوفة كان فيها عدد كبير جدا من الموالى، وهى اطوع له من اهل البصرة، ولانه يجد بها من عشائره ومواليه عددا كبيرا (١٠٠).

اما الوضع في مدينة البصرة، فان عبدالرحمن بن العباس خليفة ابن الاشعث، فانه قاتل الجيش الاموى بشجاعة نادرة من آخر يوم الاحد، ويوم الاثنين، ويوم الثلاثاء ويوم الاربعاء، وليلة الخميس وهى ليلة الهرير، وصبر اهل البصرة على قتال الحجاج، حتى هزموا، وامر الحجاج برفع راية الامان لاهل البصرة، وناداهم اصحابه «ثكلتكم امهاتكم علام تقاتلون، وقد ترك صاحبكم القتال». فخرج عبدالرحمن بن العباس، وجماعة من اهل الكوفة، والاقوياء من اهل البصرة، حتى لحقوا بابن الاشعث، ودخل الحجاج مدينة البصرة (١٠١). وخاطب جنده قائلا «ان الله لم ينصركم باهل الشام على عدوكم لانكم اكثر منه عددا واظهر قوة، ولقد كانوا اثرى منكم واقوى وهم في بلادهم ومادتهم تأتيهم من مصرهم، وبيوتهم، فهم يستندون الى ذلك، ويعتصمون به، ولكنكم كنتم اهل الطاعة وكانوا اهل المعصية، فنصركم الله بغير حول منكم ولاقوة فاحمدوا الله على نعمه فلا تبغوا ولاتظلموا، واياكم ان يبلغنى ان رجلا منكم دخل بيت امراة فلا يكون له عندى عقوبة الا السيف، انا الغيور ابن الغيور، لا اداهن في الريبة ولا اصبرعلى الفاحشة» (١٠٢)، وخاطب اهل البصرة قائلا «انكم تحـالفتم وعصيتم واحللتكم بانفسكم فعفوت عنكم، وقد قدرت، وانا اقسم لكم بالله لئن عدتم لمثل فعلكم لاقتلن مقاتلتكم ولاجرمنكم باموالكم» (١٠٣). ثم غادر الحجاج البصرة باتجاه الكوفة بعد ان اقام بها نحوا من شهر (١٠٤) بعد ان عادت الثقة الى نفسه وجنده.

وتعد نتيجة معركة الزاوية نتيجة حاسمة لمستقبل حركة ابن الاشعث، ذلك انها كشفت عن ان مقاتلة البصرة لم يقاتلوا مع ابن الاشعث بنفس الروح والحماس الذين قاتلوا به في الاحواز، بعد ان دخلوا البصرة واستقروا مع ابنائهم وزوجاتهم، كما ان المعركة كشفت عن التخبط العسكري الذي وقع فيه ابن الاشعث من خلال تركه الامور في البصرة سائبة بأيدي نفر قليل من انصاره. وتعد عملية ذهابه الى الكوفة هزيمة منكرة غير معلنة، كشفت عن قصر نظره وتخبطه العسكري حيث انه لم يستثمر انتصاره الرائع في الاحواز كما انه عرض نفسه وجنده للهزيمة مجرد ان تعرض جناح ميمنته الى هجوم من قبل الجيش الاموي، مما ادى الى ارباك انصاره ومن ثم هزيمة جيشه بأكمله، وهذا مما يعاب عليه ابن الاشعث في قيادته وتخطيطه العسكري. كما انها زعزعت ثقة انصاره والمؤيدين له في كفاءته ومقدرته ذلك ان الجند عندما شاهدوا ذهابه للكوفة اتوا عبدالرحمن بن العباس بن ربيعة الهاشمي خليفته في البصرة فقالوا له «تركنا ولحق بالكوفة وهذا الفاسق منيخ علينا» (١٠٥).

كما ان معركة الزاوية انهكت قوات ابن الاشعث بسبب ضخامة الخسائر التي منيت بها، فيروى ان عدد من قتل يوم الزاوية كان «احد عشر الفا، وما استحيا منهم الا واحدا كان ابنه من كتاب الحجاج» (١٠٦) ومن الشخصيات المهمة التي قتلت بالزاوية زياد ابن مقاتل، وطفيل بن عامر بن واثلة، وعبدالرحمن بن عوسجة ابوسفيان النهمي، وعقبة بن عبدالغافر الازدي، من القراء في مكان واحد، وعبدالله بن رزام الحارثي، والمنذر بن الجارود، وعبدالله بن عامر بن مسمع (١٠٧). وكثير غيرهم.

سابعا: «ابن الاشعث في مدينة الكوفة»

توجه ابن الاشعث من البصرة الى الكوفة التي كانت بؤرة المعارضة المتواصلة للخلافة الاموية، وكان اهلها اطوع اليه من اهل البصرة لان فيها عشائره ومواليه، وانصاره (١٠٨)، وكان الوضع في الكوفة مضطربا قبل قدوم ابن الاشعث، وان الحجاج حينما خرج من الكوفة خلف عليها عبدالرحمن بن عبدالله بن عامر الحضرمي حليف بني امية، وكان مطر بن ناجية الرياحي على المعونة، فلما بلغه خبر ابن الاشعث وما حدث له في معركة رستقباذ في الاحواز فانه قال: «ان ابن الاشعث قد هزم اهل الشام فهلموا نخرج من عندنا سهم» (١٠٩)٨ ولذلك تحصن بالكوفة وانضم اليه اهل الكوفة، فحاصروا امير الكوفة ومن معه من (١١٠)، اهل الشام، فصالحوهم على ان يخرجوا من قصر الامارة والكوفة وبعد ذلك اسلف مطر بن ناجية اهل الكوفة «مائتي درهم مائتي درهم» (١١١).

وعندما قدم ابن الاشعث خرج اليه اهل الكوفة يستقبلونه، ويرحبون به، فاستقبلوه بعدما جاز قنطرة «زبارا» ورحب به جميع اهل الكوفة عدا طائفة من بني تميم ارادوا ان يقاتلوه دفاعا عن مطر بن ناجية «لم يمكنهم من ذلك فعدلوا الى القصر» (١١٢).

واتجه ابن الاشعث لمعاجلة امر مطر بن ناجيه، حيث امر بالسلالم فنصبت على قصر الامارة، فصعد الناس، حتى اسر مطر بن ناجية، واراد ابن الاشعث ان يقتله فقال له «استبقني فاني افضل فرسانك واعظمهم عنك غناء فأمر به فحبس، ثم دعاه بعد ذلك فعفا عنه، وبايعه مطر، وبقية الناس في الكوفة. (١١٣).

ثم قدم بعد ذلك عبدالرحمن الهاشمي من البصرة مع جماعة من فرسان اهل البصرة ووجوههم (١١٤). ثم دعا ابن الاشعث عباد الكوفة وقراءهم وخاطبهم قائلا: «ايها الناس الا ترون هذا الجبار ـ يعني الحجاج ـ وما يصنع بالناس؟ الا تغضبون لله؟ الا ترون ان السنة قد اميتت والاحكام قد عطلت، والمنكر قد اعلن والقتل قد فشا؟ اغضبوا لله، واخرجوا معي فما يحل لكم سكوت (١١٥)، ولذلك كانت خطته ذات طابع ديني املا في استمالة عباد الكوفة وقراءها وكان قد انضم اليه عدد كبير من ابرز قراء الكوفة (١١٦).

وقد استقرت الاوضاع في الكوفة لصالح ابن الاشعث وأخذ يهيئ اموره فيها، استعدادا لملاقاة الجيوش الاموية التي ستصل من البصرة بقيادة ابن الاشعث، والجيوش التي ستصل من جهة الشام والجزيرة.

ثامنا: معركة دير الجماجم واندحار ابن الاشعث سنة ٨٣ هـ/ ٧٠٢ م

توجه الحجاج بن يوسف الثقفي من البصرة في طريق البر، ومر بالقادسية (١١٧). والعذيب (١١٨)، فارسل عبدالرحمن بن الاشعث قوة عسكرية من الكوفة بقيادة عبدالرحمن بن العباس الهاشمي فمنعه من نزول القادسية، وقد علم الحجاج كثرة من مع ابن الاشعث وكثرة مع عبدالرحمن الهاشمي في الخيالة من اهل الكوفة والبصرة، ولذلك فانه آثر عدم الاصطدام معهم، فارتفع عنهم وسايروه حتى ارتفعوا على وادي السباع (١١٩) وكان قد عزم على الارتفاع الى هيت (١٢٠) وناحية الجزيرة (١٢١)، ليقرب من الخليفة عبدالملك بن مروان، ولايكون بينهما احد، ثم تسايروا حتى نزل الحجاج «دير قرة» (١٢٢)، فلما صار اليه قال «والله ما بهذا المنزل من امير المؤمنين واهل الشام بعد، ولا احد يحول بيني وبينهم، ولا اتخوف ان يأتيني من ورائي احد، واني لفي رساتيق من الفلوجة (١٢٣)، وبالقرب من عين التمر (١٢٤)، وارجو ان تحملنا هذه الرساتيق، ولنزولي معهم في بلادهم اشد عليهم من نزولي نائيا عنهم (١٢٥) وخندق في دير قرة. ونزل ابن الاشعث بقواته في دير الجماجم (١٢٦) وعسكر وخندق فيه، لتأتيه الميرة من الكوفة (١٢٧). وكان الحجاج بعد ذلك يقول «اما كان عبدالرحمن يزجر الطير حين رآني نزلت دير قرة، ونزل دير الجماجم» (١٢٨) وكان الحجاج في حالة من الحذر والريبة بسبب كثرة من انضم الى ابن الاشعث، ولذلك اراد ان تكون مسألة حصوله على الامدادات من الشام مسألة منتظمة ودقيقة.

وبدأت تنتظم قوات الجانبين في ديري قرة والجماجم، واجتمع مع ابن الاشعث اهل الكوفة واهل البصرة، مع قراء الكوفة الذين كانوا بقيادة جبلة بن زحر الجعفي (١٢٩)، وكان القراء يحرضون الناس على القتال بجد واخلاص، ويحرضونهم على الحجاج والامويين، وجعل ابن الاشعث على خيله عبدالرحمن بن العباس الهاشمي، ودارت معارك عنيفة بين الجانبين استمرت ما يقارب مائة يوم (١٣٠).

وكانت الامدادات تصل بصورة مستمرة الى الحجاج وقواته، وكان يستنجد بعبدالملك وكان قد كتب اليه في احدى كتبه «واغوثاه يا الله، واغوثاه يا الله، واغوثاه يا الله، فأمده بالجيوش، وكتب اليه يا لبيك، يا لبيك، يا لبيك» (١٣١). فامده عبدالملك بابنه عبدالله بن عبدالملك في عشرين الفا من اهل الجزيرة، فالتقوا بالحجاج بدير قرة بعد تضيق اهل العراق عليه (١٣٢). وكان عنف القتال يزداد يوما بعد آخر، واستشار عبدالملك بعض وجوه قريش من المقربين اليه لمناقشة موضوع حركة ابن الاشعث، فاشاروا عليه بضرورة عزل الحجاج عن العراق، ارضاءا لجند العراق، فقالوا له «اذا كان رضا اهل العراق بعزل الحجاج فاعزله عنهم تخلص لك طاعتهم وتحقن دماءهم ودماء اهل الشام» (١٣٣). وفي رواية انهم قالوا له «ان كان يرضى اهل العراق ان ينزع عنهم الحجاج، فان نزع الحجاج ايسر من حرب اهل العراق فانزعه عنهم تخلص لك طاعتهم..» (١٣٤)، وقد وافق الخليفة عبدالملك على عرض وجوه قريش،فاستدعى ابنه عبدالله، وبعث الى اخيه محمد بن مروان من الموصل يأمره بالقدوم عليه، فامرهم ان يعرضا على اهل العراق اقتراح عزل الحجاج عنهم، وان تجرى عليهم اعطياتهم كما تجرى لاهل الشام، وتجرى على ذريتهم كما تجرى على ذرية اهل الشام، وان ينزل ابن الاشعث اى بلد شاء ويكون عليه واليا مادام حيا، فان قبلوا ذلك كان محمد ابن مروان الامير عليهم، وان ابوا فالحجاج امير عليك وعلى محمد والناس (١٣٥).

ان اجراء عبدالملك هذا يعد تنازلا كبيرا من الخلافة الاموية، وتراجع سياسى كبير له وللخلافة ويعد هذا اعظم ما توصل إليه ابن الاشعث من انتصار سياسى على الخلافة الاموية.

لقد افزع هذا القرار الحجاج بن يوسف الذي كان كما قال ابن الاثير «فلم يأت امر قط كان اشد عليه ولا اوجع لقلبه من ذلك، مخافة ان يقبل اهل العراق عزله، فيعزل عنهم» (١٣٦). ولذلك فانه كتب الى عبدالملك بن مروان كتابا نصه «يا امير المؤمنين والله لئن اعطيت اهل العراق نزعي لايلبثون الا قليلا حتى يخالفوك ويسيروا اليك، ولايزيدهم ذلك الا جراة عليك، الم تر وتسمع بوثوب اهل العراق مع الاشتر على ابن عفان.. فان الحديد بالحديد يفلح خار الله لك فيما ارتأيت والسلام عليك» (١٣٧).

ووصل رسولا عبدالملك، الى قوات الجانبين فقال ابنه عبدالله «يا أهل العراق، انا عبدالله بن أمير المؤمنين، وهو يعطيكم كذا وكذا»، فذكر هذه الخصال التى ذكرناها، وقال محمد بن مروان «انا رسول امير المؤمنين اليكم، وهو يعرض عليكم كذا وكذا» فذكر هذه الخصال ايضا (١٣٨).

وقد تشاور اهل العراق مع عبدالرحمن الاشعث في هذا الموضوع، فقال لهم «اما بعد فقد اعطيتم امرا انتهازكم اليوم اياه فرصة، ولا آمن ان يكون على ذى الرأى غدا حسرة وانكم اليوم على النصف، وان كانوا اعتدوا بالزاوية، فانتم تعتدون عليهم بيوم تستر، فاقبلوا ما عرضوا عليكم وانتم اعزاء اقوياء والقوم لكم هائبون، وانتم لها منتقصون، فلا والله لازلتم عليهم جــراء ولازلتم عندهم اعزاء، ان انتم قبلتم ابدا ما بقيتم» (١٣٩) ولذلك كان ابن الاشعث قانعا وموافقا على عرض الخلافة الاموية، وكان محقا في قناعته لانه يعد نصرا كبيرا له ضد عدوه الحجاج، غير ان جند الكوفة والبصرة رفضوا هذا الاقتراح قائلين «ان الله قد اهلكهم فاصبحوا في الازل والعنان والمجاعة والقلة والذلة ونحن ذوو العدد الكثير والمادة القريبة،لا والله لانقبل» (١٤٠)، وكان اجماعهم على خلع عبدالملك بدير الجماجم اكثر من اجماعهم على خلعه قبل ذلك (١٤١).

ويبدو ان رفض جيش ابن الاشعث كان حسب اعتقادهم ان الخلافة الاموية قد ظهر عجزها وضعفها امام ابن الاشعث، ولذلك فانهم لم يرضوا بخلع الحجاج وانما اخذوا يطالبون بخلع عبدالملك، ويعد هذا اعلى درجات النجاح المرحلى الذى حققته حركة ابن الاشعث.

ولذلك برزت الجيوش من الجانبين للقتال، حيث جعل الحجاج على ميمنته عبدالرحمن بن سليم الكلبي، وعلى ميسرته عمارة بن تميم اللخمى، وعلى الخيل سفيان بن الابرد الكلبى، وعلى الرجالة عبدالله بن حبيب الحكمى اما ابن الاشعث فانه جعل على ميمنته الحجاج بن حارثة الخثعمى وعلى ميسرته الابرد بن قرة التميمي، وعلى خيله عبدالرحمن بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب وعلى الرجالة محمد بن سعد بن ابى وقاص، وعلى مجنبتيه عبدالله بن رزم الحرشي، وعلى القراء جبلة بن زحر بن قيس الجعفي، وفيهم سعيد ابن جبير، وعامر بن شراحبيل الشعبي، وابو البختري الطائى، وعبدالرحمن بن ابى ليلى (١٤٢).

ودارت معارك عنيفة بين الجانبين، وكان اهل العراق يأتيهم المدد من الكوفة وسوادها، واهل الشام يعانون من قلة مواردهم، واصبحوا في ضيق من العيش وغلت عليهم الاقوات، وقل عندهم الطعام وكأنما كانوا محاصرين، وكان ابرز الذين قاتلوا مع ابن الاشعث جماعة القراء، الذين كانوا يشجعون الناس ويحرضونهم على القتال، فكان عامر الشعبى ينادى «يا اهل الاسلام قاتلوهم ولا يأخذكم حرج في قتالهم» وقال سعيد بن جبير «قاتلوهم ولا تأثموا في قتالهم» وكان الحجاج بن يوسف قد جعل هدفه الرئيسى القضاء على فرقة القراء، فجهز عليهم ثلاث كتائب قاتلتهم بضراوة فانهزم جبلة ابن زحر بن قيس، وكان الحجاج قد حقق نجاحا ملموسا في قيادته للمعركة وقتل جبلة وكان من اشجع قادة ابن الاشعث، ثم حمل على القراء بهجوم كبير وتمكن القراء من ازالة تلك الكتائب وفرقوها، وعندما انجلى الموقف وجدوا جبلة قتيلا، وكان لمقتله اثر كبير على معنويات بقية اتباعه وكان ابو البخترى ينادى «ايها الناس قاتلوهم على دينكم ودنياكم، فوالله لئن ظهروا عليكم ليفسدن عليكم دينكم، وليغلبن على دنياكم» وقال عامر الشعبى «يا أهل الاسلام قاتلوهم ولا يأخذكم حرج في قتالهم، فوالله ما اعلم قوما على بسيط الارض اعمل بظلم، ولا اجور منهم» وقال سعيدبن جبير «قاتلوهم ولا تأثموا من قتالهم بنية ويقين..» (١٤٣).

من هذه النصوص يتبين ان القراء كان لهم اثر كبير على الناس الذين فيما يبدو كانوا يزدادون شجاعة وحماسا من اجل رفع معنوياتهم بعد مقتل زحر، حيث عين عبدالرحمن بن الاشعث بدلا منه بسطام بن مصقلة بن هبيرة الشيبانى الذى كان يقول «لئن اموت مع اهل العراق احب الى من ان اعيش مع اهل الشام»

(١٤٤)، ثم جرت مبارزات فردية بين شجعان الجيشين، ثم بدأت معركة عنيفة بعد ذلك واذا بضربة عنيفة يوجهها الحجاج على قائد ميسرة جيش ابن الاشعث والذى هرب من ميسرته فاختل نظام الميسرة فتقوضت صفوف الجيش وانهزم جيش ابن الاشعث املا في النجاة بانفسهم، ونادى عبدالرحمن الاشعث في الناس «عباد الله الى انا ابن محمد» (١٤٥) ولكن لم تنفع نداءاته، حيث دخلت القوات الاموية معسكر ابن الاشعث وكبروا، وكان ذلك ايذانا بانهزام ابن الاشعث رغم ان جيشه كان ازيد على ثلاثين الف فارس نحو مائة الف وعشرين الف راجل على حد قول الذهبي، وانهزم ابن الاشعث مع مجموع من اهل بيته حازوا قرية بنى صعدة بالفلوجة، ودعوا بمعبر، فعبروا فيه، ثم جاء ابن الاشعث حتى انتهى الى بيته وعليه السلاح وهو على فرسه لم ينزل عنه، فخرجت اليه ابنته فالتزمها، وخرج اليه اهله يبكون، فأوصاهم قائلا «لا تبكوا أرأيتم ان لم اترككم، ثم عسيت ان ابقى معكم حتى اموت، وان انا مت فان الذى يرزقكم الان حي لا يموت، وسيرزقكم بعد وفاتي، كما رزقكم في حياتي، ثم ودع اهله وخرج من الكوفة» (١٤٧). وهكذا اندحر ابن الاشعث في واقعة دير الجماجم التى رسمت الخطوط النهائية لحركته ضد الخلافة الاموية، كان نتاجها قد وَضَعَ مفتاح الفشل لمستقبل حركته ضد الخلافة، وقدرفعت المعركة من منزلة الحجاج بن يوسف لدى الامويين عموما، وعبدالملك بوجه خاص، واثبتت المعارك عدم تمتع ابن الاشعث بشخصية قيادية في قيادته للمعارك، وعدم حسمه المواقف المحرجة التى كان يمر بها، والا كيف يمكن ان يوصف موقفه في عدم اقناعه لاتباعه بالموافقة على عرض الخليفة عبدالملك بن مروان عندما اقترح عزل الحجاج.

وقد رجع الحجاج الى الكوفة بعد ان حسم الموقف في دير الجماجم وأخذ البيعة على الناس، وكان لايبايع احدا الا قال له «اشهد انك كفرت، فان قال نعم، بايعه، والا قتله،» (١٤٨)، ثم امر الحجاج باعدام كل من لم يشهد بالكفر على نفسه ندما على اشتراكه في حركة ابن الاشعث.

وكانت معركة دير الجماجم من المعارك العنيفة في التاريخ العربى الاسلامى وقد وصفها الحجاج بقوله «وما دير الجماجم! بها كانت المعارك والملاحم بضرب يزيل الهمام عن مقيله، ويذهل الخليل عن خليله..» (١٤٩)، وقد استمرت ما يقارب مائة يوم، ففى رواية ابو الخارق الراسبى قال «قاتلنا مائة يوم اعدها نزلنا دير الجماجم مع ابن الاشعث غداة يوم الثلاثاء في شهر ربيع الاول سنة ثلاث وثمانين، وهزمنا يوم الاربعاء لاربع عشر مضت من جمادى الاخرة عند ارتفاع الضحى» (١٥٠).

تاسعا : معركة مسكن وانهزام ابن الاشعث ومصيره ومصير انصاره

اتجه ابن الاشعث منهزما من الكوفة الى البصرة، فخرج منها الى مسكن من ارض دجيل الاحواز (١٥٢) وعسكر على بعد مسيرة ثلاثة ايام من البصرة على نهر يقال له نهر ابن عمر، وكتب الى الحجاج كتابا «طالبا منه ان يتنحى عن ولاية العراق، لان اهل العراق قد كرهوه وحمل الحجاج رسول ابن الاشعث كتابا نصه «فليعد وليستعد لذلك، فان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون» (١٥٣)، وتجهز الجيش الاموى مطاردا ابن الاشعث، وقد رتب الحجاج جيشه قبل بداية المنازلة، فجعل على ميمنة الجيش سفيان بن الابرد الكلبي، وسعيد بن عمر والحرشي على القلب، وعبدالرحمن بن عبدالله العكى على ميسرته (١٥٤).

اما عبدالرحمن بن الاشعث فانه تخندق في قواته، وبايع اهل العراق قائد ابن الاشعث بسطام بن مصقلة على الموت، وامر ابن الاشعث بثق الماء من جانب، فجعل القتال في جهة واحدة، وقدم عليه خالد بن جرير بن عبدالله القسرى من خراسان فى ناس من بعث الكوفة، فاقتتلوا خمس عشرة ليلة، حتى قتل قائد الحجاج زياد بن غنيم القينى (١٥٥)، وكان على مسالح الحجاج «فهده ذلك واصحابه هدا شديدا» وجرت مناوشات طفيفة بين الجانبين، ثم زحف الجيشان بعضهم على بعض، واشتد القتال «وانتحى سفيان على مركزه لم يرم والجرشى على مركزه لم يرم، وكانت ميلتهم على الميسرة، فنحوا عبدالرحمن العكى، فلما الحجاج قد انكسرت ناحية وزال عنها بعث اليه ابن عمه الحكم بن ايوب في خيل، فقال انطلق الى عدو الله، فاضرب وجهه بالسيف حتى ترده الى مقامه، ثم حمل عليهم سفيان، وهم مشغولون بالميسرة قد طمعوا فيها، وثاب العكى، وانهزم ابن الاشعث» (١٥٦) واورد ابن الاثير رواية عن انهزام ابن الاشعث، اشار فيها الى حدوث معارك شديدة بين الجانبين، فجاء شيخ الى الحجاج فدله على طريق من وراء نهر الكرخة في اجمة وضحضاح من الماء، فارسل معه اربعة الاف، وقال لقائدهم «ان صدق فاعطه الف درهم، فان كذب فاقتله، فسار بهم، ثم ان الحجاج قاتل اصحاب عبدالرحمن، فانهزم الحجاج فعبر السيب، ورجع ابن الاشعث الى عسكره امنا، ونهب عسكر الحجاج فأمنوا والقوا السلاح فلم يشعروا نصف الليل الا والسيوف تأخذهم من تلك السرية فغرق من اصحاب عبدالرحمن اكثر ممن قتل» (١٥٧).

وهكذا وقعت الهزيمة على قوات ابن الاشعث، وبعد فشل حركته تفرق انصاره عنه، وكان من ابرز عوامل فشل حركته عدم وجود مبدأ موحد يجمع المنضمين الى الحركة ولذلك نجد ان عامل العداء للامويين ضم عدة عناصر من خوارج، ومرجئة، وعلويين، وموالى من الاعاجم، واصحاب مصالح متنوعة ومتفرقة، فعدم وجود مبدأ او عقيدة موحدة تجمع المعارضين للحكم الاموي حال دون اتحاد كلمتهم وتوفيق مواقفهم، ولهذا نجد ان ابن الاشعث لم يستطع ان يوفق بين عدة جماعات منظمة الى قواته، كما انه لم يكن حازما في اتخاذ المواقف في الظروف الصعبة، اضافة الى ذلك ان قواته الرئيسية المكونة من جند الكوفة والبصرة كانوا قد خفت حدة حماسهم وضعف اندفاعهم في تأييد ابن الاشعث بعد ان عادوا الى ابنائهم وزوجاتهم في الكوفة والبصرة، كما انهم اصلا كانوا منهكين ومتعبين في العمليات العسكرية في مناطق المشرق، بعكس جند اهل الشام الذين كانوا اكثر اطمئنانا واستقرارا من هؤلاء ولاغرابة في ذلك فان هؤلاء تسندهم الخلافة الاموية، ودافعوا عنها باخلاص وشجاعة، بعكس هؤلاء الذين كانوا قد اختلفت آراؤهم، وتفرقت قلوبهم الامر الذى أثر على معنوياتهم ومن ثم اندحارهم.

كما ان الاحداث كشفت ضعف المقدرة القيادية والتنظيمية لابن

الاشعث، وهذا انعكس اثره على الخطط العسكرية التى كان يضعها في قيادته للمعارضين وكان الانتصار الاول الذى حققه ابن الاشعث على جيش الحجاج في الاحواز لم يستثمره بصورة دقيقة، حيث انه لم يستمر في مطاردة الحجاج في اعقاب المعركة، بل انه مكث مدة من الزمن في مكان المعركة وكان الاجدر به ان يستمر في مطاردة الحجاج، وان لايدع له فرصة لاعادة تنظيم صفوف قواته، وفعلا استغل الحجاج فرصته، واعاد تنظيم قواته، حتى استطاع من تحقيق انتصاره في الزاوية، وظهر فشله وتخبطه العسكرى خلال المصادمات في المعارك مع القوات الاموية، فرغم ان اتباعه قاتلوا ببسالة في اكثر من مكان، الا انه احبط معنويات جنوده عندما تركهم في البصرة متجها نحو الكوفة، وفي الكوفة حالما حصل خلل في احدى وحداته العسكرية نجد ان الجيش ينهزم باكمله، ولم تنفعه مناداته لاعادة تثبيتهم وتنظيمهم، هذا اذا ما علمنا ان القوات الاموية كانت تصلها الامدادات بشكل متواصل، واهتم الخليفة عبدالملك بن مروان بنفسه في متابعة الموقف اولا باول، وكان الحجاج يقاتل المعارضين بنفسه وبشجاعة، ففي معركة الزاوية لم ييأس من الانتصارات الكبيرة التى حققتها قوات ابن الاشعث بل انه ثبت في مكانه «وجثا على ركبتيه» وفي دير الجماجم حينما علم باقتراح عبدالملك بعزله، قد زاد من حماسه وحرصه من اجل ان يثبت جدارته وكفاءته في مواجهة المعارضة، ولذلك فانه استطاع ان يحقق الانتصار على ابن الاشعث، كما يلاحظ ان كثيرا من جنده لم يكونوا مخلصين بصورة مطلقة لابن الاشعث حينما تخلوا عنه بعد دخولهم البصرة، وان منادى ابن الاشعث كان يقول «اين الذين بايعوا بالرخج ؟» وفي رواية ان ابن الاشعث كان متربعا على المنبر «يتوعد الذين تخلفوا عنه توعدا شديدا» (١٥٩)، وقال عامر بن واثلة في هذا (١٦٠).

تعاهدوا ثم لم يوفوا بما عهدوا ... واسلموا للعدو السبي والسلبا
ياسوءة القوم اذ تسبى نساؤهم ... وهم كثير يرون الخزى والحربا

كما ان مسألة خلع ابن الاشعث وجيشه لعبدالملك بن مروان فكرة مبكرة خاطئة سابقة لاوانها، وكان يجب عليه ان لايتخذ مثل هذا القرار المتسرع، لانها خلقت حالة من الحزم الشديد لدى الخلافة الاموية في عدم التهاون مع ابن الاشعث وجنده، وجعل الخلافة الاموية تستنفر قواها باكملها لمجابهة الحركة والقضاء عليها.

كما ان اصحاب ابن الاشعث كانوا قد ربطوا مصيرهم في القتال في اشخاص معينين رغم قدرتهم العالية وشجاعتهم، وبدون ان تكون هناك بدائل لاولئك القادة، فحينما يتعرض احدهم للاصابة او القتل، نجد ان هذه الحالة تؤثر على الجيش باكمله، وتؤثر على المعنويات بصورة عامة، ولذلك فحينما قتل قائد ابن الاشعث جبلة بن زحر، قال ابو الزبير «فهدنا ذلك وجبنا.. ونحن نتناعى على جبلة بن زحر بيننا، كانما فقد كل واحد منا اباه او أخاه، بل هو في ذلك الموطن كان اشد علينا فقدا» (١٦١).

كما ان الطرق التي سلكها جيش ابن الاشعث كانت مرهقة جدا، فالطريق الطويل الذى سلكه في اثناء توجهه الى العراق من سجستان ومن ثم دخوله البصرة، وخروجه منها، ودخوله الكوفة وخروجه منها، ودخوله البصرة ثانية وهروبه منها، قد اثرت على قوة جيشه وانهكته بدون ان يدع مجالا للراحة والاستقرار لهم، وقد استغل هذا الوضع العام لجيشه القوات الاموية التى اخذت تبادر بالهجوم عليه، وبصورة مكثفة اينما يستقر، ويبرر ابن الاشعث هزيمته بانها كانت قدرا من الله تعالى ولذلك قال: «وما انهزمت، ولاتركت العرصة للقوم في موطن حتى لا اجد مقاتلا ولا أرى معى مقاتلا ولكني زاولت ملكا مؤملا» (١٦٢).

وهكذا انتهت حركة ابن الاشعث بالفشل الذريع وتفرق القائمون بها، ونالوا عقابا صارما من قبل الحجاج، اما الذين بقوا مع ابن الاشعث فانهم اتجهوا نحو سجستان ولكن الحجاج ارسل جيشا لمطاردتهم بقيادة عمارة بن تميم اللخمي، ومعه ابنه محمد بن الحجاج، ولحق به في السوس، فانتصر عليه، ثم انهزموا حتى اتوا سابور، حيث دارت معركة عنيفة انتصر فيها ابن الاشعث، وجرح فيها عمارة غير ان هذا الانتصار لم يكن له اثر على مجريات الاحداث، ثم مضى منهزما حين مر بكرمان واستقبله عاملها ثم اوصله الى مفازة كرمان الى ان وصل مدينة زرنج بسجستان، حيث اقفلت الابواب بوجهه ثم اتجه بعد ذلك الى بست، فاستقبله عاملها عياض بن هميان السدوسى وقال له «انزل، فجاء حتى نزل به وانتظر حتى اذا غفل اصحابه وتفرقوا عنه وثب عليه فأوثقه واراد ان يأمن بها عند الحجاج، ويتخذ بها عنده مكانا، وقد كان رتبيل قد سمع بمقدم عبدالرحمن عليه، فاستقبله بجنوده فجاء حتى احاط ببست ثم نزل وبعث الى البكري: والله لئن آذيته بما يقذى عينه او ضررته ببعض المضرة، او رزأته حبلا من شعر لا ابرح العرصة حتى استنزلك فاقتلك وجميع من معك ثم اسبي ذراريكم واقسم بين الجند اموالكم، ثم ارسل البكرى يطلب اليه الامان، ولقوم معه. ثم وافق رتبيل على ذلك واطلق سراح عبدالرحمن» (١٦٣)، ومضى مع رتبيل الى بلاده واكرمه واحسن اليه.

اما بقية جنده الذين شاركوا في حركته ضد الخلافة الاموية فانهم اتجهوا الى سجستان ويروى ان عددهم بلغ نحوا من ستين الفا، فحاصروا عبدالله بن عامر البعار، وكان يصلي بهم عبدالرحمن ابن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب (١٦٤)، وكتبوا الى عبدالرحمن بن الاشعث كتابا نصه «ان اقبل الينا لعلنا نسير الى خراسان، فان بها منا جندا عظيما، فلعلهم يبايعوننا على قتال اهل الشام، وهى بلاد واسعة عريضة وبها الرجال والحصون» (١٦٥)، فجاء اليهم، وتمكنوا من القضاء على ابن البعار حيث امر عبدالرحمن بقتله، وكان عبدالرحمن قد عارض فكرة التوجه الى خراسان عندما خاطب انصاره قائلا:

« على خراسان يزيد بن المهلب، وهو شاب شجاع صارم، وليس بتارك لكم سلطانه، ولو دخلتموها وجدتموه اليكم سريعا، ولن يدع اهل الشام اتباعكم، فاكره ان يجتمع اليكم اهل خراسان واهل الشام، واخاف الا تنالوا ما تطلبون، فقالوا: انما اهل خراسان منا، ونحن نرجوا ان لو قد دخلناها ان يكون من يتبعنا منهم اكثر ممن يقاتلنا، وهى ارض طويلة عريضة ننتحي فيها حيث شئنا، ونمكث حتى يهلك الله الحجاج او عبدالملك، او نرى من رأينا فقال لهم

عبدالرحمن: سيروا على اسم الله» (١٦٦).

ولذلك قرروا التوجه الى خراسان، وكان عبدالرحمن غير مطمئن لموقف اصحابه، وفجأة انسحب عبدالله بن عبدالرحمن بن سمرة القرشي في الفين من المقاتلة، فاخذ طريقا غير طريقهم، مما ادى الى استياء عبدالرحمن، الذي قرر ان يترك انصاره، ويعود الى رتبيل، فخاطبهم قائلا «اما انا فمنصرف الى صاحبي الذي اتيتكم من قبله، فمن احب منكم ان يتبعني فليتبعني، ومن كره ذلك فليذهب حيث احب في عياذ من الله» (١٦٧).

اما انصاره فانهم استمروا متجهين الى خراسان، حيث منوا بهزيمة شديدة على يد يزيد بن المهلب، حيث تفرقوا في البلاد وتم اسر وقتل عدد كبير منهم (١٦٨).

ومكث ابن الاشعث عند رتبيل الذي اخذ يساوم الخلافة الاموية بشروط صعبة مقابل تسليم ابن الاشعث، حيث اشترط رتبيل الا تغزى بلاده عشر سنين، واشترط ان يؤدي بعد العشر سنين في كل سنة تسعمائة الف (١٦٩). وذلك عندما وصله كتاب تهديد من قبل الحجاج بن يوسف بضرورة تسليمه، وكان كتاب التهديد نصه «..فو الذي لا اله الا هو لاطئن ارضك الف الف مقاتل» (١٧٠)، وفي رواية الدينوري ان عبدالملك اخبر رتبيل بشقاق عبدالرحمن وخلعه الطاعة، وخروجه عليه ويسأله ان يرده عليه (١٧١). ويعلق الطبري على موافقة رتبيل تسليم ابن الاشعث للخلافة الاموية بقوله «بعث برأس عبدالرحمن الى عبدالملك» (١٧٢) وقال ابن كثير «وانه قتله صبرا بين يديه» (١٧٣)، وقال رتبيل لطراخنته «ان ابن الاشعث هذا رجل مخالف للملوك فلا ينبغي لي ان آويه، بل ابعث به الى ملكه فيتولى من امره ما احب» (١٧٤)، وقد اعد رتبيل الجوامع والقيود، فالقى في عنقه جامعة، وفي عنق اخيه القاسم جامعة، وارسل بهم جميعا (١٧٥) اذ كان معه اربعون من اصحاب ابن الاشعث (١٧٦).

وعندما وصل الاسرى الى عمارة بن تميم اللخمي، صعد ابن الاشعث وهو مقيد بالحديد الى سطح قصر ومعه رجل موكل به لئلا يهرب، والقى بنفسه من ذلك القصر، وسقط معه الموكل به فماتا جميعا (١٧٧)، واحتز رأسه وضرب عمارة اعناق من معه، وارسل برؤوسهم الى الحجاج (١٧٨) وذلك سنة ٨٥ هـ.

وهكذا انتهت حركة ابن الاشعث بهذه الحالة بعد ان اشغلت الخلافة الاموية كثيرا، وارهقتها وبالاخص الخليفة عبدالملك بن مروان الذي ارعبته حركة ابن الاشعث ويروى انه مكث سبعة اشهر لايقرب امرأة حتى اتاه قتل عبدالرحمن بن الاشعث (١٧٩)، كما ان الحركة فشلت في تحقيق اى هدف من اهدافها. كما كانت فرصة ذهبية للحجاج عززت من موقعه وزادت من مكانته لدى الأمويين، حيث تعاظم نفوذه في العراق، واضاف اليه عبدالملك خراسان وسجستان، وعمان، ومكنت الخلافة الأموية من السيطرة على المشرق سيطرة جيدة، وساعد هذا الاشراف والسيادة على خلق الأمن والاستقرار هناك.

كما ان احداث هذه الحركة جعلت الدولة الاموية اكثر حذرا في سياستها في العراق، لانها كشفت عن الموقف الحقيقي لاهل العراق من السياسة المالية للخلافة الاموية ضدهم، مقارنة بما كان يعطى من اموال واعطيات الى اهل الشام وذراريهم، كما ان سياسة التجمير التى اتبعتها الخلافة مع جند الكوفة والبصرة ادت الى تذمرهم واستيائهم وهذا ادى الى اعادة تقييم السياسة الاموية تجاه أهل العراق.

وكشفت الحركة موقف العلماء والقراء بصفة خاصة ذلك الموقف المعادي للخلافة الاموية، كما كشفت مدى حقد الاعاجم من الموالى على الامويين ومحاولتهم الانقضاض على الخلافة الاموية، لذلك فانهم كانوا لايدعون فرصة تمر الا ويستغلونها من أجل القضاء على السيادة العربية التى كانت تمثلها الخلافة الاموية.

الهوامش

(١) انظر : ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، (بيروت ١٩٦٨) ج ٥/٦١، ١٦٧ ، ج ٦ ، ١١٣ ، ١٢٦ ، ٢٢١ ، ٢٩٣ ، ٣٥٩ ، ج ٧/١٨٨ ، ٢٢٤ ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ، (القاهرة ١٩٧٧) ٤٢٥ ، الذهبي ، ميزان الاعتدال ، ج ٢ (القاهرة ١٩٦٢) ٥٨٣ ابن حجر ، تهذيب التهذيب ، ج ٦ (حيدر اباد ١٣٢٥ هـ) ٢٥٦
(٢) ابن حزم ، المصدر السابق ، ٤٢٥
(٣) الطبري ، تاريخ ، تحقيق محمد ابوالفضل ابراهيم ، ج ٦ (القاهرة ١٩٧١) ١٩٨
(٤) ابن قتيبة ، المعارف ، (القاهرة ١٩٦٠) ٣٣٢
(٥) الذهبي ، ميزان الاعتدال ، ٢/٥٨٢ ، ابن حجر ، تهذيب ، ٦/٢٥٦
(٦) البلاذري ، انساب الاشراف ، مخطوطة استنبول ، ٢ / ورقة ٨ ب
(٧) ابن قتيبة ، الامامة والسياسة (المنسوب اليه) ج ٢ (القاهرة ، بدون تاريخ) ٣٤
(٨) نفسه ، ٢/٣٤
(٩) جمع حوز ، وهي كورة عظيمة بين البصرة وبلاد فارس (ابن عبدالحق البغدادي ، مراصد الاطلاع م ١ (بيروت ١٩٥٤) ١٢٥
(١٠) الطبري ، تاريخ ، ٦/١٧٢
(١١) البلاذري ، انساب الاشراف ، ٢ / ورقة ٩ ب
(١٢) نفسه ، ٢ ورقة ٩ ب ـ ١٠ ا
(١٣) نفسه ، ٢/ ورقة ١٠ ا
(١٤) ابن قتيبة ، المصدر السابق ، ٢/٣٤
(١٥) سجستان : ناحية كبيرة وولاية واسعة وهي ناحية ومدينتها زرنج ، وهي جنوب هراة تبعد عنها عشرة ايام (ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٣ (بيروت ،) ١٩٠
(١٦) انساب الاشراف ، ٢ / ورقة ١٠ ا
(١٧) ابن قتيبة ، المصدر السابق ، ٢/٣٤
(١٨) نفسه ، ٢ ، ٣٤
(١٩) انساب الاشراف ، ٢/ ورقة ٨ ب
(٢٠) كابُل : وهي من ثغور طخارستان ، اقليم متاخم للهند (ابن عبدالحق البغدادي مراصد الاطلاع ، ٣/١١٤١
(٢١) انظر الى البلاذري ، انساب ٢ ورقة ٨ ب ـ ٩ ب
(٢٢) البلاذري ، انساب ، ٢ / ورقة ١٠ ا ، الطبري ، تاريخ ٦/٢٢٩
(٢٣) المسعودي ، التنبيه والاشراف (بيروت ١٩٦٥) ٣١٤
(٢٤) الطبري ، المصدر السابق ٦/٢٢٨ ـ ٢٢٩
(٢٥) المسعودي ، المصدر السابق ٣١٤
(٢٦) الطبري ، المصدر السابق ٦/٢٢٨ ـ ٢٢٩
(٢٧) المسعودي المصدر السابق ٣١٤
(٢٨) البلاذري المصدر السابق ، ٢ ورقة ١٠ ا
(٢٩) بُسْت : مدينة بين سجستان وغزنسن وهراة (ابن عبدالحق البغدادي ، مراصد الاطلاع ١١/١٩٦)
(٣٠) الرُّخج : كورة من اعمال سجستان ، ومدينة من نواحي كابل ، نفس المصدر ، ٢/٦١٠)
(٣١) اليعقوبي ، تاريخ ، ج ٣ (النجف ١٩٦٤) ٢٣
(٣٢) الاقامة والسياسة ٢ ٣٥
(٣٣) البلاذري ، انساب ، ٢ ورقة ١٠ ا ، الطبري ، تاريخ ٦/٢٢٨
(٣٤) البلاذري ، انساب ٢ ورقة ١٠ ب
(٣٥) نفسه ، ٢ ورقة ١٠ ب
(٣٦) اليعقوبي ، تاريخ ٣/٢٣
(٣٧) البلاذري ، انساب ، ٢/ورقة ١٠ ب
(٣٨) نفسه ، ٢/ورقة ١٠ ب
(٣٩) الطبري ، تاريخ ، ٦ ٢٣٤ ـ ٢٣٥
(٤٠) نفسه ، ٦ ٢٣٥
(٤١) البلاذري ، انساب ، ٢/ ورقة ١٠ ب

(٤٢) الطبري . تاريخ . ٦ / ٣٣٥
(٤٣) نفسه . ٦ / ٣٣٥
(٤٤) البلاذري . انساب ٢ /ورقة ١٠ ب
(٤٥) الطبري . تاريخ . ٦ / ٣٣٥
(٤٦) نفسه . ٦ / ٣٣٦ . البلاذري . انساب . ٢ ورقة ١٠ ب ـ ١١ ا
(٤٧) ابن قتيبة . المصدر السابق . ٢ / ٣١٠
(٤٨) البلاذري . انساب . ٢ / ورقة ١١ ا
(٤٩) الطبري . تاريخ . ٦ / ٣٣٩
(٥٠) نفسه . ٦ / ٣٣٧
(٥١) نفسه . ٦ ٣٨١
(٥٢) ابن قتيبة . المصدر السابق . ٢ / ٤٤
(٥٣) البلاذري . انساب . ٢ / ورقة ١٠ ب ـ ١١ ا . الطبري . تاريخ ٦ / ٣٣٦
(٥٤) البلاذري . انساب . ٢ / ورقة ١١ ا
(٥٥) نفسه . ٢ /ورقة ١١ ا
(٥٦) نفسه . ٢ /ورقة ١٠ ب ـ ١١ ا
(٥٧) الطبري . تاريخ ٦ / ٣٣٦ . ابن خلدون . تاريخ . م ٣ (القاهرة ١٢٨٤) ٤٨
(٥٨) اليعقوبي . تاريخ . ٣ / ٢٣
(٥٩) ابن قتيبة . المصدر السابق . ٢ / ٣٥
(٦٠) نفسه . ٢ / ٢٧ . الدنيوري . الاخبار الطوال . ٣١٨ . ٣١٩
(٦١) كان عبدالملك بن مروان يلقبه اعداءه بذلك
(٦٢) البلاذري . انساب . ٢ ورقة ١١٢
(٦٣) نفسه . ٢ ورقة ١٢ ب
(٦٤) نفسه . ٢ ورقة ١٢ ا
(٦٥) الطبري . تاريخ . ٦ / ٣٣٩
(٦٦) الذهبي . دول الاسلام . ج ١ (القاهرة ١٣٦٤) ٣٨
(٦٧) الطبري ٦/ ٣٣٩
(٦٨) ابن الاثير . الكامل في التاريخ . ج ٤ (بيروت ١٩٦٥) ٤٦٤ ـ ٤٦٥
(٦٩) وهو طوج بين بغداد والاحواز (الحموي . معجم البلدان . ٣/ ٧٩
(٧٠) انظر هامش (٩) من البحث
(٧١) انساب الاشراف . ٢ ورقة ١٢ ب
(٧٢) المطهر القدسي . البدء والتاريخ . ج ٢ (شالون ١٨٩٩) ١٨٤
(٧٣) المسعودي . التنبيه والاشراف (بيروت ١٩٦٥) ٣١٤
(٧٤) المطهر المقدسي . المصدر السابق . ٣/ ١٨٤
(٧٥) اليعقوبي . تاريخ ٣/ ٢٤ . الطبري . تاريخ ٦/ ٣٤٠
(٧٦) البلاذري . انساب . ورقة ١٢ ا
(٧٧) نفسه . ٢ / ورقة ١٣ ا
(٧٨) نفسه . ٢ ورقة ٧٨
(٧٩) الطبري . تاريخ ٦/ ٣٤٠
(٨٠) انساب . ٢ ورقة ١٣ ا
(٨١) الزاوية موضع قرب البصرة (انظر ابن عبدالحق البغدادي . مراصد الاطلاع ٢/ ٦٥٦
(٨٢) انساب . ٢ ورقة ١٣ ا
(٨٣) الطبري . تاريخ ٦/ ٣٤٠
(٨٤) ابن العماد الحنبلي . شذرات الذهب . ج ١ (القاهرة ١٣٥٠) ٩٠
(٨٥) الطبري . تاريخ ٦ / ٣٤١
(٨٦) ابن العماد الحنبلي . شذرات الذهب ١/ ٩٠
(٨٧) المسعودي . مروج ٣/ ١٣٨ ـ ١٣٩
(٨٨) انساب الاشراف . ٢ ورقة ١٣ ا
(٨٩) الطبري . تاريخ . ٦/ ٢٨١ . ابن الاثير . الكامل . ٤ / ٤٦٥
(٩٠) خليفة بن خياط . تاريخ . ج ١ (النجف ١٩٦٧) ٢٨٨
(٩١) خليفة بن خياط . تاريخ . ج ١ (النجف ١٩٦٧) ٢٨٦
(٩٢) الزاوية . انظر هامش رقم (٨١) من البحث
(٩٣) البلاذري . انساب . ٢ ورقة ١٣ ا
(٩٤) نفسه . ٢ ورقة ١٣ ا
(٩٥) الطبري . تاريخ ٦/ ٣٤٢
(٩٦) ابن الاثير . الكامل . ٤/ ٤٦٥
(٩٧) البلاذري . انساب . ٢ ورقة ١٤ ا
(٩٨) نفسه . ٢ ورقة ١٤ ا
(٩٩) نفسه . ٢ ورقة ١٤ ا
(١٠٠) محمد ابوالفضل ابراهيم . ايام العرب في الاسلام . (القاهرة ١٩٦١) ٤٦٦ ـ ٤٦٧
(١٠١) البلاذري . انساب . ورقة ١٤ ا
(١٠٢) نفسه . ٢ ورقة ١٤ ب
(١٠٣) نفسه . ٢ ورقة ١٥ ب
(١٠٤) نفسه . ٢ ورقة ١٥ ب
(١٠٥) اليعقوبي . تاريخ . ٣/ ٢٤
(١٠٦) الطبري . تاريخ . ٦/ ٢٨١
(١٠٧) نفسه . ٦/ ٣٤٣
(١٠٨) محمد ابوالفضل ابراهيم . ايام العرب . ٤٦٦/ ٤٦٧
(١٠٩) البلاذري . انساب . ورقة ١٤ ب
(١١٠) الطبري . المصدر السابق . ٦/ ٣٤٥
(١١١) ابن الاثير . المصدر السابق . ٤/ ٤٦٨
(١١٢) ابن كثير . البداية والنهاية . ج ٩ (بيروت ١٩٦٦) ٤٠
(١١٣) الطبري . تاريخ . ٦/ ٣٤٦
(١١٤) البلاذري . انساب . ورقة ١٥ ب
(١١٥) الدنيوري . الاخبار الطوال . ٣١٧
(١١٦) خليفة بن خياط . تاريخ . ١/ ٢٨٧
(١١٧) القادسية . تبعد عن الكوفة خمسة عشر فرسخا . وبينها وبين العذيب اربعة اميال (ياقوت . معجم . ٤/ ٢٩١)
(١١٨) العُذيب . موضع ماء بين القادسية والمغثية وتبعد عن القادسية اربعة اميال وهي حد السواد (ياقوت . ٤/ ٩٢)
(١١٩) وادي السباع من نواحي الكوفة (ياقوت . ٥/ ٣٤٣)
(١٢٠) هيت تقع فوق الانبار . مجاورة للبرية (ياقوت . ٥/ ٤٢١)
(١٢١) تقع بين الفراد ودجلة مجاورة للشام . (نفسه . ٢/ ١٣٤)
(١٢٢) دير قرة يقع بازاء دير الجماجم ملاصق لطرف البر (نفسه . ٢/ ٥٢٦)
(١٢٣) الفلوجه موضع على الفرات . والجمع فلاليج (نفسه . ٤/ ٢٧٥)
(١٢٤) عين التمر غربي الكوفة على طرف البرية (نفسه . ٤/ ١٧٦)
(١٢٥) البلاذري . انساب . ٢ / ورقة ١٥ ب
(١٢٦) دير الجماجم . هو بظاهر الكوفة على سبعة فراسخ منها على طرف البر الى البصرة (الحموي . ٢ / ٥٠٣ . ٥٠٤)
(١٢٧) نفسه . ٢/ ٥٢٦
(١٢٨) الطبري . تاريخ . ٦/ ٣٤٦ ـ ٣٤٧
(١٢٩) انساب الاشراف . ٢ ورقة ١٦ ا
(١٣٠) نفسه . ٢ ورقة ١٧ ا
(١٣١) المسعودي . مروج الذهب . ٣/ ٢٤
(١٣٢) انساب . ٢ ورقة ١٦ ا
(١٣٣) نفسه . ٢ ورقة ١٦ ا
(١٣٤) الطبري . المصدر السابق . ٦/ ٣٤٧
(١٣٥) انساب الاشراف . ٢ ورقة ١٦ ا
(١٣٦) الكامل في التاريخ . ٤ / ٤٧٠
(١٣٧) البلاذري . انساب . ٢ ورقة ١٦ ا . الطبري . تاريخ ٦/ ٣٤٨
(١٣٨) الطبري . تاريخ . ٦/ ٣٤٨
(١٣٩) نفسه . ٦/ ٣٤٨
(١٤٠) انساب الاشراف . ٢ ورقة ١٦ ا
(١٤١) نفسه . ٢ ورقة ١٦ ا
(١٤٢) ابن الاثير . المصدر السابق . ٤٧١ ـ ٤٧٢
(١٤٣) الطبري . تاريخ . ٦/ ٣٥٧ ـ ٣٥٨
(١٤٤) نفسه . ٦/ ٣٥٩
(١٤٥) نفسه . ٦/ ٣٦٣
(١٤٦) الذهبي . دول الاسلام . ج ١ (القاهرة ١٣٦٤) ٢٨
(١٤٧) الطبري . المصدر السابق . ٦/ ٣٦٤
(١٤٨) ابن الاثير . المصدر السابق . ٤/ ٤٨١ ـ ٤٨٢
(١٤٩) ابن عبدربه . العقد الفريد . ج ٤ (القاهرة ١٩٦٢) ١١٥ ـ ١١٧
(١٥٠) البلاذري . انساب . ٢ ورقة ١٢٣
(١٥١) مسكن : وهو موضع من اوانا على نهر دُجيل عند دير الجاثليق (مراصد الاطلاع ٣/ ١٢٧١)
(١٥٢) خليفة بن خياط . تاريخ . ١/ ٢٨٢
(١٥٣) ابن قتيبة . الامامة السياسية . ٢/ ٤١
(١٥٤) نفسه . ٢/ ٤١
(١٥٥) الطبري . تاريخ . ٦/ ٣٦٦
(١٥٦) ابن قتيبة . المصدر السابق . ٢ / ٤٢
(١٥٧) ابن الاثير . المصدر السابق . ٤ / ٤٨٣
(١٥٨) الطبري . تاريخ . ٦ / ٣٣٩
(١٥٩) خليفة بن خياط . تاريخ ١/ ٢٨٠
(١٦٠) الطبري . تاريخ . ٦/ ٣٤٥
(١٦١) نفسه . ٦/ ٣٥٨
(١٦٢) الطبري . نفسه ٦/ ٣٦٨
(١٦٣) نفسه ٦ / ٣٦٨

(١٦٤) نفسه ٦/ ٢٧٠

(١٦٥) نفسه . ٦/ ٢٧٠

(١٦٦) نفسه . ٦/ ٢٧٠

(١٦٧) خليفة بن خياط ، تاريخ ، ٢/ ٢٨٠

(١٦٨) الطبري ، المصدر السابق ٦/ ٢٧١ ـ ٢٧٢ . ٢٧٢ . ٢٧٨

(١٦٩) نفسه ، ٦/ ٢٩٠

(١٧٠) نفسه ، ٦/ ٣٨٩

(١٧١) الدينوري ، المصدر السابق ، ٣٢٠

(١٧٢) الطبري ، المصدر السابق، ٦/ ٢٩٠

(١٧٣) ابن كثير ، المصدر السابق ، ٩/ ٥٢

(١٧٤) الدينوري ، المصدر السابق ، ٣٢٠

(١٧٥) الطبري ، المصدر السابق ٦/ ٢٩١

(١٧٦) ابو الفداء ، المختصر في اخبار البشر ، ج ٢ (بيروت ١٩٥٦) ١١٥

(١٧٧) ابن كثير ، المصدر السابق ، ٩/ ٥٢

(١٧٨) الطبري ٦/ ٢٩٠

(١٧٩) الدينوري ، المصدر السابق ، ٩٧

مصادر ومراجع البحث[١٨٠]

ابن سعد ، محمد بن سعد كاتب الواقدى (ت) ، ٢٣٠هـ . ...

الطبقات الكبرى (بيروت ١٩٦٨) .

خليفة بن خياط ، ت ، ٢٤٠ هـ .

...... تاريخ خليفة (النجف الاشرف ، ١٩٦٧) .

ابن قتيبه ، عبدالله بن مسلم (ت ، ٢٧٦ هـ) .

..... الامامة والسياسة (المنسوب اليه) (القاهرة بدون تاريخ)

...... المعارف (القاهرة ١٩١٠) .

البلاذري ، احمد بن يحي (ت ٢٧٩ هـ) .

...... انساب الاشراف ، مخطوطة استنبول رقم ٥٩٨ .

الدينورى ، احمد بن داود (ت ٢٨٢ هـ) .

.... الاخبار الطوال (القاهرة ١٩٦٠) .

اليعقوبى ، احمد بن واضح (ت ٢٨٤ هـ) .

.... التاريخ (النجف ١٩٦٤) .

الطبرى ، محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ) .

.... تاريخ الرسل والملوك ، (القاهرة ١٩٧١)

ابن عبدربه ، احمد بن محمد (ت ٣٢٨ هـ) .

.... العقد الفريد ، ج ٤ (القاهرة ١٩٦٢) .

المسعودى ، على بن الحسين ت ، ٣٣٦ هـ

.... التنبيه والاشراف (بيروت ١٩٦٥) .

.... مروج الذهب (القاهرة ١٩٦٧) .

المقدسي ، مطهر بن طاهر (ت ٣٥٥ هـ) .

.... البدء والتاريخ ج ٢ (شالون ، ١٨٩٩م) .

ابن حزم ، على بن احمد الاندلسي (ت ٤٥٦) .

.... جمهرة انساب العرب ، تحقيق عبدالسلام هارون (القاهرة ١٩٧١) .

الحموى ، ياقوت بن عبدالله (ت ، ٦٢٦ هـ) .

...... معجم البلدان (بيروت ، ١٩٥٥) .

ابن الأثير ، علي بن ابى كرم (ت ، ٦٣٠ هـ) .

.... الكامل في التاريخ (بيروت ١٩٦٥) .

ابو الفدا ، اسماعيل (ت ، ٧٣٢ هـ) .

.... المختصر في اخبار البشر (بيروت ١٩٥٦) .

ابن عبدالحق البغدادى ، عبدالمؤمن بن عبدالحق (ت ، ٧٣٩) .

.... مراصد الاطلاع على اسماء الأمكنة والبقاع (بيروت ، ١٩٥٤) .

الذهبى ، محمد بن احمد بن عثمان ، ت ، ٧٤٨ هـ .

.... العبر في خبر من عبر (الكويت ١٩٦٠) .

.... دول الاسلام (القاهرة ١٣٦٤) .

.... ميزان الاعتدال (القاهرة ١٩٦٣)

ابن كثير ، اسماعيل بن عمر (ت ، ٧٧٤ هـ) .

.... البداية والنهاية (بيروت ١٩٦٦)

ابن خلدون ، عبدالرحمن (ت ، ٨٠٨هـ) .

.... تاريخ ابن خلدون (القاهرة ، ١٢٨٤ هـ) .

ابن حجر ، احمد بن على العسقلانى (ت ٨٥٢ هـ) .

.... تهذيب التهذيب (حيدر آباد ١٣٢٥ ـ ١٣٢٧ .)

ابن العماد الحبتلى ، عبدالحي بن العماد (ت ١٠٨٩ هـ) .

.... شذرات الذهب في اخبار من ذهب (القاهرة ، ١٣٥٠) .

المراجع الحديثة :

محمد ابو الفضل ابراهيم ، وعلى محمد البجاوب .

.... ايام العرب في الاسلام (القاهرة ١٩٦١) .

---

(١٨٠) رتبت قائمة المصادر حسب وفاة مؤلفيها

الفضل بن الربيع الحاجب والوزير*

١٣٨-٢٠٨هـ ٧٥٥-٨٢٤م

بقلم :
الدكتورة فضيلة الشامى
كلية الآداب / جامعة بغداد
قسم التاريخ

لقد زخر العصر العباسى الاول بطائفة من الشخصيات السياسية التى لم يسمح الدهر بمثلها والذى كان لها دور فعال وبارز على مسرح الاحداث السياسية الجارية آنذاك . وقد كان هؤلاء معتمد الخلفاء العباسيين لتدبير شؤونهم الادارية والسياسية . كما كانوا موضع ثقتهم ومشورتهم سواء في القضايا الصغيرة أو الكبيرة . زيادة على ذلك فانهم كانوا عادة لم يسلكوا طريقاً دون اخذ نصحهم والاستفادة من رايهم . وقد تمثل هذا في الفضل بن الربيع الحاجب والوزير والكاتب ايضا ، والذى ورث تلك المناصب السياسية من والده الربيع، علما بان المناصب الادارية لا تورث قط ، وكأنها تحققت فقط في عهدهم ولاول مرة، وهذا مما يلفت النظر الى ذلك اذ تولى صاحب الترجمة منصب الحجابة والوزارة مثل ابيه فلم يعين بغيرهما مطلقاً، لان والده الربيع (١) كان قد تولى الحجابة والوزارة ايضا لا غيرهما . ولانه كان من ابرز الشخصيات العربية فقربه الخليفة العباسى المنصور وعهد اليه اسمى المناصب السياسية . ومما لاشك فيه ان المنصور كان يشجع ذوى الكفاءات العربية ، اذ لم يكن للنفوذ الفارسى اى تأثير في البلاط العباسى . ومما يذكر ان تلك الشخصيتين عربيتان في الروح والنزعة والهوى (٢). كما ان الطابع العربى كان هو الغالب على تلك النخبة من الرجال القائمين مع الخليفة العباسى على ادارة دفة الدولة.

وعلى اية حال فقد اختار الخليفة المنصور الربيع بن يونس حاجباً له (٣)، حينما تولى الخلافة. والحجابة كانت تعد وجه الخليفة امام الناس ولسانه اليهم . والحاجب بحكم منصبه يطلع على اسرار الخليفة الخاصة ويسهر على سلامته بمراقبة الحرس ، ويحضر المواكب (٤). ونظراً لما امتاز به الربيع من رجاحة العقل وحسن الحديث وكتمان السر والامانة فقد رشحه المنصور لهذا المنصب الخطير دون غيره فنجح فيه ، وادى مهمته خير اداء بدليل ان المنصور لم ينحه عن هذا المنصب طيلة حياته ، كما انه كما يظهر لنا كان يثق به ثقة عمياء حيث رقاه الى درجة الوزارة حينما عزل وزيره أبا ايوب المورياني (٥)، اضافة الى زيادة ثقته به ان جعل ابنه الفضل حاجباً له (٦). والواقع ان الربيع استطاع ان يكسب رضا المنصور لرجاحة عقله وحزمه وفطنته وكان خبيراً بالامور الحسابية ملماً بشؤون الدولة، محباً لفعل الخير، عارفاً بآداب الملوك (٧)، محدثا (٨)، كما كان من افاضل الرجال علماً وادباً وحسن خلق وسداد رأى. لم تصدر عنه اية هفوة او اساءة طيلة خلافة المنصور، لذا كان ممدحاً (٩)، كما يعرف عنه اباء النفس مثال ذلك ان المنصور دعاه يوماً فقال له : سلنى ما تريد فقد سكت حتى نطقت وخفضت حتى تقلصت واقللت حتى اكثرت - فقال : والله يا أمير المؤمنين ما ارهب بخلك ولا استقصر عمرك ، ولا استصغر فضلك، ولا اغنم مالك، وان يومى بفضلك على احسن من امسى وغدك في تأميلك احسن من يومى، ولو جاز ان يشكرك مثلى بغير الخدمة والمناصحة لما سبقنى في ذلك احد . قال : صدقت بهذا مثلك احلل هذا المحل (١٠).

والحقيقة ان الخليفة المنصور لم يكتف بتكليف الربيع الحجابة والوزارة من بعدها بل قلده نفقاته والعرض عليه (١١). ومما يدلل تكريم المنصور له ان اقطعه محلة كبيرة مشهورة ببغداد سميت بقطيعة الربيع لانه اقطعه اياها (١٢) ، وقد اثر عنه ان المنصور ساله يوماً : ويحك يا ربيع ما اطيب الدنيا لولا الموت ، فقال له : ما طابت الا بالموت ، قال : كيف بذلك ؟ قال : لولا الموت لم تقعد هذا المقعد ، قال: صدقت (١٣) .

ومما يروى عن رجاحة عقله ان المنصور قال له يوم : يا ربيع سل حاجتك ؟ قال : حاجتى يا أمير المؤمنين ان تحب الفضل ابنى، فقال : ويحك ان المحبة تقع باسباب ، فقال له : قد امكنك الله من ايقاع سببها قال : ماذاك : قال : تفضل عليه فانك اذا فعلت ذلك احبك، واذا احبك احببته، قال : قد والله احببته الى قبل ايقاع السبب، ولكن كيف اخترت له المحبة دون كل شيء ؟ قال: لانك اذا احببته كبر عندك صغير احسانه ، وصغر عندك كبير اساءته ، وكانت ذنوبه كذنوب الصبيان وحاجته اليك حاجة (١٤)، ويؤكد ابن خلكان (١٥) ان المنصور اذا اراد بانسان خيراً أمر بتسليمه الى الربيع.

ولم يزل الربيع حائزاً ثقة المنصور الى ان توفى المنصور سنة ١٥٨ هـ ومما يلاحظ ان المنصور لما توفى ببئر ميمون لم يحضر وفاته الا خدمه والربيع (١٦) .

ومما لاريب فيه ان الربيع استمر مخلصاً للخلافة فاخذ البيعة

لابنه المهدى . ولهذا نرى يستحجبه المهدى ، وقد جعله ساعده الايمن، وكان غالبا ما يستشيره ويأخذ برأيه . ويؤكد صاحب العقد الفريد (١٧) ان المهدى شاور أهل بيته في حرب خراسان فقال له الربيع : أيها المهدى ان تصاريف وجوه الرأى كثيرة وان الاشارة ببعض مصاريف القول يسيرة ، ولكن خراسان ارض بعيدة المسافة، مترامية الشقة متفاوتة السبل فاذا ارتأيت من يحكم التدبير ويبرم التقدير، ولباب الصواب رايا قد احكمه نظرك، وقلبه تدبيرك، فليس وراءه مذهب الحجة طاعن.

وهنا نلاحظ ان الخليفة المهدى ابقى الربيع حاجباً له حتى وفاته ، ولم يستوزره رغم ثقته به ويبدو ان المهدى كان يعتبر الحجابة اقرب اليه من الوزارة لذا ابقاه بهذا المنصب، كما ارسله مع ابنه هارون الرشيد في حرب الروم فانتصرا هنالك (١٨)، أما الخليفة الهادى الذى جاء بعد المهدى فقد اختلفت ميوله معه لاسباب تعود الى شغب الجنود في بغداد بعد وفاة المهدى مستغلين بعد الخليفة الجديد عن مركز الخلافة، وقد تمادوا اكثر من ذلك اذ توجهوا نحو قطيعة الربيع فاحرقوها ، وكادوا ان يعتدوا على مركز الخلافة في بغداد لولا دعوة الخيزران زوجة المهدى الفارسية للربيع بانقاذ الموقف وتهدئة الاوضاع - رغم بغضها له لعروبته الاصيلة - فاستجاب لدعوتها واستطاع بحكمته ودرايته ان يوزع الاموال على الجنود لسنتين متتاليتين دون الرجوع الى موافقة الهادى لبعده وهو في جرجان (١٩)، ولما علم الهادى ارسل اليه يهدد بالقتل لكن تدخل يحيى بن خالد البرمكي حال دون ذلك لانه كان يوده (٢٠)، اذ نصح الربيع بارسال الفضل لاستقباله في همدان، وتقديم الهدايا له، اضافة الى ذلك فقد استقبله بنفسه وهو يصل دار الخلافة، كما افهمه سبب تصرفاته مع الجنود فقبله وزال غضبه، بل زاد في ذلك ان ولاه وزارته وتدبير اموره والاشراف على ديوان الرسائل. كل تلك الامور سرعان ما تبدلت وعاد التباغض بينهما والظاهر ان الهادى لم يكن يثق به لذا عزله عن الوزارة وخلال السنة الاولى من توليه الخلافة بعد ان انتقل الى عيساباذ (٢١) وجعله مشرفاً على ديوان الزمام فقط ، ولم يزل عليه الى ان توفي وكان ذلك عام تسعة وستين ومائة للهجرة (٢٢)، ويروى الطبرى (٢٣) ان الهادى كان ينوى قتل الربيع فلم ينفذه لانه توفي بعد مضى عدة اشهر من خلافة الهادى وقد صلى عليه الرشيد ولي عهد الهادى ، ولم يحضر وفاته الهادى أبداً.

من هذه المقدمة نتبين البيئة التى نشأ فيها الفضل بن الربيع والسمات العالية والاخلاق الراقية التى ورثها من أبيه . والواقع ان الفضل كان يعد من رجال الدهر رأيا وحزماً ودهاء (٢٤). فقد اتخذه الخليفة الهادى رغم سوء علاقته بابيه حاجباً له (٢٥)، طيلة حياته، كما جعله من اقرب الناس اليه. ويعرف عن الفضل انه كان قد برع بالكتابة (٢٦) مثل ابيه، وحينما يغيب عن بغداد كان يخلفه في الحجابة عبدالله محمد البواب (٢٧)، ويخطىء من يقول (٢٨) : ان المهدى اتخذ الفضل حاجباً له اذ لم يحجب الفضل المهدى بل حجبه والده الربيع. ومهما يكن من امر فان الهادى رغم ثقته به الا انه لم يتخذه وزيرا مطلقاً، وبقى الفضل بمركز الحجابة حتى وفاة الهادى وتولى الرشيد الخلافة عام ١٧٠ هـ . والجدير بالذكر ان الخليفة الرشيد ابقى الفضل على مهامه ومن هنا ندرك ان تلك الشخصية العربية الفذة قد اخلصت للخلافة العباسية كثيراً فاستحقت ان تنال مركز الحجابة حتى في عهد الخليفة الرشيد حينما صرف عنها محمد بن خالد بن برمك عام تسع ومائة للهجرة (٢٩)، وقد جعله الرشيد كاتباً له اضافة للحجابة (٣٠) لانه كان يتقن الكتابة ايضا ، كما جعله على نفقات العامة والخاصة وبادوريا والكوفة (٣١).

ومما يلفت النظر ان الرشيد كان قد خلع عليه تلك المناصب بعد وفاة امه الخيزران (٣٢) لان الخيزران كانت تحقد عليه حقداً كبيراً وتمنعه من ان يوليه بشيء (٣٣) والواقع ان مرد ذلك العداء يعود الى العصبية العنصرية فالخيزران كما هو معروف ذات اصل فارسى خلاف الربيع وابنه الفضل ذى النزعة العربية الصرفة لهذا دفعت بالرشيد ان لايعتمد عليه فاطاع الرشيد ذلك حتى وفاتها .

وعلى أية حال نجد ان الرشيد لم يكتف بتعيين الفضل للحجابة بل رفعه الى درجة الوزارة (٣٤) بعد ان وضحت لديه عنصرية البرامكة اذ ابعدهم عن السياسة نهائيا . ويبدو ان الخليفة العباسى اصبح يدرك اخطار البرامكة الفرس على الخلافة اذ ان عروبته حالت دون الاعتماد عليهم وهم الذين كانوا يسعون الى اعادة مجد الفرس الغابر، كما انه عرف ان الاعتماد على العرب كفيل بدوام حكم العباسيين وقوتهم، وقد يخطىء من يقول (٣٥) بان الفضل بن الربيع كانت له يد في ابعادهم عن السلطة . ويوضح ابن خلكان (٣٦)، الكره الذى يضمره البرامكة للفضل فيقول : انه تنازع يوماً جعفر بن يحيى والفضل بن الربيع بحضرة الرشيد فقال جعفر للفضل يا لقيط اشارة الى ما كان يقال عن ابيه الربيع انه لايعرف نسبه وابوه ، فقال الفضل : اشهد يا أمير المؤمنين. فقال جعفر للرشيد : تراه من يقيمك هذا الجاهل شاهدا أمير المؤمنين وانت حاكم الحكام .

كما يؤيد الجهشيارى (٣٧) حقد البرامكة نحو الفضل وذلك ان الرشيد قال لجعفر قلد الفضل بريد ناحية يأخذ رزقها ويستعين به على خدمتى، فقال جعفر البرمكى بسلاسة خلقه : اختر فقال الموصل وديار ربيعة فأمر ان تكتب كتبه عليها فراح بها الى ابيه ، فلما عرضها عليه وعرفه حال الفضل وخصوصيته غضب يحيى وقال : هذه ناحية الى اخيك وقد صرفناه عن ارمينية ونصرفه عن هذه، وكان ولي خراج ارمينية وحربها ، وصرف عنها فقال ما كنت لافعل ، فقال فالموصل، فقال لا والله. فكره جعفر اغضاب ابيه ، وواقع الفضل وقرب عليه الرشيد .

من هنا يتبين لنا ان بغض البرامكة للفضل بن الربيع كان يمثل الصراع بين العرب والفرس في العصر العباسى الاول (٣٨)، ولقد تنبأ الفضل بزوالهم حينما قال فيهم (٣٩) :

عسى وعسى يتثنى الزمان عنانه	بتصريف حال والزمان عثور
فتقضى لبانات وتشفى حسائف	وتحدث من بعد الامور امور

وعلى أية حال نجد ان العلاقة بين الرشيد والفضل بقيت وثيقة اذ ان الرشيد كان يدعوه لمرافقته في ترحاله ، فقد رحل الى الحج واخذه معه فدبر اموره (٤٠) ، كما صاحبه الى خراسان فكان نعم

الرفيق ونعم الوزير(٤١) ولازمه حتى وفاة الرشيد بطوس عام اثنين وتسعين ومائة للهجرة (٤٢)، وكان الرشيد يستشيره في الامور الصغيرة والكبيرة بل ذهب الى ابعد من ذلك حينما استشاره فيمن يختاره لتوليه العهد من بعده. وقد اورد الدينوري(٤٣) ان الاصمعي قال : ان الرشيد اتفق رأيه مع رأى الفضل بعد اخذ مشورته في تولية محمد الأمين العهد من بعده ، ويصير عبدالله بعد الأمين ، وتقسم الامور والجنود بينهما على ان يقيم محمد بدار الخلافة، وتولية المأمون خراسان.

ومن الجدير بالاشارة ان الخليفة الرشيد كان يناديه يا عباسى ولربما يدلل على اخلاصه للعباسيين او يريد تقريبه اليهم،وكان يحيى يحب الرشيد ويتودد الى زوجته العربية زبيدة (٤٤) كما ان الرشيد اكرمه حينما بنى منزله فوصله مال الاحواز والتى تقدر بخمسة وثلاثين الف درهم معونة له على بنائها (٤٥) .

وعلى اية حال نلاحظ ان الفضل بن الربيع يواصل جهوده في سبيل خدمة الدولة العباسية دون ملل طيلة خلافة الرشيد ، وقبيل وفاة الخليفة استدعاه معه في رحلته الى خراسان لكن الرشيد مرض فيها وتوفى بطوس (٤٦)، مما اضطر الفضل الى العودة الى دار الخلافة ليعلن البيعة لمحمد الامين . وهكذا يتبين لنا ان الفضل بقى يلازم الرشيد حتى الرمق الاخير ، ويوضح ابو الفداء (٤٧) ان الرشيد لما غشى عليه رأى الفضل على رأسه فقال يا فضل :

احين دنا ما كنت اخشى دنوه	رمتني عيون الناس من كل جانب
فاصبحت مرحوماً وكنت محسداً	فصبراً على مكروه مر العواقب
سابكى على الوصل الذى كان بيننا	واندب أيام السرور الذواهب

ومما لا شك فيه ان اصالة عروبة الفضل جعلته يؤيد البيعة للامين دون اخيه المأمون الذى كان ذا ميول فارسية بتأثير والدته لهذا التف حوله رجال حقدوا على العروبة كالفضل بن سهل وأخيه الحسن وطاهر بن الحسين وغيرهم ممن كانوا يسعون لتكون مرو حاضرة الخلافة العظمى، وتعود لخراسان عظمتها(٤٨)، والواقع ان الفضل بن الربيع اصبح من اكبر انصار الامين وقد اخذ له البيعة من الهاشميين والقواد (٤٩)، ممن وجد في خراسان، وارسل كتاب البيعة الى دار الخلافة بصحبة رجاء الخادم اذ وصلته قبل وصول الفضل الى بغداد(٥٠) ولما علم المأمون بذلك حاول منعه والتصدى له لكن الفضل بن سهل اشار عليه بان لايعترضه وخاف عاقبته (٥١) فسلم الفضل على أثر ذلك .

وعلى اية حال نجد ان الامين حينما تأكد له اخلاص الفضل اكرمه (٥٢) وقلده اموره واعماله (٥٣) والعرض عليه (٥٤) كما جعله كاتبا له(٥٥) ثم استوزره(٥٦)، كما جعل ابنه العباس حاجباً له(٥٧)، وقد زاد الامين في تكريمه ان كتب الى اخيه المأمون التنازل له عن بعض اعمال بخراسان . كما طلب من المأمون وكتب اليه ان يعيده الى بغداد .

هذا وكان يحترمه ويجله فيدعوه الميمون بن الميمون(٥٨)والشيخ، والذى يؤكد ذلك انه كتب الى المأمون كتابا يقول فيه اياك ان تنفذ رايا او تبرم امراً الا برأى شيخك وثقة ابائك الفضل بن الربيع، ويقول له ايضا : ان امرت لاصل عسكرك بعطاء او رزق فليكن الفضل بن الربيع المتولى لاعطائهم على دفاتر يتخذها لنفسه بمحضر من اصحاب الدواوين، فان الفضل بن الربيع لم يزل يتقلده مثل ذلك عند مهمات الامور، وانفذ إلىَّ عند وصول كتابى(٥٩)، كما كتب الى أخيه صالح في خراسان ان يتصرف هو ومن معه برأى الفضل بن الربيع(٦٠) .

والواقع ان الفضل لازم الامين وعاضده(٦١) بل ذهب الى ابعد من ذلك ان اوعز اليه ان يعزل المأمون عن ولاية العهد ويجعلها لابنه موسى لعل ذلك حفاظاً على عروبة الخلافة ويعتقد الطبرى(٦٢) بان المأمون فيما لو انتهت الخلافة اليه سيقضى عليه لكونه من انصار أخيه الامين .

ولقد ايد فكرة الفضل بكر المعتمر(٦٣)، كما ايده على بن عيسى بن ماهان(٦٤) القائد العربى . والواقع ان الامين رحب بها ووافق ان تكون ولاية العهد لابنه موسى بدلاً من اخيه المأمون ، وطالب عماله في الامصار تأييد ذلك، وقد اعترض صاحب ديوان الرسائل يحيى بن سليم (٦٥) حينما شاوره الامين غير ان الامين قال له : لست بذى رأى والرأى الى الشيخ الموفق والوزير الناصح « يعنى الفضل بن الربيع »(٦٦).

من هنا تجسد الخلاف الحقيقى بين الامين والمأمون حتى تطور الى صراع حربى لما علم المأمون بذلك اذ قطع عنه البريد واسقط اسمه من الطراز والضرب(٦٧)، لكن الامين لم يغض الطرف عن ذلك اذ سارع بارسال جيش يقوده على بن عيسى بن ماهان، بعد ان ولاه امارة الجبل وهمذان واصبهان وقم ونهاوند(٦٨) حيث التقى بجيش المأمون والذى كان بقيادة طاهر بن الحسين باشارة الفضل بن سهل(٦٩) وعلى اية حال فان المعركة لم تكن في صالح الامين اذ خسر جيشه المعركة وانهزم على بن عيسى بن ماهان ثم قتل . لكن الامين رغم فشل جيشه الا انه لم تخر عزيمته فاعاد الكرة وامر الفضل بن الربيع ان يجهز جيشاً يقوده عبدالرحمن الانبارى ولكن هذا الجيش لم يستطع المقاومة اذ قتل القائد كذلك مما اضطر الفضل الى استدعاء القائد الكبير العربى اسد بن يزيد بن مزيد الشيبانى قائلا له : انت فارس العرب وابن فارسها(٧٠) وعلى اية حال نجد ان تلك الاستعدادات الحربية لم تجد نفعا اذ خسر جيش الامين امام جيش المأمون والذى كان بقيادة طاهر بن الحسين الفارسى الذى بلغ حقده ان قتل الخليفة الامين دون رضا المأمون . أما الوزير الفضل بن الربيع فانه استتر وذلك عام ١٩٦ هـ(٧١) .

وعلى اية حال نجد ان المأمون رغم انتصار جيشه الا انه لم يقدم من خراسان في هذا الوقت اذ توانى بعض الشيء ولربما كان مرد ذلك الى التأكد من استقرار الاوضاع نهائيا في بغداد. لكن النتيجة جاءت عكس ذلك فقد بايعت اهالى بغداد عمه وهو ابراهيم بن المهدى لانها اعتقدت ان المأمون سيبقى في خراسان وجعلها مركزاً للخلافة ، ومما يلاحظ ان الفضل بن الربيع كان قد شجع ابراهيم بقبول الخلافة بعد الاتصال به (٧٢)، وحينما تمت المبايعة ظهر الفضل من مخبئه حيث رسمه الخليفة الجديد بحجابته (٧٣)، لكن الاوضاع سرعان ما تغيرت ودارت الدائرة مرة اخرى في غير صالح الفضل فقد عاد جيش المأمون مرة اخرى وسيطر على بغداد حيث اختفى ابراهيم بن المهدى وكذلك الفضل بن الربيع(٧٤). وقد جد

المأمون في طلبهما لكنه اخيراً عفا عن عمه وعن الفضل بعد ان مثل بين يديه ثم رد اليه املاكه (٧٥) فقط دون ان يمنحه اى منصب اداری حتی وفاته عام ثمانية ومائتين للهجرة (٧٦)، بعد ان عاش ثمانية وستين عاماً، وقد ترك ثلاثة اولاد هم (٧٧) محمد والعباس وعبدالله (٧٨).

واخيراً وقبل ان انهي هذا المقال اود ان اكشف شيئا عن نشاطاته الادبية وعن علاقاته بالشعراء المعاصرين، ففي الحقيقة ان الفضل بن الربيع الحاجب والوزير والكاتب الا انه رغم ذلك فقد كان يتخذ لنفسه كتابا متعددين، منهم داود بن بسطام وموسى بن عيسى بن يزدانيرود وعبدالله بن نعيم (٧٩) ويحيى بن سليم (٨٠)، كما قلد ديوان الخراج علي بن الهيثم حينما استوزره الخليفة هارون الرشيد (٨١).

ولا ريب ان طيبة اخلاقه حرضت الشعراء يمدحونه بقصائدهم وعلى راسهم الشاعر العباسى ابو نؤاس (٨٢) (الحسن بن هانى) والذي كان شعره من احب الاشعار له وقد قال ذلك جفيد الفضل ان قال (٨٣) ما مدحنا شاعر احب الينا من قول ابى نؤاس (٨٤).

ساد الملوك ثلاثة ما منهم   ان حصلوا الا اغر قريع
ساد الربيع وساد فضل بعده   وعلت بعباس الكريم فروع
عباس عباس اذا احتدم الوغى   والفضل فضل والربيع ربيع

والجدير بالاشارة ان ابا نؤاس شديد الاعجاب بالفضل بن الربيع وقد قال فيه مديحا زخر ديوانه منها(٨٥)

مامن يدٍ في الناس واحدة   كيد ابو العباس مولاها
نام الثقاة على مضاجعهم   وسرى الى نفسي فأحياها
قد كنت خفتك ثم امنني   من ان اخافك خوفك الله
فعفوت عني عفو مقتدر   حلت له نقم فألغاها

منها(٨٦):

رأيت الفضل يأتي كل فضل   فقل له المشاكل والنظير
وما استغلى ابو العباس مدحا   ولم يكثر عليه له كثير
ولم تك نفسه نفسين فيه   ليفصل بين رأييه مشير

فيه ايضا(٨٧):

ابا العباس ما ظني بشكري   اذا ما كنت تعفو بالذميم
واني والذي حاولت مني   لمعوج دفعت الى مقيم

ويقول ابونؤاس ايضا (٨٨):

لقد نزلنا ابا العباس منزلة   ما ان ترى الابصار مطرحا
وكلت بالدهر عينا غير غافلة   من جود كفك تأسو كلما جرحا

ويغالي ابونؤاس في مدحه بقوله(٨٩):

يا بن ابي العباس انت الذي   سماؤه بالجود مدرار
اتتك اشعاري فاذريتها   وفيك اشعار واشعار
يرجو ويخشى حياتك الورى   كأنك الجنة والنار
فقبلا منك اباك الذي   جرت له في الخير أشار

وفيه ايضا(٩٠):

اليك ابا العباس عديت ناقتي   زيادة ود وامتحان كريم
لأعلم ما تأتي وان كنت عالما   بأنك - مهما قلت - غير مليم

ويصف ابونؤاس سماحة الفضل بن الربيع فيقول(٩١):

يا فضل قد اودعتني عظة   ما بعدها غلط ولا سهو
وبرئت مما تستريب به   فليهنني بك ذلك البرو
واقبل ابا العباس عذري من   لفظ الصبي مذاقه حلو
ان ضاق عفوك وهو ذو سعة   عني فليس بواسع عفو
انت الذي الف السماح فما   غير السماح لقلبه لهو
تغدو جميع العرض وافرة   والمال معتصر النوى نضو

ويمدح كرمه(٩٢):

يا فضل غاية خلق الله كلهم   اذا ضربنا بجود غاية المثل
كم قائل لك من داعٍ وقائلة   نفسي فداك ابي العباس من رجل

كما قال فيه (٩٣):

وليس لله بمستنكر   ان يجمع العالم في واحد

والواقع ان ابا نؤاس لم يمدح الفضل فقط بل مدح ابنه العباس ايضا فقد قال فيه (٩٤):

وان عباس مثل والده   ليس الى غاية بمسبوق
تانق الله حين صاغكما   ففقتما الناس اى تانيق
فصور الفضل من ندى وحجى   وانت من حكمة وتوفيق

وعلى اية حال فقد مدح الفضل بعض الشعراء ايضا بقولهم (٩٥)

كم من مقيم ببغداد على طمع   لولا رجاء ابي العباس لم يقم
البدر ان نظروا والبحر ان رغبوا   والحصن ان رهبوا والسيف ذو السقم

هذا ومما يلفت النظر ان الفضل بن الربيع كان يوصف بأباء النفس كريمها فقد قال له الخليفة الرشيد يوما في كلام جرى: كذبت، فقال له: وجه الكذوب لا يقابلك، ولسانه لا يخاطبك (٩٦).

والحقيقة انه عرف للفضل بقلة الشعر ومن شعره كما ورد على لسان الصولى (٩٧):

اني امرؤ من هاشم   بفناء معمور النواحي
اهل الهدى وذوى التقى   واولى (٩٨) البسالة والسماح
اهل المعالم والمكارم   والكمال برغم لاحي
يتالمون من الصدو   د ويصبرون على الجراح

كما انشد ايضا(٩٩)

كنت صبيا وقلبي اليوم سالى   عن حبيب يشي في كل حال
لم يكن دائما على العهد فاستبد   لت منه موافقا لوصالى

لقد عرف عن الفضل انه كان محدثا اضافة لادبه فما حدث به انه اسند الحديث عن ابيه وعن المنصور وعن جده وعن ابن عباس عن رسول الله (ص) (١٠٠)

ومن ادبه انه عاتبه بعض بني هاشم في ركوبه بغلة فقال له: هذا مركب تطامن عن خيلاء الفرس(١٠١)وارتفع عن ذلة الحمار، وخير الامور اوسطها(١٠٢) من حكمته انه قال: من كلم الملوك في الحاجات في غير وقت الكلام لم يظفر بحاجته، وضاع كلامه، وما اشبههم في ذلك الا باوقات الصلوات لا تقبل الا فيها، ومن اراد خطاب الملوك في شيء فليرصد الوقت الذي يصلح في مثله ذكر ما اراد، وبسبب شيئا من الاحاديث يحسن ذكره يعقبه(١٠٣) كما قال: مسئلة الملوك عن احوالهم من تحيات النوكى، فاذا اردت ان تقول: كيف اصبح الامير؟ فقل: صبح الله الامير بالكرامة، واذا اردت ان تقول:

كيف يجد الامير نفسه ؟ فقل : انزل الله على الامير الشفاء والرحمة ، فان المسئلة توجب الجواب ، فان لم يجبك اشتد عليك وان اجاب اشتد عليه (١٠٤)

لقد عاصر الفضل بن الربيع الشاعر العباسي اسحق بن ابراهيم الموصلي (١٠٥) كما عاصره الشاعر ابو العتاهية، وعايشه ايضا ابو عبيدة «معمر بن المثني التيمى النحوى» وكذلك الاصمعي وكانا يحضران مجلسه (١٠٦)

الهوامش

١ ـ الربيع بن يونس بن محمد بن عبدالله بن ابي فروة. واسم ابي فروة كيسان مولى الخليفة عثمان بن عفان (ابن خلكان. ابو العباس شمس الدين احمد: وفيات الاعيان. تحقيق احسان عباس. بيروت ١٩٧٧. الجزء الرابع ص ٣٧، الخطيب البغدادي: ابوبكر احمد بن علي الخطيب تاريخ بغداد بيروت، المجلد الثاني عشر ص ٣٤٣، المرزباني: ابى عبيدالله.

محمد بن عمران بن موسى، معجم الشعراء ، تحقيق عبدالستار احمدفراج القاهرة ١٣٧٩ هـ ١٩٦٠ م ص ١٨٢. طاش كبرى زادة . مفتاح السعادة تحقيق كامل بكرى وعبدالوهاب ابو النور، الجزء الثاني ص ٢٠٣. ويرى الجهشياري (ابو عبدالله محمد بن عبدوس) في كتابه الوزراء والكتاب تحقيق مصطفي السقا وابراهيم الابياري، مصر ١٣٥٧ هـ ١٩٨٠ م. ان والده يونس كان من الشراة الخوارج، كما يضيف ان كيسان هو مولى الحارث الحفار مولى عثمان بن عفان، ويؤيده ابن خلكان في وفياته ج ٤ ص ٣٧. اما من اين جاء لقب ابى فروة فيروى ابن خلكان في وفيات الاعيان ج ٢ ص ٢٢٩ انه قيل لجده ابو فروة لانه ادخل المدينة وعليه فروة .

٢ ـ الجومرد : عبدالجبار، ابو جعفر المنصور، بيروت ١٣٨٣ هـ ١٩٦٣ م ص ٢٨٧.

٣ ـ الخطيب البغدادي . تاريخ بغداد م ٢ ص ٢٤٣ الكازروني ؟ (ظهر الدين علي بن محمد البغدادي) مختصر التاريخ، تحقيق مصطفى جواد بغداد. ١٩٧٠ ص ١١٧.

٤ ـ الجومرد : ابو جعفر المنصور ص ٢٨٧.

٥ ـ ابن خلكان . وفيات الاعيان ج ٢ ص ٢٩٤.

٦ ـ المرزباني : معجم الشعراء ص ١٨٢، الزركلي ؟ (خير الدين) الاعلام، بيروت ج ٥ ص ٣٥٢. ويقول الجهشياري في الوزراء والكتاب ص ١٢٥ ان المنصور قال للربيع. قد وليتك الوزارة والعرض ووليت ابنك الفضل الحجابة

٧ ـ حسن: ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام السياسي، الطبعة السابعة مصر ١٩٦٤ ج ٢ ص ٢٥٧، وفي حسن اخلاق الربيع راى المنصور يوما في بستانه شجيرة من شجر يسمى الخلاف فلم يدر ما هي فقال يا ربيع ، ما هذه الشجرة ؟ فقال الربيع : اجماع ووفاق. وكره ان يقول خلاف. حسن ابراهيم ج ٢ ص ٢٥٨.

٨ ـ يؤيد السيوطي (جلال الدين عبدالرحمن) ذلك في كتابه تاريخ الخلفاء تحقيق محمد محي عبدالحميد القاهرة ص ٢٦٣ بان الربيع قال سمعت المنصور يقول الخلفاء اربعة ابوبكر وعمر وعثمان وعلي، والملوك اربعة معاوية وعبدالملك وهشام وانا .

٩ ـ يذكر ابو اسحق ابراهيم بن علي الحصري في كتابه زهر الآداب وثمر الالباب تحقيق علي محمد البجاري، مصر ١٣٧٢ هـ ١٩٥٢ م الجزء الاول ص ٥٤١ انه قيل للعتابي امدحت احدا ؟ قال لا وليس لي على ذلك قدرة. فقيل له فقد مدحت الربيع ؟ فقال ذلك ليوم يستحق فيه المدح فقلت .

ومعضلة قام الربيع ازاءها	ليعمد ركن الدين لما تهدما
بمكة والمنصور رهن كما اتى	اخا الوحي داعي ربه فيقدما
غداة عداة الدين شاحذة المدى	اليه وغول الحرب فاغرة فما

١٠ ـ الهاشمي احمد. جواهر الادب القاهرة ١٢١٥ هـ ج ١ ص ٤٢١

١١ ـ الجهشياري. الوزراء والكتاب ص ١٢٥

١٢ ـ ابن خلكان . وفيات الاعيان ج ٢ ص ٢٢٩

١٣ ـ المصدر السابق

١٤ ـ ابن خلكان . وفيات الاعيان ج ٢ ص ٢٩٤ الجهشياري. الوزراء والكتاب ص ١٢٥ ابن العماد (ابو الفلاح عبدالحي الحنبلي) شذرات الذهب بيروت ١٣٩٩ هـ ج ٩ ١٩٧١ م ج١ ص ٢٧٤

١٥ ـ وفيات الاعيان ج ٢ ص ٢٩٥

١٦ ـ الصدفي) (رزق الله منقريوس) تاريخ دول الاسلام، مصر ١٢٢٥ ـ ١٩٠٧ ج ١ ص ٩٤

١٧ ـ ابن عبد ربه ابو عمر احمد بن محمد الاندلسي. العقد الفريد، تحقيق احمد امين واحمدالزين وابراهيم الابياري، الطبعة الثالثة القاهرة ١٣٨٤ هـ ١٩٦٥ م الجزء الاول ص ١٩٣

١٨ ـ الطبري: (ابوجعفر محمد بن جرير) تاريخ الرسل والملوك تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، دار المعارف مصر الجزء الثامن ص ١٥٢

١٩ ـ الجهشياري : الوزراء والكتاب ص ١٦٧

٢٠ ـ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص ١٨٧

٢١ ـ عيساباذ : وهي محلة كانت شرقي بغداد منسوبة الى عيسى بن مهدي، وكانت له قطاعا، وفيها بني المهدى قصره الذي سماه قصر السلام. ياقوت (شهاب الدين ابى عبدالله الحموى) معجم البلدان، بيروت المجلد الرابع ص ١٧٢

٢٢ ـ الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص ٢٢٨، الجهشياري: الوزراء والكتاب ص ١٦٧

٢٣ ـ تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص ٢٢٨، وهناك روايات غير مؤكدة تقول ان الهادي سمه. الرفاعي (احمد) عصر المأمون، القاهرة ١٣٤٦ هـ ١٩٢٨ م المجلد الاول ص ٣١٠ ويوضح الطبري في تاريخه ج ٨ ص ٢٢٨، ان يحيي بن الحسين بن عبدالخالق خال الفضل ذكر ان اباه حدثه بان موسي الهادي قال. اريد قتل الربيع فما أدرى كيف افعل به فقال له سعيد بن سليم تامر رجلا باتخاذ سكين مسموم، وتامره بقتله، ثم تامر بقتل ذلك الرجل، قال: هذا الراى، فأمر رجلا فقال له: انه قد امر فيك بكذا وكذا وياخذ في غير ذلك الطريق فدخل منزله فتمارض فمرض بعد ذلك ثمانية ايام، فمات ميتة نفسه.

٢٤ ـ طاش كبرى زادة: مفتاح السعادة ج ٢ ص ٢٠٢

٢٥ ـ الكازروني. مختصر التاريخ ص ١٢٤ ابن العمري: (محمد بن علي بن محمد) الانباء في تاريخ الخلفاء تحقيق قاسم السامرائي، ايدن ١٩٧٣ ص ٧٤

٢٦ ـ ابن عبد ربه. العقد الفريد ج ٤ ص ١٧٠

٢٧ ـ الطبري. تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص ٢٢٢.

٢٨ ـ لقد ذكر الكازروني في كتابه مختصر التاريخ ص ١٢٠ ان المهدى كان الفضل بن الربيع حاجبا له، كما روى الحصرى في كتابه زهر الاداب ج ١ ص ٥٠٦ ان المهدي قال للفضل: اني قد وليتك ستر وجهي وكشفه فلا تجعل بيني وبين خواصي سببا لضغنهم بقبح ردك وعبوس وجهك، وقدم ابناء الدعوة فانهم اولى بالتقديم وثن بالاولياء، واجعل للعامة وقتا اذا دخلوا اعجلهم ضيقة عن التلبث وصرفهم عن التمكث.

٢٩ ـ الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص ٢٦١، الجهشياري الوزراء والكتاب ص ٢٢٣

٣٠ ـ ابن عبد ربه العقد الفريد ج ٥ ص ١٦

٣١ ـ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص ٢٢٨

٣٢ ـ ويؤكد الطبري في تاريخه ج ٨ ص ٢٢٨ ان الرشيد دعا الفضل بن الربيع فقال له وحق المهدى (وكان لا يحلف بها الا اذا اجتهد) انى لاهم لك من الليل بالشيء من التولية وغيرها فتمنعني امى فاطيع امرها، فخذ الخاتم من جعفر.

٣٣ ـ الخضرى) (محمد) محاضرات في تاريخ الامم الاسلامية مصر ١٩٧٠ ص ١٢٢

٣٤ ـ الكازروني: مختصر التاريخ ص ١٢٩ ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٥ ص ١١٨، دحية: (ابو علي حسن بن علي) النبراسي في تاريخ خلفاء بني العباس، تحقيق عباس العزاوي، بغداد ١٣٦٥ هـ ١٩٤٦ م ص ٣٧، نصوص ضائعة من كتاب الجهشياري لمحمد بن عبدوس الجهشياري، جمعها ميخائيل عواد، بيروت ص ١٩

٣٥ ـ يبين التنوخي (ابو علي المحسن بن ابى القاسم) في كتابه الفرج بعد الشدة طبعة مصر ١٢٧٥ هـ ١٩٥٥ م الجزء الاول ص ٦٨ مدى كره البرامكة للفضل لا لسبب منه يقول: ان الفضل بن الربيع سار الى الفضل بن يحيي البرمكي في حاجة له فلم يرفع له راسا ولا قضى له حاجة فقام مغضبا، فلم يدع به ولا اكترث بغضبه. وفي المجلس يحيي بن خالد فقال لبعض خاصته. اتبعه فانظر ماذا يقول، فان الرجل ينبيء عما في نفسه من ثلاثة اماكن اذا اضطجع على فراشه واذا خلا بفرسه، واذا استوى على سرجه. قال الرجل: فاتبعته فلما استوى على سرجه عض على شفتيه وقال:

عسى وعسى يثني الزمان عنانه	بعثرة دهر والزمان عثور
فتدرك امال وتقضى مارب	ويحدث عن بعض الامور امور

قال فلم يكن بين ذلك وبين سخط الرشيد الا ايام يسيرة.

اما ابن الاثير (عز الدين ابو الحسن) يوضح في كتابه الكامل في التاريخ، بيروت ١٩٦٥ المجلد السادس ص ١٧٥ ـ ١٧٦ ان الرشيد دفع يحيى بن عبدالله بن الحسن بن علي الى جعفر بن يحيى بن خالد فحبسه ثم دعا به ليلة وساءله عن بعض أمره فقال له . اتق الله في امرى ولا تتعرض ان يكون غدا خصمك محمد (ص) فالله ما احدثت حدثا فرق له. وقال: اذهب حيث شئت من بلاد الله. قال فكيف اذهب ولا امن ان اوخذ فوجه معه من اداه الى مأمنه وبلغ الخبر الفضل بن الربيع من عين كانت له من خواص جعفر فرفعه الى الرشيد فقال ما انت هذا فعله عن امرى، ثم احضر جعفرا للطعام فجعله يلقمه ويحادثه. ثم ساله عن

يحيى فقال . بحياتي فقط جعفر. فقال: لا وحياتك. وقص عليه امره وقال: علمت انه لا مكروه عنده، فقال معه ما فعلت ما عددت ما في نفس، فلما قام عنه قال. قتلني الله ان لم اقتلك، فكان من امره ما كان.

واما ابن خلكان في وفيات الاعيان ج ٤ ص ٣٧ وطاش كبرى زادة في مفتاح السعادة ج ٢ ص ٣٢ فيذكران ان الرشيد لما آل الامر اليه واستوزر البرامكة كان الفضل بن الربيع يروم التشبه بهم، ومعارضتهم، ولم يكن له من القدرة ما يدرك به اللحاق بهم فكان في نفسه منهم احن وشحناء.

ولكن الهاشمي في جواهر الادب ج ١ ص ٩١ (الهاشمي) يذكر ان الفضل هو الذي اوغر صدر الرشيد على البرامكة حسدا لهم على منزلتهم وكذلك حسن ابراهيم في تاريخ الاسلام السياسي ج ٢ ص ٢٦٥ يقول. ان الفضل بن الربيع اوقع بالبرامكة عند الرشيد .

٣٦ - وفيات الاعيان ج ٤ ص ٣٨.

٣٧ _ الوزراء والكتاب ص ٢٤٩.

٣٨ _ حسن باشا: دراسات في تاريخ الدولة العباسية مصر ١٩٧٥.

٣٩ - ابن خلكان . وفيات الاعيان ج ٤ ص ٣٧.

٤٠ - الجهشياري. الوزراء والكتاب ص ٢٦٩.

٤١ _ ويخطيء الجهشياري في كتابه الوزراء والكتاب ص ٢٧٧ بقوله ان الرشيد كان قد تورع عن نفقاته وتدبير اموره الفضل بن الربيع، لأن الفضل كان وزيرا حينما توفى الرشيد

٤٢ _ الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، مجلد ١٢ ص ٣٤٣، الجهشياري: الوزراء والكتاب ص ٢٧٧، الكازروني: مختصر التاريخ ص ١٢٩. وعند اليعقوبي (احمد بن ابي يعقوب) في التاريخ، النجف ١٣٨٤ هـ ـ ١٩٦٤ ج ١ ص ١٦٩، ان الرشيد توفى عام ثلاث وتسعين ومائة للهجرة، وكذلك عند الدينوري في الاخبار الطوال ص ٣٩٢، وابو الفداء. عماد الدين اسماعيل في المختصر في اخبار البشر، المطبعة الحسينية الجزء الثاني ص ١٨.

٤٣ _ الاخبار الطوال، تحقيق عبدالمنعم عامر، الطبعة الاولى القاهرة ص ٣٨٩

٤٤ _ الجومرد عبدالجبار، هارون الرشيد، بيروت الجزء الاول ص ١٢٤

٤٥ - الجهشياري الوزراء والكتاب ص ٢٨٩، وكان ينزل في الشارع الاعظم بازاء درب السقائين

٤٦ - الزركلي: الاعلام ج ٥ ص ٢١٣

٤٧ _ المختصر في اخبار البشر ج ٢ ص ١٨

٤٨ - حسن الباشا: دراسات في تاريخ الدولة العباسية ص ٣٧

٤٩ - اليعقوبي: التاريخ ج ١ ص ١٦٩

٥٠ - العمري الانباء في تاريخ الخلفاء ص ٨٩

٥١ _ ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ٤ ص ٣٨

٥٢ _ الخطيب البغدادي. تاريخ بغداد ج ١٢ ص ٢٤٣

٥٣ _ الصدفي. تاريخ دول الاسلام ج ١ ص ٩٨ الكازروني: مختصر التاريخ ص ١٢٢

٥٤ _ الجهشياري: الوزراء والكتاب ص ٢٨٩

٥٥ _ ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٥ ص ١٦٥

٥٦ _ الكازروني مختصر التاريخ ص ١٣٣

٥٧ - الجهشياري. الوزراء والكتاب ص ٢٨٩

٥٨ _ المصدر السابق ص ٢٧٤

٥٩ _ المصدر السابق ص ٢٧٦

٦٠ _ ابن الاثير: الكامل في التاريخ ج ٨ ص ٢٢٢

٦١ _ وردت في ديوان ابي نؤاس ص ٤٤٩ قصيدة تؤكد ذلك مطلعها :

لعمرك ما غاب الامين محمد — عن الامر يعنيه اذا شهد الفضل
ولولا مواريث الخلافة انها — له دون ما كان بينهما فضل
فان تكن الاجسام فيها تباينت — فقولها قول وفعلها فعل
ارى الفضل للدنيا وللدين جامعا — كما اسهم فيه الريش والفوق والفصل

٦٢ _ تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص ٢٧٤ كما يرى الصدفي في تاريخ دول الاسلام ج ١ ص ٩٧ راى الطبري

٦٣ - الجهشياري : الوزراء والكتاب ص ٢٩٢ ، الطبري. تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص ٢٨٤

٦٤ _ اليعقوبي . التاريخ ج ١ ص ١٧٢

٦٥ - الطبري تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص ٢٨٤ ، ويسميه الجهشياري في كتابه الوزراء والكتاب ص ٢٩٧ يحيى بن سليمان .

٦٦ - الطبري . تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص ٢٨٤

٦٧ _ السيوطي تاريخ الخلفاء ص ٢٩٧

٦٨ _ الطبري تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص ٢٨٩، الخضري: محاضرات في تاريخ الأمم الاسلامية ص ١٦٤

٦٩ - ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ٤ ص ٣٩

٧٠ - الخضري : محاضرات في تاريخ الامم الاسلامية ص ١٦٤

٧١ - الزركلي : الاعلام ج ٥ ص ٣٥٣ ، ويوضح التنوخي في الفرج بعد الشدة ج ١ ص ٣٥٦ ان الفضل قال : لما استترت عن المأمون اخفيت نفسي حتى عن عيالي وولدي ، وكنت وحدي فلما قرب المأمون من بغداد ازداد حذري وخوفي على نفسي . فتشددت في الاحتياط والتواري فافضيت الى منزل بزاز كنت اعرفه في درب على باب المكان . وتشدد المأمون في طلبي فلم يعرف لي خبر .

٧٢ - ابن خلكان : وفياة الأعيان ج ٤ ص ٣٩

٧٣ - الجهشياري : الوزراء والكتاب ص ٣٠١

٧٤ - يروي الجهشياري في كتابه الوزراء والكتاب ص ٣٠٢ ان الفضل لما استتر صار زهير بن المسيب الى داره في شارع الميدان فسكنها رعاية لحرمته ولحقوق كانت بينه وبين الفضل . اراد بما جعله حفظها عليه

٧٥ - ابن العمري : الأنباء في تاريخ الخلفاء ص ١٠٠ ومما يبينه العمري ايضا ان الفضل لما ظفروا به جاؤوا به الى المأمون ، فلما وقفت عليه عين المأمون فقام وسجد ثم رفع راسه وقال : اتدري لم سجدت : قال : نعم . قال . لماذا؟ قال الفضل شكرا الله على ظفرك بي . قال : لا والله بل شكرا لله تعالى كيف رزقني حلما اعفو به عن جرم مثلك . امض لحال سبيلك فقد عفوت عنك .

٧٦ - الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ١٢ ص ٣٤٤ . طاش كبري زاده : مفتاح السعادة ص ٣٠٤ لكن ابن خلكان في وفيات الاعيان ج ٤ ص ٤٠ يبين ان الروايات اختلفت حول مولده فقد قيل ان مولده سنة اربعين ومائة او قيل سنة ثمان وثلاثين ومائة للهجرة ووافقه ابن كثير والحافظ الدمشقي في كتابه البداية والنهاية ، بيروت ، الجزء التاسع ص ١١٥

٧٧ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٩ ص ٢٦٣

٧٨ - الأصفهاني (ابو الفرج) الاغاني مجلد ٥ القسم الثاني ص ٢٠

٧٩ - نصوص ضائعة من كتاب الجهشياري ص ٢٨٩

٨٠ - الجومرد : هارون الرشيد ج ١ ص ٢٥٤

٨١ _ نصوص ضائعة من كتاب الجهشياري ص ٥٠

٨٢ - لقد عاصر الشاعر ابو نواس الخليفة هارون الرشيد وقد نادم الخمر ، واتهم بالزندقة فحبسه الأمين وبقي فيه حتى اطلق سراحه وفي رواية الجهشياري في الوزراء والكتاب ص ٢٩٦ ـ ٢٩٧ عن حبسه فقد كان للفضل خال يستعرض اهل السجون ويتعهدهم فدخل الى الحبس الذي هو فيه ولم يكن يعرفه فقال له . لم ياهذا انت زنديق ، فقال ابو نواس : معاذ الله، فقال له فلعلك ممن يعبد الكبش : فقال له : انا آكل الكبش بصوفه ، فقال له فلعلك تعبد الشمس فقال : اني اتجنب القعود فيه بغضا لها . فقال : فبأي جرم حبست ؟ فقال : لأني اتهم خلف الناس ، فقال له : ليس الأمر كذلك ، قال : والله لقد صدقتك فجاء الى الفضل فقال له : ياهذا لا تحسنون جوار نعم الله بحبس الناس بغير جرم ، فقال : وما ذاك فقدره الخبر ، فضحك منه وعرف محمد الخبر وشفع اليه فيه ، فأمر باستحلافه ان لا يشرب ولا يفسق ففعل ذلك .

ويضيف الجهشياري حول اتهامه بالزندقة وهو ان سليمان بن جعفر قال للأمين : هو والله يا امير المؤمنين من تيار الثنوية ، فقال له : ايشهد عليه بهذا احد ؟ فاستشهد سليمان جماعة شهد بعضهم انه وضع قدحا في يوم ممطر حتى قطر فيه قطرا كثيرا ، وقال بعد شربه اياه يزعمون انه مع كل قطرة ملكا فكم تراني قد شربت من الملائكة ؟ فوجه به الى الفضل بن الربيع وأمره بحبسه مع قوم كانوا يتهمونه بالزندقة .

٨٣ - القيرواني : زهر الآداب ج ١ ص ٥٤١

٨٤ - ديوان ابي نواس ص ٤٦٣ الحسن بن هاني ، تحقيق احمد عبدالمجيد الغزالي بيروت ص ٤٥٨

٨٥ - المصدر السابق ص ٤٥٩

٨٦ - المصدر السابق ص ٤٥٥

٨٧ - المصدر السابق ص ٤٥٨

٨٨ - ديوان ابي نواس ص ٤٥٧

٨٩ - المصدر السابق ص ٤٤٦

٩٠ - المصدر السابق ص ٤٤٨

٩١ - الديوان ص ٤٥٨

٩٢ _ المصدر السابق ص ٤٤٩

٩٣ _ المصدر السابق ص ٤٥٤

٩٤ - ديوان ابي نؤاس ص ٤٥٣

٩٥ - القيرواني زهر الآداب ج ١ ص ٥٤١

٩٦ - الجهشياري الوزراء والكتاب ص ٢٥٧

٩٧ - القيرواني زهر الآداب ج ١ ص ٥٤٥

٩٨ ـ عند المرزباني في كتابه معجم الشعراء ص ١٨٢ (بني البسالة)
٩٩ ـ المرزباني معجم الشعراء ص ١٨٢
١٠٠ ـ الخطيب البغدادي تاريخ بغداد م١٢ ص ٢٤٢ ، كما حدث بأن مروان بن ابي حفصة قد دخل على المهدي بعد وفاة معن بن زائدة في جماعة من الشعراء فيهم سليم الخاسر وغيره ، فانشده مديحا فقال له : من انت ؟ فقال له شاعرك يا امير المؤمنين وعبدك مروان بن ابي حفصة . فقال له المهدي : الست القائل

اقمنا بالمدينة بعد معن
معا لا نريد به زوالا
وقلنا اين نرحل بعد معن
وقد ذهب النوال فلا نوالا

وقد ذهب النوال كما زعمت فلم جئت ؟

١٠١ ـ ورد في عيون الأخبار لابن قتيبة (ابو محمد عبدالله بن مسلم) بيروت ١٣٤٣ ـ ١٩٢٥ ج ١ ص ١٦٠ (عن خيلاء الخيل) .
١٠٢ ـ ابن عبد ربه . العقد الفريد ج ١ ص ٢٢٩
١٠٣ ـ القيرواني زهر الآداب ج ١ ص ٥٤٣
١٠٤ ـ ابن قتيبة . عيون الاخبار ج ١ ص ٢٢ ، الجهشياري : الوزراء والكتاب ص ٢٩٤
١٠٥ ـ لقد اكد ابن قتيبة في عيون الاخبار ج ٣ ص ٢٢٢ ذلك بأن اسحق بن ابراهيم الموصلي قال اتاني الزبير بن دحمان يوما نسألته ان يقيم عندي فقال قد ارسل الى الفضل بن الربيع وليس يمكنني التخلف عنه فقلت له :

اقم ابا العوام ويحك نشرب
ونلته مع اللاهين يوما ونطرب
اذا ما رايت اليوم قد خيره
فخذه بشكر واترك الفضل يغضب

ويذكر الاصفهاني في الاغاني م ٥ ق ١ ص ١٧١ ان اسحق قال : لاعبت الفضل بن الربيع النرد فوقع بيننا خلاف فحلف وحلفت فغضب علي وهجرني فكتبت اليه :

يقول اناس شامتون وقد رأوا
مقامي واعياني الرواح الى الفضل
لقد كان هذا حض بالفضل مرة
فاصبح منه اليوم منصرم الحبل

ولو كان لي في ذاك ذنب علمته
لقطعت نفسي بالملامة والعذل

١٠٦ ـ من النصوص الواردة في التاريخ ان العلاقة لم تكن حسنة بين الفضل بن الربيع والشاعر ابن العتاهية ويوضح الجهشياري في كتابه الوزراء والكتاب ص ٢٩٥ ان ابا العتاهية بعث نعلا الى الفضل بن الربيع وكتب معها

نعل بعثت بها لتلبسها
تسعى بها قدم الى المجد
لو كنت اقدر ان اشركها
جلدي جعلت شراكها خدي

كما ذكر ابن قتيبة في عيون الاخبار ج ٣ ص ١٤٤ ان ابا العتاهية اختلف الى الفضل بن الربيع في حاجة له زمانا فلم يقضها له فكتب .

اكل طول الزمان انت اذا
جئتك في حاجة تقول غدا
لا جعل الله لي اليك ولا
عندك ما عشت حاجة ابدا

(١) يبين ابن خلكان في وفيات الأعيان ج ٥ ص ٢٤٠ ان ابا عبيدة قال لما قدمت على الفضل ابن الربيع قال لي من اشعر الناس ؟ فقلت : الراعي ، قال : كيف فضلته على غيره ؟ فقلت لأنه مدعي على سعيد بن عبدالرحمن الاموي فوصله في يومه الذي لقيه فيه وصرفه فقال يصف حاله معه

وانصب تحن الى سعيد
طروقا ثم عجلن ابتكارا
صمدن مناحة واصبن منه
عطاء لم يكن يمده ضمارا

فقال الفضل ما احسن ما اقتضيتنا يا أبا عبيدة ، ثم غدا الى هارون الرشيد فاخرج لي صلة وامر لي بشيء من ماله وصرفني

(٢) قال الاصمعي حضرت انا وابو عبيدة معمر بن المثنى عند الفضل بن الربيع فقال كم كتابك في الخيل ؟ فقلت جلد واحد ، فسأل ابا عبيدة عن كتابه فقال خمسون مجلدة ، فقال له قم الى هذا الفرس وامسك عضوا عضوا منه وسمّه . فقال : لست ببيطارا وانما هذا شيء اخذته عن العرب فقال لي : قم يااصمعي وافعل ذلك . فقمت وامسكت ناصيته وشرعت اذكر عضوا عضوا واضع يدي عليه وانشد ما قالت فيه العرب إلى ان فرغت منه فقال خذه فاخذته (ابن خلكان وفيات الاعيان ج ٣ ص ١٧٢)

العالمة البغدادية

شهدة الابري ورواياتها في تواريخ النساء

بقلم

الدكتور حسن عيسى علي الحكيم

الجامعة المستنصرية / كلية الفقه في النجف الاشرف

الفقيهة المحدثة شهدة بنت ابى نصر أحمد بن الفرج بن عمر الابري (٤٨٢ - ٥٧٤ هـ) بغدادية المولد والوفاة، دينورية الاصل، نشأت في محيط بغداد العلمى، وتتلمذت على شيوخها وعلمائها منهم جعفر بن احمد السراج، وطراد بن محمد الزينبى (١)، وسمعت من ابى الخطاب نصر بن احمد بن البطر، وابى عبدالله الحسين بن احمد بن عبدالقادر بن يوسف، وابى بكر محمد بن احمد الشاشى (٢)، كما انها روت عن عبدالملك بن محمد السامرى (ت ٤٩٣هـ) (٣)، وابيها أحمد بن الفرج الدينورى (ت ٥٠٦ هـ) الذى كان من مشاهير علماء بغداد ومحدثيها (٤)، فاصبحت السيدة شهدة عالمة محدثة، سمع منها خلق كثير، وكان لها السماع العالى الحقت فيه الاصاغر بالاكابر (٥). ولجودة خطها عرفت بالكاتبة او الكاتبة المسندة (٦)، كما كانت تسمى «مسندة العراق» (٧)، حتى اشتهر ذكرها وبعد صيتها (٨)، لاسيما في علم الحديث وذلك لعلو اسنادها (٩)، وقد وصفت هذه العالمة بالثقة والصلاح والعبادة، كما عدت صاحبة بر وخير (١٠) ونظراً لمقامها العلمى والفكرى اصبح لها ذكر في معجم التراجم العالمية، المسمى بيوكرافى ينفرسـل Biographie Universal المطبوع في باريس عام ١٨٤٣ م فقد ترجم لها في هذا المعجم الكاتب الفرنسى المسيو جوردت في باب «الايف» باسم فخر النساء شهدة بنت أحمد وقال: «بغدادية انصرفت الى دراسة الفقه واللاهوت فبلغت في هذه العلوم درجة عالية ودروسها كانت مجمعا للعلماء المشهورين جداً في ايامها، وكانوا شديدى الرغبة في السماع منها ولذلك اجتمع عندها كثير من طبقات الناس. ويظهر ان هذه الشهرة العظيمة وعلوها هما اللذان انالاها لقب فخر النساء ومعناه مجد النساء ولانعرف لها كتاباً، وان كان كثير من العلماء افتخروا ان يكونوا في عداد تلاميذها (١١).

لقد تتلمذ على العالمة شهدة الابري، الحافظ ابو القاسم ابن عساكر (ت ٥٦٢ هـ) وقد ذكرها في كتابه «ذيل تاريخ بغداد» (١٢)، وابو سعد عبدالكريم السمعانى (ت ٥٦٢ هـ) الذى ذكرها في مادة «الابري» من كتاب الانساب بالقول: «شهدة بنت الابري فهى صاحبة الخط الحسن وكانت لها قرابة الى امير المؤمنين المقتفى لامر الله، وكانت يقال لها الكاتبة سمعت اباها وابا عبدالله الحسين بن احمد طلحة النعالى وغيرهما، كتبت عنها اوراق بسيرة في دارها برحبة الجامع» (١٣)، كما تتلمذ عليها ابو الفرج عبدالرحمن بن علي بن الجوزى (ت ٥٩٧ هـ) الذى كان يشير الى تلمذته عليها بقوله «اخبرتنا شهدة بنت احمد الابري» (١٤)، وقال في مشيخته «اخبرتنا شهدة الكاتبة بقراءتى عليها في صفر سنة ٥٥٧ هـ» (١٥)، وقال سبط ابن الجوزى: «روى عنها جماعة منهم جدى» (١٦). وعند ترجمة ابن الجوزى لجعفر بن احمد المقرئى (ت ٥٠٠ هـ) قال: «قرات عليها كتابه المسمى بمصارع العشاق بحق سماعها منه» (١٧)، وتشير المصادر التاريخية والرجالية الى عدد اخر من العلماء والمحدثين قد تتلمذوا على السيدة شهدة الابري منهم: الحافظ عبدالغنى والموفق ابن قدامة والحافظ عبدالقادر الرهاوى وابراهيم بن الخير وابو الحسن بن الجميزى وابراهيم الكاشغرى والاعز ابن عليق وابو محمد عبدالله الجوينى وابو عبدالله الاربلى وعبدالرزاق بن سكينة وابوبكر قاضى حران وعلي بن حميدان وابوبكر بن الخازن ومحمد بن ابى البدر وعبدالعزيز بن محمود الاخضر وابو الحسن علي بن المعمر بن ابى القاسم الواسطي (١٨)، يقول الدكتور مصطفى جواد: «ومن تلامذتها الخليفة الامام الناصر لدين الله فانه روى عنها في كتابه الذى الفه وسماه «روح العارفين» (١٩)، ويقول السيوطى: «واجاز للناصر لدين الله جماعة منهم ابو الحسين عبدالحق اليوسفى، وابو الحسن علي بن عساكر البطايحى وشهدة، واجاز هو لجماعة فكانوا يحدثون عنه في حياته ويتنافسون في ذلك رغبة في الفخر لا في الاسناد» (٢٠)، وروى عنها الحافظ ابو علي الحسن بن خلف بن معزوز التلمسانى المغربى كتاب «الاموال» للحافظ ابى عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤ هـ) وعبدالله بن أحمد بن محمد ابن قدامة المقدسى الذى يقول: «قرات هذا الجزء وما قبله من كتاب الاموال لابى عبيد رحمه الله على شهدة بنت أحمد بن الفرج الابري من اصل سماعها» (٢١)، وقد ذكر كل من الذهبى والمنذرى وابن الفوطى جماعة من تلاميذ السيدة شهدة الذين سمعوا عليها (٢٢).

لقد كانت بين المحدثة شهدة والخلافة العباسية روابط عائلية ، فهي قد تزوجت ثقة الدولة ابا الحسن علي بن محمد الدويني (٤٧٥ ـ ٥٤٩ هـ) الذي كان يخدم اباها ابا نصر أحمد بن الفرج الابري ، فزوجه ابنته الكاتبة شهدة فقربه الخليفة المقتفي لامر الله ووكله فبنى مدرسة بباب الازج (٢٣)، ومن الجدير بالذكر ان السيدة شهدة قد نقلت العلم عن زوجها ابي الحسن الذي كان من اعيان العراق واماثله ، متودداً متواضعاً خيراً كثير الصدقات ، اديباً ، شاعراً ، مقتدراً لطيفاً ، وكان مقرباً الى الخليفة المقتفي لامر الله، يشاوره ويدنيه منه ، وهو بدوره كان يسعى الى اعادة الدولة العباسية الى حالة من القوة والاستقلال بتخليصها من النفوذ الاجنبي ، وبنى مدرسة لاصحاب محمد بن ادريس على شاطىء دجلة في باب الازج من بغداد عرفت باسم المدرسة الثقتية نسبة الى ثقة الدولة وباسم مدرسة الاصحاب ، نسبة الى اصحاب محمد بن ادريس (٢٤)، ويشير ابن الجوزي الى علاقة شهدة بالخلافة العباسية بقوله : « وتزوجت ببعض وكلاء الخليفة وعاشت مخالطة للدار ولاهل العلم ، وكان لها بر وخير وقرىء عليها الحديث سنين وعمرت حتى قاربت المائة» (٢٥)، وقيل جاوزت التسعين (٢٦)، ويؤيد هذه الصلة الوثيقة ما كان عند وفاتها في الرابع عشر من المحرم عام ٥٧٤ هـ فقد صلى عليها في جامع القصر وازيل شباك المقصورة لاجلها وحضرها خلق كثير وعامة العلماء ودفنت في مقبرة باب ابرز (٢٧)، ويقال ان الخليفة صلى عليها وشهدها ارباب الدولة (٢٨) .

كانت الكاتبة الابري قد انشأت في مدينة بغداد برحبة جامع القصر رباطاً للمتصوفة والزهاد ، بقي قائما بعد وفاتها فقد ذكره ابن الدبيثي عند ترجمته لابي بكر محمد بن موسى بن عثمان بن الحازمي الشافعي (ت ٥٨٤ هـ) بقوله : « قرأت على الحافظ ابي بكر محمد بن موسى بن عثمان الحازمي كتابه ببغداد برباط الكاتبة برحبة جامع القصر الشريف » (٢٩)، وكان عبدالله بن خميس ابو المظفر الفقيه من أهل أهر بأذربيجان قد قدم بغداد ودرس الفقه فيها ، وتكلم في المسائل الفقهية ، وناظر بعض الفقهاء، واعاد الشافعي ، وولي خدمة الصوفية برباط الكاتبة شهدة بنت أحمد الابري برحبة جامع القصر (٣٠)، ويبدو ان السيدة شهدة قد قلدت في هذا الباب زوجها ثقة الدولة الانباري الذي بنى مدرسة في باب الازج والى جانبها رباطاً للمتصوفة (٣١) .

ان الروايات المنقولة عن المحدثة شهدة الابري والمودعة في كتاب « المنتظم » لابن الجوزي ، تناولت اخبار النساء عبر مختلف العصور ومعظمها مرفوع الى شيخها ابي محمد جعفر بن أحمد السراج ، منها النص المتعلق بنساء لقمان بن عاد الذي انفرد به ابن الجوزي ، اذ لم نجد له ذكراً في تاريخ الطبري (٣٢)، وغيره من المصادر ، وفي الحديث عن جميل بن معمر (ت ٦٥ هـ) روت السيدة شهدة من شعره الوجداني ابياتاً طريفة في بثينة (٣٣)، وكذلك روت لقيس بن الملوح (ت ٨٠ هـ) بعض اشعاره في ليلى (٣٤). وفي غضون الحديث عن عبدالله بن جعفر (ت ٨٠ هـ) ذكر ابن الجوزي نصاً مسنداً ومرفوعاً الى السيدة شهدة يتناول هيام يزيد بن معاوية بجارية كانت لعبدالله بن جعفر ، وهو حديث طويل ، سرده ابن الجوزي على شكل قصة او رواية (٣٥)، وفي معرض حديثه عن عمرو بن عبدالله التيمي (ت ٨٢ هـ) الذي كان أمير البصرة قال : انه اشترى جارية من رجل من أهل البصرة بمائة الف درهم ، وبعد انصرافها انشد ذلك الرجل ابياتاً فيها (٣٦) .

والملاحظ ان الشعر الغزلي الذي روته السيدة شهدة عند حديثها عن النساء ، يعد من غرر الشعر العربي ، وقد حفظ كتاب « المنتظم» نصوصاً شعرية اغفلتها دواوين اصحابها المطبوعة ، وعند الحديث عن غيلان بن عقبة (ذي الرمة) (ت ١٠١ هـ) ذكر انه راى جارية سوداء في الكوفة واقفة على باب دارها فاستحسنها ووقعت في قلبه فاومأ اليها وقال : يا جارية هلا اسقيتني ماء، فاخرجت له كوزاً فشرب ، واراد ان يمازحها فقال : يا جارية ما احر ماءك، فقالت : لو شئت لاقبلت على عيوب شعرك ، وتركت حر مائي وبرده ، واورد ابياتاً بعد ذلك لذي الرمة (٣٧)، وفي نص استقاه ابن الجوزي عن السيدة شهدة عند ترجمته ليزيد بن عبدالملك (ت ١٠٥ هـ) انه شغف بحب جارية اسمها حبابة ، وكانت قد شرقت بحبة رمان فماتت على أثر ذلك ، فاقام عندها يزيد بن عبدالملك في الدار حتى نتنت، وعند دفنها وقف على قبرها وانشد (٣٨).

فإن تسلُ عنك النفس او تدع الصبا
فبالنفس أسلو عنك لا بالتجلدِ

وكان قد اراد بهذا البيت انه يسلو بنفسه لا بالتجلد كما هو المتعارف عند بقية الناس ، عند وفاة عزيز او حبيب ، وهو ينبىء عن فجيعته بفقد هذه الجارية .

وقد روت السيدة شهدة ان ابراهيم بن المهدي (ت ٢٢٤ هـ) قد اختفى عند اخته علية بنت المهدي في زمن المأمون ، وكانت تكرمه غاية الاكرام ، وقد وكلت به جارية قد ادبتها وانفقت عليها الاموال ، وكانت حاذقة، راوية للشعر ، ثم اورد ابن الجوزي نماذج شعرية غزلية لابراهيم بن المهدي في تلك الجارية (٣٩) ويلاحظ في جميع النصوص التي استقاها ابن الجوزي عن شيخته شهدة الابري انها تدور في الحب والغزل والغرام، وتوضيح بعض العلاقات العاطفية بين الرجل والمرأة ، عدا نصاً واحداً ذكرت فيه ان شفوانة العابدة (ت ١٧٥ هـ) قدمت مكة مع زوجها لاداء فريضة الحج ، وكانا يطوفان في البيت ويصليان فيه ، وقد اوردت دعاءاً لكل منهما (٤٠)، ولم اجدبين النصوص التي روتها السيدة شهدة ما يشير الى علميتها ومكانتها في الفقه والحديث كما عبرت عنها المصادر التي تناولت ترجمتها ، وذلك يصرفنا عن التعرف على هذه العالمة في العلوم الاسلامية .

هوامش البحث

(١) ابن الجوزي : المنتظم ١٠/ ٢٨٨

(٢) ابن الاثير : الكامل ١١/ ٤٥٤، ابن خلكان : وفيات الاعيان ٢/ ٤٧٧، الذهبي: العبر ٤/ ٢٢٠.

اليافعي : مرآة الجنان ٣/ ٤٠٠، ابن العماد: شذرات الذهب ٤/ ٢٤٨.

(٣) ابن الجوزي : المنتظم ٩/ ١١٧

(٤) السمعاني : الانساب ١/ ٩٥

(٥) ابن خلكان : وفيات الاعيان ٢/ ٤٧٧، الذهبي : العبر ٤/ ٢٢٠ اليافعي : مرآة الجنان ٣/ ٤٠٠.

القنوجي : التاج المكلل ص ٥٦

(٦) الذهبي : العبر ٤/ ٢٢٠

(٧) ن. م : دول الاسلام ٢/ ٨٧ ، اليافعي : مراة الجنان ٣/ ٤٠٠ ابن العماد : شذرات الذهب ٤/ ٢٤٨

(٨) ابن خلكان : وفيات الاعيان ٢/ ٤٧٧

(٩) ابن الاثير : الكامل ١١/ ٤٥٤

(١٠) الذهبي : العبر ٤/ ٢٢٠ اليافعي : مراة الجنان ٣/ ٤٠٠، ابن العماد . شذرات الذهب ٤/ ٢٤٨

(١١) مصطفى جواد: في التراث العربي (المعاهد الخيرية النسوية) ١/ ١٢٤ انظر بيوكرافي اونيفيرسل ١٣/ ٢٤٠

(١٢) مصطفى جواد : هامش تكملة اكمال الاكمال ص ٨٤

(١٣) السمعاني : الانساب ١/ ٩٦

(١٤) ابن الجوزي : ذم الهوى ص ١١٣، ١١٩، ١٢١، ١٢٢، ١٣٤، ٢٧٠ وغيرها تلبيس ابليس ص ٢٦٦، ٢٧٠، ٣٤٨

(١٥) ابن الجوزي : المشيخة ورقة ١١٧

(١٦) سبط ابن الجوزي : مراة الزمان ٨/ ق ١ ٣٥٢

(١٧) ابن الجوزي : المنتظم ٩/ ١٥١

(١٨) مصطفى جواد . هامش تكملة اكمال الاكمال ص ٨٤ في التراث العربي (فخر النساء) ١/ ٣٦

(١٩) ن. م : في التراث العربي (فخر النساء) ١/ ٣٣ ـ ٣٨

(٢٠) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٤٤٨

(٢١) مصطفى جواد : في التراث العربي (فخر النساء) ١/٣٣ ـ ٢٣٨

(٢٢) المنذري : التكملة ٥/٥، ٥٢، ٥٤، ٨٢، ٩٠، ١٠٢، ١١٩، ١٧٢ وغيرها ٦/٥، ٢٢، ٣٩، ٤٠، ٤٨، ٦٨، ٧٩، ٨٢، ١١٥، ١٢٧ وغيرها

ابن الفوطي : تلخيص مجمع الاداب ٤/ق ١ ٦٧٧، ٧٨٦

(٢٣) ابن الاثير : الكامل ١١/ ٢٠٠، ابن خلكان : وفيات الاعيان ٢/ ٤٧٨

(٢٤) مصطفى جواد : في التراث العربي (فخر النساء) ١/ ٤٠ ـ ٤١

(٢٥) ابن الجوزي : المنتظم ١٠/ ٢٨٨، سبط ابن الجوزي. مراة الزمان ٨/ق ١، ٣٥٢

(٢٦) ابن خلكان : وفيات الاعيان ٢/ ٤٧٧، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٦/ ٨٤

(٢٧) ن . م

(٢٨) سبط ابن الجوزي مرأة الزمان ٨/ق ١ ٣٥٢

(٢٩) مصطفى جواد : في التراث العربي (المعاهد الخيرية النسوية) ١/ ١٢٢

(٣٠) ن . م ١/ ١٢١ ـ ١٢٢

(٣١) ن م

(٣٢) ابن الجوزي . المنتظم ٦/ق ١ ورقة ١١٥

(٣٣) ن . م ١/ ورقة ١٨ ب

(٣٤) ن . م ١/ ورقة ٤٦ أ ـ ب

(٣٥) ن . م ١/ وقة ٩٢ ب ـ ٩٤ ب

(٣٦) ن . م ١/ ورقة ١٠٣ أ ـ ب

(٣٧) ن . م ٧/ ورقة ٢٤ أ

(٣٨) ن . م ٧/ وقة ٤٩ أ

(٣٩) ن . م ١١/ ورقة ٤١ أ

(٤٠) ن . م ٩/ ورقة ٦ ب

مصــادر البحـث ومراجعـه

ابن الاثير : عز الدين ابو الحسن علي بن ابى الكرم محمد بن عبدالكريم الشيباني (ت ٦٣٠ هـ).

١ ـ الكامل في التاريخ ، دار صادر ، بيروت ١٣٨٦ هـ/ ١٩٦٦ م

ابن تغرى بردى : جمال الدين ابو المحاسن يوسف الاتابكي (ت ٨٧٤ هـ)

٢ ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، مطابع كوستاتسوماس وشركاه / القاهرة، بلا تاريخ.

ابن الجوزي : جمال الدين أبو الفرج عبدالرحمن بن علي (ت ٥٩٧ هـ)

٣ ـ تلبيس ابليس ، او نقد العلم والعلماء، الطباعة المنيرية / القاهرة ١٣٦٨ هـ

٤ ـ ذم الهوى ، تحقيق مصطفى عبدالواحد، الطبعة الاولى ١٣٨١ هـ/ ١٩٦٢ م مطبعة السعادة، مصر

٥ ـ المشيخة، مخطوطة مصورة عن المكتبة الظاهرية بدمشق، في مكتبة المجمع العلمي العراقي / بغداد، تحت رقم ٩٨

٦ ـ المنتظم في تاريخ الملوك والامم ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية / حيدر اباد الدكن / الطبعة الاولى ١٣٥٩ هـ والاجزاء المخطوطة المصورة في مكتبة المجمع العلمي العراقي /بغداد عن مكتبة احمد الثالث وتراخانة في استانبول

ابن خلكان . شمس الدين ابو العباس احمد بن محمدبن ابى بكر (٦٠٨ ـ ٦٨١ م)

٧ ـ وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان، تحقيق الدكتور احسان عباس دار صادر / بيروت

الذهبي : شمس الدين ابو عبدالله محمد بن احمد بن عثمان (ت ٧٤٨ هـ)

٨ ـ العبر في خبر من غبر، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد وفؤاد سيد، مطبعة حكومة الكويت ١٩٦٠ ـ ١٩٦٦ م

٩ .كتاب دول الاسلام، تحقيق فهيم محمد شلتوت ومحمد مصطفى ابراهيم الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤ م

سبط ابن الجوزي : شمس الدين ابو المظفر يوسف بن قزاوغلي التركي (ت ٦٥٤ هـ)

١٠ ـ مراة الزمان في تاريخ الاعيان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية / حيدر اباد الدكن ، الهند، الطبعة الاولى ١٢٧٠ هـ/ ١٩٥١ م

السمعاني : ابو سعد عبدالكريم بن محمد بن منصور التميمي (ت ٥٦٢ هـ)

١١ ـ الانساب، اعتناء مرجليوث، والنسخة التى صححها الشيخ عبدالرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية / حيدر اباد الدكن، الهند الطبعة الاولى ١٣٨٣ هـ/ ١٩٦٢ م

السيوطي : جلال الدين عبدالرحمن بن ابي بكر (ت ٩١١ هـ)

١٢ ـ تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، مطبعة السعادة/مصر، الطبعة الاولى ١٣٧١ هـ/ ١٩٥٢ م

ابن العماد : ابو الفلاح عبدالحي الحنبلي (ت ١٠٨٩ هـ)

١٣ ـ شذرات الذهب في اخبار من ذهب، عنيت بنشره مكتبة القدسي / القاهرة ١٣٥٠ هـ

ابن الفوطي : كمال الدين عبدالرزاق بن أحمد الشيباني (٦٤٢ ـ ٧٢٢ هـ)

١٤ ـ تلخيص مجمع الاداب في معجم الالقاب، تحقيق الدكتور مصطفى جواد الطبعة الهاشمية، ومطابع وزارة الثقافة والارشاد القومي / دمشق ١٩٦٢ ـ ١٩٦٥ م

القنوجي : ابو الطيب صديق بن حسن بن علي بن لطف الله الحسيني البخاري (١٢٤٨ ـ ١٣٠٧ هـ) .

١٥ ـ التاج المكلل من جواهر ماثر الطراز الجزء الاول، تصحيح وتعليق الدكتور عبدالسليم شرف الدين، المطبعة الهندية العربية / بومباى ١٣٨٢ هـ/ ١٩٦٣ م

مصطفى جواد . الدكتور

١٦ ـ في التراث العربي، بحث بعنوان «فخر النساء» وبحث بعنوان «المعاهد الخيرية النسوية» اخراج محمد جميل شلش وعبدالحميد العلوجي دار الحرية للطباعة / بغداد ١٩٧٥ م

١٧ ـ هامش كتاب «تكملة اكمال الاكمال في الانساب والاسماء والالقاب» لجمال الدين ابى حامد محمد بن علي المحمودي المعروف بابن الصابوني (ت ٦٨٠ هـ) مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٩٥٧ م

المنذري . زكي الدين ابو محمد عبدالعظيم بن عبدالقوى (٥٨١ ـ ٦٥٦ هـ)

١٨ ـ التكملة لوفيات النقلة، تحقيق الدكتور بشار عواد معروف، مطبعة الاداب / النجف الاشرف ١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٨ م

اليافعي : ابو محمد عبدالله بن اسعد بن علي بن سليمان المكي (ت ٧٦٨ هـ)

١٩ ـ مرأة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، مطبعة دائرة المعارف النظامية / حيدر اباد الدكن، الطبعة الاولى ١٣٣٨ هـ

من خصائص سيرة السيدة شغب

د. مليحه رحمة الله
استاذه مشاركه قسم التاريخ
كلية الآداب - جامعة بغداد

جارية أم القاسم بنت محمد بن عبدالله (١)، رومية (٢)، الاصل وقيل تركية (٣). بيعت واشتريت حتى اصبحت من جواري الخليفة المعتضد بل من اخص جواريه شغف بها وتزوجها (٤)، وقدر لهذه المرأة ان تلد ولداً ذكراً سمي جعفراً وقيل اسحاق وكنى بأبي الفضل (٥) واصبح خليفة المسلمين «المقتدر بالله» سنة ٢٩٥ هـ (٦).. دامت خلافته خمسا وعشرين سنة انتهت ٣٢٠ هـ (٧) تعرضت الخلافة خلالها لهزات عنيفة نتيجة الانقسامات بين رجالات الحكم من المدنيين والعسكريين من جهة وفيما بينهم من الجهة الاخرى وخير ما وصف تلك الحالة قول الشاعر

خليفة في قفص بين وصيف وبغا (٨)
يقول ما قالا له كما تقول الببغا

هذا وبالرغم من ذلك سادت هيبة الخلافة في بعض فترات حكم المقتدر عندما تسلم زمام الحكم وزراء وقادة أقوياء كابن الفرات وموسى بن عيسى ومؤنس وغيرهم الا ان هناك عوامل اخرى ادت الى انحلال الخلافة ومنها :

هجوم القرامطة على الحجاج وانقطاع الحج سنة ٣١٧ هـ (٩) وقد كان له أثر كبير على الدولة سياسياً واقتصادياً .. كما كان للمرأة دور كبير في هذه الفترة في اضعاف سلطة الخليفة بعد ان استولت على شؤون الدولة. وقد ساهمت مع الرجل في جميع مرافقها حتى وصلت الى منصب القضاء لاول مرة وعلى راسهن السيدة شغب أم المقتدر ومرافقاتها اللواتي لقبن بالقهرمانات كأم موسى وفاطمة وزيدان وثمل وغيرهن ويكفي ان نذكر قول التونجتي (١٠) بعد مقتل المقتدر إذ أراد مؤنس القائد ترشيح ابن المقتدر ابي العباس وكان مايزال صغيراً فاعترض عليه قائلا « بعد الكد استرحنا من خليفة له أم وخالة وخدم يديرونه فنعود الى تلك الحال لا والله لا نرضى **الا برجل كامل** يدير نفسه **ويدبرنا** » وقال الفخري « واعلم ان دولة المقتدر كانت دولة تخليط كثير لصغر سنه ولاستيلاء أمه ونسائه وخدمه عليه ، وأكد ذلك كثير من المؤرخين وسنحاول ان نتبين ذلك عند الحديث عن سيرة السيدة شغب وهي التي يدور موضوعنا حولها.. المرأة التي كتب عنها المؤرخون القدامى كثيراً تجاوز ما كتب عن اية امرأة حرة أو جارية في العصور العباسية قاطبة ربما جاوز ما كتب عن بعض الخلفاء ايضا . وذكر البعض سلبياتها وآخرون أكدوا على ايجابياتها ومن المعروف ان لهذه المرأة سلبيات وايجابيات شأنها شأن النساء اللواتي وصلن الى أعلى المراتب من أمهات او زوجات الخلفاء ممن جاء قبلها او بعدها وسأحاول ان ابين الخصائص العشرة التي تميزت بها هذه المرأة دون غيرها من نساء بني العباس في العصرين الاول والثاني مشفوعة بادلة مما ذكره المؤرخون القدامي لاطلاع القارىء على سيرة تلك المرأة المهمة في التاريخ العباسي.

١ ـ التسمية : جارية اطلق عليها ستة اسماء .. عرفت بناعم (١٢).. كما ذكر الطبري .. وعرفت بغريب كما قال السيوطي (١٣). وانفرد ابن الاثير (١٤). باسم ظلوم.. ثلاثة اسماء وهي ماتزال جارية قبل ان تصبح زوجة للخليفة المعتضد ثم استبدل اسم ناعم وهو الشائع الى اسم شغب (١٥) .

عند ولادتها لابنها الوحيد جعفر «المقتدر بالله» هذا ولم أجد اية اشارة واضحة عن سبب اختيار هذا الاسم وربما جاءت في العادة الجارية باستعمال اسماء غير لائقة احياناً وفي غير مكانها وهي تدل على عكس المسمى تدللا او تفاؤلا او دفعاً للعين او لمطابقة المسمى للاسم او لمخالفة الشخص.. الخ. وقد سبق أن سميت زوجة المتوكل «أم المعتز بقبيحة» لجمالها الذي اشتهرت به، أما شغب قيل لانها انجبت ابناً ذكراً شقيا وتحريشاً كما ذكر البعض(١٦). ثم اطلق عليها لقب السيدة (١٧)، بعد ان اصبحت أماً لخليفة المسلمين «المقتدر بالله» تفخيما وتعظيماً واحتراماً لها ويشير ابن مسكوية (١٨) الى علو منزلتها فيقول ان الخليفة المقتدر كان يتردد دائما على دارها والجلوس معها ولا يرد لها طلباً.. ثم اطلق عليها أغلب المؤرخين كنية «ام المقتدر» (١٩). والمتعارف عليه تقليدا ان تسمى الأم باسم ابنها الكبير ولكن السيدة شغب لم تكن باسم جعفر بل «أم المقتدر» وهو لقب الخليفة لا اسمه احتراماً لها ولابنها خليفة المسلمين هذا وقد جاء في نشوار المحاضرة للتنوخي اسم « السادة » اطلق على المقتدر نفسه اضافة للسيدة شغب أمه وخالته خاطف وأم ولد المعتضد دستنبوه وهؤلاء جميعاً كانت لهم علاقة وثيقة بالخليفة

منذ صغره إذ اشرفن على تربيته .

٢ ـ وقدر لهذه الجارية ان تعيش في قصر الخلافة مدة طويلة جاوزت الاربعين سنة بصفة رسمية .. زوجة للخليفة المعتضد منذ سنة ٢٨٢ هـ لفترة تبلغ نحوا من خمس عشرة سنة حتى اصبح ولدها خليفة للمسلمين وكان له من العمر ثلاث عشرة سنة (٢١). فلقبت باسم أم المقتدر خلال فترة حكمه التى جاوزت خمساً وعشرين سنة فكان مجموع ذلك اربعين عاماً دون الفترة التى عاشت فيها قبل ذلك وهى جارية والتى لا نعلم عنها شيئا هذه الفترة الطويلة انفردت بها هذه السيدة دون غيرها ممن سبقها او جئن بعدها والتى مهدت لها السبيل لنشر سيطرتها ونفوذها على الدولة والخليفة نفسه .

٣ ـ السيدة شغب تعتبر الوحيدة من بين امهات الخلفاء من بنى العباس ممن تسلم ابنها منصب الخلافة ثلاث مرات.. الاولى عند الترشيح في سنة ٢٩٥ هـ وهو لايزال صغيرا ابن ثلاث عشرة سنة، فيذكر السيوطى (٢٢) « لم يلِ الخلافة اصغر منه سنا قبل ذلك»، ويؤكد ذلك المسعودى (٢٣) بقوله «لم يل من قبله في مثل سنه من الخلفاء وملوك الاسلام الخلافة.. أما المرة الثانية فقد حدثت بعد أربعة اشهر من تسلمه الخلافة خلع وجيء بعبدالله المعتز سنة ٢٩٥ هـ (٢٤) ثم اعيد المقتدر اليها بعديومين فقط قتل على اثرها عبدالله بن المعتز .. أما المرة الثالثة فكانت بعد احدى وعشرين سنة من خلافته خلع على يد العسكريين برئاسة ابى الهيجاء وجيء بأخيه القاهر بالله (٢٥) ولكن أعيد ايضا بعد فشل المؤامرة وجددت له البيعة وكان للسيدة شغب والدته دور كبير في كل هذه المرات بجانب دور بعض رجالات الدولة من العسكريين مثل مؤنس ومن المدنيين من الوزراء كابن الفرات وآل الجراح وغيرهم.

هذا وقد عرفت فترة حكم المقتدر بكثرة عدد الوزراء الذين تسلموا الحكم وقد قيل انهم بلغوا اثنى عشر وزيراً (٢٦). ومنهم من وزر مرتين ومنهم من وزر ثلاث مرات ولم يكن لمثل ذلك سوابق ابان حكم خلفاء بنى العباس قاطبة.. كما لم يل الخلافة خلال العصور العباسية خليفة غلبت عليه النساء مثله واشار كثير من المؤرخين القدامى الى ذلك .

٤ ـ اوصافها ـ تحددها بأربعة (أ) الجمال (ب) الغناء (ج) الموسيقى (د) الشعر والأدب .

(أ) جارية لم تكن تملك جمالا كما هو شأن اغلب الجوارى اللواتى دفعت لشرائهن المبالغ الطائلة للوصول الى دار الخلافة ودور رجالات الحكم كالخيزران ام الرشيد وام المستعين وزوجة المتوكل « قبيحة » وغيرهن من الجوارى المشهورات كدنانير وعُريب وبعدة . وكل الذى ذكر عن جمالها ومحاسنها في بطون كتب التاريخ انه « القهرمانة كانت جميلة الأطراف مسنة الأوصاف » (٢٧) . فأحبها المعتضد وتزوجها .. وكما جاء على لسان احد الشهود الذين أشرفوا على توكيلها في بيع املاكها بعد تعذيبها على يد الخليفة القاهر اذ وصفها بأنها امرأة عجوز « دقيقة الجسم سمراء اللون الى البياض والصفرة » وهذا كل الذى جاء في وصف جمالها بصورة عامة .

(ب) جارية لم تكن تملك صوتا يصلح للغناء ولا معرفة باصوله ولا مشاركة اذ لم تشر المصادر الى ذلك في شيء كما كان شأن الجوارى المغنيات اللواتى يتهافت عليهن اصحاب الثراء وعلى رأسهم الخليفة كدنانير الجارية الصفراء التى دفعت اموال بالغة عند شرائها (٢٩).. وبدعة التى دفع المعتصم مائة الف درهم لشرائها ثم اعتقها بعد وفاة المأمون وكانت تلميذة عند جارية المأمون عريب (٣٠) التى عرفت باجادتها الغناء وكانت تعتبر استاذة في هذا الفن تدرب على يدها عدد كبير من الجوارى وعلى راسهن المغنية بدعة وغنت يوماً من صنع عريب.

أعاذلنى اكثرت جهلا في العذل
على غير شيء في ملامي وفي عذلى (٣١)

أما الجارية المغنية شادية التى تزعمت الغناء بعد وفاة المعتصم حتى اواخر الواثق فكانت تضرب على العود وهى القائلة للمأمون :

وتخلط بالهجر بالوصال ولا
يدخل في الصلح بيننا أحد (٣٢)

(ج) جارية لم تكن ممن يحسن الضرب على الآلات الموسيقية او لها معرفة في ذلك كعبيدة الطنبورية التى نسبت الى الطنبور وكانت تملك الى جانب الموسيقى صوتا عذباً يرافق العزف وهى القائلة في غنائها:

من أحسن النسا وجهاً حتى تبصرها
واحذق الناس ان غنت بطنبور (٣٣)

ولكن بدعة المعروفة باحيائها الحفلات الغنائية والموسيقية في دور الوزراء .. وكان ابو الحسن على بن محمد بن الفرات على رأس من كان يهتم بمثل ذلك .

(د) جارية لم تكن تملك موهبة أدبية او شعرية ولم تقرأ عنها انها كانت تتذوق الشعر او تستمع اليه كما هو حال دنانير او عُريب او الجارية فضل الشاعرة التى اتصفت بجمالها وبقابليتها الادبية وسرعة بديهيتها، وكانت يجتمع عندها الادباء وقد اشاد بها الشاعر ابن المعتز وغيره من الشعراء وهى القائلة في خلافة المتوكل :

استقبل الملك امام الهدى
عام ثلاث وثلاثينا
خلافة افضت الى جعفر
وهو ابن سبع بعد عشرينا

هذا لم يكن لشغب في كل اولئك شيء ولم تشابه واحدة من ذوات الملكات المذكورات.

٥ ـ جهازها الخاص

كان للسيدة شغب جهاز خاص تابع لها مفصول عن اجهزة الدولة ولم تجد مثل هذه البدعة سابقا حتى لزبيدة الهاشمية أم الأمين ولا لغيرها وكان للسيدة شغب موظفون من كبار رجالات الدولة تدفع لهم رواتب من خزينتها الخاصة والدليل على علو منزلة موظفيها ان البعض انتقل من الاشراف على ديوانها الى منصب الوزارة مباشرة كما هو حال الوزير الخصيبى الذى كان كاتبا لديها (٣٥). بل ذهب البعض من موظفيها برفض الانتقال الى منصب الوزارة وتفضيله البقاء لديها خوفا من التعرض الى النكبات بعد خلعهم من الوزارة ضمانا لحالهم وحفظا لحياتهم واموالهم لانهم تحت حماية السيدة شغب وابرز من فضل البقاء لديها الكاتب المعروف بنزاهته وعفته «محمد بن عبدالحميد» الذى رفض الوزارة

عندما عرضت عليه (٣٦).. ومن بين الشخصيات البارزة ممن ساهم بديوانها البريدى (٣٧). وهارون ومحمد والخصيبى.. هذا وقد اتخذت السيدة شغب ايضا كاتباً خاصاً يقوم بادارة ضياعها وحشمها سنة ٣١٤ هـ وكان عبدالرحمن بن محمد بن سهل تولى امورها بعد قبول الخصيبى الوزارة وعندما عزل من الوزارة ونكب تمنى لو لم يترك منصبه لدى السيدة شغب لانها كانت انفع له من الخليفة (٣٩).. وبجانب هؤلاء توجد اعداد كبيرة من الموظفين في جهازها الذى توسع نتيجة توسع نفوذها وثروتها وحاشيتها

٦ ـ الثـروة :

عرفت السيدة شغب بالثراء، الموفور الذى تجاوز ما كان يملكه حتى بعض الخلفاء واية امراة في البلاط العباسى وفي بعض الفترات تجاوزت هذه الثروة، ثروة الخزانة العامة مما دفع ولدها المقتدر مراراً الى طلب المساعدة المالية منها عندما تعرض الى مشاكل خطرة كمشلكة هجوم القرامطة على قوافل الحج وعلى العراق سنة ٣١٧ هـ. هذا وقد ذكر ان دخلها من املاكها بلغ الف الف دينار في السنة (٤١)، وجاء في المنتظم لابن الجوزى (٤٢) «كان لها اموال عظيمة تفوق الاحصاء وكان يرتفع لها في ضياعها في كل عام الف الف دينار» وذكر ايضا اخرجت مرة من تربتها ٦٠٠ر٠٠٠ دينار (٤٣)، حيث كانت مخبأة خارج الخزانة كما كانت تملك كثيراً من البضائع الثمينة والرياش والجواهر كفص الياقوت الاحمر الذى اشتراه الرشيد بـ ٣٠٠ الف دينار وكذلك الدرة الثمينة التى تزن ثلاثة مثاقيل وغيرها (٤٤). وقد ذكر التنوخى في نشوار المحاضرة قصصاً كثيرة تشير الى تلك الثروة والمجوهرات والرياش والالبسة الثمينة وغير ذلك.

ولابد من ان نتعرف على المصادر والوسائل التى استخدمتها السيدة شغب في جمع مثل تلك الثروة الكبيرة التى كانت سبباً مباشراً لقتل ابنها المقتدر والى النكبة المؤلمة التي انتهت بها حياتها ايضا.. فالوسائل كثيرة تبدأ .

(أ) المصادرات ـ هذه العملية لم تكن وليدة عهد المقتدر بل قام بها الخلفاء الذين سبقوه اى منذ عهد المنصور واستمرت من بعده حتى اصبحت في عهد المقتدر سُنة متبعة مورداً خصباً (٤٥). للخزانة الخاصة به وبالسيدة شغب.. والمصادرات كما هو معروف تطبق على الوزير المعزول وعصبته بالدرجة الاولى ولكن في عهد السيدة شغب توسعت وشملت النساء بجانب كبار رجالات الدولة.. فالقهرمانات وهن من كبريات حاشية السيدة شغب تعرضن لها عند نكبتهن، كما هو الحال مع القهرمانة ام موسى صاحبة النفوذ الواسع فقد تعرضت مع اختها الى المصادرة بعد ان زوجت ابنة اختها من احد الامراء من احفاد المتوكل وكان من أهل المروءة والنعمة.. صديقاً للوزير الصالح علي بن عيسى، انفقت أم موسى اموالا كثيرة في هذه المناسبة مما جلب عليها الحساد والواشين الذين حاولوا اقناع المقتدر وامه السيدة شغب على ان هذه الزيجة كانت بدافع نقل الخلافة من المقتدر الى الصهر الجديد فنكبتها السيدة شغب بالتعاون مع ابنها المقتدر وسلمتها الى القهرمانة ثمل المعروفة بشراستها وقساوتها لمناظرتها واستخرجت منها اموالا كثيرة عينية ونقدية وجرى لها ما جرى على يد ثمل (٤٦).

اما طبقة الرجال من وزراء وكتاب وقواد فقد تعرضوا للمصادرة بأمر من السيدة شغب ايضا ولم يحدث مثل ذلك سابقا اذ ان الخليفة وحده هو الذى يصادر وزراءه دائما. ومن بين الوزراء الذين شملتهم اوامر السيدة شغب الوزير المعروف ابن الفرات الذى اطرى الشعراء حسن تدبيره وسياسته.

دولـة.. بقولهم (وبرت في ساعة دولة.. تميل لغيرك في اشهر) (٤٧). وكذلك الوزير الصالح القدير علي بن عيسى هو نفسه تعرض الى عقوبة السيدة شغب سنة ٣٠٧ هـ (٤٨)، اما كاتبها الخصيبى الذى اصبح وزيراً بمعونتها فنكبته واسترجعت منه اموالا كثيرة (٤٩)، وكذلك الوزير الخاقانى فقبض عليه واستخرج منه بأمر السيدة شغب والخالة خاطف ٧٠٠ الف دينار (٥٠) وهكذا كان شأن الاخرين وهناك ممن شملتهم شفاعة السيدة فلم تصادر اموالهم كابن جعفر ابن شيرزاد كاتب خالة السيدة شغب هارون بن غريب الذى اتصل بها سنة ٣١٥ هـ عندما تعرض لنكبة طالبا شفاعتها فتخلص بذلك من العقوبة وأُخليَ سبيله (٥١).

(ب) الرشــوات :

وهى الاخرى اصبحت سنة متبعة وكانت لاتعتبر في العمليات اللاخلقية، تؤخذ من الاشخاص الذين يودون الحصول على مناصب كبيرة كمنصب الوزارة.. فحامد بن عباس كان «طامعا بالوزارة واعدا اياها بالمال فتم له ما اراد» (٥٢). وابن الفرات مع ما يملك من مقدرة وكفاءة وثقافة الا انه هو الآخر تعهد في وزارته الثانية ان يدفع للسيدة شغب وللخليفة في كل يوم الفا وخمسمائة دينار (٥٣) ويذكر مسكويه (٥٤)، انه كان يدفع للمقتدر في كل يوم الف دينار وللسيدة شغب ثلاثمائة وثلاثة وثلاثين وثلث دينار وللاميرين ابن العباس وهارون ابنى المقتدر فى كل يوم مائة وستة دنانير وثلثا فالرشوة كان معترفا بها ليس على صعيد الخلفاء بل شملت الامراء والوزراء والقادة ايضا ونشير هنا الى قصة توضح مفهوم الرشوة وموقف المرتشى في اصحاب المراتب العالية تجاه الرشوة فالوزير الخاقانى كان من بين الوزراء الفاسدى التدبير ذكر انه عين في يوم واحد تسعة عشر ناظرا للكوفة واخذ في كل واحد رشوة فانحدروا واحدا واحدا للكوفة حتى اجتمعوا جميعهم في بعض الطرق فقالوا كيف نصنع فقال احدهم ان اردتم النصفة فينبغى ان ينحدر الى الكوفة اخر عهد بالوزير فهو الذى ولايته صحيحة هذا وهجاه احد الشعراء قائلا :

وزيـر لا يمـل مـن الـرقـاعـة ... يـولى ثـم يـعـزل بـعـد سـاعـة
ويـدنـي من تـعـجـل منـه مـال ... ويبعـد من تـوسـل بـالشـفـاعـة
اذا اهـل الـرشـا سـاروا اليـه ... فاحظى القـوم اوفرهم بضـاعـة

كما ان السيدة شغب كانت تمدُّ يدها علنا وبدون تردد تطلب من الوزير ان يدفع ما تحتاجه من اموال .. ارسلت يوما قهرمانتها أم موسى للوزير على بن عيسى سنة ٣٠٤ هـ (٥٦) ، لتوافقه على ما يطلق فى عيد الأضحى للخدم والحاشية وعند رفضه مقابلتها لانشغاله بشؤون الدولة تعرض الى النكبة بعزله ثم سجنه وبالرغم من تقديمه الاعتذار الا انه لم يستطع التخلص من يد السيدة شغب وأم موسى .

الاستيلاء على اموال غير مشروعة تابعة لموظفيها في جهازها الخاص بعد وفاتهم كما فعلت مع كاتبها المخلص الشيخ الجليل «محمد بن عبدالحميد سنة ٣٠٧ هـ مدت يديها الى تركته واخذت منها مائة الف دينار من العين» (٥٧) وهذا العمل لا يتماشى مع الشرع والتقاليد.. الاجتماعية وذكر انها حاولت مرة اخرى مد يدها الى الوقوفات عندما ارسلت قهرمانتها للقاضي ابن بهلول تطلب منه كتاب وقف بضيعة كانت ابتاعتها وكان كتاب الوقف مخزونا في ديوان القضاء وارادت اخذه لتمزقه وتمتلك الوقف وبعد المداولة والمعارضة الشديدة مع القاضي ابن بهلول الذى اضطر ان يقدم شكوى للمقتدر نفسه تراجعت بعد ذلك عن مطلبها لكونه عملاً غير شرعي (٥٨) ويقال انها كانت تمنح المال وتمنعه . فانها كانت تفضل ذلك على اساس السلطة التى تباشرها (٥٩٩) .

(د) طرق التنمية :

واقصد بذلك تنمية ثروتها التى بلغت عن ممارسة طرق التنمية وهى التجارة والضمان والاحتكار ما بلغت اليه الوفرة.. فالعملية الاولى التجارة.. هذه المهنة لم تعد ينظر اليها بازدراء كما هو الحال في صدر الاسلام بل اصبح العرب بصورة عامة وعلى راسهم الخليفة والحاشية وكبار رجالات الدولة يمارسونها بحرية وفخر واشتركت النساء في مزاولة التجارة ومن ضمنهن نساء البلاط العباسى وعلى راسهن السيدة شغب وقهرماناتها ويكفى ان نشير الى موقف السيدة شغب من التاجر المعروف ابن الجصاص الذى وقفت الى جانبه تطلب له الشفاعة من ابنها المقتدر حين تعرض التاجر الى النكبة فاخذت منه اموالا عظيمة فاذا بالسيدة شغب تشفع له وتدعوه لمقابلتها بدون سابق ثم ارجعت اليه ما صودر منه خاصة اعدال «الخيش» (٦٠) التى حملها معه من مصر.

٢ ـ الضمان :

عملية متداولة ومعروفة في عهد المقتدر.. كان يقوم بها اصحاب الثروات والملكيات الكبيرة وعلى راسهم الوزراء. فحامد ابن العباس الوزير المعروف الذى قام بضمان منطقة السواد مما ادى الى خراب البلد وكانت للسيدة شغب يد في هذه العملية اذ انها كانت تضمن ضياعها الواسعة الكبيرة باشراف كتابها فابو يوسف البريدى (٦١) قيل كان يسعى جاهدا لضمان ضياع السيدة شغب على أحد التجار.. وطالما كانت تأتى ظلامات في المناطق التى في حوزتها كما حدث في منطقة جنبلاط والسيبة وقد اشار التنوخي (٦٢) الى عمليات اخرى كانت السيدة شغب قد مارست الضمان .

٣ ـ الاحتكار :

هذه العملية مرتبطة بالضمان سبق وان قام عدد من الوزراء باحتكار الحبوب خاصة وأدى ذلك الى الغلاء من جراء انقطاعها فعرّض الناس الى الجوع والهلاك .. كالوزير حامد ابن عباس الذى قام بالتعاون مع السيدة شغب فكانت قد عرضت الدولة الى الخراب.. فاضطر المقتدر الى الوقوف ضدهما وامر بفتح مخازن الحبوب فانخفضت الاسعار وتمكن من كسر احتكار المحتكرين (٦٣). هذا ولم يشر المؤرخون الى امراة ساهمت بالقيام بعملية الضمان والاحتكار كما فعلت السيدة شغب .

٧ ـ الحاشية :

للسيدة شغب حاشية كما هو شأن بقية امهات وزوجات الخلفاء الذين سبقوها اوجئن من بعدها ولكن حاشيتها تختلف عنهن جميعا من حيث كثرتها فضلا عن شمولها للجنسين رجالا ونساء. فالمجموعة الاولى تشمل كبار رجالات الدولة من وزراء وكتاب وحتى القواد العسكريين كمؤنس الذى يعتبر صاحبَ الفضل الكبير في ارجاع المقتدر الى كرسي الخلافة ، عند خلعه للمرة الاولى والثانية. كما ان الوزير ابن الفرات الذى تسلم الوزارة ثلاث مرات يعتبر من المقربين اليها فهي القائلة له يوماً عندما وضعت ابنها الخليفة المقتدر في حجره وكان صغير السن آنذاك « هذا يا أبا الحسن ولدك ، وأنت قلدته الخلافة اولا وثانيا » واجابها قائلا: « هذا مولاى وأمامى ورب نعمتي وابن مولاى وامامى» (٦٤)، اما من بين الكتاب المقربين لها « أحمد بن عبدالحميد» كاتبها الخاص والمعروف بملازمتها حتى وفاته، أما الاخرون منهم من شاركتهم بالتجارة والضمان والاحتكار كحامد والخصيبي وغيرهم اما المجموعة الثانية في الحاشية «الحريم» وهؤلاء كن على مستويات مختلفة تشكل مجموعة منهم اقارب الخليفة وهم يعيشون في البلاط وسبق وان اشرفوا على تربية المقتدر وعلى راسهن الخالة خاطف ام والد المعتضد وكن يلقبن بالسادة أسوة بالسيدة لعلو منزلتها.

أما المجموعة الثانية فهن اللواتى يشكلن الطبقة الارستقراطية اطلق عليهن لقب القهرمانات كان لهن تأثير ودور كبير في جهاز الدولة مالم يكن له مثيل في السابق وقبل ان نتوسع في البحث عنهن لابد من الاشارة الى مفهوم كلمة قهرمانة وجمعها قهارمة (٦٥)، « معناها مدير البيت وابن الدخل والخرج» وهى كلمة معربة.

ومن القهرمانات في ذلك الحين فاطمة وأم موسى وثمل وأم زيدان ونظم وغيرهن. أما وظائفهن فقد بدأت باشرافها على نقل الرسائل من الخليفة واليه وهذه المهنة تعتبر وظيفة حساسة ومهمة لانها تعتمد على السرية وسلامة الاخبار ولكونها متصلة بالخليفة مباشرة .. وبضعف الخلفاء واحتجابهم عن الناس ازداد تسلطهن عليه وبالتالى على مرافق الدولة خاصة في العصر العباسى الثانى « عهد المقتدر » قيل كانت دولته في سنيه الأولى منقادة لآراء جواريه والحاشية والسيدة شغب والدته وقهرماناتها.. وكما جاء في الفخرى (٦٦) « كانت دولته تدور امورها على تدبير النساء والخدم وهو مشغول بلذاته ».

هذا ومن مظاهر سعة نفوذهن في هذه الفترة ما سأوضحه في النقاط التالية :

١ ـ منهن من توصلن الى القيام بتعيين الوزراء وعزلهم ايضا حتى كان من بينهم وزير صالح متمتع بقوة الشخصية كعلي بن عيسى لمجرد عدم رضى القهرمانة أم موسى عنه كان قد تعرض الى العزل والحبس وهكذا الحال مع حامد بن العباس والخصيبى وغيرهم .

ومن بين القهرمانات من اعطيت لهن صلاحيات واسعة كأشرافها على تعذيب وحبس الوزير المخلوع فأم زيدان كانت قد سجنت علي بن عيسى واشرفت على حبسه عندما عزل من الوزارة (٦٧).

ومن بينهن ايضا من قامت بالاشراف على البريد بين الخليفة ووالدته وبينها وبين الوزراء ولايخفى ما لهذه الوظيفة من اهمية سلمت بيد القهرمانة فاطمة وبعد وفاتها سلمت الى القهرمانة صاحبة النفوذ الواسع أم موسى (٦٨) .

اعلى ما توصلت اليه منزلة القهرمانة باعطائها الاشراف على بيت المظالم (٦٩). الوظيفة التى لم تسلم لغير الخليفة ولكن في سنة ٣٠٦ هـ امرت السيدة شغب القهرمانة ثمل القاسية ان تجلس بالرصافة للنظر بالمظالم في كل جمعة وذلك بحضور الفقهاء والقضاة والاعيان وكانت تبرز التواقيع وعليها خطها وأنكر النـاس ذلك واستبشـعـوه وكثـر عيبهـم لـه والطعن فيـه وجلست اول يـوم فلـم يكـن لهـا فيـه طـائـل ثم جلست في اليـوم الثـاني واحضـرت القـاضي ابـا الحسن فمن امرها واصلح عليها وخرجت التوقيعات على سواد فانتفع بذلك المظلومون وسكن الناس الى ما كانوا نافروه من تعودها ونظرها.

هذا وبلغت منزلة القهرمانة الى درجة الارتباط العائلي مع اولاد القادة العسكريين وحتى الامراء، فالقهرمانة فاطمة زوجت احدى بناتها من بني بن نفيس « احد القادة الكبار» (٧١). اما ام موسى زوجت بنت اختها من احد احفاد المتوكل «ابى بكر بن العباس» وكانت تلك الزيجة سببا في نكبتها.. سبق وان اشرنا الى ذلك في موضوع الحاشية.

هذا وكان من بينهن من اسند اليهن الاشراف على الدخل والخرج لما تملكه السيدة شغب من اموال وضياع واسعة ومن بينهن من كن يمتلكن الاموال الطائلة مما حدا ببعضهن بانشاء ديوان خاص يدير شؤونهن المالية وهذا يدل على سعة ثروتهن التى نافست ثروة السيدة شغب واكثر من ذلك.

(ج) أما المجموعة الثالثة فهن بقية الجوارى اللواتي لم يكن لهن دور او تاثير يذكر على سياسة الدولة او المجتمع فالسيدة شغب كانت تملك اعدادا كبيرة من الجوارى طالما شاركتهن في المسرات والملذات وانفقت عليهن اموالا كثيرة كما اعتقت اعدادا منهن .. اذ عرفت السيدة بعطفها وحسن معاملتها لجواريها.

النفقـــات

كـانت السـيدة شغب كثيـرة الانفـاق الى درجة الاسـراف وربمـا سـاعـدهـا مـا كـانت تملكـه من ثـروة كبيـرة فـابن الجـوزي يشيـر الى ذلـك بقوله « كانت لها اموال عظيمة تفوت الاحصاء كان يرتفع لها من ضياعها في كل عام الف الف دينار وكانت تتصدق باكثر من ذلك». رغم كل ذلك اتهمت من قبل بعض المؤرخين بالحرص على ثروتها الى درجة اتصافها بالبخل متهمين اياها بعدم اعطائها المال لابنها المقتدر في حربه لمؤنس والذى قتل على اثرها وسنحاول ان نشرح ذلك بعد ان نبين الاوجه التى انفقت فيها الاموال من قبل السيدة شغب وهما:

١ ـ اسرافها وبذخها في امور لا تعود بالنفع على الدولة بل على نفسها بامتلاكها لصناديق كبيرة تحتوى على البسة ورياش واقمشة وجواهر وكثير من الامتعة الثمينة الغالية حتى قيل انها كانت تطلى نعالها بالمسك والعنبر المذاب وكان يعمل لها من الثياب الدبيقية المخيطة بالابريسم مالا تلبسه اكثر من عشرة ايام (٧١).

٢ ـ الانفاق على الولائم والحفلات التى تقام في مناسبات خاصة فذكر المؤرخون ان في حفلة ختان اولاد المقتدر نثر عليهم خمسة آلاف دينار عينا ومائة الف درهم.. وجميع ما انفق بلغ ستمائة الف دينار (٧٢). وهناك حفلات خاصة كانت تقام في دار السيدة شغب ويحضرها عدد كبير من الجوارى الجالسات بعد ان شرب المقتدر بحضور السيدة شغب أمر بشراء جميع الجوارى اللواتى حضرن الجلسة الغنائية (٧٣) .

٣ ـ الهدايا الثمينة الغالية السعر التى كـانت تقدمهـا الى حاشيتها وخواصها ويكفى ان نذكر القربة الفضية الثمينة التى ارسلت الى دار ابى القاسم بمناسبة تطهير احد ابنائه وجاء ذلك تلبية لرغبة القهرمانة نظم وهى على علاقة متينة بأبى القاسم فحملت له مع من حمل من فرش وثياب وهدايا اخرى وكانت القربة خاصة بالخليفة المقتدر عزيزة لديه (٧٤) .

وبالرغم من كثرة الاسراف والبذخ في وجوه لا اهمية لها فان المؤرخين اجمعوا على ان السيدة شغب انفقت اموالا كثيرة على الاعمال الخيرية وكانت تبذل المال بسخاء في سبيل البر والاحسان ومن تلك الاعمال الخيرية بيمارستان السيدة شغب الذى يقع في سوق يحيى وجلس سنان بن قرة فيه ورتب المتطببين وكان مبلغ النفقة سبعة آلاف دينار (٧٥) كما انها كانت تواظب على مصالح الحجاج وتبعث خزانة الشراب والاطباء معهم وتأمر باصلاح الحياض وكانت توقف الاوقاف (٧٦) على المصالح الخيرية بالرغم مما قيل عنها انها ارادت ان تتخلص من الضريبة بقيامها بمثل هذا العمل.. واعتقد ان هذا اتهام لا يتماشى مع ما تتمتع به شغب من سلطة واسعة بها تتخلص من الضريبة بسرعة .. كما انها ساعدت على التخلص من القرامطة عندما قطعوا طريق الحاج ومنع الحجاج من زيارة مكة سنة ٣١٧ هـ (٧٧) .

٩ ـ خصائصها الموروثة والمكتسبة :

لم نعرف شيئا عن الأصول التى انحدرت منها شغب ونقصد بذلك نسب الأم والأب .. وبعد دراستنا لمسيرة حياتها نستطيع ان نجزم انها لا تملك من الذكاء الموروث شيئا وذلك لعدم اتصاف والديها بهذه الصفة كما ظهر منها .. فخلال سيرة حياتها الطويلة في دار الخلافة وهى ارفع دار في العالم الاسلامي لم نجد اية اشارة تدل على انها كانت تتمتع بذكاء او بثقافة علمية كانت ام أدبية اللهم الا ان هناك قصتين الأولى تشير الى ان السيدة شغب ارسلت يوما احد خدمها ليجلب الكتب التى يقرؤها « أبو العباس » محمد بن المقتدر على يد معلمه الصولى وقد عرضت الكتب عليها ومن ثم امرت بارجاعها بعد ان اطلعت عليها فوجدت انها صالحة للتدريس (٧٨) .

هذه القصة قد تكون مبالغا فيها كما اعتقد لسببين اولهما ان شغب لم تكن تملك شيئا من الثقافة لدرجة استطاعتها تميز الكتب المنهجية بصورة خاصة ومعرفة مدى صلاحيتها للتدريس وهذا من شأن المربين دون غيرهم من الناس. والسبب الثانى ان المربى هو المؤرخ الكبير الصولى فمن غير المحتمل ان تراقب شغب بالذات الكتب التى يقوم بتدريسها.

اما القصة الثانية فتذكر ان الجواليقي والحسين بن اسماعيل

المحامي احضرتهما شغب الى دارها ليمتحنا أبا العباس بن المقتدر فوجداه متمكنا من العلوم التي كان يدرسها على اساتذته (٧٩). هذا الخبر قد يكون جائزا لكونها لم تتدخل في صميم المادة بل اكتفت بالاعتماد على اقوال العالمين المحامي والجواليقي .. والبعض يرى موقفها هذا دليلا على قوة عزيمتها وبعد نظرها باهتمامها بمراقبة ما كان يدرسه احفادها الامراء ولكن استبعد ذلك للاسباب التي ذكرتها سابقا وربما ذكر البعض هذه القصص الغاية رفع منزلة السيدة شغب حتى في مجال الثقافة .

اما الخصائص المكتسبة واعني بها العوامل التربوية التي ظهرت في سيرتها خلال حياتها في دار الخلافة ومدى تأثيرها في سلوكها فقد ورد في كتب المؤرخين جميعا انها كانت تتمتع بقوة الشخصية التي فرضتها على من حولها رجالا ونساء فقد كانت غريزة حب السيطرة والتملك قوية عندها ساعدتها ظروفها الحياتية على اظهارها وتقويتها فهي الزوجة وهي الأم لخليفة المسلمين لفترة طويلة كانت كافية لتنمية تلك الغريزة كما ان الوضع السياسي المضطرب في فترة ولدها المقتدر والنزاع ما بين طبقة الوزراء من جهة وما بينهم وبين العسكريين من الجهة الاخرى ساعد على تدخلها في شؤون الدولة اذ ان رجالات الحكم كانوا يحاولون التقرب منها لينالوا ما ينالون من منصب او جاه او مال، هذا ومن ملامح سيطرتها التربوية انها لم تحسن تربية ولدها الوحيد المقتدر بدفعه الى الانغماس في الملذات واللهو بدلا من توجيهه نحو حياة الجد والاهتمام بشؤون الدولة وقد ذكر المؤرخون في كتبهم الى ما يشير الى ذلك فالتنوخي يشير الى ان شغب كانت تجلس في مجالس الشراب والغناء مع الجواري بحضور ولدها خليفة المسلمين المقتدر . فذكر ان في احدى الجلسات حملت الى مجلس شغب والمقتدر حاضرا احد الجواري الحسان صاحبة الصوت الجيد مع عدد من الجواري وغنّين امامه فامر بشرائهن جميعا (٨٠) وهذا دليل على انفاق الاموال في مجال اللهو والملذات التي كانت الدولة احوج اليها من الجواري وقد عرف المقتدر بهذه الصفة منذ صغره وحذر منها الخليفة المعتضد فقد ذكر ابن الجوزي (٨١) قصة تؤيد ذلك على لسان صافي الحرمي (مولى المعتضد) قائلا « كان جعفر ابن خمس سنوات او نحوها وهو جالس وحواليه مقدار عشر وصائف من اقرانه في السن وبين يديه طبق فيه عنقود عنب في وقت لايوجد العنب والصبي يأكل منه واحده ثم يطعم الجماعة عنبة عنبة على الدور حتى اذا بلغ الدور اليه اكل واحدة مثل ما أكلوا حتى فني العنقود والمعتضد يتميز غيظا فرجع ولم يدخل الدار وبقي مهموما فقلت له يامولاي ما سبب ما فعلته

فقال والله يا صافي لولا النار والعار لقتلت هذا الصبي اليوم فان في قتله صلاحا للامة حتى يقول يامولاي حاشاه أي شيء عمل ؟ اعيذك الله يا مولاي اللعين ابليس فقال ويحك انا ابصر بما اقول انا رجل قد سست الأمور واصلحت الدنيا بعد فساد شديد ولابد من موتي وانا اعلم ان الناس لايختارون غير ولدي وسيجلسون ابني عليا يعني (المكتفي وما اظن عهده طويل.. حتى يقول ولايجدون بعده اكبر من جعفر فيجلسونه وهو صبي وله من الطبع والسخاء هذا الذي رأيت.. حتى يقول فيقسم ما جمعته من اموال كما قسم العنب ويبذر ارتفاع الدنيا ويخربها الى آخره.

هذه القصة وغيرها تدل على ان شغب لم تعتن بتربية ولدها وتوجيهه نحو الصلاح مما اساءت الى الدولة وخزينتها التي تعرضت الى الافلاس مرارا كما ذكرنا وكانت هي السبب المباشر في قتل المقتدر ونهاية حياة السيدة شغب والدته النهاية المؤلمة المفجعة كما سنرى.. ونكتفي بذكر هذه الصور القليلة عن سلوكها معتمدين على ما ذكرناه سابقا من خصائص ومميزات .

١٠ ـ ولابد لي من ان اذكر في ختام هذا البحث وانا استعرض خصائصها العشر انها كانت المراة الوحيدة من بين (نساء بني العباس) التي عاشت ما يقارب الأربعين سنة في رفاه وعز في ظل الخلافة لم ينافسها احد من الرجال او النساء فهي صاحبة الامر والنهي وهي المتسلطة على جهاز الدولة وهي التي انفردت بنهاية حياة مؤلمة مفجعة لم تحدث من قبل لاية امراة وذلك بنكبتها بعد مقتل ولدها، اذ تعرضت الى صنوف العذاب فضربت ضرباً شديداً وعلقت من ارجلها عند استجوابها عن ما تملكه من ثروة مما ادى الى وفاتها وكان ذلك سنة ٣٢١ هـ (٨٢). وكان تعذيبها بأمر من الخليفة القاهر اخي المقتدر اشد مرارة لكون السيدة شغب قد احسنت اليه سابقا وانقذته من التعذيب والموت عند خلعه وارجاع المقتدر للخلافة في المرة الثانية سنة ٣١٧ هـ . وعلى الرغم من الاتهامات التي وجهت الى السيدة شغب وعلى رأسها صفة البخل التي كانت سببا في مقتل ولدها لرفضها اعطاءه المال عند خروجه لمقابلة مؤنس، هذه الاتهامات التي نردها لاسباب منها اولا : ان السيدة لم تكن بخيلة اذ ان هذه الصفة بعيدة عنها لكونها عرفت طيلة حياتها بالكرم والانفاق الى درجة الاسراف والتبذير وهذا ما اوضحناه سابقا .

ثانيا : لم تكن المسؤولة عن مقتل ولدها ونحن نعلم ان علاقتها بابنها الوحيد كانت قوية ومتينة ادت به الى ان ينشأ مدللا بعيدا عن الجدية في ادارة شؤون الدولة عندما اصبح خليفة المسلمين .

ثالثا : لم تدرك السيدة شغب النتائج التي ترتبت على خروج المقتدر لمقابلة مؤنس القائد الذي كانت تربطه به وبأمه علاقة متينة بنيت على الاخلاص طوال فترة حكمه ما عدا الفترة الاخيرة ولو انها كانت على علم بما سيتعرض اليه ولدها من الموت المحقق لما تأخرت عن انفاق جميع ما تملك من ثروة لانقاذه وهي التي سبق وان اعطت وانفقت عليه المال الكثير.

وآخر ما نصف به سيرة هذه المراة وشخصيتها ذكر بعض اقوال من عاصرها من كبار رجال الدولة واقوال المؤرخين القدامى والمحدثين على السواء اذ اجمعوا على انها كانت متدينة وطيبة القلب فهذا الوزير الصالح علي بن عيسى يقول « بانها متدينة فاضلة تحب الخير وتعمل على تعميمه» (٨٣) والمؤرخ الكبير ابن الجوزي (٨٤) يقول « كانت لها اموال عظيمة تفوق الاحصاء.. وكانت تتصدق باكثر من ذلك وكانت تواظب على مصالح الحاج والى آخره». والمؤرخ عبدالعزيز الدوري (٨٥) وهو من المحدثين قال « انها حمقاء وليست خبيثة اذ انها كانت متدينة انفقت قسماً كبيراً من ثرواتها في الاعمال الخيرية .

هذه الاقوال وغيرها كثير كافية لان تثبت ان السيدة شغب لم تكن شريرة او عديمة الاخلاق بدليل انها لازالت وهي في نهاية

حياتها تتمتع باحترام بعض الناس ومحبتهم ولاسيما كبار رجالات الدولة فهذا الحاجب علي بن يلبق اخذها الى داره بعد تعذيبها ليلا وجعلها عند والدته واكرمها ورفهها الا انها توفيت بعد عشرة ايام ودفنت في تربتها بالرصافة (٨٦) وانسدل الستار على حياة امراة عاشت فترة طويلة في عز وجاه وترف ونعيم وانتهت سريعا بنهاية مفجعة مؤلمة مع الاسف .

الهوامش

اسم المؤلف	عنوان الكتاب	رقم الصفحة
١ الكبيسي - حمدان	عصى المقتدر	٣٢
٢ قتر - ادم	الحضارة الاسلامية ج ٢	٢٧٢
٣ السيوطي - جلال	تاريخ الخلفاء	١٥٢
٤ الزركلي - خير الدين	قاموس تراجم ج ٣	٢٤٥
٥ مجهول	العيون والحدائق ج ٤	٢٠٧
٦ المسعودي	التنبيه والاشراف	٣٣٦
٧ الفخري - الطقطقي	الآداب السلطانية	٢٠٣
٨ الخضري - محمد	تاريخ الأمم الاسلامية	٣٨
٩ المسعودى	التنبيه والاشراف	٣٢٩
١٠ ابى العبري	تاريخ مختصر الدول	٢٧٥
١١ الفخرى	الآداب السلطانية	١٩٣
١٢ الطبرى	تاريخ الرسل والملوك ج ١٠	٤٣٣
١٣ السيوطي	تاريخ الخلفاء	١٥٢
١٤ ابن الأثير	الكامل ج ٨	
١٥ المسعودى	مروج الذهب ج ٤	٢٠٢
١٦ الكبيسي	عصر المقتدر	٩٩
١٧ عريب	الصلة	٢٣٠
١٨ مسكويه	تجارب الأمم ج ١	١١٨
١٩ كحاله - عمد	اعلام النساء ج ٥	٦٧
٢٠ التنوخي	نشوار المحاضرة ج ٥	٥١
٢١ الفخرى - الطقطقى	الآداب السلطانية	١٩٣
٢٢ السيوطى	تاريخ الخلفاء	١٥٢
٢٣ المسعودى	التنبيه والاشراف	٢٢٨
٢٤ مجهول	العيون والحدائق ج ٤	٢٠٩
٢٥ الزركلي - خير الدين	قاموس تراميم ج ٣	٢٤٥-٢٤٦
٢٦ المسعودى	التنبيه والاشراف	٣٢٨
٢٧ الصمري - ياسين	مهذب الروضة الفيحاء	٢٢٦
٢٨ ابن الجوزى	المنتظم ج ٦	٢٥٤
٢٩ كحالة - عمر	اعلام النساء ج ٣	٢٦٧
٣٠ رحمة الله - مليحة	مقالة الغنـاء والموسيقى في العصر العباسى	٩٨
٣١ كحالة	اعلام النساء ج ٣	٢٦٧
٣٢ الشابشتى	الديارات	٧٩
٣٣ رحمة الله - مليحة	مقالة الغناء والموسيقى	٩٨
٣٤ كحالة	اعلام النساء ج ٤	١٧١
٣٥ ابن الاثير	الكامل ج ٨	١٨٤
٣٦ الجوزى	المنتظم ج ٦	١٥٥
٣٧ التنوخى	نشوار المحاضرة ج ٨	٦٨
٣٨ التنوخى	الفرج ج ٣	٣٢
٣٩ المسعودى	التنبيه والاشراف	٣٢٩
٤٠ الزركلى	قاموس تراجم	٢٤٥
٤١ الجوزى	المنتظم ج ٦	٢٥٣-٢٥٤
٤٢ الزركلى	قاموس تراجم	٢٤٥-٢٤٦
٤٣ الدورى - عبدالعزيز	العصور العباسية المتأخرة	١٩٧
٤٤ الفخرى	الآداب السلطانية	١٩٠
٤٥ الدورى	العصور المتأخرة	٢١٩
٤٦ مسكويه	تجارب الأمم ج ١	٨٤
٤٧ الفخرى	الآداب السلطانية	١٩١
٤٨ مسكويه	تجارب الأمم ج ١	٤٠
٤٩ الدورى	العصور المتأخرة	٢٠٦
٥٠ مسكويه	تجارب الامم ج ١	١٤١-١٤٢
٥١ مجهول	العيون والحدائق ج ٤	٣٢٨-٣٢٩
٥٢ الكبيسي	عصر المقتدر	١٠٦
٥٣ التنوخى	نشوار المحاضرة ج ٨	٨٥
٥٤ مسكويه	تجارب الامم ج ١	٤٠
٥٥ الفخرى	الآداب السلطانية	١٩٧
٥٦ مسكويه	تجارب الامم ج ١	٤٠
٥٧ عريب	الصلة	٨٠
٥٨ ابن الجوزى	المنتظم ج ٦	٢٢٣
٥٩ الكبيسى	عصر المقتدر	١٢٢
٦٠ التنوخى	نشوار المحاضرة ج ٧	٢٦٦-٢٦٧
٦١ التنوخى	نشوار المحاضرة ج ٨	٢٦٨
٦٢ التنوخى	نشوار المحاضرة ج ٥	٥٨
٦٣ الدورى	العصور المتأخرة	٢٠٣
٦٤ التنوخى	نشوار المحاضرة ج ٥	٦٧
٦٥ التنوخى	الفرج بعد الشدة ج ٢	٤٤-٤٥
٦٦ الفخرى	الآداب السلطانية	١٩٧
٦٧ مجهول	العيون والحدائق ج ٥٤	٢٩٨
٦٨ مسكويه	تجارب الامم ج ١	١٤٣
٦٩ السيوطى	تاريخ الخلفاء	١٥٢
٧٠ كحالة - عمر	اعلام النساء ج ٥	٦٧
٧١ التنوخى	نشوار المحاضرة ج ١	٢٩٣
٧٢ الجوزى	المنتظم ج ٦	١٢٧
٧٣ التنوخى	الفرج بعد الشدة	٣٨٦
٧٤ ابن الجوزى	المنتظم ج ٦	٧٥
٧٥ كحالة - عمر	اعلام النساء ج ٥	٦٨
٧٦ الجوزى	المنتظم ج ٦	٢٤٩
٧٧ ابن الصحرى	مختصر الدول	٢٧٥
٧٨ عنتر ادم	الحضارة الاسلامية ج ١	٣٤
٧٩ الصولى	اخبار الراضى	٢٦
٨٠ مسكويه	تجارب الأم ج ١	١٢١
٨١ ابن الجوزى	المنتظم ج ٦	٧١
٨٢ الصمدى	مهذب الروضة	٢٢٦-٢٢٧
٨٣ الكبيسى	عصر المقتدر	١٠٩
٨٤ ابن الجوزى	المنتظم ج ٦	٢٢٦
٨٥ الدورى	العصور المتأخرة	١٩٧
٨٦ العمرى	الروضة - الفيحاء	٢٢٦-٢٢٧

المصـادر

قائمة المصادر والمراجع

(١) ابن الاثير - الكامل فى التاريخ - الشيخ العلامة محمد بن عبدالواحد الشيبانى المعروف بابن الاثير/ بيروت ١٩٦٦ - ١٣٨٦

(٢) ابى الجوزى ـ ابى الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد بن على ، المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم . القسم الثانى ق الجزء الخامس ، ط ١ ، مطبعة دار المعارف العثمانية بعاصمة حيدر آباد ، ١٣٥٧ هـ
(٣) ابى الحضرى ـ غريغوريوس ابى الفرج بن هروت الطبيب الملطي ، تاريخ مختصر الدول ، مطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين ق بيروت ١٨٩٠م .
(٤) ابى الطقطقي ـ محمد بن على بن طباطبا ، الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية ، المطبعة الرحمانية بمصر .
(٥) التنوخى ـ ابى علي المحسن بن علي ، نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة تحقيق عبود الشابى .
(٦) نفس المؤلف ، الفرج بعد الشدة ، مكتبة الخانجي ومكتبة المثنى ببغداد ، ط ١ ، ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٥م .
(٧) الخضرى ـ محمد ، محاضرات تاريخ الأمم الاسلامية الدولة العباسية ط ١ ، بمطبعة الجمالية بمصر ، ١٣٣٤هـ / ١٩١٦م .
(٨) الدوري ـ عبدالعزيز ، دراسات فى العصور العباسية المتأخرة ، شركة الرابطة للطبع والنشر المحدودة ، بغداد ، ١٩٤٥م .
(٩) رحمة الله ـ مليحة ، مقالة الغناء والموسيقي والمجالس الاجتماعية فى العصر العباسى ، المجلة التاريخية المصرية ، ١٩٦٨ن .
(١٠) الزركلي ـ خير الدين ، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء فى العرب والمستعربين والمستشرقين ، ط ٣
(١١) السيوطي ـ جلال الدين عبدالرحمن ، تاريخ الخلفاء ، مطبعة الميمنة ، ١٣٠٥ هـ
(١٢) الشبابشتي ـ الديارات على بن محمد ـ تحقيق كوكيس عواد ـ مطبعة المعارف ـ بغداد ١٩٦٦
(١٣) الطبرى ـ ابى جعفر محمد بن جرير ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبوالفضل ابراهيم ، دار المعارف بمصر .
(١٤) الصولي ـ اخبار الراضى والمتقى لله سنة ٣٢٢/٣٣٣ ابو بكر محمد بن يحي ـ القاهرة ـ مطبعة الصاوي ١٩٣٥
(١٥) الصمدى ـ ياسين بن خير الله ، مهذب الروضة الفيحاء فى تواريخ النساء
(١٦) عريب ـ صلة تاريخ الطبرى ـ تحقيق محمد أبوالفضل ابراهيم ـ دار المعارف
(١٧) كحالة ـ عمر ، اعلام النساء فى عالمى العرب والاسلام ـ الطبعة الثانية ـ المطبعة الهاشمية ١٣٣٨/١٩٥٩
(١٨) الكبيسى ـ حمدان عبدالمجيد ، عصر الخليفة المقتدر دراسة فى أحوال العراق الداخلية ، مطبعة النعمان ـ النجف ، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م .
(١٩) قتز ـ آدم ، الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ترجمة محمد عبدالهادى ابو زيد .
(٢٠) مسكوية ـ ابى على أحمد بن محمد ، تجارب الأمم ، شركة التمدن الصناعية بمصر ، ١٣٣٢ ه/ ١٩١٤م .
(٢١) المسعودى ـ أبى الحسن بن الحسين ، التنبيه والأشراف ، قام بتصحيحه عبدالله اسماعيل الصادق ، المكتبة التاريخية ، ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م .
(٢٢) نفس المؤلف ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، دار الاندلس للطباعة والنشر ـ بيروت .
(٢٣) مجهول العيون والحدائق فى أخبار الحقائق ، تحقيق نبيلة عبدالمنعم داود ، مطبعة النعمان ـ النجف ، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م .



مسألة شغور كرسي الحكم من تنازل معاوية بن يزيد الى تسلم مروان بن الحكم لدست الحكم

الدكتور خليل شاكر حسين
جامعة الموصل
كلية التربية/ قسم التاريخ

يتناول بحثنا هذا مسألة الفراغ السياسي الذى نتج عن تنازل معاوية بن يزيد عام ٦٤ هـ/ ٦٨٣ م ولحين تسلم مروان بن الحكم لسدة الحكم . وهى فترة قصيرة جداً من عمر الزمن لكنها حافلة باحداث خطيرة عصفت بالدولة العربية، سيما ان صراعاً كان قائما حول منصب الخلافة بين الامويين وانصارهم من جهة والزبيريين ومؤيديهم من جهة أخرى، ذلك الصراع الذى انتهى لصالح الامويين .

فمن المعروف تاريخيا ان معاوية بن يزيد قد تولى الحكم بعدوفاة ابيه يزيد بن معاوية بن ابى سفيان وبعهد منه . غير ان الروايات التاريخية تختلف في المدة التى بقى فيها معاوية الثانى في الحكم . فالطبرى يذكر عن عوانه بن الحكم انه ظل مدة اربعين يوماً (١). في حين ان البلاذرى يورد ثلاث روايات مختلفة : الاولى تذكر مدة اربعين يوماً، والثانية تذكر عشرين يوماً والثالثة تذكر مدة ثلاثة اشهر (٢). وبدوره اليعقوبى يذكر مدة اربعين يوماً في خبر واربعة اشهر في خبر ثان (٣). بيد ان ابن اعثم الكوفى يؤيد الطبرى والبلاذرى واليعقوبى بذكره مدة الاربعين يوماً التى امضاها معاوية بن يزيد في الحكم (٤)، ومن جانب يقدم المقدسى لنا ثلاث روايات : الأولى تذكر ان معاوية حكم عشرين يوما والثانية تذكر اربعين يوماً والثالثة تشير الى ثلاثة اشهر (٥). أما خليفة بن خياط فيشير الى ان مدة ولاية معاوية الثانى هى اربعون في رواية، وخمسة واربعون يوماً في رواية أخرى (٦). وابن قتيبة الدينورى يذكر مدة اربعين يوماً من جهته (٧). ويؤيده ابن عبد ربه الاندلسى الذى يورد مدة اربعين يوماً كذلك (٨). والمؤرخ الوحيد الذى لايذكر شيئا حول تولى معاوية للحكم ولا عن مدة حكمه ثم عن تنازله هو ابو حنيفة الدينورى الذى يندرج مع بعض المؤرخين في القائمة التى تعتبر معاوية بن يزيد الخليفة الشبح .

اما عن مصادرنا المتأخرة، فابن الاثير يذكر مدة اربعين يوماً وهو بهذا يعيد رواية الطبرى (٩). ويؤكد ابن كثير ما جاء في المصادر المبكرة وبدوره يشير الى مدة الاربعين يوماً ولكنه يورد روايات عديدة فواحدة منها تذكر عشرين يوما والاخرى تشير الى شهر ونصف والثالثة ثلاثة اشهر ورواية رابعة تذكر اربعة اشهر وهى روايات لايطمئن اليها الباحث (١٠). والذهبى يقول ان معاوية الثانى بقى في الحكم مدة شهرين او اقل (١١). والسيوطى يذكر ان معاوية ملك اربعين يوما في خبر وشهرين في خبرثان وثلاثة اشهر في خبر ثالث (١٢).

ويمدنا المؤرخون القدامى بمعلومات مفيدة حول الاسباب التى دفعت بمعاوية بن يزيد الى التنازل عن الخلافة من خلال خطبته المشهورة التى القاها من على منبر المسجد الجامع في دمشق حاضرة الدولة العربية انئذ . فيذكر الطبرى عن عوانة بن الحكم ان معاوية بن يزيد قد خطب في أهل الشام واخبرهم بعجزه عن تحمل وزر الخلافة فضلا عن انه لم يجد شخصا كفئا كعمر بن الخطاب ولا الستة الشورى الذين عينهم عمر بن الخطاب . وعليه فهو في حل من امرهم وعلى المسلمين ايجاد من يدبر لهم امرهم (١٣). أما عن ابن اعثم الكوفى فيورد نفس المعلومات الموجودة عند الطبرى بان معاوية مكث في الحكم اربعين يوما وخطب بعدها الناس واستعفى نفسه من تحمل اعباء الحكم وانه لايجد شخصا خليقا بالحكم كعمر بن الخطاب حين فزع اليه ابوبكر الصديق ولا الستة الشورى وانه امتنع عن تعيين احد في منصب الخلافة من بعده (١٤) والبلاذرى يذكر خبر خطبة معاوية بن يزيد التى تنازل بها عن الخلافة ويذكر انه كان مريضاً دون ان يفصح عن كنه ذلك المرض وان الضحاك بن قيس الفهرى هو الذى كان يصلى بالناس بدلا عنه وعندما دنا الموت من معاوية سأله أقرباؤه الامويون وأهل بيته بان يعهد لشخص من بعده لمنصب الخلافة رفض ذلك مبرراً انه لايستطيع تحمل وزرها من بعد مماته (١٥) . ومما تجدر الاشارة اليه هو ان المقدسى ينفرد برواية مفادها ان معاوية بن يزيد كان قدريا وان مؤدبه عمر المقصوص هو الذى اشار عليه بان يعتزل امر الناس

اذا لم يكن عنده طاقة في العدل . وان بني امية قد احسوا بفعلته فوثبوا على عمر المقصوص وقتلوه لانه قد افسد عليهم معاوية بن يزيد (١٦). وحول هذه النقطة يشير البلاذرى الى ان معاوية بن يزيد كان يظهر « التأله » (١٧). ومن جانبه اليعقوبى يذكر موضوع خطبة معاوية الثاني ويشير الى ان لمعاوية «مذهبا جميلا » (١٨) دون ان يوضح لنا ما هية ذلك المذهب. ويندرج بعض المؤرخين في القائمة التي تعتبر معاوية بن يزيد خليفة شبحا اذ انهم لا يعطونه تلك الاهمية ولا يذكرون لنا معلومات تاريخية مفيدة عن اسباب تنازله ولا عن اسباب وفاته مثل الدينوري والمسعودى والزبير بن بكار. ومن مصادرنا المتأخرة التى تذكر أمر الخطبة وامتناع معاوية بن يزيد عن ترشيح احد من بني امية للخلافة ابن الاثير والسيوطي اللذان يذكران عبارة معاوية بن يزيد التى يعبر فيها عن رفضه تعيين خلف له وذلك بقوله: « ما اصبت من حلاوتها فلم احتمل مراراتها» (١٩). وكقوله: « لا اتزود مرارتها واترك لبنى امية حلاوتها » (٢٠). وبهذا فهو يعبر عن نبذه لمبدأ الوراثة وميله للمبدأ الاسلامي الذى يوصى بالانتخاب (٢١).

هذا وتختلف المصادر الاولية حول عمر معاوية بن يزيد عند وفاته. فيذكر الطبرى ان عمره ، حين مماته. كان ثلاثا وعشرين سنة وثمانية عشر يوماً (٢٢). ويورد خليفة بن خياط روايتين حول سنه، فيذكر في الاولى ان عمره كان عشرين سنة وفي الرواية الثانية يذكر احدى وعشرين سنة (٢٣). أما البلاذرى فيقدم لنا اربع روايات مختلفة حول عمر معاوية الثاني. فيذكر في الرواية الاولى ان عمره كان تسعة عشر عاما وبالثانية عشرين سنة وبالثالثة ثماني عشرة سنة وبالرابعة يذكر عن ابن الكلبى انه عمره ثلاث وعشرون سنة (٢٤). ومن جهة يشير اليعقوبى الى ان سنه كان ثلاثة وعشرين يوم وفاته (٢٥). وابن قتيبة الدينورى يذكر ان عمره كان سبع عشرة سنة (٢٦). ويورد ابن عبد ربه الاندلسى ان عمره احدى وعشرون سنة (٢٧).

ومن مصادرنا المتأخرة ابن الاثير الذى يذكر نفس رواية الطبرى والبلاذرى (٢٨). أما السيوطى فيقدم لنا خبرين عن سنه. فيذكر في الخبر الاول ان عمره عشرون سنة وفي الخبر الثاني يذكر ان عمره كان واحدا وعشرين سنة (٢٩). والذهبى بدوره، يقول ان معاوية الثاني قد توفى عن احدى وعشرين سنة (٣٠) ويزودنا ابن كثير بسلسلة متباينة من الروايات حول سن معاوية . ففي الرواية الاولى يذكر ان سنه احدى وعشرون سنة وفي الرواية الثانية يذكر انها ثلاث وعشرون سنة وفي الثالثة ثماني عشرة سنة. وفي الرابعة تسع عشرة سنة والخامسة عشرون سنة والسادسة خمس وعشرون سنة (٣١).

أما عن المدة التى امضاها في بيته معتزلا الناس بعد تنازله عن الخلافة فهى الاخرى محل اختلاف . وكذلك الحال بالنسبة الى سبب موته والعلة التى مات بسببها وما هيتها . فابن اعثم الكوفي يقول انه عاش ثلاثة أيام بعد تنازله ومات دون ان يذكر السبب في ذلك (٣٢). ويذكر خليفة ابن خياط سبب تنازله وهو مرض الَمَّ به لكنه لم يوضح ، بدوره، لنا صفة ذلك المرض. فضلا عن انه لم يحدد لنا المدة التى احتجب خلالها عن الناس (٣٣). ولايذكر الطبرى المدة التى بقى خلالها معاوية الثاني في بيته لحين موته ولكنه يعرض لنا روايتين : اولاهما تذكر ان معاوية مات مسموما والرواية الثانية تذكر انه مات مطعونا (٣٤).

ومن جهة لا يشير البلاذرى الى العلة التى بسببها مات معاوية الثاني ولا عن المدة التى بقى فيها في منزله بعد تخليه عن الحكم . بقى ان نتساءل لماذا لم تذكر المصادر المبكرة والمتأخرة اسم الجهة او الشخص الذى دس السم لمعاوية وقتله او اسم الشخص الذى طعنه ومن هو المستفيد من ذلك؟ والغريب حقا ان مصادرنا الرئيسية والثانوية تلزم الصمت ازاء هذا الموضوع حيث لايزال موضع تساؤلات وشكوك . ولعل معاوية بن يزيد قد مات ميتة طبيعية او انه مات نتيجة اصابته بالطاعون الذى كان متفشيا في ذلك العام (٣٥).

ولم يثبت من خلال المصادر التاريخية ان معاوية الثاني قد عين مجلسا للوصاية من بعده لكى يدير شؤون الدولة العربية كما يذكر المستشرق هنرى لانس (٣٦). غير ان المشهور في الروايات التاريخية ان معاوية اوصى الضحاك بن قيس الفهرى ان يصلى بالناس لحين انتخاب او تعيين شخص يقوم بأمر الناس. فمعاوية بن يزيد ، كما يشير البلاذرى، لم يعزل من عمال ابيه ولم يأمر ولم ينه (٣٧).

ويموت معاوية بن يزيد عام ٦٤ هـ / ٦٨٣ م وامتناعه عن ترشيح شخص يخلفه في منصب الخلافة يترك الباب مفتوحاً امام الصراعات التى ستحدث بين الامويين وانصارهم من اليمانية والزبيريين ومؤيديهم من القيسية والتى كانت صراعاً بين المبدئين القبلي والاسلامى (٣٨). ان شغور كرسى الحكم في حاضرة الدولة العربية في دمشق قد هيأ لعبدالله بن الزبير الفرصة الثمينة التى كان يتمناها لنيل الخلافة سيما وانه كان يطمح للوصول اليها منذ زمن .

والجدير بالذكر ان ابن الزبير قد سبق له ان رفض مبايعة يزيد بن معاوية ولم يعترف به خليفة . وقد لاذ بحرمة الكعبة واتخذ من مكة قاعدة لنشاطاته (٣٩).

والواقع ان الظروف حينذاك قد خدمت ابن الزبير . فقد قدم مقتل الحسين بن علي في العراق مسوغاً للتشنيع على الامويين وعارض سياستهم تجاه أهل الحجاز وحركات المعارضة في العراق مما اكسبه تأييدها حيث كونوا جبهة واحدة جمعت كل المعارضين ضد الحكم الاموى (٤٠). وقد اراد ابن الزبير سلخ الحجاز عن طاعة الامويين فاعلن عصيانه في مكة على حكم يزيد

ابن معاوية وحرض اهل المدينة على الثورة ضد الحكم الاموى الامر الذى دفع بيزيد الى ارسال جيش لقمع هذه الثورة بقيادة مسلم بن عقبة المرى الذى تمكن من دحر اهل المدينة في وقعة الحرة المشهورة. وتوجه مسلم بن عقبة بجيشه نحو مكة لقمع تمرد ابن الزبير فمات في الطريق فتسلم قيادة الجيش الحصين ابن نمير السكونى الذى نجح في محاصرة ابن الزبير في الكعبة والتضييق عليه ولكن مهمته لم تحقق اغراضها بسبب وفاة يزيد ابن معاوية. ومن الضرورى قوله ان بعض الامويين وعلى رأسهم مروان بن الحكم كانوا يؤيدون ابن الزبير في معارضته لحكم يزيد ابن معاوية وموقفه الرافض لبيعته (٤١). ومن متناقضات الامور اننا نجد مروان بن الحكم يعضد موقف ابن الزبير امام الضغوط التى مارسها يزيد عليه وذلك بارساله ولديه عبدالملك وعبدالعزيز لكى يشُدَّا ازره بامتناعه الاعتراف بشريعة حكم يزيد. بيد اننا نلاحظ ان الامويين ومروان بن الحكم بالذات يستغيث بيزيد ويطلب منه النجدة عندما اعلنت المدينة ثورتها ضد حكم يزيد فارسل عندها يزيد جيشا من أهل الشام وانقذ الامويين وقمع ثورة أهل المدينة. ولعل من الغريب ايضا ان نجد الخوارج يحاربون مع عبدالله بن الزبير ضد جيش الشام طالما ان هدف المعارضة هو عدم الاعتراف بشرعية الحكم الاموى (٤٢).

وعلى اية حال، فان موت يزيد بن معاوية قد اعطى لابن الزبير فرصة ذهبية لو شاء استغلالها لما نازعه احد على منصب الخلافة. فمما يجدر اليه القول ان قائد الجيش الشامي الذى كان يحاربه بالامس نراه يعرض عليه الخلافة بعدان فرغ كرسى الحكم من مرشحه بموت يزيد بن معاوية (٤٣). والغريب حقا ان ابن الزبير قد رفض مثل هذا العرض مما ضيع على نفسه فرصة سوف لن تتكرر. وابن الزبير احس بخطئه واراد ان يتلافى ذلك طالبا من الحصين بن نمير وهو في رجعته الى الشام ان يبايع له مما جعل الحصين يجاوبه: «أرأيت ان لم تقدم بنفسك ووجدت هنالك اناسا كثيراً من أهل هذا البيت (يقصد بهم الامويين) يطلبونها يجيبهم الناس، فما انا صانع؟» (٤٤). وبالفعل فلو ان ابن الزبير قد وافق الحصين على المضى معه الى حاضرة الدولة العربية في الشام لمبايعته هناك، لما اختلف عليه احد كما يؤكد ذلك ابن الاثير (٤٥).

ومن المناسب ذكره ان جميع الاقاليم في الدولة العربية قد ثارت على الحكم الاموى بعد وفاة يزيد بن معاوية وطردت العمال الامويين. وقد استغل ابن الزبير هذه الاوضاع فأرسل عماله الى العراق ومصر حيث يؤكد البلاذرى ان بيعة الافاق قد اتته ما عدا الاردن (٤٦). اما في الشام فان عامل دمشق الضحاك بن قيس الفهرى كان يبايع سرا لابن الزبير الذى ارسل عهد الولاية له. وكان النعمان بن بشير الانصارى يبايع لابن الزبير في ولاية حمص. وفي ولاية قنسرين بايع عاملها زفر بن الحارث الكلابى لابن الزبير. وبايع ناتل بن قيس الجذامى في فلسطين ابن الزبير وطرد عامل الامويين روح ابن زنباع الجذامى. فلم تبق غير الاردن مخلصة للامويين بيد حسان بن مالك بن بحدل الكلبي ذلك لان معاوية قد تزوج ميسون الكلبية وان يزيد هو الاخر قد تزوج اخت حسان بن مالك الكلبى، اضافة الى الامتيازات التي كانت تتمتع بها اليمانية في عهد السفيانيين (٤٧).

ومهما يكن من امر، فهناك مسألة ينبغي الوقوف عندها وهي مكان تواجد الامويين بعد طردهم من الحجاز. فالطبرى يذكر روايتين اولاهما تشير الى خروج الامويين من الحجاز الى الشام (٤٨). والرواية الثانية تذكر انهم توجهوا الى تدمر بعد اجلائهم من الحجاز (٤٩). ومن جهة اخرى يورد البلاذرى ان عبيد الله ابن زياد عندما قدم من البصرة وجد الامويين في تدمر (٥٠) والامر الذى يجمع عليه المؤرخون الاوائل هو ان الامويين كانوا في الشام وقد قاموا بدور مهم في الاحداث التى انتهت لصالحهم سواء كان تواجدهم في تدمر أم دمشق. بيد اننا نمتلك اشارات وردت عند مصادرنا الرئيسية تذكر وجود بعض وجوه الامويين المعروفة في دمشق ابان تنازل معاوية بن يزيد وما اعقبه من احداث مثل مروان بن الحكم وخالد بن يزيد واخيه عبدالله بن يزيد وعمرو بن سعيد بن العاص الاشدق. فيذكر البلاذرى ان مروان كان موجوداً عند تنازل معاوية الثانى عن الحكم (٥١) والطبرى بدوره يذكر اسم خالد بن يزيد واخيه عبدالله اللذيْن كانا أساسا في دمشق عاصمة حكمهم اثناء احداث يوم جيرون الاول (٥٢). والواقع ان وجودهم في دمشق هو الذى دفع بالضحاك بالاحجام عن الاعلان صراحة عن موقفه المؤيد لابن الزبير (٥٣). ويذكر الحافظ الذهبى اسم حوران كمكان لتواجد مروان به.

ولعل من المفيد حقا ان نسلط الضوء على موقف الضحاك بن قيس الفهرى هذا والذى وصفه اغلب المؤرخين بالمتذبذب فالمعروف لدينا ان الضحاك في الماضى كان من المؤيدين لبنى امية وخاصة السفيانيين. اذ كان الضحاك احد الثقاة الذين اعتمد عليهم معاوية بن ابى سفيان. فقد كان رئيس شرطته في دمشق ورئيس الجند فيها. وهو الذى كلفه معاوية وهو مسجى على فراش الموت بتطبيق وصيته المتضمنة تأييد موقف يزيد وتوطيد حكمه وقدفعل ذلك اذ كان يزيد بن معاوية غائبا عن دمشق (٥٤). وظل مخلصا للسفيانيين حتى بعد موت يزيد بن معاوية المفاجىء ومجىء ابنه معاوية الثانى الى الحكم. وقد وكل اليه معاوية الثانى ادارة امور الدولة العربية لحين مجىء خليفة جديد. فالملاحظ ان الضحاك لحين موت معاوية بن يزيد ظل مخلصا للسفيانيين الذين لم يكن بينهم من يبز شخصية ابن الزبير في ماضيها الاسلامى وسنها المجرب الطويل (٥٥). ان موقف الضحاك صعب ويبدو ان الموقف العام هو الذى جرفه اذ

كان من العسير على الضحاك اتخاذ موقف حاسم وهذا ما جعل المؤرخين يصفونه بالمتذبذب (٥٦). وهناك سبب رئيسي جعل الضحاك يختار جانب ابن الزبير ويبايعه وهو كونه من القيسية وان اهل الحجاز ينتمون الى القبائل القيسية فضلا عن تبرمه من هيمنة القبائل اليمانية في الشام وتفردها بالامتيازات. بقي ان لا ننسى طموحات الضحاك الشخصية في الحكم خاصة امام غياب مرشح سفياني قوي يقف امام ابن الزبير ويؤكد ذلك هو دعوة الناس في دمشق الى نفسه مما اثار ذلك سخط انصاره وتشكيكهم في نواياه فرجع عن عزمه (٥٧).

وتزودنا مصادرنا المبكرة بمعلومات مهمة حول الاوضاع التي تلت غياب معاوية بن يزيد عن الساحة السياسية. فقد ظهرت النزعات الاقليمية والتكتلات السياسية للعيان. فالزبيريون وانصارهم من القيسية يهوون ابن الزبير ويعني ذلك نقل مركز الحكم الى الحجاز وهو أمر يرفضه الامويون وانصارهم من اليمانية لما يعنيه من خسرانهم لامتيازاتهم ويصبحون بذلك تبعا للحجاز بدلا من كونهم مركز الثقل السياسي. والامويون منقسمون على انفسهم. فكلب وهم اخوال يزيد يريدون مبايعة خالد بن يزيد. واهل دمشق من انصار الامويين يريدون بيعة عمرو بن سعيد الاشدق. وفريق يريد مبايعة مروان بن الحكم على اساس تجربته وكبر سنه وبهذا يصلح كمرشح للوقوف امام ابن الزبير (٥٨).

وكان على الامويين وانصارهم حسم الامر بسرعة قبل استفحال خطر ابن الزبير وانصاره ومداهمته الشام بجيش من الحجاز وبالتالي يقع الامويون وانصارهم بين نارين الضحاك وعماله من جهة وجيش الحجاز من جهة ثانية (٥٩).

ومما تجدر الاشارة اليه ان الفضل في دعم موقف الامويين هو لحسان بن مالك بن بحدل رئيس قبائل كلب. فهو الوحيد الذي رفض مبايعة ابن الزبير واعتبره منافقا قدخلع خليفتين وهما يزيد ابن معاوية وابنه معاوية الثاني. وكوّن جبهة معارضة في الاردن من قبائل كلب. وكان على علم بتحركات الضحاك بن قيس فارسل له رسالة مع احد انصاره الكلبيين واسمه ناغضة يعظم فيها حق بني امية وجميلهم عنده وينتقد موقف ابن الزبير ويعرض به وينعته بالمنافق. وكتب بنسخة اخرى من الرسالة لكي يحتفظ بها ناغضة ويقرأها امام الناس في مسجد دمشق في حالة امتناع الضحاك عن قراءة رسالة حسان الكلبي. وقد كتب حسان رسالة اخرى للامويين يدعوهم الى حضور الموقف لمعرفة حقيقة نوايا الضحاك بن قيس (٦٠). والحق ان رسالة حسان بن بحدل كان لها أثر كبير في دفع الضحاك الى الافصاح عن موقفه وكانت حركة ذكية من جانب حسان الكلبي فقد عرف كيف يخرج الثعلب من جحره على حد تعبير فلهوزن (٦١).

ولا بد لنا في هذا المجال ان نرد على الرواية التاريخية التي تذكر ان حسان الكلبي كان موجودا بدمشق عند وفاة معاوية بن يزيد الذي امره ان يصلي بالناس. وهذا يخالف المشهور من الروايات التي تؤكد ان الضحاك بن قيس هو الذي كان يصرف امر الناس ويصلي بهم. وان حسان الكلبي كان يومذاك في فلسطين وعين محله روح بن زنباع الجذامي وقصد الاردن لوجود الكثرة من قبائل كلب فيها وليكون قريبا من الاحداث التي تجري في دمشق (٦٢).

والمؤرخون القدامى وخاصة الطبري يسمون يوم الدمعة الذي اجتمع به الضحاك الفهري والامويون ومبعوث حسان الكلبي ناغضة وانصار الامويين ومؤيدو ابن الزبير في المسجد الجامع في دمشق بيوم جيرون الاول (٦٣) وفي هذا اليوم امتنع الضحاك عن قراءة رسالة حسان الكلبي وهو أمر بدهي لانه يخالف موقفه تجاه ابن الزبير مما حدا بمبعوث حسان الكلبي الى اخراج النسخة الاخرى من الرسالة وقراءتها. وهنا انقسم الحاضرون، فريق يؤيد حسان والامويين ويشتم ابن الزبير وفريق أخر يؤيد ابن الزبير ويعرض بحسان الكلبي. وتمكن خالد ابن يزيد من تهدئة الناس وصلى الضحاك الفهري بهم ودخل دار الامارة بعد ان امر بحبس الاشخاص الذين شتموا ابن الزبير وهم الوليد بن عتبة بن ابي سفيان ويزيد بن ابي النمس الغساني وسفيان بن الابرد الكلبي (٦٤). فقامت غسان وكلب باخراجهم من السجن رغما على ارادة الضحاك بن قيس (٦٥) وانقسمت الاجناد في الشام حسب قبائلهم الى فريقين. فيورد الطبري ان الضحاك بن قيس خرج الى الصلاة في المسجد ونال من يزيد بن معاوية فتجرأ عليه احد الكلبيين وضربه بالعصا والناس متقلدون سيوفهم فاقتتلوا دون ان يحسم الامر لصالح احد (٦٦). ويتضح لنا من المعلومات الواردة عند الطبري ان سلطة الضحاك قد ضعفت في دمشق بسبب وجود الامويين وانصارهم الامر الذي ادى به الى دعوة الامويين الى دار الامارة والاعتذار لهم وموافقته ترشيح شخص اموي وكتب بذلك الى حسان وكتبوا اليه على ان يكون مكان الانتخاب والاجتماع هو الجابية (٦٧).

يبقى ان نتساءل عن السبب الذي دفع الضحاك بن قيس الى اتخاذ مثل هذه الخطوة، هل ان دافع ذلك كان عن نية صادقة ام مجرد مناورة سياسية للتخلص من وجود الامويين معه في دمشق وضغطهم عليه مع انصارهم. يشير الطبري الى انه كان عاقد العزم على الذهاب الى الجابية ولكن احد انصاره واسمه ثور بن معن بن يزيد بن الاخنس السلمي قد رده عن عزمه بقوله له: «دعوتنا الى طاعة ابن الزبير فبايعناك على ذلك، وانت تسير الى هذا الاعرابي من كلب تستخلف ابن اخته خالد بن يزيد، فقال له الضحاك: ما الرأي؟ قال: الرأى ان نظهر ما كنا نسر وندعو الى طاعة ابن الزبير ونقاتل عليها» (٦٨).

ان مجرد التصديق بهذه الرواية الموجودة عند الطبرى يبين لنا مقدار تذبذب مواقف الضحاك بن قيس وانه رجل لا رأى له وهو أمر يحتاج الى مناقشة ، ذلك ان الامور بخواتيمها. لقد تخلص الضحاك من وجود الامويين اذ ان رحيلهم عن دمشق قد اعطاه حرية الحركة وصمم على اعلان موقفه صراحة ومواجهة الامويين وانصارهم واختار مرج راهط (٦٩) كموقع لمنازلتهم وكتب الى انصاره عمال الولايات بامداده بالمقاتلة. فامده النعمان بن بشير الانصارى والى حمص بالمقاتلة. وقدم زفر بن الحارث الكلابى بنفسه من قنسرين لدعم موقف الضحاك الفهرى. وارسل قاتل بن قيس الجذامى مدداً من فلسطين، فاجتمعت الاجناد للضحاك في المرج واخذ يعد عدته لمواجهة الامويين واليمانية (٧٠).

ولهذا كان من الضرورى الاشارة الى الدور المضخم الذى اعطى لعبيد الله بن زياد في احداث الشام . يذكر البلاذرى والطبرى وغيرهما من المؤرخين الاوائل ان الفضل يرجع الى عبيد الله بن زياد في اقناع مروان بن الحكم في ترشيح نفسه للخلافة (٧١). وان عبيد الله نفسه هو الذى جعل مروان بن الحكم يتراجع عن قراره في الذهاب الى ابن الزبير ومبايعته في مكة واخذ الامان لبنى امية وانصارهم منه. زيادة على ذلك ان بعض المصادر الرئيسية تجعل من شخصية عبيد الله بن زياد صاحبة فكرة الزواج السياسى بين مروان بن الحكم وفاختة ام خالد بن يزيد لكى يضمن ولاء السفيانيين له ويخفف من حدة طموحات وتطلعات خالد بن يزيد السياسية نحو الحكم (٧٢). هذا ويعطيه البلاذرى اهمية خاصة للدور الذى قام به في خداع الضحاك بن قيس اذ امتنع الاخير بالدعوة لنفسه بالخلافة مما جعل اصحابه ينفضون عنه ويتشككون في مواقفه. ويضيف البلاذرى ان عبيد الله بن زياد قد نجح في اخراج الضحاك بن قيس من دمشق واعلانه عن موقفه الصريح تجاه ابن الزبير حتى لا يتخذها حصنا له (٧٣). والجدير بالذكر ان هنالك رواية ينفرد بها البلاذرى تظهر الضحاك بن قيس القوى والذى يفرض بيعة ابن الزبير على مروان بن الحكم على الرغم من تهرب الاخير. وتؤكد رواية البلاذرى خروج الضحاك ومروان بن الحكم الى مرج راهط حيث تتم البيعة هناك من قبل مروان لصالح ابن الزبير ويشترط مروان شروطاً على الضحاك. وتضيف الرواية الى ان اتفاقا مسبقا كان قد تم بين مروان بن الحكم وعمرو بن سعيد بن العاص يركب الاخير حسب اتفاقهما جواداً جامحاً لايمكنه من مواصلة المسير فيرجع الى دمشق لاستبداله ولكنه يدخلها ويحتلها ويطرد عامل الضحاك منها ويغلق الابواب ويتحصن بها (٧٤).

ان ما وقع في الجابية من مناقشات ومجادلات يستحق وقفة فاحصة من لدن الباحث التاريخى وهو الحدث الذى اصطلح المؤرخون على تسميته بمؤتمر الجابية . فمصادرنا التاريخية تذكر ان اهواء الناس كانت مختلفة. ففريق يهوى هوى خالد بن يزيد ويريد مبايعته بالخلافة ويمثل هذا الفريق الكلبيون وعلى رأسهم مالك بن هبيرة السكونى وحسان بن مالك بن بحدل، لانهم اخوال خالد واصحاب الامتيازات والمقربون ايام السفيانيين (٧٥). وفريق ثان يفضل مروان بن الحكم نظرا لسنه وتجربته (٧٦). فهم يريدون ندا لابن الزبير وكانت حجتهم « لا يأتونا الناس بشيخ ويعنون ابن الزبير ونأتيهم بصبى » ويقصدون خالد بن يزيد. وكان فريق ثالث يرشح عمرو بن سعيد ابن العاص الاشدق للخلافة . هذا ومن المفيد ذكره ان المناقشات استمرت طيلة اربعين يوما الى ان اتخذ المؤتمرون قرارهم النهائى بترشيح مروان بن الحكم وعلى شروط : اولها ان يكون ولى العهد الاول هو خالد بن يزيد وله ولاية حمص . وضمن الشرط الثانى يكون ولى العهد الثانى عمرو بن سعيد وله ولاية دمشق . وان الكلبيين امثال حسان بن مالك بن بحدل الذى كانت له اليد الطولى في اقناع السفيانيين في ترشيح مروان بن الحكم ومالك بن هبيرة والحصين بن نمير السكونى قد بايعوا مروان بن الحكم على شروط حيث حصلوا على امتيازات لقاء بيعتهم (٧٧).

تبقى مسألة مهمة لا بد من التأمل فيها هى تاريخ زواج مروان بن الحكم بفاختة ام خالد بن يزيد . فالطبرى يذكر ان مروان تزوج منها في تدمر قبل مؤتمر الجابية (٧٨). ويذكر ابن عبد ربه الاندلسى ان الزواج حدث بعد معركة مرج راهط (٧٩). ويقدم لنا البلاذرى رواية عن المدائنى يذكر فيها ان مروان تزوج بفاختة بعد استعادة مصر من قبضة ابن الزبير (٨٠)، ومهما يكن من امر فاننا نرجع وقوع تاريخ الزواج قبل مؤتمر الجابية ومعركة مرج راهط وهو امر لا يتعارض مع سياق الحوادث. اذ ان المروانيين ومؤيديهم حرصوا ان يذهبوا الى الجابية وهم جبهة واحدة لكى يتم انتخاب مروان على اساس انه شيخ قريش وكبير بنى امية (٨١).

وبعد مبايعة مروان بن الحكم في الجابية ، ظهر على مسرح الاحداث خليفة اموى ولكن من الفرع المروانى ووقعت على عاتقه مسؤولية مجابهة خصومهم السياسيين وعلى رأسهم الضحاك بن قيس الذى يقف مع قواته من القيسية في مرج راهط بانتظار المواجهة التى تحسم مصير الخلافة ولاى فريق ستكون . وبويع مروان لثلاث خلون من ذى العقدة او في رجب عام ٦٤ هـ (٨٢). وسار الى مرج راهط بقبائل كلب والسكاسك والسكون وغسان. وتعطى مصادرنا المبكرة والمتأخرة التفوق العددى لجيش الضحاك الذى يتراوح تعداده الى حد ٣٠٠٠٠ مقاتل مقابل ١٠٠٠٠ مقاتل يكونون تعداد جيش مروان وانصاره من اليمانية (٨٣). ويذكر البلاذرى ان جيش الضحاك يبلغ ٦٠٠٠٠ مقاتل وجيش مروان ٢٠٠٠٠ مقاتل (٨٤).

ومن المناسب ان نذكر في هذا المجال ان حدثا ذا اهمية كبيرة قد وقع في دمشق لصالح الامويين هو استيلاء يزيد بن النمس الغساني على دمشق وطرده عامل الضحاك بن قيس منها. واستولى على خزائن الاموال واظهر البيعة لمروان وامده بالمال والسلاح والرجال « فكان اول فتح فتح على بنى امية » على حد قول الطبرى (٨٥). وهذا الحدث قد اثر سلبيا في معنويات جند الضحاك على الرغم من كثرتهم العددية .

واستمر القتال عشرين يوما دون نتيجة لصالح احد الفريقين المتحاربين ويبدو ان التفوق العددى للقيسية قد حال دون تحقيق نصر سريع من جانب جيش الامويين فعمدوا الى الحيلة لكسب المعركة. فيذكر المسعودى وابن عبد ربه الاندلسي ان مروان بن الحكم طلب من الضحاك بن قيس الموادعة في القتال . فقبل الضحاك عرض مروان ظنا منه ان الحرب قد اتعبت الامويين وانصارهم ولعلهم يلجؤون الى حل عن طريق المفاوضات. وكان مروان قد اعد خيالته للانقضاض على القيسية.ومباغتتهم دون استعداد فقتل الضحاك وصبرت القيسية عند راياتها فقتلت مقتلة عظيمة (٨٦).

ويذكر المستشرق هنرى لامنس اسبابا هيأت النصر لليمانية على القيسية في مرج راهط . أول الاسباب هو نجاح اليمانية في فصل القضاعيين واليمانيين المنشقين عن انتماءاتهم القبلية والمنضمين في صفوف جيش الضحاك بن قيس . ثاني الاسباب هو الاستيلاء على دمشق وعلى بيت المال ومد جيش مروان بالمال والرجال وتأثير ذلك على معنويات جيش الضحاك الفهرى . ويشير المستشرق لامنس الى دور الاموال التى جلبها عبيد الله ابن زياد من العراق في استمالة القلوب ودعم موقف الامويين والتى كانت في خزينة الدولة بدمشق وهو امر لا يمكننا تصديقه اذ كيف يمكن لعبيدالله بن زياد المعروف بولائه الاموى تقديم الاموال لدعم موقف الضحاك الموالى لعبدالله بن الزبير ووضعها تحت تصرفه في بيت المال بدمشق . ويضيف لامنس سببا ثالثا في هزيمة جيش الضحاك هو شعور بعض الشاميين المتذبذين بولاءاتهم كم سيكلفهم مبايعة شخص من الحجاز من فقدانهم لامتيازاتهم وذلك بنقل مركز الحكم الى الحجاز . فانضموا الى جيش الامويين (٨٧).

والحقيقة ان شرحبيل بن ذرى الكلاع الحميرى خير نموذج لهذا الفريق فهو مدد ارسله النعمان بن بشير الانصارى والي حمص الزبيرى الهوى لدعم موقف الضحاك ولكنه خذله وانضم الى جيش مروان هو احد الاشخاص الذين اعتمد عليهم مستقبلا.

ومما تجدر اليه الملاحظة ان معركة مرج راهط قد ابرزت العصبية القبلية بين القيسية واليمانية وهو امر طالما حرص السفيانيون على اقامة نوع من التوازن فيه حيث اختل هذا التوازن وجرت هذه المعركة صراعات دامية هى بمثابة حرب ابادة بين قيس وكلب وقيس وتغلب سيما وان القيسيين لم ينسوا قتلاهم في مرج راهط وكان شعارهم الدائم هو الثأر لقتلى مرج راهط . كان للعصبية القبلية اثر في اضعاف الدولة الاموية ثم في اسقاطها وكذلك في زعزعة سلطان العرب في الاندلس (٨٨).

وعلى اية حال فان مروان بن الحكم دخل دمشق ظافراً بعد انتصاره في معركة مرج راهط حيث بويع له مرة اخرى في دمشق. وتم اخضاع باقى الولايات الشامية لصالح الامويين فقد هرب زفر بن الحارث الى قرقيساء واتخذها قاعدة لمحاربة الكلبيين وهرب عامل حمص النعمان بن بشير الانصارى فتم قتله. وهرب ناتل بن قيس الجذامى من فلسطين والتحق بابن الزبير في مكة وبهذا خلصت الشام كلها لمروان بن الحكم (٨٩).

وقام مروان بن الحكم بخطوة مهمة عززت انتصاره هى ذهابه بنفسه على رأس جيش لاسترداد مصر من قبضة ابن الزبير لما تتمتع به مصر من موقع جغرافي وموارد اقتصادية كبيرة للدولة العربية. واستطاع مروان طرد عامل ابن الزبير عبدالرحمن بن حجدم الفهرى من مصر وتعيين ولده عبدالعزيز واليا عليها . وبهذه الخطوة أمن مروان حدوده الجنوبية لان مصر تعد امتداداً جغرافيا لبلاد الشام. ولم ينس مروان اهمية العراق وتوابعه من الاقاليم بالنسبة الى دولته فأرسل جيشا بقيادة عبيد الله بن زياد لاستعادته من سيطرة ابن الزبير وتلك مهمة اضطلع بها خليفته عبدالملك اذ نجح بها نجاحاً باهراً واعاد وحدة الدولة العربية في عام ٧٣ هـ.

بقى امامنا ان نوضح موقف ابن الزبير الذى لم يوفق في اهتبال فرص عديدة للوصول الى الخلافة . فحسب المعلومات التاريخية المتوفرة لدينا ان جملة من المآخذ يمكن توجيهها الى ابن الزبير اذ يمكن اعتباره ضيق الافق بالامور السياسية وذلك امر عائد الى تكوينه العقلي ومزاجه الشخصى وبيئته الحجازية . فالملاحظ انه لم يقبل بعرض قائد الجيش الشامى الحصين بن نمير مبايعته بالخلافة شريطة ان يذهب معه الى حاضرة الدولة العربية دمشق لان نظرة اهل الشام ان يبقى مركز الدولة في اقليمهم. هذا وقد عبر عن ندمه حينما انسحب الجيش الشامى دون اتفاق يذكر (٩٠). اضافة الى انه قام بطرد الامويين من الحجاز الى الشام بحيث شجعت هذه الخطوة اهل الشام في ترشيح مروان بن الحكم لمنصب الخلافة (٩١). لقد اكتفى بالبقاء في مكة دون ان يعطى لنفسه العناء في التحرك كما فعل الامويون في الشام واكتفى بارسال العهود والكتب لتولية انصاره على الولايات. فلو انه ذهب بنفسه الى الشام لما اختلف عليه الناس هناك. والحق يقال انه كان لا يأمن الامويين ومؤيديهم وكان يخاف الغدر (٩٢). وان خطوته العسكرية بارسال اخيه مصعب على رأس جيش لاسترداد الشام كانت متأخرة وكان من السهل صد هذا الجيش من قبل الامويين. وثمة مآخذ يأخذه

المؤرخون على ابن الزبير هو بخله وعدم تمكنه من استمالة جميع المعارضين للحكم الاموى بالوسائل المعروفة . فمن المسلم به ان عملية الوصول للحكم تتطلب بذل الاموال والقيام بوسائل الدعاية لدعم المواقف السياسية والدينية اذ ان الرياسة لاتتفق مع البخل كما يصف ذلك المؤرخ البلاذرى في معرض كلامه عن سياسة ابن الزبير (٩٣). وبدلا من ان يستميل الخوارج والعلويين وانصارهم الى جانبه ويجعلهم في جبهته لمقاتلة الامويين نراه قد نفر الخوارج وضيق على العلويين فكانوا عاملا في خذلانه (٩٤). والواقع اننا نستطيع ان نأخذ صورة عن ابن الزبير من الحوار الذى جرى بينه وبين الحصين بن نمير عندما طرح عليه ان يبايعه وان يذهب معه الى الشام ثم يؤمن الناس على ارواحهم واموالهم ويهدر الدماء التى كانت بين اهل الشام واهل الحجاز وينهى العداوة. غير انه رفض عرض الحصين بن نمير ووعد بالانتقام من أهل الشام وهو أمر يتعارض مع ابسط قواعد الملك والرئاسة مما دعا الحصين الى الرد عليه: « قبح الله من يعدك بعد هذا داهيا قط او اديبا، قد كنت اظن ان لك رأيا . الا اراني اكلمك سراً وتكلمني جهراً ، وادعوك الى الخلافة وتعدني القتل والهلكة» (٩٥). او كقول البلاذرى : « لله ابوك ما عرف من نسبك الى الدهاء، انا اكلمك مثل هذا سراً وتجيبني عليه علانية »(٩٦). وقد صدق قائد الجيش الشامي ان أموراً من هذا النوع تستحق الكتمان والسرية . ويبدو ان ابن الزبير لم يع ما قام به معاوية بن ابى سفيان عندما منح الامان لكل الذين حاربوه في عهد الامام علي بن ابي طالب وابنه الحسن بن علي لكي يسوس الناس بطمأنينة وهذه من شروط الرئاسة التى لم يفهمها ابن الزبير الا بعد فوات الاوان ولكنها لم تفت خصمه الاموى الحازم عبدالملك بن مروان حيث تمكن من القضاء عليه ببذله الاموال وكسبه القلوب باساليب الدعاية ومنحه الامان والمناصب (٩٧).

الهوامش

١ ـ الطبرى، تاريخ الرسل والملوك، ج ٥، دار المعارف، القاهرة ١٩٧١، ص ٥٠٣.
٢ ـ البلاذرى، انساب الاشراف، م ٤، القدس، ١٩٣٦، ص ٦٢.
٣ ـ اليعقوبي، كتاب التاريخ ج ٢، المكتبة الحيدرية، النجف، ١٩٧٤، ص ٢٤١.
٤ ـ ابن اعثم الكوفي، كتاب الفتوح ج ٤ حيدر أباد، الهند، ١٩٧٤، ص ٢٠٢.
٥ ـ مطهر بن طاهر المقدسي، كتاب البدء والتاريخ، ج ٥ باريس، ١٩١٦، ص ١٧.
٦ ـ خليفة بن خياط، تاريخ خليفة، ق ١ دمشق، ١٩٦٧، ص ٣٢١، ت سهيل زكار.
٧ ـ ابن قتيبة الدينورى، المعارف، القاهرة، ١٩٥٢، ص ٣٥٢
٨ ـ ابن عبد ربه الاندلسي، العقد الفريد، ج ٤، دار صادر، بيروت، ١٩٦٥ ص ٣٩١
٩ ـ ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج ٤، دار صادر، بيروت ١٩٦٥ ص ١٣٠.
١٠ ـ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٨، دار المعارف بيروت ١٩٧٧، ص ٢٣٧.
١١ ـ الحافظ الذهبى، كتاب العبر في خبر من غبر، ج ١، تحقيق المنجد، الكويت ١٩٦٠، ص ٦٩.
١٢ ـ السيوطى، تاريخ الخلفاء، القاهرة ١٩٥٢، ص ٢١١.
١٣ ـ الطبرى، المصدر السابق، ج ٥، ص ٥٢١.
١٤ ـ ابن اعثم الكوفي، المصدر السابق، ج ٤، ص ٣٠٢ ـ ٣٠٤.
١٥ ـ البلاذرى، المصدر السابق، م ٤، ص ٦٤.
١٦ ـ المقدسي، المصدر السابق، ج ٥، ص ١٧.
١٧ ـ البلاذرى، المصدر السابق، م ٤، ص ٦٤.
١٨ ـ اليعقوبي، المصدر السابق ج ٢، ص ٢٤٠ ـ ٢٤١.
١٩ ـ السيوطى، المصدر السابق، ص ٢١١.
٢٠ ـ ابن الاثير، المصدر السابق، ج ٤، ص ١٣٠.
٢١ ـ د. عبدالعزيز الدورى، النظم الاسلامية، بغداد ١٩٥٠ ص ٣٩.
٢٢ ـ الطبرى، المصدر السابق، ج ٥، ص ٥٠٤.
٢٣ ـ خليفة بن خياط، المصدر السابق، ق ١، ص ٣٢١.
٢٤ ـ البلاذرى، المصدر السابق، م ٤، ص ٦٢ ـ ٦٣.
٢٥ ـ اليعقوبي، المصدر السابق ج ٢، ص ٢٤٠ ـ ٢٤١.
٢٦ ـ ابن قتيبة الدينورى، المصدر السابق، ص ٣٥٢.
٢٧ ابن عبد ربه الاندلسي، المصدر السابق، ج، ص ٣٩١.
٢٨ ابن الاثير، المصدر السابق، ج ٤، ص ١٣٠.
٢٩ ـ السيوطى، المصدر السابق، ص ٣٩١.
٣٠ ـ الذهبى، المصدر السابق، ج ١، ص ٦٩.
٣١ ـ ابن كثير، المصدر السابق، ج ٨ ص ٢٣٧.
٣٢ ـ ابن اعثم الكوفي، المصدر السابق، ج ٤، ص ٣٠٤.
٣٣ ـ خليفة بن خياط، المصدر السابق، ق ١، ص ٣٢١.
٣٤ ـ الطبرى، المصدر السابق، ج ٥، ص ٥٣١.
٣٥ ـ المقدسي، المصدر السابق، ج ٥، ص ١٧. ابن الاثير، المصدر السابق، ج ٤، ص ١٢٠.
٣٦ ـ H. Lammens, La Syrie, precis historigue, Beyrouth. 1920, p. 62
N. Elisseef. orient Musulmanau a&e, Paris, 1977, P. 92
٣٧ ـ البلاذرى، المصدر السابق، م ٤، ص ٦٢ ـ ٦٣
٣٨ ـ د. عبدالعزيز الدورى، مقدمة في التاريخ الاقتصادى العربى، بيروت ١٩٨٠، ص ٢٠
٣٩ ـ الطبرى، المصدر السابق، ج ٥، ص ٤٧٥.
٤٠ ـ نفس المصدر السابق، ج ٥، ص ٤٧٤ ـ ٤٧٥.
٤١ ـ نفسه، ج ٥، ص ٤٧٦.
٤٢ ـ نفسه، ج ٥، ص ٥٦٤.
٤٣ ـ نفسه ، ج ٥ ، ص ٥٠٢ .
ينظر . (بالفرنسية) EI2. art. Ibn al—zubayr. T.I.,P.57
٤٤ ـ الطبرى ، نفس المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٥٠٢ .
٤٥ ـ ابن الاثير ، المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٣٠ . ويؤكد البروفسور هاملتون جب ان سلطة ابن الزبير بقت اسمية محضة (بالفرنسية) EI2. T.I. P.57
٤٦ ـ البلاذرى ، المصدر السابق ، م ٤ ، ص ١٨٨ .
٤٧ ـ الطبرى ، المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٥٢٣ ـ ٥٣٤ وما بعد
٤٨ ـ نفس المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٥٢٠
٤٩ ـ نفسه ، ج ٥ ، ص ٥٤٠ .
٥٠ ـ البلاذرى ، المصدر السابق ، م ٤ ، ص ١٤١ .
٥١ ـ نفس المصدر السابق ، م ٤ ، ص ٦٢ ـ ٦٣
٥٢ ـ الطبري ، المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٥٢٣ .
٥٣ ـ نفس المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٥٢٢ وما بعد .
٥٤ ـ EI2 art. al— Dhak, T. I, P.91 (بالفرنسية)
٥٥ ـ الطبرى ، المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٥٣٤ .
٥٦ ـ نفس المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٥٣٥ ـ وينظر كذلك . EI2, art. al- Dhak, T. I, P. 91 (بالفرنسية)
٥٧ ـ البلاذرى ، المصدر السابق ، م ٤ ، ص ١٤٥ ـ ١٤٦ .
وكذلك ينظر ، د . دكسن ، عبدالامير ، الخلافة الأموية ، بيروت ، ١٩٧٣ . ص ١٤٤ .
ينظر . Dr. DIKON,EI2, art. Kalb, P.91 (بالانجليزية)
وايضا ينظر
Dr. SHABAN, Islamic History, A New Interpertation, Part—I, Cambridge Press, London, 1971.P. 93.
كذلك B. LEWIS, The Arabs In History, London 1975, P. 67
ينظر كذلك ・ N. ELISSEEF, L'Orient Musulman Au Moyen age
OP. cit, P. 92 9
٥٨ ـ الطبرى ، المصدر السابق ، ج ٥ ص ٥٣٤ ، يذكر صاحب العقد الفريد ان اهل الشام رفضوا تولية الضحاك الفهرى عليهم من قبل ابن الزبير وقالوا « الملك فينا اهل الشام فانتقل عنا الى الحجاز لا نرضى بذلك . هل لكم ان تأخذوا رجلا منا فينظر في هذا الامر » . ابن

عبدربه الاندلسي ، المصدر السابق ج ٤ ص ٢٩٤

٥٩ ـ ينظر الطبري ، المصدر السابق ، ج ٥ ص ٥٣٠ ، فيما قاله الحصين بن نمير السكوني حول الحالة التى كانت عليها الشام .

٦٠ ـ البلاذري ، المصدر السابق ، م ٤ ص ١٣٤ ، الطبرى ، المصدر السابق ، ج ٥ ص ٥٣٢ ، ابن عبدربه الاندلسى ، المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٩٥ .

٦١ ـ يوليوس فهلوزن ، الدولة العربية وسقوطها ، ترجمة ابو ريده ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ١٦٨ .

٦٢ ـ البلاذري ، المصدر السابق ، م ٤ ، ص ٦٤ ، الطبرى ، المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٥٢١ . ينظر . ابن عبدربه الاندلسي ، المصدر السابق ، ج ، ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥ .

٦٤ ـ نفس المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٥٣٢

٦٥ ـ نفسه

٦٦ ـ ايضا

٦٧ ـ الطبرى ، المصدر السابق نفسه ، ج ٥ ، ص ٥٣٢ وما بعد . حول الجابية يقول ياقوت الحموى انها قرية من اعمال دمشق قرب مرج الصفر من ناحية الجولان في شمال حوران . معجم البلدان ، ج ٢ ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٥ ، ص ٩١ .

٦٨ ـ الطبرى ، المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٥٣٣ ـ ٥٢٤ .

٦٩ ـ يصف ياقوت الحموى مرج راهط بانه اشهر المروج واذا ذكر لوحده مفردا فاياه يقصد . ويقع بنواحي دمشق . ينظر . معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ١٠١ ويذكر المستشرق لا منس ان جيش الضحاك اختار اول الامر مرج الصفر وبعدها اجبر على اختيار مرج راهط كموقع للمنازلة الاخيرة . وهو راى يخالف اجماع المؤرخين

ينظر . EI1, art: Marj Rahit, P. 293 (بالفرنسية) .

وكذلك ينظر : N. ELISSEEF, L'Orient Musulman au moyen age, Op. cit, P. 92

٧٠ ـ ينظر : Dr. DIXON, EI2, art Kalb, P. 493

وحول دور القبائل في المشرق العربي خلال الحكم الاموى ، ينظر .

د. ناجى حسن ، القبائل العربية في المشرق خلال العصر الاموى ، منشورات اتحاد المؤرخين العرب ، بغداد ، ١٩٨٠ ، ص ٦٨ وما بعد .

٧١ ـ البلاذري ، المصدر السابق ، م ٤ ص ١٤١ .

الطبرى ، المصدر السابق ، ج ٥ ص ٥٣٠ ـ ٥٣٤ .

٧٢ ـ البلاذرى ، المصدر السابق ، م ٤ ص ١٤١ وما بعد .

الطبرى ، المصدر السابق ج ٥ ، ص ٥٤١

٧٣ ـ البلاذرى ، المصدر السابق م ٤ ص ١٣٢ .

٧٤ ـ نفس المصدر السابق م ٤ ص ١٥٦

٧٥ ـ الطبرى ، المصدر السابق ، ج ٥ ص ٥٣٦

٧٦ ـ البلاذرى ، المصدر السابق ، م ٤ ص ١٣٢

الطبرى ، المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٥٣٦ .

٧٧ ـ نفس المصدر السابق ، ج ٥ ص ٥٤٤ .

٧٨ ـ نفسه ، ج ٥ ص ٥٤١ .

٧٩ ـ ابن عبدربه الاندلسى ، المصدر السابق ، ج ٤ ص ٢٩٨ .

٨٠ ـ البلاذرى ، المصدر السابق م ٤ ص ١٤٤ ـ ١٤٥ .

٨١ ـ نفس المصدر السابق م ٤ ، ص ١٤٥ ـ ١٤٦ .

٨٢ ـ نفسه ، م ٤ ، ص ١٣٩ .

٨٣ ـ يذكر المستشرق لا منس ان جيش الضحاك الفهري كان يضم جماعات من اليمنية والقضاعية المنشقة عن قبائلهم .

ينظر : EI1, art: Marij Rahit, P. 293 —294 (بالفرنسية) .

٨٤ ـ البلاذرى ، المصدر السابق م ٤ ص ١٢٧ . وكذلك ينظر : ابن عبدربه الاندلسى ، المصدر السابق ، ج ٤ ص ٢٩٦ ـ ٢٩٧ .

٨٥ ـ الطبرى ، المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٥٢٧ .

٨٦ ـ ابن عبدربه الاندلسي ، المصدر السابق ، ج ٤ ص ٢٩٦ ـ ٢٩٧ . ويورد المسعودى بذلك ، ينظر : مروج الذهب ، ج ٢ ، دار الاندلس ، بيروت ، ١٩٧٣ ، ص ٨٦ وكذلك ينظر . EI1, art: Marij Rahit, P. 91.

٨٧ ـ ينظر : EI1, Op. cit, P. 91

٨٨ ـ DIXON, EL2, op. cit, P. 493

وكذلك ينظر : Levi, provencal, EI2 Op. cit, P. 493

٨٩ ـ البلاذرى ، المصدر السابق م ٤ ص ١٤٧

الطبرى ، المصدر السابق ج ٥ ص ٥٢٩ ـ ٥٤٠ .

٩٠ ـ الطبرى ، المصدر السابق ج ٥ ص ٥٠٢

ابن الاثير ، المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٢٠ حيث يورد ما نصه « وندم ابن الزبير على ما صنع » .

٩١ ـ البلاذرى ، المصدر السابق ، م ٤ ص ١٣٦

٩٢ ـ الطبرى ، المصدر السابق ج ٥ ص ١٩٤ .

٩٣ ـ البلاذرى ، المصدر السابق م ٤ ص ١٩٤ .

٩٤ ـ ابن الاثير ، المصدر السابق ج ٤ ص ٢٥٣ ـ ٢٥٤ .

٩٥ ـ الطبرى ، المصدر السابق ، ج ٥ ص ٥٠٢

ينظر كذلك ، EI2, art: Ibn al-zubayr, Op. cit, P. 57.

٩٦ ـ البلاذرى ، المصدر السابق م ٤ ص ٥٢

ابن عبد ربه الاندلسي ، المصدر السابق ج ٤ ص ٢٩٢

٩٧ ـ ينظر : البلاذرى ، المصدر السابق م ٤ ص ١٩٤ .

د . عبدالامير دكسن ، المرجع السابق ، ص ٢١٦ ـ ٢١٧ .

الناصر داود الأيوبي

وشعره الحزين

بقلم :
الدكتور موسى بناي العليلي
وزارة الاوقاف بغداد

تاريخ أمتنا ملىء بالعلماء والقادة والأدباء والشعراء الذين قدموا خدمة عظيمة لوطنهم وخلدوا اسماءهم في التاريخ الاسلامي، بعلمهم وأدبهم وسيوفهم. ومن هؤلاء الملك الناصر داود الايوبي، لقد كان من الشخصيات المرموقة في الأسرة الأيوبية، فقد جمع بين العلم، والشعر، والشجاعة والرئاسة، فكان ملكاً، وكاتباً، وفيلسوفاً، وشاعراً، وفارساً مقداماً سجل اسمه في سجل الخالدين.

وبحثنا هذا يتناول حياته بصورة موجزة، ودفاعه عن الاسلام، ومعرفة أسباب حزنه، ومناقشة شعره الحزين.

حياته

هو داود بن المعظم عيسى بن ابى بكر بن أيوب بن شاذى، ولد في جمادى الآخرة سنة ٦٠٣ هـ (١). بدمشق، ورباهُ والده المعظم عيسى، وتعلم على مشاهير الاساتذة، أمثال محمد بن أحمد القطيفى، وأجازه ابو الحسن المؤيد بن محمد الطوسى، واشتغل في الفلسفة والمنطق وعلم الكلام على الشمس الخسرو شاهى (٢)، ودرس النحو والصرف على ابن الحاجب (٣). وكان ملازماً في الاشتغال بالعلوم على اختلافها، وشارك في كثير منها، وحصل منها طرفاً جيداً (٤)، واستمر في طلب العلم والمعرفة حتى أصبح أديباً وفيلسوفاً وشاعراً. واشترك في مناقشات علمية وأدبية مشهورة، فقد حضر أول درس القي في المدرسة المستنصرية ببغداد، وكان الخليفة في روشن ينظر ويسمع الكلام، وحضر جماعة من الفقهاء المرتبين بالمدرسة وغيرهم من المذاهب الأربعة، وباحث الناصر داود العلماء، واستدل واعترض وناظر الفقهاء مناظرة حسنة، وكان جيد المناظرة صحيح الذهن، له في كل فن مشاركة جيدة، ثم قام رجل من الفقهاء يقال له وجيه الدين القيروانى، ومدح الخليفة بقصيدة منها قوله:

لو كنت في يوم السقيفة شاهداً ... كنت المقدم والامام الاعظما

فقال الناصر داود: اسكت فقد أخطأت، قد كان جدُّ أمير المؤمنين العباس شاهداً يومئذ، ولم يكن المقدم (٥) فخرج مرسوم الخليفة بنفى ذلك الفقيه الى القاهرة، ثم خلع الخليفة على الناصر داود خلعاً سنية تتناسب مع مكانته العلمية (٦)، وما كان ذلك الا لمكانته العلمية، ولاستحسان مناقشاته المدعمة بالادلة.

وكان يجل العلماء، ويكرم الشعراء، فقد وفد عليه شرف الدين راجح بن اسماعيل الحلي ومدحه، فوصل اليه ما يزيد على أربعين الف دينار، واعطاه على قصيدة (٧) أخرى الف دينار، لذلك قال في مدحه جمال الدين بن مطروح:

ثلاثة ليس لهم رابع ... عليهم معتمد الجود
الغيث والبحر وعزّزهما ... بالملك الناصر داود

لما مات والده المعظم عيسى سنة ٦٢٤ هـ بدمشق خلفه على حكم البلاد التى كان يحكمها، وهى: الشام، والشوبك، والكرك، وعجلون، ونابلس وما تابعها، وقد قاد البلاد بحكمة بارعة، وأرسل اليه الملك الكامل بالخلع والهدايا، وطلب منه الشوبك ليجعلها خزانة له، فرفض طلبهُ، واستنجد بعمه الملك الأشرف، فاستجاب له ظاهراً واتفق مع الكامل سراً على ان تكون للاشرف دمشق، وللكامل بقية البلاد، فحاصرا الناصر داود في دمشق لمدة اربعة اشهر، فلما ضاق عليه الحصار، وقلت الأرزاق، طلب الأمان فاجاباه الى ذلك. فأخذ الاشرف دمشق، وأخذ الكامل الشوبك وقسماً من الجزيرة التى كانت تابعة للملك الاشرف، وابقيا للناصر داود الكرك وعجلون والصلت ونابلس والخليل (٨)، وانتقل الناصر داود الى الكرك وجعلها عاصمة له، وبقى فيها مدة عشرين سنة لم يكن سعيداً خلالها، لكثرة النكبات التى أصابته طيلة حياته، والتى سوف نعرض لها بالتفصيل حينما نناقش شعره الحزين، وكانت وفاته سنة ٦٥٦ هـ، أصيب بالطاعون في قرية البويضاء، ودفن بسفح قاسيون بدمشق (٩).

دفاعه عن الاسلام

كان بيت المقدس تحت سيطرة الصليبيين ، ولما جاء صلاح الدين الأيوبي الى الحكم بذل جهوداً كثيرة في الجهاد في سبيل الله ، لأجل تخليص فلسطين وبيت المقدس من سيطرة الصليبيين، فتمكن بحكمته وشجاعته من تحرير أكثر أرض فلسطين منهم، وانقذ القدس من رجسهم ، وأرجع هيبة الاسلام الى مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما كانت تلك الانتصارات التي تحققت بعهده الا بجمع كلمة العرب وتوحيد قلوب المسلمين في الجهاد في سبيل الله (١٠).

بعد وفاة صلاح الدين توزعت البلاد بين اولاده ، واخوته، فضعفت قوة المسلمين ، ووقعت الحرب بين الاخوة والابناء، والاعمام ، الى ان وصل الامر باحد ملوك الايوبيين ـ الملك الكامل محمد ـ ان يسلم بيت المقدس الى الصليبيين بغير حرب (١١)، سنة ٦٢٦ هـ ، وكان الناصر داود حاكماً للشام ، فاخذ يشنع على عمه الكامل بسبب تسليمه القدس الى الاعداء، وأمر سبط بن الجوزي ان يعمل مجلساً في ذلك ، قال فيه: « وانقطعت من المقدس وفود الزائرين ، يا وحشة المجاورين ، كم كانت لهم في تلك الاماكن من ركعة ، وكم جرت لهم على تلك المساكن من دمعة ، تالله لو صارت عيونهم عيونا لما دنت ، ولو انقطعت قلوبهم أسفاً لما اشتفت ، أحسن الله عزاء المؤمنين ، يا خجلة ملوك المسلمين ، لمثل هذه الحادثة تسكب العبرات ، ولمثلها تتقطع القلوب من الحسرات ، قال الشاعر : (١٢)

عزيزٌ علينا ان نرى القدس تخربُ	وشمس مبانيه تزول وتغربُ
وقلّتْ لـه منـا الـدموع لانـه	على مثله تجرى الدموع وتسكبُ

بعد ان سُلّم بيت المقدس الى الصليبيين ، بقى تحت سيطرتهم مدة إحدى عشرة سنة ، أي الى سنة ٦٣٧ هـ ، حيث جهز الناصر داود جيشاً وقاده بنفسه ، وحاصرها ، وضرب القلعة ، وضرب برج داود (١٣) ايضا، ودخل مدينة القدس وحررها من الارجاس الصليبيين، وارجع الغزاة الى بلدهم ، وأرجع المسلمين الى مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبهذه المناسبة أنشد الشاعر ابن مطروح يقول(١٤) :

المسجد الاقصى لـهُ عـادة	سـارتْ فصـارتْ مثـلاً سـائـرا
اذا غـدا بـالكفـر مسـتـوطنـاً	أن يبعث الله لـهُ ناصـرا
فناصر طـهّـرهُ اولا	وناصرٌ طـهّـرهُ اخـرا

يقصد الشاعر بالناصر الذي طهرهُ اولا : الناصر صلاح الدين الأيوبي ، وبالناصر الذي طهرهُ أخرا : الناصر دواد بن عيسى الأيوبي، وكتب فخر القضاة نصر الله بن بصاقة رسالة عن الناصر داود الى الديوان المستنصري في بغداد، يقول فيها : « وقابلهم العبدُ بصليب من الرأى لا يعجم عوده ، وقاتلهم بجيش المصابرة لا تفل جنوده .. الخ » (١٥).

وبعد تحرير القدس بقيت تحت حكم المسلمين الى ان سلمها الصالح اسماعيل مرة أخرى الى الصليبيين سنة ٦٤١ هـ ، ثم استرجعها الصالح نجم الدين أيوب ملك مصر من أيديهم (١٦) ولم ترجع الى الصليبيين بعد ذلك .

سبب حزن الناصر دواد

إنَّ الانسان يحزن لفقد أخ أو ولد أو والد ، أو صديق أو يحزن لمصيبة تحل به فتفقده أعزَّ ما يملك ، والناصر داود لم يزل منذُ توفى والده سنة ٦٢٤ هـ والى ان ادركته منيته سنة ٦٥٦ هـ في نكد وتعب ونصب ، لم يصف له من عمره سنة واحدة (١٧) وكان ذلك الحزن بسبب الاضطهاد الذي تعرض له من عمومته وأبناء عمومته ، لذلك يجدر بنا ان نعرف ، لِمَ هذا الاضطهاد وما سببه ؟

ان الناصر داود يختلف عن الأسرة الأيوبية ، وهذا الاختلاف يبدو واضحاً في حبه للفلسفة واشتغاله بها ، وفي مذهبه الديني الذي يختلف عن مذهب الأسرة الايوبية ، لاجل ذلك نحاول ان نتعرف على النقطتين السابقتين .

١ ـ مذهبه الديني :

ان الناصر داود ووالده المعظم عيسى كانا على مذهب الامام أبي حنيفة ، وكانا يتعصبان لمذهبهما (١٨) ، وكان بنو أيوب جميعهم على مذهب الامام الشافعي ، ولما عوتب المعظم عيسى في ذلك ، قال : أما ترضون ان يكون فيكم واحد مسلم (١٩)، وبعد وفاة المعظم عيسى تولى ابنه الناصر داود مكانه ، فضايقه عمه الكامل ـ كما بينا سابقاً ـ ولم يترك له عمه الكامل والأشرف الا الكرك ونابلس وما جاورهما ، وهذه المقاطعة الصغيرة لم تترك له مع بلائه العظيم في انقاذ بيت المقدس من الصليبيين .

٢ ـ حبه للفلسفة واشتغاله بها :

الناصر داود شاعر مشهور ونحوي وكاتب له رسائل نفيسة واشعار شيقة جمعت في «كتاب الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية» (٢٠) ، ولكنه مع اشتغاله في نظم الشعر ، وحبه للادب واللغة ، فقد شغف بالفلسفة والمنطق ، وقد درسهما على الخسرو شاهي تلميذ الفخر الرازي (٢١)، قال أحمد بن محمد الحنبلي وذلك هو السبب في حصول ما لاقاه من الشدائد (٢٢)، وقد كانت الدولة الايوبية تحارب الفلسفة والمشتغلين بها ، وحُوربَ قبل الناصر دواد يحيى بن حنش الملقب بشهاب الدين السهروردي الفيلسوف الحكيم ، الذي كان محبوساً بقلعة حلب ، وأمر بخنقه الملك الظاهر غازي (٢٣)، بامر والده صلاح الدين الأيوبي، وفي مصر حُوربَ علي بن محمد الملقب بـ (سيف الدين الآمدي) وشرّد الى حماة، ومنها الى دمشق، ودّرس فترة بالمدرسة العزيزية ، فلما تولى الملك الاشرف على دمشق عزله من المدرسة المذكورة ، ونادى في المدارس من ذكر غير التفسير والفقه والحديث نُفي من البلد (٢٤)، وقد علق ابن عربي شيخ المتصوفة ، وابن الصلاح شيخ

المحدثين على عزل الآمدي من المدرسة العزيزية ، بأن أخذها منه أفضل من استرداد عكا من الصليبيين (٢٥)، وهـذا التعليق وامثاله يظهر شدة بغض الفلسفة والمشتغلين بها في تلك الفترة .

ولما كان الناصر داود قد درس الفلسفة واشتغل بها ، فقد اُتُهِمَ بفساد العقيدة ، قال ابن كثير : « وحكوا عنه اشياء ان صحت تدل على سوء عقيدته »(٢٦)، وقال أحمد بن محمد : « قرأ العلوم العقلية على الخسرو شاهي تلميذ الأمام الرازي ، وذلك هو السبب في حصول ما قاساه من الشدائد »(٢٧)، ولهذا السبب نرى عمه الاشرف الذى عزل الآمدي عن التدريس من المدرسة العزيزية بسبب الفلسفة اتفق مع عمه الكامل على تجريده من مملكته التى ورثها عن والده ، بعد محاربته ومحاصرتـه في دمشق .

يتضح لنا من ذلك ان اتجاه الناصر داود الفلسفى هو الذى اثار حقد عمومته عليه ، وعرضه للنكبات المتوالية التى جعلته يكره الحياة ويتمنى الموت ، ويظهر ذلك بقصائده الحزينة ، وليس مخالفته في المذهب لاسرته الأيوبية ، ولو كانت المخالفة المذهبية هى السبب ، لوقع الخلاف بين المعظم عيسى والده ، وبين اخوته، ولم تنقل لنا المصادر خلافاً واقعاً بين المعظم عيسى واخوته، وبذلك تكون الفلسفة هي السبب في شقاء الناصر داود ، وحزنه المستمر الى وقت وفاته .

شـــعرُ الحـــزين

إنَّ الشعر الذى نظمه الناصر داود ليس جميعه حزيناً ، وإنما فيه صور شعرية جميلة في الغزل والوصف والمدح نقلتها المصادر المعاصرة له ، والتى جاءت بعده (٢٨)، اضافة الى كتابة « الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية »، ولكنني رأيت الغالب في شعره سمته الحزن ، لذلك اخترت بعض الصور الحزينة وناقشتها لكونها خارجة من قلب ملىء بالحزن والكآبة ، فكانت هذه الصور الشعرية دليلاً على ما لاقاه الناصر داود من المصائب والنكبات التى لازمته طيلة حياته السياسية ، ولعل الصور غير الحزينة نظمها قبل وفاة والده ، أو في الفترات القليلة من الراحة النفسية التى تخللت حياته السياسية .

بعد ان اتضح لنا السبب الذى حُورِبَ من أجله الناصر داود ، نعرض الى شعره الحزين موضحين مافيه من صور مأساوية نتيجة لتلك المحاربة المستمرة .

اجتاز الملك الكامل على الناصر داود في الكرك ، وحصل بينهما تواد وتقارب مما دعاه الى ان يعقد له على ابنته عاشوراء، وبعد ذلك حصل بينهما خلاف بسبب بعض الوشايات ، فالزمه بطلاق ابنته قبل ان يدخل بها ، فخاف الناصر داود من عمه خوفاً شديداً ، وتوجه الى الخليفة المستنصر بالله العباسى لائذا به (٢٩) ، فرحب به في بغداد، وخلع عليه ، ولكنه لم يؤذن لـه بمقابلته ، كما اذن لمظفر الدين صاحب أربل، فنظم قصيدة مدح الخليفة في مقدمتها ، وعاتبه فيها عتاب محزون لم يحصل على بغيته التى جاء من أجلها ، ومنها قوله (٣٠) :

الا يـا امـير المـؤمنـين ومـن غـدتْ ... عـلى كـاهـل الجـوزاء تعلـو مـراتبـهُ
ايحسـن في شـرع المـعـالي ودينـهـا ... وانـتَ الـذى تُـعـزى اليـه مـذاهبـهُ
بـأنـي اخـوض الـدوَّ والـدوُّ مُقفـرٌ ... سبـاريتـهُ مـغـبـرةٌ وسبـاسبـهُ
وارتكـبُ الـهـولَ المخـوفَ مُخـاطـراً ... بنفسي ولا اعيـا بمـا انـا راكبـهُ
وَقـدْ رصـد الاعـداءُ لي كـلَّ مـرصـدٍ ... فكلـهـمْ نـحـوي تـدبُّ عقـاربـهُ
فتسمـحُ لي بـالمـال والجـاه بـغيتـي ... ومـا الجـاهُ الاَ بـعضُ مـا انـت واهبـهُ
واتيـك والـعضـبُ المهنـدُ مُصْلـتٌ ... طـريـرٌ شبـاهُ قـانيـاتٌ ذوائبـهُ
وانـزلُ امـالي ببـابـك راجيـاً ... فـواضـل جـاهٍ يبـهـرُ النجـم ثـاقبـهُ
ويـاتيـك غيـري مـن بـلاد قـريبـة ... لـه الامـنُ فيـهـا صـاحبُ لايجـانبـهُ
ومـا اغبَـر من جـوب الفلاجـرُ وجهـه ... ولا أنصبـتْ بالسيـر فيـهـا ركـائبـهُ
فيلقـى دنُـوّاً منـك لـم الـق مثلـهُ ... ويحظـى ولا أحظـى بمـا انـا طـالبـهُ
وينظـرُ في لالاء قـدسـك نظـرةً ... فيـرجـعُ والنـورُ الامـامـيُ صـاحبـهُ
ولـو كـان يـعلـونـى بنفس ورتبـة ... وصـدق ولاء لسـتُ فيـه أصـاقبـهُ
لكنـتُ اسلي النفس عمـا تـرومـهُ ... وكنـتُ اذودُ الـعيـن عمـا تـراقبـهُ
ولكنّـهُ مثـلي ولـو قلـتُ إننـي ... ازيـدُ عليـه لـم يـعـبْ ذاك عـائبـهُ
ومـا انـا ممـن يمـلا المـالُ عينـه ... ولا بسـوى التقـريـب تُقضى مـاربـهُ
وبـي ظمـا رؤيـاك منـهـل ريّـه ... ولا غـرو ان تصفـو لـوردي مشـاربـهُ

إنَّ الشاعر جاء قاصداً الخليفة المستنصر بالله العباسى مستجيراً به من عمه الكامل ، وبقية الذين يحاولون اقتسام بلاده ، وإنه أقبل من بلد بعيد قاطعاً الفلوات والصحارى القاحلة الكثيرة الغبار ، وقد عرض نفسه للمخاطر والأهوال ، وهو لا يعبأ بما يلاقى من الاعداء ومؤامراتهم التى تستهدفه ، وتحاول ازالته عن مملكته التى ورثها عن والده ، وقد اعتقد [illegible] التكريم والجاه الذى هو أقل ما يرجوه من هذه السفرة الشاقة [illegible] حمايته من الاعداء.

[illegible] الاخرى الى الاشارة لمظفر الدين صاحب اربل (٣١). الذى قدم قبله على الخليفة ، وكرمه وقابله ، ولم يبذل ما بـذله النـاصر داود من تربص الاعـداء وقطع الصحراء، ويقارن بين نفسه وبين صاحب أربل من حيث النسب والمكانة والعلم والشجاعة ، ويّبين بأنه ان لم يكن مساوياً له ، فان الناصر داود يفوقه ، ويختم كلامه بأنه يرفض المال ، ويريد المقابلة والتكريم ، وأنه جاء لاجلهما ، فلما وصلت هذه القصيدة استدعاه الخليفة سراً وقابله ، واستمع اليه ، وكان الخليفة يمتنع من مقابلته بسبب الملك الكامل ، لانه بحاجة الى كسب ود الملك الكامل وليس الناصر داود ، فجمع بين المصلحتين باستدعائه سراً .

ثم ان المستنصر بالله خلع على الناصر داود « خلْعَةً سنية عمامة سوداء ، وفرجيّة سوداء مذهبة ، وخلع على أصحابه ومماليكه خلعاً سنية ، واعطاه مالا جليلا ، وبعث في خدمته رسولا من اكبر خواصه الى الملك الكامل يشفع اليه في اخلاص نيته له وابقاء بلاده عليه، فوصل الناصر والرسول الى دمشق وبها الملك الكامل، فخرج لتلقيهما الى القصير ، واقبل على الناصر

داود اقبالاً كثيراً وقبل شفاعة الخليفة. والبسه الخلعة هناك ، وكان الخليفة قد لقب الناصر داود الوالي المهاجر مضافاً الى لقبه ، فأمر الكامل خطباء بلاده ان يذكروا ذلك والدعاء له ، ثم خلع على رسول الخليفة واعطاه شيئاً كثيراً (٣٢). وعاش الناصر داود فترة من الوقت مرتاح البال.

ساعد الناصر داود الملك الصالح أيوب في الاستيلاء على مصر واسقاط الملك العادل ، وبعد ان حكم الصالح ايوب مصر مكان العادل ، ناصب الناصر داود العداء واراد ان يعتقله ، بعد ان حلف له بأنه سوف يساعده في استرجاع الشام اليه ، فرجع خائباً ، ورابط بالساحل ، فاغتنم الصليبيون الفرصة بابتعاد الناصر داود عن دولته ، فهاجموا نابلس، واعملوا السيف في أهلها، واسروا من وجدوه فيها من النساء والاطفال ، واقاموا بها ثلاثة أيام ، يقتلون وينهبون ، ونصبوا على المساجد صلبانهم ، ومن سلم من أهلها تعلق بروؤس الجبال ، فلما علم الناصر داود ، قدم بجيشه وحينما تحققوا من قدومه، تركوا نابلس منهزمين الى حصونهم، فوجه الناصر داود قصيدة الى شيخ الاسلام في مصر العز بن عبدالسلام يقول فيها :

الا ليتَ أمي ايّمُ طول عمرها ... ولَمْ يقضها ربّي لمولى ولا بعل

ويا ليتها لَمّا قضاها لسيِّد ... لبيب طيّب الفرع والاصل

قضاها من اللاتي خُلقنَ عواقراً ... ولا بُشّرتْ يوماً بانثى ولا فحل

ويا ليتها لَمّا غدتْ بي حاملاً ... أُصيبتْ بما احتفت عليه في الحمل

ويا ليتني لَمّا وُلدتُ وأصبحت ... تُشدُ الى الشدقميات بالرحل

لحقتُ باسلافي فكنت ضجيعهم ... ولَمْ أرَ في الاسلام ما فيه من ثكل

إنَّ هذه الابيات تظهرُ مدى الحزن الذى أصاب الناصر داود من هول الفجيعة ، وعظم المصاب، الذى أصاب المسلمين في نابلس نتيجة لتفرق سلاطينهم ، فقد وجد العدو بفرقتهم طريقاً تسلل من خلاله لضربهم والتنكيل بمواطنيهم، إنّها شكوى محزون أثقله الحزن فبث شكواه الى الشيخ العز بن عبدالسلام الذى كان سابقاً شيخ الاسلام في الشام، وبحكم منصبه انكر على الصالح اسماعيل تعاونه مع الصليبيين، فسجنه هو وابن الحاجب (٣٣)، ثم اطلق سراحهما بعد ذلك، فذهب الى الصالح أيوب في مصر، واصبح شيخا للاسلام هناك، وكان على معرفة بالاتفاق الذى تم بين الناصر دواد، والصالح أيوب بخصوص تسليم الشام وتوابعها الى الناصر داود بعد انقاذها من الصالح اسماعيل .

يتمنى الناصر داود ـ في الابيات السابقة ـ ان تكون أمه غير متزوجة ، واذا كتب عليها الزواج بسيد شريف مثل والده المعظم عيسى ان تكون عاقراً ، واذا قسم لها ان تنجب يتمنى ان يموت منانجبته طفلاً، فيلحق بأبائه كي لا يبقى حياً، ويرى من يتهاون في حقوق وطنه ، ويمكن العدو الغاصب من نفسه .

والصالح أيوب لم يكتف بعدم مساعدة الناصر داود في محاربة الصليبيين ومنعهم من الاعتداء على المدن الاسلامية ، بل جهز جيشاً بقيادة فخر الدين بن الشيخ لمحاربة الناصر داود (٢٤)، فهاجم ضياع الكرك وخرَّبَ الممتلكات وعاث في الأرض فساداً ، فقلت موارده بسبب الحرب ، فنظم الناصر داود قصيدة، ووجهها الى الصالح أيوب يذكّرهُ فيها بفضله عليه ومخالفته لعشيرته في سبيل تنصيبه ملكاً لمصر ، وكان جزاء تلك التضيحة العداوة المستمرة التى وصلت الى اعلان الحرب المدمرة، قال فيها (٣٥) :

قولا لمن قاسمته ملك اليدِ ... ونهضتُ فيه نهضة المستاسد

عاضيتُ فيه ذوى الحجى في اسرتي ... واطعتُ فيه مكارمي وتوددي

يا قاطع الرحم التي صلتي بها ... كُتبتْ على الفلك الاثير بعسجد

عمي ابوك ووالدي عم به ... يعلو انتسابك كلُّ ملك اصيد

ذغ سيف مقولي البليغ يذّبُ عن ... اعراضكم بفرنده المتوقد

فهو الذي قد صاغ تاج فخاركم ... بمنضّل من لؤلؤ وزبرجد

والله يا بن العم لولا خيفتي ... لرميتُ ثغرك بالعداة المرّد

لكنني ممن يخاف حزامهُ ... ندماً يجرعني سمام الاسود

فاراك ربك بالهدى ما ترتجي ... لنراك تفعلُ كلُّ فعل ارشد

لتعيد وجه الملك طلقاً ضاحكاً ... وتردُّ شمل البيت غير مبدّد

لقد ضمن هذه الأبيات عتاباً حزيناً. لابن عمه الصالح أيوب، وذكرهُ فيها باليد البيضاء التى اكرمته، وحمته من أخيه العادل ملك مصر، وعمه اسماعيل ملك الشام، فأنهما بذلا للناصر داود الأموال والمساعدة والتأييد (٣٦)، اذا سلمه اليهم فلم يسلمه، وحوله من أسير الى ضيف مكرّم، وساعده في الوصول الى مصر، ووطد له الأمور هناك، وصحبه بجيش، فلما وصلوا الى قرب مصر، عزل قادة مصر أخاه الملك الكامل ونصبّوهُ مكانه، وبعد ان تمكن من قيادة البلاد تنكر له، وحاول اعتقاله ، فرجع الناصر داود الى بلاده حزيناً، لم يحصل من الوعود التى وعده بها، ومنها مساعدته في استرجاع الشام من عمه اسماعيل، وقد اقسم على ذلك في بيت المقدس (٣٧).

ثم بين صلة القربى التى تربطه به، وأنه قد قطع هذه الصلة باعتدائه ولما كان قد حلف ولم ينفذ الذى حلف عليه، فمطلبه الوحيد الذى يريده منه هو ان يتركه يذبُ عن اعراض العشيرة ، بلسانه الذى هو أمضى من السيف القاطع، ويوضح له بان لسانه هو الذى جعل الأسرة الأيوبية تفتخر على غيرها بأمجادها التى ذكرها بشعره ، اضافة الى ما قدمه لها بسيفه ، وذلك بفتحه بيت المقدس وتطهيره من الصليبيين.

ثم اقسم بالله العظيم ، بأنه لولا خوفه من تفرق الأسرة الأيوبية لرماه بشعره الذى يكون أمضى من السيف ، لكنه كان يخاف ان يصيب ابن عمه ، وينفرط باصابته شمله وشمل

عشيرته ، فصبر على مضض كالذى يتجرع سمّ الافاعى القاتلة، ولاجل ذلك دعا الله جل شأنه بان يجعل عمله صالحاً وصائباً كي يعزّ به الدولة وتتقوى على الاعداء.

وهذه الأبيات وان كان فيها شيء من الفخر والتعالى الا أنها تظهر حزنه الثقيل، وصبره الكثير مما يقاسيه من قلة الناصر وشحة المال الذى تتقوم به الدولة ، كي تأخذ مكانتها بين الدول المجاورة. ولما رأى الاخطار تحيط به من كل جانب، الصليبيون يهددونه ويحاولون غزو الكرك والصالح أيوب يغير على نواحى الكرك ، جمع ما عنده من المال وارسله الى الخليفة المستعصم بالله، كي يكون وديعة، وجاءه التوقيع منه باستلامه (٣٨)، وكان قد استناب ولده شرف الدين عيسى على الكرك، ومضى الى حلب مستجيراً بصاحبها الملك الناصر صلاح الدين يوسف، وبعد غيابه اتفق ولداه الأمجد والظاهر على عزل اخيهما عن الكرك ، وذهب الأمجد الى الصالح أيوب في مصر، وقال له : اسلمك الكرك على ان تعطينى عوضاً عنها أرضاً وعقاراً له ولا خوته الباقين، فاجابه الى ذلك، وسيّر الى الكرك الطواشى بدرالدين بدر الصوابى نائباً عنه (٣٩)، وبذلك خرجت الكرك من حكم الناصر داود، ثم حصلت وشاية تخوف(٤٠) منه بسببها صاحب حلب فاعتقله، وهو في الاعتقال بلغه اجتياح الكرك من قبل الصالح أيوب فنظم الناصر دواد قصيدة حزينة، قال فيها (٤١) :

إلـهي الـهى انت اعلى واعظـمُ ... بمحقوق مـا تُبدي الصدورُ وتكتـمُ
وانت الـذى تُـرجـى لكـلّ عظيمـةٍ ... وتُخشى وانت الحاكـمُ المتحكّـمُ
الى علمك العـالي اشكو ظلامتـي ... وهـل بسواه يُنصفُ المتظلّـمُ
ابـثُّ جنايـات العشيـرة مُعلنـاً ... الى من بمكنون السرائر يعلـمُ
اتيتـهمُ مستنصـراً متحـرمـاً ... كما يفـعلُ المستنصرُ المتحـرّمُ
فلمـا ايسنـا نصرهـم ونـوالـهـم ... رمونـا بـإفْكِ القـول وهو مُـرجَّمُ
وقطـع منـي مـا احـرتُ بـوصلـه ... واحلال ابـعـاد القـرابـةِ يُحـرمُ
مليكـي اتعلـزنـي الملـوك بقـهرها ... وانـت مـلاذى منـهـمْ وهـمْ هـمْ
فحسبـي اعتصـامـا إنني بـك لائـذ ... إذا هـز خطـيّ وجُـرّد صـارمُ
اغثنـا اغثنـا مـن عـدانـا يكـن لنـا ... بـك النصرُ حتى يُخـذلـوا ثم يُهـزموا
لنـدركـهـم من بـاسنـا بكتـائـب ... تـهـدُ صناديـد الملوك وتهـدمُ
لنسقيهـمُ كـاسـاً سقـونـا بمثلـهـا ... ونعفـو ونسخـو إذْ سطـوا وتلـوّمـوا
طلبنـا جليـلاً مـن عظيـم وانمـا ... يجـودُ بُجـلّ المكرمـات المعظّـمُ
يجـدد نـعمـاك القـديمـة عنـدنـا ... حـديـثُ ايـادٍ لفظـهـا يتـرنّـمُ
فنصـرك محـعـول لنـا ومُـعجّـلُ ... و بـرّك مـعلـومٌ بنـا فهـو معلـمُ

إن الذى يقرأ هذه القصيدة، ويتدبر معناها يتعرف على الحالة المأساوية التى كان يعيشها الناصر دواد، فمملكتـه محتلة، واولاده مشردون، وهو سجين بتهمة لايعرفها، فاتجه الى الله جل شأنه يبث حزنه، ويشكو حالته المأساوية التى لاتطاق، فقد جنت عليه العشيرة، فقد جاء الى ابن عمه يستعين به على ما اصابه من اعتداء وظلم وحرمان، فلم يحصل منه على عون بل رماه بما نقل اليه الوشاة من قول الزور، وهو بريء منه .

ثم توجه الى الله مرة اخرى ، فهو ربه الذى خلقه وخلقهم، وسوف ينصره عليهم، كى يسقيهم بالكأس الذى سقوه به من الظلم والحرمان ، لان الله يغيث قاصده، وينصرُ من يستنصر به، ومن يعتمد على الله فهو حسبه نعم المولى ونعم النصير .

بقى الناصر داود بالسجن مدة من الزمن، لم يُفرجْ عنه إلا بشفاعة الخليفة (٤٢) سنة ٦٥١ هـ، وبعد ان ضاع منه الكرك، لم يبق له شيء الا الوديعة التى اودعها عند الخليفة في بغداد، وقد بذل جهوداً مضنية لاجل استرجاعها فلم يتمكن، ففي سنة ٦٥٣ هـ، طلب من الناصر يوسف الاذن لاجل السفر الى بغداد، لاسترداد وديعته، والذهاب الى مكة المكرمة، فاذن له وجعل طريقه على أرض كربلاء، وزار قبر الحسين بن علي عليهما السلام، واستجار بضريحه، ونظم قصيدة موجهة لخليفة المستعصم بالله العباسى يمدحه فيها ويستعطفه لاجل ارجاع وديعته، نذكر منها ما يتفق مع البحث، وهو قوله (٤٣) :

مقـامُـك اعلى في الصـدور واعظـمُ ... وحلمـك ارجـى في النفـوس واكـرمُ
فـلا عجـب ان غصّ بـالقـول شـاعـرٌ ... وفـوُه مصـل اللـهـابـين مُفحـمُ
اليـك امـير المـؤمنـين تـوجـهـي ... بـوجـه رجـاءٍ عنـده منـك انـعـمُ

وقـال

تنكّـر للخـزيـت بـالبيـد عـرضـهُ ... فـلا علـمٌ يـعلـو ولا النجـمُ ينجـمُ
فظـلَّ لافـراط الاسـى متنـدمـا ... وإن كـان لايجـدي الأسى والتنـدمُ
ينـاجـي فجـاج الـدوّ والـدوُ صـامتٌ ... ولا يسمـع النجـوى ولا يتكلـمُ
عـلى حـين قـال الظبـي والظـلُ قـالصٌ ... واوقـدت المـعـزاء فـهـي جـهنـمُ
وجـفّ مـزاد القـوم فـهـي اشنـةٌ ... وجـفُ لـورد المـوت كـف ومـعصـمُ
ووشـع ميـدان المنـايـا بخيلـه ... فضـاق مجـال الـريـق والتجـم الفـمُ
فـوحش الـرزايـا للـرزيـة حضرٌ ... وطـيرُ المنـايـا بـالمنيـة حـوّمُ
فلمّـا تبدّت كـربـلاء وتبينـتْ ... قبـابُ بـهـا السبط الـزكـي المكـرّمُ
ولـذتُ بـه مستشفـعـاً متحـرمـاً ... كمـا يفـعـلُ المستشفـعُ المتحـرّمُ
واصبـح لي دون البـريـة شـافـعـاً ... الى مـن بـه مـعـوجُ امـرى يقـوّ مُ
انخـتُ ركـابـي حيـثُ ايقنـت اننـى ... ببـاب امـير المـؤمنـين مخيـمُ

وقـال

تضـنُ بمـاء الـوجـه لكـنْ وفـدكـم ... لـه شـرف ينتـابـه المتـعظـمُ
فصـن مـاء وجهـي عـن سـواك فـانـه ... مصـونٌ يصـونـاهُ الحيـا والتكـرّمُ
ومثـلي يحيـي للفتـوق ورتقـهـا ... إذا هـزُ خطـيّ وجُـرّد مخـذمُ
فـلازلـت لـلامـال تبقـى مسلمـا ... لتنتـابـك الآمـال وهـي تسلـمُ

بدأ الشاعر بمدح الخليفة الذى قصده، حيث مدحه مدحاً يتفق مع مقامه الرفيع، ثم ذكر ما يرجوه منه من النعم، وهذه اشارة الى وديعته التى اصبحت شغله الشاغل، بعد ان فقد مملكته ثم انتقل الى الجهد الذى بذله في الطريق، والصعوبات

التى لاقاها في الصحراء الممتدة بين الشام والعراق، ثم ذكر وصوله الى كربلاء، واستجارته بقبر الحسين عليه السلام، وانه جعله شفيعا له في حاجته الى ابن عمه الخليفة، لاجل ان يصون ماء وجهه من ذل السؤال عن سواه، لانه لايعرف الكريم والعزيز الا الكريم والعزيز مثل الخليفة.

وختم القصيدة ببيان شجاعته وبطولته في مكافحة الاعداء، وهي اشارة الى محاربته للصليبيين وتخليص بيت المقدس من حكمهم، وانه لذلك يمكن الاعتماد عليه في الاوقات العصيبة.

وبعد ان ارسل القصيدة الى الخليفة لم يحصل منه على شيء من وديعته (٤٤). فتوجه مع الحجاج الى بيت الله الحرام، وبعد ان اكمل مناسك الحج، رجع الى المدينة المنورة ، ووقف امام قبر الرسول صلى الله عليه وسلم مادحا، وفرائصه ترتعد، وهو يخاطبه بقصيدة قال في مطلعها (٤٥).

عليك سلامُ الله ياخير مرسل	اتاهُ صريح الوحي من خير مُرسل

ثم احضر شيخ الحرم وخدامه، ووقف بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم متمسكاً باذيال الحجرة المقدسة، وقال بمشهد « ان هذا مقامي من رسول الله صلى الله عليه وسلم داخلاً عليه مستشفعاً به الى ابن عمه المستعصم بالله أمير المؤمنين في ان يرد عليَّ وديعتي (٤٦)، فاعظم الناس هذا المقام الشريف ، وجرت عبراتهم، وكثر بكاؤهم، وقد كتب بصورة ما جرى الى الخليفة في بغداد.

وبعد ان أتم زيارة المدينة المنورة توجه مع الحجاج الى العراق فوصل بغداد سنة ٦٥٤ هـ وخرج أمرُ الخليفة بانزال الناصر داود في المحلة (٤٧)، وقُرِّر له راتب لا يكفيه، ثم ارسل الخليفة من يحاسب الناصر داود على ذلك في تَرَدُّدِهِ الى بغداد ، ومحاسبته على اللحم والخبز والعليف ونحوه، وثمن عليه ذلك باغلى الاثمان، وارسل اليه شيئا قليلا، والزمه ان يكتب بخطه ردَّ وديعته فكتب بذلك مكرهاً (٤٨). ويكون بذلك قد فقد شيئا يعلق عليه الآمال.

توجه الناصر دواد من بغداد الى دمشق، وبقي فيهاوهوفي اضيق حال الى سنة ٦٥٥ هـ، وطلب الاذن في التوجه الى بغداد مرة اخرى، فلم يُؤذَنْ له، فلمّا ضاق به الحال، ذهب الى تيه بنى اسرائيل، وهناك اجتمع عليه جماعة من العرب والترك، فلما سمع المغيث فتح الدين عمر صاحب الكرك، خاف ان يكثر جمعه ويقصده لاسترجاع الكرك منه، فراسله مخادعاً له باظهار المودة، ثم أرسل اليه عسكراً وقبضوا عليه ومن معه، وافرده عن اصحابه، وأمر ان يُرسَل الى الشوبك ويوضع في مطمورة ليحبس فيها، كي تنقطع اخباره، ولما وصلوا الى ذلك المكان وجدوا المطمورة لم تكتمل، فانزلوه في طور هارون عليه السلام، الى ان تكتمل المطمورة فتوجه بقلبه الى الله مستشفعاً بموسى وهارون عليهما السلام، فاتاه الفرج من حيث لا يحتسب، حيث ان الخليفة لما ضايقه المغول كتب الى الناصر صلاح الدين يوسف يستمده بالرجال، ويطلب منه ان يسيِّر اليه الناصر داود مقدما على من يبعثه اليه من العساكر التى يستخدمها لنصرة الاسلام، فوصل رسول الخليفة الى مكان الناصر داود قبل ان تكمل المطمورة التى يوضع فيها، فقال (٤٩) :

تبارك الله اخلاصاً وإيمانا	سبحانه خالقاً بالجود منّانا
هو الذى اقتادني في قعر هاوية	اقمت فيها مطار اللب حيرانا
موسى بن عمران بل هارون صاحبه	تكفلاني اشفاقاً وتحنانا
هما الى الله قاما بالشفاعة لي	تلطفاً منهما براً واحسانا

إن الحالة المأساوية التى حلت بالناصر داود دفعته الى ان يتوجه الى خالقه بقلبه ولسانه وجميع جوارحه متوسلاً اليه بنبيه موسى واخيه هارون عليهما السلام، فاستجاب الله تعالى دعوته، وانقذه من ذلك المصير المظلم الذى ينتظره حيث توافق وصول رسول الخليفة وانتهاء المطمورة، ففرح فرحاً شديداً بنجاته، وراح يرفع كلمات الشكر لله تعالى ذاكراً شفاعة النبى موسى، واخيه هارون.

إن هذه الفترة المؤلمة في حياة الناصر داود أنسته التفكير بوديعته وبمملكته، وجعلته يتجه الى خدمة الاسلام، لعله يفوز برضا الله جل شأنه، فتوجه الى الشام، ونزل في البويضاء، وبدأ بتجهيز الجيش، واعداد العدة لحرب المغول تحت راية الخليفة، وقد قصَّر صلاته مدة اقامته في البويضاء (٥٠)، وقد تواترت الاخبار بمضايقة التتر لمدينة بغداد، فاشار عليه جماعة من اصحابه، بان يتريث في الحركة، فقال : « إني قد بعت نفسي من الله تعالى، وما توجهي لطلب دنيا، وانما مقصودي ان أبذل نفسى في سبيل الله، لعل الله تعالى يجعل على يدي نفعاً للمسلمين، او تحصل لي الشهادة في سبيله » (٥١)، واستمر بتجهيز جيشه، وبينما هو يقوم بواجبه، وردت الاخبار ان التتر ملكوا بغداد، وشاع خبر بان الخليفة لحق بالعرب، فقال : « لابد لي من اللحاق به فله في عنقي بيعة، وقد لزمني الوصول اليه، واخذ بغداد منه لايسقط وجوب اتباع امره، والذى يخشاه الناس القتل وأنا لا اخشاه » (٥٢)، فلما تحقق مقتل الخليفة للناس، تفرق اكثر اصحابه، ولحق الناس في تلك الفترة مرض الطاعون، فخاف اصحابه من الطاعون، فكان يُصبِّرهم ويذكرهم باحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وكلام اصحابه الكرام فيه، ثم ابتهل الى الله وقال: « اللهم اجعلنا منهم، وارزقنا ما رزقتهم »(٥٣)، فلما اصبح اليوم الثانى اصيب بالطاعون، وبقى يتألم فترة، ومات ليلة السبت في السادس والعشرين من جمادى الاولى سنة ٦٥٦ هـ، وخرج الناصر يوسف الى قرية البويضاء، وحزن هو وجماعته عليه، وحملوه الى الشام، ودفنوه قرب قبر والده المعظم عيسى الايوبي.

الهوامش

١ - ترجمته في: وفيات الاعيان ٢/ ٤٩٦، ذيل مرأة الزمان ١/ ١٢٦، المختصر في اخبار البشر ٣/ ٥٦، فوات الوفيات ١/ ٣١٢، الغيث المسجم ٢/ ٧٧، ابن الوردى ٢/ ١٦٣، البداية والنهاية ١٣/ ١٩٨، صبح الاعشى ٤/ ١٧٥، النجوم الزاهرة ٧/ ٦١، الكامل لابن الاثير ١٢/ ٤٨٢، شفاء القلوب في مناقب بنى ايوب ص ٢٤٦، شذرات الذهب ٥/ ٢٧٥، الاعلام ٣/ ١٠

٢ - البداية والنهاية ١٣/ ١٩٨

٣ - الايضاح في شرح المفصل الدراسة ص ١٦

٤ - ذيل مرأة الزمان ١/ ١٢٧.

٥ - ذيل مرأة الزمان ١/ ١٢٦، البداية والنهاية ١٣/ ١٩٨

٦ - ذيل مرأة الزمان ١/ ١٢٧.

٧ - فوات الوفيات ١/ ٣١٢، البداية والنهاية ١٣/ ١٩٨

٨ - فوات الوفيات ١/ ٣١٤

٩ - ذيل مرأة الزمان ١/ ١٢٩، شفاء القلوب في مناقب بنى ايوب ص ٣٤٧.

١٠ - وفيات الاعيان ٣/ ٤٩١، فوات الوفيات ١/ ٣١٢، السلوك ١/ ٤١٢.

١١ - شفاء القلوب في مناقب بنى ايوب ص ١٩٧ - ٢٢٦.

١٢ - صبح الاعشى ٤/ ١٧٦ الكامل لابن الاثير ١٢/ ٤٨٢

١٣ - شفاء القلوب في مناقب بني ايوب ص ٣١٢

١٤ - المختصر في اخبار البشر ٣/ ١٦٥ السلوك للمقريزى ١/ ٢٩٢

١٥ - السلوك ١/ ٢٩٢د ذيل مرأة الزمان ١/ ١٤٢، شفاء القلوب ص ٣٥١.

١٦ - ذيل مرأة الزومان ١/ ١٤٢.

١٧ - المختصر في اخبار البشر ٣/ ١٧٢، صبح الاعشى ٤/ ١٧٧.

١٨ - ذيل مرأة الزمان ١/ ١٤٣.

١٩ - وفيات الاعيان ٣/ ٤٩٤، شفاء القلوب في مناقب بنى ايوب ص ٢٧٦.

٢٠ - شفاء القلوب في مناقب بنى ايوب ص ٢٧٦.

٢١ - مخطوطة مصورة بدار الكتب المصرية في القاهرة. وقد سجلها الاستاذ ناظم رشيد رسالة للدكتوراه ونوقشت مؤخرا في كلية الآداب جامعة بغداد، وحصل صاحبها على درجة الدكتوراه.

٢٢ - البداية والنهاية لابن كثير ١٣/ ١٩٨

٢٣ - شفاء القلوب في مناقب بني ايوب ص ٣٥٧

٢٤ - المختصر في اخبار البشر ٣/ ٨١، خطط الشام ٤/ ٣٧

٢٥ - طبقات الشافعية للاسنوى ١/ ١٢٨، خطط الشام ٤/ ٣٧

٢٦ - نقض المنطق لابن تيمية ص ١٥٦.

٢٧ - البداية والنهاية ١٣/ ١٩٨

٢٨ - شفاء القلوب في مناقب بني ايوب ص ٣٥٧.

٢٩ - فوات الوفيات ١/ ٣١٢، ذيل مراة الزمان ١/١٤٥ - ١٥٣ صبح الاعشى في صناعة الانشاء ٤/ ١٧٥، النجوم الزاهرة ٧/ ٦٢، شذرات الذهب ٥/ ٢٧٥ - ٢٧٦

٣٠ - شفاء القلوب في مناقب بنى ايوب ص ٣٤٨.

٣١ - انظر القصيدة في ذيل مرأة الزمان ١/ ١٣٣، شفا القلوب ص ٣٤٨، المختصر في اخبار البشر ٣/ ١٥٧، فوات الوفيات ١/ ٤٢٠، ثمرات الاوراق ص ٢٤، الغيث المسجم ٢/ ٧٨، ابن الوردى ٢/ ١٦٣.

٣٢ - هو: مظفر الدين كوكبورى بن زين الدين علي كوجك بن بكتكين.

٣٣ - ذيل مرأة الزمان ١/ ١٣٧

٣٤ - المصدر نفسه ١/ ١٥٧

٣٥ - الابيات مذكورة في ذيل مرأة الزمان ١/ ١٥٨، شفاء القلوب ص ٣٥٨

٣٦ - الايضاح في شرح المفصل قسم الدراسة ص ١٤.

٣٧ - شفاء القلوب في مناقب بني ايوب ص ٣٥١.

٣٨ - القصيدة في ذيل مراة الزمان ١/ ١٦١، النجوم الزاهرة ٦/ ٢٢٦، شفاء القلوب ص ٣٥٢.

٣٩ - المختصر في اخبار البشر ٣/ ١٦٥.

٤٠ - ذيل مراة الزمان ١/ ١٦٠، السلوك ١/ ٢٩٤.

٤١ - ذيل مرأة الزمان ١/ ١٦٤، شفاء القلوب في مناقب بني ايوب ص ٣٥٣

٤٢ - ذيل مرأة الزمان ١/ ١٦٥

٤٣ - شفاء القلوب في مناقب بنى ايوب ص ٣٥٢

٤٤ - وردت القصيدة في ذيل مرأة الزمان ١/ ١٦٧، كنز الدرر ٨/ ١٥ شفاء القلوب في مناقب بنى ايوب ص ٣٥٣.

٤٥ - شفاء القلوب في مناقب بنى ايوب ص ٣٥٤.

٤٦ - القصيدة بتمامها في ذيل مرأة الزمان ١/ ١٦٨ - ١٧٠

٤٧ - ذيل مرأة الزمان ١/ ١٧٠.

٤٨ - ذيل مرأة الزمان ١/ ١٧١.

٤٩ - ذيل مرأة الزمان ١/ ١٧٢، شفاء القلوب في مناقب نبى ايوب ص ٣٥٥.

٥٠ - لعلها محلة الخلفاء التى ينسب اليها رضى الدولة داود بن مقدام بن مظفر المحلي معجم البلدان ٥/ ٦٣.

٥١ - شفاء القلوب في مناقب بنى ايوب ص ٣٥٦.

٥٢ - الابيات في ذيل مرأة الزمان ١/ ١٧٣.

٥٣ - ذيل مرأة الزمان ١/ ١٧٤، شفاء القلوب في مناقب بنى ايوب ص ٣٥٧.

٥٤ - ذيل مرأة الزمان ١/ ١٧٤.

٥٥ - ذيل مرأة الزمان ١/ ١٧٤.

٥٦ - ذيل مرأة الزمان ١/ ١٧٥، شفاء القلوب في مناقب بني ايوب ص ٣٥٧.

المصـــادر والمراجــــع

١ - الاعلام لخير الدين الزركلي، الطبعة الثالثة بيروت، ١٩٦٩م.

٢ - الايضاح في شرح المفصل، قسم الدراسة، الدكتور موسى بناي العليلي مطبعة المجمع العلمي الكردي، بغداد ١٩٧٦م

٣ - البداية والنهاية في التاريخ، لابى الفداء ابن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ) مطبعة السعادة مصر.

٤ - تاريخ ابن الوردى، تاليف الشيخ زين الدين عمر بن الوردى (ت ٧٤٩ هـ) منشورات المطبعة الحيدرية، النجف الاشرف ١٩٦٩م

٥ - ثمرات الاوراق، لابن حجة الحموى (ت ٨٣٧ هـ) تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة ١٩٦٩م

٦ - ذيل مراة الزمان، موسى بن محمد اليونيني (ت ٧٢٦ هـ) طبعة حيدر اباد الدكن، الهند ١٩٥٥م

٧ - الشام (خطط الشام) تاليف محمد كردعلي، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٧١م

٨ - شذرات الذهب في اخبار من ذهب، عبدالحي بن العماد، (ت ١٠٨٩ هـ) نشر مطبعة القدسى القاهرة ١٩٥١م

٩ - شفاء القلوب في مناقب بنى ايوب، تاليف احمد بن ابراهيم (ت ٨٧٦ هـ) تحقيق ناظم رشيد، دار الحرية للطباعة بغداد ١٩٧٨م

١٠ - صبح الاعشي، لاحمدالقلقشندى (ت ٨٢١ هـ) المطبعة الاميرية القاهرة ١٩١٤م

١١ - طبقات الشافعية للاسنوى، تحقيق عبدالله الجبورى، مطبعة الارشاد بغداد ١٩٧٠م

١٢ - الغيث المسجم، لخليل بن ايبك الصفدى (ت ٧٦٤ هـ) المطبعة الازهرية، القاهرة ١٣٠٥.

١٣ - فوات الوفيات، محمد بن شاكر الكتبي (ت ٧٦٤ هـ) تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد. مطبعة السعادة مصر ١٩٥١م

١٤ - الكامل في التاريخ، لابن الاثير، المجلد الثاني عشر، مطبعة دار صادر ببيروت ١٩٦٦م

١٥ - كنز الدرر وجامع الغرر، لعبدالله بن ايبك الدواداري (ت ٧٣٦ هـ) تحقيق الدكتور سعيد عبدالفتاح عاشور، كتاب السلوك للمقريزى (ت ٨٤٥ هـ) مطبعة لجنة التاليف القاهرة طبعة ثانية ١٩٥٦م. نشر المعهد الالماني للآثار القاهرة ١٩٧٢م

١٦ - المختصر في اخبار البشر، لعماد الدين اسماعيل ابي الفداء، (ت ٧٣٢ هـ) الطبعة الاولى، المطبعة الحسينية القاهرة.

١٧ - معجم البلدان، لياقوت بن عبدالله الحموى، دار صادر للطباعة ببيروت ١٩٥٧م

١٨ - النجوم الزاهرة، يوسف بن تغري بردي (ت ٨٧٤ هـ) مطابع كوستاتسوماس وشركاه القاهرة.

١٩ - نقض المنطق لابن تيمية احمد بن عبدالحليم، تحقيق عبدالرزاق حمزة، مطبعة السنة المحمدية القاهرة ١٩٥١م

٢٠ - وفيات الاعيان، لابن خلكان (ت ٦٨١ هـ) تحقيق احسان عباس مطبعة دار الثقافة بيروت

قبيلة جرت

ودورها السياسي في تاريخ اليمن قبل الإسلام

الدكتور منذر عبدالكريم البكر
قسم التاريخ / كلية التربية
جامعة البصرة

قد لا تكون المعلومات حالياً وافية عن المراحل الأولى التى ادت الى قيام الدول في بلاد اليمن غير اننا نستطيع القول ان المجتمع في بلاد اليمن قد نظم نفسه منذ وقت بعيد جداً ، في شكل من اشكال التنظيم القبلى الذى يرأس فيه القبيلة رئيس او شيخ من ابنائها (١). الذين تربطهم روابط قوية كقول الشاعر مثلاً» لذلك .

ولم ار معشراً لبنى صريم — تلفهم التهائم والنجود
وأكثر ناشئاً مخراق حرب — يعين على السيادة او يسود

كما يبدو من النقوش التى عثر عليها في اليمن قوة الرابطة التى تربط ابناء القبيلة الواحدة (٢) .

ثم تطورت الملكية الزراعية حيث اسندت الى شيوخ القبائل واعطيت لهم الارض ليتولى زرعها . وكانت هذه الأرض تعطى في الأصل مقابل خدمة عسكرية . وقد يشترى الشيخ الأرض باسم القبيلة اذ يدفع عن الارض شيئاً محدداً كل سنة ، وتعطى عادة وثيقة لشيخ القبيلة تبين حدود الأرض ، كما توضح الواجبات المترتبة على ذلك وتبين هذه الوثيقة دور شيخ القبيلة . لان التعاقد تم عليها مباشرة بين الملك وشيخ القبيلة . ويكون الاخير مسؤولاً مسؤولية مباشرة تجاه الملك عن كل الالتزامات المتفق عليها . ويذكر، ج . ركمانس هذا بقوله : « ان القبائل المالكة كان يضاف اليها جماعات من قبائل اخرى (بقرار) كموالى تتولى الزرع حسب الحاجة ، وتعتبر جزءا من الكيان الكبير للقبيلة » (٣) ويعتقد ج. ركمانس ايضا « آن القبيلة ليست دائما من نسب واحد بل فيها اناس من مجموعات وشرائح مختلفة طبقاً لضرورة العمل واستغلال الأرض (٤) . وعلى هذا النمط يبدو اذن قيام النظام الاقطاعى او مانسميه « الاقيال » في اليمن . وبه تكونت صلات اقطاعية بين الملك وشيوخ القبائل (٥) .

ويبدو لنا ان هذا التحول الذى حدث في اليمن أدى الى زيادة قوة القبيلة وفعالية دورها السياسى . وبذلك اصبحت هذه الفترة المحصورة بين « قبيل نهاية فترة ملوك سبأ وفترة ملوك سبأ وذى ريدان » من الفترات القلقة في التاريخ السياسى لجنوب الجزيرة العربية . لانها عبارة عن تحول واضح وسريع في العلاقات الاجتماعية ، أدى الى ترسيخ انظمة اجتماعية جديدة . ومما زاد في ارباكها هو دخول الحصان بدلا من الجمل في الاستعمالات المختلفة . واثر ذلك تأثيراً واضحا على القرن . ويرى (دوستل) ان اهتماماً واضحاً قد شمل سروج الخيل ايضا كدلالة على اهتمامهم بها . اضافة الى ذلك كانت سرعة الحصان في الهجوم ووصوله لمسافات نائية عبر الصحراء مما جعل القوة العسكرية غير محصورة في الاراضي الزراعية فقط ، بل انتقلت الى الواحات والاراضي الرعوية . وبهذا ظهرت قوة عسكرية أخرى أثرت في الاحداث السياسية في البلاد وزادت من اضطرابها (٦). والمتصارعون في هذه الحروب هم زعماء القبائل والاذواء والاقيال . ولو نظرنا الى قائمة الملوك من فترة سبأ وذى ريدان نجد ان معظم القبائل وصلت الى الحكم ومن هذه القبائل قبيلة جرت .

— ٢ —

ذكر الهمداني في كتابه « صفة جزيرة العرب » مخلاف (٧) باسم مخلاف ذى جرت (٧). ويقول ايضا انه ينسب الى ذى جرت ابن يكلى بن مالك بن الحارث بن مره بن ادد (وهذا الاسم يذكر في الكتابات العربية الشمالية الصفوية) (٨)ابن زيد بن عمرو بن عريب بن زيد بن كهلان بن حمير. (٩) اما في النقوش فقد جاءت (جرت) على انها اقيال قبائل ذمرى حلفاء سمهرم . (١٠) وفي نقش آخر ذكرت (جرت) على انها من عشيرة سمهرم (١١). الواقع انه يتبين من دراسة النقوش التى اشارت الى (جرت) ان (جرت) اسرة واحدة من عشيرة سمهرم من قبيلة ذمرى . ويمكننا من دراسة النقوش ان نفترض نسب (جرت) كالآتى : جرت بن زبنور ابن تزاد بن سمهرم (يهولد) بن ذمرى (١٢). كما نفترض ان (جرت) هم سادة هذه القبيلة، لان معظم الاقيال على عشيرة سمهرم وقبيلة ذمرى كانوا من (ذى جرت) وقد وصل قسم منهم الى كرسى الحكم في اواخر فترة سبأ وفترة سبأ وذى ريدان . كما كان قسم منهم اقيالاً ومقتوين .

تقع بلاد (جرت) في الجنوب الشرقي من بلاد سمعى (شكل - ١) وهي تطابق بلاد سنحان اليوم (١٣). ويظهر ان سنحان ذى

جرت لها نفس الحدود السياسية ان صح التعبير (١٤) وجرت كما ذكرها ياقوت قرية من قرى صنعاء باليمن (١٥). اما البكرى فقال انها قرية باليمن (١٦). وكانت تقع في النتوء الشمالي من بلاد جرت مدينة (صنعو) قبل ان يكون لها مكانة مميزة (١٧) ويظهر ان (صنعو) كانت ضمن ارض قبيلة جرت ، غير انها كانت قريبة جداً من حدود ارض قبيلة (بتع). واما شعوب التي لا تبعد سوى كيلو متر واحد اوكيلومترين عن الجهة الشمالية الغربية من صنعاء فقد كانت في ارض (بتع) (١٨). أما في اقصى الجنوب فيقع جبل (كنن) (شكل - ٢) ويقول ياقوت : ١١ جبل كنن باليمن من بلاد خولان العالية ، عال يرى من بعد. وقال الصليحي :

حتى رمتهم ولو يرمي بهاكنن والطود من صبر لانهدّ اومادا (١٩)

وقيل ان على راسه قلعة يقال لها قيلة لبنى الهرس (٢٠). وهو في ارض متموجة يصل ارتفاعها الى ٢٥٠٠م فوق سطح البحر. اما الجبل فيكون ارتفاعه حوالى ٣٤٠٠ م ويعتبر هو أعلى جبل في المنطقة. وهو مركز امراء (جرت) (٢١). وعلى قمته يوجد مسجد. أما على سطح هذا الجبل فتقع مدينة (نعض). وفي الحقيقة تعتبر هذه المدينة مركزاً لقبيلة (جرت) (٢٢). وتقع على بعد ٣٣ كم الى الجنوب الشرقي من صنعاء وشرق الطريق العسكرى الى مدينة تعز.

كانت هذه المدينة مسورة ولها بابان. أما الحدود بين بلاد (جرت) وسمعى (٢٣). فهي تجرى في ارض سهلة والى الجنوب من صنعاء غير ان القسم الاعظم من هذه الارضين يعود الى قبيلة (جرت) (٢٤).

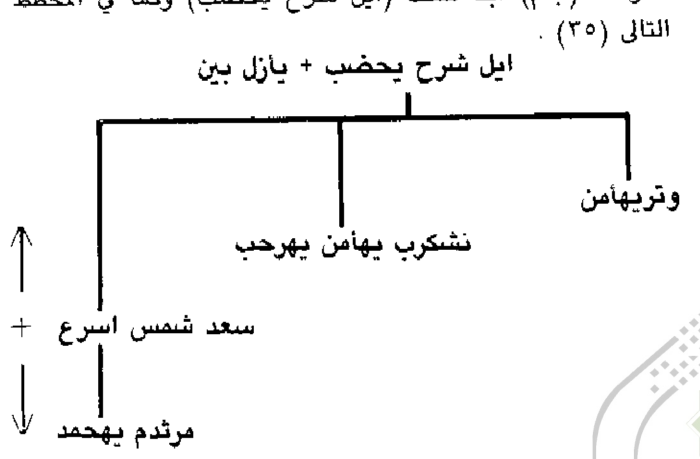
— ٤ —

يظهر ان قبيلة (جرت) برزت على مسرح الاحداث السياسية في حوالى سنة ٨٠ م (٢٥). وذلك لان هيبة الملوك في مأرب كانت قد ضعفت. ولان قوة امراء الاقطاع القبلي في مخلاف اليمن زادت. ثم كان زحف الحميريين وضغطهم، وهي اسباب ادت الى تفكك المملكة وضعف السلطة المركزية بها. وهناك نقوش همدانية تحدثت عن معارك خاضتها هذه القبيلة تحت قيادة امرائها الاقطاعيين ضد الحميريين وكذلك ضد الاحباش ايضا (٢٦). ومن خلال هذا الصراع الكبير تمخض في النجود وضع فريد. في هذا الوضع ظهر (نشاكرب يهأ من) الذى اختلف في اصله المهتمون بدراسة تاريخ العرب قبل الاسلام. اذ اعتبره بعض الدارسين من بين الملوك الذين جاؤوا في آخر الطبقة التى ملكت العصر المعروف «ملوك سبأ». وذهب بعضهم الى انه آخر من حكم من الأسرة الحاكمة السبئية التقليدية - فيشان - (٢٧) بسبب اسم والده (ذمر على ذرح) لأنه اسم شائع في هذه العائلة الحاكمة (٢٨). وقيل انه من قبيلة همدان لان (نشاكرب يهأ من) من الاسماء الهمدانية المعروفة (٢٩) وخالف غيرهم هذا الرأى، وقالوا انه من (بنى جرت) من قبيلة (سمهرم) وهم يشكون في كون ابيه كان ملكاً فعلياً على سبأ (٣٠).

ويظهر من النصوص التى تعود الى «الملك نشاكرب يهأمن» انه كان يقيم في قصر سلحين بمارب وهو مقر ملوك سبأ ومركز حكمه (٣١). والى عهده تعود الكتابة الموسومة CIH 573 والتى تشير الى انه قدم ٢٤ تمثالاً الى الالهة (شمس تنف بعلت غضرن) لسلامته وسلامة قصر سلحين وسلامة ممتلكاته. ولتذل وتسحق كل خصومه واعدائه وتجعله سعيداً هو وأهله (٣١). كما ذكرت الكتابة التى تعود الى عصره ولأول مرة اسم (ربن) اى الاعراب الذين هاجموا ارض سبأ.

وقد قدر الدكتور (جام) حكمه بين عام ١٧٥ - ١٦٠ ق.م (٣٢) اما (فلبى) فيرى انه حكم سنة ٢٥٠ ق.م (٣٣). وقال (فيزمان) انه حكم في حوالى سنة ٨٠ م (٣٤).

ويأتي في النقوش ذكر ملك باسم (نشاكرب يهأمن يهرحب) وقد افترضه (جام) ابناً للملك (ايل شرح يحضب) وكما في المخطط التالى (٣٥).

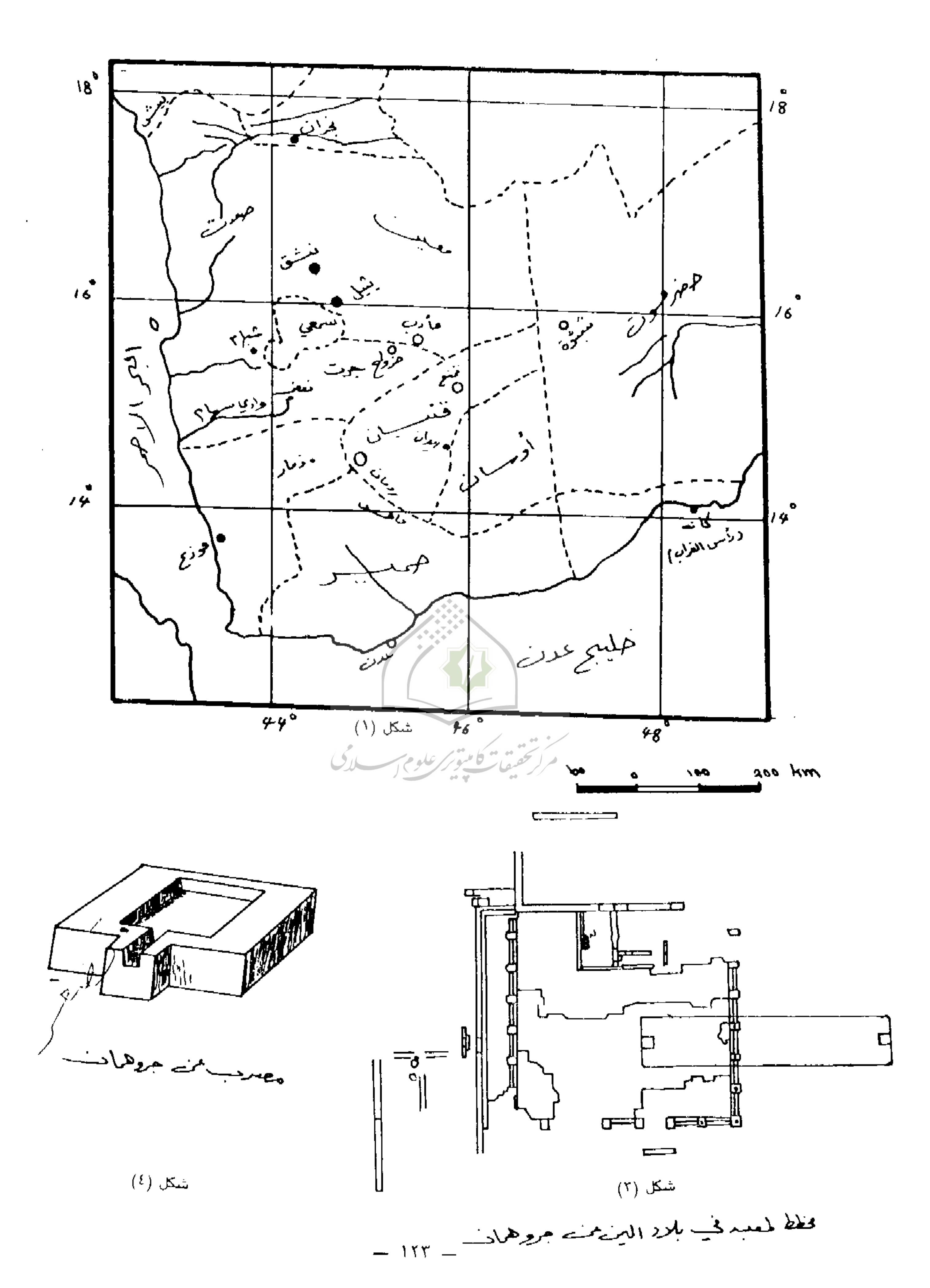


وذكر ان حكمه كان بين سنة ١٠ - ٢٠ م وجعله معاصراً للملك القتبانى (سهر هلل يهصدق) (٣٦). ولم ينسبه الى قبيلة (جرت). غير اننا نفترض انه من (جرت) بقرينة ان النقوش سبق وان ذكرت لنا ملكاً جرتياً باسم (نشاكرب يهأمن) كما يذكر النقش المرسوم (٦٧ زيد بن علي) (٣٧). المقتوى (نشاكرب الجرتى) قائد جيش (كرب ايل بين) ملك سبأ وذى ريدان ضد حضرموت (٣٨).

ثم برز من ملوك قبيلة (جرت) سعد شمس اسرع بن ايل شرح يحضب الاول وابنه (مرثد يهحمد). وقد كانا قيلين في عهد ابيهم (٣٩). والظاهر ان (ايل شرح يحضب الاول) تلقب بلقب ملك سبأ وذى ريدان بعد وفاة الملك (كرب ايل وتريهنعم) الذى يحمل نفس هذا اللقب. ويظن (فيزمان) ان الزوجة الثانية (لايل شرح يحضب الاول) هى ابنة الملك (نشاكرب يهأمن) (٤٠). لذلك تحولت الامارة بعد وفاة (نشاكرب يهأمن) في جرت وحصنها (كنن) الى الابن الثاني للملك (ايل شرح يحضب الاول) وهو (سعد شمس اسرع) (٤١). اذ بعد وفاة الابن الاول للملك ايل شرح يحضب الاول وهو (وتريهنعم) الذى حكم سنة ١٠٠ م (٤٢) ورث لقب ملك سبأ وذى ريدان سعد شمس اسرع، وابنه مرثد يهحمد.

بهذا الانتقال اصبحت (جرت) و (شبام اقيان) و (مرثد) في قبضة حاكم واحد وهو الملك سعد شمس اسرع، ملك سبأ وذى ريدان وابنه (مرثد يهحمد) ولاندرى كيف حدث هذا. ولانعرف له تفسيرا حاليا (٤٣).

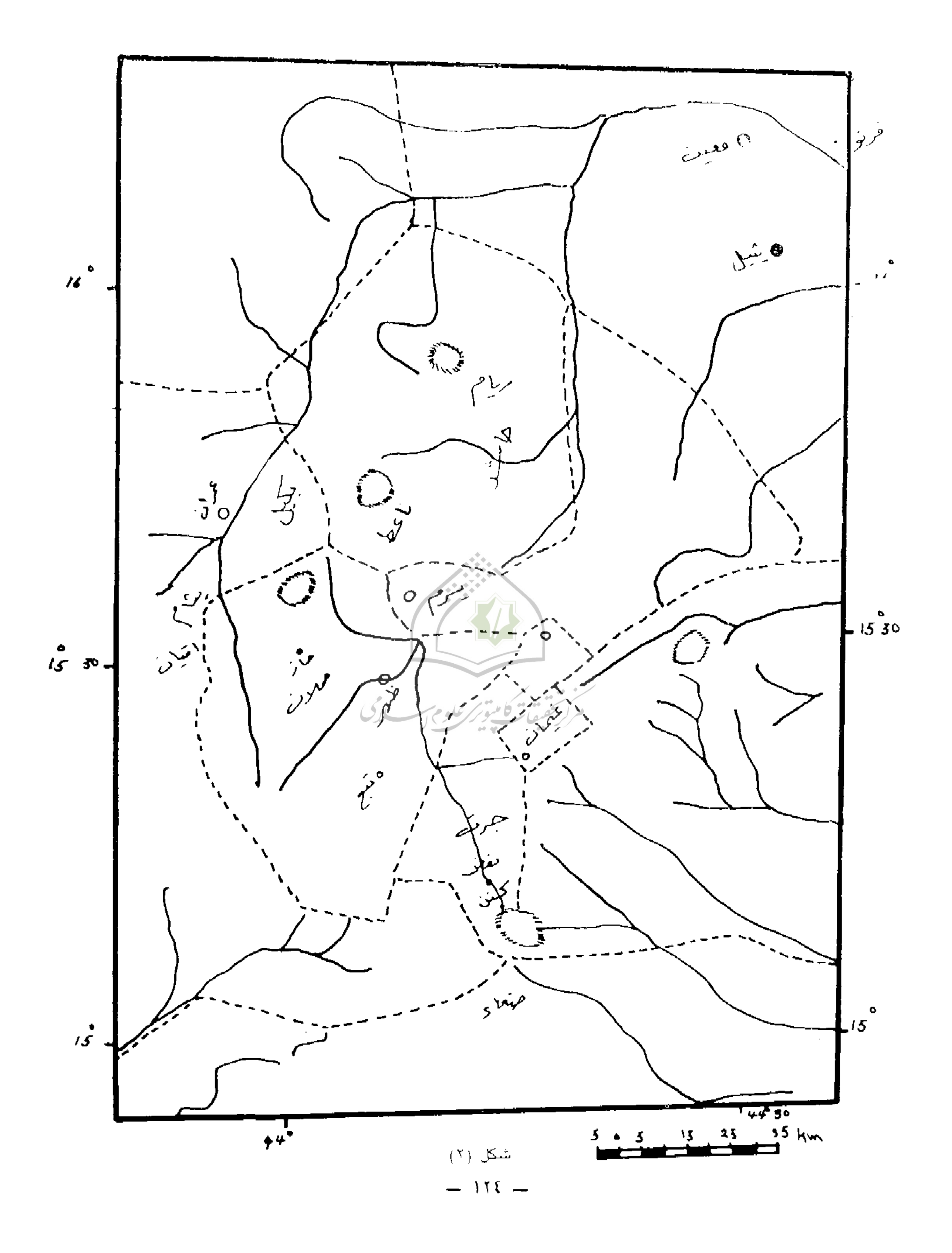
من المحتمل ان سعد شمس اسرع، جاء الى الحكم في سنة



شكل (١)

شكل (٤)

شكل (٢)



شكل (٢)

١١٠ م وكان يشاركه الحكم ابنه مرثد يهحمد، الذى حكم سنة ١٢٠ م (٤٤) بينما جعل (جام) حكمهما فيما بين سنة ٢٠ ـ ٣٠ م (٤٥).

كان (سعد شمس اسرع) وابنه (مرثد يهحمد) ملكى سبأ وذى ريدان من اشرس اعداء الملك (وهب ايل يحز) وتؤكد الكتابة الموسومة GL. 1228 هذا الموقف العدائى. اذ يحتفل الملك (وهب ايل يحز) ملك سبأ ورجاله للانتصار على ذمر على دوريدان (يهبرر) (٤٥). وكذلك على سعد شمس اسرع و (مرثدم م) (٤٦). انه يشير الى تحالف قبيلة (جرت) مع (حمير) ضد وهب ايل يحز وامراء قبيلة (سمعى) و (هوف عم) من مدينة (حاز) و (سخيم ثلثى (سمعى) (٤٧). و (ذوخولان) في قمة جبل (حضور النبى شعيب) الى الغرب من صنعاء. وهذه هى الاشارة الاولى لصنعاء (٤٨) وبعد فترة قليلة جداً ذكرت المدينة مرة أخرى فى النقش Ja. 629 والنقش Ja. 644 ويبدو فى هذا النص ان سعد شمس اسرع، وابنه مرثد يهحمد، وحليفهم الملك الحميرى (ذمر على يهبرر) لم يحصلوا على نصر حاسم ضد الملك وهب ايل يحز، واتباعه (٤٩). كما تعود الى الملك سعد شمس اسرع، وابنه مرثد يهحمد، نقوش اخرى اكتشفت فى مدخل بلاط (محرم بلقيس) غير ان معظمها لا يحتوى على معلومات تاريخية مثل Ja. 626'630'628'627 (٥٠) غير ان النقش الوحيد من المجموعة والذى له أهمية تاريخية هو النقش المعروف Ja. 629 وهو يصف لنا حرب هذين الملكين ضد التحالف الشمالى المكون من (يدع ايل) (٥١). ملك حضرموت و(نبا عم) ملك قتبان و (وهب ايل بن معاهر) و (خولان) و (ذو هصبح) و (مضحيم) و (ردمان) و (انس) وربما يقصد هنا أناسا أخرين واعرابا اى البدو (٥١).

غير ان اسباب هذه الحرب غير معروفة لنا الآن (٥٢). وقد سجل هذا النقش (مرثدم) حيث سقط لقبه فى النقش، ولم يبق الا الحرف الأول منه وهـو (ى) مع ابنه (ذرحن) او (ذرحان اشوع) من (جرف) وقد دارت الحرب فى ارض (ردمان) قرب العاصمة (وعلان) التى تقع على بعد ٩٠ كم جنوب غرب تمنع (٥٣).

يذكر النقش ان (ذرحان) كان قائدا لوحدة قبائل (فيشان) و (يهبعل) وانه احتل بالاشتراك مع الملكين مدينة (حلزوم) ومدينة (مشرقتين) كما دمروا ونهبوا وخربوا الأودية والآبار ونظم الرى. كذلك يشير النقش الى ان الملكين قاما بحملة على مدينة (منوبم) وكل مدن ومصانع قبائل (اوسان). كذلك احتلا مدينة (شيعان) ومدينة (بن بدا) ووادى منوبم من الأودية التى تصب فى وادى حضرموت فى غرب، الحوطة التى تقع على مسافة ٢٠ كم من جنوب شرقى (شبام). وأما (شيعان) فتقع على مسافة ٨٠ كم جنوب (تمنع).

ثم يختتم النقش بانه، بالرغم من النجاح الذى اصابه ملكا سبأ الا ان النتيجة النهائية للحملة كما يبدو كانت اقل بريقاً، وذلك بالنسبة للوضع الخطر الذى تعرض له (ذرحان اشوع) ورفيقه (ريشم يعرر). فان النقش سجل الشكر لحماية آلهتهم (المقه) ومساعدتها فقد نجحوا هم ومليكيهم بعد قتال رهيب من شق طريق لهم الى موطنهم سالمين. وكان كاتب النقش (مرثدم) غير مشترك بالحرب وانما كان في مدينة صنعاء. وربما كان ذلك لحمايتها. كما كلف المليكا خمسة اقيال آخرين لحماية مدينة (الرحبة) وتقع هذه المدينة على مسافة ٢٠ كم شمال شرقى صنعاء (٥٤).

ويشير النقش الخامس من مجموعة الكهالى الى نجاح الملك سعد شمس اسرع، وابنه مرثد يهحمد، ملكى سبأ وذى ريدان في غزو ارض (ردمان ونصره على (يدع ايل) ملك حضرموت و (وهب ايل المعاهرى) (٥٥).

غير اننا لا نعرف كيف انتهى حكم الملك سعد شمس اسرع، وابنه مرثد يهحمد، وربما كان (رب شمس نمران) ملك سبأ وذى ريدان من قبيلة (بتع) والذى حكم في مأرب قد ابعد السلالة من الحكم (٥٦). لكن لم ينته الدور السياسى لقبيلة (جرت) وبقى لها دور مميز على مسرح الاحداث السياسية، ففى النقش الموسوم (643 bis JA. 643) و (JA 629)يشرح الكاتب دور (الجرتى نشاكرب) و (توبان) اقيال شعب (سمهرم) (٥٧).

ان من الامور المهمة فى تاريخ هذه القبلة الدور القومى الذى لعبته فى تاريخ اليمن خصوصا عندما كان هناك خطر يهدد الوجود العربى (٥٨)، ففى النقش الموسوم (٣٠ مجموعة الكهالى) اشارة الى انتصار الملك (نشاكرب يهأمن يهرحب) ضد الأحباش الذين استغلوا فرصة الصراع الداخلى فى اليمن. غير انهم عادوا خائبين بعد ان سقط عدد منهم فى الأسر (٥٩).

كما يوضح النقش الموسوم (٢٦ زيد بن على) الدورى المتميز لاقيال (جرت) وهم (كرب عثت يدفت) (سعد عثتر يسكب) فى الحرب التى خاضوا غمارها ضد الأحباش الغزاة وقبائل عك التى يحتمل انها قد اجبرت من قبل الأحباش للدخول فى الحرب الى جانبها. غير ان قبيلة (جرت) استطاعت بقيادة اقيالها القضاء على جيش الاحباش وعادوا بالغنائم فقدموا الشكر للآلهة، لانها منت عليهم بالأموال والثروة حتى تمكنوا من تشييد الأبنية وزخرفتها فى مدينة (نعض) الجريبة. وكان ذلك فى عهد الملك (ايل شرح يحضب) واخيه (يأزل بين) ملكى سبأ وذى ريدان (٦٠).

وبجسد لنا النقش الموسوم ja. 631 والذى كتبه القيل الجرتى (قطبان اوكن) ما قامت به قبيلته ضد الاحباش الذى اعلنوا الحرب على الملك (شعرم اوتر) في البحر وفي اليابسة (٦١) وردهم على اعقابهم ثم هاجم ارض الحبشة والملك (جدرت) ملك الحبشة واقسوم (٦٢) مما نستدل به على انه ركب البحر وهاجم الساحل الافريقى وانتصر على النجاشى وعاد سالما ثم يصور لنا النقش المعارك التى وقعت بين مدينة (نعض) ومدينة (ظفار) التى تقدم نحوها (بيجت) ولـد النجاشى (٦٣) ثم كيف باغتهم ليلا فذعر الاحباش والتجؤوا الى حصن وسط مدينة (ظفار) بعدها عزز جيش (قطبان اوكن بقوات لعزز يهنف يصدق) ملك سبأ وذى ريدان وقايل قبائل (ذى ريدان) وقضوا على الاحباش في وسط المدينة (٦٤). وفي اليوم الثالث يبدأ (قطبان اوكن) بتعقب الاحباش ومعه بعض رماة المعافريين بحيث يجلبون معهم اسرى معسكرهم (٦٥). ثم انسحب بعد ذلك الاحباش من انحاء ظفار (٦٦).

من الامور المهمة في هذا النص ان (قطبان اوكن) استجاب لنداء الاستغاثة من الحميرين المحاصرين في ظفار من قبل الاحباش ولم

يكن هذا تنفيذا لاوامر (شعرم اوتر) (٦٧). نستدل من ذلك ان الواجب القومي هو الذي املا عليه الموقف في نجدة الحميرين ابناء عمومته.

وقد استمر الدور السياسي لقبيلة (جرت) الى عهد الملك (شمر يهرعش) ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنات. فقد اشار النقش الموسوم ja. 650 الى (بله اسعد) من عشيرة (جرت) اقيال (ذمري) والتي تكون ربع قبيلة (سمهرم) (٦٨). وكان (مقتوى) في الجيش اي ضابطا كبيرا (٦٩). وقد تحدث عن معارك وقعت في ارض (سهرتان) بين الملك (شمر يهرعش) وبين قبيلة (سهرتان) (٧٠).

ولم اجد بعد هذا النقش اشارة الى قبيلة (جرت) اذ يبدو ان دورها السياسي قد اضمحل وادمجت مع القبائل الأخرى وربما كان هذا من نتائج التعبير الذي حدث في طبيعة المجتمع العربي الجنوبي.

ـ ٥ ـ

ان الاله القومي الذي عبدته قبيلة (جرت) هو الاله الشمس (٧١). (شمس تنف بعلت غضرن) (٧١). والواقع ان العرب خصوا الشمس بالأولوية في عبادتهم وسميت لما عبدوها الاهمة. قالت ميه بنت ام عتبة:

تروحنا من العلباء عصراً فاعجلنا الالهة ان تؤوبا
على مثل ابن ميه فانعياه تشق نواعم البشر الجيوبا (٧٢)

ويرى (نلسن) ان اسم الالهة الشمس اسم فطري وهو احد الاسماء التي لاتحمل اي معنى عقلي للمعبود. بل تصفه كما هو في الطبيعة. ويشير بذلك ايضا الى بقية الشعوب العربية (السامية) (٧٣). غير اننا لا نتفق معه في هذا الرأي. ونعتقد ان عبادة الشمس عند العرب انما هي عبادة لها معان عقلية سواء في نسكهم لها او ما ترمز اليه الشمس عند العرب من الوحدة والقوة والذكاء (٧٤) ان اسم شمس من الاسماء الشائعة في كل شبه جزيرة العرب حتى لقدقيل ان الاسم الذي نجده في كل ارض العرب هو اسم شمس (٧٥). ويبدو ان اقدم اشارة لاستعمال العرب لهذا الاسم كاسم علم ذكر في حوليات الاشوريين (٧٦). كما ذكرت النقوش الجنوبية اسم شمس كعلم (٧٧).

ويأتي اسم الالهة الشمس في جنوب الجزيرة العربية باسماء مركبة مثل (ذات حميم، ذات بعدن، ذات غضرن، ذات برن، ذات صخرن، ذات زهرن وذات محرضو ومشرقتن (٧٨).

وقد رمز العرب للشمس بالنسر لسيادته وهيمنته لان النسر يحلق عاليا في كبد السماء كما تفعل الشمس في مدارها فيراقب من علو ما يحدث على سطح الارض (٧٩).

وخصص العرب احسن البنايات واضخمها (شكل ـ ٣١) لتكون اماكن ومعابد لتمجيد ألهتهم حتى ذكر انه في بلاد العرب توجد معابد كثيرةً جداً، وعلى سبيل المثال ما ذكره (بيلينوس) بان مدينة (شبوه) وحدها تحتضن ٦٠ معبداً (٨٠).

وكانت المعابد مربعة او مستطيلة (٨١). ومكعبة. وان كان التكعيب هو الاسلوب الشائع عند العرب كافة. فقد كانت بيوت الاصنام عندهم مكعبة وكذلك المعابد التي شيدوها الى الاله الشمس في سوريا والعراق (٨٢). وتضم هذه المعابد صحنا واسعا تعقد كما يبدو فيه الاجتماعات وتقام الولائم والاحتفالات والاعياد (٨٣). غير اننا لانعرف عن التأثيث الداخلي للمعبد الا الشيء القليل. كما اننا لانستطيع القول ان العرب القدماء كانوا يضعون في كوه Nisehe المعبد تمثالا للالهة. غير ان (جروهمان) يعتقد جازما انه لا توجد تماثيل للالهة في المعابد وانما يرمز اليها بحيوان مقدس (٨٤).

وفي هذه المعابد توجد مذابح (مذبحت) وهي على اشكال مختلفة اذ يضحى عليها بالحيوان حتى اذا كان كبيرا كثور مثلا. وهو مربع الشكل من المرمر غير انه مسطح طوله ٤ / ٦٦ سنتم، وعرضه ٩ / ٢٧ سنتم وارتفاعه ٧٠ / ١٧ سنتم ويوجد مجرى مربع الشكل ايضا يجرى فيه دم الفدية او القربان (٨٥). كما يضم المعبد مكانين للقرابين احدهما للحرق ويسمى (مختن) (٨٦). كما يسمى ايضا (مصرب) (شكل ـ ٤) وثانيهما لدم الأضحية ويسمى (منطفت) (٨٨). اما المباخر التي يحرق بها البخور من المتلمسين فيسمى (مقطر) (٨٩).

كما ان هناك ما يشير الى ان مقدمي النذور او المعترفين بذنوبهم كانوا يتطهرون في اماكن خاصة في المعبد (٩٠). ولا يجوز ان يدخل الانسان المعبد بأثواب نجسة فهو ان فعل يجب عليه ان يدفع الفدية او الكفارة. كما انه لا يسمح له بأن يفعل منكرا كان يأتي زوجته في الأوقات الممنوعة ويدخل المعبد. فان فعل عليه دفع الفدية وطلب الصفح من الاله والاله هنا الشمس. فاما ان يغفر له او ان تؤكد العقوبة عليه حسب النظام الاجتماعي السائد في تلك الفترة (٩١).

ويبدو ان الاعتراف بالذنب كان من الأمور التي تتطلب شجاعة اخلاقية عالية وتشهد بانصياع الانسان المطلق في طاعة الاله (٩٢). وهذا يدل على تطور العرب القدماء من الناحية الدينية والفكرية.

ويبدو لي ان العرب القدماء كانوا يسجدون الشمس فقد جاء في القران الكريم قوله سبحانه وتعالى: « **ومن اياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن ان كنتم اياه تعبدون** » (٩٣). كذلك فعل أهل سبأ اذ جاء في القران الكريم قوله سبحانه وتعالى: « **وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان اعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون** » (٩٤). ويظهر ان العرب كانوا يصلون للشمس ثلاثا اذا طلعت سجدوا كلهم لها وكذلك اذا غربت واذا توسطت الفلك (٩٥). ونفهم من ترجمة رقيقة الثقفية انهم كانوا يصلون صلاة شبيهة بصلاة المسلمين. اذ يقال ان الرسول صلى الله عليه وسلم اوصى امراة من ثقيف اسلمت على غير علم من قومها. فقال لها صلى الله عليه وسلم: « لا تعبدى طاغيتهم، ولا تصلى اليها » قالت اذن يقتلوني، قال: « اذا جاؤوك فقولي ربي رب هذه الطاغية ووليها ظهرك اذا صليت » (٩٦).

ونلاحظ حتى التقويم عند العرب تقويما شمسيا (٩٧). وأشهرهم مشتقة من الطبيعة فهي تتعلق بالحر والبرد والنمو (٩٨).

وكان لهذه المعابد سدنتها، والسادن كالحاجب في خدمة المعبد (٩٩). ويبدو ان هذه الوظيفة كانت وراثية وفي اسر معينة كما هي في السلالة السفيرية العربية الحمصية التي حكمت روما (١٠٠) وبنو عبدالدار في مكة (١٠١ وقد ذكر في نصوص المسند اسم (رشوت) بمعنى رجل الدين. وجاء في النصوص السبايئة ـ القتبانية باسم (رشو) و (شوع) وفي النصوص الحضرمية باسم (رشو) (١٠٢).

وكان للكاهن واجبات كثيرة ضمن الديانة العربية القديمة (١٠٣).
من هذا نرى ان لاله الشمس الذى عبدته قبيلة (جرت) مكانة مميزة عند العرب حتى فلاسفة الأفلاطونية الجديدة من العرب (١٠٤).

قـائمة بأسماء الملوك من قبيلة جـرت

١ ـ نشاكرب يهأمن .
٢ ـ نشاكرب يهأمن يهرحب ...
٣ ـ سعد شمس اسرع
٤ ـ مرثد يهحمد .
٥ ـ فرعـم ينهـب *
٦ ـ مرثـد يهقبـض *

* انظر جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، بيروت ٤٩٣/٢
* م . ن ٣٦٠/٢

قائمة بأسماء اقيال ومقتوين من قبيلة جرت

١ ـ قطبان اوكان
ـ فترة حكم الملك شعرم اوتر ملك سبأ وذى ريدان .
٢ ـ كرب عثت يهدف
ـ فترة حكم الملك ايل شرح يحضب ملك سبأ وذى ريدان .
٣ ـ سعد عثتر يدف
٤ ـ نشاكرب الجرتى
ـ فترة حكم الملك كرب ايل بين ملك سبأ وذى ريدان .
٥ ـ ثوبـان الجـرتي
٦ ـ ابو كرب اصحح
ـ فترة حكم الملك نشاكرب يهأمن يهرحب ملك سبأ وذى ريدان
٧ ـ بهل اسعد الجرتى
ـ فترة حكم الملك شمر يهرعش ملك سبأ وذى ريدان وحضرموت ويمنات .

الهوامش

A. Grohmann, Arabien, P. 21
١ ـ وراجع ايضا : ى . ا . بلييايف العرب والاسلام والخلافة العربية . ص ١٠٠
٢ ـ يرى بلييايف ان هذا الترابط القبلي هو تحالف سياسى اوتحاد انظر . بلييايف . المصدر السابق . H.stj. B. Philby, The Background of Islam, P. 10
٣ ـ احسن من كتب حول هذا الموضوع هو . ج . ركمانس فى كتابة الموسوم :
L'institution Monarchique en Arabia Meridional avant L'islam. PP. 178-182
٤ ـ نقلا عن الدكتور عبدالعزيز الدوري . مقدمة فى التاريخ الاقتصادى العربي ص ٢٥
٥ ـ المصدر نفسه .
٦ ـ J. Rackmans, Op.Cit. pp. 337-338
٧ ـ المخلاف عند اهل اليمن عبارة عن قطر واسع . راجع . ابن مجاور . صفه بلاد اليمن ص ١٧٠ وراجع ايضا ما كتبه مولر حول هذا الموضوع :
D.H. Mu"ller, Kritische Beitra"ge Zur Su"darabischen Epigraphik. PP. 8-10
٧ ـ الهمدانى . صفة جزيرة العرب . ص ١٤٩
٨ ـ راجع :
W. Caskel, Gamhart An-Nasab, Das genealogische des, Ibn al-Kalbi. P. 70
٩ ـ الهمدانى . الاكليل ١٠/١ ـ ٤

١٠ ـ مطهر الاريانى : فى تاريخ اليمن ص ٣٢ ، ص ١١٦
١١ ـ A-Jamme, Sabaean inscriptions, P. 279
وراجع ايضا : محمد عبدالقادر بافقية : تاريخ اليمن القديم ص ١٢٢
١٢ ـ انظر : زيدين علي عنان . تاريخ حضارة اليمن القديم ص ٢٥١ ومطهر الاريانى . فى تاريخ اليمن ص ١١٦
١٣ ـ الهمدانى : صفة جزيرة العرب . ص ١٤٩ وراجع ايضا ماكتبه هرمان فون فيزمان فى كتابه : Zur Geschichte und Landeskunde von Alt-Su"darabien, P. 366
١٤ ـ H. von Wissmann, Op.Cit. P. 366
١٥ ـ ياقوت الحموى : معجم البلدان ١١٩/٢
١٦ ـ البكرى : معجم ما استعجم ٢٧٥/٢
١٧ ـ H. von Wissmann, Op.Cit. P. 367
١٨ ـ H. von Wissmann, Himyar, Ancient History, P. 461
١٩ ـ ياقوت الحموى : معجم البلدان ٤٨٤/٤
٢٠ ـ المصدر نفسه ٤٨٥/٤
٢١ ـ H. von Wissmann, Zur Hesckichte. P. 329 P. 367. P. 368
٢٢ ـ Ibid. P. 368
٢٣ ـ راجع الهمدانى : صفة جزيرة العرب . ص ١١٠ ص ١٨٢
٢٤ ـ H. von Wissmann, Op.Cit. P. 368
٢٥ ـ Ibid. P. 367 وراجع ايضا
H. von Wissmann, Himyar, Ancient history. P. 444
٢٦ ـ راجع H. von Wissmann, Zur Geschichte. P. 321
وقارن ذلك مع ما ذكره محمد عبدالقادر بافقية : تاريخ اليمن القديم ص ٩٠
٢٧ ـ H. von Wissmann, Himyar, Ancient History, P. 455
٢٨ ـ H. von Wissmann, Zur Geschichte, P. 393
٢٩ ـ A. Jamme, Op.Cit. P.272
٣٠ ـ Ibd. P. 273
٣١ ـ Ibid. PP. 269-271 واليه تعود النقوش CIH 433 'Ja. 561 'Ja. 559,
٣٢ ـ Ibid. P. 391
٣٣ ـ H.Stj. B.Philby, Op.Cit. P. 142
٣٤ ـ H. von Wissmann, Zur Geschichte, Tapel. II.
٣٥ ـ A. Jamme, Op.Cit. P. 391
٣٦ ـ Ibid
٣٧ ـ زيد بن علي عناد : تاريخ حضارة اليمن القديم ص ٣٣٦
٣٨ ـ H. von Wissmann, Himyar, Ancient History, P. 466
٣٩ ـ H. von wissmann, Zur Geschichte, P. 367
٤٠ ـ Ibid
٤١ ـ Ibid
٤٢ ـ وقد قدر (جام) تاريخ حكمه بين ٥ ق . م و ١٠م . راجع A. Jamme, Op. Cit. P. 391 وكذلك H. von Wissmann, Op. Cit. P. 394
٤٣ ـ H. von Wissmann, Op.Cit. P. 394
٤٤ ـ Ibid
٤٥ ـ A. Jamme, Op.Cit. P. 391
٤٥ ـ (ذمر علي) الذي جاء فى هذا النص بصيغه (ذمر علي ذوريدان) يقصد به (ذمر علي بهبر) وليس كما ذهب ركمانس فى كتابه (La Chronologie) المطبوع فى استنبول سنة ١٩٦٤ بانه (ذمر علي ذرح) من سلالة مارب للتفصيل راجع :
H. von Wissmann, Op. Cit. P 412
٤٦ ـ H. von Wissmann, Himyar, Ancient History, P. 460
٤٧ ـ ويبدو ان هذا المصطلح ظل مستعملا حتى فى العصول الاسلامية كقول جرير . كانت حنيفة اثلاثا فثلثهم من العبيد وثلث من مواليها .
٤٨ ـ H. von Wissmann, Op. Cit. P. 461
٤٩ ـ Ibid.
٥٠ ـ A. Jamme, Op. Cit. PP. 269-272
٥٠ ـ (يدع ايل بين بن اب غيلان) ويذكر (جام) اننا نعرف حاليا ثلاث اشخاص مختلفين يحملون اسم (يدع ايل) A. Jamme, Op.Cit. P. 327
٥١ ـ (نبط عم يهنعم بن شهر هلل يهقبض) الذي حكم بين ٢٠ ـ ٣٠ م . راجع
H. von Wissmann, Himyar, Ancient History, P. 464
٥١ ـ Ibid. P. 129 وراجع ايضا H. von Wissmann, Zur Geschichte. P.58

٥٢ _ A. Jamme, Op.Cit. P.342

٥٣ _ H.von Wissmann, Himyar, Ancient History, P. 464

٥٤ _ A. Jamme, Op. Cit. P. 129

٥٥ ـ مطهر علي الارياني : في تاريخ اليمن ص ٢١ ـ ٢٤ ويذكر في النقش السادس من نقوش عربية جنوبية للدكتور يحيى خليل نامي اسم الملك كما يأتي ذكر الاله القومي لقبيلة (جرت) راجع . د . يحيى خليل نامي : نقوش عربية جنوبية ص ٢٥ (مجلة كلية الآداب)

٥٦ _ H.von Wissmann, Op.Cit. P. 466

٥٧ _ A. Jamme. Op.Cit. P. 348

٥٨ ـ راجع : د . منذر البكر : الحس القومي عند العرب قبل الاسلام . ص ٦٥ ـ ٦٩ (مجلة افاق عربية السنة العاشرة العدد ـ ١ ايلول ١٩٨٤)

٥٩ ـ مطهر الارياني : في تاريخ اليمن ص ١١٢

٦٠ ـ زيد بن علي عنان : تاريخ حضارة اليمن القديم ص ٢٥١

٦١ ـ النقش Ja. 631 السطر ٧ ـ ٨

٦٢ ـ السطر ١٥

٦٣ ـ السطر ٢١

٦٤ ـ السطر ٢٥ ـ ٢٥

٦٥ ـ السطر ٣٦

٦٦ ـ راجع ما ذكره محمد عبدالقادر بافقية تاريخ اليمن القديم ص ١٢٦ وكذلك
H. von Wissmann, Zur Geschichte, P. 55
A.Jamme, Op. Cit. P. 154

٦٧ ـ المصادر نفسها

٦٨ _ a. Jamme, Op. Cit. P. 154

٦٩ ـ يرى (بيستن) انه ليس بالضرورة ان يكون (مقتوى) له دلالة عسكرية .
A.F.L. Beeston, Problems of Sabaean Chronology. P. 54
وقارن مع ما ذكره (جروهمان) في كتابه الموسوم (Arabien) الصفحة ١٣١

٧٠ _ A. Jamme, Op. Cit. P. 270

٧١ _ H. Winkel, Sams-Go"ttin (ZDMG Bd. 54) PP. 414-417
ويعتقد قلها وزن ان الاسماء العربية للكواب قليلة جدا لان معظم الاسماء يونانية .
J. Wellhausen, Reste Arabischen Meidentum. P. 173
وقارن مع ما ذكره هومل حول نفس الموضوع ويبدو لي ان ملاحظته لابد من الرجوع اليها
F. Mommel, Ueber den Ursprung und das Alter der arabischen Sternnamen und insbesondere der Mondstationen (ZDMG BD. 45) PP. 408-420.

٧١ _ A. Jamme, Op. Cit. P. 270

٧٢ ـ ابن منظور . لسان العرب ١٣/٤٦٨

٧٣ ـ دتيلف نلسن التاريخ العربي القديم ص ١٩٢

٧٤ ـ د . خليل احمد : مضمون الاسطورة في الفكر العربي ص ٧٦ وربما يقصد بالشمس ايضا . السرعة يذكر ابن الكلبي . ان اليعبوب صنم لجديله طي واليعبوب في اللغة الفرس السريع الطويل . كتاب الاصنام تحقيق احمد زكي القاهرة (١٩٦٥) ص ٦٣ .

٧٥ ـ ديتلف نلسن : التاريخ العربي القديم ص ١٨٨ ومن الأفضل ايضا الرجوع الى كتاب المحبر لابن حبيب ص ٣١٢ وابن دريد . الاشتقاق تحقيق عبدالسلام محمد هارون القاهرة (١٩٥٨) ص ٧٣ ـ ٨٣ ص ٩٨ ص ٤١٦ ص ٥١٠ و
A. Grohmann, Op. Cit. P. 60

٧٦ _ Lexikom Assyriologie Vol. 1. P. 125

٧٧ ـ مثل سعد شمس الجرتي ٨ النقش GL. 1228 والنقش CIH. 360+598 راجع
A. Jamme, Op.Cit. P. 341 P. 349

٧٨ ـ راجع H. Winkel, Sams-Go"ttin. P. 414. A. Grohmann, Op.Cit. P. 245

٧٩ ـ د . احمد خليل : مضمون الاسطورة في الفكر العربي ص ٤٤ . فؤاد سفر . الحضر مدينة الشمس ص ٢٤٥

٨٠ _ A. Grohmann, Op. Cit. P. 247

٨١ _ Ibid. P. 157

٨٢ ـ فؤاد سفر : الحضر مدينة الشمس ص ٤٢

٨٣ _ A. Grohmann, Op. Cit. P. 166

٨٤ ـ Ibid. P. 247 وقارن مع ما ذكره الحوت . في طريق الميثولوجيا عند العرب ص ٩٣

٨٥ _ A. Grohmann, Op.Cit. 247

٨٦ _ Ibid.

٨٧ _ Ibid. P. 248

٨٨ _ Ibid. P. 251

٨٩ _ Ibid. P. 248

٩٠ _ W. Caskel, Das Altarabische Ko"nigreich Lihjan, P. 13

٩١ _ A. Grohmann, Op. Cit. P. 252

٩٢ _ Ibid

٩٣ ـ سورة فصلت اية ٣٧

٩٤ ـ سورة النمل ايه ٢٤

٩٥ ـ الألوسي . بلوغ الارب في معرفة احوال العرب ٢/٢١٦

٩٦ ـ نقلا عن الدكتور مصطفى جاووك : الحياة والموت في الشعر الجاهلي . ص ٤٤ وكان العرب يطوفون حول البيت غير ان لهم تلبية خاصة بعبادتهم للشمس فيقولون :

لبيـك اللهـم لبيـك
مانهارنا نجره ادلاجه وجره
لا نتقى شيئا ولا نضره
حجـا لرب مستقيم بره

راجع : ابن حبيب . المحبر ص ٣١٢

٩٧ ـ البيروني : الاثار الباقية عن القرون الخالية ص ٣٢٥
J. Wellhausen, Op.Cit. P. 69

٩٨ _ J. Wellhausen, Op. Cit. P. 69

٩٩ ـ ابن منظور : لسان العرب ١٢/١٠٧

١٠٠ _ F. Altheim-R.Stiehl, Die Araber in der alten Welt Vol. III. PP. 134-135

١٠١ ـ ابن منظور لسان العرب ١٣/١٠٧

١٠٢ _ A. Grohmann, Op.Cit. P. 249

١٠٣ ـ راجع عن ذلك J. Wellhausen, Op. Cit. P. 136

١٠٤ ـ تفصيل عن ذلك راجع : د . منذر البكر : في الميثولوجيا العربية . الشمس في عبادة العرب قبل الاسلام (مجلة كلية التربية) العدد الرابع ١٩٨١ ص ١١٧ ـ ١١٩

المصادر العربية :

١ ـ ابن حبيب . المحبر . منشورات المكتب التجاري بيروت

٢ ـ ابن منظور . لسان العرب . دار صادر بيروت ١٩٦٨

٣ ـ الارياني ، مطهر في تاريخ اليمن . القاهرة ١٩٧٢

٤ ـ الالوسي ، محمود شكري . بلوغ الارب في معرفة احوال العرب . ط . الثالثة القاهرة ٤٢ ١٩

٥ ـ البكري . معجم ما استعجم . ط . الأولى . القاهرة ١٩٤٥

٦ ـ البيروني . الاثار الباقية من القرون الخالية . ط . لايبزك ١٩٢٣

٧ ـ الحموي ، ياقوت . معجم البلدان . ط . دار صادر . بيروت ١٩٥٧

٨ ـ الحوت ، محمد سليم . في طريق الميثولوجيا عند العرب . بيروت ١٩٥٥

٩ ـ الدوري ، د . عبدالعزيز . مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي بيروت ١٩٦٩

١٠ ـ الهمداني . الاكليل . الجزء العاشر . تحقيق محب الدين بن الخطيب القاهرة ١٣٦٨

١١ ـ ....صفة جزيرة العرب . تحقيق الاكوع الحوالي . الرياض ١٩٧٤

١٢ ـ بافقية ، محمد عبدالقادر . تاريخ اليمن القديم . بيروت ١٩٧٤

١٣ ـ بلييف ، ى . ا . العرب والاسلام والخلافة العربية . ترجمة د . انيس فريحة ـ بيروت ١٩٧٣

١٤ ـ جاووك ، د . مصطفى . الحياة والموت فى الشعر الجاهلى بغداد ١٩٧٩ .

١٥ ـ خليل ، د . خليل احمد ، مضمون الاسطورة فى الفكر العربى . بيروت ١٩٧٣

١٦ ـ سفر ، فؤاد ومحمد على مصطفى . الحضر ، مدينة الشمس بغداد ١٩٧٤

١٧ ـ عنان ، زيد بن على . تاريخ حضارة اليمن القديم . ط . المطبعة السلفية القاهرة ١٣٩٦

١٨ ـ نلسن ، ديتلف . التاريخ العربى القديم . ترجمة د . فؤاد حسنين القاهرة ١٩٥٨ .

1) Altheim, F.-Stiehl, R., Die Araber in der alten Welt. Vol. I-V. Berlin. 1966-1969.

2) Beeston, A.F.L., Problems of Sabaean Chronology (BASOR.16) 1954

3) CASKEL, W., Das altarabische Ko"nigreich Lijhan Ko"Ln. 1950.

4) -----, Gamhart An-Nasab, Das GeneaLogischen des ibn al-Kalbi. Leiden. 1966.

5) Grohmann, Arabien. Mu"nchen. 1963

6) Hommel, F., Ueber den Ursprung und das Alter der arabischen Sternnamen und ins besondere der Mondstationen (ZDMG BD. 45) Leipzig 1891

7) Jamme, A., Sabaean inscriptions from Mahram Bil.qs. Baltimore 1962

8) Mu"LLer. D.H., Kritische Beitra"ge Zur Su"darabisehen Epigraphik (ZDMG Bd. 37) Leipzig 1883

9) Philby, H. Stj. B., The Background of Islam. Alexandria 1947

10) ReaLLexikon der AssyrioLogie. Berlin-Leipzig. 1932.

11) Ryckmans, J., L'institution Monarchique en Meridional avant L'islam. Louvain. 1951.

12) Wellhausen, J., Reste arabischen Heidentums Berlin. 1966

13) Winckel, H.,Sams (HGo"ttin (ZDMG Bd. 54) Leipzig. 1900

14) Wissmann. H. von, Zur Geschte Und Landeskunde von Alt-Su"darabien. wien. 1964.

15) - , Himayr. Ancient History (Le Muse'eon LXXVII, 3-4) Louvain 1964.

مفتاح للنقوش المذكورة فى البحث

(١) Cropus inscriptionum Semiticarum = CIH

مجموعة النقوش السامية

(٢) Edurad Glaser = GL

النقوش التى عثر عليها من قبل الرحالة النمساوى ادورد كلاسر .

(٣) Albert Jamme = Ja.

النقوش التى عثر عليها البرت جام .

نظرة في ديموستين وخطبه

الدكتور سامي سعيد الأحمد
كلية الآداب - جامعة بغداد

ديموستين (ديموستينيس) الخطيب والأديب اليوناني الكبير ربما ولد حوالى سنة ٣٨٤ أو ٣٨٥ ق.م ولو ان هناك اختلافاً كبيراً حول تاريخ ميلاده بالضبط. فدايونيسيوس اكعاليكارناسي من القرن الاول ق.م يجعل ميلاده سابقاً للاولمبياد المئوى أى ٣٨١ ق.م في وقت يجعله كيلليوس من اواسط القرن الثانى ق.م بعمر قدره ٢٧ سنة حين القائه خطبته ضد تيموكراتيس واندروتيون التى القيت سنة ٣٥٥ ق.م وبذلك يكون تاريخ ميلاده سنة ٣٨٣ ق.م او ٣٨٢ ق.م ويذكر ايضا انه قد ولد خلال ارخونية ديكسيثيوس (سنة ٣٨٥ ق.م) والذى تقبله الكثيرون. وكان والده ذا مركز مرموق وثرياً وليس هناك اساس لما يذكره جوفينال (١). من انه كان حداداً اعتيادياً. وأم ديموستين هي كليوبولة ابنة كيلون المعروف باقناعه عاهل مملكة البوسفور على حماية المستعمرة الاثينية عند نيمفيوم في منطقة القرم. وقد تزوج كيلون من امرأة محلية هناك ربما كانت الاساس لمن ذكر عن ارتباط نسب ديموستين بغير اليونانيين (اسموهم برابرة) (٢).

ورغم فقدان ديموستين لوالده وهو في السابعة من عمره فانه عاش طفولة سعيدة حسب ما ظهر. فقد ترك لهم والده ثروة طائلة لانه كان يمتلك معملين احدهما معمل للسلاح والثاني لتجارة السجاد والستارات الى جانب ثروة طائلة قدرت باربعة عشر طالينا من الفضة (يساوى الطالين حوالى الاربعمائة دينار عراقى) وادار الاعمال لعائلة ديموستين بعد وفاة والده ثلاثة اشخاص اثنان منهم اولاد عم لأبيه وهم : ايلوبوس وديموفون والثالث صديق اسمه فيريبيدوس، وتعيين ثلاثة جاء مخالفاً للعادة الجارية بتنصيب شخص واحد مما قد يدل على عدم تأكده بالثقة بواحد منهم فقط، واوصى لهم ثلث ما ترك ربما لضمان اخلاصهم لعائلته وحرصهم على مصلحتها. كما أوصى بزوجته (أم ديموستين) الى ابن اخته أفوبوس (ليتزوجها حسب عادة اليونانيين القدامى) مع كمية من المال ودار يعيش فيها معها حتى يبلغ ديموستين اشده. وان يتزوج ابن اخيه ديموفون ابنته (اخت ديموستين) البالغة أنذاك خمس سنوات من عمرها لذى كبرها (٣). وخلافاً لتوقعات والد ديموستين فقد اظهر اقاربه الذين ترك عائلته بعهدتهم عدم ثقة وبعدا عن الامانة والاخلاص مما أثر دون شك في شخصية ديموستين نفسه او ضمنتها كتاباته حيث اخبرنا بان ثلث ما ترك والده يدر ربحاً قدره ٥٠ مناً (المن الواحد حوالى ستة دنانير عراقية) في السنة والتى كانت مبلغاً كبيراً وربحاً وافراً أنذاك، وكان المقرر ان يتسلم عند بلوغه اربعة عشر طالينا من أوصيائه ولكنه قبض طالينين فقط وصمم على الانتقام منهم بعرض المسألة على المحاكم. وقد حصل ديموستين على ثقافة واسعة بتشجيع أمه وايده مدرسوه في خصامه مع اوصيائه لما رفضوا دفع ماله عندهم. وتبوأ ديموستين نتيجة حيويته وقابلياته مركزا لدى الكاتب المعروف ايسيوس من خالكيس المشهور بخطبه ودفاعه في القضايا الخاصة بالمنازعات حول الاراضى والممتلكات. ومثل هؤلاء الخطباء - المحامين كانوا ولعين في السياسة - وتقلد المناصب العليا السياسية للترابط أنذاك بين القانون والسياسة. ولكن ايسيوس لم يدخل الحقل السياسى لكونه غير اثينى واكتفى بكتابة الخطب والدفوع للاخرين.

ونقرأ كيف ان ديموستين كان يود الانخراط بمدرسة ايسوكراتيس لولا غلاء السعر الذى كان يطلبه هذا الخطيب عن التعلم بمدرسته (٤)، ولو انه قد هاجمها مرة. وذكر بان ديموستين قد انخرط في مدرسة افلاطون ولكن هذا يصعب تقبله لان مدرسة افلاطون هي الاخرى كانت تطلب اجوراً عالية ولكن ديموستين كان قد عرف افلاطون بكل تأكيد واصغى الى محاضراته وتأثر بالكثير من افكاره.

وقد درس ديموستين حال بلوغه عند ايسايوس Isaeus الذى لازمه بين ٣ - ٤ سنوات. وفعلاً نلمس في خطبتى ديموستين الاوليين المعروفتين بافوبوس واونيتور تأثير ايسايوس وحتى قيل ان الاخير قد كتبهما له او انه قد اشرف هو على كتابة ديموستين

لهما حيث تظهر هاتان الخطبتان صفات واضحة يشترك بها ديموستين وايسايوس امثال التفكير النير والبراهين المفصلة المفحمة والشرح مع الدليل الممزوجين بالعاطفة الدافئة وحتى بالغضب، في وقت تمتاز خطب ديموستين بتكرار النقاط الاساسية والاستعمال المتكرر للبراهين ذات الحديث والنغمة المقنعة الجدية والتنميق (٥). وتتفق مصاحبته ايسايوس مع اقامته الدعوة على أحد اوصيائه (افوبوس) والتى ربما كانت سنة ٣٦٣ ق.م أو ٣٦٦ ق.م وقد تجنب افوبوس المواجهة المباشرة مع ديموستين لسنتين كاملتين الامر الذى دعم مركز الاخير وقوى حجته وصار فيها اكثر سيطرة على فن الخطابة. وأخيراً عرض المشكلة على الارخون محتفظاً بحق اقامة الدعاوى بأى وقت شاء على الاوصياء الاخرين (ديموفون وثيريبيديس) وخسر اخيراً افوبوس الدعوى وصار عليه ان يدفع غرامة قدرها عشرة طالينات ولانعرف ان كان قد استحصلها ديموستين بالفعل لصعوبة تنفيذ مثل هذه الاحكام باثينا آنذاك. وتظهر مهارة ديموستين في الصعوبات التى كان يضعها خصمه خلال المحاكمة. وتغلب خلالها ديموستين على الكثير من الصعوبات التى كان يشتكى منها في طفولته وشبابه واكثرها صعوبة التلعثم التى حصل نتيجتها على الاسم باتالوس (المتلعثم) الذى عمل (كما تذكر الاخبار) كل ما في وسعه للتخلص منه كان يضع حصى في فمه عند ساحل البحر او يصيح بأعلى صوته وهو يرتقى التلال أو ان يحبس نفسه في غرفة تحت الارض يمارس بها الخطابة وحده لمدة اربعة اشهر انتسخ خلالها ايضا كتاب ثوسيديديس ثماني مرات، ولا نريد ان نناقش هذه الاخبار التى لابد وان بولغ فيها الى حد بعيد ولكنها تصور مدى المشاق التى لاقاها ديموستين في سبيل اتقانه فن الخطابة، وحتى قال أحد معاصريه ما نصه « ان كانت أم ديموستين قد جلبته الى الحياة فان الفن قد خلق منه رجلا آخر بالمشاق والاتعاب »(٦) الى جانب كون الاثينيون آنذاك معروفين بالنقد وحتى السخرية بالخطباء على اخطاء بسيطة.

وقد عاش ديموستين في عصر انحطاط بقوة اثينا وعظمتها في وقت ظهر فيه خطر فيليب المقدونى الذى شهر ديموستين بوجهه سلاح معارضته. وان ظهوره الأولى في المحاكم كان بالقضايا الخاصة او المدنية وتدريجياً صار اكثر مساساً بالامور والقضايا العامة، وبين السنوات ٣٥٥ ـ ٣٥٢ ق.م صارت خطبته تظهر نغمة سياسية الامر الذى مهد السبيل له ليكون اكبر رجل دولة آنذاك ومن الصعوبة علينا ان نعرف تواريخ خطبه بالضبط وربما كانت اولى خطبه تلك المعروفة بضد اندرويتون او ضد ليبتينيس واللتان يمكن ارجاعهما سوية الى حوالى سنة ٣٥٥ ق.م فخطبته ضد اندرويتون قد كتبها الى ديودوروس وكانت انتقادا للادارة آنذاك. فقد اقترح اندرويتون ان يمنح المجلس تاجاً ذهبيا اعترافاً بخدمات اعضائه الجليلة. وهاجم رجلان هذا الاقتراح لكونه غير شرعى ولا يمكن تبريره. وقد وجد ديموستين ان المجلس قدم اموالا الى مخصصات عيد في وقت تحتاج به المدينة الى سفن اضافية لتقوية وسائلها الدفاعية. فكانت خطبة ديموستين بمثابة نداء بوجوب تقوية اسطول اثينا والتأكيد على فشل اندرويتون والمجلس، بناء مثل هذا الاسطول مما يترك البلد تحت رحمة المهاجمين. وجاء في خطابه هذا « هذا الشعب (الاثينى) لم يعمل على اكتساب الثروة بل الشهرة على الدوام. فالمدينة التي كانت اكثر دول اليونان ثراء صرفت كل ما لديها في سبيل الشرف، وبذلك حصلت على كنز لايفنى وذكريات من الاعمال النبيلة والمبانى الفخمة » (٧).

وخطابه ضد ليبتينيس قد القاه ديموستين في المحكمة. وكان موضوع النزاع يتركز في قانون ايده ليبتينيس نقض الاعفاءات الموروثة عن الضرائب والتى تمنح بالعادة الى اولئك الابطال الذين نذروا انفسهم في سبيل الدولة والوطن وقت الحرب والازمات. ولمدة سنة كاملة كان ديموستين خلالها يعمل على البرهنة بعدم شرعية الاجراء، وقد جاء في خطابه هذا ما نصه « ان النقطة الاكثر اهمية في خطابى هي ليست مسألة الاعفاء. واقول ان القانون يخلق ممارسة فظيعة، ستكون نتيجتها خلق عدم ثقة بجميع المنح التى تقدم من قبل الشعب » (٨).

وكانت سنة ٣٥٤ ق.م مشهودة في حياة ديموستين لانه القى فيها اول خطاب امام المجلس. وربما كان قد ظهر امام المجلس من قبل دونما نجاح. وقد عرف خطابه باسم ركوب متن السفن البحرية Thy symmories وتقرأ في الخطاب شعور ديموستين بان فارس لاتشكل اى تهديد على بلاد اليونان لضعفها ولكنه لايريد ان يذهب بعيدا في تأكيد ذلك خوف ترك الشعب الاثيني التفكير بضرب عدوهم هذا. واخبرهم بان اليونان ليست مستعدة لشن حرب اعتدائية اذا لم يتقبلوا مسؤولية التوحيد وان اليونان المفككة لا يمكنها من دخول حرب فخطر فارس ليس محدقاً وقريباً ويمكنهم انتظار التوحيد الضرورى لدويلاتهم ومواردهم. ثم يتعرض الى الموضوع الرئيسى الا وهو الاصلاح البحرى وضرورة تقسيم الاسطول الى وحدات صغيرة. ثم وضع رأيه في طيبة « من الصعوبة عليكم سماع اى شىء طيب عن اهل طيبة حتى ولو كان صحيحاً. انتم تكرهونهم، وفي السابق ساعدوا الملك الفارسى في غزو بلاد اليونان ولكنهم الآن مستعدون لتقديم اموال طائلة ليكفروا عن خطاياهم السابقة » (٩). ولم يذكر الخطاب فيليب المقدونى مما قد يدل بان ديموستين لم يكن يشعر بكون فيليب يشكل خطراً على حرية بلاد اليونان.

وفي سنة ٣٥١ ق.م « حسب التاريخ الذى يقدمه دايونيسيوس اكعاليكارناسى » جاء خطاب ديموستين المعروف باسم من أجل حرية شعب رودس ولو ان هناك اشارات تدل على

انه ربما تم القاؤه سنة ٣٥٣ ق .م وحتى سنة ٣٥٤ ق .م وكان الخطاب بمثابة نداء لمساعدة شعب جزيرة رودس للاستقلال عن كاريا، وفيه ذكر ديموستين لاول مرة اسم فيليب المقدونى وجاء فيه « يستخف بعضكم على الدوام بفيليب كشخص لا اهمية له ويخاف الملك الفارسى كعدو قوى.. اذا كنتم تحتقرون الاول كثيراً الى الحد الذى تقاومونه وتخافون الثانى الى الدرجة التى تريدون فيها تسليم كل شيء اليه، فضد من يجب على الاثينيين شهر السلاح » (١٠). وفعلاً كان فيليب المقدونى ينتهز فرصة خوف اليونانيين من الفرس لتعزيز مركزه وتقوية نفسه. وفي سنة ٣٥٦ ق .م حصل فيليب على كافة المدن والموانىء الاستراتيجية التى كان ينشدها امثال امفيبوليس وميثون وبيدنا وصار على مقربة من اثينا . ثم سيطر على ثيساليا كل هذه الامور اثارت مخاوف ديموستين فالقى خطبته الهامة المعروفة باسم الفيليبينية الاولى ، وتبدأ بالاشارة الى زعامة اثينا الرديئة وافتقارها الى القائد الكفوء الذى تحتاجه الآن . واقترح ضرورة القيام بعمل حاسم ووضع خطة عمل للمستقبل « ان فيليب ليس بالرجل الذى يقبل بما غزا وحصل بالحرب بل هو على الدوام يوسع دائرة ممتلكاته. وفي الوقت الذى نقف نحن فيه مكتوفى الايدى يطوقنا هو من كل جانب.. فماذا بعد هذا ايها الاثينيون فمتى تقومون بواجبكم ؟ ماذا تنتظرون ؟ ماذا نقول عن الاحداث الحالية ؟ /. هل هناك اسوأ من كون المقدونيين يسيطرون على الاثينيين وينظمون شؤون اليونان ؟ هل ان فيليب ميت ؟ لا انه مريض فقط، فلو كان مريضاً او ميتاً فما هو الفرق بالنسبة اليكم ؟ فاذا ما حدث له شيء فسرعان ما ستنصبون عليكم فيليب آخر» (١١). ثم قدم مقترحه الخاص بالدفاع عن بلاد اليونان بتهيئة خمسين سفينة حربية وجيش يتألف من الفى جندى مشاة ومئتى فارس للخدمة الفعلية من الاثينيين، وجاء في خطابه ايضا « ان الجزء الهام من الاستراتيجية الماهرة ان لا ينتظروا الاحداث بل ان يسيروها» (١٢). واختتم خطابه بالقول « من المؤكد ان فيليب عدونا، قد انتزع منا ما هو لنا ، وأهاننا منذ مدة طويلة ، وكل ما اعطينا نحن الى الآخر ليعملوا لنا قد تحول ضدنا، والذى بقى يعتمد علينا. فاذا كنا راغبين بحربه في الخارج فعلينا ان نحاربه الآن هنا » (١٣).

هناك خطبه الثلاث المعروفة بالاولنثيات التى القاها سنة ٣٤٩ ق .م عندما كان فيليب يحاول الحصول على مدخل الى بلاد اليونان. والقى ديموستين اولنثيته الاولى عندما ارسلت مدينة اولينثوس وفداً الى اثينا ينشد مساعدتها. وقد اتت الخطبتان الثانية والثالثة بوقت قصير بعد الاولى. وقد تكلم في الثلاثة عن ضرورة تغيير الادارة ان كانت اثينا تفكر بالحرب. واقترح في الاولى ارسال قوات حربية من المواطنين الاثينيين لمساعدة اولينثوس واجبار فيليب على التراجع وحماية بلده. واكد ديموستين انه اذا احتل فيليب اولينثوس فانه سوف يهاجم اثينا متى يشاء. واخبر الاثينيين ان يحكموا على فيليب بما عمل لحد الآن، وفي الاولينثية الثانية بيّن ديموستين اسرار نجاح فيليب المقدونى التى لخصها بالغش والخداع والرشوة والغدر ولهذا السبب صار حلفاؤه يخرجون عن حلقته. واذا تنهض اثينا بمسؤوليتها فعليها والجميع سحق فيليب، وفي الاولينثية الثالثة غير ديموستين لهجة خطابه وصار قلقاً وترك كل تحفظ ونادى بضرورة تحويل مخصصات العيد الى خزانة الحرب لعدم توفر الوقت لجمع المال ودعا الاثينيين الى الحرب والا فانهم سوف يهاجمون من قبل فيليب .

ومن خطب ديموستين الهامة تلك المعروفة بحول التاج. وخلفية هذه الخطبة ان ديموستين كان قد اشرف بنفسه على بناء سور حول اثينا لحمايتها من فيليب وتبرع له بثلاث طالينات من ماله الخاص. واقترح صديق لديموستين يدعى كتيسفون ان ينتهز الاثينيون الفرصة لاظهار ثقتهم بديموستين فيمنحوه تاجا ذهبياً يضعونهعلى رأسه في المسرح خلال احتفال دايونيسيوس اعترافاً بخدمته اثينا . وقد عارض ايسيجينيس هذا الاجراء في مجلس الشعب ثم عرضها على المحاكم بعد ست سنوات. ولا نعرف السبب في ذلك ولكن هذه المحاكمة « في سنة ٢٣٠ ق.م» لم يخلدها التاريخ عبثا (١٤). فالخصمان خطيبان معروفان واراد ايسيجينيس اضعاف ديموستين وتوضيح المبالغة في اقتراح كتيسفون على اساس ان القانون الاثيني يجعل منح التاج عند البينكس وليس في المسرح من ناحية ويمنع وضع التاج على رأس اى موظف قبل تدقيق حساباته وان ديموستين لم تدقق حساباته في اصلاح وتعمير الاسوار بعد. وبعد ان القى ايسيجينيس خطبته في المحكمة ضد ديموستين تلا الاخير خطابه. وبدأ ديموستين كلامه وانهاه بالدعاء الى الارباب، ويظهر هذا الخطاب جميع اوجه فن خطابة ديموستين واتباعه الخط التقليدى في اجتذاب الاثينين واستعماله اللغة والبلاغة في اثراء خطبته مع توازن تام وسجع عاطفة وحسن عرض واستعماله الكثير من الالفاظ القادحة ضد خصمه امثال الممثل البائس والطفيلي والخائن (١٥) .

وان الخطباء الاثينيين عادة يكيلون التهم ويلفقون الاخبار للحط من سمعة خصمهم ولكن ديموستين لم يقل عن ايسيجانيس سوى « ان والدى ايسيجانيس قد توفيا منذ مدة طويلة وهذا من حسن حظه حيث نسيت اخبارهما وانباء سلوكهما وسيرتهما لان والده كان عبداً وأمه كانت فاحشة» (١٦). وبذلك اوضح لمستمعيه بان ايسيجانيس منافق لايستحق اى تقدير ولد من ابوين هما مجلبة للعار. وقال ديموستين فيها علنا بانه غير مسؤول عن صلح فيلوكراتيس الذى جاء لمصلحة فيليب. ولنا ان نعرف بان هذا الانكار كان كذبة واضحة واستغل

ديموستين لاخفائها الفترة الزمنية التى مضت (١٦ سنة) بين عقد الصلح والمحاكمة والتي أخفقت من ذكراها (١٧) ولكن ديموستين كان يعرف مستمعيه وكيف يجذبهم لما يقول. وكانت النقطتان اللتان اتى بهما ايسيجانيس ضد وضع التاج صحيحة ولكن ديموستين عرض المسألة بوضع مثير عندما قال « ان المجلس قد صوت على شكرى.. لتبرعى.. وان التبرع يجب ان يجازى بالشكر والثناء» (١٨). اما عن النقطة الثانية وهي التتويج في المسرح فقال ديموستين « .. لقد وضع التاج علي مرات عدة في المسرح.. وباسم السماء فانك يا ايسيجانيس لاتعرف شيئا وعدم احساس فان التاج يضم نفس الشرف بغض النظر عن مكان تسلمه، ولكن لمصلحة اولئك الذين يمنحون التاج ان يكون مكان منحه في المسرح» (١٩) ثم تعرض الى نقطة هل انه جدير بتسلُّم التاج وصار يلفق الحقائق ويزور بها ولام ايسيجانيس لعدم اقتراحه امرأ بديلا قبل هذا الوقت (٢٠). واخبره بانه ليس هناك أى لوم يقع عيه حول ما حدث « لا تفترض ان انتصار فيليب بالمعركة كان ذنبى لان هذا أمر قدرته الارباب » ثم تحدى ايسيجانيس وطلب منه مقارنته بنفسه وقال مخاطباً المستمعين « انظروا كيف أنى اتكلم بكل بساطة وعدل عما نسبه لي اثناء هجومه عليّ وتهجمه على حياتى الخاصة. ولكنكم لو تعرفوا بانى على تلك الصفات التى ادعاها لما كنت قد تمتعت بأى حب كالذى تكنوه انتم لي.. قف في الحال وقدم ما لديك ضدى» (٢١). وصار ديموستين بعدذلك يكيل المدح لاثينا ومواطنيها وأجَّج بمستمعيه روح الاخلاص والوطنية ودعاهم الى التمسك بالتقاليد الاثينية الخاصة بالزعامة وجعلهم يعتقدون بان كل ماتفوه به هو بالواقع لمصلحة اثينا وقال « لم يتمكن احد منذ اقدم العصور ان يخضع اثينا بلجوئه الى القوة المجردة من الحق وان يتقبلوا العبودية ولكنها كانت خلال جميع ادوار تاريخها كانت دائما في مصارعات للزعامة والشرف والمجد ». وكان ديموستين يطلق على ايسيجانيس وأعدائه الكلمة « الخونة » مما يجعل المستمعين بانهم ليسوا فقط ضده بل ضد الدولة . وتكمن قوة ديموستين في قدرته على اخراج المبادىء من الحقائق التى يعرضها وبذلك يؤثر على مستمعيه (٢٢). فقال في الخطبة « على كل شخص في حياته الخاصة وعلى المدينة في مسيرتها الوطنية ان تعمل دوما على السير بسياستها مستنيرة بمبادىء ماضيها النبيلة » ثم « ان كل اثينى كان يعتبر نفسه مولودا ليس لوالديه ولكن لبلده انظروا الفرق ؟ » و « هناك خاصيتان يجب ان يتملكهماالمواطن الاثينى المتواضع.. فعندما يكون في مركز رسمى يجب ان يهتدى بالمبدأ الذى يتطلب النبل وهيبة الدولة وتسلطها. وفي كل امر وعقد يجب ان يكون مخلصاً والاخيرة تعتمد على طبيعته وقدرته وقوته الخ..» (٢٣). وذكر ديموستين الاسلاف مرات عدة لانه يعرف اهميتها بالنسبة للاثينيين (٢٤). ولاجل اثارة المستمعين صار ديموستين يصف مأدبة غداء اقامها على شرف الشهداء الذين سقطوا في معركة الشرف للدفاع عن المدينة.

وتعكس الخطة اعتقاد ديموستين بالقدر والاسلاف والارباب وايمانه بالصدق « ان الصدق ذو طبيعة يصعب تشويهها. من المستحيل ولا يمكنك ان تمسح جريمة اعمالك فيه. ان محيط اعمالك سوف يخيب املك». ثم « هل يخطىء الانسان طواعية ؟ ارى ان الغضب والعقوبة قد حتمت عليه. هل يجبر على ارتكاب الخطأ ؟ ارى هنا الانغماس بدلا من العقوبة» (٢٥). ونرى ديموستين حتى في ذكر خصاله الحسنة وصفاته يشكر الارباب لما حبوه ولكونه اثينيا تربى في كنفها وما هو الا الالة المتواضعة في يد الارباب استخدموها في مجال الحق والتقوى» (٢٦). وقد قورنت خطبة التاج هذه بخطبة التشييع لتوسيديديس (٢٧). وقال ديموستين عن الحكم « ان الملكية قد يكون مرغوبا فيها اذا كان الملك يمثل احسن التقاليد اليونانية وهم الملك الاخذ بيد جميع اليونانيين في طرق السلام ويقدم نظام دولة حاكمة تمثل أحسن مدينة لدى اليونان وبذلك لاتعتمدعظمتها على رجل واحد » (٢٨) وقال في هذه الخطبة عن شخصيته « انى لا اعرف المساومة. لم اتذكر انى فضلت زعيما على حساب حقوق الامة وفي شؤون اليونان لم تكن رشوات وضمانات الصداقة التى اغدقها فيليب علي ان تغرينى لاضحى بمصالح اليونانيين».. ونعرف قوله في خطاب أخر له يعرف باسم حول خير سوينوس «اطمح نحو الاحسن على الدوام وليس الاسهل مطلقاً».

وبعد السلام الذى عقدته اثينا مع فيليب المقدوني القى ديموستين خطابه المعروف حول السلام (نهاية سنة ٣٤٦ ق م) واخبر الاثينيين فيه ان عليهم الآن ان يحاربوا جميع دول الوحدة الامفكتيونية اذا ما حاربوا فيليب. وكان الخطاب المعروف بالفيليبينية الثانية (سنة ٣٤٤ ق م) والتى كانت بمثابة جواب على رسالة من فيليب اتهم بها الاثينيين بسوء التصرف. وان لهجة الرسالة تدل على ان فيليب كان يريد حجة وسببا لشن هجوم على اثينا. اما الفيليبينية الثالثة فقدبين فيه فيليب ان السلام هو بالاسم فقط وان فيليب يشن منذ مدة حرباً غير معلنة على اثينا. وكان يتكلم فيه كوطنى يونانى لا كشخص اثينى ودعا الى ضرورة اخذ اثينا للسلاح وقيادة اتحاد المدن اليونانية لحرب فيليب حيث لم يعد هناك اختيارٌ بين حرب وسلام وعلى اثينا عدم الانتظار الى وقت اعلان فيليب الحرب عليها لانه لايعلنها الا عندما يكون على ابواب مدينتنا. وحث اليونانيين على ضرورة ايقاف التناحر بين دويلاتهم المختلفة والاتحاد لدرء خطر فيليب بقيادة اثينا.

وكان ديموستين بين ٣٤٠ ـ ٣٣٨ ق.م اكثر الرجال اهمية في بلاد اليونان، ومع الاسف نعرف عنه قليلا خلال هذه السنوات.

ولما توفى فيليب سنة ٣٣٦ ق .م قدم ديموستين القرابين للارباب شكراً على جميلها ولو ان ابنته كانت قد توفيت منذ ايام قليلة. ولما ثارت طيبة على الاسكندر خليفة وابن فيليب قدم لها ديموستين المساعدة. ونعرف ان انتيبايتر قد اتهم ديموستين بمساعدة هاربالوس على الهرب وسجنه ونفاه. ولكنه ارجع حال وفاة الاسكندر ودخل اثينا وسط استقبال حافل، ولما فشلت اثينا في ثورتها ضد انتيبايتر طلب الاخيراستسلام الزعماء الاثينيين وحكم على ديموستين بالاعدام غيابياً، فهرب ديموستين الى كالوريا ولجأ بمعبد بوسايدون فيها حيث تناول السم ومات وهو في الثانية والستين من عمره سنة ٣٢٢ ق .م.

واعتبر دايونيسيوس الهاليكارناسي ديموستين اعظم خطيب عرفه التاريخ فقال « اسلوبه اكثر قوية وارصن عملية. لقد نسج اسلوباً خاصاً به.. اسلوب رفيع وبسيط متميز غير اعتيادى ومعروف بالاستقامة والمدح والمرح والاقتضاب والشمول لاتمل قراءته يمزج فيه بين الحلاوة والمرارة يعبر مرة عن عاطفة وباخرى عن قوة شخصية » (٢٩). وهام الرومان في حب اسلوب ديموستين حيث اقتطف منه الكتاب والبلغاء الشيء الكثير.

فديموستين عاش في عصر امتاز بالاضطراب والتغير ولو ان الحياة العامة بقيت هى هى كما في العصر الذهبى وكانت الحاجة ماسة الى الخطيب الماهر والبلاغة كانت ناضجة وجميلة وصار للخطيب مركزُ هام في الدولة. ولهذا السبب كان يتطلب من الخطيب معرفة السياسة المحلية. وصارت الادارة بيد رجال غير أكفاء وعم الفساد في الادارة وانتشرت الرشوة واعتبر الاثرياء العمل في السياسة شراً مستطيراً. وفي دراستنا لخطب ديموستين نرى اقتناعه بان الدوافع الاخلاقية يجب ان تكون جزءاً من السياسة متأثرا بذلك بافلاطون وتوسيديدس (٣٠). وترينا كتاباته حكمته السياسية واحكامه القوية وشعوره الطيب (٣١). وكان ينشد الجمال على الدوام ونقرأ في خطبه سلسلة من الملاحظات الجذابة والذكريات والامثلة والصورة المقنعة وكلها تظهر قدرته على اقناع المستمعين بكلامه (٣٢) وكان ديموستين رأس الحركة الوطنية زمانه التى يجب ان تستند لرأيه على الحرية سواء لاثينا او بلاد اليونان.

ويعمل في خطبه على اشعال جذوة الوطنية الى ابعد حد والخلق والاستقامة لقد احب ديموستين اثينا وفي رأيه يجب ان تقود الدول الحرة ويدعو الاثينيين الى تذكر اعمال اجدادهم المجيدة. ولا يريدان تكون اثينا معتدية تعتمد على القوة في نشر الحرية التى يريد ان تنهض بها اثينا. ورأى ديموستين في فيليب المقدونى وتقدمه العسكرى الخطر الاكبر على حرية اثينا وبلاد اليونان ونقرأ في خطبة له « الم يكن عملا جليلا لاثينا المحبة للسلام، الدولة التى تعتمد على القوة البحرية بصورة اساسية ان تدخل حربا بجيوش ذات قيادة فقيرة في وقت يتحتم عليها ان تصطدم بجيوش فيليب في ساحة القتال ؟ الم يكن خطأ ان تضع اثينا مقدراتها بأيدى فيليب ؟ كل شيء يحملنا على الاعتقاد بانه سوف يعامل اثينا بالحسنى ولكنها سوف تضحى بحريتها في السياسة العامة » (٣٣)..

الهوامش

1. Juvenal. X. 130.
2. Encyclopaedia Britanica, (New York, 1962), p. 192.
3. W.J. Brodribb. Demosthenes. (New York, 1920), p. 24.
4. ibid. p. 253.
5. S. H. Butcher, Classical Writers. Demosthenes. (New York, 1901). p. 29.
6. Werner Jaeger, Demosthenes. the Origin and growth of his policy. (Berkeley, 1983). p. 37
7. Butcher. p. 33.
8. Stanza. 124.
9. Butcher. op. cit. p. 38.
10. ibid. p. 44.
11. stanza 7-11.
12. F. B. Tarbell, The Philippics of Demosthenes. (Boston, 1893). p. 39.
13. stanza 50.

نحتٌ نذري محوّر لأنثى عليه رموزٌ فلكيـة

عبدالجليل عبدالعزيز عمرو
قسم الآثار ـ الجامعة الأردنية

جاء بهذا النحت في صيف ١٩٧٧ م الى مكتب دائرة الآثار بمدينة الزرقاء، على بعد أربعة عشر كيلو متراً من عمان، مواطن ذكر انه عثر عليه في ارضه، هذا ولم تتوفر اية معلومات اخرى عن المكان الذى عثر فيه على هذا النحت النذرى موضوع البحث ، لا بل ان اسم ذلك الرجل لم يسجل في السجلات الرسمية ليكون في الوسع ـ ربما ـ اعادة سؤاله عن موقع أرضه لاجراء حفرية استطلاعية فيها لتزيد من معلوماتنا عن مثل هذه المنحوتات. وأخيراً فقد انتهى المطاف بهذا النموذج الفنى ليخزن في المستودع الرئيسى للمتحف الأردنى بعمان الى أن اتيح لنا مشاهدته .

الوصـــــف

نحت حجرى لأنثى عارية فاقدة الرأس والرقبة (اللوحة ١، رقم ١).

الطـول : ٩ر٩٦ سم
العـرض : ٥ر٣٤ سم
العمق أو السمك : يتراوح ما بين ١١ ـ ١٢ سم فقط.

توجد حفرة بين كتفى التمثال في المكان المخصص للرقبة قياساتها هكذا :

الطول من الخلف : ٩ سم
العــرض : ٦ر٧ سم
العمــق : ٥ر٦ سم

يتكون هذا النحت من مادة صخر الدولومايت الصلب وبه حبيبات من الرمل والصلصال (١). ويمكن وصفه من الأعلى الى الأسفل هكذا :

هناك حفرة صغيرة نسبياً (قياساتها مذكورة أنفا) بين الاكتاف كانت تستعمل لادخال رقبة التمثال فيها ثم تركيزه بمادة جيرية توضع في الفراغات الناجمة عن صغر قطر الرقبة بالنظر الى الحفرة حتى لايتحرك هونا وقد عثر في داخل هذه الحفرة على بقايا لتلك المادة الجيرية، وبينما يجيء الجانب الامامى لهذه الحفرة كهيئة شبه دائرية يبدو جانبها الخلفى في وضع مستقيم. ولهذا النحت ثديان مستديران قطر كل منهما ١٣ سم ولكن الحلمتين Nipples غير ممثلتين فضلا عن وجود بعض التلف والتآكل في الجزء العلوى من الثدى الأيسر. أما في اسفل ما بين الثديين فقد نحت قرص الشمس على هيئة دائرية بارزة قطرها ٧ سم يطوقه من الاسفل نحت ناتىء للقمر الهلال الذى تدعم طرفاه اسفل الثديين المذكورين، ويبلغ طول هذا الهلال من طرفه الأول الى طرفه الآخر ١ر١٨ سم، وتبرز عند نهاية التمثال الاجزاء الامامية للقدمين العاريتين وهما مصطفتان بعضهما الى بعض على قاعدة شبه مستديرة من حجر التمثال نفسه. أما باقى التفاصيل الاخرى كتمثيل الأيدى أو السيقان او الملابس فهذا مما لم يلتفت اليه النحات. والتمثال، في كل حال، قليل العمق منبسط ، يستدق كلما اتجهنا نحو الأسفل وتظهر على جانبه آثار حريق، وعلى انه ذو سطح أملس، فان به آثاراً تدل على خشونة في النحت تظهر على هيئة حفر عشوائية مبعثرة على سطحه.

معنى الرموز الفلكية على هذا التمثال

ان اجلال الشمس والقمر وتقدير الكواكب والنظر اليها جميعاً على أنها رموز لآلهة غير مرئية مسألة معروفة في أماكن عديدة من الشرق القديم من ذلك ان السومريين عبدوا الشمس في مدينتي لارسا Larsa وسبار Sippar في بلاد ما بين النهرين لانها ـ عندهم ـ ترمز الى الاله اوتو Uttu عدو الظلام وما يمثله من شياطين واله العدالة والمساواة بين الناس وقد رمز الى شكله الأصلى بقرص الشمس (٢). وتجدر الاشارة هنا الى ان أوتو هذا قد مثل برجل تخرج اشعة الشمس من جسمه تعوّد ان يركب عربته كل يوم ويتجول بها حول العالم ليرى أعمال العباد وانجازاتهم، وهو فضلا عن ذلك يعطى النورالذى يضىء القلوب ويبصرها ويحمى الضعفاء والمظلومين من أعدائهم الظالمين. وليس هناك من مسؤول عن القوانين والشرائع السماوية التى منحت فيما بعد للملك حمورابى في بابل الا هو، وهكذا مثّله النحاتون في عهد هذا

الملك برجل قاعد تخرج اشعة الشمس من كتفيه (٣). لقد اعتبر الاله أوتو كذلك بانه ابن الاله نانا Nanna القمر الذى كان بدوره ابنا للاله الكبير انليل Enlil الجبل العظيم سيّد بلاد سومر كلها(٤). ومن ابناء نانا كذلك ابنة اسمها انّانا Innana كان يرمز اليها بنجمة كانت وظيفتها حماية البساتين والحدائق وكانت الأمينة على اللحوم والبلح والالبان ايضا (٥). ولعل من المفيد ان نذكر ان هذه الابنة هي التى عرفت في الفترتين الآشورية والبابلية/ الكلدانية بالاسم الجديد عشتار Ishtar كما انها هي الهة الحب والجمال السامية وملكة السماء، ولقد اقترن اسمها منذ القرن الحادى عشر قبل الميلاد، باسم الاله أشور نفسه على أنها الهة الحرب، وكان يمثلها على الارض الأسد حيث ظهرت معه في منحوتات من بلاد ما بين النهرين ومصر منذ عهد الاسرة التاسعة عشرة، ومن المعروف ان الأسد كان يرمز في بلاد ما بين النهرين الى الشمس. وهكذا يصبح في الوسع الاستنتاج ان الالهة عشتار معادلة للشمس ومنها تستمد قوتها وجمالها، ومما يؤكد هذا ويسدده ما نراه في نحت بارز من عمريت بسوريا، يرجع الى القرن الثامن قبل الميلاد، تظهر فيه عشتار ممسكة بيدها أسداً صغيراً، راكبة على أسد آخر سائراً بها فوق الجبال ويعلو هذا النحت قرص الشمس المجنح والقمر الهلال (٦). لقد اطلق على هذه الآلهة اسماء جديدة في العصور اللاحقة فصارت تعرف في العهد الفارسى الساسانى باسم اناهيتا Anahita وهى نفسها أفروديت Aphrodite اليونانية وفينوس Venus الرومانية، ولها اسماء سامية كثيرة مثل عشتروت، عشتارت، عشتر، عرفت بها في جنوب الجزيرة العربية، أما في العهد النبطى فقد عرفت باسمى عطارغتس Atargatis والعزى al - Uzza ولقد اقترن نحتها في جبيل بنحت الالة عشتر ـ رشف والاله السامى عثتر الممثل بنجم الصباح فينوس (٧).

ان الاشكال الفخارية لنساء تكشف عن ثدييها كشفت عنها الحفريات في أماكن مختلفة شرق نهر الاردن تذكر بهذه الخاصية التى نراها في تمثالنا هذا وقد بدا لنا في تفسير هذه الاشكال انها تجسيد لصفة مهمة من صفات الآلهة عشتار بانها الهة يتغذى على ثدييها البشر كلهم فهى الأم صاحبة الثدى المخلص (٨). وهكذا يمكن القول بان الثديين الممثلين في نحتنا، هذا، انما هما رمز يمثل هذه الالهة العريقة.

أما في العهد الأكادى فتجدر الاشارة الى ان الالهة السابقة الذكر قد عرفت بأسماء جديدة، فحمل اوتو اسم شماش Shamash ونانا القمر اسم سين Sinوانانا اسم عشتار الهة الخصب والحب. ويبين مما سلف صعوبة التفريق بين هذه الآلهة كل من حيث الوظيفة التى كانت تؤديها في العهدين السومرى والأكادى.

اما القمر فقد عبد بمنازله المختلفة بظنهم انه منظم للشهور في جنوب الجزيرة العربية فنظر اليه كأنه زوج الشمس وأن كوكب الزهرة الذى عرف عند المعينيين باسم « عثتر » هو ابن لهما (٩). لذلك جاء في المرتبة الثانية بعد إلـه القمر والشمس، وكانت عبادته منتشرة في مؤاب وعمون (١٠). وتعتبر حران شمال العراق المركز الرئيسى لعبادة إلـه القمر بعد ان تركزت عبادته في السابق في مدينة أور في الجنوب، واذا كان صحيحا ان لاشتقاق اسم حرّان ارتباطا بمعنى القوافل (١١)، فلربما عنى ذلك ان القمر عبد هنا بسبب دوره في تبديد الظلام امام التجار وانارة الطريق لهم في رحلاتهم الليلية، فلقد اعطيت الاولويّة في تدمر لعبادة القمر باسم الاله يرح Yearah ربما لما له من دور ايضا في قياس الزمن الذى كانت تستغرقه رحلاتهم التجارية، كما الحقت باسم هذا الاله اسماء بعض الاعلام ولكن في فترة مبكرة منذ القرن السابع قبل الميلاد مثل التمثال الذى عثر عليه بجبل القلعة بعمان وهو يحمل اسم صاحبه الزعيم العمونى « يربح عازر » مكتوبا بالحروف الآرامية.

كما ان اسم مدينة أريحا أو « يريحو » بمعنى مدينة القمر (على الجانب الغربى لنهر الأردن) لا يبعد كثيراً عن اسم هذا الاله.

يبين مما سبق ان قوة الاله او الآلهة انما تتركز في الظواهر الطبيعية المرئية فمثلا كانت نانا أو سين تعبيراً عن قوة إلـه القمر وما له من فضل على الاحياء، والاله أوتو أو شماش تعبيراً عن حرارة الشمس ودورها في استمرار الخصب والحياة، أما انّانا اخت الاله أوتو فكانت تنعكس في قوة نمو النباتات والاشجار، وهكذا وربما يصل هذا بنا الى تفسير منطقى لهذا التمثال النذرى على انه تمثيل للآلهة عشتار التى رمز اليها في التمثال بالثديين العاريين، والاله أوتو أو شماش وقد رمز اليه بقرص الشمس ثم آخر هذا الاله نانا او سين، وقدرمز اليه بالقمر الهلال، حيث كان هذا الاله أبا كما رأينا لقرص الشمس، أوتو، وعشتار أيضا التى كثيراً ما كان يرمز اليها بنجمة سداسية او ثمانية الاذرع بدلا من الثديين كما سنرى فيما بعد. وربما يفسر هذا لماذا نحت القمر الهلال بهذا الحجم البارز على تمثالنا وهو يحيط بقرص الشمس ويدعم الثديين عند طرفيه كذلك تعبيراً عن حنان الأبوة وعطفها، كما يمكن القول ان هذا النذر الدينى يعود في أصوله الى بلاد ما بين النهرين وليس له أية أصول كنعانية او مصرية، لان تكريم القمر والشمس في الدين الكنعانى كان أمراً محدوداً جداً، أما في مصر فقد كان إله القمر ممثلا بشكل حورس الصقر الذى كانت عيناه الشمس والقمر (١٢).

ان مثل هذه الرموز الالهية المقدسة كانت تحمل في العهدين الآشورى والبابلى/ الكلدانى الى ساحات المعارك للتأكيد فيما يبدو على ان الالهة ممثلة برموزها كانت ترافق الحكام وتبارك حملاتهم على سوريا وفلسطين والاناضول في الشمال وبلاد فارس في الشرق، ولعل في هذا اجابة عن سؤال قدينهض هنا فيقول: لماذا صنعت هذه الرموز بأشكال مصغرة لدلأيات Amulet forms وضعت في عقود حول رقاب المتعبدين واستخدمت في زخرفة المعابد والطقوس الدنيية الخاصة ؟ وصار ممكنا كذلك استنتاج

أن هذه الرموز الفلكية الممثلة على تمثالنا هذا وعلى غيره من النماذج المشابهة انما هى في الاصل أفكار او أساطير دينية مقدسة مثلت كهيئة تماثيل لآلهة او آلهات ستقوم، من خلال رموزها الفلكية المجسدة، بالاعانة على جلب الحظ والخير والنصر للناس وطرد الامراض والارواح الشريرة عنهم، يضاف الى ذلك ان هذا النحت الرمزى وامثاله يدل على ان المتعبدين له لم يكن من الممكن لهم رؤية الآلهة المذكورة وجها لوجه، ولكن ذلك كان يتم عن طريق الواسطة التي هى هذه الرموز الفلكية، وهذه فكرة تذكرنا بمعنى قوله تعالى « ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى، إنّ الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون . إنّ الله لا يهدى من هو كاذب كفّار » (١٣) .

ولقد مورست هذه المعتقدات الدينية في بلاد ما بين النهرين وبطرق عدة ثم انتشر استعمالها بعد ذلك في الشرق القديم على يد الآشوريين بعد ان أصبحت أشور هي القوة العسكرية التى يحسب حسابها في مناطق شرقى البحر المتوسط . ويبين آخر هذا ان لا وجه لما ذهب اليه اليهودى المسمى، ايغال يادين، في تفسيره لرموز مشابهة عثر عليها في حفرياته بهازور او حاصور بفلسطين المحتلة على انها « رموز ترمز الى المرحلتين اللتين يمر بهما القمر وهما مرحلة الهلال ومرحلة البدر » (١٤) .

النمــــاذج المشـــابهة

لا نكاد نجد لتمثالنا هذا نماذج تشبهه في أى من مصادر الشرق القديم وآثاره غير انه بدا لنا - على هذا - ان الفكرة في تمثيل رموز دينية كهذه وجدت على مسلة تذكارية في دوغا Dougga بتونس « في موقع لا يبعد كثيراً عن مدينة قرطاجنة » (١٥)، فقد ظهر على هذه المسلة نحت بارز محور لامرأة رافعة يديها عاليها القمر الهلال منفتحا الى أعلى وفي وسطه وردة بدلا من قرص الشمس الممثل في نحتنا هذا (انظر اللوحة ٣ رقم ٢) ولقد نحتت هذه الفكرة على كثير من المسلات التذكارية التى كشفت عنها الحفريات في قرطاجنة نفسها وغيرها من مواقع الحضارة البونية من القرن الخامس الى القرن الثانى قبل الميلاد، ولكن الفارق بين رموز هذه المسلات ورموزنا يكمن في ان الهلال وقرص الشمس يعلوان المسلة في هيئة مقلوبة ، أما عشتار التى عبّر عنها في نحتنا بالثديين فقد رمز اليها في كثير من هذه المسلات بيدين مرفوعتين الى الأعلى (١٦). يضاف الى ذلك انه عثر في حاصور بفلسطين على مسلة بازلتية تعود للقرن الثالث عشر قبل الميلاد نُحتت عليها يدان مرفوعتان الى الأعلى يعلوهما الهلال وقرص الشمس . ولكن تتدلى من مركز الهلال دلايتان كرويتا الشكل مما لا نجده في أمثلة أخرى (١٧) . وفي رنجرلي (شمال) في شمال سوريا نماذج تعكس لنا رموزاً مشابهة غير ان قرص الشمس فيها يملأ الهلال تماما . ولا نرتاب في ان ما نراه اليوم في الرسوم الصفوية التى تمثل أشكالاً بشرية مرفوعة الأيدى وهي تسوق الماعز الى الحظائر في صحراء شرق الأردن أو تلك النماذج الثمودية من القرن الرابع قبل الميلاد، المرسومة على صخور بالقرب من العلا بالجزيرة العربية، نقول لا ريب في أنها تعكس الفكرة الدينية عينها المشار اليها سابقا . يبين مما سبق ان ما ذكره غريفز Graves بأن مسلته من دوغا نادرة وليس لها سوى نموذج واحد من فينيقيا أمر فيه نظر، فضلا عن أنه يكتفى فقط بهذا القول دون ان يشير الى وصف هذا النموذج الفينيقى وأين هو أو في أى مصدر نشر (١٨). ولقد اقترح هيسلوب Hyslop (١٩). الذى يربط مثل هذه النماذج بالالهة عشتار البابلية/ الكدانية، في تفسيره لتمثال نصفى لانثى عثر عليه بقبر في فولتشى Vulci بايطاليا أنها هى الالهة عشتار عينها وقد مثلت في ذلك النحت وهي تمسك بيديها قرص الشمس المجنح والمنحوت أسفل ما بين الثديين العاريين، وهذه صفة تذكرنا بالرموز على تمثالنا المحور هذا مع بضع الفوارق التى تتلخص في ان نموذج فولتشى المذكور، عبارة عن تمثال نصفى ملامحه جميعها (الرأس واليدان والصدر.. الخ) متكاملة كما لم ينحت على صدره كذلك القمر الهلال . وتنعكس فكرة الرموز الدينية على ما يبدو كذلك في تمثيل الفتاة العارية وثدياها بارزان (٢٠)، من مجموعة .ورمان كولفيل، وهى مجنحة تقف على أسدين متدابرين وترتدى على رأسها غطاء رأس الاله شماش نفسه وترفع شعاراته وهى العصا والحلقة Ring بيدها اليسرى عوضا عن القرص والهلال كما في موضوع بحثنا، وبالرغم من ان قدميها مصطفتان بعضهما الى جانب بعض كما في نحتنا الا انهما ينتهيان بمخالب. ان فكرة تمثيل الآلهة بنحت رموزها فكرة ظهرت واضحة على اختام بابلية ايضا من القرنين السابع والثامن قبل الميلاد وقد ظهر قرص الشمس بأذرع اربعة وبشعاع محفور وسط رموز مقدسة بدا لهيسلوب انها نجمة الالهة عشتار باذرعها الثمانية والاله سين الممثل بالقمر الهلال المفتوح الطرفين الى أعلى ولكنه لا يحيط بقرص الشمس كما هو في تمثالنا (٢١). ويتشابه هذا الموضوع الدينى كذلك مع موضوع نحت آخر على ختم من القدس يمثل هلالاً مفتوحاً الى أعلى ويضم بداخله نجمة سداسية الاذرع وهى النجمة التي ترمز احيانا للالهة عشتار كما ذكرنا سابقا (انظر اللوحة ٢ رقم ٣) ويتضح من الكتابة المحفورة على هذا الختم انه لمناسه Manassch ابن وخليفة الملك حزقيا Hezekiah الذى يصفه سفر الملوك الثانى بانه هو الذى أدخل الى البلاد عبادة كل الكواكب (٢٢). وهكذا فان ظهور هذه الرموز الفلكية محفورة على خاتمة أمر لا يثير دهشة أبداً كما يقول افيجاد Avigad الذى أرخ هذا الختم اعتماداً على أشكال الحروف، الى القرن الثامن قبل الميلاد (٢٣). ان الفارق بين الرموز الممثلة على هذا النحت الندرى وتلك الممثلة على ختم مناسه انما يكمن في رموز هذا

الخاتم وهى النجمة والهلال وقد نحتا منفصلين على خط مستو واحد في الثلث العلوى الاخير من الختم : الهلال على الجانب الايمن ، والنجمة على الايسر . ومن المتشابهات القريبة من هذه الفكرة الدينية كذلك ختم عبرانى أخر يرجع ايضا الى القرن الثامن قبل الميلاد، يتضح منه بما لايدع مجالا للشك ان العبرانيين، على انهم ذوو كتاب سماوى عبدوا آلهة وثنية ممثلة برموز فلكية ظهرت محفورة على هذا الختم بشكل هلال مفتوح الى أعلى في الجانب العلوى الأيمن من الختم وفي داخله قرص الشمس (٢٤).

هذا ويختلف نحت الرموز على هذا الخاتم بان قرص الشمس ملتصق بالجدار الداخلي لوسط الهلال، فضلا عن ان هناك شكلا بشريا نحت في وسط الختم مشى ويمسك بيده الصولجان، توحى ملامحه بانه لذكر وليس لانثى كما هو الامر في نحتنا الظاهر الثديين هذا، وتجدر الاشارة الى ان هناك امثلة اخرى لهذه الرموز نحتت على اختام أرامية فينقية نشرها غالينج Galling (٢٥) . دون ان يلتفت الى ما تمثله هذه الرموز . ولقد ظهر على هذه الأختام نحت لقرص الشمس بالطريقة نفسها التى ظهر فيها القرص على الختم العبرى المذكور انفا ، فمثلا ظهر على ختم آرامى من بيروت ، ارخه غالينج (٢٦) بمطلع القرن السابع قبل الميلاد . رموز تشبه الى حد كبير تلك الرموز الممثلة على ختم مناسبة المذكور سابقا ، مع فارق فى ان الهلال وقرص الشمس يعلوان شخصين متقابلين وقوفا وجها لوجه ، ولقد ظهرت هذه الفكرة على ختم ارخه غالينج كذلك (٢٧) الى ما بين القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد ، فالى جانب الهلال المفتوح الى أعلى ، وقرص الشمس بأذرعه الثمانية المشعة ، ظهر فى الجزء الايمن من الختم كذلك رمز عنخ المصرية ، وقرص الشمس ولكن بلا تمثيل للشعاع ، ويعد تمثيل اشارة عنخ هنا دليلا آخر على ما لهذه الرموز من علاقة بمعنى الخصب والتوالد . وتجدر الاشارة هنا ونحن بصدد الحديث عن « اختام الرموز » هذه انه عثر اثناء حفرية انقاذ قامت بها دائرة الآثار الأردنية عام ١٩٨٢ على قبر فى منطقة ام أذينة بعمان كان من أهم ما عثر عليه فيه ختم له يد فضية كبيرة نسبيا ، هلالية الشكل ، عليها اربعة فصوص متباعد بعضها عن بعض بابعاد متساوية ، وقد بدا ان لختم ام اذينة شبها قويا بالاختام المذكورة اعلاه عامة وبختم مناسةبشكل خاص ، خصوصا فيما يتصل بتمثيل الرموز الفلكية هكذا اذن يمكن تأريخ هذا الختم بنهاية القرن الثامن ومطلع القرن السابع قبل الميلاد (٢٨).

اما فى مصر فقد سبق ان ذكرنا ان فكرة الشمس والقمر فيها انما اختصرت بتمثيل حورس الصقر . يضاف الى ذلك أن إله طيبة المحلى خونس Khons قد مُثل وهو يضع على رأسه القمر الهلال وبداخله قرص الشمس ولكن هذا القرص ظهر وهو يملأ الهلال تماما . ولقد أُرِّخ تمثال خونس هذا الى ما بين ٦٧٢ ـ ٥٢٥ قبل الميلاد (٢٩) . ويظهر من بين المعبودات المصرية كذلك الاله توت Toth على هيئة قرد قاعد وعلى رأسه القمر الهلال وبداخله قرص الشمس ولكنه ايضا يملأ الهلال فيكون هذا بعيد الشبه من الطريقة التى وزعت بها الرموز على نحتنا النذرى ، هذا وان كانت قدما هذا الاله بتحزيزهما واصطفافهما بعضا الى بعض يلفتاننا الى ما لهذا التمثال من خاصية مشابهة . ان مثل هذه الاقدام العارية التى تقف على ارضية مرتفعة لتعتبر ظاهرة شائعة بين التماثيل العمونية بشكل خاص من القرن السابع قبل الميلاد (٣٠) كما هو الحال بالنسبة للحفرة التى بين الكتفين لنماذج ترجع الى تلك الفترة ايضا (٣١) ويبدو ان هذه الفكرة قد استمرت بالظهور فى الفترات اللاحقة فبدت الالهة نيك Nike مثلا فى مملكة الانباط وهى تقف فى تماثيلها على ارضية مرتفعة وصفها الدارسون بأنها ارضية مقدسة (٣٢) .

واخيرا فقد استمر تقديس القمر الهلال على ما يبدو حتى الأمس القريب . ومن أحسن الشواهد المادية على ذلك ما نراه فى مصابيح الاضاءة الفخارية من القرن الأول الميلادى حيث انتهت أيدى هذه المصابيح بأشكال اهلّة مفتوحة الى الأعلى (٣٣) .

الخلاصـــــة

راينا مما سبق ان هذا المعبود النذري فريد فى طريقة نحته ، اذ لم يقصد النحّات الذى جسّم هذه الفكرة الدينية ان ينحت تمثالا عاديا لأنثى وانما بدا واضحا ان تركيزه منصبّ على نحت الرموز بالدرجة الأولى ، اذ ليس لهذا التمثال عمق التماثيل العادية فضلا عن أن يديه غير ممثلتين . وتأتى ندرة هذا التمثال كذلك من تجسيد ما يسمى بالثلاثي الكوكبى على صدره ، وبذلك يجتمع هذا الثلاثى لأول مرة على نحت حجرى واحد ليبين لنا معتقدات دينية .

وتجدر الاشارة الى ان وجود هذا المعبود على الأرض العمونية لا يرجع فقط الى الهيمنة الآشورية فى المنطقة وانما يمكن ان يكون قد دخل هو وأمثاله من المعبودات الآشورية على شكل أفكار نقلها التجار الآشوريين فى حالات السلم ، وكان مما ساعدهم على ذلك ، الطريق التجارى المهم الذى كان يربط الحجاز بدمشق ومنها الى غزة من طريق وادى عربة ، ثم الى الشرق عن طريق دومة وتيماء الى أعالى الفرات والخليج . وقد يكون هذا مفيدا فى تعليل حمل اختام عبرية من فلسطين رموزا فلكية عراقية كهذه ، وان نساء من بنى اسرائيل قال النبى حزقيال انهن يكين الاله تموز العراقى المشهور فى مكان اقامتهن بجنوب فلسطين منذ القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد ، هذا وتجدر الاشارة الى ان العبرانيين ، رغم كون التوراة بين ظهرانيهم ، قد قرنوا اليهم باسم بعل الاله الكنعانى المشهور والاله يهوه اله القمر عند المدنيين الذين كانوا يعيشون فى الأجزاء الجنوبية لصحراء سيناء . ولعل من المفيد ان نذكر هنا ايضا نحت القمر والشمس معا على هذا المعبود انما يرجع سببه الى اعتدال المناخ فى هذه المنطقة من شمال الجزيرة العربية بما فى ذلك الأرض العمونية ، فبينما لم تمثل الشمس فى وسط الجزيرة العربية وجنوبها ربما لارتفاع حرارتها التى تتعدى الدفء الى اتلاف المزروعات والأشجار حتى تطير منها الناس واتخذوها عدوا ، نجد ان منحوتات القمر انتشرت فى تلك المناطق كأنها رمز الهي . ومما يزيد هذا الأمر بيانا ما ظهر واضحا فى أشعارهم كقول الأعشى :

تقطـع الأمـعـزَ المكـوكـب خِـدا　　بنـواح سـريـعـة الايـغـال

فالأمعز المكوكب هي الشمس تقدح شررا وحرارة ، ولا يقال هنا ان النابغة الذبياني انتحى غير مذهبهم حين قال في الحارس الغساني :

فـانـك شمس والملـوك كـواكـب
اذا طلـعـت لـم يبـد منـهـن كـوكـب

لأن النابغة ذهب الى معنى السطوة وشدة البأس فشبهه بالشمس لذلك ، وهذا معنى يروق الملوك ويسوغ في احلاقهم . وتراهم في مقابل هذا يتغنون بالقمر فوجه الحبيب عندهم كالقمر ، وعمر بن أبي ربيعة يشبه نفسه به (قد عرفناه وهل يخفى القمر) والسمار تطيب بينهم الأحاديث وتتصل في ليالي أسمارهم المقمرة ، ونور القمر « للعصبة السارين جد قريب » في قول البحتري منهم ، ولقد استمر تقديس القمر وتأليهه الى اليوم ، فالعلويون من الشيعة الغلاة يؤكدون ان القمر ليس فقط هو علي بن أبي طالب وسلمان الفارسي بل انه هو الاله ايضا (٣٤) . ان وجود القمر والشمس معا على هذا النحت الى الشرق من نهر الأردن يعد وحده مؤشرا قويا على الحياة الاقتصادية التي عاشها الناس في هذه المنطقة من الشرق القديم اثناء السيطرة الآشورية وذلك على شكل جماعات اعتمدت حياتي الرعي والزراعة . ولقد يزيد الاعتقاد بسداد هذه الفكرة تذكر الحوار الذي دار في بلاد ما بين النهرين بين الاله ديموزي (تموز) اله الرعي وانكمد واله الزراعة وكيف أن كلا منهما كان يحاول ان يخطب ود الاله عشتار حتى كان تموز هو الاله الفائز بقلبها منهما ، وهكذا تكون عبادة الشمس بهذا المعنى ممثلة للمرحلة الثانية من تطور حياة البشرية التي اعتمدت الزراعة بدلا من حياة الرعي . ان القمر الهلال الذي يمثل حياة الرعي وقرص الشمس الذي يرمز الى الزراعة بالاضافة الى الثديين البارزين اللذين يمثلان الآلهة عشتار كآلهة للخصب ، لهي رموز ممثلة بشكل واضح على هذا التمثال العموني المهم ، ثم ان الحفرة التي بين الكتفين (The Mortice) والثديين العاريين بالاضافة الى القدمين المصطفتين على ارضية مرتفعة كلها صفات تحمل على الاعتقاد بأن هذا التمثال المحوّر انما ينسب الى مدرسة النحت العمونية التي تظهر في منحوتاتها مثل هذه الصفات منذ القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد وهي فترة تؤرخ اليها معظم النماذج المشابهة التي عالجتها هذه الدراسة .

من كل ذلك يتبين ان هذا التمثال لم ينحت اعتباطا بقصد التلهي او الزينة كما قال الكثير من الدارسين الذين حاولوا تفسير نماذج مشابهة وانما نحت لغرض ديني تعبدي لثالوث الهي عريق تمثل في الآلهة عشتار والاله أوتو أو شماش وأخيرا الاله نانا أو سين وكلها الهة عراقية الأصل والمنبت .

الهوامش

(١) اشكر الزميلين الأستاذ الدكتور عبدالقادر عابد والدكتور سعد الباشا على تحليلهم لعينة من صخر هذا التمثال في مختبر قسم الجيولوجيا بكلية العلوم بالجامعة الاردنية

(٢) J. Gray, Near Eastern Mythology Mesopotamia, Syria, Palestine, (London, the Hamlyn Publishing Group, 1960), P. 20
Gray, Mythology; K.R. Hyslop, Western Asiatic Jewellery c. 3000-612 B.C., (London, Methuen & COLTD, 1971), P. 152.
وسيشار اليه فيما بعد باسم Hyslop, Jewellery.

(٢) وديع بشور ، الميثالوجيا السورية (بيروت ، مؤسسة فكر للابحاث والنشر ، ١٩٨١) ، ص ٦٠ ـ ٦١ ، وسيشار الى هذا المرجع فيما بعد باسم بشور ، ميثالوجيا . اذ يلفت المؤلف الى ان هذا الاله كان يمثل وهو يستعرض الآلهة راكبا حصانا ، ومن الجدير بالذكر ان هناك مجموعة من الاشكال الفخارية لفرسان يركبون الخيول ويرتدون قبعات كداب الأشوريين في ذلك معروضة في متحف الآثار الأردني بعمان ، وقد بدا لنا ان لها علاقة بعبادة الشمس في منطقة شرق الأردن في العهد الآشوري . للمزيد في هذا انظر :
A.J. 'Amr. A Study of the Clay Figurines and Zoomorphic Vessels of Trans-Jordan During the Iron Age. With Special Reference to their Symbolism and Function. (London, Unpublished Ph. D. Thesis, 1980). P. 185.
وسيشار الى هذا المصدر فيما بعد باسم : Amr. Figurines and Zoomorphic

(٤) بشور ، ميثالوجيا ، ص ٤٩ ـ ٥٢ ، ٦١

(٥) المرجع السابق ، ص ٦١ وانظر ايضا : Hyslop, Jewellery, P. 144.

(٦) F. Cumont. "Une Intaille Provenant D'emese," Syria, 7 (1926). PP. 347-352.
وسيشار اليه فيما بعد باسم : Cumont, Syria; S.A. Cooke. The Religion of Ancient Palestine in the Light of Archaeology. (Oxford. Oxford University Press. 1930). P. 117; 'Amr. Figurines and Zoomorphic, P. 238.

(٧) Cumont, Syria, P. 349; Gray, Mythology, P. 22; C.M. Buisson, "Le Cylindresceau Archaique de Byblos Reexamine," Berytus. XXVI, (1975), PP. 98-119; D.G. Shepherd. "The Iconography of Anahita," Berytus, XXVIII, (1980), PP. 47-56; بشور ، ميثالوجيا ، ص ٨٦ .

(٨) 'Amr. Figurines and Zoomorphic. P. 127, Figs. 343-351: 17-21, 24-26.

(٩) جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، ج ٥ ، (بغداد ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، ١٩٥٥) ص ١٣٨ ـ ١٤٠ ، لطفي عبدالوهاب ، العرب في العصور القديمة ، (بيروت ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، ١٩٧٨) ، ص ٣٥٩ ـ ٣٦٠ .

(١٠) Gray, Mythology, P. 22.

(١١) بشور ، ميثالوجيا ، ص ٥٨ وانظر ايضا : Gray, Mythology, P. 21.

(١٢) R. Patrick. All Colour Book of Egyptian Mythology, (London, Octobus Books Limited, 1972) P. 38, pl. 36; بشور ، ميثالوجيا ، ص ٩١ ، ١١٢ .

(١٣) الزُمر / ٣

(١٤) Y. Yadin, Hazor, The Rediscovery of a Great Citadel of the Bible. ("Tel Aviv," Weidenfeld and Nicolson, 1974), P. 46.

(١٥) R. Graves, New Larousse Encyclopedia of Mythology, (London, The Hamlyn Publishing Group, 1968), P. 84, Graves, Myth.
سيشار الى هذا المرجع عند تكراره باسم :

(١٦) Pp. cit., P. 56-57.

(١٧) Ibid, P. 46.

(١٨) Graves, Myth, P. 84

(١٩) Hyslop, Jewellery, P. 219, Pl. 194

(٢٠) اندريه بارو ، بلاد آشور ، ترجمة عيسى سلمان وسليم طه التكريتي ، (بغداد ، وزارة الثقافة والاعلام ، ١٩٨٠) ص ٣٠٢ لوحة ٣٥٨ .

(٢١) Op. Cit. P. 145, Pl. 114.

(٢٢) 2 Kings 21 : 5

(٢٣) N. Avigad, "A seal of 'Manasseh son of the King." IEJ. 13 (No. 2), PP. 133-136.

(٢٤) A. Reifenberg, "Some Ancient Hebrew Seals," PEQ. (1939). PP. 195-198.

(٢٥) G. Galling, "Beschriftete Bildsiegel des ersten Jahrtausends V. Chr. Vornehmlich aus Syrien und Palastina," ZDPV . 64 (Heft 2). (1941), PP. 121-202
وسيشار له عند التكرار باسم : Galling, Bildsiegel

(٢٦) Ibid., Pl. 8: 121

(٢٧) Ibid., Pl. 9: 148

(٢٨) يقوم الزميل الدكتور محمود ابوطالب ، من قسم الآثار بالجامعة الأردنية ، بدراسة جادة لهذا الختم ستظهر في القريب العاجل .

(٢٩) Graves, Myth, P. 33

(٣٠) R.D. Barnett, Four Sculptures from Amman," ADAJ, I. (1951) PP. 34-36, Pls. X-XI; N. Glueck, Dettes and Dolphins, (New York, Ambassador Books, Ltd., 1965), PP. 152-153, Pls. 70-71; M. Ibrahim, "Two Ammonite Statuettes from Khirbet El Hajjar," ADAJ, XVI, (1971), PP. 91-97, Pl. I
وسيشار الى المصدرين الأولين عند تكرارهما على النحو التالي .

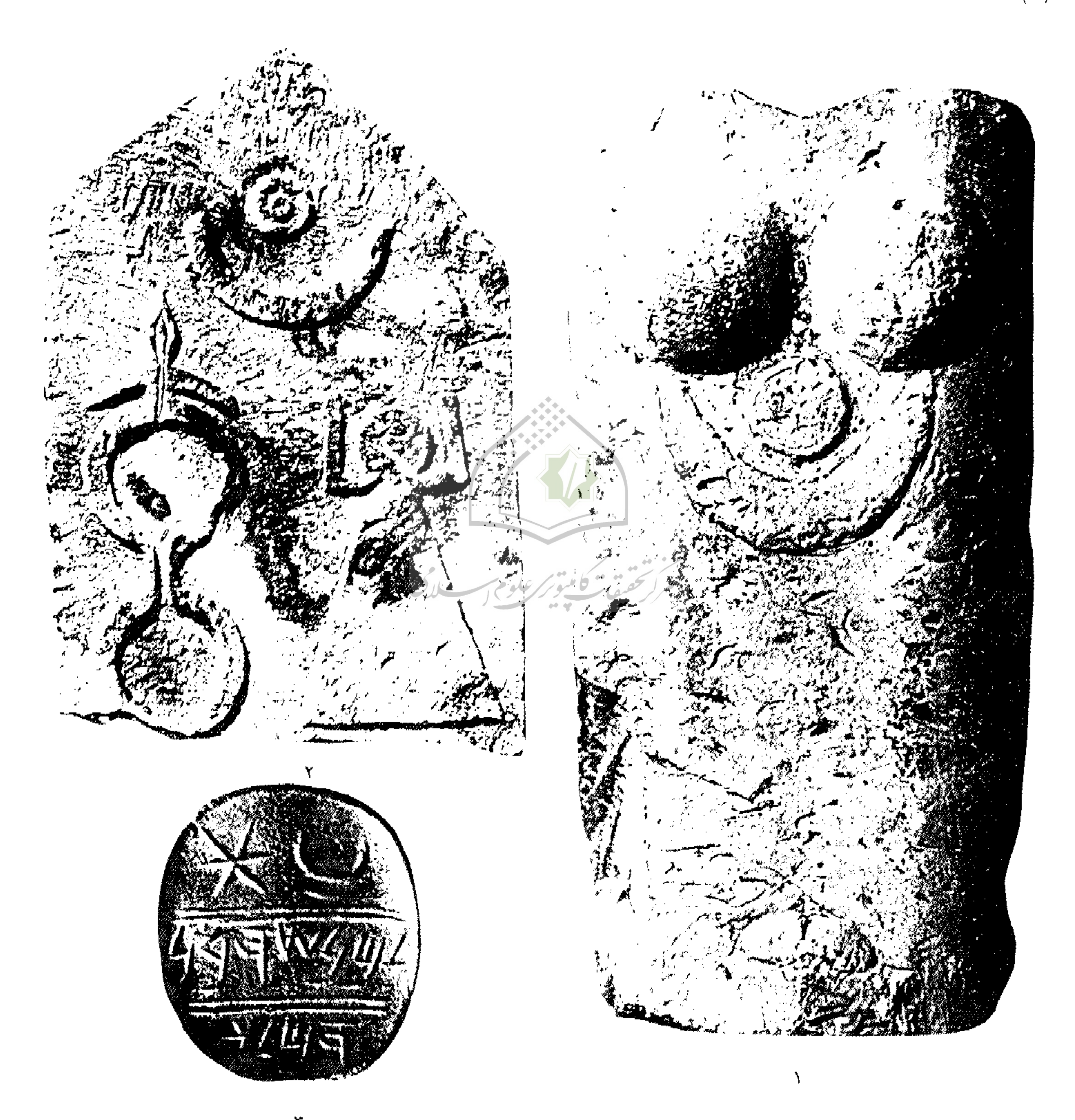
Barnett, Sculptures; Glueck, Deities.

(٢١) Barnett, Sculpture, Pl. XIII: A;
Glueck, Deities, P. 154, Pls. 69: d, 72: c-d; 'Amr, Figurines and Zoomorphic, Figs. 373-74: 76-78.

(٢٢) Glueck, Deities, PP. 402, Pls. 180-81, 408: F-G.

(٢٣) انظر على سبيل المثال :
A. Negev, The Nabatean Potter's Workshop at Oboda, (Bonn, Rudolf Habelt Verlag Gmbh, 1974), P. 27, Pl. 16: 82; R. Rosenthal and R. Sivan, "Ancient Lamps in the Schloessinger Collection," Qedem, 8, (1978), PP. 19-21, Nos. 42, 49-50.

(٢٤) للمزيد عن تقديس القمر عند غلاة العلويين انظر : مصطفى الشكعة ، اسلام بلا مذاهب ، (بيروت ، دار النهضة للطباعة والنشر ، ١٩٧٣) ، ص ٢٣٦ ـ ٢٣٨ .



٢

١

٣

عرض الكتب ونقدها
كتاب تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة

للدكتور أحمد السعيد سليمان
عرض الدكتور شاكر محمود عبد المنعم

طبع بمصر بمطابع دار المعارف سنة ١٩٧٢ م يقع الكتاب في جزأين وعدد صفحاته ٧٢٥ ص وفيه جداول بأسماء الأسر الحاكمة .

حرّر هذا الكتاب لأول مرة عالم النحتيات الانجليزى «ستانلي لين بول» Stanley Lane- Poole وظهرت طبعته الاولى في لندن سنة ١٨٩٣ م

ونقله بعد ذلك الى اللغة الروسية «بارتولد» بزيادات وتصحيحات وظهرت طبعته الروسية سنة ١٨٩٩ م .

ثم قُيِّض للكتاب عالم تركي من الرعيل الأول هو : خليل أدهم الدم (١٨٦١ ـ ١٩٣٨)، فنقله الى اللغة التركية نقلاً موسعاً على حد تعبيره ، وكان اعتماده في التوسيع على زيادات «بارتولد»، وعلى عدد كبير من المخطوطات العربية والفارسية والتركية ، وعلى كتالوجات المسكوكات ، وعلى كثير من نصوص الوقفيات وعديد من النقوش .

وكان أدهم يدرك زياداته في مواضعها من تاريخ كل دولة ، طوراً في أول النص فتكون هي فاتحته بدلا من الأصل الانجليزى ، وطوراً في أخره فتكون بمثابة ذيل عليه ، وطوراً يوزعها جملاً وفقرات في ثنايا البحث .

وحرر أدهم بالاضافة الى ترجمته الموسعة ابحاثاً جديدة كاملة ، فلقد كان عدد الدول التى درسها لين بول مائة وثماني عشرة دولة ، ويبلغ عدد الدول في النص التركى الذى حرره أدهم مائة واحدى وثمانين دولة .

ويعنى هذا الكتاب في تاريخه لكل دولة بثلاث مراحل من تاريخها : مرحلة النشوء، ومرحلة الارتقاء ، ومرحلة الاضمحلال ثم الانقراض .

وهو بهذه المعلومات التاريخية الأساسية الموثقة كتابٌ في التاريخ ، ذُيِّلت كل دولة فيه بشجرة الأسرة المؤسسة وبسلسلة ملوكها أو امرائها مرتبة ترتيباً زمنياً ، وليس ـ ككتاب زنباور ـ دفتر قوائم وأشجار ونسب .

وهو أوسع ـ حتى في اصله الانجليزى الأول الذى لايبلغ ثلث النص التركى ـ في كتاب الدول الاسلامية The Islamic Dynasties الذى حرره بوزوورث C.E. Bosworth والذى ظهرت اولى طبعاته في أدنبره سنة ١٩٦٧ م، اذ لم يتناول هذا الكتاب الاخير غير اثنين وثمانين دولة .

ولما كان النص التركي قد طبع سنة ١٩٢٧ ، وكان العالم الاسلامى قد تغير منذ ذلك التاريخ، فكانت فيه دول لم تكن من قبل ، واستقلت من دوله دول كانت تعانى من الاستعمار، وحل النظام الجمهورى في بعض بلاده محل النظام الملكى . فقد ذكر الدكتور سليمان هذه التغيرات في مواضعها اما في فقرات واما في فصول كاملة يعالج كل منها دولة ، ولقد كان عدد الدول التى اضافها سبعاً وعشرين دولة ارتفع بها عدد الدول الى ثمان ومائتى دولة .

ولقد قابل بين النصين الانجليزى والتركى ووضع الزيادات التركية حيثما وجدت بين خاصرتين هكذا [ ] .

وأما الدول التى اضافها ادهم سواء نقلاً عن مخطوطاته أو عن بارتولد فقد كتب د . سليمان امام اسم كل منها في الفهرس عبارة (زيادة ليست في النص الانجليزى) .

وكتب امام كل اسم من اسماء الدول التى اضافها عبارة (زيادة ليست في النص التركى) .

ولما كان أدهم قد اضاف عشرات الدول دون ان يزيد فصول الكتاب ، فقد أدرج د . سليمان ايضا سبعا وعشرين دولة في فصول الكتاب البالغة اربعة عشر فصلا، فزاد عدد الدول ولم يزد عدد الفصول .

والجزء الاول من الكتاب يشتمل على ثمانية فصول والتتمة في الجزء الثانى .

الفصل الأول :

خلفاء الاسلام من القرن الأول الى القرن العاشر فتكلم عن الخلفاء الراشدين والاموين والعباسيين وتحدث عن عباسيي مصر (وهذه اضافة ليست في النص الانجليزى) .

الفصل الثانى :

اسبانيا ـ الاندلس (ق ٢ ـ ق ٩).

فتكلم عن امويي الاندلس (امويى قرطبة) وملوك الطوائف

وعن بنى حمود في (مالقة) وفي (الجزيرة) وبنى عباد (في اشبيلية) وبنى زيرى (في غرناطة) وبنى جهور (في قرطبة) وبنى ذى النون (في طليطلة) وبنى عامر (في بلنسية) وبنى تجيب وبنى هود (في سرقسطة) وملوك دانية والمرابطين والموحدين وعن بنى نصر - بنى الاحمر (في غرناطة).

اما (الاضافات التى ليست في النص الانجليزى فهى):

تحدث عن بنى الافطس (في بطليوس) و (بنى حماد في مرسية) وملوك طرطوشة وميورقة والبونت ومرسية وعن بنى هود في مرسية.

الفصل الثالث :

شمال افريقيا (ق ٢ - ق ١٤)

تكلم عن الادارسة (في المغرب الاقصى) والاغالبة (تونس الخ) والفاطميين (في الفصل الرابع) وبنى زيرى (في تونس) وبنى حماد (في الجزائر) والمرابطين (في المغرب الاقصى وجزء في الجزائر واسبانيا) والموحدين (في بقية شمالى افريقيا) وبنى حفص (في تونس) وبنى زيان (في الجزائر) والوجاقات المغربية والولايات العثمانية بشمال افريقيا بنى مرين (في المغرب الاقصى) وشرفاء السعدية وشرفاء الفلالية (في المغرب الاقصى) والدول الاسلامية في القارة الافريقية.

اما الاضافات التى ليست في النص الانجليزى فهى : بعض الحكومات المتفرقة في المغرب.

والاضافات التى ليست في النص التركى فهى : الجمهورية التونسية والجمهورية الجزائرية والمملكة الشريفية المغربية وجمهورية موريتانيا الاسلامية وجمهورية السنغال وجمهورية مالى وجمهورية غينيا وجمهورية نيجيريا.

الفصل الرابع :

مصر وسوريا (ق ٣ - ق ١٤)

تكلم عن الطولونيين والاخشيديين والفاطميين وعن الايوبيين : ايوبية مصر وايوبية دمشق وايوبية حلب وايوبية حماة وايوبية حمص وميافارقين (في الجزيرة) واليمن وعن مماليك مصر والاتراك والجراكسة.

اما الزيادات التى ليست في النص الانجليزى فهى : تحدث عن بنى كلب (في صقلية) وايوبية حصن كيفا وايوبية بعلبك وكرك وخديوية مصر وملكيتها.

اما الزيادات التى ليست في النص التركى فهى : الجمهورية السورية واللبنانية وجمهورية مصر العربية، والجمهورية السودانية وجمهورية تشاد وجمهورية الصومال وزنجبار.

الفصل الخامس :

جزيرة العرب اليمن والحجاز (ق ٣ - ق ١٤)

تحدث عن بنى زياد (في زبيد) وبنى يعفر (في صنعاء جند) وبنى نجاح (في زبيد) وبنى صليح وبنى همدان (في صنعاء) وبنى مهدي (في زبيد) وبنى زريع (في عدن) وايوبية اليمن وبنى رسول (في اليمن) وبنى طاهر (في اليمن) وائمة بنى رسى (في صعدة) وائمة صنعاء.

أما الاضافات التى ليست في النص الانجليزى فهى : مملكة الحجاز وائمة عمان وسادتها وسلطنة نجد مع اسماء بعض الدول التى حكمت الحجاز.

اما الاضافات التى ليست في النص التركى فهى : الجمهورية اليمنية والمملكة العربية السعودية والمملكة الاردنية الهاشمية وامارة الكويت.

الفصل السادس :

سوريا الجزيرة (ق ٤ - ق ٦)

تكلم عن بنى حمدان (في الموصل وحلب) وبنى مرداس (في حلب) وبنى عقيل (في الموصل والمناطق الاخرى) وبنى مروان (في ديار بكر) وبنى مزيد (في الحلة).

اما الزيادة التى ليست في النص التركى فهى: (الجمهورية العراقية).

الفصل السابع :

ايران وما وراء النهر (ق ٣ - ق ١١)

تحدث عن بنى دلف (في الكرج والبرج) وبنى ساج (في اذربايجان) والعلويين (في طبرستان) وبنى طاهر (في خراسان) والصفاريين (في ايران) والسامانيين (في ما وراء النهر وايران) والالخانيين (في التركستان) وبنى زيار (في جرجان) وبنى حسنوية (في دیناور وهمدان ونهاوند) وبنى بويه (في جنوب ايران والعراق) وبنى كالويه (في اصفهان وهمدان).

ثم اضاف عن : الباونديين (في طبرستان) وبنى بادوسيان (في رستمدار ورويان) والبريديين (في خوزستان والبصرة وواسط) والاسماعيلية (في الديلم والموت) والسادات (في مازندران) واسرة كاركيا (في كيلان).

الفصل الثامن :

السلاجقة (ق ٥ - ق ٨)

تحدث عن سلاجقة خراسان وكرمان والشام والعراق والاناضول. فالاضافات التى ليست في النص الانجليزى فهى : عن الدانشمندويين وبنى منكوجك وبنى سلدق.

اما الجزء الثانى فيبدأ بالفصل التاسع.

الفصل التاسع :

الاتابكة (ق ٦ - ق ١٠)

تحدث عن البوريين وآل زنكى واتابكة الموصل وحلب وسنجار والجزيرة والالبتكينية وبنى ارتق في ماردين والارمن شاهات واتابكة اذربيجان والسلفريون (اتابكة فارس) والهزارسبون (اتابكة بلاد اللورالكبير) الخوارزمشاهية والقتلغ خانات (في كرمان).

الاضافات التى ليست في النص الانجليزى هى عن : بنى ارتق في خرتبرت وبنى شداد ودولة شاهات شيروان وبنى خورشيد (اتابكة لورستان الصغير) واتابكة يزد واتابكة شبانكاره وابناء اينال.

الفصل العاشر :

عن ورثة السلاجقة في غرب الاناضول

الاضافات التى ليست في النص الانجليزى هى عن : بنى بروانة وبنى صاحب أتا وبنى قراسي وبنى صاروخان وبنى أيدين وبنى ازمير وبنى منتشا وبنى تكه وبنى اشرف وبنى حميد وبنى كرميان وامراء دكزل وبنى قرمان وبنى جاندار وبنى ذى لقادر وبنى رمضان والعثمانيين والجمهورية التركية .

الاضافة التى ليست في النص التركى فهى عن (جمهورية البانيا).

الفصـل الحـادى عشـر :

المغـــول

تحدث عن القاآنات وعن حقول ايران وخانات القبيلة الذهبية وخانات القرم وخانات جفتاى والقاضى برهان الدين احمد سلطان سيواس .

اما الاضافات التي ليست في النص الانجليزى فهى عن : آل طفاتيمور وبنى ارتنا .

الفصـل الثاني عشـر :

ايـران

تحدث عن الجلائريين والمظفريين والسربدارية وملوك كرت والقراقيونلية والآق قيونلية وشاهات ايران والصفويين والافغان والملوك المنتمين الى افشار والزندين والقاجاريين.

اما الاضافات التي ليست في النص الانجليزى فهى عن : بنى اينجو وخانات آل شرف .

الفصـل الثالث عشـر :

ما وراء النهـر

تكلم عن التيموريين والشيبانيين والجانيين والمنغيت وخانات خيوه وخانات خوقند .

الفصـل الرابع عشـر :

الهند وافغانستان

تكلم عن الغزنويين والغوريين وسلاطين دهلي والخلجيين والتغلقيين والسادات واللوديين والافغان وولاة البنغال وملوكها والملوك الشرقيين في جونبور وملوك مالوه وملوك الكجرات وملوك خاندش والملوك البهمنية ودولة عماد شاه ودولة نظام شاه ودولة بريد شاه ودولة عادل شاه ودولة قطب شاه وامبراطورية المغول في الهند. وباكستان وامراء افغانستان.

اما الاضافات التى ليست في الاصل التركي فهى عن: اندونيسيا واتحاد ماليزيا.

والاضافة التى ليست في النص الانجليزى فهى عن ملوك كشمير .

وفي نهاية الجزء الثانى نجد فهرساً للاعلام من ص ٦٦٩ ـ ٧٠٧ وفهرساً باسماء البلدان من ص ٧٠٨ ـ ٧٢٠ .

وقد صوّب الاخطاء المطبعية في الصفحة الاخيرة وهى ص ٧٢١ .

تجارة العراق البحرية مع اندونيسيا

حتى أواخر القرن السابع الهجرى ـ أواخر القرن الثالث عشر الميلادى

تأليف الدكتور : عادل محيي الدين الألوسى
عرض الدكتور : محمد جاسم حمادى المشهدانى

الكتاب من بين الكتب التاريخية المهمة التى تبحث في النشاط التجارى كحقل مهم من حقول الدراسات التاريخية الاقتصادية في تاريخنا العربى ، حيث كان للنشاط التجارى دور مهم في حضارة العالم ، وفي نشر الاسلام وتبادل الآراء والافكار ، والتبادل الحضارى .

وبين الكتاب البُعد التاريخى القديم للعلاقات الاقتصادية بين العالم العربى وبلاد المشرق ، وبالاخص جزائر الهند الشرقية ، حيث كان للموقع الجغرافى للعراق وبالاخص بعد بناء بغداد دور مهم في نمو التجارة وازدهارها ، حتى اصبحت مظهراً من مظاهر الابهة العربية الاسلامية ، مع دراسة العوامل التى ادت الى تعزيز وتشجيع الازدهار التجارى ، وتطور نظام الائتمان والمعاملات التجارية كالصيرفة والحوالات .

وأكد المؤلف على اهمية الخليج العربي باعتباره المنفذ البحرى الوحيد الذى يوصل العراق بالمشرق ، كما تناول مواد التجارة وما كان يصدر منها من العراق والمنطقة العربية الى الشرق الاقصى وما يستورد منها ، وبين المؤلف الأثر الايجابى للتجارة كاداة مهمة للنقل الحضارى وللتبشير الدينى ، كما بين مصاعب النشاط التجارى في تلك الاثناء .

ويقع الكتاب في اربعة فصول ، تطرق فيها الى عوامل الازدهار التجارى في العصر العباسى مع جنوب شرقى آسيا ، وتجارة العباسيين البحرية بما في ذلك طرق التجارة ، ووسائط النقل ، وافرد فصلاً خاصاً عن التجارة مع اندونيسيا ، واثر الاسلام في ازدهارها كما انه افرد فصلاً خاصاً بمواد التجارة المستوردة والمصدرة .

(١) الكتاب منشورات دار الشؤون الثقافية ، وزارة الثقافة والاعلام العراقية (بغداد، ١٩٨٤)

الاضافات التى ليست في النص الانجليزى هى عن : بنى بروانة وبنى صاحب أتا وبنى قراسي وبنى صاروخان وبنى أيدين وبنى ازمير وبنى منتشا وبنى تكه وبنى اشرف وبنى حميد وبنى كرميان وامراء دكزل وبنى قرمان وبنى جاندار وبنى ذى لقادر وبنى رمضان والعثمانيين والجمهورية التركية .

الاضافة التى ليست في النص التركى فهى عن (جمهورية البانيا).

الفصـــل الحـادى عشـر :

المغـــول

تحدث عن القاآنات وعن حقول ايران وخانات القبيلة الذهبية وخانات القرم وخانات جغتاى والقاضى برهان الدين أحمد سلطان سيواس .

اما الاضافات التي ليست في النص الانجليزى فهى عن : آل طفاتيمور وبنى ارتنا .

الفصـــل الثانى عشـر :

ايـــران

تحدث عن الجلائريين والمظفريين والسربدارية وملوك كرت والقراقيونلية والآق قيونلية وشاهات ايران والصفويين والافغان والملوك المنتمين الى افشار والزندين والقاجاريين.

اما الاضافات التي ليست في النص الانجليزى فهى عن : بنى اينجو وخانات آل شرف .

الفصـــل الثالث عشـر :

ما وراء النهـر

تكلم عن التيموريين والشيبانيين والجانيين والمنغيت وخانات خيوه وخانات خوقند .

الفصـــل الرابع عشـر :

الهند وافغانستان

تكلم عن الغزنويين والغوريين وسلاطين دهلي والخلجيين والتغلقيين والسادات واللوديين والافغان وولاة البنغال وملوكها والملوك الشرقيين في جونبور وملوك مالوه وملوك الكجرات وملوك خاندش والملوك البهمنية ودولة عماد شاه ودولة نظام شاه ودولة بريد شاه ودولة عادل شاه ودولة قطب شاه وامبراطورية المغول في الهند. وباكستان وامراء افغانستان.

اما الاضافات التى ليست في الاصل التركى فهى عن: اندونيسيا واتحاد ماليزيا.

والاضافة التى ليست في النص الانجليزى فهى عن ملوك كشمير .

وفي نهاية الجزء الثانى نجد فهرساً للاعلام من ص ٦٦٩ ـ ٧٠٧ وفهرساً باسماء البلدان من ص ٧٠٨ ـ ٧٢٠ .

وقد صوّب الاخطاء المطبعية في الصفحة الاخيرة وهى ص ٧٢١ .

تجارة العراق البحرية مع أندونيسيا

حتى أواخر القرن السابع الهجرى ـ أواخر القرن الثالث عشر الميلادى

تأليف الدكتور : عادل محيى الدين الألوسى
عرض الدكتور : محمد جاسم حمادى المشهدانى

الكتاب من بين الكتب التاريخية المهمة التى تبحث في النشاط التجارى كحقل مهم من حقول الدراسات التاريخية الاقتصادية في تاريخنا العربى ، حيث كان للنشاط التجارى دور مهم في حضارة العالم ، وفي نشر الاسلام وتبادل الآراء والافكار ، والتبادل الحضارى .

وبين الكتاب البُعد التاريخى القديم للعلاقات الاقتصادية بين العالم العربى وبلاد المشرق ، وبالاخص جزائر الهند الشرقية ، حيث كان للموقع الجغرافى للعراق وبالاخص بعد بناء بغداد دور مهم في نمو التجارة وازدهارها ، حتى اصبحت مظهراً من مظاهر الابهة العربية الاسلامية ، مع دراسة العوامل التى ادت الى تعزيز وتشجيع الازدهار التجارى ، وتطور نظام الائتمان والمعاملات التجارية كالصيرفة والحوالات .

وأكد المؤلف على اهمية الخليج العربي باعتباره المنفذ البحرى الوحيد الذى يوصل العراق بالمشرق ، كما تناول مواد التجارة وما كان يصدر منها من العراق والمنطقة العربية الى الشرق الاقصى وما يستورد منها ، وبين المؤلف الأثر الايجابى للتجارة كاداة مهمة للنقل الحضارى وللتبشير الدينى ، كما بين مصاعب النشاط التجارى في تلك الاثناء .

ويقع الكتاب في اربعة فصول ، تطرق فيها الى عوامل الازدهار التجارى في العصر العباسى مع جنوب شرقى آسيا ، وتجارة العباسيين البحرية بما في ذلك طرق التجارة ، ووسائط النقل ، وافرد فصلاً خاصاً عن التجارة مع اندونيسيا ، وأثر الاسلام في ازدهارها كما انه أفرد فصلاً خاصاً بمواد التجارة المستوردة والمصدرة .

(١) الكتاب منشورات دار الشؤون الثقافية ، وزارة الثقافة والاعلام العراقية (بغداد، ١٩٨٤)

رسوم القضاة

لأبي نصر أحمد بن محمد السمرقندي

تحقيق الاستاذ محمد جاسم الحديثي

عرض : أسامة ناصر النقشبندى

من الكتب التى صدرت أخيراً عن دائرة الشؤون الثقافية والنشر في وزارة الثقافة والاعلام ببغداد كتاب رسوم القضاة ويقع في ٢٨٦ صفحة .

هذا الكتاب من المؤلفات النادرة تناول فيه المؤلف جانباً مهماً من التراث العربى الاسلامى وهى شكليات الاحكام والقرارات القضائية التى تنظم علاقات الناس في مختلف جوانب الحياة اليومية التى يعيشونها . وقد بدأه برسوم الحكام كما ضمنه الصفات التى يجب ان يكون عليها الحاكم وكتب الالتماسات والتزويجات والفصل والقوام وغيرها ولم يترك المؤلف في هذا الموضوع امراً الا واتى عليه . وقد ذكر ان علماء زمانه قد ارتضوا هذا الكتاب واجمعت كلمتهم على صحته وانتفاء الخلل منه .

لقد اعتمد المحقق في اخراجه لهذا الكتاب على نسخة خطية فريدة محفوظة في قسم المخطوطات بمؤسسة الآثار ببغداد كتبها عمر بن ابى الحسن التميمى في ذى الحجة سنة ٦٠٩ هـ - ١١١٦ م ولم يعثر له على نسخة ثانية في خزائن المخطوطات في العالم كما ان خط هذه النسخة بالرغم من جمالية كتابته ومشقه على اسلوب قريب الى خط النسخ الا ان اغلب كلماته غير منقوطة واختزل الناسخ بعض اجزاء من الحروف وطمست معالم بعض الكلمات كما ظهر لنا ذلك في الصفحات التى صورها المحقق في بداية الكتاب . لذلك نجد ان المحقق قد استعاض عن النسخ الاخرى بضبط النص على كتب الشروط والسجلات والدعاوى وكتب اللغة والادب والفقه وبالصيغة التى وردت عند علماء هذا الموضوع اضافة الى تخريج النصوص القرآنية كما وردت في مواضعها بالقرآن الكريم والى توثيق الرجال ونقل تراجمهم من المراجع والمصادر المعتمدة فلم يترك المحقق صغيرة ولا كبيرة في هذا الكتاب الا واتى عليها شرحاً وتوضيحاً وتوثيقاً .

ومن الأمور التى لاحظتها على هذا الكتاب ان جهد المحقق لم ينصب على عملية التحقيق فقط ، بل قام بتبويب الكتاب باسلوب معاصر دقيق فقسم الكتاب الى اثنى عشر بابا ، وكل باب جعله في عدة فصول وبعض الفصول قسمت الى جرائد وانواع ومحاضر مع ابقائه للنص كما هو دون ان يقدم او يؤخر او يغير في النص او اسلوب المؤلف ، حيث ان المؤلف اصلاً استرسل في الكتابة وفق الاسلوب الذى كان سائداً آنذاك .

والابواب التى تضمنها الكتاب :

الباب الأول : رسوم الحكام وفيه اربعة فصول .
الباب الثانى : في الالتماسات وفيه ثلاثة فصول .
الباب الثالث : كتب التزويجات وفيه فصلان .
الباب الرابع : كتاب الفصل وفيه فصلان .
الباب الخامس : كتب القوام وفيه تسعة فصول .
الباب السادس : كتب التقديرات وفيه فصلان .
الباب السابع : كتب الاستدانات وفيه ثلاثة فصول .
الباب الثامن : كتب التوسطات وفيه احد عشر فصلاً .
الباب التاسع : كتب الحلى والشيات وفيه ستة فصول .
الباب العاشر : في المحاضر والدعاوى وفيه ستة وثلاثون فصلاً
الباب الحادى عشر : في السجلات وفيه اثنا عشر فصلا .
الباب الثانى عشر : الكتب الحكمية وفيه فصلان .

لقد ختم المحقق الاستاذ محمد الحديثى هذا الكتاب بكشافات عامة مهمة وهي فهرس الآيات القرآنية الكريمة وفهرس الاعلام الواردة في النص المحقق وفهرس المصطلحات الفقهية والحضارية . وفهرس المصادر والمراجع وفهرس موضوعات الكتاب .

ان هذا السفر يعد بحق من الكتب المفيدة والمهمة للباحثين والدارسين للتراث العربى الاسلامى خصوصاً للدارسين لاحكام الشريعة الاسلامية ولرجال القانون والمعنيين بأمور القضاء .

ولا يفوتنى ان اذكر ان هذه الطبعة الانيقة حليت بغلاف تضمن صورة للوحة زخرفية ملونة من التراث العربى الاسلامى رسمت بأسلوب مغربى متميز ترقى للقرن الثانى عشر الهجرى الثامن عشر الميلادى كما اشير الى ذلك في آخر هذا الكتاب ..

العصبية والدولة

معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي

تأليف: الدكتور محمد عابد الجابري
عرض: محمد محمود الكبيسي

إن الهدف من هذا العرض، تقديم موجز مكثف، عن رؤية بحث مغربي، لآراء ابن خلدون في العصبية والدولة، بوصف الكتاب، وبيان أسباب تأليفه وغايته، ومنهاجه، وموضوعاته ونتائجه، ومصادره ومراجعه، على نحو ما يلي:

أولا: وصف الكتاب

ظهر هذا المؤلف، عن دار الثقافة، الدار البيضاء، في طبعته الأولى عام ١٣٩١/ ١٩٧١، وهو يقع في ٤٨٦ صفحة، تتوزع على مقدمة (٣ ـ ١٢) وكلمة شكر (١٣)، وقسمين (١٥ ـ ٣٨٢). يشتمل الأول: الرجل وعلمه الجديد، على تمهيد (١٧ ـ ١٨) وثمانية فصول (١٩ ـ ١٠٦). الأول: عصر التراجع والانحطاط (١٩ ـ ٤٣)، والثاني: بين العلم والسياسة (٤٤ ـ ٧٠) والثالث: من النكبة الى المقدمة (٧١ ـ ٩١)، والرابع: بين العقلانية واللاعقلانية (٩٢ ـ ٩٦)، والخامس: من التاريخ الى علم العمران (١٢٨ ـ ١٤٨) والسادس: علم العمران موضوعا ومنهاجا (١٤٩ ـ ١٦٣)، والسابع: البناء الهرمي لعلم العمران الخلدوني (١٦٤ ـ ١٧٧)، والثامن: هوية علم العمران (١٧٨ ـ ١٠٦). ويشتمل القسم الثاني: العمران البشري وحركة التاريخ، على تمهيد (٢٠٩ ـ ٢١١)، وثمانية فصول (١١٢ ـ ٣٨٢). الأول: جغرافية العمران (١١٢ ـ ١٤٤)، والثاني: نظرية العصبية ـ العصبية والصراع العصبي (١٤٥ ـ ٢٧٠)، والثالث: العصبية والملك (٢٧١ ـ ٢٩٥)، والرابع: أصناف الملك وانواع السياسات (٢٩٦ ـ ٣١٩)، والخامس: الدولة وتطورها ـ الدولة العصبية (٣٢٠ ـ ٣٣٦)، والسادس: الدولة وتطورها ـ من خشونة البداوة الى رقة الحضارة (٣٣٧ ـ ٣٥٤) والسابع: الدولة وتطورها الحضارة المفسدة للعمران (٣٥٥ ـ ٣٦٩)، والثامن: وحدة الفكر الخلدوني والعامل الاقتصادي (٣٧٠ ـ ٣٨٢). كما تتوزع الصفحات على خاتمة: معالم نظرية خلدونية في التاريخ الاسلامي (٣٨٣ ـ ٤٣٢)، وملحق بأهم مصطلحات ابن خلدون (٤٣٣ ـ ٤٧٤) وفهرس المراجع (٤٧٥ ـ ٤٨٣)، والموضوعات (٤٨٥ ـ ٤٨٦).

ثانيا: الأسباب والغاية والمنهاج

لقد برر المؤلف تأليف الكتاب الذى اراده مفيداً في تصحيح الدراسات الخلدونية، حين وجدها كثيرة متنوعة، تجعل أمر الاتيان بجديد، هدفاً عزيزاً وسفراً غير قاصد، فكان الأسلوب، أو قل المنهاج في دراسة الفكر الخلدوني، الباب الأرحب صدراً، للمؤلف، في الدخول الى عالم ابن خلدون. وعقد هذه الدراسة بغية تقديم آرائه، كما هي، وكما فكر فيها، بنظرة شمولية، استرشاداً بالمنحنى الشخصي والتجربة الاجتماعية لابن خلدون، طالما ان الدراسات السابقة، وكما يرى المؤلف، وقعت في خطأ فهم أفكاره على ضوء الفكر الحديث المعاصر، وفهم مصطلحاته وتعابيره، بعيداً عن مقصوده، واهتمامه، وقوالب تفكيرة، والنظر الى آرائه في ميدان بمعزل عن الميادين الأخرى، وانتزاع نص خلدوني وتأويله وشرحه بعيدا عن عصره واطاره الخاص.

ثالثا: الموضوعات والنتائج:

١ ـ القسم الأول: الرجل وعلمه الجديد

عقد المؤلف هذا القسم اخلاصا للمنهج الذى رسمه لبحثه، فأبان في الفصل الأول، الاحوال العامة في القرن الثامن الهجرى، سياسية، واجتماعية، وفكرية، خلاصتها حياة سياسية غير مستقرة، وتدهور في الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، للعالم الاسلامى عامة، والبلاد المغربية خاصة. تلك رؤية خلدونية استخلصها المؤلف لوصف هذا العصر، فأفادته في ايضاح العوامل الخارجية التى أثرت في تكوين آراء ابن خلدون، الذى امتاز، عند المؤلف، على رجالات عصره ممن غرفوا معه من المنابع ذاتها، في اهتمامه بالشؤون السياسية والاجتماعية، بسبب عنصر ذاتي جعل المؤلف الكشف عنه من مهمة الفصول اللاحقة من هذا القسم.

وتتبع المؤلف، في الفصل الثانى والثالث مراحل تطور فكر ابن

خلدون ، منذ ولادته في تونس ٧٣٢/ ١٣٣٢ حتى وفاته في القاهرة ٨٠٨/ ١٤٠٦ ، أى في تونس وفاس والاندلس وبجاية وبسكرة وقلعة ابن سلامة والقاهرة ، من حيث التعلم والدراسة والتأليف والتدريس والمناصب والاصدقاء والخصوم والنكبات والعزلة ، التى تفسر بمجموعها الانقلاب النفسى ، المشار اليه في النتيجة الثانية من بين النتائج الثلاث التى استخلصها المؤلف من الرحلة الفكرية الطويلة ، لهذا المفكر الذى أحب السلطان والفكر ، وهذه النتائج هى :

١ ـ ان التجربة السياسية والاجتماعية التى عاشها ابن خلدون مصدر أساسى من مصادر فكره الاجتماعى .

٢ ـ انقلاب نفسى خطير ، أدى بابن خلدون الى التحول من السياسة الى التاريخ ، ومن الفلسفة والشعر الى تأمل الواقع الاجتماعى والسياسى لعصره والعصور السابقة له ، والميل الى التفكير الصوفى .

٣ ـ ان نوع الدراسات التى تلقاها والاساتذة الذين احتك بهم واخذ عنهم والمجالس العلمية التى انتظم فيها ، كل ذلك جعل من فكره فكراً موسوعياً لافكرا متخصصاً .

وفي الفصل الرابع ، يوضح المؤلف موقف ابن خلدون من الفلسفة التى درسها في شبابه فأعرض عنه بعْدُ ، اعراض وامق ناقد يطلب اليقين ، فاذا العالم عنده مادى روحانى ، والمعرفة المقبولة حسية وتجريبية ، والمرفوضة نظرية ، لان العقل النظرى لا يدرك الوجود كما هو . وعليه فلا فائدة من البحث في العلم الالهى ، والأولى الاتجاه بالبحث الى طبيعة العمران ، بالاعتماد على الحس والتجربة . أما العلم المنطقى فمفيد ، يميز به صحيح الحد والقياس عن فاسدهما ، والحقيقة في العلم الطبيعى ممكنة وغير ممكنة . وهو يرى ان السببية عادة ، والحقائق دينية وعقلية ، وقوانين الحكم والسياسة تعتمد على العقل ، مع ايمان بالنبوة والوحى .

ويتحدث المؤلف ، في الفصل الخامس عن اهتمام ابن خلدون بالتاريخ واهتدائه الى علم العمران ، بسبب وعى تاريخى ، جعل من الحاضر مشكلة تأخذ بمجامع الوعى وتستفز التفكير ، مما أدى به الى ان التاريخ نظر وتحقيق وتعليل وعلم بأسباب الوقائع ، لامجرد رواية للاخبار ، قصد التسلية والاعتبار ، فيضع معياراً يميز الصدق والكذب في أحداث التاريخ ويتجاوز الاخطاء فيها ، حين أدرك أن الوقائع الاجتماعية والتاريخية لها طبائع خاصة بها ، بعد رحلة الايمان والتمعن في ان فهم الحاضر يتحقق بفهم الماضى ، وفهم الماضى يتحقق بفهم الحاضر .

ويتناول المؤلف ، في الفصل السادس ، موقف ابن خلدون من بيان مشروعية وبناء علم العمران ، على صعيد الموضوع ، والاعراض الذاتية ، والمسائل ، والمبادىء ، والمقدمات ، التى يتطلبها التفكير المنطقى ، فهو بحث في الظواهر الاجتماعية التى تحدث بسبب الطبع ، استناداً الى ما يحدث في الواقع الاجتماعى . ويخلص المؤلف على صعيد المنهج الى ان صاحب المقدمة لم يكن ذا منهج تجريبى خالص ، انه منهج استقرائى تاريخى ، لانه يعتمد في البرهان على استقراء جملة من الحوادث التاريخية في تسلسلها الزمنى ، وهو ايضا يعتمد على الاستنباط .

وقد ناقش المؤلف ، في الفصل السابع ، ست مقدمات تمثل العوالم الفاعلة في حياة الافراد والجماعات ، بعد ان سأل عن الأسس التى بنى ابن خلدون عليها دراساته العمرانية ، والمحور الأساسى الذى تدور عليه ابحاثه . ولم ينْسَ المؤلف مناقشة موقف الباحثين من المقدمة السادسة المتعلقة بالنبوة والكهانة والسحر ، ليبطل الجانب «اللاعقلانى» الذى صوره هؤلاء في شخصية ابن خلدون العقلانية ، انطلاقاً من اعتقاده بان هذه الامور في عصر ابن خلدون (ظواهر عمرانية) مسلم بحقيقتها عند الناس والفلاسفة والعلماء ، وليس من الصحيح اخضاع فكر ابن خلدون للمقاييس الراهنة .

وبرؤية نقدية يناقش المؤلف ، في الفصل الثامن ، مدى قدرة علم العمران على تحقيق اغراضه ، وفيما اذا كان علماً في الاجتماع او فلسفة في التاريخ ، لينتهى الى انه لايكفى لتمحيص الاخبار كل الاخبار ، وانه يقع بين علم الاجتماع وفلسفة التاريخ وليس هو ، هما

٢ ـ القسم الثانى : العمران البشرى وحركة التاريخ

وبعد ايجاز القول بمسائل القسم الأول ، يأتى دور القسم الثانى ، الذى هدف فيه المؤلف الى بيان اسباب ما اسماه ، ظاهرة الدورة « البدوية الحضرية » انها حركة التاريخ ، حركة الانتقال من البداوة الى الحضارة ، ومن الحضارة الى البداوة ، التى تمر عبر الدولة وبذور انهيارها .

لقد اراد المؤلف من الفصل الاول ان يبين أثر العوامل الجغرافية في أحوال الناس ، وعلى الاخص طبيعة الارض من حيث الخصب والجدب التى تجعل العمران البشرى يتدرج من البساطة الى التركيب والتعقيد ، مما يؤدى الى اختلاف طرق كسب العيش واختلاف احوال الناس الاجتماعية والشخصية ، باختلاف اصنافهم ، أراد ان يبين ذلك لاهميته في ايضاح اغراض ابن خلدون ، لذلك تأتى مقولة المؤلف« كل شىء في العمران يؤدى الى الدولة » استخلاصا دقيقا ، للغاية التى يهدف اليها ابن خلدون من ابحاثه في توزع العمران على الارض ، وتأثير العوامل الجغرافية في الافراد والجماعات واختلاف احوال الناس باختلاف نحلهم من المعاش ، الا وهى : كيفية نشوء الدولة وعوامل ازدهارها وسقوطها وسير الامور حتى عهده في التاريخ الاسلامى .

وقد تناول المؤلف في الفصل الثانى والثالث والرابع ، نظرية العصبية التى لها أهمية بالغة فى نظريات ابن خلدون الاجتماعية

والسياسية ، والتى تلعب دوراً بارزاً في شد الافراد في الدفاع ضد العدوان الخارجى ، فهي رابطة دفاع وقوة مواجهة ، انها على حد تعريف المؤلف : رابطة اجتماعية سيكولوجية شعورية ولا شعورية معا ، تربط أفراد جماعة ما قائمة على القرابة ، ربطاً مستمراً يبرز ويشتد عندما يكون هناك خطر يهدد اولئك الافراد ، كأفراد او كجماعة . لذلك يبدأ المؤلف بتحديد معنى الوازع باعتباره منطلق نظرية ابن خلدون في العصبية، التى تقوم على اساس رابطة النسب ، فتقوى كلما كان النسب قريباً. الا ان المعنى الحقيقى الذى تقوم عليه العصبية هو المصلحة المشتركة الدائمة للجماعة، ذلك ان تطبيق نظرية العصبية في الواقع الاجتماعى ، بحسب تدقيق المؤلف في النصوص الخلدونية وامتحانها ، يكشف ان المقصود بالنسب هو الانتماء الى جماعة معينة اى الى عصبة ما .

واذا كان الصراع القبلى صراعا من أجل البقاء ، والبقاء يتطلب تحقيق أمور المعاش ، وامور المعاش العنصر الفاعل فى المصلحة المشتركة المؤطَرة بعلاقات النسب ، والمصلحة المشتركة هى القوة المحركة للعصبية ، تبين اثر العامل الاقتصادى في قوة العصبية ، الذى يلعب دوراً مهما، وان لم يكن اساسياً ، كما يقول المؤلف، في فاعلية العصبية وتحولها الى حركة سياسية تجرى وراء السلطة .

وهكذا يظهر ان العصبية تسعى الى تحقيق الدولة ، بمعنى مدة حكم أسرة مالكة مُعيَّنة ، والملك، بمعنى التغلب والحكم بالقهر، بحسب تعبير ابن خلدون الذى يذكره المؤلف ، وذلك عن طريق سيطرة العصبية على قومها ، فتتحقق الرئاسة الخاصة لرئيس يشترط به النسب الصريح والشرف والحسب ، ومن ثم السيطرة على العصبيات القريبة، وبعدها البعيدة لتتحقق الرئاسة العامة التى ينبغى ان تتسم بالغلبة اضافة الى الشرطين السابقين. ولكن غاية العصبية لا تتحقق اذا ما ذُلَّ القبيل ، أو قل الناس ، وانغمسوا في النعيم ، اذ لاعصبية مع الخضوع والانقياد ، وبين الترف والنعيم . واذن فالشروط الموضوعية لفاعلية العصبية ، وجود عصبية عامة جامعة لعصبيات متفرقة ، ووقوع الدولة في طور الهرم. ويتحقق هذان الشرطان في العمران البدوى فقط ، فالعصبية في المجتمع البدوى الذى يتألف من قبائل البدو الرحل تصبح فاعلة بسبب الدين ، دونما حاجة الى هرم الدولة، مما يؤدى الى تحقيق الملك. اما في المجتمعات البدوية القائمة على الزراعة، والتى تقوم عصبيتهم على المصلحة المشتركة التى يولدها وينميها طول المعاشرة، فتصل الملك بالحرب او باضمحلال وفساد الدولة .

ولابد من الاشارة الى رأى المؤلف في ان الدولة عند ابن خلدون انما تنشأ ـ باعتبارها وازعا ـ من اجل التعاون وحفظ النوع، وان كان ظاهر ربط مسألة الحكم بفكرته عن الوازع تشير الى ان الدولة تقوم على اساس من التنازع والغلبة. والسياسة عند ابن خلدون عقلية، واخرى شرعية، وانواع الحكم، ملك طبيعى، وملك سياسى، وخلافه، واكثر بحث ابن خلدون في الخلافة .

وفي الفصل الخامس والسادس والسابع ، يبين المؤلف موقف ابن خلدون من الدولة وتطورها ، فالدولة تعنى الامتداد المكانى والزمانى لحكم عصبية ما ، فهى خاصة وعامة وشخصية وكلّية. واذ كل شيء مرتبط بالعصبية وحال عصبيات الاقوام التابعة لها ، فان امتدادها المكانى يتوقف على قوة العصبية وضعفها ، وعلى ضعف بروز العصبية فان الدولة تستمر داخل حكم العصبية العامة، فلا تنقض الحضارة والعمران، لان انتقال الحكم من عصبية خاصة الى اخرى مماثلة، لا يؤثر في الحضارة ولا في العمران بحسب رأى المؤلف، الذى تحدث عن مستويات تطور الدولة وعوامله. فالدولة : شخص يملك على اساس الحسب ، وجماعة تحكم بقوة العصبية وحال تطورها فيهم، والنوع الثالث، عصبية غالبة واخرى مغلوبة. وهكذا فان تطور العلاقات الداخلية والخارجية من خلال ما تتضمنه مستويات تطور الدولة من معان ينطبق على الدولة فتجتاز ثلاثة اطوار رئيسية هى :

أ ـ طور التأسيس والبناء

ومن خصائص ومميزات هذا الطور، استمرار العصبية، حيث المساهمة في السلطة والمشاركة في الثروة الناجمة عن الغنائم، وان علاقات الدولة برعيتها من جنس علاقات أفرادها بعضهم ببعض. وسياسة مالية سليمة، مشاركة، ومساهمة، وتسيير جماعى، واقتصاد في النفقات فتظهر بوادر الرخاء والرفاهية ، لتدخل طور العظمة والمجد .

ب ـ طور العظمة والمجد

ومن مميزاته انتقال من البداوة الى الحضارة ، وظهور المصالح الخاصة واستبداد الرئيس واعتماده على عصبية الموالى والمصطنعين له، بدلا من عصبيته الاصلية ، مما يؤدى الى الدخول في طور الهرم والاضمحلال .

جـ ـ طور الهرم والاضمحلال

وفي هذا الطور يصيب الدولة الهرم نتيجة الضعف والخلل في العصبية والحال. ومع هذا فان نهايتها تتوقف على نوعية الظروف والاحوال القائمة .

والنتيجة التى يستخلصها المؤلف، هي ان الفساد يصيب الرئيس اولا ، ثم اهل عصبيته ثانيا ، ثم مجموع الدولة حاكمين ومحكومين . ذاهبا الى ان الفساد نتيجة جملة من العوامل الموضوعية والتنظيمية والاجتماعية والاقتصادية المتداخلة والمترابطة، وهى تشكل في مجموعها ما يطلق عليه ابن خلدون اسم الحضارة. الامر الذى جعل المؤلف يصحح ما ذهب اليه بعض الباحثين في نقدهم لابن خلدون، لان الحضارة عند ابن

خلدون لاتعني ما تفهمه في عصرنا الراهن، انها اسلوب حياة اولئك الذين يعيشون من الجاه فقط ، اولئك الذين لايعملون ولا ينتجون في الوقت الذي يستهلكون فيه بغير حساب، على حد تعبير المؤلف، فيصدق ابن خلدون في قوله الحضارة مفسدة للعمران .

ويبقى الفصل الثامن والاخير من هذا القسم ، الذي يجمل فيه المؤلف ما حلله واستعرضه في الفصول السابقة ، ويناقش انطلاقا من منهجه في البحث، دراسات اقتصادية جعلت جوانب معينة من آرائه موضع بحث بمعزل عن آرائه الاخرى ، اذ هو يؤكد وحدة الفكر الخلدوني ، اضافة الى نتائج أخرى تعرّض العرض لمعظمها .

٣ ـ الخــاتمة

وفي الخاتمة، معالم نظرية خلدونية في التاريخ الاسلامي، اراد المؤلف استخلاص النتائج التي قد تلقي بعض الاضواء ليس على الماضي فقط ، بل على الحاضر ايضا .

رابعا : المصطلحات والمصادر والمراجع

١ ــ المصــطلحات

وضع المؤلف ملحقاً خاصاً بأهم مصطلحات ابن خلدون، مرتبة بحسب حروف الهجاء، وهي : الاستبداد : الملك بالاستبداد ، استظهار: الملك بالمظاهرة، استبصار ، استعداد ، الاستعداد القريب والاستعداد البعيد ، اصطلاح : اصطلاح التعليم ، اصطلاح المتقدمين والمتأخرين ، امة، امكان : الامكان العقلي والامكان بحسب المادة التي للشيء ، امارة، برهان : البرهان الطبيعي ، البرهان الصناعي ، بدو : البداوة ، خشونة البداوة ، ترتيب ، توحش ، خلق التوحش ، جاه : الجاه المفيد للمال ، جيل : الاجيال الحادثة ، حسب: الحسب بالحقيقة ، الحسب بالمجاز ، حضارة : رقة الحضارة ، الحضارة مفسدة للعمران ، حل وعقد ، حلة ، حي ، حوادث ، أفعال ، حوالة : حوالة الاسواق ، خطة : الخطط الدينية الخلافية ، دولة : الدولة العامة . الدولة الخاصة ، الدولة الكلية ، الدولة الشخصية ، الدولة المستقرة والدولة المستجدة او الحادثة ، رئاسة : الرئاسة الخاصة ، الرئاسة العامة ، سذاجة : سياسة ، سياسة مدنية ، سياسة ملوكية وسياسة عامة ، صورة ومادة، صناعة : صناعي ، التعليم الصناعي ، التعليم غير الصناعي ، الشروط الصناعية ، البرهان الصناعي ، مصطنعون، ضروري : الضروري والحاجي والكمالي، طبع وطبيعة ، طبقة ، عبر ، عصبية ، العصبيّة الخاصة ، العصبية العامة ، عمران ، علم العمران ، علة ، سبب ، عادة ، عوارض ذاتية فساد العصبية ، قبيلة ، كسب ، مبدأ ، مجد ، مرتزقة ، مسائل ، مصر ، المصر الكرسي ، مطاولة ، معاش ، معاش ورياش ، معاش نحل ، ملكة ، سوء الملكة ، حسن الملكة ، ملائكية ، موالي ، وجود ، وازع : وازع ذاتي ، وازع اجنبي ، وزيعة ، وظيفة ، وقائع ، وبهذا يصبح عدد المصطلحات (٦١) مصطلحاً من دون تفرعاتها، مع ملاحظة ان المؤلف حدد معاني هذه المصطلحات .

٢ ـ المصــادر والمراجــع

في البدء لابد من الاشارة الى ان المؤلف لم يستخدم كلمة (مصادر) اذ هو اطلق كلمة (مراجع) على الكتب القديمة والحديثة ، وقد بلغ عدد مراجعه العربية (٦٠) مرجعاً (٥) في مؤلفات ابن خلدون ، و (٦) دراسات وابحاث عن ابن خلدون ، ومراجع مختلفة منها ثلاث مخطوطات، و (٤٦) كتاباً مطبوعاً . اما مراجعه باللغة الفرنسية فعددها (١٥) مرجعاً .

وأخيراً فان هذا العرض لا يغني عن قراءة الكتاب ، الذي يقدم موضوعاً مهماً في فكر ابن خلدون بطريقة مفيدة .

الدويلات العربية المستقلة على ساحل الخليج العربي

للرحالة كارستين نيبور

عرض :
كاظم سعد الدين
بغـــداد

تناول المؤلف في الفصل الاول :

العرب الساكنون حول الخليج العربي

لقد اخطأ جغرافيونا، كما بينت في مكان آخر (١)، في زعمهم ان جزءا من الجزيرة العربية كان تابعاً لملوك فارس. ان ذلك بعيد كل البعد عن الحقيقة، بل على العكس، فان العرب يمتلكون جميع السواحل البحرية للامبراطورية الفارسية من مصب نهر الفرات حتى مصب نهر السند تقريباً.

ان هذه المواطن على الساحل الشرقي لاتخضع فعلياً للجزيرة العربية غير انها مادامت مستقلة عن فارس وتستعمل اللغة نفسها والتقاليد ذاتها التي يمارسها سكان الجزيرة العربية، فاني ساقدم وصفاً موجزاً لها .

من المستحيل تحديد الفترة التي أسس فيها العرب دويلاتهم على هذا الساحل . فالتراث يؤكد انها تأسست منذ قرون عديدة ونستطيع ان نقول واثقين ان هذه الدويلات احتلت مواقعها الراهنة في ايام الملوك الاوائل لفارس . وهناك تشابه مذهل بين التقاليد المنسوبة الى آكلي الاسماك القدامى وبين تقاليد هؤلاء العرب.

انهم يكادون يعيشون بالطريقة نفسها ويحيون حياة بحرية ويشتغلون بصيد السمك والغوص على اللؤلؤ ويتناولون طعاماً قليلا علاوة على السمك والتمر ، ويطعمون مواشيهم السمك ايضاً .

انهم يقدسون الحرية شأن اخوانهم في الصحراء وتكاد كل مدينة ان يكون لها شيخها الخاص بها ، الذي لا يتقاضى اية ضريبة من اتباعه ، بل يترتب عليه لعدم امتلاكه ثروة خاصة به ، ان يعيل نفسه بعمله الخاص ، شأنه شأن رعيته ، اما بنقل البضائع او بصيد السمك واذا حدث ان كان اكثر السكان غير راضين عن شيخهم فانهم يخلعونه ويختارون آخر من العائلة نفسها .

ويتكون سلاح هؤلاء العرب من البنادق ذات الفتيل والسيوف والتروس . وتقوم سفن صيد الاسماك احياناً بمهام السفن الحربية ، بيد ان مثل هذا الاسطول، الذي يضطر الى التوقف مرات عديدة للتزود بالسمك طعاماً بينما يتحتم عليه ان يطارد العدو ، لايمكنه والحالة هذه ان يؤدي مآثر عظيمة. ومن هنا فان حروبهم ليست الا مناوشات وغارات لاتنتهي ابداً بنتائج حاسمة ، وانما تؤدي الى مشاحنات متواصلة وحالة من العداء المستمر .

ان بيوتهم بسيطة جداً بحيث لايكلف العدو نفسه عناء لكي يدكها، ولهذا فان هؤلاء الناس لايخشون ضياع شيء لهم على اليابسة فهم دائما يعمدون الى سفنهم لدى قدوم العدو ويلتجئون الى احدى جزر الخليج حتى يتراجع العدو، انهم واثقون ان الفرس لا يفكرون بالاستقرار على شاطىء مقفر حيث يقلقهم العرب الذين يرتادون البحار المجاورة .

لم يكن هؤلاء العرب والفرس على وفاق . وكان ذلك سببا في فشل محاولة نادر شاه اخضاع هؤلاء العرب. وفي اثناء استعداده لهذا الغرض قام المغتصب ، وكان الثمن باهظاً، بتجهيز اسطول من خمس وعشرين سفينة كبيرة في الخليج . ولما لم يكن لديه ملاحون من الفرس فانه اضطر الى استخدام هنود، وقدرفض هؤلاء الهنود محاربة العرب فقتلوا ضباطهم واستولوا على السفن. وكان نادر شاه عند نهاية حياته يفكر في السيطرة على هؤلاء العرب ونقلهم الى بحر قزوين، واقامة مستوطنة فارسية في مكانهم . غير ان موته حال دون تنفيذ مأربه هذا. ومنعت الاضطرابات في فارس منذ ذلك الحين جميع الاعتداءات في تلك الربوع على حرية اولئك العرب .

ويبدو لي ان حكومتهم ووضعهم السياسي الراهن يشبهان الى حد كبير نظائرهما في اليونان القديمة . وقد كانت تحدث اشتباكات قتالية مستمرة وثورات مهمة في الخليج غير ان العرب ليس لديهم مؤرخ يقوم بايصال صيتهم الحميد الى ما وراء حدودهم العتيقة .

أما الفصل الثاني
فتناول فيه الاماكن الخاضعة للسلطة الفارسية

بالرغم من ان ملوك فارس ليسوا اسياد هذه السواحل، غير انهم يحتفظون ببضعة اماكن على تلك السواحل . وقد خلع حكام هذه الاماكن من الفرس ولاءهم لدولتهم الفارسية في الآونة الاخيرة الى حد ما وجعلوا منها اماكن مستقلة ذات سيادة واهم هذه الاماكن (جمبرون) و (هرمز) (٢) .

و (جمبرون) مدينة ذات ميناء في مقاطعة (لورستان) كانت قديما تعود الى سلطان الفرس. وبعد موت نادر شاه نصب رجل فارسي

يدعى (ناصر خان) نفسه حاكما على المقاطعة وعلى المدينة تبعاً لذلك ، واعلن نفسه تابعاً للوكيل (كريم خان) في (شيراز) غير انه لا يدفع له أى ضريبة ولا يقيم احتراماً لسلطة الوكيل ما لم يواجه جيشه فيكون مضطراً الى دفع الضريبة.

كانت مدينة (جمبرون) التى تدعى ايضا (بندر عباس) مشهورة في غضون القرن الماضي وبداية القرن الحالى باعتبارها ميناء لشيراز وجنوب فارس جميعا. وكانت تجارتها في ذلك الحين واسعة الانتشار، اما في الوقت الحاضر فهي خاملة. ولا يوجد في المدينة أى مكتب اوروبى لعقد الصفقات . وقد حدث هذا التدهور في احوالها نتيجة للاضطرابات الداخلية في فارس ، والحروب والمنازعات بين الفرنسيين والانجليز ، اما الهولنديون فقد استمروا في القيام بأعمال تجارية بسيطة فيها ، بيد انهم لما كانوا يشكلون مستوطنة في جزيرة (خارك) ، فانهم هجروا (جمبرون) تماماً.

اما جزيرة (هرمز) ذات الشهرة العريقة فانها اصبحت لا تمتلك شيئا من ذلك المجد العريق . وتعود الجزيرة في الوقت الحاضر الى (ملا علي شاه) الفارسى الذى جعل نفسه حاكماً عليها بعد موت (نادر شاه) مباشرة، وقد كان أمير البحر لديه . ويمتلك امير (هرمز) كذلك جزءاً من جزيرة (قشم) والجزء الآخر يعود الى امير (صير) (٣) .

وتقع (ميناو) جنوب (لورستان) وهى مدينة داخلية تبعد ستة فراسخ عن ساحل البحر ، وسكان هذه المنطقة يحترفون الزراعة وهم يتبعون سلطة (خان لورستان) .

وهناك قبيلة عربية تدعى البلوج (٤)، تقطن بين (ميناو) وراس (جاسك) ويمتلك ابناؤها عدداً كبيراً من السفن ويرتبطون بمصالح تجارية ذات شأن مع البصرة على الخليج ويتوغلون في تجارتهم الى السواحل الهندية. وقد اشرك هؤلاء العرب جماعة الافغان في الثورات الاخيرة في فارس .

يصور بعض الجغرافيين هؤلاء (البلوج) بانهم يسكنون على طول الساحل حتى مصب نهر السند ويصفونهم بأنهم اناس محاربون. ولا ادرى هل يعتبرون مستقلين أم تابعين لفارس ، ويغلب على الظن انهم لايعترفون بأى سلطة اجنبية الا سلطة شيوخهم ، وتسرد لنا بعض روايات الرحلات المؤلفة في القرن الماضى مغامرات غريبة عن واحد من امراء (الجاسك) قاوم سلطة (عباس شاه) حتى اخذه أخيراً بالحيلة، وواصلت أرملته مقاومة الملك الفارسى. وقامت بمآثر جليلة تليق بالابطال في عصر الفروسية ، غير ان القصة يمكن ان تنطبق على شيخ من شيوخ (البلوج) .

ان البلاد الممتدة من (بندر عباس) شمالاً الى (ديلم) (٥) تشبه تهامة في الجزيرة العربية : سهل مجدب يسميه الفرس (كرمسير) أى البلاد الحارة. ولا اعرف في هذه المنطقة مكاناً سوى (خامر) وهي قلعة تقع على صخرة شديدة الانحدار وتعتبر مع رقعة صغيرة ملكاً لاحد الشيوخ. وتأتى السفن الى ذلك المكان من أجل نقل حمولات من الكبريت الذى يوجد بكميات غزيرة في المنطقة .

وتناول في الفصل الثالث
مناطق قبيلة الحولة (٦)

تفرض هذه القبيلة سيادتها على الساحل برمته من (بندر عباس) الى (رأس برديستان) وتمتلك جميع الموانىء على امتداد الساحل . وفي هذه المنطقة جزء جاف وقاحل ، غير ان سلسلة من التلال مثل (ظاهر عصبان) تمتد حتى البحر تقريباً، وتنتج الخشب الذى يقطعه سكان المنطقة ويصدرونه .

وبالرغم من هذه المزايا الطبيعية فان عرب (الحولة) لا يزرعون اراضيهم وانما يعيشون على صيد البر والبحر . ويحترمهم جيرانهم لشجاعتهم. ولو توحدت جميع جهودهم لاستطاعوا السيطرة على جميع مدن الخليج ، غير ان كل مدينة تكاد تكون خاضعة لشيخ معين ، ومع ان هؤلاء الشيوخ ينتمون الى عائلة واحدة ، فانهم يفضلون ان يظلوا في حالة فقيرة متواضعة على ان يرفعوا من شأنهم وذلك بخضوعهم لعلم موحد تحت ارشاد احد الشيوخ الكبار .

وفيما يلى شيوخ أو امراء قبيلة الحولة :

شيخ (صير) الذى ذكرته لدى الكلام على عمان ، ولما كان في الاصل من هذه البلاد ومن قبيلة (الحولة) فانه يمتلك في منطقة (جمبرون) المجاورة مدن (كونك) و (لنج) و (راس حطى) ويصدر اتباعه خشب الوقود والفحم .

وهناك شيوخ (موقة) و (جارك). وسكان الاخيرة يصدرون الخشب ايضاً . ويقال انهم من اشجع ابناء قبيلة (الحولة) .

ثم هناك شيوخ (التاجيلو) و (النابند) و (العلوى) و (الطاهرى) و (الشيلو) و (الكونكون)، ويقدر ابناء (التاجيلو) لمهارتهم في الغوص خير تقدير . وفي مدينة (كونكون) حيث يتمتع السكان بشخصية اكثر هدوءا من البطون الاخرى لقبيلة الحولة، يسكن اليهود والبانيان .

اما الفرس ، الذين لايمتلكون سفناً وانما يعيشون على الزراعة، فيحتلون المناطق الواقعة بين امارة (بوشهر) وراس برديستان .

وعالج في الفصل الرابع
(امارات بوشهر وبندر ريق)

تتمتع مدينة (بوشهر) عاصمة الدويلة المستقلة (بوشهر) بمرفأ واسع ترسو فيه السفن قريباً من البيوت، وقد اغرى هذا الوضع (نادر شاه) ان يضع اسطولاً فيها، ويمكن رؤية شيء من بقايا ذلك الاسطول حتى الآن. ومنذ ذلك الحين ازدادت شهرة المدينة واصبحت اكثر أهمية وهى الآن الميناء البحرى لشيراز . ويمتلك الانجليز مصنعاً فيها، وهم الشعب الاوروبى الوحيد الذى له علاقة تجارية بفارس .

لا ينتمى العرب القاطنون في منطقة (بوشهر) الى قبيلة الحولة . ويوجد بينهم ثلاث عوائل بارزة . اثنتان منها تسكنان المنطقة منذ عهود سحيقة موغلة في القدم . اما الثالثة التى تدعى (مطاريش) فقد جاءت بعدهما من عمان حيث كان افرادها يشتغلون بصيد السمك ، ودخلت معهما في حلف ووجدت وسيلة للاستحواذ على السلطة التى ظلت تحتفظ بها حتى الآن .

ان الشيخ الحالى (ناصر) من عائلة (المطاريش) يمتلك ايضاً جزيرة (البحرين) على شاطىء الجزيرة العربية التى يمكنه بواسطتها الاستمرار في اعمال الشحن بالسفن وله املاك لايستهان

بها في (كرميسير) وقد اخذها من (كريم خان) الذى احتجز لديه ابناء (ناصر) رهائن ليضمن اخلاص ابيهم . وكانت تلك فرصة سعيدة لشيراز ان تستطيع احتجاز امير (بوشهر) بهذه الطريقة لمصلحة فارس بواسطة ممتلكاته في (كرميسير) .

كان الشيخ ناصر يأمل ان يعين اميراً للاسطول البحرى الفارسى فتزوج امرأة فارسية ، فأساء بذلك الى نفسه والى عائلته، اذ بات بغيضاً لدى رعيته وجيرانه، ولم يعد ابناؤه يحوزون ذلك الشرف العربى .

اما (بندر ريق) فهي مدينة انشأها امير بهذا الاسم تحيطها اسوار غير متينة وتقع شمال بوشهر. وتشمل الدويلة الصغيرة التى تقع فيها هذه العاصمة على اماكن عديدة اخرى في (كرميسير) التى يعد اميرها من بعض الوجوه معتمداً على (كريم خان). ويشتغل عرب هذه المنطقة بالاعمال البحرية ، اما الفرس الساكنون في الاجزاء الخلفية فانهم يشتغلون بالزراعة .

وان العائلة الحاكمة في بندر (ريق) هم قبيلة من (بنى صعب) العربية وهم في الاصل من عمان ، غير ان جد الامير الحالى تزوج امرأة فارسية فلم تعد هذه العائلة تعتبر من اشراف العرب، ويتميز حاكم بندر (ريق) الامير (مهنا) في هذه البلاد بقوته وسطوته . وكان يبلغ الثلاثين من العمر عام ١٧٦٥ . وقد وقع الامير (مهنا) مرتين في يدى (كريم خان). واستطاع في المرة الاولى ان ينجو نتيجة للاندحار الذى منى به الحاكم الفارسى . وفي المرة الثانية استطاع ان ينال حريته نتيجة لمساعى اخته المتزوجة من موظف فارسى .ولدى عودته الى ممتلكاته الخاصة استطاع ان يسيطر على طريق القوافل بين شيراز وبوشهر . وتهيأ كريم خان لضربه فحاصر عاصمته ولكن دون جدوى .

وفي عام ١٧٦٥ ارسل كريم خان يطلب دفع الضريبة على ممتلكاته في (كرميسير) غير ان الامير (مهنا) اهان الموظف المرسل اليه وحلق لحيته . فارسل اليه كريم خان جيشاً قوياً استطاع اخضاع بندر ريق وكل المناطق الاخرى، على ان الامير مهنا تراجع قبل فوات الاوان هو وقطعاته وقسم من اتباعه الى جزيرة تدعى (خنرى) حيث انتظر حتى ينسحب الجيش الفارسى من بلاده . فعاد من الجزيرة بعد خروج الجيش منها ، وطرد الحامية العسكرية من بندر ريق واستعاد السيطرة على ممتلكاته . وكان شديداً مع جيشه وقواده، ومع ذلك كان جنوده شديدى التعلق به حتى انه استطاع وهو في المنفى ان يحرر جزيرة خارك من الهولنديين .

وتناول في الفصل الخامس
قبيلة كعب وشيخها سليمان

تسكن قبيلة كعب ، او جعب كما يلفظها الفرس ، في الطرف القصى من الخليج ، ولم يكن لهم شأن عظيم قبل حكم الشيخ الحالى سليمان (٧). الذى بلغت شهرته اوروبا نتيجة للمعركة، التى خاضها ضد الانجليز واستولى فيها على بعض سفنهم .

استغل هذا الشيخ الوضع المضطرب في فارس والخلل الحاصل في حكومة البصرة ، وصار يخضع له جيرانه الصغار المستقلين ، ثم جعل نفسه حاكماً لمناطق واسعة عديدة وتعهد ان يدفع ضريبة للخانات المتنافسين على عرش الامبراطورية المضطربة . ولم يحاول احد فرض الضرائب عدا كريم خان الذى اقتنع بقبول مبلغ زهيد .
ثم امتدت توسعات سليمان نحو البصرة. وسعى لنيل صداقة ال اعيان Ajاد شيوخ تلك المنطقة، ثم جعل نفسه حاكماً على جميع الجزر الواقعة بين مصبات نهر الفرات التى تعرف ببلاد شط العرب .

كان سليمان يسعى لتشكيل قوة بحرية في اثناء قيامه بالتوسع الى مياه الانهر الصالحة للملاحة فبنى اول سفينة له عام ١٧٥٨. وفي عام ١٧٦٥ صار لديه عشر سفن كبيرة وسبع سفن صغيرة .

وفي السنة نفسها ١٧٦٥ ، ارسل كريم خان قوة ضده وكانت قوية فلم يستطع مقاومتها ، فنقل امواله وقطعاته من جزيرة الى اخرى حتى استطاع ان ينقلها غرب شط العرب . ولم يستطع الفرس اللحاق به لافتقارهم الى السفن ، فاضطروا الى التراجع ، ثم أمر باشا بغداد قواته بمهاجمة سليمان غير انه التجأ الى الجزر ونجا هذه المرة من الاتراك ، كما نجا من الفرس سابقاً .

تمتد منطقة قبيلة كعب من صحراء الجزيرة العربية الى بلاد هنديان وشمالا الى ولاية الحويزة ، وترويها انهر عديدة ، كبيرة وصغيرة ، وتكثر فيها التمور والرز والحبوب والمراعى . ومن مدنها (دامسك) الواقعة في فارس و (الحفار) و (قبان) وهى مقر احد الشيوخ قرب احد مصبات نهر الفرات .

أما الفصل السادس فقد عالج فيه
دويلات أخرى مستقلة

تقع هنديان شمال بندر ريق وتحاذى ممتلكات كعب ، وهي منطقة صغيرة خاضعة لاحد الملوك ، ويعيش العرب الساكنون فيها على ما تنتجه ارضهم وماشيتهم .

أما الحويزة فهى مدينة ومقاطعة تقع في الاقسام الخلفية من البلاد المحاذية للخليج، وتعود الى احد احفاد النبى محمد (ص) ويدعى الامير (مولى) (٨)، ويتمتع بامتياز ضرب النقود .

و على الجانب الشرقى من الخليج جزر كثيرة اغلبها مأهول بالسكان وليس في اى منها حكومة مستقلة عدا جزيرة هرمز. وتعود ملكية هذه الجزر للامراء الذين تقع ازاء اراضيهم .

وفي الجانب الغربي للخليج توجد جزيرة او بالاحرى مجموعة من الجزر تعرف لدى الاوروبيين باسم البحرين. ويطلق العرب على اكبر هذه الجزر اسم (أوال) (٩). ولكل من الجزر الصغرى اسمها الخاص بها. ولما كانت هذه الجزيرة تشتهر بصيد اللؤلؤ وشهدت كثيراً من الثورات وغيرت حاكمها مرات عديدة، فلابد لي من التحدث عنها بكلمات قليلة .

البحرين مدينة حصينة تقع في الجزيرة المسماة باسمها او باسم (أوال) كان عدد المدن والقرى في هذه الجزيرة ثلاثمائة وستين في يوم من الايام، اما الآن فتشتمل، بالاضافة الى العاصمة، على ستين قرية بائسة فقد دمرت القرى الباقية منازعات حربية طويلة. وانتاج هذه الجزيرة من التمور غزير جداً غير انها تعتمد بصورة رئيسية على صيد اللؤلؤ حيث يكثر اجود انواعه فيها ويجنى اميرها من الضرائب على هاتين المادتين (لوك) من الروبيات او ما يعادل

٣٠٠,٠٠٠ ليرة فرنسية، وينفق من هذا الدخل على حامية عسكرية في المدينة .

كانت البحرين تعود ذات يوم الى البرتغاليين وعندما طردوا من الخليج وقعت في يدى شيخ (لجسه) (١٠)، ولكن الفرس انتزعوها منه. ثم جعل أمام عمان نفسه حاكماً عليها ، غير انه سلمها ثانية الى الملك الفارسي مقابل مبلغ من المال. وبعد مرور قليل من الوقت في اثناء غارة الافغان ، سلمها الحاكم الفارسي الى شيخ (نابند) من قبيلة الحولة . وقام شيخ آخر من قبيلة الحولة اسمه الشيخ (الطاهرى) بطرده من نابند، ثم حاصره اميرال نادر شاه غير ان شيخ الطاهرى استعادها بعد مغادرة الاميرال . وقد نصب شيخ (الاصلوى) نفسه حاكماً على الجزيرة في اثناء الاضطرابات الاخيرة في فارس، غير ان امراء بوشهر وبندر ريق الذين غزوها مجتمعين ازاحوه عنها ، ثم طرد الامير الاول الأمير الثاني منها وطرد بنو حولة هذا الامير ايضاً. وفي عام ١٧٦٥ عادت ثانية الى حوزة شيخ بوشهر الذى اصبح سلطان جزيرة البحرين الوحيد .

يمكن للقارىء ان يكون فكرة من هذا الوصف عن المنازعات المستمرة التي جرت بين هؤلاء الامراء الصغار . وقد اطلعت في البصرة على بعض التفاصيل الخاصة بمنازعاتهم المعقدة التى لا استطيع استيعابها بصورة جيدة. فقد قيل لي ان كل أمير عربى كان في حرب مع اميرين او ثلاثة امراء من بنى قومه .

ان الملاحة مضطربة باستمرار وتؤثر فيها هذه المنازعات القوية . فالمسافر على ظهر اى سفينة عربية يكون في خطر الوقوع في ايدى الاعداء ولا يكون المرء في مأمن من القيام برحلة الا على ظهر احدى السفن الاوروبية التى لا تجرؤ السفن العربية الصغيرة على مهاجمتها .

وتناول في الفصل السابع
جـــزيرة خـــارك

تقع هذه الجزيرة (١١) على الساحل الشرقي للخليج بين بوشهر وبندر ريق وتضم قرية واحدة فقط ، وتدل قنوات المياه التى شقت في الصخور التى مازالت شاخصة على انها اكثف سكاناً بالنسبة الى مساحتها التي يبلغ محيطها حوالى خمسة فراسخ .

اصبحت (خارك) مشهورة نتيجة للمستوطنة التى اقامها الهولنديون مؤخراً فيها والتى تخلوا عنها فيما بعد .. وبما ان هذه الحادثة اثارت شيئاً من الضجة في العالم فانى سوف اقدم تقريراً موجزاً عنها :

كان للهولنديين تجارة واسعة في البصرة وكان المدير العام لمصنعهم فيها (البارون نيبهاوزن) يخصنى بالاحترام في تلك المدينة ، ولكن هذا الالمانى تنازع مع الحاكم بسبب علاقة نسائية فالقى به في السجن وكاد يقطع رأسه لو لم يدفع مبلغاً كبيراً من المال مقابل حريته . وقبل ان يغادر الى (باتافيا) حصل من المصنع على شهادة خطية بحسن سلوكه وصادقت شركة الهند الشرقية الهولندية على جميع ما قام به .

ونتيجة لخلافاته مع حاكم البصرة اتفق نيبهاوزن مع الامير ناصر ، امير بندر ريق ، الذى كانت جزيرة ريق تابعة له ، على ان يسمح للهولنديين باقامة مصنع لهم فيها مقابل ايجار سنوى معين . واستحسنت الحكومة في (باتافيا) المشروع الذى كان في واقع الامر شيئاً حكيماً فارسلت البارون مع سفينتين لتنفيذه .

ولدى وصوله الى (خارك) القى القبض على بعض السفن من البصرة واحتجزها حتى استعاد المبلغ الذى دفعه ثمناً لاطلاق سراحه . وبنى البارون مخزناً واسعاً في الجزيرة واقام على اركانه الاربعة ، تدريجاً اربعة ابراج. جهز كل برج منها بستة مدافع. ولم يرض الامير ناصر باقامة هذه التحصينات فهاجم الهولندى الذى رد عليه بهجوم مماثل. غير انه لم يستطع اللحاق به داخل معقله . على ان هذه الحرب الصغيرة كلفت الشركة ثمناً باهظاً .

وبعد ان حكم نيبهاوزن جزيرة (خارك) خمس سنوات بسلطة اجنبية ، خلفه (فاندر هولست) المستخدم سابقاً في البصرة ، وكان عارفاً بالعرب. وقد ظن ان من واجبه ان يشن الحرب على الامير مهنا ، امير بندر ريق الجديد، تلك الحرب التى قامت في البدء ضد ابيه واستطاع الامير مهنا بحنكته الحربية ان يلقى القبض على سفينتين حربيتين تعودان للهولنديين وحاول ان ينزل على الجزيرة غير ان ذلك لم يتكلل بالنجاح ، ووسع (فاندر هولست) تحصيناته ورسم خارطة لمدينة سرعان ماسكنها الفرس والعرب .

وكان من المؤمل ان تكون هذه المستوطنة مصدر ربح للضباط والمستخدمين فيها غير ان كلفة الحرب والحاميات العسكرية فيها استهلكت ارباح الشركة فقرروا تركها ، ولكن احتمال النفع التجارى المتوقع مع فارس اغراهم بالبقاء فيها مدة اطول . لذلك قام الحاكم الجديد (بوشمان) بعقد صلح مع الامير مهنا ولم تلاق التجارة اى نوع من التدخل .

وبالرغم من ان خلفه (فان هاوتنك) كان رجلاً ذا جدارة من بعض الوجوه، غير انه لم يتصرف تصرفاً حكيماً، لكونه اجنبيا لا يعرف عبقرية العرب ومزاجهم ، ولم يكن لديه من الضباط الخبراء بالامور من يعينه على ذلك . وهذا ما جعله يهاجم قوات الأمير مهنا في أثناء تراجعها الى جزيرة (خنزى) وقد سمح الأمير مهنا لأعدائه بالتقدم ، ولما اطمأنوا ، انقض عليهم بخيالته وهزم جيش الهولنديين وجند (بوشهر) شر هزيمة .

وقد شجع ذلك النجاح الامير مهنا ان ينزل على جزيرة (خارك) ويطوق المدينة وقام احد الفرس باقناع (فان هاوتنك) ان يسمح للامير مهنا بدخول القلعة مع حاشية صغيرة لكى يتفقا على شروط تسوية الخلافات.

فالقى الامير العربى القبض على افراد الحامية الهولندية واخذهم اسرى وارسلهم الى (باتافيا) وقد وقعت هذه الحادثة في نهاية شهر كانون الاول عام ١٧٦٥.

وليس من المحتمل ان تجشم شركة الهند الشرقية الهولندية نفسها مشقة طرد الفاتحين وتجديد مؤسستها في جزيرة خارك .

التعليقـــات

* تعد هذه المقالة وثيقة تاريخية كتبها الرحالة الالمانى كارستين نيبور (١٧٣٣ - ١٨١٥) لدى سفره مع بعثة علمية ارسلها فردريك الخامس ملك الدنيمارك في عام ١٧٦٠. وقد دوّن نيبور نتائج الرحلة العلمية في الجزيرة العربية وبلدان اخرى في الشرق ومات زملاؤه الثلاثة في تلك الرحلة وترجم الكتاب روبرت هيردن الانجليزى عام ١٧٩٢ بعنوان M. Niebuhr Travels

Through Arabia and Other Countries وقد اعادت حديثا مكتبة لبنان طبع هذا الكتاب النادر الذي كثيراً ما يدرجه الدارسون في ثبت مصادرهم دون ان تجد شيئاً يذكر من الكتاب ومادته سوى الاسم .

المقالة هذه ترجمة للباب الثالث والعشرين من المجلد الثاني Vol. 11 Sect. XX 111 P.P. 157 - 137 نجد الرحالة نيبور في كتابه المذكور انفا يطلق على البحر الاحمر مرة اسم (البحر الاحمر) ومرة اخرى اسم الخليج العربي . ويطلق على الخليج العربي تارة اسم (الخليج العربي) وتارة اسم الخليج الفارسي.

ان التسمية لم تكن تدل على الملكية وانما كانت تدل على الاتجاه، فقد اطلق العرب على ما يسمى اليوم البحر المتوسط اسم (بحر الروم) لا لانه ملك الروم بل لانه يواجه او يؤدي الى بلاد الروم . ويدعى القنال الفاصل بين فرنسا وانجلترا بالقنال الانجليزي مع انه ممر دولي وليس ملكاً للانجليز . وليس المحيط الهندي ملكاً للهنود ، اما الخليج العربي فهو بحيرة عربية لانه محاط من كل جهاته بسكان من العرب منذ اقدم العصور ، واذا اطلق عليه اسم «الفارسي» فلانه كان يؤدي الى بلاد فارس .

يرجي مراجعة الملاحظة المهمة التالية بصدد راى المؤلف في الخليج العربي .

١ ـ في ص ٨ من المجلد الثاني من كتابه هذا يقول نيبور :

« لا يمكنني ان امر مروراً عابراً بالمستوطنات الاكثر اهمية القريبة الى الجزيرة العربية بالرغم من انها تقع خارج حدود الجزيرة العربية واعني بذلك العرب على الساحل الشرقي للخليج المتحالفين عموماً مع جيرانهم الشيوخ او التابعين لهم احياناً، ان ظروفا مختلفة تتفق لتدل على ان هذه القبائل استقرت على طول الخليج قبل فتوحات الخلفاء وقد احتفظت باستقلالها منذ ذلك الحين ، وانه لمن الغريب المضحك ان يعدّ جغرافيونا جزءا من الجزيرة العربية تابعاً لملوك فارس في الوقت الذي لم يكن فيه هؤلاء الملوك الفرس ابداً اسياد السواحل البحرية لبلادهم بالذات، غير انهم تحملوا صابرين بقاءها في حوزة العرب » .

٢ ــ هرمــز

يرجى مراجعة (مملكة هرمز) للدكتور عبدالسلام عبدالعزيز فهمي مجلة العربي ، العدد ١٨٤ مارس ١٩٧٤ ص ١٧٦ . يتكلم فيها على هرمز وازدياد اهميتها بعد الفتح الاسلامي حين اتخذتها القبائل العربية من عمان ونجد واليمن قاعدة تجارية يوجهون سفنهم منها الى سواحل الهند وشرق افريقيا وبلاد الصين حتى قضى المغول على الخلافة العباسية ولم يستطع ملكها الخامس عشر والاخير بهاء الدين السيفي انقاذها بعد ان اغاروا عليها عام ١٢٠١ م وذبحوا كثيراً من اهلها فتحول بهاء الدين الى جزيرة (جرون) التي سماها (هرمز) ايضا حتى ازدهرت وامتد نفوذها على جزء كبير من سواحل شبه جزيرة العرب وعلى السواحل الشرقية للخليج العربي حتى البصرة واستمرت كذلك قرابة مئتي عام حتى استولى عليها البرتغاليون في اوائل القرن السادس عشر بعد ان احتلوا عدداً كبيراً من المدن والجزر على شواطىء بحر العرب والخليج العربي . وقد استنفر ملكها سيف الدين ملوك المسلمين لنصرته من الشاه اسماعيل الصفوي والسلطان العثماني وبعض شيوخ العرب ولكنه لم يتلق اى عون من احد فجمع ثلاثين الف جندي باسلحة بسيطة وكان الاسطول البرتغالي مكوناً من مئتي سفينة مجهزة بالمدافع التي اوقعت خسائر فادحة . وبعد قتال غير متكافىء انتصر البرتغاليون وكان ذلك عام ١٥٠٧ . ثم عقدت دولة فارس معاهدة عام ١٥٤٥ سلمت فيها بالسيطرة البرتغالية على هرمز مقابل وقوف البرتغال ضد الدولة العثمانية . وظل الامر كذلك حتى عام ١٦٢٢ حين ظهرت المنافسة الهولندية ـ الانجليزية على المنطقة فاستعان الشاه عباس الصفوي بالعرب واستعادها من البرتغاليين عام ١٦٢٢ بعد ان دمرها وبنى في جمبرون بندر عباس بدل هرمز العربية .

٣ ــ صــير

يقول نيبور ص ١٢٢ من المجلد الثاني، الباب الحادي والعشرين الفصل الخامس « تمتد امارة (صير) من راس (مسندم) على الساحل الشرقي . ويطلق الفرس عليها اسم بلاد (جلفار) وهي راس آخر قرب (مسندم) ثم صار الاوروبيون يطلقون على هؤلاء الناس اسم عرب جلفار . اما العرب فيطلقون عليها (صير) باسم المدينة نفسها التي تتمتع بعرفاً ممتاز وهي مقر الشيخ وكان يمتلك سابقا جزيرة الشارجة وما يزال يمتلكها . مع بعض الاماكن المهمة على الجانب الآخر للخليج وكذلك كونك ولنجة .

٤ ــ البلوج او البلوش :

يرجي مراجعة (بلوجستان ديار العرب) تاليف معن شناع العجلي الحكاك، ١٩٧٩، وهو بحث عن البلوش واصلهم العربي.

٥ ــ ديـلم .

تقع ديلم هذه على الساحل الشرقي للخليج العربي مقابل الكويت وهي ليست الديلم في شمال ايران

٦ ــ الحــولة :

قبيلة عربية . يلفظها الفرس الهولة.

٧ ــ الشـيخ سليمان :

هو سلمان بن سلطان . يرجي مراجعة على نعمة الحلو «الفلاصة» افاق عربية عدد ٤ السنة ٧ ص ٢٥

٨ ــ مــولى :

مولى اى سيد او شريف كما يطلق سلالة الرسول الكريم (ص) في مناطق مختلفة من الوطن العربي.

٩ ــ اوال :

اوال هو الاسم الذى اطلقه العرب على البحرين او بالاحرى على جزيرة المنامة ، وقد حرفت الكلمة فاصبحت العوالى.

١٠ ــ لجســة :

لجسة هي هجر المعروفة قديما وتقع بين عمان وحضرموت

١١ خـارك وريق

تلفظان وتكتبان خارج او خرج وريك.

ويراجع رجاء (جزيرة خارج) تأليف د . مصطفى النجار ود . محمد وصفي ، دراسات الخليج والجزيرة العربية، العراق ١٩٨٣ .

المختار من تاريخ ابن الجزري

لشمس الدين أبي عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي
المتوفى سنة ٧٤٨ هـ ١٣٤٧ م

دراسة وتحقيق خضير عباس المنشداوي
عرض : اسامة ناصر النقشبندي

ضمن متطلبات دراسة الماجستير في كلية الاداب بجامعة بغداد هذه الرسالة التي تقدم بها المحقق ونال عليها شهادة الماجستير في التاريخ الاسلامي.

وهذا الكتاب له اهمية كبيرة في دراسة التاريخ الاسلامي، رغم انه يتضمن مختارات من تاريخ ابن الجزري الموسوم « بحوادث الزمان وابنائه، ووفيات الاكابر والاعيان من ابنائه » حيث ينقل لنا الذهبي ما فقد من تاريخ ابن الجزري الذي لم تصل الينا منه سوى قطعتين. الاولى، تناولت حوادث واخبار سنة ٦٨٩ هـ ١٢٩٠ م الى بداية ٦٩٩ هـ ١٢٩٩ م. والثانية، تناولت حوادث واخبار سنة ٧٢٦ هـ ١٣٢٥ م الى سنة ٧٣٨ هـ ١٣٣٧ م. في حين نرى ان كتاب المختار تضمن حوادث ووفيات من سنة ٥٩٣ هـ ١١٩٦ م، الى نهاية سنة ٦٩٨ هـ ١٢٩٨ م أي انه تضمن حوادث (١٠٥) سنوات في حين ان القطعتين من تاريخ ابن الجزري تضمنت حوادث (٢٢) سنة فقط.

ثم ان قيام مؤرخ الاسلام الامام شمس الدين الذهبي هذا العلم الشامخ من اعلام التاريخ والرجال باختيار الاخبار والوفيات يعني انه لم يترك من تاريخ ابن الجزري من الاخبار المهمة والفوائد النافعة الا ونقلها في مختاره مما يجعلنا نعطي لهذا الكتاب اهمية كبيرة.

لذلك نجد ان المحقق عند اختياره لهذا السفر كان موفقا حيث انه اصاب موضعا دقيقاً من تراثنا الواسع الذي لم يسبقه اليه احد من المحققين. وقدم بذلك للباحثين والدارسين خدمة جلي في انه وضع بين ايديهم مرجعاً مهماً كان في عداد المؤلفات المفقودة.

اعتمد المحقق على نسخة فريدة محفوظة في مكتبة كوبرلي برقم (١١٤٧) كتبت بخط الذهبي وهذه النسخة هي بعينها النسخة التي اشار اليها الذهبي في كتابه (تاريخ الاسلام) عند ترجمته لحياة ابن قيس الحراني الزاهد حيث قال: « هو الآن ملك الفقيه المحدث الاوحد صاحبنا صلاح الدين خليل بن كيكلدي الشافعي المذهب» وكما اوضح ذلك المحقق في رسالته.

ولم يستطع المحقق ان يعثر على نسخة ثانية للكتاب لذلك نجد ان منهجه في تحقيقه اعتمد على ضبط النصوص في الرجوع الى المصادر المستقاة منها وتدوين اختلافاتها. كما قام المحقق بتنظيم النص وتقطيعه واعادة كتابته بما هو متعارف عليه في الوقت الحاضر، كما انه ترجم للاعلام وعرف بالامكنة وشرح الالفاظ والمصطلحات والمفردات.

لقد قسم المحقق رسالته الى قسمين بعد ان صدرها بمقدمة موجزة وكل قسم جعله على ابواب وفصول.

القسم الاول : ضمنه دراسة تقع في بابين هي :

الباب الاول : تناول فيه حياة ابن الجزري ونشأته وشيوخه وتحليل موارد دراسته ومصادر ترجمته ومكانته العلمية وأراء العلماء فيه وكذلك تناول حياة شمس الدين الذهبي واهم مؤلفاته والمصادر والدراسات التي تناولته وكتابه (المختار من تاريخ الجزري) وقد جعل هذا الباب في ثلاثة فصول.

اما الباب الثاني فخصصه لدراسة كتاب ابن الجزري وجعله في اربعة فصول في موارد الكتاب وانواع تلك الموارد من المشاهدة والملاحظة والمشافهة والمسألة وافادته من الكتب المدونة السابقة. واهمية الكتاب وقيمته وأثره في المؤلفين الذين جاؤوا من بعده واعتمدوا عليه وقد عدد منهم احد عشر مؤرخا وفي آخر فصل في هذا الباب تناول المحقق وصف القطعتين التي وصلتنا من تاريخ ابن الجزري. القطعة الاولى المحفوظة في المكتبة الوطنية في باريس والقطعة الثانية المحفوظة في مكتبة كوبرلي باسطنبول. كما اشار الى القطع التي نشرت من هذا الكتاب ثم تناول المحقق وصف نسخة كتاب المختار من تاريخ ابن الجزري للذهبي الذي قام بتحقيقه ثم بين منهجه في التحقيق.

اما القسم الثاني فتضمن النص المحقق من الكتاب والذي استغرق (٥٠٠) صفحة من اصل (٥٨٩) صفحة وختم الرسالة بالمصادر والمراجع التي اعتمدها.

راجياً ان يوفق المحقق الى طبع هذا الكتاب الجليل ليكون في متناول الباحثين والمحققين وتعم فائدته.

عرض الرسائل العلمية الجامعية

"جرائم التعاون مع العدو في زمن الحرب"

دراسة مقارنة

رسالة دكتوراه في القانون - جامعة بغداد ١٩٨٤
تأليف : د. سعد ابراهيم الاعظمي
اشراف : الاستاذ عبدالامير العيكلي - كلية القانون والسياسة جامعة بغداد
عرض : د . فلاح حسن عبدالحسين - جامعة البصرة

تعتبر جرائم خيانة الوطن من الجرائم المهمة التي لازالت الدول الحديثة تحاول معالجتها بواسطة التشريعات المتعددة لصيانة أمنها الداخلي والخارجي . واذا ما أدركنا ان نوع وطبيعة تلك الجرائم نجد ذاتها معقدة ومتطورة في الظروف الاعتيادية فكيف تصبح تلك الجرائم في حالة الحرب اذن ؟ من هنا تأتي الحاجة الى الباحثين والدارسين في عموم الوطن الكبير الى دراسة تلك الجرائم بعمق وصولا الى الهدف الكبير وهو صيانة الأمن القومي العربي . وطالما بقيت الاخطار قائمة في الداخل والخارج لَهُدِّدَ ذلك الأمن .

وفي العراق حيث تنهض الثورة باعباء البناء الوطني والاشتراكي ، فهي ايضا تخوض حرباً دفاعية للحفاظ على المنجزات الكبيرة التي ارستها طيلة عقد ونصف من الزمن. مسيرة كهذه لابد ان تثير حفيظة الاعداء الذين يدينون بالاراء والافكار غير الوطنية والذين يرتبطون بجهات وهيئات مختلفة غالبا ما تتمركز خارج الوطن وترتبط بجهات اجنبية متباينة .

اذن كيف عالج المشرع العراقي جرائم التعاون مع العدو في حالة الحرب ؟ من الطبيعي ان هدف تلك الجرائم هو زعزعة وتدمير الركائز المادية للدول وبالتالي خلق وضع مضطرب وغير مستقر يتناسب وطبيعة ذلك الهدف .

ومن هنا تأتي اهمية بحث الدكتور الاعظمي رغم صعوبة وندرة مصادره الاولية حيث ركز على بعض الجرائم الهامة والرئيسية التي تمس أمن الدولة الخارجي وما يترتب على تلك الجرائم من احكام ومعالجات في فترة الحرب ذاتها او عندما يكون البلد في حالة حرب وشيكة . بل وذهب الباحث الى ابعد من ذلك عندما قارن في الباب الثاني من رسالته بين التشريعات العراقية في هذا المجال والتشريعات المشابهة في الدول العربية والاوروبية الشرقية او الغربية منها .

اشتملت الرسالة على بابين رئيسيين وخاتمة. تناول في الباب الاول منه الاحكام النظرية والعامة في جرائم التعاون مع العدو ولذلك قسم هذا الباب الى خمسة فصول متوازنة وهي :

أ — الفصل الاول وتناول فيه لمحة تاريخية عن التطور التاريخي لجرائم أمن الدولة الخارجي منذ العصور القديمة وحتى الحديثة سواء في المجتمعات القبلية منها او التي عرفت نوعاً من التنظيم الاداري.

ب — واذا ما انتقلنا الى الفصل الثاني نرى ان الباحث عالج بصبر مفهوم أمن الدولة بالمنظور التقليدي والحديث حيث اكد « ان مفهوم أمن الدولة في زمن الحرب ومن خلال الحرب الدفاعية التي يخوضها العراق قد طرأ عليه تغير كبير في أهدافه ومهماته من خلال تشخيص الواقع ومتغيراته وتطوراته في ظروف الحرب وتحديد طبيعة التهديدات التي يواجهها القطر وتشخيص واقع وأساليب القوى المعادية للثورة .. وسد الفجوات والتغيرات التي يمكن لهذه القوى ان تستغلها في تهديد أمن العراق واستقراره فالعراق يحارب الاعداء اليوم على الجبهتين الخارجية والداخلية وبمختلف الوسائل المشروعة وبذا لم تعد للتقسيمات التقليدية بين الأمن الداخلي للدولة وأمنها الخارجي محل اعتبار ».

جـ — ولذلك لابد من التمييز بين جرائم التعاون مع العدو وما يشابهها من جرائم متنوعة أخرى التي تمس أمن الدولة الداخلي والخارجي على السواء كجرائم التجسس وجرائم الاتجار مع العدو وهذا ما خصص الباحث الفصل الثالث له .

د — اما في الفصل الرابع فقد ذهب الباحث الى دراسة ذلك النوع من الجرائم دراسة مقارنة في التشريع العراقي والتشريعات المشابهة في بعض الاقطار العربية والاوروبية كما اشرت سابقاً حيث لم تختلف تلك التشريعات اختلافاً كبيراً في معالجة تلك الجرائم .

هـ — أما في الفصل الخامس فقد تطرق الباحث بشيء من التفصيل الى الامور المشتركة لجرائم التعاون مع العدو في فترات الحرب ولذلك جزَّأ الباحث هذا الفصل الى قسمين حيث تحدث

عن الوضع القانونى لحالة الحرب وعناصرها الرئيسية . في القسم الاول حدد معنى حالة الحرب وزمنها وماهيّة الاعمال العدوانية وانتهاء حالة الحرب واخيرا الهدنة وموقعها في القانون.

اما في الجزء الثانى من الفصل الخامس فقد حاول الباحث ان يحدد نقطة قانونية دقيقة وهى من هو العراقى الذى قد يرتكب جريمة التعاون مع العدو في حالة الحرب ؟ وما هى صفته القانونية ؟ وهكذا درس الاشخاص الذين تنطبق عليهم صفة المواطنة العراقية وكيف تكتسب هذه الصفة وكيفية فقدانها ؟ هذه النقطة تثير لنا مسألة أخرى وهي الاحكام العامة للشخص غير العراقى المقيم في العراق والولاء المطلوب منه للعراق في الداخل والخارج وموقف التشريعات ذات السوابق القضائية المعروفة من ذلك .

واذا ما انتقلنا الى الباب الثانى من الرسالة فقد اشتمل تحديداً دقيقاً لجرائم التعاون مع العدو وما هيّة تلك الجرائم في زمن الحرب ولاسيما اهمها واخطرها بحيث اتبع الباحث في كل فصل منهجية واضحة في التحليل والمقارنة للتشريعات العراقية مع التشريعات العربية والاجنبية وموضحا الاركان المادية والمعنوية لكل جريمة ومن ثم تحديد العقوبة . ومن هذه الجرائم :

أ ــ جريمة المساس باستقلال البلاد وسلامة أراضيه . درس الباحث التطور التشريعى لهذه الجريمة سواء في التشريع العراقى أو في التشريع المقارن . بعدها تطرق الباحث الى الاركان المطلوب تحققها لاكتمال جوانب هذه الجريمة ومن ثم العقوبات المفروضة على مرتكبيها .

ب ــ جريمة الالتحاق بصفوف العدو ورفع السلاح ضد العراق وهى في الواقع من اكثر الجرائم لها علاقة بمسألة الولاء والاخلاص للعراق حتى اطلقت عليها بعض التشريعات تسمية (الخيانة العظمى) .

جـ ــ جريمة مساعدة العدو على دخول البلاد او تقدمه فيها حيث تعتبر هذه الجريمة من المساعدات المعنوية التى يقدمها الفاعل الى العدو في زمن الحرب ، حيث شرح الباحث بالتفصيل الوسائل التى حددها المشروع والتى اعتبر اتباعها بمثابة مساعدة للعدو على دخول البلاد أو تقدمه فيها على اعتبار ان كلا منها يشكل لوحده الركن المادى للجريمة .

د ــ جريمة تسهيل دخول العدو الى البلاد او تسليمه او التفاوض معه على تسليم جزء من أراضيه ، حيث تعد تلك المساعدة من المساعدات الاستراتيجية العدو . حيث ينصب ذلك التسهيل بالدرجة الأولى على المواقع والمنشآت الاقتصادية والعسكرية وكل ما أعد للدفاع عن البلاد . لقد حدد الباحث المقصود بمعنى التسهيل والتسليم وامداد العدو بالجند أو الاشخاص او المال .

هـ ــ جريمة مساعدة العدو بالموارد البشرية والمالية على جمع الجند والاشخاص والاموال باعتبارها من المساعدات الاقتصادية الهامة لزيادة امكانات العدو، ومن المعروف ان الحرب لايمكن ان تقوم او تتواصل دون توفر العناصر أعلاه وأى مساعدة تعنى تمكين العدو من مواصلة القتال ضد العراق والاساءة الى وضعه العسكرى .

و ــ وتبقى هناك بعض الجرائم المتفرقة التى خصص الباحث لها الفصل الاخير من الباب الثانى والتى حددها المشرع العراقى بعبارة (كل من اعان العدو) لان صيغ الاعانة قد تكون متطورة طالما ان صيغ الحرب متطورة . ويصعب على المشرع ان يحصرها حصراً دقيقاً ومحدداً .

هذه الدراسة جديرة بالاهتمام لانها واحدة من الدراسات التى افرزتها ظروف حربنا العادلة مع النظام الايرانى ولانها عالجت الجرائم التى قد يرتكبها العراقى وغير العراقى المقيم في العراق ضد أمن الدولة الداخلى والخارجى على السواء .

عرض رسالة ماجستير

"حزب المؤتمر الوطني الهندي"

١٩١٩ - ١٩٣٠

دراسة تاريخية

بقلم :

كفاح كاظم الخزعلي

كلية الآداب - جامعة البصرة - نيسان - ١٩٨٣

حصلت الباحثة بدراستها القيمة هذه على درجة الماجستير في التاريخ الحديث من كلية الآداب في جامعة البصرة . وفي بداية رسالتها اوضحت الباحثة أهمية موضوعها « مما لاشك فيه ان هناك صلة قوية بين مشكلات العرب الآسيوية ومشكلات الشعب العربي عموماً ، وان تجربة أى شعب في العالم الثالث تعد بحد ذاتها نافعة وجديدة بالدراسة . ومن هنا كان الاهتمام بهذا الموضوع ، دافعاً للعمل على تذليل مشكلة ندرة المصادر بالسفر الى الاماكن التى تتوفر فيها لتحقيق المشروع ».

وقد جاءت هذه الدراسة محاولة أولى لكتابة تاريخ حزب المؤتمر الوطنى الهندى - الذى يتسع لاكثر من دراسة - في حقبة مهمة من تطوره خلال الفترة ١٩١٩ - ١٩٣٠ باللغة العربية ، في الوقت الذى تفتقر فيه مكتباتنا لمثل هذا النوع من الدراسات .

تتألف هذه الدراسة من مقدمة واربعة فصول وخاتمة واربعة ملاحق .

تطرق الفصل الاول الى تطور سياسة المؤتمر الوطنى منذ نشأته وحتى عام ١٩١٩، حيث تعرض الفصل الى نشأة الحزب ونهجه السياسى مؤكداً على صراع الفئات السياسية داخل التنظيم وموضحاً مواقفها من الادارة البريطانية . كما القت الباحثة الضوء على البدايات الاولى لنشاط غاندى في مجال السياسة الهندية ، الذى عّد ظهوره بمثابة ظاهرة تاريخية أثرت سلباً وايجاباً في قيادة الحركة الوطنية الهندية عموماً والمؤتمر الوطنى على وجه الخصوص .

وتناول الفصل الثانى بالبحث والدراسة الظروف التى نقلت المؤتمر نقلة نوعية ليقود اوسع حركة جماهيرية في تاريخ الهند الحديث لمقاومة النفوذ البريطانى .

وعالج الفصل الثالث الازمات وردود الفعل التى اكتنفت سياسة المؤتمر الوطنى في اثر فشل حركة عدم التعاون ، وتتبع الانقسامات التى شهدها الحزب . كذلك تصاعد الاحداث الطائفية التى شكلت ظاهرة كان لابد من التوقف عندها بما يتلاءم ودراسة جهود المؤتمر الوطنى في علاجها خاصة في مجال الاصلاح الدستورى الذى شكل محور سياسة المؤتر أبان هذه المرحلة .

وفيما يتعلق بالملاحق ، فالأول ترجم لأهم الشخصيات الهندية التى وردت في الدراسة ، والثانى اوضح تاريخ ومكان انعقاد دورات المؤتمر الوطنى مع احصائية بعدد الحضور ، والثالث القى الضوء على تركيبة الجمعية التشريعية الهندية والمجالس التشريعية الاقليمية لعام ١٩٢٦، والرابع سجل أهم الاحداث الطائفية بين المسلمين والهندوس للفترة ١٩٢٣ - ١٩٢٧، كما زودت الدراسة بخريطة توضيحية للهند .

وتوصلت الباحثة في خاتمة دراستها ، الى ان الحزب ، حزب برجوازى وطنى تنقصه الايدلوجية الواضحة . وقد حاول، يوم كان التنظيم السياسى الوحيد لكل الهند ، ان يعبىء طيلة هذه المرحلة الحكم الذاتى في اطار الامبراطورية البريطانية . كما اكدت الباحثة « بقدر ما كان المؤتمر الوطنى يعمل من أجل الاستقلال فقد تحول الى حركة وطنية حقيقية في العشرينات فتحت أبوابها لمختلف فئات الشعب الهندى. وان الانقسامات التى تخللت تنظيمه الداخلى في المرحلة الاخيرة لا تشكل ظاهرة مرضية بقدر ما هى ظاهرة صحية شذبت مسيرة الحزب ، اذ تطور هذا الانقسام ليوجد جناحاً يمينياً يقوده موتيلال نهرو وجناحاً يسارياً تزعمه شبان ذوو أراء متباينة من امثال جواهر لال نهرو الذين نادوا أول مرة بالاستقلال الكامل . وقد حاول غاندى ان يكون بعيداً عن هذه الانقسامات وان يكون بمثابة المحايد بين الآراء المختلفة ، غير ان سرعة تنامى الافكار الراديكالية في نهاية هذه المرحلة كشفت عن موقفه الواضح الى جانب اليمين ».

وتكمن اهمية البحث من خلال تنوّع مصادر البحث ما بين

الوثائق المنشورة وغير المنشورة والمصادر والمراجع الاجنبية ، وقفت الباحثة فترة ليست قليلة في المكتبات البريطانية في لندن وخاصة مكتبة وزارة الهند ومكتبة مدرسة الدراسات الشرقية والافريقية والمكتبة المركزية لجامعة لندن .

فكانت الوثائق البريطانية تضم المراسلات والتقارير والاوراق الخاصة للحكام البريطانيين بالاضافة الى المنشورات الرسمية والاوراق البرلمانية . يضاف الى ذلك منشورات المؤتمر الوطني وفي مقدمتها المحاضر السنوية للمؤتمر الوطني . كما اعتمدت الباحثة على المجاميع الوثائقية التى تضم وثائق قيمة ومختارة من الارشيفات الهندية . كما رجعت الباحثة الى المذكرات الشخصية لمعاصرى الاحداث ، مع عدد ضخم من المراجع باللغة الانجليزية من الكتب والمجلات والصحف .

فالبحث دراسة مهمة لا غنى عنها في حقل الدراسات الاسيوية .

اقليم فارس منذ الفتح العربي حتى ٢١٨ هـ

فائق نجم مصلح
قسم التاريخ / كلية الآداب
جامعة بغداد

تطرق الباحث الى سبب اختياره لهذا الموضوع ، وبالتحديد لاقليم فارس، وقسم بحثه الى خمسة فصول ، تناول في الفصل الاول فيها ، السطح والمناخ ، ووصف جغرافية الاقليم وطبيعته ، وقسمه وفق ما تعارف عليه الجغرافيون العرب الى خمسة كور او الى ست كور. وقد اضاف بعضهم شيراز الى هذه الاقسام وجعلوها كورة مستقلة وقسم الكور الى مدن ونواح وقرى، وتعرض الى ذكر بعض الرساتيق والطساسيج التى كانت غير شائعة في الاقليم والتى اخذ نظامها عن العراق .

اما الفصل الثانى فانه درس فيه الثروات الرئيسية في الاقليم بما في ذلك المنتوجات الزراعية ومدى اعتماد الاهالى عليها، ونظام الارواء ، وبحث الجوانب الاقتصادية كالصناعة واشهر الصناعات في الاقليم ، والمدن التى ازدهرت فيها تلك الصناعات والموارد الاولية ، وكيف تمت وتطورت هذه الصناعات .

وتطرق الى التجارة والى اهم الصادرات في الاقليم ، وعن المدن التى ازدهرت فيها التجارة، واشهر الموانىء ثم تعرض الى ذكر الاسواق والمدن التى تكثر فيها الاسواق، ثم تطرق الى ذكر بعض احوال التجار الاجتماعية .

اما الفصل الثالث فانه بحث فيه موضوع فتح العرب للاقليم ودخولهم فيه عن طريق البحرين، وتحدث عن دور القادة العرب في تحريره ، وخاصة قادة البصرة، والطرق التى سلكوها ، ثم نظر الى ذكر اشهر المعارك التى وقعت بين العرب والفرس والمناطق التى حررها العرب تبعا لتواريخ الفتح .

وفي الفصل الرابع تكلم عن موقف اهل الاقليم من الفتح العربى، وموقف العرب منهم .

اما الفصل الخامس والاخير فانه بحث فيه الجانب الادارى وتطرق الى التقسيمات الادارية فيه ، والى ذكر الولاة الذين حكموا في هذا الاقليم . كما بحث الاحوال المالية ونظم الخراج والضرائب الاخرى في الاقليم ، وتطرق الى ذكر الدواوين ونظام الجندية والشرطة في الاقليم .

الوثائق المنشورة وغير المنشورة والمصادر والمراجع الاجنبية ، وقفت الباحثة فترة ليست قليلة في المكتبات البريطانية في لندن وخاصة مكتبة وزارة الهند ومكتبة مدرسة الدراسات الشرقية والافريقية والمكتبة المركزية لجامعة لندن .

فكانت الوثائق البريطانية تضم المراسلات والتقارير والاوراق الخاصة للحكام البريطانيين بالاضافة الى المنشورات الرسمية والاوراق البرلمانية . يضاف الى ذلك منشورات المؤتمر الوطني وفي مقدمتها المحاضر السنوية للمؤتمر الوطني . كما اعتمدت الباحثة على المجاميع الوثائقية التى تضم وثائق قيمة ومختارة من الارشيفات الهندية . كما رجعت الباحثة الى المذكرات الشخصية لمعاصرى الاحداث ، مع عدد ضخم من المراجع باللغة الانجليزية من الكتب والمجلات والصحف .

فالبحث دراسة مهمة لا غنى عنها في حقل الدراسات الاسيوية .

اقليم فارس منذ الفتح العربي حتى ٢١٨ هـ

فائق نجم مصلح
قسم التاريخ / كلية الآداب
جامعة بغداد

تطرق الباحث الى سبب اختياره لهذا الموضوع ، وبالتحديد لاقليم فارس، وقسم بحثه الى خمسة فصول ، تناول في الفصل الاول فيها ، السطح والمناخ ، ووصف جغرافية الاقليم وطبيعته ، وقسمه وفق ما تعارف عليه الجغرافيون العرب الى خمسة كور او الى ست كور. وقد اضاف بعضهم شيراز الى هذه الاقسام وجعلوها كورة مستقلة وقسم الكور الى مدن ونواح وقرى، وتعرض الى ذكر بعض الرساتيق والطساسيج التى كانت غير شائعة في الاقليم والتى اخذ نظامها عن العراق .

اما الفصل الثاني فانه درس فيه الثروات الرئيسية في الاقليم بما في ذلك المنتوجات الزراعية ومدى اعتماد الاهالى عليها، ونظام الارواء ، وبحث الجوانب الاقتصادية كالصناعة واشهر الصناعات في الاقليم ، والمدن التى ازدهرت فيها تلك الصناعات والموارد الاولية ، وكيف تمت وتطورت هذه الصناعات .

وتطرق الى التجارة والى اهم الصادرات في الاقليم ، وعن المدن التى ازدهرت فيها التجارة، واشهر الموانىء ثم تعرض الى ذكر الاسواق والمدن التى تكثر فيها الاسواق، ثم تطرق الى ذكر بعض احوال التجار الاجتماعية .

اما الفصل الثالث فانه بحث فيه موضوع فتح العرب للاقليم ودخولهم فيه عن طريق البحرين، وتحدث عن دور القادة العرب في تحريره ، وخاصة قادة البصرة، والطرق التى سلكوها ، ثم نظر الى ذكر اشهر المعارك التى وقعت بين العرب والفرس والمناطق التى حررها العرب تبعا لتواريخ الفتح .

وفي الفصل الرابع تكلم عن موقف اهل الاقليم من الفتح العربى، وموقف العرب منهم .

اما الفصل الخامس والاخير فانه بحث فيه الجانب الادارى وتطرق الى التقسيمات الادارية فيه ، والى ذكر الولاة الذين حكموا في هذا الاقليم . كما بحث الاحوال المالية ونظم الخراج والضرائب الاخرى في الاقليم ، وتطرق الى ذكر الدواوين ونظام الجندية والشرطة في الاقليم .

عمارة القلاع وتخطيطها في شمال العراق

١٠٣٥ - ١٢٨٩ هـ / ١٦٢٥ - ١٨٧٢ م

للسيد سعدى ابراهيم اسماعيل الدراجي
عرض : الدكتورة اعتماد يوسف أحمد القصيري

عمارة القلاع وتخطيطها في فترة الاحتلال العثماني لها اهمية خاصة اذ انها تؤلّف جانبا مهماً من جوانب العمارة العسكرية كما تشكل ركنا مهماً من اركان الحضارة العربية الاسلامية المتواصلة .

والكتاب الذى نعرضه هنا والصادر باللغة العربية هو اول كتاب يدرس تاريخ وعمارة القلاع في العراق فترة الاحتلال العثماني، وهو الاطروحة التى قدمها السيد سعدى ابراهيم اسماعيل الدراجي سنة ١٩٨٥ الى جامعة بغداد بكلية الاداب قسم الاثار ونال بها شهادة الماجستير في الآثار الاسلامية ويعود سبب اختيار المؤلف هذه الفترة لعلاج عمارة القلاع في شمالي العراق ما بين سنة ١٠٣٥ ـ ١٢٨٩ هـ لسببين :

الأول ـ لتوفر وجود القلاع في هذه المنطقة وتشمل محافظات نينوى، اربيل السليمانية، وجزءا من شمالى منطقة ديالي حيث انفردت هذه المنطقة دون سواها من مناطق العراق بنماذج من القلاع لازالت قائمة ويعزى بقاؤها الى الوقت الحاضر لاسباب عديدة منها :

١ ـ كونها قائمة على رؤوس الجبال بعيدة عن ايدى العابثين فضلا عن طبيعة البناء المستخدمة في المنطقة مما ساعد هذه الابنية على مقاومة العوامل الطبيعية وعوادى الزمن .

٢ ـ لانها ترتبط باقدم قلعة توفرت عليها الدراسة بالاضافة الى القلاع الاخرى التى شيدت خلال الفترة المشار اليها. ضم الكتاب مقدمة وثلاثة فصول وخارطة لتعيين مواقع القلاع و (٢) مجسم و (٧٢) صورة فوتوغرافية ملونة صورت من قبل المؤلف اثناء زيارته للموقع و (١٧) رسما تخطيطيا رسمها بنفسه، وخلاصة (ص ١٦٨ ـ ١٧١).

وقد خصص المؤلف الفصل الاول من الكتاب لدراسة احوال العراق السياسية والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية ما بين سنة ١٠٣٥ ـ ١٢٨٩ هـ/ ١٦٢٥ ـ ١٨٧٢ م واثرها في نشأة القلاع (ص ٥ ـ ٣٥) المبحث الاول عالج فيه احوال العراق السياسية والعسكرية (ص ٦ ـ ٢١) المبحث الثانى تحدث فيه عن احوال العراق الاجتماعية والاقتصادية (ص ٢٢ ـ ٣٨).

المبحث الاول : استعرض فيه احتلال الاتراك والصفويين للعراق وما حدث خلال تلك الحقبة الزمنية من الفوضى وحركات انفصالية في شمال العراق وجنوبه نتيجة ضعف السلاطين وفساد الجهاز الادارى بسبب انشغال السلطة العثمانية في حروبها في اوروبا، ثم تحدث عن عودة الحكم الصفوى للعراق ١٠٣٣ هـ/ ١٦٢٢ م والذى استمر حتى سنة ١٠٤٨ هـ/١٦٣٨ م ثم استعادة بغداد من ايدى الفرس سنة ١٠٤٨ هـ/١٦٣٨ م ونتيجة لهذه الحروب بين الدولتين العثمانية والفارسية في هذه الحقبة الزمنية وكثرة الغزوات الايرانية للمدن العراقية دفعت الى اهتمام العثمانيين باقامة العمائر العسكرية وحصنوا الحدود باقامة القلاع والاهتمام بالجيش وتزويده باحدث الاسلحة .

المبحث الثانى : اتى المؤلف في هذا المبحث (ص ٢٢ ـ ٣٨) على استعراض احوال العراق الاجتماعية والاقتصادية ووصف مدينة بغداد اسوارها شوارعها اسواقها بيوتها، كما تحدث عن الهيكل الاقتصادى خلال تلك الفترة والذى كان يعتمد بالدرجة الاولى على الزراعة والصناعة والتجارة واهتمام الولاة بالصناعات الحربية كما اشار الى طرق المواصلات الداخلية والخارجية التى كانت تربط بغداد بالمدن الاخرى .

الفصل الثاني :

وفي الفصل الثانى (ص ٣٩ ـ ١٢١) كرس لدراسة القلاع التى لازالت قائمة في مختلف ارجاء القسم الشمالى من العراق مع ذكر خصائصها المعمارية .

قسم الفصل الى ستة مباحث، يضم كل مبحث نموذجاً او اكثر من القلاع ذكرت حسب تسلسلها الزمني ، وفي مقدمة الفصل عرّف لفظة القلعة لغوياً والغرض من اقامتها ، كما اشار الى اقامة القلاع في داخل المدن منها قلعة بغداد والموصل والغرض من اقامتها هو زيادة في تحصين المرافق الحيوية للمدينة منها مقر لاقامة الوالى، دار ضرب النقود، وفرقة عسكرية واجبها المحافظة على الامن اذن القلعة تحتل الصفة العسكرية التى تتصف بها السلطة الحاكمة في المدينة ورمزاً لهيبة الجيش .

المبحث الاول : (ص ٤٣ ـ ٥٨) تحدث فيه عن قلعة باشطابيا وايج قلعة (أى القلعة الداخلية) اشار في هذا المبحث الى القلاع التى اقيمت في العراق قبل الاحتلال العثمانى وذكر اهتمام العثمانيين بتلك القلاع

وترميم بعضها وادخال التحسينات على البعض الاخر، كما بنوا قلاعاً جديدة ذات صفة عسكرية بحتة والموصل كانت من بين تلك المدن التى حظيت باهتمامهم. تحدث عن تجديد بناء اسوارها وحصونها وبناء القلاع فيها واستعرض بناء قلعة باشطابيا والاحداث التى جرت عليها خلال مختلف العصور مستعيناً بالصور والخرائط (ص ٥٠ ـ ٥٣) .

القلعة الداخلية (ص ٥٤ ـ ٥٧) التى شيدها الوالى بكر باشا بن اسماعيل بن يونس الموصلى الذى تولى اياله الموصل ١٠٣٠ هـ/ ١٦٢٠ م ظلت هذه القلعة قائمة الى بداية القرن العشرين حيث ازيلت اسوارها واعتمد صاحب البحث في وصفه لها على ما اشار اليه المؤرخون العرب والرحالة الاجانب منهم ناقرينه اثناء زيارته للعراق سنة ١٠٥٤ هـ/ ١٦٤٤ م والرحالة نيبور سنة ١١٨٠ هـ/ ١٧٦٦ م والرحالة بكنفهام سنة ١٢٣١ هـ/١٨١٦ م مستعينا بمخطط زودنا به الرحالة نيبور .

المبحث الثاني : (ص ٥٨ ـ ٧٠) قلعة اسكي موصل الواقعة، في قرية اسكى موصل في محافظة الموصل، في هذا المبحث قدم لنا وصفاً شاملاً لتخطيط القلعة معتمداً على تخطيط رقم (٥) قام برسمه الباحث ووصف ما تبقى من المبنى منه سور الابراج، المزاغل (ص ٦٢ ـ ٦٤) المدخل، الفناء، ومن سير الحديث ومن الصور يعتبر الجناح الشمالى من بناء القلعة من اصلح الاجنحة المتبقية من القلعة ولوحظ ان الجانب الغربى من القلعة مشابهٌ للجانب الشرقى .

المبحث الثالث : قلعة دوكان ويؤكد ص ٧١ ـ ٨١) للتشابه الكبير بين القلعتين في جميع التفاصيل المعمارية قام الباحث بدراسة قلعة دوكان وقارنها بالثانية مع ذكر الاختلافات القائمة بينهما والقلعتان هما من بناء محمد باشا الراوندوزى في مطلع القرن التاسع عشر والقلعة في الوقت الحاضر بحالة سيئة تهدمت معظم اقسامها .

وصف بناء القلعة (ص ٧٣ ـ ٨٢) سورها الخارجى، ابوابها المزاغل، المدخل، كما زودنا بوصف دقيق للطابق الارضى والعلوى للقلعة، وذكر أهم المميزات المعمارية التى تميزت بها عمارتها مستعيناً بالصور والتخطيطات من رسم وتصوير الباحث .

المبحث الرابع : قلعة كويسنجق (ص ٨٢ ـ ١٠٥) يرجع تاريخ بنائها خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى خلال فترة حكم الوالى مدحت باشا ١٨٦٩ ـ ١٨٧٢ عالج الباحث في هذا المبحث بناء القلعة ووصف الوحدات السكنية القائمة في الطابق الارضى والعلوى وذكر مميزات بناء القلعة منها احتواء القلعة على مسجد للصلاة يقوم في نهاية الجناح الجنوبى .

ب ـ جميع مرافقها سقفت باقبية نصف اسطوانية.

كما اشار الى المبانى التى ازيلت من القلعة منها الجناح الغربى الذى ازيل في الآونة الاخيرة .

المبحث الخامس : (ص ١٠٥ ـ ١١٥) استعرض القلاع والابراج القائمة على نهر ديالى تنحصر بين قضاء جلولاء ودربنديخان حيث اقيمت عدة ابراج اسطوانية تتخللها قلاع صغيرة واشار الى سبب اقامة هذه الابراج منها الاعتداءات الايرانية طيلة فترة الاحتلال العثمانى للعراق لذا سعى الولاة لتحصين هذا الطريق باقامة عدة ابراج ويدل شكلها على وظيفتها كنقاط سيطرة ومراقبة لتامين حماية القوافل التجارية او نقاط انذار مبكر اذا ما حصل تحرك عسكرى من قبل ايران، يرجع تاريخ بناء هذه الابراج الى عهد الوالى مدحت باشا وبين هذه الابراج قلاع صغيرة تشرف وتدير هذه الابراج منها قلعة، الشيخ بابا (ص ١٠٧) وقلعة برلوت. ووصف تخطيط وعمارة القلعة واهم ما فيها من عناصر معمارية بارزة منها السور، الابراج، المزاغل، المدخل.

المبحث السادس : أما المبحث السادس فقد خصصه لدراسة قلعة بانمان (ص ١١٦ ـ ١٢١) الواقعة قرب قرية بانمان التابعة لمدينة اربيل بنيت من قبل محمد باشا الراوندوزى الذى سيطر على المنطقة في النصف الاول من القرن التاسع عشر ذكر اهمية هذه القلعة من الناحية العسكرية ووصف المبنى وبعض العناصر المعمارية البارزة فيها على غرار وصفه لبناء القلاع السالفة الذكر، منها وصف الابراج، المزاغل، المدخل .

الفصـل الثـالث :

في هذا الفصل استعرض المظاهر العسكرية والعناصر المعمارية التى وجدت قائمة في بناء القلاع السالفة الذكر .

المبحث الاول : استعرض فيه اختيار الموقع الاستراتيجى في بناء القلاع الداخلية (ص ١٢٣ ـ ١٢٧) القائمة داخل المدن والقلاع التى بنيت خارج المدن لحماية طرق المواصلات والتجارة واشار الى أسباب اقامة القلاع .

١ ـ لحماية المواصلات والتجارة .

٢ ـ حماية المرات المائية منها قلعة الموصل، بغداد ، الرنة، العجوزة .

٣ ـ قلاع تتخذ من قبل الزعامات المحلية تقوم في محلات نائية منها قلعة يوكد .

٤ ـ قلاع اتخذت مقراً للامراء والاقطاعيين منها قلعة ادمم في راوندوز .

٥ ـ تقوم على الطرق العسكرية لتقديم الخدمات الى الجيش .

٦ ـ تبنى على الحدود لرصد تحركات الاعداء وتعتبر هذه القلاع خطا دفاعيا أوليا للجيش .

المبحث الثانى : السور (ص ١٢٨ ـ ١٣٢)، استعرض تاريخ ظهور السور في بناء المدن بغض النظر عن وظيفته وانواعه واشار الى اقدم نظام دفاعى في العراق عثر عليه في موقع تل الصوان ويارم شبه شمال العراق.

المبحث الثالث : الابراج (ص ١٣٣ ـ ١٣٩) اتى في المبحث الثالث على تأصيل هذا العنصر المعمارى الهام والذى يعتبر احدى المظاهر العسكرية المهمة في بناء القلاع.

المبحث الرابع : (ص ١٤٠ ـ ١٤١) اما المبحث الرابع فقد تحدث فيه عن المزاغل، الذى هو احد عناصر العمارة العسكرية واهم مقوماتها الاساسية في الدفاع .

المبحث الخامس : خصص لدراسة المدخل واشار الى اختلاف شكل المدخل تبعاً لوظيفة القلعة واهميتها ومواد بنائها (ص ١٤٢ ـ ١٤٦).

المبحث السادس : الفناء (ص ١٤٧ ـ ١٤٨) اوضح في هذا المبحث اهمية الفناء بالنسبة لبناء القلعة وفوائده. واتى المؤلف في المبحث السابع على تأصيل الايوان في العمارة العراقية والعربية (ص ١٤٩ ـ

١٥٢). وفي المبحث الثامن اصل الحجرة والغرفة ثم اتى في المبحث التاسع على تأصيل بعض العناصر المعمارية المهمة منها العقد، القبو (ص ١٥٥ - ١٦٠) وفي المبحث العاشر اصل القبة مع ذكر اقدم الأمثلة لها في العمارة العراقية، أما المبحث الحادى عشر (ص ١٦١ - ١٦٣) فقد تحدث فيه عن مرابط الحيوانات في القلاع واتى في المبحث الاخير الثانى عشر بالحديث عن السلّم واستعماله في العمارة القديمة .

واختتم الباحث بحثه بالخلاصة (ص ١٦٨ - ١٧١) ذكر فيها اهم النتائج التي توصل اليها في دراسته لهذه القلاع من الناحية المعمارية واستعرض دوافع بناء القلاع .

الصفات الاساسية التي تتصف بها جميع القلاع التي ورد ذكرها في الفصل الاول والثانى من حيث التخطيط والشكل العام فقد اشتركت جميع القلاع بعناصر معمارية .

ان الدراسات والمعلومات المعروفة عن القلاع التي اقيمت في العراق خلال الفترة الزمنية التي بحثها السيد سعدى كانت قليلة لاتتناسب واهمية فن العمارة العراقية خلال تلك الحقبة الزمنية. كما ظلت هذه القلاع دون دراسة علمية شاملة استطاع الباحث ولاول مرة توثيق هذه القلاع بالمخططات والصورة حفاظاً على تراث الامة من الضياع كما استطاع ان يحدد تاريخ بناء بعضها معتمداً على الروايات وعلى مقارنتها بمثيلاتها من الناحية المعمارية، وبهذا فقد وثّق لنا جانباً مهماً من التراث المهدد بالزوال ولهذا فان ما قدمه المؤلف يشكّل اضافة علمية قيمة في ميدانها واعطى صورة موضوعية واضحة لعمارة القلاع في فترة الاحتلال العثماني .

الدكتورة اعتماد يوسف القصيرى
باحث علمي المؤسسة العامة للآثار





أ ـ تشكيلات الاتحاد فى مجال النشر

أولا : الهيئة العربية العليا لكتابة تاريخ الأمة العربية :

١	الدكتور محمد عدنان البخيت	ممثل	مشروع كتابة تاريخ بلاد الشام المملكة الأردنية الهاشمية
٢	الدكتور عبدالجليل التميمى	ممثل	مشروع كتابة التاريخ العثمانى الجمهورية التونسية
٣	الدكتور عبدالرحمن الأنصارى	ممثل	كتابة تاريخ الجزيرة العربية المملكة العربية السعودية
٤	الدكتور نبيه عاقل	ممثل	لجنة كتابة تاريخ العرب الجمهورية العربية السورية
٥	الدكتور سلمان سعدون البدر	ممثل	هيئة كتابة تاريخ الأمة دولة الكويت
٦	الدكتور صالح احمد العلى	ممثل	هيئة كتابة تاريخ الأمة العربية الجمهورية العراقية
٧	الدكتور محمد الطاهر الجراري	ممثل	مؤتمر كتابة تاريخ الأمة العربية الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

ثانيا : لجنة تعضيد المنشورات التاريخية :

١ ـ الدكتور فاضل عبدالواحد (رئيسا)
٢ ـ الدكتور حسن فاضل زعين
٣ ـ الدكتورة رجاء حسنى الخطاب
٤ ـ الدكتورة صباح ابراهيم الشيخلى
٥ ـ الدكتور عبدالأمير عبد دكسن
٦ ـ الدكتور فاروق عمر فوزى
٧ ـ الدكتور هاشم صالح التكريتى
٨ ـ الدكتور يحيى الشاهرلى
٩ ـ الدكتور محمد جاسم حمادى المشهدانى (مقررا)

ثالثا : اللجنة الاستشارية للمنشورات التاريخية :

١	الدكتور صالح الحمارنة	المملكة الأردنية الهاشمية
٢	الدكتور سلطان القاسمي	دولة الامارات العربية المتحدة
٣	الدكتور عبدالله سبت	دولة البحرين
٤	الدكتور محمد الهادي الشريف	الجمهورية التونسية
٥	الدكتور محمد البشير شنيتي	الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
٦	الدكتور يوسف الثقفي	المملكة العربية السعودية
٧	الدكتور تاج السر احمد	جمهورية السودان الديمقراطية
٨	الدكتور عادل زيتون	الجمهورية العربية السورية
٩	الأستاذ محمد على كريم	جمهورية الصومال
١٠	الدكتور ابراهيم خليل احمد	الجمهورية العراقية
١١	السيد على احمد الشنفرى	سلطنة عمان
١٢	السيد احمد العنانى	فلسطين
١٣	الدكتور حسن محمد صالح	دولة قطر
١٤	الدكتور عبدالمالك التميمى	دولة الكويت
١٥	الدكتور عمر عبدالسلام تدمرى	الجمهورية اللبنانية
١٦	الدكتور عبدالرحيم عبدالرحمن	جمهورية مصر العربية
١٧	الدكتور محمد المختار بن زيدان	جمهورية موريتانيا الاسلامية
١٨	الدكتور عبدالهادى التازى	المملكة المغربية
١٩	الدكتور احمد العامرى	الجمهورية العربية اليمنية
٢٠	الدكتور محمد عكاشة	جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية

ب ـ نشاطات الاتحاد فى مجال النشر :

أولا : الكتب :

قام الاتحاد بنشر الكتب التالية :

١ ـ كتاب يوميات البصرة بجزئين تاليف الدكتور مصطفى عبدالقادر النجار والدكتور الأمير محمد أمين (بيروت ١٩٨٠) باللغة الانجليزية .

٢ ـ بحوث مهرجان المؤرخ توينبى (بغداد ١٩٧٩) باللغة الانجليزية والعربية واشرف على اعدادها الدكتور هاشم التكريتى والدكتورة عالية سوسة .

٣ ـ الحركة الصهيونية فى تونس من الفترة مابين (١٩١١ ـ ١٩٢٧) تاليف الأستاذ التيمومى (بيروت ١٩٧٩) .

٤ ـ نشاة الحركة الأباضية الدكتور عوض خليفات (عمان ١٩٧٨)

٥ ـ ملامح النهضة العلمية فى العراق من القرنين الرابع والخامس الهجريين (٣٣٤ هـ ـ ٤٤٧ هـ) (١٤٥ هـ ـ ١٠٥٨م) للدكتور محمد حسين الزبيدى (بيروت ١٩٨٠) .

٦ ـ ديوان جواهر الملوك فى مدايح الملوك ، للشاعر هلال بن سعيد بن عرابة العمانى تحقيق الدكتور داود سلوم (بيروت ١٩٧٩)

٧ ـ القبائل العربية فى المشرق خلال العهد الأموى (٤٠ ـ ١٣٢ هـ/ ٦٠٠ ـ ٧٤٩م) للدكتور ناجى حسن (بيروت ١٩٨٠)

٨ ـ حضارات الوطن العربى كخليفة للمدينة اليونانية للدكتور سامى سعيد الأحمد (بيروت ١٩٨٠)

٩ ـ الأمير مسلمة بن عبدالملك بن مروان ، للدكتور عواد مجيد الأعظمى (بيروت ١٩٨٠) .

١٠ ـ مقدمة فى دراسة مصادر التاريخ العمانى للدكتور فاروق عمر فوزى (بغداد ١٩٧٩) .

١١ ـ المدخل الى تاريخ اللغات الجزرية للدكتور سامى سعيد الأحمد (بغداد ١٩٨١)

١٢ ـ دراسات تاريخية لمعاهدات الحدود الشرقية للوطن العربى للدكتور مصطفى عبدالقادر النجار (بيروت ١٩٨١) .

١٣ ـ فلسطين تاريخها وحضارتها للدكتور عز الدين غربية (بيروت ١٩٨١)

١٤ ـ كتاب المسعودى مؤرخا للأستاذ عبدالرحمن العزاوى (بغداد ١٩٨٣)

١٥ ـ مقدمة فى التصوف وحقيقته للامام ابى عبدالرحمن السلمى البغدادى تحقيق الأستاذ الدكتور حسين امين (بغداد ١٩٨٤)

١٦ ـ فهارس مجلة المؤرخ العربى للدكتور محمد جاسم حمادى المشهدانى (بغداد ١٩٨٤) .

ثانيا : المجلة :

قام الاتحاد باصدار مجلة تاريخية علمية وهى (مجلة المؤرخ

العربى) تحتوى على النتاجات العلمية الجيدة للمؤرخين والباحثين العرب .

ان الاتحاد يعتزم تطوير مجلة المؤرخ العربى وجعلها اكثر ملاءمة مع تطور الدراسات والمفاهيم العلمية ، وقد تم الى الآن اصدار (٢٥) جزءا من المجلة اعتبارا من سنة ١٩٧٥ تاريخ صدور العدد الأول ولحد الآن (١٩٨٥) وهو تاريخ صدور العدد الخامس والعشرين .

علما أن الأعداد السادس والعشرين والسابع والعشرين والثامن والعشرين والتاسع والعشرين والثلاثين والحادى والثلاثين والثانى والثلاثين تحت الطبع .

من نشاطات الاتحاد فى مجال الندوات والمؤتمرات اعتبـارا مـن ١/٩/١٩٨٤

اولا : المؤتمرات والندوات التى نظمها وسينظمها الاتحاد :

أ ـ المؤتمرات التى تم عقدها خلال العام الدراسى الحالى :

١ ـ ندوة تأصيل المقام العراقى تاريخيا بغداد ١ ـ ٩/١٠/١٩٨٤

٢ ـ الشهيد فى التاريخ العربى الاسلامى بغداد ١/١٢/١٩٨٤

٣ ـ المخطوطات والتراث ٢٢/١٢/١٩٨٤

٤ ـ مكانة الأسير فى التاريخ العربى الاسلامى ٨/١/١٩٨٥

٥ ـ الدول الكبرى والقضية الفلسطينية ١٨/٢/١٩٨٥

٦ ـ المستنصرية مدرسة وجامعة (بالاشتراك مع الجامعة المستنصرية) ٤/٥/١٩٨٥

٧ ـ حركة مايس ١٩٤١ ٢/٥/١٩٨٥

٨ ـ تطور الفكر العربى القومى (اتحاد المؤرخين العرب ، بالاشتراك مع مركز دراسات الوحدة العربية ، والمجمع العلمى العراقى ، ومركز البحوث والدراسات العربية) ٨ ـ ١٠/٥/١٩٨٥

٩ ـ الندوة العلمية الأولى لمدراء تحرير المجلات الانسانية ٢٧/٦/١٩٨٥

ب ـ المؤتمرات والندوات التى ينوى الاتحاد عقدها حتى نهاية عام ١٩٨٥ :

١ ـ البطل فى التاريخ بالاشتراك مع وزارة الثقافة والاعلام ١٠ (او) ١١/١٩٨٥

٢ ـ الأسطورة بين الواقع والخيال فى حضارة العراق ١٩٨٥

٣ ـ الحضارة العربية الاسلامية ١٩٨٥

٤ ـ الاسلام والقومية ١٩٨٥

٥ ـ المستشرقون والتاريخ العربى ١٩٨٥

٦ ـ التحدى الشعوبى للأمة العربية (بالاشتراك مع نقابة المعلمين) ١٩٨٥

ت ـ المؤتمرات التى ينوى الاتحاد المشاركة فيها حتى نهاية عام ١٩٨٥

م	اسم المؤتمر او الندوة	مكان الانعقاد	الجهة المنظمة	التاريخ
	ندوة حول ثورة أكتوبر والعالم	شتوتجارت / المانيا الاتحادية	معهد البحث العلمى السوفياتى	أب/٩٨٥
٢	الاجتماع السادس عشر لمؤتمر العلوم التاريخية الدولى	شتوتجارت / المانيا الاتحادية	المنظمة العالمية للعلوم التاريخية	٢٥ / ٨ ـ ١/٩/١٩٨٥
٣	الحلقة الدراسية فى ادارة وتطوير معاهد التعليم التقنى العربية / بغداد	بغـداد	الاتحاد العربى للتعليم التقنى / الأمانة العامة	٢٥ / ٩ ـ ٢/١٠/١٩٨٥
٤	افريقيا المحررة (بمناسبة مرور مائة عام على مؤتمر برلين حول تقسيم افريقيا (١٨٨٤)	جمهورية أثيوبيا	وزارات الاعلام الافريقية	٧/١١/١٩٨٥
٥	ندوة الموانىء فى الخليج العربى	بغـداد	مركز علوم البحار فى الخليج العربى / جامعة البصرة	١٤/١٦/كانون الثانى ١٩٨٥
٦	ندوة الوحدة العربية تجاربها وتوقعاتها	جامعة صنعاء	مركز دراسات الوحدة العربية بالتعاون مع جامعة صنعاء	١٧ ـ ١٢/٢/١٩٨٦

ثانيا : المؤتمرات العربية والعالمية التى شارك ويشارك بها الاتحاد

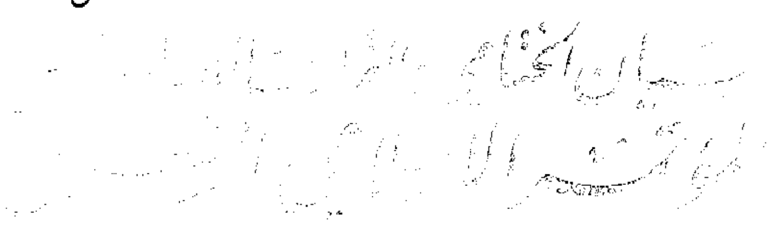
أ ـ المؤتمرات والندوات التى شارك فيها الاتحاد خلال العام الدراسى الحالى :

م	اسم المؤتمر او الندوة	مكان الانعقاد	الجهة المنظمة	التاريخ
١	مؤتمر الثروة النفطية واثرها على السياسة العربية المعاصرة	ولاية نيوجيرسى الأمريكية	جامعة روجر	أب ١٩٨٤
٢	ندوة الحوار العربى الأوروبى	ميلانو ، كادينانبا ايطاليا	المعهد الدولى العالمى التابع لمؤسسة كونراد ايناور	٢٥ / ١١ ـ ١٩٨٤/١٢/١
٣	الاجتماع الثالث للتنسيق بين الأمانة العامة /الجامعة العربية /الادارة العامة لشؤون الاعلام والمنظمات والاتحادات العربية	تونس مقر جامعة الدول العربية	جامعة الدول العربية /الادارة العامة لشئون الاعلام	٩ ـ ١٩٨٥/٢/١٠
٤	المؤتمر الثالث للعلاقات العربية التركية	جامعة اليرموك	جامعة الأردن /جامعة اليرموك / جامعة مؤتة	٢٠ ـ ٨٥/٤/٢٥
٥	ندوة التحديات الحضارية والغزو الثقافى لدول الخليج العربى	سلطنة عمان	مكتب التربية لدول الخليج العربى	١٥/ ١٧ شعبان ١٤٠٥
٦	اجتماعات الدورة (٤٢) للجنة الدائمة للاعلام العربى	تونس /مقر الجامعة العربية	جامعة الدول العربية /الادارة العامة لشئون الاعلام	٢٩ ـ ١٩٨٥/٦/٣٠
٧	الدورة العادية (٢١) لمجلس وزراء الاعلام العربى	تونس /مقر الجامعة العربية	جامعة الدول العربية الأمانة العامة لشئون الاعلام	٢ ـ ١٩٨٥/٧/٣
٨	اجتماع الأمانة العامة للخليج العربى والجزيرة العربية	جامعة صنعاء	مركز البحوث اليمنى	١٩٨٥/٧/٥
٩	اجتماعات الدورة (٣٧) للمجلس التنفيذى للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم	تونس /مقر الجامعة العربية	المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم والأمانة العامة للمجلس التنفيذى والمؤتمر العام	١ ـ ١٩٨٥/٧/٩
١٠	الدورة التدريبية العربية فى طرق التدريس واستخدام التقنيات التربوية	قابس/تونس	الاتحاد العربى التقنى بالتعاون مع وزارة التعليم العالى والبحث العلمى التونسية	٢٨ / ٦ ـ ١٩٨٥/٧/١٢

بسم الله الرحمن الرحيم

« أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقدير »

صدق الله العظيم



المعقود في مدينة السلام بغداد في الفترة من :

٢-٥ شعبان ١٤٠٥هـ ٢٢-٢٥ نيسان ١٩٨٥م

عقد علماء المسلمين ومفكروهم في مدينة السلام بغداد مؤتمرهم الاسلامي الشعبي الثاني في المدة من ٢ ـ ٥ شعبان ١٤٠٥ هـ الموافق ٢٢ ـ ٢٥ نيسان (أبريل) ١٩٨٥ م شارك فيه اعضاء المؤتمر الاسلامي الشعبي الاول، وانضم اليهم نخبة فاضلة جديدة من كبار علماء المسلمين المتألقين في العلم والورع وتحمل المسؤولية التي فرضها الله عليهم ، فبلغ عدد المشاركين اكثر من ثلاثمائة شخصية دونت اسماؤهم في ملحق خاص ، وتدارسوا الحيثيات والوقائع الخاصة بالحرب العراقية الايرانية وما دار حولها في المؤتمر الاول ، والوقائع الجديدة التي تكشفت لهم طوال مدة السنتين الماضيتين : من قيام النظام الايراني بهجمات شرسة قصد منها احتلال العراق واذلال شعبه ، ولم يقف عند حد على الرغم من الخسائر الهائلة التي تكبدها ، بل انه اليوم يعد لهجوم كبير يتضح من تحشيده لقوات كبيرة في المناطق الحدودية استعدادا لهذا الهجوم ، مما يعد دليلاً على نياته المستمرة في احباط كل فرصة للسلام كان آخرها مسعى الامين العام للامم المتحدة منذ اسبوعين حينما زار البلدين ووجد كل استجابة من العراق ، وكُلَّ رفض من النظام الايراني للحل الشامل .

وقد حضر السيد الرئيس صدام حسين رئيس الجمهورية العراقية احدى جلسات المؤتمر والقى كلمة رحب فيها بالحاضرين وابدى موافقته من موقع المسؤولية الاولى على ما يقرره اعضاء المؤتمر في كل شأن يتعلق بهذه الحرب ، ايمانا منه بأن كل ما يقرره علماء الاسلام فيه الخير للاسلام والمسلمين وانه يلتزمه . وبهذا عبر سيادته مرة أخرى عن ثقته الكاملة بعلماء الامة وتفويضه اياهم، مما حمل المؤتمرين على تقديم أسمى ايات الشكر له والثناء عليه والدعاء الى الله سبحانه ان يحفظه ويرعاه .

وكان السيد رئيس الجمهورية قد اناب عنه السيد عزة ابراهيم نائب رئيس مجلس قيادة الثورة في افتتاح المؤتمر ، فالقى نيابة عن سيادته خطاباً اتخذه المؤتمر وثيقة من وثائق أعماله . وقد تضمن الخطاب الترحيب بالسادة العلماء المؤتمرين باسم العراق قيادة وشعباً وتمنى للمؤتمرين النجاح والتوفيق في ما يسعون اليه من خير المسلمين وعزمهم ، وشرح موقف العراق واستعداده الدائم لاحلال السلام والوئام وحقن الدماء وحسن الجوار بين الشعبين المسلمين الجارين العراق وايران .

واستمع المؤتمرون الى الآراء والدراسات والمناقشات المستفيضة طوال الايام الاربعة بقلوب واعية ونفوس صادقة مخلصة ، واوفوا جوانب هذا الموضوع بحثاً ودراسة وتفصيلا وانتخبوا لجنة لصياغة البيان الختامي والقرارات مؤلفة من السادة الاعضاء الآتية اسماؤهم :

١ ـ العلامة الشيخ الدكتور عبدالمنعم النمر ـ مصر .
٢ ـ العلامة الشيخ عبدالفتاح ابو غدة ـ سوريا .
٣ العلامة الشيخ اسعد مدني ـ الهند .
٤ ـ العلامة السيد محمد رضا المجتهد ـ باكستان .
٥ ـ العلامة الدكتور عبدالرزاق اسكندر ـ باكستان .
٦ ـ العلامة الدكتور السيد موسى الموسوي ـ امريكا .
٧ ـ العلامة السيد عدنان البكاء ـ العراق .
٨ ـ العلامة الشيخ محمد ابراهيم شقرة ـ الاردن .
٩ ـ العلامة الشيخ عمران رشادي ـ اندونيسيا .
١٠ ـ الاستاذ الدكتور بشار عواد معروف ـ العراق .

وفي ختام جلسات المؤتمر أعرب المؤتمرون عن جزيل شكرهم وعظيم تقديرهم للرعاية التي اولاها السيد الرئيس صدام حسين للمؤتمر وتفويضه المسبق لهم للمرة الثانية، وعن امتنانهم لكرم الضيافة وحسن التنظيم في ادارة اعمال المؤتمر ، راجين من الله

عز وجل الفرج القريب وزوال هذه المحنة عن الاسلام والمسلمين .

وقد احس المؤتمرون بفداحة الاخطار التى تسببها هذه الحرب الضروس للشعبين العراقى والايرانى خاصة ، وللشعوب الاسلامية عامة ، وتدارسوا ما بذل من جهود دولية عالمية واسلامية ، رسمية وشعبية، لاطفاء نيران هذه الحرب المستعرة منذ قرابة خمس سنوات، واستعرضوا :

أولا ـ الجهود الدولية العالمية :

أ ـ مجلس الأمن والجمعية العامة للأمم المتحدة .

أصدر مجلس الأمن والجمعية العامة للامم المتحدة مجموعة قرارات وتوصيات في اوقات متفاوتة دعت الى الاحتكام الى قواعد القانون الدولى وانهاء الحرب بالطرق السلمية وافق عليها العراق دون تحفظ ورفضها النظام الايرانى جملة وتفصيلا وهى :

١ ـ قرار مجلس الأمن المرقم (٤٧٩) في ٢٨ / أيلول سبتمبر / ١٩٨٠ وهو قرار حظى بموافقة العراق وقوبل بالرفض من جانب الحكومة الايرانية .

٢ ـ القرار (٥١٤) لسنة ١٩٨٢ دعا الى وقف اطلاق النار وانهاء جميع العمليات العسكرية وانسحاب القوات الى الحدود المعترف بها دولياً .

٣ ـ قرار ملجس الأمن المرقم (٥٢٢) في ٤ /تشرين الاول / أكتوبر / ١٩٨٢ وهو قرار يشجب اطالة وتصعيد الصراع بين البلدين ، ويدعو الى وقف الحرب . وقد سجل مجلس الأمن في هذا القرار ترحيبه باستعداد العراق للتعاون في تنفيذ القرار رقم (٥١٤) في ١٩٨٢ الانف الذكر .

٤ ـ قرار مجلس الأمن رقم (٥٤٠) في ٣١ / تشرين الاول / أكتوبر ١٩٨٣ وهو قرار يدعو الى الوقف الفورى لجميع العمليات العسكرية الموجهة ضد الأهداف المدنية بما في ذلك المدن والمناطق السكنية ويؤكد على حق حرية الملاحة والتجارة في المياه الدولية ويدعو جميع الدول الى احترام هذا الحق ويهيب بالبلدين المتحاربين ان يوقفا فوراً جميع الأعمال العدائية في منطقة الخليج بما في ذلك جميع الموانىء التى لها منفذ مباشر او غير مباشر الى البحر ، وان يحترما السلامة الاقليمية للدول الساحلية الاخرى .

٥ ـ قرار الجمعية العامة للامم المتحدة في ٢٢ / تشرين الاول / أكتوبر ١٩٨٢ وهو قرار أكد ضرورة التوصل الى وقف فورى لاطلاق النار وانسحاب القوات الى الحدود الدولية كخطوة أولى نحو تسوية النزاع بالوسائل السلمية وفقا لمبادىء العدل والقانون الدولى .

ب ـ مؤتمر قمة دول عدم الانحياز في نيودلهى سنة ١٩٨٣ :

وهو مؤتمر حضره العراق وايران ، واقترح العراق فيه تشكيل لجنة للتحكيم تتولى مهمة تحديد مسؤولية الطرف البادىء بالحرب وتحديد المسؤولية عن الاستمرار فيها طوال هذه المدة . ولكن ايران بادرت برفض هذا الاقتراح . هذا فضلا عن جهود دولية وشخصية عالمية كثيرة لم تلق من النظام الايرانى غير التعنت والرفض .

وقد قبل العراق كل هذه القرارات، ورفضها النظام الايرانى .

ثانيا ـ الجهود الاسلامية الرسمية :

أ ـ مؤتمر القمة الاسلامى في مكة والطائف، سنة ١٩٨١.

وقد دعا اليه ملوك ورؤساء الدول الاسلامية ، واستجابوا للدعوة باستثناء ايران التى قاطعته . وقد حضر الرئيس صدام حسين هذا المؤتمر وفوض الملوك والرؤساء المجتمعين اتخاذ ما يرونه من قرارات لانهاء هذه الحرب ، واعلن مسبقا التزامه بها ، كما اقترح سيادته تأليف لجنة لتقصى الحقائق حول من الذى بدأ الحرب .

وقد انتهى المؤتمر الى تأليف لجنة المساعى الحميدة من عدد من رؤساء الدول للاتصال بالطرفين المتنازعين لفض النزاع بما يحفظ حقوق الطرفين .

وقامت اللجنة بمهمتها لدى الطرفين ولكن مسعاها فشل بسبب رفض ايران الاستجابة لمبدأ الصلح واصرارها على الاستمرار في الحرب .

ب ـ مؤتمر القمة الاسلامى الرابع في الدار البيضاء بالمغرب سنة ١٩٨٤ :

وقد شارك فيه ملوك ورؤساء الدول الاسلامية وحضره العراق وقاطعته ايران، وقد سجل المؤتمر شكره للعراق على استجابته لجهود لجنة المساعى الحميدة . وقد اعاد العراق عرضه بتأليف لجنة تحكيم حيادية لتحديد مسؤولية البادىء بالحرب والمسؤول عن استمرارها .

جـ ـ مؤتمر وزراء خارجية الدول الاسلامية الخامس عشر في صنعاء سنة ١٩٨٤ :

وقد حضره وزراء خارجية الدول الاسلامية ، ومنها ايران والعراق وقد طالب المؤتمر الطرفين بالوقف الفورى للحرب . فاعلن العراق قبوله في حين اعلن وزير خارجية ايران علي أكبر ولايتي رفض ايران وقال : انه لاطريق الا الحرب .

ثالثا ـ الجهود الاسلامية الشعبية :

أ ـ مؤتمر كولومبو ـ ١٩٨٢ .

عقد مؤتمر العالم الاسلامى ندوة اسلامية في كولومبو في سريلانكا اتخذ المؤتمرون فيها قراراً بضرورة وقف الحرب واللجوء الى الصلح ، وتوجهت لجنة منهم برئاسة الدكتور معروف الدواليبى الى ايران واجتمعوا برئيسها علي خامنئى ثم اجتمعوا برئيس العراق السيد صدام حسين ، ولكن جهود اللجنة باءت بالفشل اخيراً بسبب تعنت ايران .

ب ـ المؤتمر الاسلامي الشعبي الأول ببغداد ١٩٨٣ :
وقد حضره نخبة كبيرة من علماء ومفكري العالم الاسلامي واتخذوا قرارات مؤصلة على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، والفوا من بينهم لجنة للسلام واصلاح ذات البين للاتصال بالبلدين باءت جهودها بالفشل بسبب رفض ايران استقبال اللجنة كما سيأتي بيانه لاحقا .

جـ ـ الندوة الاسلامية العالمية في اسلام اباد ـ الباكستان ١٩٨٤ :
عقدت هذه الندوة تحت شعار « السلام والتضامن لخدمة السلام » برعاية الرئيس الباكستاني الجنرال ضياء الحق، وقد شارك فيها العراق بوفد كبير بينما رفضت ايران المشاركة فيها . وقد دعت الندوة الى انهاء هذه الحرب وندد العلماء المشاركون فيها باستمرارها . وقد اعلن العراق عن استعداده للاستجابة لندائها. ورفضت ايران كل ذلك .

د ـ الندوة الاسلامية العالمية في دكار في السنغال ١٩٨٥ :
اقام اتحاد الجمعيات الاسلامية في السنغال ندوة عالمية حضرها عدد كبير من ممثلي الدول والهيئات الاسلامية الشعبية وشارك فيها العراق . وقد قدرت الندوة وشكرت للعراق موقفه واستجابته لكل نداءات الصلح ، ووجهت نداء الى النظام الايراني طالبته فيه وقف الحرب والدخول في المفاوضات والنزول على حكم كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فلم يحظ هذا النداء الاسلامي من النظام الايراني باستجابة او سماع .

ان هذا المؤتمر الاسلامي الشعبي الثاني هو امتداد للمؤتمر الاسلامي الشعبي الاول المعقود ببغداد سنة ١٩٨٣ والذي ناقش موضوع الحرب الايرانية العراقية على أساس من هدى كتاب الله في قوله تعالى : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله ، فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا ان الله يحب المقسطين » .

وحضر السيد الرئيس صدام حسين رئيس الجمهورية العراقية احدى جلسات المؤتمر واعلن موافقته المسبقة على كل قرار يتخذه المؤتمر بقوله :
« اقول مسبقا بأننا نوافق على كل قرار تتخذونه في هذا المؤتمر » ، مما يسر على المؤتمرين العمل وهيأ لهم مزيداً من الثقة بالنفس والشعور بالمسؤولية الاسلامية ، فاتخذوا في ختام اعمالهم ومناقشاتهم القرارات الاسلامية التالية :

١ ـ ان الحرب الدائرة رحاها بين ايران والعراق تغضب الله سبحانه وان استمرارها مخالف لشريعته القائمة على الاخوة الاسلامية الجامعة ، وهو يهدد بنزول اوخم العواقب على المسلمين جميعا .

٢ ـ قرر دعوة قيادتي ايران والعراق ، الى وقف القتال بينهما فوراً والعودة الى حدودهما الدولية ، وذلك امتثالاً لأوامر الله تعالى ورعاية لمصالح العباد في الوطنين، ونزولا على ارادة المسلمين الجماعية المتمثلة في ارادة علمائهم ومفكريهم المجتمعين في هذا المؤتمر .

٣ ـ قرر تأليف لجنة سلام واصلاح من اعضاء المؤتمر ، تجتمع بقيادتي البلدين وتطلب منهما الجلوس للتفاوض المباشر للوصول الى حل سريع عادل ومشرف . يحفظ حقوق الفريقين ويعيد الصفاء بينهما استناداً الى كتاب الله الحكيم، وسنة نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم، واستجابة لقول الله تعالى وخطابه للمؤمنين : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير واحسن تأويلا » .
ولتلك اللجنة الحق ان تستعين بغيرها من العلماء، ورجال الفكر ـ الخبراء ـ والغيارى المخلصين اذا اقتضى الأمر ذلك .

٤ ـ تتألف اللجنة من تسعة من اعضاء المؤتمر للاضطلاع بهذه المهمة الاسلامية الشريفة وهم اصحاب السماحة :
١ ـ الشيخ الدكتور معروف الدواليبي ـ سوريا ـ رئيساً .
٢ ـ العلامة محمد رضا المجتهد ـ باكستان ـ عضواً .
٣ ـ الشيخ صلاح ابو اسماعيل ـ مصر ـ عضواً .
٤ ـ الشيخ اسعد مدني ـ الهند ـ عضواً .
٥ ـ الشيخ عون الشريف قاسم ـ السودان ـ عضواً .
٦ ـ الشيخ عبدالحكيم ولي محمد ـ باكستان ـ عضواً .
٧ ـ الشيخ مصطفى امباكي ـ السنغال ـ عضواً .
٨ ـ مولانا محمد عبدالمنان ـ بنغلاديش ـ عضواً .
٩ ـ السيد عمران رشادي ـ اندونيسيا ـ عضواً .

٥ ـ يناشد المؤتمر القيادتين الايرانية والعراقية : التعاون مع اللجنة الموقرة والاستجابة لها، وتقديم ما تحتاج اليه من تسهيلات تساعدها في اداء مهمتها الاصلاحية .

٦ ـ اي فريق من الفريقين المتقاتلين ، لا يستجيب للجنة، ولا يخضع لارادة المسلمين الجماعية ويصر على الاستمرار في الحرب يتوجه عليه حكم الله الذي انزله في كتابه العظيم بقوله « فان بغت احداهما على الاخرى ، فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله » ويجب على المسلمين كافة مقاطعته سياسياً وثقافياً واقتصادياً .

٧ ـ قرر المؤتمر تأليف لجنة من اعضائه تتابع تنفيذ مقرراته وما تتوصل اليه لجنة السلام واصلاح ذات البين من نتائج .
وتفوض هذه اللجنة الدعوة لعقد مؤتمر اسلامي شعبي آخر في اي بلد تختاره ليتخذ القرارات اللازمة والاجراءات العملية تجاه من لايستجيب للجنة السلام واصلاح ذات البين وتضم هذه اللجنة اصحاب السماحة :

١ - الشيخ انعام الله خان - امين عام منظمة مؤتمر العالم الاسلامي .

٢ - الشيخ الدكتور عبدالله التركي - السعودية .

٣ - الشيخ عبدالفتاح ابو غدة - سوريا .

٤ - الشيخ مشهور حسن حمود - الاردن .

٥ - الشيخ مصطفى امباكي - السنغال .

٦ - السيد احسان المفتي - العراق - مقرراً .

وفي عشية اعلان قرارات المؤتمر اصدر مجلس قيادة الثورة العراقي قراراً بقبول جميع قرارات المؤتمر، واعلن عن استعداده لوقف اطلاق النار الفوري حال استجابة ايران لذلك .

وقد بذلت لجنة السلام واصلاح ذات البين جهودا محمودة فاجتمعت بالقائم بالاعمال الايراني في بغداد ثلاث مرات وسلمته كتاباً تعبر فيه عن رغبتها في السفر الى طهران والالتقاء بالقيادة الايرانية لعرض الصلح بروح اسلامية صادقة قصد التوصل الى ما يحقن الدماء ويعيد الصفاء، ولكن النظام الايراني اوصد جميع الابواب بوجه اللجنة ورفض الصلح جملة وتفصيلا، مما دعا اللجنة الى اصدار بيان مفصل قررت فيه بناء على قرار المؤتمر الاول ان ايران بهذه الصورة تعد باغية على العراق الذي جنح للسلم، وناشد البيان الامة الاسلامية شعوبها ودولها وأفرادها وجماعاتها ان تطبق حكم الاسلام على الجانب الباغي.

وكان من المفروض ان تدعو لجنة المتابعة المؤتمر الاسلامي الشعبي للانعقاد واتخاذ القرارات الاجرائية، ولكنها رأت ان تعطى النظام الايراني وقتا لمراجعة الذات، فلم ينفع ذلك حيث وجدت النظام الايراني مستمراً في اصراره على رفض الصلح، مما حدا بها الى دعوة هذا المؤتمر .

وتدارس العلماء المؤتمرون في هذا المؤتمر الثاني استناداً الى كل ما تقدم حكم الاسلام حيال هذه الحالة، فتبين لهم توافر عناصر الحكم الشرعي القطعي ومقتضياته ودواعيه وهو « ان القرآن الكريم ، يقرر وجوب تدخل المسلمين حكاماً وعلماء في فض الاقتتال فوراً، بين المتقاتلين، واقامة الصلح بينهما على اساس من العدل .

فاذا رفض طرف من الطرفين وقف القتال وقبول مبدأ الصلح بأية ذريعة توجه عليه الحكم الشرعي بقوله تعالى: « فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغي حتى تفيء إلى امر الله ».

وتطبيقاً لحكم الله الصريح في هذه الحالة القائمة اتخذ المؤتمر القرارات الآتية :

١ - يعد حكام ايران بغاة ظالمين مفسدين في الارض محاربين لله ولرسوله وللمسلمين جميعا لا للعراق وحده. ويطلق عليهم من الآن فصاعدا « الفئة الباغية ».

٢ - يتحمل حكام ايران البغاة المسؤولية الدينية والتاريخية والاخلاقية عن ازهاق الارواح وسفك الدماء وهدر الاموال وتدمير المشروعات الحضارية واضعاف القدرة الاسلامية التى كان ينبغى ان تدخر للنهوض بالبلاد ومنازلة اعداء الاسلام والتصدي للاطماع الصهيونية التى استشرى بلاؤها بسبب غياب هذه القدرة وتعطيلها .

٣ - يجب على المسلمين في هذه الحالة : حكومات وشعوبا وهيئات ونقابات وجمعيات ان يقفوا في وجه حكام ايران البغاة لاجبارهم على الخضوع لحكم الله .

٤ - على العلماء والمفكرين وقادة العمل الاسلامي تبليغ الامة بحكم الشريعة الاسلامية في حكام ايران البغاة وما ينبغى اتخاذه حيال الفئة الباغية من اجراءات عملية تؤدى الى اخماد بغيهم وظلمهم وعدوانهم، كل حسب طاقته وظروفه .

٥ - انطلاقا من ضرورة محاصرة الفئة الباغية ومنع شرورها ودرء خطرها ودفع مفاسدها عن الامة العربية الاسلامية وكسر شوكتها العدوانية يرى المؤتمر ضرورة مقاطعتها سياسياً واقتصادياً وعسكرياً وثقافياً وفضح منهجها الفكري الفاسد .

أ — الجانب السياسي :

١ - يطالب المؤتمر الحكومات الاسلامية باتخاذ مواقف واضحة وجريئة تدين الزمرة الباغية التى رفضت وترفض النزول على حكم الله والجنوح الى السلام، ومقاطعة النظام الايراني الباغي في المحافل الدولية والاسلامية والاقليمية، وفضح بغيه وعدوانه على المسلمين والاستمرار في شن العدوان على العراق .

٢ - مطالبة الحكومات الاسلامية بقطع علاقاتها الدبلوماسية مع نظام خميني الباغي الذى لم يقم وزنا لمبادىء الاسلام ولم يعترف بالاتفاقيات والمواثيق الدولية .

٣ - المطالبة بطرد نظام خميني الباغي من المنظمات الدولية والاسلامية والاقليمية او تعليق عضويته فيها والامتناع عن دعوة ممثلي النظام الايراني الى المؤتمرات والندوات التى تنظمها الدول والهيئات الاسلامية والاستعاضة عنهم بممثلي الشعوب الايرانية من زعماء ايران الاحرار .

٤ - فضح التعاون التسليحي والتنسيق العسكري بين النظامين الايراني والصهيوني وتوضيح الاخطار التى تهدد السلام الاسلامي والعالمي من جراء تعاون هذين النظامين العنصريين .

٥ - ادانة كل من يساعد النظام الايراني الباغي ويدعمه مادياً او عسكرياً او سياسياً من الدول والهيئات والافراد وعدّهم شركاء في البغي والعدوان على العراق خصوصاً والمسلمين عموماً .

ب — الجانب الاقتصادي والعسكري :

ان الغاية المتوخاة من المقاطعة الاقتصادية لنظام خميني تدمير آلته الحربية وكسر شوكته الظالمة واضعاف قدراته التى

تعينه على البغى والعدوان والاستمرار في القتال، وهدر الطاقات الايرانية والعراقية خاصة والاسلامية عامة، فقوة اقتصاده تؤدى به الى التكبر والجبروت ومخالفة المسلمين والاعتداء عليهم في حين تؤدى مقاطعته الاقتصادية الى ضعفه وحمله قسراً والجاءا على الرضوخ للسلام، فيطالب المؤتمر :

١ ـ الامتناع عن التعامل التجارى مع نظام خمينى ووقف كل انواع الاتجار معه .

٢ ـ مطالبة الحكومات الاسلامية وبقية حكومات العالم الداعية للأمن والسلام للامتناع عن شراء النفط الايرانى الذى يمثل اكبر معين لاستمرار البغى والعدوان بما يدره على هذا النظام العدوانى من مبالغ تؤدى الى تعزيز استمراره بالعدوان .

٣ ـ الضغط على الحكومات والشركات من أجل وقف تزويد نظام خمينى الدموى بالمعدات العسكرية والذخائر وقطع الغيار التى تعينه على تقوية آلة البغى والعدوان .

٤ ـ مناشدة الدول الاسلامية قطع كافة وسائل المواصلات مع نظام خمينى بما فيها البرق والهاتف والبريد .

جـ ـ الجانب الثقافى :

١ ـ حظر التعامل الثقافى مع نظام خمينى باشكاله كافة .

٢ ـ حظر دخول الكتب والنشرات المطبوعة في ايران الى البلدان الاسلامية والعمل على عدم ترويجها والاتجار بها .

٣ ـ الامتناع عن قبول الطلبة الايرانيين ممن يرشحهم نظام خمينى في الجامعات والمدارس الاسلامية والاستعاضة عنهم بالطلبة الذين يرشحهم الايرانيون الاحرار .

٤ ـ الامتناع عن دعوة ممثلى النظام الايرانى للاسهام في اى مشروع ثقافى اسلامى .

٥ ـ طرد ممثلى النظام الايرانى من جميع المنظمات الثقافة الدولية والاقليمية والاسلامية .

٦ ـ على علماء المسلمين وكتابهم ومفكريهم التنديد بالنظام الايرانى الباغى بكل الوسائل الممكنة وعلى كل مسلم غيور ان لايترك مجالا من مجالات نشر الثقافة من كتب ومجلات ونشريات وصحف ومنابر واذاعات الا واستخدمه لدفع هذا المنكر العظيم عن الأمة .

كما يتعين عليهم رصد أى مخالف لاجماع المسلمين بعد اتضاح الرؤية وظهور الحقائق الدامغة للرد عليه واسقاطه فكرياً ومقاطعته ثقافياً لما يمثله من خطر أكيد على الاسلام والمسلمين عند موالاته للفئة الباغية ودعم ظلمها وبغيها ومنهجها المعوج بغير حق ويعد في هؤلاء من اتصف بما يلى :

ـــ من ثبت استمراره بالانضمام الى جمعيات تأكد جنوحها للعمل لمصلحة نظام خمينى ومنطلقاته السياسية العدوانية او منطلقاته الفكرية الفاسدة .

ـــ من قام بالدعاية الواضحة والمعتمدة لمصلحة نظام خمينى عن طريق الكتابة او الخطب او الاحاديث الصحفية والاذاعية والتلفزيونية .

ـــ من قام بتبرع مادى او معنوى لنظام خمينى او المؤسسات المرتبطة به .

د ـــ فضح المنهج الفكرى لنظام خمينى الباغى :

لقد اصبح معلوماً عند كل مسلم غيور خطورة النهج الذى يسير عليه نظام خمينى في الفكر والسلوك والممارسة، والطعن في العقيدة الاسلامية والنيل من قادة الاسلام في كل مناسبة وقوله : ان الانبياء والرسل لم يحققوا العدالة ، ولم يستثن خاتم النبيين (صلى الله عليه وسلم) من ذلك بل ادعى في غير مناسبة انه هو الآخر لم يحقق شيئاً من ذلك وان الحقيقة القرآنية مفقودة وان القرآن في حجاب فضلا عن عشرات الامثلة التى خالف فيها هذا النظام ورموزه جوهر العقيدة الاسلامية بما دونوه من كتب وما تفوهوا به من تصرحيات في خطبهم ولقاءاتهم لذا اصبح من واجب المسلمين التصدى لهذا الامر الخطير بكل الوسائل المتاحة .

٦ ـ ويطالب المؤتمر الشعوب الايرانية الصابرة بتصعيد كفاحها ضد هذه الزمرة الشريرة ويناشد علماء ايران المتمسكين بالعروة الاسلامية تحمل واجبهم الشرعى بفضح نظام خمينى وتناقضه مع اصول العقيدة الاسلامية وخروجه الصريح على تعاليم الاسلام وتوعية الجماهير المسلمة في ايران بالاخطار الجسيمة التى تهدد بلادهم والعالم الاسلامى جراء استمرار الزمرة الخمينية الباغية في التسلط على مقدراتهم وبذل كل جهد لاسقاطها والتخلص من شرورها ومفاسدها ، فهذه القرارات موجهة لقتال نظام خمينى الباغى، والمقاطعة منصبة على تدمير آلته العدوانية التى جلبت لايران الهلاك والدمار ، وان شعوب ايران المضطهدة تحتل منزلة سامية في ضمائر المسلمين في العراق وفي جميع العالم الاسلامى .

٧ ـ يدين المؤتمر بشدة جرائم النظام الايرانى الباغى النكراء بقتل أسرى الحرب العراقيين الذين حرم الله قتلهم والتمثيل بهم ، بل قيامه أخيراً في العاشر من تشرين الاول/أكتوبر ١٩٨٤ باقتراف ابشع جريمة حينما قتل الاسرى العزل على مرأى ومسمع من ممثلى منظمة الصليب الاحمر الدولى ، مما اثار سخط المسلمين وادانة المجتمع الدولى والمنظمات الاسلامية والدولية .

ويطالب المؤتمر بايجاد حل عاجل وفورى لمأساة الاسرى يتم باجراء تبادل شامل لهم .

٨ ـ يقرر المؤتمر ان وقوف العراق بوجه البغى الايرانى العدوانى يعد السد المنيع الذى يحمى العرب والمسلمين من اكبر خطر يواجههم .

وعلى هذا يطالب المؤتمر جميع الدول العربية الالتزام بتطبيق

ميثاق الدفاع العربي المشترك لصد هذا العدوان عن البلاد والعباد .

كما يطالب منظمة المؤتمر الاسلامي بتطبيق دستور الاسلام وحكمه على الباغي والتنديد به لكشف بغيه وعدوانه .

٩ ـ قرر المؤتمر اعتبار اليوم الخامس والعشرين من نيسان (ابريل) من كل عام ـ وهو يوم صدور هذه القرارات « يوم العراق » يعبر فيه العالم الاسلامي عن تضامنه مع العراق المسلم ومساندته له وبيان دوره المشرف في الدفاع عن عقيدة الاسلام وتاريخه وتراثه وحضارته، وفضح نظام البغي في ايران وكشف اباطيله ومفاسده وارتباطاته باعداء الاسلام .

١٠ ـ قرر المؤتمر تشكيل لجنة متابعة تتخذ من بغداد مقراً لها تحدد الخطط والبرامج والوسائل العملية الكفيلة بتنفيذ مقررات المؤتمر وتوصياته وتتابع نشاط وفعاليات وجهود اعضاء المؤتمر على ان تجتمع مرة كل ثلاثة اشهر في الاقل وبدعوة من سكرتيرها العام .

١١ ـ تتألف لجنة المتابعة من السادة العلماء :

١ ـ الدكتور الشيخ معروف الدواليبي ـ سوريا ـ رئيساً .

٢ ـ الاستاذ الدكتور بشار عواد معروف ـ العراق ـ سكرتيراً عاماً .

٣ ـ الشيخ الدكتور عبدالمنعم النمر ـ مصر ـ عضواً .

٤ ـ الشيخ أسعد مدني ـ الهند ـ عضواً .

٥ ـ السيد محمد رضا المجتهد ـ باكستان ـ عضواً .

٦ ـ الشيخ محمد عبدالقادر أزاد ـ باكستان ـ عضواً .

٧ ـ الشيخ محمد ناصر العبودي ـ السعودية ـ عضواً .

٨ ـ الاستاذ الدكتور السيد موسى الموسوي ـ امريكا ـ عضواً .

٩ ـ الشيخ عبدالعزيز سي الابن ـ السنغال ـ عضواً .

١٠ ـ الشيخ مصطفى امباكي ـ السنغال ـ عضواً .

١١ ـ الدكتور انعام الله خان ـ باكستان ـ عضواً .

١٢ ـ الشيخ عبدالفتاح ابو غدة ـ سوريا ـ عضواً .

١٣ ـ الشيخ عبدالباقي جمو ـ الاردن ـ عضواً .

١٤ ـ الشيخ عبدالرزاق عبدالرحمن ـ نيجيريا ـ عضواً .

١٥ ـ مولانا محمد عبدالمنان ـ بنغلاديش ـ عضواً .

١٦ ـ الدكتور سيد عزيز باشا ـ المملكة المتحدة ـ عضواً .

١٧ ـ السيد أحمد بزيع الياسين ـ الكويت ـ عضواً .

١٨ ـ السيد شاه احمد نوراني ـ باكستان ـ عضواً .

وختاماً يقرر المؤتمر ان الالتزام بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم والمثل الاسلامية العليا والاقتداء بسلف الامة الصالح هو مدعاة النصر والتوفيق والامداد من الله سبحانه ودفع البلاء عن البلاد والعباد ، وهو الذى تظهر أثاره في استبسال ابناء العراق في الدفاع عن الحق والارض والقيم النبيلة التي توراثها الاحفاد عن الاجداد ، فتمكنوا من صد كل عدوان قصدوا به في الماضي البعيد والقريب والحاضر .

« ولينصرنَّ الله من ينصره إنَّ الله لقوى عزيز » ..

General/Baghdad 25th, Sept.-2nd Oct., 1985.

4. Liberated Africa on the 100th Anniversary of Berlin Conference on the Division of Africa (1884) held by African Ministries of Information, Ethiopia, 7, Nov. 1985.
5. Seminar on Arabian Gulf seaports held Sea Sciences Centre, university of Basrah, 14th-16th, January 1986.
6 Seminar on Arab Unity; Experiments and Expectations held by the Centre of Unity Researches in collaboration with the University of Sana'a 17th-12th Feb. 1986.

Dr. Masoud Dhahir, Lebanon
Dr. Najah Al-Qabsi, Libya
Dr. Raouf Abbas, Egypt
Dr. Muhammed Mezni, Morocco
Dr. Sayid Mustafa Salim, Arab Repub. of Yemen
Dr. Saleh Ramadan, Democratic Repub. of Yemen
Amir M. Al-Jahiri, Oman
Dr. Mustafa Aqil, Qatar
Muhammed al-Hauash, Mauritania

THE ARAB HISTORIAN is a quarterly journal devoted to the study of Arab and International history, culture and Heritage.

THE ARAB HISTORIAN is the historical and national voice of the Arab Cause. It invites papers:

— of academic nature
— within the general line of the objectives of the Union of Arab Historians
— not exceeding 10,000 words
— not published or accepted for publication elsewhere with written confirmation to the editor provided by the author
— on any historical subject in Arabic or English
— the title should be printed on a separate paper (short titles are preferred) including the name of the author or collaborating authors with their addresses.
— the paper should be printed on one side of the sheet and presented in two copies, along with the author's name and title of the paper.
— papers presented to conferences or seminars or as part of a dissertation should be confirmed
— for technical matters footnotes should be unified
— papers will be evaluated by two members of a board of advisors, returned to their authors for reconsideration, if any, within two weeks.

Papers in THE ARAB HISTORIAN are arranged according to technical necessities. They will not be returned to their authors in case of non-publication.

Annual Subscription Rates

Governmental and semi-governmental departments inside Iraq (ID 50), outside Iraq ($150)

Historians inside Iraq (ID 20) outside Iraq ($60) Students of history inside Iraq (ID 10) outside Iraq ($30)

Editorial correspondence and manuscripts for consideration for publication should be sent to: Dr. M.J.H. Al-Mashhadani, Union of Arab Historians, P.O. Box 4080, Baghdad, Iraq.

2. The Conferences that the Union has attended and/or will attend.

The Conferences and Seminars that the Union has attended during the academic year 1984-1985.

1. "Oil Wealth and State Formation in the Contemporary Arab-World" held by Rulgers University New Jersey, U.S.A., August 1984.
2. Seminar on the European-Arab Dialogue. Held by Convad Edinower Institute for International Affairs, Melano, Italy, 25th, Nov.-1st Dec., 1984.
3. The Third Co-ordination Meeting between the Secretariat General of the Arab League and the Directorate General of Information Affairs and Arab Unions and Organisation held by the Directorate General of Information/Arab League Headquarters. 9-10 Feb. 1985.
4. The Third Conference on Arab-Turkish Relations held at Al-Yermuk University and organised by Al-Yermuk University, Jordan University and Muta University 20-25. April, 1985.
5. Seminar on the Civilization Challenges and Cultural Invasion of the Arabian Gulf states held by the Educational Bureau of the Arabian Gulf States. Oman 15-17 Shaban, 1405 Hijra.
6. Meeting of the 43rd Session of the Permanent Committee of Arab-Information held by the Directorate General of Information/Arab League Headquarters, Tunis 29th-30 June, 1985.
7. The Ordinary 21st Session of the Council of the Arab Ministers of Information held by the Secretariat General of Information Affairs/Arab League Headquarters, Tunis 2-3rd June, 1985.
8. Meeting of the Secretariat General of the Arabian Gulf and Arab Peninsula held by Yemeni Centre of Research. 5th, July, 1985.
9. Meetings of the 37th Session of the Executive Council of ELECSO held by ELECSO, Arab League Headquarters, Tunis 1-9th, July, 1985.
10. Arab-Service Training Course in Methodology and Educational Technology held by Arab Union of Technology in Tunis.

Collaboration with Tunisian Ministry of Higher Education and Scientific Research, Tunis, 28th, June-12th July, 1985.

1. Seminar on October Revolution & the World held by Soviet Institute for Scientific Research/Federal Republic of Germany, August 1985.
2. The 16th Meeting of the Conference of International Historical sciences held by International organization for Historical Sciences 25th August — 1st Sept. 1985.
3. Symposium on the Administration and Development of the Institute of Technological Education held by the Arab Institute for Technological Education/Secretarial

— "Amru Ben Al-As"
Dr. Badri M. Fahd, Baghdad University....P
— "Contacts With Byzantine Authorities in Syria During the Rashidun Period in Arab Sources" Dr. Jasim Sagban Ali, Basra University.....P
— "The Movement of Abdul Rahman Ben Al-Ash'ath Against the Umayyad Caliphate"
Dr. Muhammed J.H. Al-Mashhadani, Mustansiriya University.....P
— "Al-Fadhl Ben Al-Rabie, the Hajib and Minister"
Dr. Fadhila Al-Shami, Baghdad University.....P
— "The Baghdadi Learned Woman Shuhra Al-Ibri and Her Tellers in the Biographies of Women"
Dr. Hasan I. Al-Hakim, Al-Mustansiriya University......P
— "Some Characteristics of the Biography of Lady Shaghab"
Dr. Maliha Rahmatullah, Baghdad University......P
— "The Tribe of Jarat and Its Political Role in the Pre-Islamic History of the Yemen"
Dr. Munder A. Al-Bakr, Basra University......P.
— "The Question of the Succession Between the Abdication of Mu'awiya Ben Yazid and the Ascendance of Marwan Ben Al-Hakam to the Caliphate
Dr. Khalil Hussein, Mosul University......P.
— "Al-Nasir Daoud Al-Ayoubi and His Poetry
Dr. Musa B. Al-Alili, Ministry of Religious Endowments, Iraq.....P

Papers on Ancient History
— "On Dimobin and His Speeches"
Dr. Sami S. Al-Ahmed, Baghdad University.....P
— "A Votive Scripture of a Female Bearing Astronomical Signs"
Abdul-Jalil A. Amru, Jordanian University.....P

Book Reviews
— "History of Islamic States and Dictionary of Ruling Families"
Reviewed by Dr. Shakir Mahmoud Abdul Mun'im

— "Iraqi Maritime Trade with Indonesia Until the Seventh Century of the Hijra"
Reviewed by Dr. Muhammed J.H. Al-Mashhadari

— "Arab Independent States of the Arab Gulf"
Reviewed by Kadhim Sad-e-Din

— "Rusum-e--Qudhat by Abi Nasr Ahmed ben Muhammed Al-Samarqandi"
Reviewed by Usama N. Al-Naqshabandi

— The "Asabiya and the State: Aspects of Ibn Khaldun's Theory of Islamic History"
Reviewed by Muhammed M. Al-Kubeisi

Review of Theses
— "A Comparative Study of the War Crimes of Collaborating with the Enemy"
Reviewed by Dr. Falah Abdul-Hussein
— "The Architecture and Planning of Fortresses in Northern Iraq (1035-1289 H./1625-1872 A.D.)"
Reviewed by Dr. I'timad Y. A. Al-qasiri
— "The Region of Faris From the Arab Conquest to 218 H."
Reviewed by Dr. Muhammed J.H. Al-Mashhadani
— "Selections From the History of Ibn Al-Jazri"
Reviewed by Usama N. Al-Naqshabandi
— "The Indian Conference Party 1919-1930, A Historical Study"
Reviewed by Kifah K. Al-Khazaali.

THE ARAB HISTORIAN

"Al-Muarrekh Al-Arabi"

Journal of the union of Arab Historians
No. 28 1986

THE ARAB HISTORIAN

CONSULTANT COMMITTEE FOR HISTORICAL PUBLICATIONS:

SOME OF THE UNION'S ACTIVITIES CONCERNING CONFERENCES & SYMPOSIUMS STARTING FROM 1ST SEPT. 1984

A) The Conferences that the Union has organized during the current academic year:

1. The Symposium on the historical Originality of Iraqi Al-Maqam. 1-9 Oct. 1984.
2. "The Martyr in the Islamic Arab History" 1st Dec., 1984.
3. "Manuscripts and the Tradition" 22nd Dec. 1984.
4. The Status of the Prisoner of War in the Islamic Arab History." 8th Jan. 1985.
5. "The Super Powers and the Palestinian Question." 18th Feb. 1985.
6. "Al-Mustansiriya as a school and as a university," in collaboration with Al-Mustansiriya University 4th May, 1985.
7. "May 1941 Movement." — 2nd May, 1985.
8. "The Development of the National Arab Ideology." In collaboration with the Centre of Arab Unity Studies, Iraqi Scientific Academy and the Centre of Arab Studies and Researches." 8-10 May, 1985.
9. The First Scientific Symposium for Humanistic Journals Editors" 27th June 1985.

B) The Conferences and Symposiums that the Union intends to organize till the end of 1985.

1. "The Hero in History" — in collaboration with the Ministry of Culture & Information — 10-11 Nov. 1985.
2. "The Legend — Reality and Imagination In Mesopotamia History."
3. Islamic Arab Civilization."
4. "Islam Nationalization
5. Arabists & Arab History
6. "The Shuubi Challenge to the Arab Nation" — in collaboration with Teacher's Union.
7. Symposium on the Seaports of the Arabian Gulf" — in collaboration with the Centre of Sea Sciences of the Arabian Gulf. University of Basrah. 14-16, Dec. 1985.

THE ARAB HISTORIAN

"Al-Muarrekh Al-Arabi"

Journal of the Union of Arab Historians
No. 28 1986

Contents

PUBLICATIONS OF THE UNION OF ARAB HISTORIANS

(A) The Union of Arab Historians has issued the following works:

1. "Boussorah (Al-Basrah) Diaries."
   Dr. M.A. Al-Najar & A.M. Ameen
2. "A.J. Toynbee: A Presentation Volume." — in English & Arabic.
   Dr. H. Al-Takriti & Dr. A. Susa
3. "The Zionist Movement in Tunis in the Period 1911-1927."
   Mr. Al-Taimomy — Beirut 1979.
4. "The Start of the Abadhian Movement"
   Dr. A. Khlaifat — AMMAN 1978.
5. "The Aspects of the Scientific Renaissance in Iraq in the Fourth & Fifth Centuries of Al-Hijra."
   Dr. M.H. Al-Zubaidy — Beirut 1980.
6. "Jawahir Al-Mulook Fi Madayih Al-Mulook" A Collection written by the Poet Hilal Ibn Sa'eed Ibn Araba Al-Omani
   Dr. D. Saloom — Beirut 1979.
7. "The Arab Tribes in the East during the Al-Amawi Reign."
   Dr. N. Hasan — Beirut 1980.
8. "Arab Civilization as a Substitute for Greek Civilization."
   Dr. S.S. Al-Ahmed. (Beirut 1980).
9. "The Prince Maslama Ibn Abdul Malik Ibn Marwan"
   Dr. A.M. Al-Adhamy. (Beirut 1980).
10. "Introduction to the Study of the Resources of Omani History."
    Dr. Faruk A. Fawzy. (Baghdad 1979).
11. "Introduction to the Jazre Languages"
    Dr. S.S. Al-Ahmed (Baghdad (1981).
12. "Studies in the Convention of Arab Nation Frontiers 1847-1980.
    Dr. M.A. Al Najar (Beirut 1981).
13. "Palestine: Its History and Civilization."
    Dr. A.A. Garbia (Beirut (1981).
14. "The Book of AlMasudy as a Historian"
    Mr. A. Al-Azawi (Baghdad 1983).
15. "Introduction to Mysticism and its Reality"
    Alimam Abdul Rahman Al-Salamy
    verified by
    Dr. H. Ameen.
16. "Index to the Arab Historian Journal"
    Dr. M.J.H. Al-Mesh hedani (Baghdad 1984).

(B) The Union's Journal

The Union has issued a scientific journal concerned with history entitled:
"The Arab Historian"

It contains many original and scientific works of the Arab historians and researchers. The Union also intends to develop the journal and make it more convenient for advanced studies and scientific trends. Twenty five volumes have already been issued, 26, 27, and 28 are forthcoming and still in print.

THE UNION'S ACTIVITIES

The Union has formed the following committees:

1. The Higher Committee for writing up the History of Arab Nation.

a. Dr. M.A. Al-Bukheet. Representing the project of the writing up of Al-Sham History
   Jordan.
b. Dr. A.A. Al-Timeemi. Representing the project of the writing up of the Ottoman History
   Tunis
c. Dr. A.A. Al-Ansary. Representing the project of the writing up of the Arab Peninsula History.
   Saudi Arabia.
d. Dr. N. Aaqil. Representative of the Project of the writing up of Arab History
   Syria.
e. Dr. S.S. Al-Badri. Representing the project of writing up the History of the nation.
   Kuwait.
f. Dr. S.A. Al-Ali. Representing the Committee of writing up the History of the Nation.
   Iraq.
g. Dr. M.T. Al-Jarrary. Representing the conference for writing up the Arab Nation History.
   Libya.

2. The Committee for Supporting Historical Publications:

1. Dr. F. Abdul Wahid. Chairman
2. Dr. H.F. Za'ain
3. Dr. R.H. Al-Khatab
4. Dr. S.T. Al-Sheikhly
5. Dr. F.O. Fawzi
6. Dr. H. Al-Tikriti.
7. Dr. Y. Al-Shahiri
8. Dr. M.J.H. Al-Mesh Hedani (Secretary)





شركة ابوظبي للطباعة والنشر

تصميم احلام سعيد العبيدي